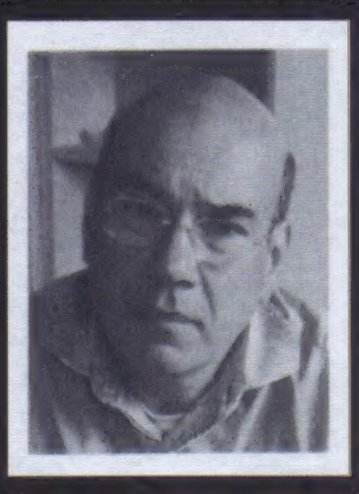
أرض الميعاد

ثلاثة عشر كتابا غيرت أمريكا

جاي باريني



الدار الدولية للاستثمارات الثقافية
القاهرة . مصر



جاي باريني

أرض الميعاد

جاي باريني هو شاعر وقصصي ويقوم بالتدريس فى كلية ميدل بيري فى فيرومونت ومن قصصه، المحب الصبي وعبور بنيامين والمحطة الأخيرة (والتى أصبحت فليما سينمائيا) والمجلد الخامس فى الشعر كان فن الاقتطاع وأشعار جديدة ومختارة (2005)وقد كتب السيرة الذاتية لجون ستينيك وروبرت فرودست وويليام فولكنير بالإضافة إلى فن التدريس (2005) ولماذا الشعر يعتبر هاما (2008) وتظهر مقالاته ووجهة نظره دائما فى مقالات يومية (يوميات) شاملة تأزم التعليم العالي والوحي.

مؤلفات جاي باريني

- الغناء فى وقته (أشعار)
- تيودور روثيك (الرومانسية الأمريكية) (نقد)
- الحب البعيد (قصة)
- مدينة أنثراسيت
- دعوة للشعر (نص كتاب)
- حياة المدينة (أشعار)
- المحطة الأخيرة (قصة)
- جزء من الأسهم (قصة)
- جون استينبك (السيرة الذاتية)
- عبور بنيامين (قصة)
- بعض الملائكة الضرورية (مقالات حول الكتابة والسياسة)
- بيت الأيام (شعر)
- روبرت فورست (السيرة الذاتية)
- العاشق المبتدئ (قصة)
- وقت منقطع النظير (حياة وليام فولكنير)
- فن التدريس
- فن الطرح (قصائد جديدة ومختارة)
- لماذا الشعر شيء له أهمية (نقد)

Promised Land

THIRTEEN BOOKS THAT CHANGED AMERICA

JAY PARINI

هذا الكتاب

يخبرنا باريني وهو الكاتب الذى يتميز بالوضوح وبانتقاء ألفاظه بأننا نتمتع بروح الاطلاع بشكل يفوق تصورنا لدرجة أن ثقافتنا أصبحت فى حقيقة الأمر جزء من الكيان الأدبي الذى تبلور بداخلنا واندمج مع شخصيتنا ووصل إلى الحد الذى لا نستطيع رؤيته.

«ذا سياتل تايمز»

«إن أى شخص لديه تساؤل عما إذا كانت الكتب يمكن أن تخلق اختلافا سوف يذهل ويتشجع عند قراءة أرض الميعاد، إن قراءة جاي بارينى الثاقبة من الكتب الثلاثة عشر التى غيرت بلدنا إلى الأبد ساعدت على خلق الأمة التى نعيش فيها اليوم».

«فرانسين بروز»

يسعى كتاب بارينى لاستعادة ثقتنا فى الشخصية الأمريكية.. إنه يذكرنا بأننا أيضا جزء من تركة طويلة من المفكرين و نحن سلالة من الثوريين الذين يتحدون باستمرار كل يوم الوضع الراهن وذلك لمواصلة سعينا لأفكارنا وتحويلها إلى واقع وطني.

«الباحث عن فيلادلفيا»

فرحة. ليست ببعيدة.. وهدية خاصة لتحديد مسارات مشتركة بطريقة ما فى الأعمال المختلفة التى تجعل من هذه المجموعة من الكتب متعة للتفكير.

«شيكاغو صن - التايمز»

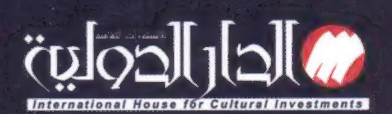
«هذه النوعية من الكتب تثير روح التأمل حول ما قيل عنا بصفتنا أمريكان وهى نوع من القضايا التى تحثنا بشكل ضمني أن نسأل هذا السؤال: ما هى الكتب التى ساعدتنا فى تشكيل حياتنا واللحظات التاريخية فى مدينتنا»؟

«اتحاد سان د يجو - تريبان»

«رواية رائعة جدا»

«شيكاغو تريبان»


ISBN 978-977-282-423-4
6 222006 697969



International House for Cultural Investments Cairo. Egypt

أرض الميعاد

ثلاثة عشر كتاباً غيرت أمريكا

تأليف

جاي باريـني

ترجمة

كمال سيد محمد

الدار الدولية للاستثمارات الثقافية

القاهرة - مصر

الدار الدولية
للاستثمارات الثقافية ش.م.م

Promised Land | أرض الميعاد
Jay parini | جاي باريني

رقم الإيداع: 2011/5708
ISBN 978-977-282-423-4

الطبعة الأولى 2011

الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ش.م.م
122 عثمان بن عفان - الكلية الحربية - مصر الجديدة - القاهرة - مصر
ص.ب: 5599 هليوبوليس غرب/ القاهرة - مصر
تليفون: 26391113 - 26391112 (00202) فاكس: 26372122 (00202)
بريد إلكتروني: info@ihciegypt.com
الموقع الإلكتروني: www.ihciegypt.com

International House for Cultural Investment S.A.E
122 Osman Ebn Affan st., AlKolia AlHarbia - Masr Al-Gedida
P.O.Box: 5599 Heliopolis West, Cairo, Egypt
E-mail: info@ihciegypt.com
Website: www.ihciegypt.com

المحتويات

المقدمــــة

في إحدى أمسيات الصيف الماضية في بالما نايت بشمال لندن حضرت محاضرة يلقيها اللورد ميلفين براج، الصحفي البريطاني ذائع الصيت. كانت المحاضرة بعنوان اثنا عشر كتابًا غيرت العالم، وذلك استنادًا إلى كتاب حديث كان قد صدر له. لقد قام باختيار اثنى عشر كتابًا إنجليزيًا ومنها بالطبع كتاب مبادئ الرياضيات لنيوتن (1687) و ثروة الأمم لآدم سميث (1776)، و أصل الأنواع لدارون (1895). وخرجت من المحاضرة والغيظ يتملكني وبدأت أفكر كيف استطاع اثنا عشر كتابًا تغيير أمريكا في عدة جوانب هامة، مدونًا عناوينها باختصار على هامش البرنامج. اتسعت قائمة الكتب إلى حد كبير عندما قررت أن أكتب دراسة مماثلة تستند إلى النصوص الأمريكية الكبرى. ووجدت نفسي وقد تسلط عَلَيَّ التفكير حول خياراتي وظللت مستيقظًا لمدة أسابيع أضيف أعمالًا وأستبعد أخرى.

لم يكن القصد من هذا الإطلاق وضع قائمة من «أعظم» الكتب الأمريكية مثل كتاب خطاب سكارلين، وجاتسبي العظيم، أو التربية لهنري آدم. وعلى الرغم من أنني أحب الشعر، فقد كنت أعلم أنه حتى والت وايتمان أو روبرت فروست، ناهيك عن والاس ستيفنز أو إليزابيث بيشوب «لم يغيروا» أمريكا على نحو ملحوظ من أي جانب هام (باستثناء تلك المجموعة الصغيرة التي تقرأ فعلًا الشعر). ظللت أبحث عن الكتب التي لعبت دورًا في تشكيل فكرة الأمة عن نفسها أو التي دعمت أو حددت اتجاهًا رئيسياً. كنت مثاليًا أبحث عن كتب حولت الوعي بشكل ما عامة. على نحو بالغ المهارة أو فتحت إمكانات جديدة يجد بها الأمريكيون طرقًا لكي يتمتعون بحياتهم. وقد تبادر إلى الذهن ما يزيد عن مائة كتاب (انْظر إلى الملحق الخاص بي، حيث أوردت قائمة من الكتب والتعليق على ما يزيد عن مائة كتاب غيرت أمريكا) إن هذه القائمة يمكن بسهولة أن تتسع، إذا أدرجت فيها الأعمال المهمة من التاريخ والسير، أو الأعمال التي أثرت في مجال أكاديمي معين بطرق مهمة (ففي

مجال العلوم، عادة ما نسمع الكثير عن الأبحاث التى غيرت المجال، بدلًا من الكتب فى حد ذاتها).

في النهاية، استقر بى الرأي على مجموعة من الكتب منها، من مزرعة بليموث، والأوراق الفيدرالية، والسيرة الذاتية لبنيامين فرانكلين، ويوميات لويس وكلارك، ووالدن، وكوخ العم توم، ومغامرات هاكلبرى فن، وأرواح القوم السود، و أرض الميعاد، كيف تكتسب الأصدقاء وتؤثر على الناس و كتاب الفطرة السليمة لرعاية الرضيع والطفل، وعلى الطريق، والغموض الأنثوي. ومن هذه الكتب، يمكن أن نقول أن كتاب والدن، مغامرات هاكلبري فن، وعلى الطريق، يمكن أن تعتبر من الكتب العظيمة فى حد ذاتها. لكن كل منها غيرَّ أمريكا بطريقة واضحة وعميقة.

وأقصد أيضًا بالكتب التى غيرت أمريكا، الأعمال التى ساعدت على خلق الخطوط الفكرية والعاطفية لهذا البلد . وقد لعب كل عمل دورًا محوريًا فى تطوير منظومة القيم المعقدة التى ازدهرت حتى يومنا هذا. وقمت بتوسيع قائمتي من الأعمال قيد المناقشة فى أرض الميعاد من الاثنى عشر إلى الثلاثة عشر، مفضلًا رقمًا فرديًا، والثلاثة عشرة هى ما يسمى دستة الفران، حيث إنها تصور الطبيعة غير المنتظمة للمشروع والتى يمكن أن تعكس على نحو بعيد صدى عدد من المستعمرات الأصلية. ربما كان من السهل مناقشة خمسة عشر أو عشرين كتابًا، ولكن على المرء أن يتوقف فى مكان ما، إنني بذلك أردت أن أعكس بعض العناصر الرئيسية فى الفكر أو الثقافة الأمريكية بدون أن يبدو عملى دائرة معارف.

وسرعان ما أدركت أن كل من هذه الكتُب قيد الاستعراض لم يكن يعرض عملًا منفردًا بل مناخًا كاملًا من الآراء (باقتباس جملة قالها دابليو اتش اودن)، وأحاطت عشرات من الكتب الإضافية بالكتاب قيد الرصد البعض منها استبق العمل والبعض الآخر علق عليه، أو دحضه أو قاومه وقد شكل الكتاب نفسه فى كثير من الأحيان رد فعل قوي على الاتجاهات القائمة بالفعل، أو قدم طرقًا للتملص من تقليد ما أو نسخه. إن الأصالة نادرة دائمًا، ويساء فهمها على أنها أشياء أخرى، مثل غرابة الأطوار أو الارتباك. وكثيرًا ما تسم معالجة جديدة

لأفكار أو مواضيع سائرة فى طريقها من قبل. وفى اختيار عمل بمفرده للمناقشة، تفهمت إنني انغمست فى مجال التحقيق، والتقاليد، وأمام مجموعة كبيرة من الأفكار المهمة. وكان هذا وعيداً لكنه كان أيضًا شيئًا مبهجاً. كان على أيضًا أن أحفر حول العمل قيد الفحص، وأمهد التربة لكى ينمو ويكبر فيها، أسحب جذوره وأدرسها بعناية. وكان على أن أتفحص المجال لمعرفة كيف تفتحت البذور وترسخت وازدهرت.

وفى مناقشة هذه الكتب الثلاثة عشر، كنت أرجع كثيرًا إلى الأعمال والأفكار التى تحوم حولها. فعلى سبيل المثال، فإنه كتاب والدن، هو الذى يخلق ويتقاسم التقاليد الواسعة للكتابه والمذكرات. فعلى سبيل المثال، فإنه اعتمادًا على كتاب إيمرسون "الطبيعة"، باعتباره عملًا سابقًا بأسلوب أكثر تجريدًا، استند والدن فى كتابه بطريقة مبهرة، لأنه شكل نوعًا من القالب الفكرى له. وفى مناقشة والدن، تحدثت أيضًا عن فلسفة التسامى والتفكير المجرد لإدراك الحقائق فى المذهب الرومانسى (خاصة الألمانى). أننى أنظر إلى الكتابة عن الطبيعة الأمريكية عمومًا، محددًا أيضًا دور ثورو فى هذا التقليد، متطلعًا إلى الأمام وناظرًا إلى الوراء. كذلك فإن كتاب مهاجر عند خليج تنكر للمفكر الرائع لاني ديلارد (1974) مثل دوامة أثارها قذف حجر فى بركة والدن.

وهناك جانب رئيسى فى أرض الميعاد، كما يوحي العنوان نفسه، يكمن فى التنقيب فى الأساطير الوطنية. إذ يعتبر كتاب من مزرعة بلايموث، على سبيل المثال، كتابًا يصنع أسطورة. ففيه جزء من التاريخ وجزء من المذكرات، وقام بكتابته ويليام برادفورد من مستعمرة بليموث. فقد وصل هو ورفاقه المهاجرون إلى ماي فلاور فى عام 1620، وعاشوا السنة الأولى حياة صعبة بمساعدة من الهنود الأصليين. إذ قدمت قبيلة بوكانوكيت التى كان يقودها زعيم متعاطف يسمى ماساسوت، مهارات هامة لازمة للبقاء على قيد الحياة، فضلًا عن الكثير من الإمدادات اللازمة إلى المستوطنين البيض. وقد عقد كل من ماساسوت وبرادفورد (الذي أصبح حاكمًا للمستعمرة) هدنة استمرت لنصف قرن من الزمان حتى اندلعت الفوضى مع نشوب حرب الملك فيليب. ولولا هذا العمل الرئيسي من قبل برادفورد، لضاعت القصة

الكاملة لعبور ماي فلاور، وتأسيس رأس جسر ساحلى استعمارى و دور المُحسن الذى قام به الهنود. وقد اختفت المخطوطة لأكثر من قرنين من الزمان، وأعاد اكتشافها سائح أمريكى فى لندن. وعندما تم نشرها فى عام 1856، أحدثت ضجة كبيرة فى البلاد. فقد وجد الأمريكيون أنفسهم يحدقون، من منشور هذا النص، فى أصولهم المعقدة والجميلة. وقد استغل أبراهام لينكولن القصة عندما قرر فى عام 1863 فى خضمّ الحرب الأهلية، أن عيد الشكر ينبغي أن يصبح عيدًا وطنيًا، مع وجود هذه الأسطورة عن البقاء على قيد الحياة من خلال التعاون والاحترام المتبادل بين ذوى الأصول الثقافية والعرقية المختلفة.

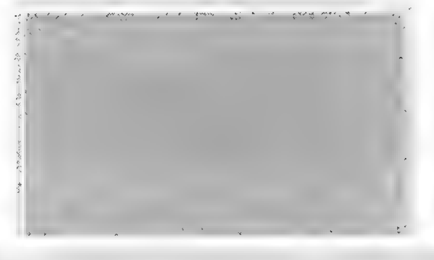
وإلى حد ما، فقد يشترك كل من الكتب الثلاثة عشر التى نوقشت فى هذه الصفحات فى صنع الأسطورة الوطنية، مبدعة قصصاً نعيشها، وعاكسة أعمق رغباتنا، تجاه أنفسنا مما يساعدنا على أن نرى حياتنا تلقاء ستارة الوقت وتلقاء المشهد الأمريكى نفسه. وكثيرًا ما تكون هناك قصة قديمة سابقة للكتاب أيضًا، كما هو الحال مع مذكرات برادفورد.

وقد قسمت مناقشة كل كتاب على حدة إلى أربعة أجزاء. ففي الجزء الأول تحدثت عن الكتاب باختصار، وقمت بالتنويه عن أهميته بالنسبة إلى الثقافة الأمريكية، مشيرًا إلى الطرق التى «غير» بها البلد أو ساعد فى تشكيل هويته. وفى هذا التمهيد أشرت، إلى الاتجاهات التى وردت على نحو كامل فى الأقسام التالية. وفى الجزء الثاني، أشرت إلى كاتب الكتاب، مقدمًا سياقًا من السيرة والتاريخ للعمل قيد المناقشة و مقدمًا تقريرًا عن تاريخ نشره، وقصة الكتاب الخلفية. وفى حالة واحدة أو حالتين، تحدثت عن علاقتي الخاصة بالكتاب (كما هو الحال مع كتاب ديل كارنيجي عن كيف تكتسب الأصدقاء وتؤثر على الناس، والذى كان له تأثير ملحوظ على تطورى أنا نفسى كما كان له أكبر الأثر على الملايين من القراء الآخرين). وعالجت الجزء الرئيسي من النص فى الجزء الثالث، حيث قمت بوصف هذا الكتاب بتفصيل كبير. «ذلك أن الوصف هو الوحى» كما كتب ستيفن أول ذات مرة. ولايدعو للدهشة أنه من الصعب وصف كتاب بشكل يكشف عن معالمه الداخلية، وجوه وتعقد نغماته. ويكمن جوهر أرض الميعاد فى هذه الأجزاء. و فى الجزء الرابع والأخير من كل

فصل تعاملت مع تراث العمل، ذاكرًا عادة الكتب التى جاءت فى أعقابه ومحاولًا بيان التأثير النوعي للكتاب على الأمريكيين.

وإجمالًا يقدم، أرض الميعاد قراءة للنفس والروح الأمريكية من خلال بعض الكتب الأكثر تأثيرًا، مما يسمح لنا بالتفكير فيما يعني الماضي لما نحن عليه الآن. ويظهر العديد من المواضيع البارزة فى الحياة الأمريكية فى هذه النصوص التى تعد معالم مثل: الهجرة والاستيعاب، والاهتمامات الدينية، حلم الاستقلال عن قيود العالم القديم وقيمه، وقدراتنا على اختراع أنفسنا بأنفسنا وتراث التنوير الذى شكل قوانيننا ومفهوم الحكومة العلمانية والرغبة فى بزوغ النور من البلاد، كما صاغها جيدًا هاك فن والتوسع غربًا نفسه (الحركة التى وصفها فى السابق روبرت فروست باعتبارها «البلد الذى يتحقق على نحو غامض بالاتجاه غربًا»)، ورؤية الطبيعة، ومشاكل التكامل العرقى، والصراعات التى تحدث عندما تتعارض المثل (والثقافات) بعنف عادة. إنه كتاب حول الثورة المستمرة والسعي الأمريكى لتحقيق الأهداف من خلال التحول الذاتي. وهو أيضًا كتاب عن المسعى المغروز عميقًا لاحتلال أرض الميعاد، ونحن فقط نلمحها عن بعد وهو ما يماثل ما كان يسعى إليه موسى وقومه الرحل فى أرض كنعان.

ويجب على القارئ أن ينظر إلى هذه الكتب الثلاثة عشر على أنها أمثلة وليست شيئًا قاطعًا بشكل نهائي. إنهم نقاط تقاطع محورية، مساحات شاسعة من الفكر والشعور تجمعت وتفرقت خالقة أمة متنوعة ونابضة بالحيوية مثل الولايات المتحدة والتى يجب أن تعتبر من أكثر الدول القومية نجاحًا فى التاريخ الحديث وهى جمهورية تم بناؤها بحزم على الأفكار التى ترد فى نصوصها الرئيسية. حيث كان علينا بطبيعة الحال من المكان الذى بدأنا منه، تحديد مسارنا الذى نمضى إليه. وأتمنى أن يساعد هذا الكتاب فى أن يبين لنا أين كنا ويولد حوارًا حيويًا عن مقصدنا، وهو ما يبدو أنه موضع خلاف على الدوام.



HISTORY

OF

PLYMOUTH PLANTATION.

BY

WILLIAM BRADFORD,

THE SECOND GOVERNOR OF THE COLONY.

REPRINTED FROM THE MASSACHUSETTS HISTORICAL COLLECTIONS.

EDITED WITH NOTES

BY

CHARLES DEANE.

BOSTON:
PRIVATELY PRINTED.
M.DCCC.LVI.



1

مزرعة بليموث

1

لكل أمة أسطورة أو أساطير مؤسسة: قصص تتحدث عن البدايات المشتركة وإن مثلت تحديًا، مجسدةً دراما تعريف الذات والتأسيس. وتحظي الولايات المتحدة - بأصولها المعقدة وهوياتها المختلطة - بالعديد من تلك الأساطير ولكن يوجد بينها نص أولى حول قصة حياة الاستيطان الأمريكي: إن مزرعة بليموث، هى يوميات مكتوبة بين عامي 1620 و 1647. وهى تحكى قصة المهاجرين الأصليين، الذين جاءوا إلى بليموث فى ولاية ماساشوستس من شمال إنجلترا، عن طريق هولندا، على ظهر السفينة ماي فلاور فى عام 1620. ولا يمكن المبالغة فى الأهمية التاريخية لهذه اليوميات. وبصرف النظر عن كونها تقريرًا حيًا عما حدث، فإن بها قدرًا هائلًا من المصداقية، فقد كتبت من قبل رجل كان عاملًا مؤثرًا (باعتباره حاكمًا) فى القصة نفسها.

إن المخاطر والمحن التى تعرض لها المهاجرون تشكل جوهر يوميات برادفورد، والتى تروي قصة تم استيعابها تمامًا حول أشخاص تمكنوا من التغلب على الصعاب لكى يعملوا معًا من أجل مصلحة مجتمعهم، وللسيطرة على المتمردين والمتذمرين منهم، ولعقد صلح ومسالمة فيما بينهم وبين السكان الأصليين، الوامبانوج، حيث شاركوا معهم (بعد عام مملوء بالصعاب من المرض والحرمان، والذى قلل عددهم إلى النصف تقريبًا) ما أصبح يُعرف بأول عيد للشكر: وهو احتفال بالمصالح المتبادلة. وعلى الرغم من الطبيعة الخاصة لهذا الحدث، فإن مهرجان الحصاد الذى حدث فى خريف عام 1621، لا يجمع الكثير من القواسم المشتركة مع الحكاية الأسطورية التى يسمعها معظم الأمريكيين فى المدرسة الأولية، فقد أصبح أسطورة واحدة من تلك القصص البدائية التى شكلت وجداننا عن شخصيتنا.

2

كانت أمريكا فى حاجة ماسة لحكاية ما أسطورية عن نفسها عندما تم اكتشاف مخطوطة يوميات برادفورد في مكتبه فولهام بالاس على نهر التايمز فى عام 1855، وهو المنتجع الصيفي لأساقفة لندن. وقد اكتشفها رحّالة يدعى جون وينجيت ثورنتون، من بوسطن عن طريق الصدفة. وهو الرجل الذى وصفه أحد معارفه بأنه «جامع للحفريات ودارس ضليع لها، ورجل نبيل». وقد تعرف على مقاطع عن برادفورد وردت فى كتاب آخر، يضم مذكرة حول المخطوط الكامل ومكان وجوده. ولابد أن نعتبر اكتشافه واحدًا من الاكتشافات الأدبية العظيمة.

وعلى الرغم من ضياع هذا الوقت الطويل، فإن اليوميات لم تكن مجهولة. فهناك مقاطع من برادفورد كانت متداولة على نطاق واسع لمدة قرنين من الزمان، مع مقتطفات فى السجلات فى بليموث. ومن الواضح أن المؤرخين القدماء مثل توماس برنس ووليام هوبارد كان لديهم هذه المخطوطة فى متناول أيديهم عندما قاموا بكتابه تقاريرهم الكلاسيكية من مستعمرة بليموث. ولكن العمل الكامل - اليوميات المكتوبة بخط اليد - اختفى إذ تم نقله إلى إنجلترا فى مرحلة ما حيث ظل فى غموض الغبار حتى قام ثورنتون باكتشافه وبذل مجهودًا شاقًا لنسخ العمل كاملًا ونُشر بعد ذلك فى الولايات المتحدة فى عام 1856 وجذب اهتمامًا كبيراً فى الولايات الانفصالية فى تلك الحقبة، وعندما بدأت الحرب الأهلية تلوح فى الأفق فحسب. واستطاع الجميع أن يدركوا أن صراعًا خطيرًا يمكن أن يقع وإن كان يمكن بالكاد تخيل وقوع حرب وحشية بلا رحمة. واستغرق الأمر مذبحة إنتيتام وجيتيسبيرج ليطلع فجر هذا الواقع بالكامل.

وفي عام 1850 كان هناك أيضًا قدر كبير من القلق يلوح فى الأفق حول التوسع نحو الغرب. وقام لويس وكلارك برحلتهما إلى ساحل المحيط الهادئ والعودة إلى سانت لويس

فى بداية هذا القرن، فقد نما الكثير من الإثارة حول الغرب عندما عرف الأمريكيون المزيد عن المناطق الشاسعة التى تكمن فى الجانب الآخر من نهر المسيسيبى. وقد دعت هذه المنطقة الشبان والشابات الذين يحلمون بالثروة والمغامرة. وشعر الآباء والأمهات بالقلق كما هو الحال دومًا من فقدان الاتصال بأطفالهم وكان هذا قبل أن تقلص الاتصالات الإلكترونية المسافات التى تفصل العائلات على نحو شائع حاليًا. وانقضى الدفء من مستوطنة نيو إنجلند أو فرجينيا إلى غير رجعة، وبدا من الصعب تخيل أمة يمكن أن تضم مساحات كبيرة من الأراضي، فضلًا عن السكان الذين لا يقر لهم قرار من القبائل من الأمريكيين الأصليين، بما فى ذلك أمم الأباتشي، والبلاكفوت، والشيروكي، والشايان. وبالتأكيد من الصعب الاعتقاد بأنه يمكن استيعاب العديد من المكسيكيين فى تكساس وكاليفورنيا، والتى كانت قد حصلت لتوها فقط على وضع الدولة.

لقد قدم تقرير برادفورد حول مغامرات المهاجرين الأول، واقعًا بديلًا، عالمًا يوجد فيه الرجال والنساء بقوة وعزم ووضعوا إيمانهم الراسخ فى مشيئة الله. ووجدوا متعة فى استقلالهم عن كنيسة إنجلترا وتسلسلها الهرمي والتى أجبرتهم على الذهاب إلى المنفى فى هولندا. وخلافًا للمتطهرين البروتستانت الذين استقروا فى نيو إنجلند (معظمهم فى ولاية ماساشوستس)، وكانت هناك نواة تعرف باسم الانفصاليين. لم يكونوا يعتقدون فى محاولة إصلاح الكنيسة الانجليكانية من الداخل كما فعل معظم المتطهرين. ربما كانوا قد بقوا فى ليدن حيث تركز معظمهم لو لم يدفعهم الفقر و احتمال احتلال هولندا من قبل الكاثوليك الأسبان الذين دفعونهم إلى الإبحار إلى العالم الجديد.

لم نكن لنعلم سوى القليل نسبيًا عن المهاجرين من بليموث لو لم يكن وليام برادفورد (1590–1657) قد كتب اليوميات. لقد كان حاضرًا فى كل مرحلة من مراحل المشروع من الانفصال الأول عن إنجلترا والانتقال إلى ليدن حتى الرحلة الكبيرة على ماي فلاور عبر المحيط الأطلسي وإقامة مستوطنة بليموث، ومحنها وانتصاراتها وفى نهاية المطاف

الانحدار كنسل من المستوطنين الأصليين فقدوا الإيمان بالمشروع الشامل – مما أثار فزع برادفورد.

ولأنه كان إنسانًا فحسب، فقد حرف برادفورد تقريره لصالح مصالحه الخاصة وأصدقائه. بالطبع كان لديه ميزة لا تضاهى، كمؤرخ، وهى أنه كان لاعباً فى الأحداث التى وصفها، مع فرص يحسد عليها للاطلاع على كل ما يجرى. وقد خاض الانتخابات فى مجلس بليموث الداخلى لذلك كان يعلم ما يقوله الناس، بل ولماذا يقولون ذلك. وكمؤرخ، نزع إلى إمعان النظر فى الأمور التى تهمه أو التى تظهره فى ضوء جيد بوجه خاص، ذلك إنها يومياته فى نهاية المطاف، ويستطيع (كما يريد) أن يحذف كل ما لا يروقه. وقد لاحظ المؤرخون أنه مرّ مرور الكرام على كثير من الأشياء فى صمت، أو قام فى حالات قليلة جدًا بتغيير تسلسل الأحداث. لم يكن برادفورد يحب المعارضة وتصدى بشدة لمن يستاء منهم أو عارضوه. ومع ذلك فإن روايته متوازنة ودقيقة بشكل ملحوظ. وبصفة عامة فإن تقريره عن مستعمرة بليموث ليس له نظير باعتباره وثيقة ثمينة فى وقت مبكر بشأن هذا الموضوع المهم.

3

ومنذ البداية، يعتمد برادفورد لهجة ساخرة متحفظة على النقيض تمامًا مع الملاحظات المتاحة المدونة على هامش الوثيقة بعد الانتهاء منها، حيث سجل وابلًا من المعارضات والرفض لجيل الشباب.

> يالهذا الميثاق المقدس المحتفظ به دون انتهاك له! كم كانت حلوة وقيمة الثمار التى تدفقت من نفس الشيء! ولكن عندما تهاوى هذا الإخلاص فإنه من المتوقع اقتراب الخراب. يالهؤلاء الأعضاء القدامى لم يكونوا سيموتون أو يتشتتون (إذا كان ذلك مشيئة الله) أو غير ذلك، لو بقيت الرعاية المقدسة والإخلاص المستمر وظلت مع الذين نجوا والذين أضيفوا إليهم فى أوقات بعد ذلك. ولكن (للأسف) أن هذا الثعبان الماكر جرح نفسه بخبث تحت ذرائع الضرورة العادلة، وما شابه ذلك لتحريف هذه الوثائق المقدسة والعلاقات كما لو كانت حالك تستعصى على الحل أو بقدر كبير من إضعاف نفس الشيء. لقد كنت سعيدًا فى البدايات أن أرى وأن أستمتع بشيء من الراحة وبثمار هذا التشارك الجميل، ولكن أصبح حاليًا جزءًا من بؤسي فى سن الشيخوخة، أن أجد وأشعر بالتحلل وأريد (بقدر كبير) ومع الحزن والأسى من القلب الرثاء والأسى على النفس. وتحذير الآخرين والعتاب وإذلال نفسي حيث أقوم هنا بملاحظة الشيء نفسه. 2(16)

وكما توضح هذه الملحوظة بصورة واسعة، فإن براد فورد شعر بخيبة أمل عميقة إزاء المستوطنين الشباب الذين بدوا جاهلين عن عمد بتاريخهم وفشلوا فى إدراك تضحية آبائهم وأجدادهم الذين خاطروا بحياتهم من أجل قضية الضمير، وهو حلم إقامة المجتمع المشترك. ولكن هذا الغضب الهامشي يقف على النقيض من اليوميات نفسها، حيث كتب

المؤلف بتسامح رابط الجأش اعتمادًا على ما حدث لتوجيه مقولته، وهى حكاية ليست فى حاجة إلى تجميل.

والواقع، أنه فى الفقرة الأولى يقول إنه يعتزم أن يكتب بأسلوب سهل وأنه لن يراعى سوى الحقيقة البسيطة فى كل شيء «أوعلى الأقل أقرب ما يمكن أن يصل إليه حكمى الضئيل» (1). وقد نجح بشكل جيد فى هذا، بدءًا بأسلوب التفكير، مع فصل حول النزعة الانفصالية. وكانت الفكرة الأساسية، كما وضحها هى إقناع الكنائس الإنجليزية بالعودة إلى النقاء القديم واسترداد النظام الأولى، والحرية والجمال (2). وقد شكل الانفصاليون طائفة تمثل أقلية بين المتشددين، وهى نفسها فصيلا من الإصلاح البروتستانتي الذى هز أوروبا فى القرن السادس عشر. إن كنيسة سكروبى فى مقاطعة نوتينجهام الإنجليزية كانت من بين الكنائس الأكثر تطرفًا فى كنائس المتطهرين.

وهناك نشر وليام بروستر وهو صديق ومرشد لوليام برادفورد وجهات نظره حول النزعة الانفصالية باعتباره راعيًا لجيل الشباب. وقد ذهب بروستر إلى جامعة كامبريدج حيث وقع تحت تأثير روبرت براون وهو عالم اللاهوت المؤسس لحركة المتطهرين. وقد قام براون بنشر كتابين مثيرين للأفكار فى عام 1582: وهما رسالة الإصلاح بدون تشويه، من أجل آنى وكتاب بوكى الذى يعرض حياة وآداب جميع المسيحيين الحقيقيين. و فى هذه الأعمال المؤثرة والصارمة، نادي براون بأن المرء لا يستطيع انتظار قيام الدولة باتخاذ الإجراءات– كما اقترح جون كالفين، وهو شخصية بروتستانتية رائدة من المتطهرين فى القارة الأوروبية. كان براون يعتقد أن من واجب الفرد التصرف وفقًا لما يعتقد أنه الصواب، بغض النظر عما تفكر فيه الدولة. وكان مفتونًا بالنقل عن القديس بولس حول هذه النقطة: «لذلك اخرجوا من وسطهم واعتزلوا يقول الرب ولا تمسوا نجسا ما قبلكم» (رسالة كورنثوس الثانية 6: 17) قد وفرت هذه الآية الواحدة الأساس التوراتى للنزعة الانفصالية.

لقد كانت هناك كما يمكن للمرء أن يخمن مقاومة شرسة للحركة البروتستانتية فى إنجلترا حيث سجن الكثيرون من الرواد اللامعين أو أعدموا، مما دفع النواة الصلبة من

المؤمنين إلى الخارج طلبًا للسلامة، وفى عام 1607 وصلت المياه السياسية للمتمردين الدينيين إلى نقطة الغليان ووجد الكثيرون من رعايا كنيسة سكروبى أنفسهم وقد صدرت أوامر بالقبض عليهم. ولا غرو أن برادفورد بدأ فى «من مزرعة بليموث» هنا، مع قصة من التجريد من الممتلكات. و قصته كتبت مثل قصة العهد القديم حيث طُرد شعب الله من أرضهم وعانوا الكثير فى المنفى بين الوثنيين وطفقوا يبحثون عن أرض الميعاد الخاصة بهم فى العالم الجديد. وأصبحت القصة التى أخذت تتكشف وتتضح صفتها المميزة وبنيانها وتركيبها النسيجي مألوفة لدى أى شخص قرأ بسرعة الكتب الخمسة لموسى.

وبقيادة ريتشارد كليفتون، انطلق مهاجرو سكروبى سيرًا على الأقدام فى خريف عام 1607 لبلدة بوسطن، فى رحلة امتدت 60 كيلومترًا أو نحو ذلك. وفى سرية صعدوا على سفينة تتجه للقارة، ليجدوا أنفسهم وقد طردهم القبطان، الذى كان يأمل فى الحصول على أجر أكبر. عادوا إلى سكروبى، حيث تم اعتقال العديد منهم. ولكن لم تكن هناك محاكمة وشيكة، وتم الإفراج عن هؤلاء المسيحيين، المسالمين حيث وجد سجانوهم أنه من الصعب تصديق أنهم يشكلون خطرًا كبيرًا على المجتمع. وبعد بضعة أشهر حاولوا أن يفرّوا مرة أخرى ونجحوا، وسافروا عبر سفينة من ميناء بالقرب من هال. لم تكن هذه رحلة سهلة مع جميع أنواع المخاطر التى كانت تلوح فى الأفق بما فى ذلك التهديد بالاكتشاف: ذلك أن السفر إلى الخارج دون وثائق رسمية، كان أمرًا غير قانونى. وشقت السفينة طريقها إلى بحر الشمال حيث كادت المياه المظلمة أن تقلب السفينة. ومع ذلك فإنها وصلت إلى هولندا سالمة، وقد تبعهم آخرون من سكروبى بعد ذلك، وقد عثروا على طرق غير مشروعة للانتقال على سفن أخرى. كان عليهم حينذاك التعامل مع بلاد لا تتحدث اللغة الإنجليزية، وحيث كانت ظروف العيش قاسية.

ووضع برادفورد رحلة اتباع كنيسة سكروبى فى السياق، مشيراً إلى الهجرات السابقة إلى القارة بحثًا عن الحرية الدينية، وناقلًا عن كتاب الشهداء الشهير لجون فوكس (1517 – 1587). وفى ظل الملكة ماري وهى من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التى أحرقت

العديد من البروتستانت، قام فوكس وآخرون من أمثاله بالإقامة فى مجموعة من المدن الأوروبية، بما فى ذلك فرانكفورت وجنيف وبازل، حيث نشر برادفورد أصلًا كتابه باللغة اللاتينية. وقام برادفورد بالتعليق على كل شيء، مشيراً إلى المشاحنات التى وقعت بين رفاقه فى المنفى حول مسائل العقيدة. ووضع المشاحنات أيضًا فى السياق وقال أن هذه الخلافات لم تنته مع الملكة ماري ولم يتم تركها وراء البحار (5).

وكان هناك هدف واحد لجيل رادفورد من المنفيين هو ضمان حق عبادة الله ونظام المسيح الراسخ فى الكنيسة وفقًا لبساطة الإنجيل دون أن يكون هناك مزيج من البدع التى يخترعها الناس (4). كان برادفورد يأمل فى العودة إلى الأساسيات كما بشر بها مرشده ريتشارد كليفتون، وهو مبشر كبير وجليل، كما دعا إليها جون روبنسون ووليام بروستر. بيد أن ما وجدته جماعة المهاجرين فى هولندا، لم يكن أرض الميعاد فى كنعان، على الرغم من أن برادفورد تخطى بسرعة ما حصل لدى وصوله إلى أمستردام، حيث انضم إلى الانفصاليين الإنجليز وإلى البروتستانت المنفيين من أماكن مختلفة.

وثارت منازعات كما يحدث فى كثير من الأحيان بين المجموعات المعزولة من المنفيين. فقد كانت الطوائف المختلفة فى حالة من الفوضى، مع عدد كبير من الاتهامات تحوم فى الأفق. فقد كانت هناك على سبيل المثال مجموعة تسمى الأخوة القدامى الذين حاربوا بعضهم البعض فى تباه مبتذل من الأمزجة السيئة. وكان من المبرزين فى ذلك توماس وايت وهو راع من غرب إنجلترا كان قد وصل مع عشرات من أتباعه وقد تعبد جمهور وايت لفترة وجيزة مع الإخوة، ولكن سرعان ما تم صدهم بسبب حدتهم. وتم طردهم بعيدًا عن الإخوة، ومنهم وايت نفسه الذى كان ينظر إليهم على أنهم مقهورون وعنيدون ومثيرون للشقاق. وقد أطلق بالفعل على الإخوة «سماسرة العاهرات»، فى إشارة إلى اتهامات نسلهم بسفاح المحارم والزنا تم نشرها على نطاق واسع. وتخطى برادفورد بخفة هذه الصراعات. وبعد سنة هاجر هو وجماعته إلى «ليدن» وهى مدينة جميلة وعادلة وهناك جمع القصة بطاقة متجددة.

كانت «ليدن» موطنًا لإحدى الجامعات الكبرى، ومكانًا ازدهرت فيه المناظرات الدينية وأمضى الانفصاليون الإنجليز اثنى عشر عامًا هناك. ومع ذلك، فقد شعروا أنهم معزولون. عن السكان المحليين، ولا يمكنهم كسب العيش الكريم على الرغم من مواهبهم وإتقانهم للصناعات اليدوية والحرف. وربما كانت ظروف المعيشة السيئة والفقر السببين الرئيسيين لوضع كل شيء على المحك من خلال السفر إلى العالم الجديد، على الرغم من أن برادفورد كان يفضل تفسيرًا سياسيًا - فقد كانت الهدنة التى أبرمتها هولندا مع أسبانيا الكاثوليكية على وشك الانتهاء، فى عام 1621. وربما يثبت الأسبان قسوة تماثل قسوة الهمج الأمريكيين، «وكتب برادفورد أن المجاعة ووباء الطاعون شديدين هنا كما هما هناك، والفرص أقل فى البحث عن علاج لحريتهم» (28).

لم تكن أمريكا الشمالية وجهة مثالية لكل الانفصاليين، كما ذكر برادفورد. وجذبت منطقة الأمازون والمناطق المدارية الأخرى بعض الذين تصوروا أنها أماكن غنية ومثمرة ومباركة فيها ربيع دائم واخضرار مزدهر، لكن الأسبان كانوا يقتحمون تلك المناطق أيضًا. وعلاوة على ذلك، من كان يستطيع أن يعرف الأخطار المحلية التى تكون مخبوءة فى المناطق الحارة، بما فى ذلك خطر المرض؟ كانت فرجينيا، من ناحية أخرى، مناخًا مألوفًا، وأعرب المهاجرون عن أملهم فى ألا يتعرضوا للاضطهاد باعتبارهم منشقين دينيًا هناك مثلما حدث لهم فى إنجلترا. ولكى يشعروا بالطمأنينة هناك، قدموا التماسًا لشركة فرجينيا قبل رحيلهم وردت عليهم بترحاب، على الرغم من أنهم فى النهاية استقروا فى أبعد الأجزاء الشمالية من هذا البلد البعيدة عن منطقة براءة فرجينيا والمنعزلة كلية عن حكومتها والتى يطلق عليها اسم آخر هو نيو إنجلند. واستخدم هذا الاسم الأخير لأول مرة من قبل الكابتن جون سميث فى تقريره المعنون «وصف نيو إنجلند» (1616)، حول أسفاره إلى ذلك الجزء من العالم الجديد فى عام 1614.

وقد حدثت مفاوضات طويلة مع بعض رجال الأعمال فى لندن ولاسيما مع توماس ويستون، وهو رجل ماكر ترأس مجموعة من المغامرين الماليين أو أصحاب رءوس

الأموال، الذين يقيمون مشروعات وقد قدم برادفورد تقريرًا شاملًا (وإن كان مملًا إلى حد ما) عن هذه الترتيبات المالية والتى ظل يعاني منها المهاجرون لسنوات عديدة لأن الرحلة إلى نيو إنجلند لم تكن مطلقًا اقتراحاً تجارياً سليمًا. وفى يوليو عام 1620 غادرت مجموعة من حوالي 120 من النساء والرجال والأطفال ليدن، هذه المدينة الطيبة والممتعة التى كانت مثواهم لمدة تقرب من 12 سنة، كما ذكر برادفورد فى أكثر نغماته شبهًا بالكتاب المقدس، «لكنهم كانوا على علم بأنهم مهاجرون».

وقد توجهوا فى سفينتين أكبرهما هى مايفلور الشهيرة. وكانت صغراهما هى سبيد ويل والتى كان يعيبها تسرب المياه أثناء الإبحار الأمر الذى اضطرها للعودة بسرعة إلى إنجلترا. وكان من الضروري تقليل المجموعة، وتركوا حوالي 20 أو نحو ذلك وراءهم وتكدس الباقون على متن مايفلور التى غادرت فى نهاية المطاف فى 6 سبتمبر. كانت حقاً سفينة رائعة، فهي واسعة وبها طابقين و«معاقل» فى المقدمة والمؤخرة. كانت السفينة تزن 180 طنًا. وكانت تذرع منطقة البحر الأبيض المتوسط ناقلة النبيذ على مدى الأربع سنوات الماضية، ولذلك سُميت «السفينة الحلوة» واستطاعت أن تحمل أكثر من 102 راكب تكدسوا على ظهرها. وما يثير الاهتمام هو أن الكثير من المهاجرين الأصليين لم يكونوا ما نعتقد عادة بأنهم الانفصاليون من نوع برادفورد وجماعته. إذ كان منهم فى الواقع ينطبق عليهم هذا الوصف. ولم يكن أكثر من ثلث الركاب من ليدن الذين ممن يمكن أن يطلق عليهم حقًا الانفصاليين، فى حين أن برادفورد ووليام وماري بروستر لم يكن هناك ما يجمعهم بفريق سكروبي. وكان العديد منهم يطلق عليهم «الغرباء» على متن السفينة كما أسماهم برادفورد. كان سبب مخاطرتهم بحياتهم فى العالم الجديد ماليًا إلى حد كبير مثل العديد من المهاجرين عبر القرون التالية والذين اتجهوا إلى الأمريكتين لتحسين حظوظهم.

وكان من ركاب ماى فلور، عدد كبير ممن ينتمون إلى الجناح البروتستانتي للكنيسة فى إنجلترا، ولكنهم لم يكونوا يعتقدون فى النزعة الانفصالية عن الطائفة الانجليكية. ونحن نعرف العديد من هؤلاء «الغرباء» بأسمائهم، ولا يزال ماليس ستانديش وجون الدن، من

بين أفضل المعروفين حتى على الرغم من أن ستانديش، وهو رجل عسكري، لا يبدو أنه انضم مطلقًا إلى رعية كنيسة بليموث، حيث لا يظهر اسمه فى هذه السجلات. (وستانديش على وجه الخصوص، اشتهر فى قصيدة التودد إلى ميلز ستانديتسن، وهى القصيدة الشعبية القصصية التى كتبها هنري وودز ورث لونجفيلو، التى نشرت فى عام 1858).

ولأنه كان من القصاصين الموهوبين، فقد ركز برادفورد بدقة على التفاصيل السليمة وهو يصف ماى فلور و عبور المحيط الأطلسي والذى استغرق 65 يوماً. و فى أوائل القرن 17 لم تكن مثل هذه الرحلات تتم بدون وقوع حوادث. و فى البداية، فقد كادت السفينة تغرق تقريبًا فى البحار العاصفة فى بعض المراحل. وعلاوة على ذلك، فقد أدت الظروف الصحية فيها لانتشار العدوى والأمراض بسرعة ومات عدد من الركاب، وألقيت جثثهم فى البحر. ويبدأ برادفورد الفصل التاسع والذى يتعلق أساساً بالعبور بحكاية ملفتة للنظر عن بحار شاب مفعم بالحيوية وقوى البنية كان يلعن الركاب الذين يصابون بدوار البحر. وقال إنه كان يأمل فى أن يساعد فى إلقاء نصفهم فى البحر قبل انتهاء الرحلة لكنه سرعان ما أصيب هو نفسه بمرض لا يمكن تفسيره، وتوفى "بطريقه تبعث على الأسى" فى غضون أيام، وكان هو نفسه أول من ألقي فى البحر (66). واعتبر برادفورد هذا من فعل يد الله العادلة. فيجب عدم الاستهانة بخلقه حتى لا تتحمل وزر ذلك فى عنقك.

وأضفت هذه اللهجة الجادة جوًا منشطًا على الكتاب الذى يمكن وصفه بأنه أول سرد للهجرة الأمريكية. فهؤلاء الناس الذين اختارهم الله، بعد كل شيء، يختلفون عن قبائل إسرائيل فى العهد القديم. كان الله يحرسهم، وكانوا يرتدون نوعًا من الدروع الواقية طالما أنهم يتصرفون وفقاً لإرادته. وفى الواقع، فإن برادفورد ينهى هذا الفصل بعدد من الاقتباسات المباشرة من سفر التثنية والمزامير، مضفيًا هالة من الضرورة التاريخية على روايته. إن الله مع شعبه، كما يقول برادفورد. دع هؤلاء الذين يأتون فى وقت لاحق يدركون أن المهاجرين «قد تضرعوا للرب وأنه سمع صوتهم وساعدهم على عدوهم» (71).

تخبطت سفينة الأمل بالمهاجرين على طول الساحل ورست فى النهاية فى ميناء آمن فيما يسمي حاليًا بكيب كود، وعلى الشاطئ وجدوا مخيمًا مهجورًا، اكتشفوا فيه لسعادتهم سلالًا هندية مملوءة بالذرة (74). وقد أثار ذلك نوعًا من الإلهام لديهم حيث إنهم كانوا حديثي العهد بالذرة الهندية وحصلوا على «بعض البذور ليزرعوها فى العام القادم»، ولولا ذلك لتضوروا جوعاً (75). لذلك كان هذا اللقاء غير المباشر الأول بين المهاجرين والسكان الأصليين إيجابيًا. ولسوء الحظ، اتسم أول لقاء حقيقى بينهما بالعنف، مع وابل من السهام ورصاص البنادق. وقدم برادفورد وصفًا فكاهياً حول المناوشات، التى لم تترك أي شخص مصابًا.

واستمرت السفينة فى طريقها ورست قرب صخرة بليموث بعد ذلك بوقت قصير فى مكان يتسم بمختلف «حقول الذرة وجداول المياه الجارية» (79). وينهى برادفورد الجزء الأول من يومياته بالوصول ثم يبدأ فى «الكتاب الثاني» باسترجاع ميثاق ماي فلاور الشهير. لقد فُقدت الوثيقة الأصلية، ولكن لدينا نسختين أصليتين متطابقتين بدرجة أو أخرى واحدة منهما هنا والأخرى فى كتاب «علاقة مورت» (1622)، والتقرير الرئيسى الآخر عن مستوطنة بليموث مكتوب بعدة أيدي مجهولة الهوية، على الرغم من أن إدوارد وينسلو – وهو شخص آخر من المهاجرين الأصليين – يعتبر مؤلفها الرئيسي. وكان هذا الميثاق أساسًا اتفاقية موقعة من أجل التضافر معًا لتحقيق السلامة المتبادلة ورفاهية المجموعة، مما خلق كيانًا سيًاسيًا مدنيًا. وفى هذه الوثيقة الموجزة التى ضاعت بمرور الوقت، وتسربت من خلال هذين التقريرين، نرى بدايات غامضة للتجربة الأمريكية فى الديمقراطية. وقد تم اختيار جون كارفر كأول حاكم. و فى هذه البدايات الصعبة والشاقة ثار بعض الاستياء والتذمر، ولكن سرعان ما تم التغلب على هذه بما فيه الكفاية (84).

وكانت المشاكل الرئيسية التى واجهت المهاجرين هى الأمراض والمجاعة التى أودت بحياة ما يقرب من نصف سكان المستوطنة فى غضون ثلاثة أشهر. فبحلول نهاية شباط / فبراير، بقى خمسون بالكاد، مع إصابة الكثير بالعلل أو الضعف. وقد مات مزيد

من النساء والأطفال، وظل على قيد الحياة أقل من نصف الرجال الستة وعشرين الأصليين أرباب الأسر. وفى الوقت نفسه كمن الهنود على الحواف يشاهدون الغزاة ويتساءلون ما الذى يمكن عمله حيالهم. كانوا يظهرون أحيانًا عن بعد، ولكن عندما يقترب المستوطنون كانوا يهربون (87). واستمرت لعبة القط والفأر هذه لبعض الوقت، حتى جاء فجأة هندي بجرأة من بينهم وتحدث إليهم بلغة إنجليزية غير سليمة استطاعوا فهمها بشكل جيد ولكنهم تعجبوا منها (87). كان هذا الشخص هو سكوانتو، الباقى الوحيد على قيد الحياة من قبيلة باتوكست، التى قضى عليها المرض وكان قد سبق له الاتصال ببعض بعثات صيد الأسماك الإنجليزية، وتم أسره لفترة من الوقت. ومع موهبة بارزة فى اللغات طور علاقات ودية مع الإنجليز (وإن كانت خدمة لنفسه) كما وصفها برادفورد، ولعب دوراً رئيسياً فى التفاوض مع الهنود فى أوقات محفوفة بالمخاطر كانت تنتظر مستوطنى بليموث.

وفي عام 1621، تولى وليام برادفورد بعد جون كارفر منصب الحاكم، بسبب وفاة كارفر. وفى تقريره عن السنة الأولى فى بليموث، عرفنا شخصيات مختلفة من المهاجرين، بما فى ذلك إسحاق الرتون، وهو واحدة من الشخصيات الأكثر نشاطًا، وتعقيدًا وأنانية فى المجموعة وحظت شتى خططه التجارية الرابحة والمختلفة وخدعه السياسية بقدر وافر من اهتمام برادفورد على مدى السنوات المقبلة. لكن الخيط الرئيسي لهذا السرد يتعلق بالهنود، الذين حافظ المهاجرون على علاقات جيدة بشكل معقول معهم على مدى نصف قرن، وهذا يرجع إلى حد كبير إلى الدبلوماسية الحريصة من جانب برادفورد نفسه، فقد كان رجلًا متسامحًا وسخيًا يعرف كيف يضرب مثلًا للحكم اللائق.

وهناك وصف موجز لما يشار إليه الآن على أنه أول عيد للشكر يرد فى الفصل الثانى عشر، وهو طريق ثالث فى يوميات برادفورد. ويتركز معظم هذا الفصل الحاسم على لقاءات مع الهنود. ويبدأ بقصة مستوطن تاه فى الغابات وتجول لمدة خمسة أيام، وهو يعيش على التوت البرى قبل أن يقبض عليه الهنود. وقد أعيد سالمًا فى الواقع، ولكن كان هناك بعض التوتر فى السرد، الذى يتحرك إلى الأمام بسرعة- هذا النوع من تقنية القص المفاجئ الذى

يرتبط بالعهد القديم - وقد قدم لنا شخصيات أخرى جديرة بالانتباه، بما فى ذلك هوبوموك، وهو رجل شهوانى تمامًا، كان ينتمي إلى قبيلة وامبانواج، التى كان يتزعمها ماسوت، الزعيم الأسطوري الذى أقام تحالفًا دقيقًا مع برادفورد ومع مستوطنة بليموث. (كان هوبوموك موضوعًا لرواية معروفة، باسم هوبوموك، كتبتها لنا ليديا ماريا تشايلد ونشرت فى عام 1824).

وفى معاملاتهم مع الهنود أظهر المستوطنون صبراً جميلاً. واجتهدوا فى التصرف بطريقة عادلة ونادرًا ما اتسمت بالانتقام، وقاموا بتأسيس نمط حافظ على السلام لمدة تتجاوز النصف قرن، قبل نشوب منازعات رهيبة سميت حرب الملك فيليب (1675-1676). (سميت باسم ابن ماسوت). كانت هذه الحرب مدمرة-وقد أدت إلى قتل عدد كبير من المستوطنين ودمرت وامبانواج بالفعل. وبعدة طرق شكلت هذه الحرب الفترة المظلمة التى لونت العلاقات بين المستوطنين الأمريكيين والأمريكيين الأصليين لعدة أجيال قادمة.

ورغم أنه جذب اهتمام القراء فى وقت لاحق إلى الحادث، فإن برادفورد قدم القليل نسبيًا عن عيد الشكر الأول. وكان إدوارد وينسلو (نقلًا عن رسالته الخاصة فى 11 ديسمبر 1621، فى كتاب علاقة مورت) هو بالفعل الذى ذكر هذه المناسبة باعتبارها أمرًا خاصًا. كان مهرجان حصاد تقليدى حضره ماسوت و90 من رجاله. ووفقًا لوينسلو، استمر الاحتفال ثلاثة أيام. وذكر برادفورد الكم الكبير من ديوك الرومي البرية التى التهمها المحتفلون ، وربما كانت هذه هى أساسًا لعادتنا الحالية فى الولايات المتحدة لتناول الديك الرومي فى عيد الشكر.

وسرعان ما وصلت سفن أخرى من إنجلترا، مثل فورتشن، وارتفع عدد المهاجرين. وكما ذكر كالفين كوليدج فى وقت لاحق، «فإن الأعمال التجارية من أمريكا هى أعمال تجارية حقًا»، وكان هذا صحيحًا بالتأكيد بالنسبة للمهاجرين الأصليين، الذين بدأوا فى تجارة الفراء وغيرها من الجلود من بين سلع أخرى. وبدا واضحًا بما فيه الكفاية لبرادفورد أن توماس ويستون «ومغامريه» فى لندن ليس لديهم فرصة حقيقية لاسترجاع استثماراتهم،

على الأقل ليس لسنوات عديدة. ومع ذلك، فقد حملوا السفينة فورتشن في ديسمبر 1621 مع الفراء وأشجار السسافراس وألواح البلوط وهي حمولة قدرت بنحو 500 جنيه إسترليني. وقطع ذلك شوطًا طويلًا في سداد ديونهم، ولكن هذه السفينة المسماة بالحظ كانت اسمًا على غير مسمى، إذ استولى عليها الفرنسيون وهي في طريقها إلى ساوثهامبتون، ولم تصل الشحنة مطلقًا إلى إنجلترا. وغرقت جالية المهاجرين في الدين بشدة.

ومع ذلك فقد كان لدى برادفورد ومستوطنته الكثير في عقولهم أكثر من مجرد المال. وبمجرد أن غادرت السفينة فورتش حتى ألقت القبائل المحلية، «شعب ناراجانزيت العظيم»، كما وصفهم برادفورد، قفازًا في شكل ثعبان ملفوف بمجموعة من السهام: وكان ذلك رمزًا للتهديد. لم تكن هذه القبيلة تحب التحالفات التي أقامتها مجموعة بليموث مع القبائل الأخرى، وخاصة بوكانوكيتس. ورد برادفورد بحزم، معيدًا الثعبان وهو مملوء بالبارود والرصاص.

وسيطر مايلز ستانديش، وهو العقلية العسكرية في بلايموث، على الوضع وحما المهاجرون أنفسهم داخل قلعة مؤقتة. واتبعت كل أنواع المناورات السياسية المخادعة، بمؤامرات تتضمن الهنود من قبيلتي سكوانتو وهبوموك، المتنافسين اللذين قدما روابط حاسمة بين المستوطنين والقبائل الأصلية المختلفة. وكما لاحظ برادفورد بأسى: فقد سعى سكوانتو لتحقيق أغراضه ولعب لعبته الخاصة» (109) وقام بدور نقل النميمة من قبيلة إلى أخرى، على أمل أن يصبح زعيمًا أورئيسًا هو نفسه.

وطلب ماسوت رأسه، ولكن برادفورد عن طريق الصدفة أكثر منه قصدًا لم يسلمه للهنود. مما جعل سكاونتو يتمسك بأن يكون قريبًا من الإنجليز في الوقت الحاضر.

وكتب برادفورد ما يلي: لقد تغاضيت عن أشياء أخرى مختلفة، مملة وغير مرتبطة بالموضوع. (112). يتمنى المرء لو أنه قدم لنا تفاصيل عن هذه الأشياء غير المرتبطة بالموضوع، على الرغم من أنه ربما كان له الحق في التفكير في أننا يجب أن نكون بمنأى عن هذا الملل. ولأنه مهاجر، فإنه من وجهة نظر الراوي الطبيعي، فإن هذا كان عملًا متبلد الحس

إلى حد كبير. كانت حياة صعبة، روتين الزراعة والصيد للبقاء على قيد الحياة، مع إنفاق الكثير من الوقت فى الصلاة أو محبوسين فى الاجتماعات الدينية من نوع أو آخر. وغالبًا ما انشغلت يوميات برادفورد بمثل هذا النزاع بين المهاجرين وبين ويستون وكذلك المغامرين الآخرين، الذين كفل بعضهم ويستون على أمل تحقيق الربح. كما أنه كتب عن استمرار الصراع مع السكان المحليين. فلم تكن هناك هدنة سهلة، وعلى الرغم من الطابع السلمي عمومًا لماسوت فقد كان بالكاد هو الزعيم الوحيد فى المنطقة، وظل التهديد بالعنف ثابتًا. وقد سمع المهاجرون بلا شك عن ما حدث فى جيمس تاون، بولاية فرجينيا حيث تم قتل مئات من المستوطنين، ولابد أنهم قد عاشوا فى خوف دائم من هجوم مماثل. وقد ركزت بعض فصول كتاب برادفورد الأخيرة على المساعي المستمرة والمتواصلة للحصول على راعى كنيسة لائق من إنجلترا. فقد جاء كثيرون وذهبوا ولم يكن أى منهم باعثًا على الرضى. (فالمهاجرون - باعتبارهم عبادا - كان من الصعب إرضاؤهم بصورة ملحوظة).

تحت مراقبة صارمة من برادفورد، وبدعم من قادة الكنيسة لشخصية قوية، ازدهرت مستوطنة بليموث. (لا يمكن قول نفس الشيء عن مستوطنات أخرى فى المنطقة). ونجحت المجموعة، جزئيًا، لأنها أخذت ميثاقها على محمل الجد. وكتب برادفورد على نحو مثير للاهتمام عن تجاربهم المنهجية فى العيش المشترك، مشيرًا إلى الطريقه التى قسموا بها الأرض بطريقة من شأنها أن تحرك قلب كارل ماركس، مع حصول كل عائلة على قطعة أرض تتناسب مع حجمها. وقد منحت الأرض فقط للاستخدام الحالي ولكن من دون نصّ على الميراث (133). وعمل النظام بشكل جيد، لفترة من الوقت، بين هؤلاء الرجال الورعين والعقلاء. ومع ذلك انتاب برادفورد شعور غير مريح حول هذا المشروع. كان يمتلك نسخة من كتاب دى ريبوبليكا لجان بودان (1586)، الذى كان الكاتب يسخر من خلال صفحاته من تمجيد أفلاطون للعيش المشترك، قائلًا أن الفيلسوف اليوناني لم يفهم أن بجعل كل الأشياء مشتركة، فإن المصلحة العامة لابد وأن تبيد. 4

ويشرح برادفورد أن جيل الشباب من المهاجرين، الذى يعتبر أن من بينهم من هم الأكثر قدرة وملاءمة للعمل والخدمة، كانوا يكرهون العمل لصالح زوجات الرجال وأطفالهم دون أى نفع يعود عليهم هم أنفسهم. ولقد اعتبروا هذا العمل نوعًا من العبودية، وقاوموه. ويبدو أن المؤلف نفسه كان يساند الشباب، ويرى أن النظام نفسه يخلق الغربة بين الرجال بعضهم البعض، وعلى ما يبدو فإنه يقلص ويلغى الاحترام المتبادل الذى ينبغي الحفاظ عليه فيما بينهم. (134) وفى هذا القلق حول النشاط المجتمعي، يتوقع برادفورد مخاوف من وجود دوامات فى المجتمع الأمريكى عند كل منعطف، حيث يتساءل المواطنون عن جدوى الدرجة التى ينبغي أن يجتمعوا بها معًا من أجل تحقيق الصالح العام، وخلال الحرب الباردة (التي ابتليت بها الولايات المتحدة لجزء كبير من النصف الثاني من القرن العشرين)، أصبح هذا الخوف محمومًا مع كراهية كل أنواع العلاج الاشتراكى و جميع أشكال التفكير الجماعي.

لا يزال الأمريكيون يقاومون تقاسم الثروة، إلا فى شكل إحسان طوعى. وهناك شعور عميق الجذور أن المرء ينبغى ألا يعمل إلا لمصلحته، دون اعتبار للمجموعة الأكبر. ومع ذلك يجب أن لاينظر إلى هذا إلا على أنه ضرب من خطابنا الوطني. إنه دفعة متسقة من الجانب الطائفي تظهر طوال تاريخنا، وخصوصًا مع مختلف التجارب المعروفة فى الحياة الفاضلة التى أصبحت بارزة فى القرن التاسع عشر، بما فى ذلك المتوافقين والهزازين ، والباحثين عن الكمال فى مستوطنة أونيدا. وبمعنى ما، فإن هذا التجريب يولد من جديد فى جماعات الخنافس التى لاتعد و لاتحصى التى ظهرت فى أواخر الستينيات والسبعينيات. ومن المدهش بالتأكيد قراءة برادفورد فى ضوء التطورات التى جرت فى وقت لاحق، لإدراك كيف بدأ الحديث عن هذا الموضوع فى هذه البلاد.

وتحكى ملحمة برادفورد المستمرة عن وصول الوافدين الجدد. كان بعضهم يأتي لخداع المهاجرين، والبعض الآخر ببساطة يأتى بحثًا عن لقمة العيش الكريمة. . ويسمع المرء أيضًا عن المستوطنات المجاورة، وكان القليل منها متماسكًا مثل مجموعة بليموث.

وبالطبع فإن مستوطنة خليج ماساتشوستس، أصبحت فى نهاية المطاف المستوطنة المهيمنة فى نيو إنجلند، وكان مركزها فى بوسطن وجذبت شخصيات مهمة مثل جون وينثروب (1588–1649). وبالفعل نشأت شركة فى المنطقة التى تعرف حاليًا باسم بوسطن فى أوائل 1623، تسمى شركة دورتشستر، متخصصة فى صيد الأسماك قبالة ساحل كيب آن.

ومن بين أكثر الشخصيات لفتًا للانتباه والذين كتب عنهم برادفورد الكابتن روبرت جورج، الذى وصل إلى خليج ماساشوستس مع مسافرين وعائلات شتى، كانوا يعتزمون البدء فى إقامة المزارع. وفى نهاية المطاف استبعد ويستون توماس باعتباره الخصم الرئيس لمجموعة بليموث، على الرغم من أن ويستون استمر فى إثارة المتاعب لمستوطنة چورج شيس كذلك. وقد تحمل برادفورد جهدًا كبيرًا للرد على التهم التى وجهها للمهاجرين المسافرين الذين زاروا المستوطنة ووجدوا أنها ملجأ للعوزة، ومن بين الشكاوى التى قدمت ضدها عدم التسامح و الافتقار إلى التنوع الديني. وردًا على ذلك يؤكد برادفورد ببساطة أنه لم يكن هناك أى خصام أو معارضة، بين مستوطنى بلايموث. ورجوعًا للجدل عن العمل المجتمعى مقابل العمل الخاص، كان هناك اتهام بأن بعض أعضاء المستوطنة يرفضون العمل من أجل الصالح العام (158). وكتب برادفورد أن هذا ليس صحيحًا كليةً، لأنه على الرغم من أن بعض (العمل) لم يكن يتم عن طيب خاطر، وأنه كان هناك آخرون غير أمناء فإن الجميع كانوا يبذلون كل ما فى وسعهم، إن أسوأ شيء هو أن يحصل المرء على غذائه بالإضافة إلى شيء آخر(158).

وربما تتركز اللحظة الأشد حيوية فى اليوميات على شخصية نابضة بالحيوية هى توماس مورتون وهو يستمتع ويعربد فى ميرى مونت، والذى أصبح مادة أسطورية، لاسيما عندما أعاد ناثانيال هوثورن تخيلها وتخطيطها فى كتابه «ماى بول فى جبل ميرى» (1836)، وهى قصة كلاسيكية تستند إلى حادثة وصفها برادفورد. كان مورتون (1576–1647) فارسًا بكل معنى الكلمة، وله عقلية متحررة إنسانية، ولكنه كان غير محترم وقد أبحر أول مرة إلى العالم الجديد فى عام 1622، على الرغم من أنه عاد بعد ذلك بعام، ينتقد المهاجرين الذين

اعتبرهم غير متسامحين. رجع إلى نيو إنجلند فى 1624، كجزء من المشروع التجاري الذى هدد بوضوح مجموعة برادفورد، التى كانت تعتمد على تجارة الفراء. وقد كسب مورتون ورجاله جيدًا قلوب القبيلة المحلية، الجونكويتز، الذين وصفهم فى وقت لاحق بأنهم أكثر تحضرًا من نظرائهم الأوروبيين فى بليموث.

واختلف مورتون مع شريكه فى التجارة ورحل هذا الأخير إلى فيرجينيا، وترك مورتون وفرقته المرحة ليمتعوا أنفسهم. ويبدو أنهم قاموا بذلك. ووفقًا لبرادفورد «فإنهم سقطوا فى الفجور وعاشوا حياة فاسقة، ملقين بأنفسهم فى جميع أنواع انتهاك المقدسات»(227). وقد وصف مورتون بأنه «أستاذ فى سوء الحكم على الأمور» وأشار إلى أن هذا الشخص الإنجليزي وأتباعه» عاشوا حياة الفسق والشرب والرقص مع بعضهم لعدة أيام، يدعون النساء الهنديات لمرافقتهم، يرقصون ويمرحون، ويتمايلون معًا مثل العديد من الجنيات، بل كانوا يقومون بأسوأ الممارسات. «والواقع أن مورتون كان يتاجر فى الكحوليات والمدافع والفراء، ولهذا ربما كانت المنافسة الاقتصادية أكثر من أى شىء آخر هى التى حفزت مستوطني بليموث على العمل». وكما كتب هوثورن فى وقت لاحق مشمئزًا: لا فإنه لسوء الحظ، كان هناك رجال فى العالم الجديد مؤمنين إلى درجة كبيرة وأكثر صرامة من هؤلاء المصلين فى ماى بول». وهو يشير، بطبيعة الحال، إلى المهاجرين.

وكتب المستوطنون فى بليموث إلى مورتون لتحذيره من سلوكه غير اللائق والخطير. فالمؤكد أن بيع الأسلحة للقبائل الأصلية ليس شيئًا جيدًا لأى أحد. وبعد قليل أرسلوا الكابتن ستانديش ورجاله لمداهمة مجمع مورتون، وقد فعلوا ذلك، على الرغم من أنه لم يقتل أى رجل أو يصاب بجروح. كان مورتون وفرقته فى حالة سكر شديدة لدرجة أنهم لم يستطيعوا حمل أسلحتهم الثقيلة. وتم جرّ مورتون ليمثل أمام برادفورد، الذى لم يجرؤ على إعدام رجل على اتصال جيد بالملكيين فى الوطن. وبدلًا من ذلك، تم نفيه إلى جزيرة صغيرة قبالة سواحل نيو هامبشير، حيث التقطته سفينة تجارية وأعادته إلى إنجلترا.

وكان لمورتون العديد من الأصدقاء المهمين فى لندن، بمن فيهم سير فرديناندو جورجي- والد روبرت جورجي الذى كان من مؤيديه الأصليين. وبمساعدة من هؤلاء الزملاء شن حملة دعائية ضد المهاجرين، ونشر تقريراً حياً عن الحياة فى العالم الجديد، بروايته هو عن الأحداث التى وقعت، فى كتابه المعنون كنعان الإنجليزية الجديدة (1637) وهذا الكتاب الرائع يحتفل بجمال المناظر الطبيعية والخيرات فى نيو إنجلند وشعبها الأصلي وغالبًا ما كان يسخر من المستوطنين البروتستانت. وكان قلم مورتون، فى الواقع، أقوى من سيوف كثيرة، و ألحق ضررًا كبيرًا بصورة مزرعة بليموث بين الطبقات الراقية فى بريطانيا. وبتحد شديد، عاد إلى نيو إنجلند، وزج فى السجن طوال فصل الشتاء الرهيب، و توفى فى نهاية المطاف بين الإنجليز المستوطنين فى ولاية ماين، بعيدًا عن برادفورد وبليموث، فى 1647.

إن من مزرعة بليموث كيوميات هى رواية قصصية، يستطيع الفرد أن يسمع عن فضائح مختلفة بها، والكثير منها مرتبط بالحاكم السابق لبرادفورد الذى كان يدعى إسحاق الرتون الذى كان يمثل مستوطني بليموث فى التعاملات مع المستثمرين فى انجلترا. وكما يشير برادفورد فقد كان لآرتون مصالح تجارية خاصة به، وهذه المصالح غالبًا ما كانت تتعارض مع تلك التى يدعو لها زملاؤه المستوطنون. وقعت مستعمرة بليموث تحت إدارة برادفورد فى المزيد من الديون، على الرغم من أنه لم يكن رجل أعمال وعانت المستعمرة من مشاكل استمرت لفترة طويلة بعد أن توقف الرتون عن تمثيلها. وكما كتب برادفورد فقد أعادت المستوطنة بين عام 1631 وعام 1636 سفنًا إلى انجلترا محملة بفراء القندس والثعالب الذى تبلغ قيمته 10000 £ جنيه إسترليني (ما يعادل مليونى دولار اليوم). ومع ذلك، يبدو أن ديونهم التى بلغت 6000 جنيه إسترليني لم تنخفض أبدًا. واستمر ذلك حتى عام 1648، ولكن عندما تم بيع قطعة كبيرة من الأرض كان ذلك بمثابة حل أخير للكثير من الديون مع المستثمرين الإنجليز أو «المغامرين».

كان المرض والجوع من الثوابت فى حياتهم، كما فى حياة الهنود. وقد وصف برادفورد جائحة الجديرى الرهيبة. ولافتقارهم للفراش والبياضات وقع الهنود فى حالة يرثى لها لأنهم

كانوا يرقدون على الحصير الخشن، وأخذ الجديرى يهدد ويحطم ويستشرى من شخص إلى آخر، وتفسخت بشرتهم بسبب النوم على الحصير الذى كان خشنًا. وعندما كانوا ينقلبون إلى الجانب الآخر، كان الجانب كله يتسلخ فى آن واحد. كانت هذه المعاناة الرهيبة «توقع الرعب فى قلب من يشاهدها» (302). وشعر المهاجرون بالشفقة تجاههم، وجلبوا لهم يوميًا الخشب والمياه وأوقدوا لهم النيران ومنحوهم قوت يومهم، وقاموا بدفنهم عندما قضوا نحبهم، وهرب عدد قليل منهم على الرغم من أنهم قاموا بكل ما يستطيعون قيامه لحماية أنفسهم من الخطر، وتوفى الزعيم نفسه حينذاك وجميع أصدقائه وأقاربه تقريبًا، ولكن بسبب رحمة وعناية الله، لم يصب أحد من الإنجليز بالمرض بهذا القدر أو لم يلطخ أى شخص بهذا المرض، على الرغم من أنهم قاموا بالأعمال اليومية لهم فى عدة أسابيع معًا» (303)، وفى هذا التراحم رأينا الأساس للعلاقات الجيدة التى سادت بين الهنود والمهاجرين على مدى أكثر من نصف قرن من الزمان.

بيد أن الأمور ساءت تدريجيًا. كان العدد الأصلي من عدد المؤمنين قليلًا منذ البداية، وحتى مع إنجاب الأطفال، وتحول الغرباء للإيمان، لم يستطع الانفصاليون مواكبة التغيرات السريعة فى الطبيعة السياسية والدينية فى نيو إنجلند. كانت الاختلافات المذهبية دائمًا تمثل مشكلة، مثلما حدث مع روجر ويليامز، الذى عاش بينهم قبل أن يرحل لكى يؤسس رود آيلاند. لم تستطع مجموعة برادفورد أن تتواءم مع المتشددين الآخرين، مثل من كانوا فى خليج ماساشوستس أو فى ولاية كونيتيكت وغيرها. بالإضافة إلى ذلك، قام برادفورد بتسجيل انهيارِ الأخلاق بعد عام 1642، مع «الخطايا سيئة السمعة المتباينة» (351). وكان البعض، فى الحقيقة غريبًا فى مسلكه إلى حد كبير.

ومن بين أسوأ الخطاة، كما يقول، كان توماس جرانجر، الذى اعترف بارتكاب اللواط مع فرسه، وبقرة، واثنين من الماعز وخمس نعاج، واثنين من العجول، وديك رومى. وكان لهذا الذوق المركب والمتنافر تأثير سيىء للغاية بين الآباء المهاجرين، وحوكم، وكما يتوقع تم إعدامه وفقًا للشريعة (كما جاء فى سفر اللاويين 15: 20). و الواقع أنه حتى الحيوانات البائسة التى عانت من اهتماماته الغريبة تم إعدامها و أُلقيت فى حفرة. وكان ماحدث هو أن السيد جراجنر قد التقط عاداته السيئة من آخرين، لدرجة أن برادفورد تعجب كيف أن هذا

العدد الكبير من الأشخاص السيئين قد وجدوا لأنفسهم موطنًا فيما بينهم. وأخذ يعزى نفسه قليلًا عندما أخذ يتذكر بأن «عندما يبدأ المرء فى بذر بذور جيدة، سيكون هناك رجل حاقد يسعى إلى بذر السيئات»(357).

وعند قرب نهاية يومياته، تأمل برادفورد فى طول عمر المهاجرين الأصليين، ملاحظًا أنه بالرغم من التغييرات الكثيرة والمصاعب والمواجهات مع «أعداء كثيرين»، فقد عاش عدد منهم إلى سن الشيخوخة. ومن بين هؤلاء كان كل من بروستر ووينسلو، وهما اثنان من ركائز مجموعة بليموث. وفى الحقيقة فقد أنهى برادفورد سرد تجربته الطويلة بالرحيل النهائي للينسلو إلى إنجلترا، حيث تم إرساله للدفاع عن مستعمرة بليموث ضد التهم المتعلقة بالسلوك الفاضح المقامة ضدهم فى المحاكم. كان أوليفر كرومويل- الزعيم البروتستانتي الكبير- يسيطر على إنجلترا آنذاك، بعد أن خلع الملك تشارلز الأول عن عرشه وقطع رأسه وعلى ما يبدو فإن كرومويل قد أحب وينسلو. وقام بإرساله بأمر قيادة جزئية مع قوة تدخل سريع، استولت على جاميكا فى عام 1655، وإن كان وينسلو قد توفى فى رحلة العودة إلى إنجلترا- وكان هذا خسارة شخصية رهيبة لبرادفورد.

وانتهت اليوميات نهاية محزنه، قصة نجاح تلاها التشرذم والتفكك، وضياع المثل العليا. فلم يكن لدى جيل الشباب أيديولوجيات متماسكة مثل آبائهم وأمهاتهم. كما أنهم لم يتقاسموا الرؤية المتجسدة فى الميثاق الأصلي. وقد فطر كل هذا قلب برادفورد، مسجلًا بعض النفور من الزيادة فى أسعار الذرة والماشية التى أدت إلى السقوط النهائي لبلايموث، مع اكتساح الجشع الشخصى للإحساس بالمجتمع.

4

اشتهر كوتن ماثر (1663-1728)، وهو فقيه لاهوتى بروتستانتي وشخصية محورية فى قصة الاستيطان فى أمريكا، بأنه أشار إلى برادفورد بأنه «موسى الخاص بنا»، لكنه لم يكن جليلًا بهذا القدر الذى يوحى به ذلك ولم يدع لنفسه استحقاقات كبيرة. فكما يرى القارئ فى يومياته، كان رجلًا متواضعًا، وإن كان صارمًا و يفتقر إلى روح الدعابة. وقد كتب بشكل جميل حول مزرعة بليموث، بأسلوب مقتصد و محدد، متفهمًا المغزى التاريخي لقصة المهاجرين، فضلًا عن قوتها كأسطورة. واستغل فى الواقع لأقصى حد رنينها الأسطورى، حيث قارن المستوطنين بالإسرائيليين فى رحلتهم إلى أرض الميعاد (على الرغم من الإشارة فى كثير من الأحيان إلى مجموعته الخاصة على سبيل المقارنة، وليس كوسيلة ليوحي بأنه هو وأخوته كانوا تمامًا مثل القبائل الرحالة) 5. وفى حين أن القصة عن «عيد الشكر الأول» تظل باقية فى العقل، وأنها لعبت دورًا فى تشكيل إحساس أمريكا بنفسها وعلاقاتها مع القبائل من السكان الأصليين، فإن هناك قصة أكبر هنا.

إنها قصة شعب اختار العيش بعيدًا، ليشق طريقه فى العالم، مهما كان ذلك صعبًا، ونجح إلى حد كبير، لنصف قرن تقريبًا على الأقل، فى ترجمة رؤيته لمجتمع عادل ومسيحي إلى واقع. لقد كانوا بطريقتهم الخاصة مجموعة ديمقراطية، وكان العمل معًا لمصلحة المجتمع مثيرًا للإعجاب، وإن كان معقدًا. ويبدو التفكك النهائي لمستوطنة بليموث جزءًا من القصة الأمريكية كذلك، فإن المرء لايمكنه الحفاظ على أية رؤية مهما كانت جميلة إلى الأبد. ذلك أن الجشع والمصلحة الشخصية يفسدان الهيكل السياسي، مع سعى الأفراد لتحقيق ثرواتهم الخاصة على حساب المجتمع ككل. وربما كانت هذه هى، القصة الشاملة التى يرويها برادفورد.

ومن الجدير بالذكر أن يوميات برادفورد هى فى الأساس وثيقة دينية، شهادة شخصية، يغمرها إحساس المؤلف بمشيئة الله فى التصرف فى حياة المؤمنين. كان المستوطنون الإنجليز فى العالم الجديد عمومًا مسيحيين متدينين، منحهم المواثيق فى ولاية فرجينيا الملك جيمس الأول من «أجل تنصير هؤلاء الذين لازالوا يعيشون حتى الآن فى جهل بالمعرفة الحقيقية وعبادة الله» 6. ومع ذلك فلم يكن أى شىء حدث فى ولاية فرجينيا يقترب من الحماس الديني الذى أبدته مختلف الفروع من التزمت الذى ساد فى نيو إنجلند. فقد اشتهر جون وينثروب، زعيم مستعمرة خليج ماساشوستس، بأنه أعلن فى خطبة شهيرة على سطح السفينة أرابيلا فى عام 1630: «يجب علينا الأخذ فى الاعتبار أننا سنكون مدينة على تل» وتحدث مرارًا عن أنهم أبرموا ميثاقًا مع الله. ولكن برادفورد هو الذى جسد الرؤية الدينية للمتشددين فى أنقى صورها، والتى تهدف لإحياء «المسيحية الأصلية»، كما يذكر بيري ميللر.

وتتصدر يوميات برادفورد مرتبة عالية بين العديد من التقارير عن المستوطنات الأولى فى العالم الجديد، ولكن ينبغي على المرء فى الوضع المثالى أن يقرأها فى مقارنة مع كتاب قصة مورت المذكور أعلاه، والذى ظهر بعد عامين فقط من الرسو الأول فى بليموث والذى يشع نضارة الملاحظة. وكان عنوانه بالكامل «رواية أو يوميات مزرعة إنجليزية أقيمت فى بليموث» وتتألف من 10 فصول، تم توقيع خمسة منها فقط. و الواقع أنه لا يُعرف سوى القليل عن الرجل الذى يدعى مورت، حيث يرد اسمه فى العنوان. ومن الواضح أنه كتب قسمًا مختصرًا فحسب، على الرغم من أنه (وفقًا لإحدى النظريات) ربما كان الاسم خطأً مطبعيًا لجورج مورتون، الذى كان عضواً فى جماعة ليدن الأصلية (انضم مورتون إلى مستعمرة بليموث فى وقت مبكر جدًا، على الرغم من أنه لم يكن فى ماي فلاور). ولم يكن اسم المؤلف مرفقًا بالأقسام الخمسة الرئيسية، لكنه كان دائمًا يفترض أن إدوارد وينسلو قام بالكثير للكتابه وأن وليم برادفورد كان هو نفسه مساهم آخر.

وينبغي أيضًا قراءة كتاب كنعان الإنجليزية الجديدة لتوماس مورتون إلى جانب كتاب برادفورد، حيث إن له شأن كبير يجعله يستحق التوصية به. إن حكاية مورتون حول العيش فى البرارى بين الهنود ذاعت بعيدًا ولم تلق قبولًا فى الأوساط البروتستانتية. والواقع إن شد وجذب الحرب بين الفاسق العلمانى والمتطهر العفيف أمر ثابت ومستمر فى تاريخنا، ويبدو أنه قد بدأ مع مورتون وبرادفورد. ومع ذلك فإن مورتون لم يكن مجنونًا ولا فاسداً، على الرغم من أنه وسع حدود السلوك المقبول. كان شخصية حماسية قاوم بشجاعة استهجان المتعة الحسية، والسكر والعربدة التى تتيحها الحرية المفرطة (نظريًا على الأقل) فى العالم الجديد. وعندما طُرد من نيو إنجلند، وعاد إلى لندن، حيث كتب قصة كنعان الإنجليزية الجديدة لتبرير مسلكه هو وأتباعه، ولتعزيز وجهة النظر المختلفة لنيو إنجلند، ومشاهدها الطبيعية والبشرية.

كان شريرًا فى الهجاء، ولعوبًا على مستويات عديدة، إذ كان دائمًا يحتقر المتشددين. ويقدم سرد مورتون الذى نشر فى ثلاثة كتب نظرة جديدة عن الشعب الأصلى فى أمريكا الشمالية الذى كان يعتبرونه عادة أنه شعب من المتوحشين الذين يحتاجون إلى الهداية لدين الحق. ويدافع جال ديمبسي، وهو محرر حديث كنعان الإنجليزية الجديدة، عن مورتون بطريقة متمكنة ويبرز أن ممارسة التعايش بين المستوطنين الأوروبيين وأبناء القبائل كان يعتبر بالكاد أمرًا استثنائيًا خلال القرن الأول من الاتصال الأوروبي مع العالم الجديد. لم تكن احتفالات أول مايو الراقصة شاذة. وقد أشار ديميس أيضًا إلى أن تجارة السلع الخطرة أو المحرمة، بما فى ذلك الأسلحة والمشروبات الكحولية كانت أيضًا شائعة فى ذلك القرن بعد اكتشاف كولمبس للأمريكتين 8. بعبارة أخرى، إن ما كان يفعله مورتون وفرقته المرحة فى ميرى مونت لا يعتبر غريبًا كما كان يبدو لبرادفورد والمستوطنين فى بليموث. كان ذلك عملًا معتاد مهما كان بغيضًا بالنسبة للضمير البروتستانتي.

لقد ركزت على يوميات وليام برادفورد أساسًا بسبب هالتها الأسطورية. حيث اكتسبت مستوطنة بليموث رنينًا فريدًا فى ذاكرة معظم الأمريكيين. ومع ذلك لم تكن مستوطنة بليموث هى أول مستوطنة كبيرة للأوروبيين فى العالم الجديد. فقد وصل الإنجليز إلى ولاية فرجينيا، فى جامستون، فى 1607، على الرغم من أن هذه المستوطنة كانت بعيدة عن النجاح، وسرعان ماتردت فى الوحشية والفوضى، كما وصفها جون سميث وافر الإنتاج فى أعمال عدة، بما فى ذلك التاريخ العام لولاية فرجينيا (1624). وكانت العلاقات بين هؤلاء المستوطنين والسكان المحليين، والهنود من قبيلة باوهاتان، علاقة نكد إلى حد كبير. ويقول إدموند س مورغان، وهو مؤرخ مبرز من جامعة ييل، إن جيمس تاون كان فاشلًا مثيرًا للشفقة، ويدعي أن عادات العمل لدى المستوطنين نادرًا ما كانت مثالية، إذ كانوا عاطلين عن العمل فى كثير من الأوقات. ومن ناحية أخرى، تشير الحفريات الأثرية الأخيرة فى جيمس تاون إلى أن سميث وآخرين ربما بالغوا فى المشاكل القائمة فى جيمس تاون بطرق تخدم مصالحهم الذاتية. بيد أنه حتى جيمس تاون، يجب أن تتخلى عن الأولوية لمستوطنة سانت أوغسطين، وهى مستوطنة مزدهرة فى ولاية فلوريدا يعود تاريخها إلى عام 1565. وبحلول عام 1608، كان الأسبان قد استقروا أيضًا فى سانتافى وفتحوا بذلك جنوب غرب أمريكا الشمالية للأوروبيين.

وقد تم تأسيس رأس جسر ساحلى من المتشددين فى نيو إنجلند، وتفوقت مستعمرة بليموث على جيمس تاون فى النظام والتماسك. واكتسبت مكانة أسطورية أساسًا بسبب عيد الشكر الأول كما وصفه برادفورد والذى تحول فيما بعد إلى عطلة أسطورة وطنية تسعى للمصالحة وإقامة علاقات ودية بين أفراد المجتمع، وكان لدى شركة خليج ماساشوستس الأكثر بروزًا وقوة العديد من المؤرخين الخاصين بها لكن بليموث كانت محظوظة فى كثير من النواحي لوجود برادفورد بها. ويحتل كتاب من مزرعة بلايموث مكانًا فريدًا بين السجلات لهذه الفترة. وهو فى حد ذاته نص أدبي رائع، تمت كتابته بشكل واضح وواقعي وإنساني، والقصة تروى العديد من أوجه البقاء على قيد الحياة رغم كل المصاعب. وحقيقة

أن برادفورد وإخوته قد نجحوا فى إدارة العلاقات مع السكان الأصليين المعادين فى كثير من الأحيان أمر مرموق ويمثل إشادة بالدبلوماسية الصبورة وضبط النفس، ونموذجًا تقتدى به الأجيال القادمة. وفي الواقع، كان الدمار الذى خلفته حرب الملك فيليب نتيجة لتجاهل النموذج الذى أنشأه برادفورد الحاكم و زملائه المهاجرون.

THE

FEDERALIST,

ON THE NEW CONSTITUTION.

BY PUBLIUS

WRITTEN IN 1788

TO WHICH IS ADDED,

PACIFICUS,

ON THE PROCLAMATION OF NEUTRALITY.

WRITTEN IN 1793

LIKEWISE,

The Federal Constitution,

WITH ALL THE AMENDMENTS.

REVISED AND CORRECTED

IN TWO VOLUMES

VOL. I

New-York:

PRINTED AND SOLD BY GEORGE F. HOPKINS,

At Washington's Head.

1802

2

الأوراق الفيدرالية

1

يجب أن تحتل الأوراق الفيدرالية مكانًا فى الصدارة فى أى قائمة من قوائم المطبوعات الأمريكية الأساسية لما لها من تأثير عظيم منذ أن طرحت رؤية لإقامة حكومة نيابية تمارس سلطتها على نحو جيد فى هذه القارة منذ أكثر من قرنين من الزمان. وهي تتألف من 85 مقالة تدافع عن الدستور الأمريكى المقترح، الذى كانت قد تمت صياغته مؤخرًا فى فيلادلفيا. وتم نشر المقالات فى الأصل فى صحف نيويورك عام 1787، 1788 ولكن سرعان ما تم تجميعها فى كتاب. وكان أسلوب الكتابة بلاغيًا بشكل صارخ (تم تعريف البلاغة بأنها «فن الإقناع») وتهدف إلى إقناع سكان نيويورك والناس فى بقية الولايات بالنظر على نحو إيجابي لهذه الوثيقة المثيرة للجدل التى كانت تحظى بالكثير من النقاد طليقي اللسان.

وتم التوقيع عليها باسم بوبليوس تكريمًا للقنصل الرومانى الممعن فى القدم «بوبليوس فاليريس بابليكولا» والذى يعني اسمه «صديق الشعب». واختيار هذا الاسم المستعار بعناية، أمر يستحق التفكير. وإلى جانب حقيقة أن مؤلفي المقالات فى القرن الثامن عشر كانوا فى كثير من الأحيان يختبئون وراء اسم روماني، فإنه على ما يبدو كان مما له دلالته أن بوبليوس كان هو المؤسس والمدافع عن الجمهورية الرومانية وهى شكل للحكومة التى كانت بمثابة نموذج واضح لواضعي الدستور. وقد آلت الجمهورية الرومانية (في النهاية) إلى الطغيان ومع ذلك فقد استمرت لعدة قرون. لقد فعل مؤسسو الجمهورية الأمريكية (مثل الثوريين الفرنسيين) كل ما بوسعهم لتعزيز التماثل مع روما السابقة. وفى الواقع فقد ذهب توماس جيفرسون بعيدًا إلى حدّ القول بأن جورج واشنطون قد تموضع أمام جان انطوان هودون، النحات المشهور، فى ثوب رومانى فضفاض ليصنع له تمثاله (وبحكمة شديدة لم يلتفت العامة إلى هذه الفكرة).

إن الكتاب الفيدرالي (كما كان يطلق عليه بالفعل، على الرغم من أنه سرعان ما اكتسب اللقب الأكثر شعبية) تمت كتابته من قبل ثلاثة أشخاص، فقد ألف الكسندر هاملتون (1755-1804) اثنين وخمسين مقالة، في حين كتب جيمس ماديسون (1751-1836) ثمانية وعشرين مقالًا. وكان جون جاي (1745-1829) مسئولاً عن 5 مقالات فقط. ربما تم تبادل عدد قليل من الأوراق جيئة وذهابًا بما يجعلها جهدًا مشتركًا، وبذلك يصبح المؤلفون الثلاثة مشاركين في قراءة المقالات التي نشرت من تأليفهم المشترك وأوضحت التعاون فيما بينهم بقدر اعتبار بوبليوس المؤلف الحقيقي وهو اسم يمثل جهدًا خليطًا من كُتاب قمعوا لحد ما فرديتهم وحتى شكوكهم وشعورهم بالتردد لدعم هذه الوثيقة المعمرة بصورة لافتة للنظر والتي كانت تكمن في صميم الحكومة الأمريكية. إن واضعي هذه الوثيقة، بطبيعة الحال كانوا يعرفون أن ما ظهر من مؤتمرهم في فيلادلفيا كان مجرد اقتراح يحتاج إلى ما لا يقل عن تسع ولايات للتصديق عليه لإقراره.

وليس من المبالغة القول بأن الأوراق الفيدرالية كان لها تأثير عميق على كيفية تفكير الأمريكيين في أنفسهم بوصفهم كيانًا سياسيًا، وأنها أضفت نغمة خاصة على الجمهورية. وهذه المقالات القوية جيدة الشكل والمقنعة تشكل الأساس الوطيد للحكومة الأمريكية، ولاتزال تلقي الضوء على كيف نتصور نحن الشعب المحيط السياسي والقانوني لبلدنا ومصيره.

2

كان مؤلفو هذه الأوراق الثلاثة من رجال التنوير المتشربين لكتابات مونتسكيو وجون لوك وديفيد هيوم من بين آخرين - وجميع الشخصيات التى تؤمن بتشكيل حكومة رشيدة ومتوازنة تخدم احتياجات شعبها. وتضع إيحاءات هؤلاء الكتاب فى الأوراق الفدرالية دستور بوبليوس بثبات فى إطار هذا التقليد من الفكر العلماني وقد أدرك الأوروبيون المستنيرون هذا جيدًا. فعلى سبيل المثال، فإن اللورد أكتون (وهو شخصية رئيسية فى الحياة العامة البريطانية) عندما تم تنصيبه كأستاذ لمادة التاريخ من جامعة كامبريدج أطلق على هذه الأوراق «لقب الأوراق ذات الأهمية القصوى فى أدب علوم السياسة» وعلى الصعيد المحلى قال جيفرسون - مؤلف إعلان الاستقلال وأحد واضعي الدستور الحاسمين - أن هذه الأوراق «هى أفضل تعليق على مبادئ الحكومة» التى جرت كتابتها فى أى وقت مضى[1].

إن كُتّاب الأوراق الفدرالية كانوا على ما يبدو خبيرين بأحوال الناس وعلى مستوي رفيع من الثقافة وعقلانيين حتى النخاع. إنهم يمتلكون معرفة واسعة عن التاريخ اليوناني والروماني وقد قرأوا عن فلاسفة التنوير الفرنسيين خاصة مونتسيكو، مؤلف كتاب روح القوانين (1748)، وفولتير، مؤلف الإنسانيات البارعة، ومؤلف كتاب كانديد (1759). وعملهم يكشف عن معرفتهم الوثيقة والمتعاطفة مع النظرية السياسية البريطانية (فضلًا عن الممارسة) مع ما يسمى التنوير الاسكتلندي الذي كان ديفيد هيوم مفكره الرئيسى وإن شمل فرانسيس هاتشيسون، الفيلسوف الذي كان يعتقد أن الفضيلة هي الدافع الرئيسي فى الحكم الجيد، وآدم سميث الذى ألف كتاب ثروة الأمم (1776). كان هذا مأخوذًا معًا يمثل التراث الغني والمقنع للرجال الذين استوعبوا بوبليوس ولايزل هو الأساس بالنسبة للولايات المتحدة الذي يحدد من أين أتينا ومن نحن.

كان كُتّاب الأوراق الفيدرالية رجالًا عمليين أخذوا على عاتقهم تخيل كيف يمكن للدستور أن يلعب دوراً في السنوات المقبلة مستهدفًا نظامًا للحكم من شأنه أن يعزز رفاه الشعب الأمريكي ويخلق توازنًا بين الحرية والاستقرار (أو «الأمان») - وذلك دائمًا مزيج دقيق، كما تعلمنا في سنوات ما بعد 11 سبتمبر. وحيث إن اثنين من هؤلا الكُتّاب (هاملتون ومادسون) كانا متواجدين في فيلادلفيا عندما تم وضع الوثيقة قيد المناقشة، فقد حظيا بفهم دقيق ومتميز لما كان يقصده واضعوها الأصليين.

وعادة ما كان القضاة والمعلقون القانونيون يعودون على مر القرون في كثير من الأحيان إلى الأوراق الفيدرالية في محاولة لكشف ما كان واضعوه يعنونه حقًا، حيث إن لغة الدستور نفسها غامضة في بعض الأحيان، وعرضة للتأويل. ومنذ البداية، كانت وثيقة دستور بوبليوس مصدرًا موثوقًا به. وفي عام 1825، أوصى جيفرسون بهذه المقالات باعتبارها أفضل دليل على ما كان في ذهن واضعي الدستور، ربما على نحو أفضل حتى من المستند الفعلي نفسه! إن عددًا قليلًا جدًا من الأمريكيين قرأ فعلًا الدستور، رغم أن هناك انطباعًا عما تقوله هذه الوثيقة ظل باقيًا في الذاكرة الأمريكية. ربما كان بوبليوس نفسه هو الذي زود هذه الذاكرة بهذا (واستغرق. ماديسون وقت كبير في تدوين الملاحظات التفصيلية خلال المؤتمر الذي عقد في فيلادلفيا، و كانت هذه مفيدة جدًا له في كتابة هذه الأوراق).

وقام ماديسون بصياغة وثيقة الحقوق في عام 1789، بالاعتماد على ملاحظاته المستمدة من المؤتمر ولكنه استخدم في معظمها وثائق الولايات المختلفة الخاصة بالحقوق - خاصة التعديلات المقترحة، من قبل السلطة التشريعية في ولاية ماساشوستس، حيث إن عدم وجود وثيقة الحقوق هناك كان عائقًا خطيراً أمام التصديق عليه. وكان المحركون أصلًا وراء هذه السلسلة من التعديلات العشرة للدستور هم المناهضون للفيدرالية، الذين اعتقدوا أن الأمر يستحق تعداد بعض الحقوق الطبيعية أو الفردية مثل حرية التعبير وحرية الصحافة والحق في التجمع - وإن لم يدرج ماديسون بعض التعديلات الرئيسية المناهضة للفيدرالية

مثل تلك التى كانت تحد من سلطات الحكومة الاتحادية المتمثلة فى فرض الضرائب أو قدرتها على إقامة جيش.

وكما هو متوقع، فإن هناك تقليدًا طويلًا من التعليق على الأوراق الفيدرالية. وقد قام جاري ويلز بعمل رائع لتلخيص هذا التقليد فى كتابه شرح أمريكا (1981)، وإعادة التقييم المنشطة التى قام بها لبوبليوس. ويعتبر ويلزملتون ومادسون تلاميذًا لهيوم، - وهى مقولة استمدها كما يقول من دوجلاس أدير وهو مؤرخ مؤثر فى منتصف القرن العشرين. وكان صبر ويلز قليلًا إزاء إعادة التفسير الشهيرة لبوبليوس التى طرحها تشارلز بيرد فى كتابه التفسير الاقتصادي لدستور الولايات المتحدة (1913) وهو عمل محوري ينظر إلى ماديسون (خاصة باعتباره من القائلين بالحتمية الاقتصادية كان يرغب قبل كل شيء فى حماية مصالح الأقلية الغنية كما هو الحال فيما جاء فى المقال الشهير رقم 10 الذي يعتبره المؤرخون فى العصر الحديث نقطة ارتكاز للأوراق الفيدرالية.

لقد اجتذب المقال رقم 10 قدرًا كبيرًا من الاهتمام على مر السنين ولكن الأوراق الفيدرالية تتضمن ما هو أكثر مما عرضه ماديسون فى هذا المقال القصير والذى تمت قراءته (من قبل بيرد وآخرين) باعتباره طمأنة للأقلية الغنية، بأن الغوغاء الذين لا يملكون أرضًا لن يسيطروا على البلد. والواقع أن دستور بوبليوس يقدم صيغة عن النزعة الجمهورية الأمريكية مريحة تمامًا تكفل وضع الأغلبية فى مركز السيطرة. لقد نشطت فكرة الديمقراطية النيابية الرجال الذين وضعوا الدستور الذى عكس هذا. وكانت هناك جرأة طائشة تقريبًا فى كتابة النص. ويكتب هاملتون بصفة خاصة بحيوية نادرًا ما نلاقيها فى مقالات من هذا النوع، شاعرًا عن حق باللحظة التاريخة التى احتلها. فقد كان بعد كل شيء حاضرًا ولادة الجمهورية والحكومة الحديثة الأولى التى تسعى لتحويل مبادئ التنوير إلى عمل. كان يمكن الشعور بالتفاؤل الحذر فى الشوارع، وفي أذهان الواضعين الأصليين للدستور، وفى مقاعد الحكومة فى جميع أنحاء الولايات الثلاثة عشر (كان لدى إحدى عشر ولاية بالفعل مجموعة رائعة من الدساتير الخاصة بها: وكانت رود آيلاند وكونيتيكت فقط لاتزالان تعملان انطلاقًا

من المواثيق القديمة الاستعمارية). لقد تم حينذاك اكتساح الخرافات والامتيازات-وهما الدعامتان التوأم للعالم القديم. كان لابد من التأكيد على أن الفضيلة العامة سوف تسود، وأن يقوم الناس بكبح جماح أنفسهم ويوافقون على النظام الدقيق للحكومة المختلطة مع فصل السلطات بصياغة بارعة بما فى ذلك عمليّات التدقيق والموازنة كما طرحت فى فيلادلفيا.

لكن هل يمكن للناس حقًا «قراءة» **الأوراق الفيدرالية** فى الوقت الحاضر؟ وهل ينبغي عليهم ذلك؟ الجواب على السؤالين هو «نعم». وعلى الرغم من أنها كتبت سريعًا (لابد أن هاميلتون كان يكتب ألف كلمة يوميًا أو نحو ذلك) فهي نماذج من النثر الكلاسيكي باللغة الإنجليزية: فهى واضحة وجازمة وتنطوى على فروق دقيقة وتمتاز بمرونة غير عادية وشعور ناضج بالطاعة وبعيدة كل البعد عن الأسلوب أحادى المقطع والمسطح (مع الخوف من الأحكام الفرعية) والشائع اليوم بعد همنجواي. وتم تحديد الهدف الرئيسي من هذا الكتاب منذ الفقرة الأولى بواسطة هاملتون الذي حاج بقوله «يبدو أنه تقرر لشعب هذا البلد من خلال سلوكه وقوته، البت فى المسألة الهامة الخاصة بما إذا كانت مجتمعات الرجال قادرة أم لا على إقامة حكومة جيدة من خلال التفكير والاختيار أو ما إذا كانوا يتجهون إلى الاعتماد للأبد فى دستورهم السياسي على الصدفة والقوة» (27). وهى لا تبلغ حدًا من الجدية أكثر من ذلك.

وعن طريق الصدفة تم منح مجموعة صغيرة من الرجال المتعلمين والمستنيرين، (كما لو أن المرأة لم تكن موجودة فى هذا الوقت)، الفرصة لتشكيل نظام الحكم من أجل الأجيال لخلق نموذج مجد من الديمقراطية النيابة. وقد نجحوا ببراعة فى تشكيل نموذج الحكم الذي من شأنه أن يضع موضع التطبيق إرادة الأغلبية مع حماية مصالح الأقلية. وضوابط الكبح فيه، نظريًا تدحر إمكانية نشوء الطغيان - الذى كان يمثل مشكلة دائمًا فى الماضي، حيث إن التاريخ وحتى أواخر القرن الثامن عشر كان يمثل سلسلة من الطغاة والمستبدين الذين شنوا الحرب على بعضهم البعض وسحقوا الشعب تحت أحذيتهم. وكانت فكرة تشكيل حكومة

علمانية منتخبة من قبل الشعب ومن أجل الشعب هى نفسها شيئًا مذهلًا فى عام 1787، عندما بدأ هاملتون ومادسون وجاي يشرحون للجمهور الحذر مزايا الدستور المقترح.

ولم يجد كتاب الأوراق الفيدرالية مهمة سهلة أمامهم حيث كانت هناك معارضة ذكية متحمسة للتصديق على الدستور. فقد حاج الكُتاب الموهوبون للغاية ضد الدستور تحت أسماء مستعارة مثل بروتوس والمزارع الاتحادى. ورعد وأبرق باتريك هنري وجورج ماسون بشدة ضدها، أيضًا ونال كل منهما إعجاب الخطباء والكتاب.

ورفض ماسون، الذي كان حاضرًا فى فيلادلفيا التوقيع على الوثيقة الختامية : و الواقع أنه أدلى بمائة وستة وستون خطبة ضدها من ساحة المؤتمر. وكان اعتقاده الرئيسي هو أن مجلس النواب ينبغي أن يكون له نصيب الأسد من السلطة، وينبغي كبح جماح السلطة التنفيذية، فهو يرى أيضًا أن إعطاء الرئيس سلطة إعلان الحرب وإدارتها بنفسه شيء خطير وسيؤدي بالتأكيد إلى النزاعات التى لن يسيطر الشعب عليها كثيرًا. وفي سياق مماثل قال إنه يعتقد أن مجلس النواب وليس الرئيس ينبغي أن يعين القضاة الفيدراليين والقضاة فى المحكمة العليا حيث إن رئيسًا ما قد يجد مايغربه (وتتوافر له قدرة أكبر) على إنشاء محاكم موالية له المحاكم الحزبية.

وحتى بنيامين فرانكلين كشخصية حكيمة جدًا ورجل معتدل والذي كان وجوده الرمزى فى المؤتمر فى فيلادلفيا حاسمًا فى نجاحها، وأدرك أن المشاكل متأصلة فى الوثيقة كما تم وضعها. كان يبلغ من العمر واحد وثمانين عامًا فى ذلك الوقت وكان أضعف من أن يتحدث فى كثير من الأحيان من على منصة المؤتمر. وقد فوض فرانكلين جيمس ويلسون، وهو صديق جيد، أن يقرأ ملاحظاته الختامية لزملائه واضعي الإطار لها. ويجب أن يتم قراءتها كالآتى «أنا أوافق على هذا الدستور مع كل مساوئه، إذا كانت من هذا القبيل: لأنني أعتقد أن الحكومة العامة ضرورية بالنسبة لنا، وليس هناك أي شكل من أشكال الحكم سوى ما قد يكون مبشراً وذو نفع للشعب فى حالة إدارته جيدًا للإدارة، وأعتقد أن هذا هو المرجح أن تتم الإدارة بشكل جيد لعدة سنوات ويمكن أن ينتهي إلى الاستبداد كما حدث مع غيره من قبل،

وعندما يصبح الشعب فاسدًا بحيث يحتاج لحكومة استبدادية، وتكون غير قادرة على إقامة دولة أخرى». ولهذه النبوءة المأساوية فقد أضاف ملحوظة للتصالح قائلاً» أشك أيضًا ما إذا كان هناك أية اتفاقية يمكننا الحصول عليها نستطيع تقديم أفضل دستور «2».

وقدم هاملتون ومادسون تحفظاتهما الخاصة حول هذه الوثيقة المقدسة التى أصبحت مقدسة آنذاك (كان ماديسون، مثل توماس جيفرسون، لا يحبذ فكرة قائد تنفيذى قوى وفضل سلطة تنفيذية من ثلاثة أشخاص. وعارض أيضًا فكرة تعدد مرات الولاية). لكنهما أدركا أن تلك فرصة فريدة لتحريك مسألة ما أيضًا أن هذه فرصة فريدة لوضع شيء قيد الاقتراح والذي من الممكن أن تعمل لصالح الشعب بأسره. وكانا ينظران إلى الجمهورية الأمريكية باعتبارها تجربة كبرى حيث فشلت مواد الاتحاد (التي أنشئت بعد الحرب الثورية كوسيلة لتوحيد المستعمرات السابقة الثلاثة عشرة بطريقة رسمية). و فى محاولة توفير بنية آمنة حكومية، حيث لاحظ چورج واشنطن فى 18 مايو 1786، عندما كتب إلى جون جاي». أنه من الضرورى تنقيح وتعديل مواد الاتحاد الكونفيدرالي، ولايراودنى فى ذلك شك، ولكن ما قد يحدث من عواقب مثار شك، لكن يجب فعل شيء حيال ذلك.

ومن المهم التذكير بأن النظام الملكي كان ولا يزال الشكل السائد للحكومة فى العالم، وأن العديد من الأمريكيين لم يكونوا سيعترضون لو أن چورج واشنطن الذى له دور رائع فى الحرب الثورية قد نصب نفسه ملكًا باسم جورج الأول ولو فعل، فربما استمر لدينا نظام ملكي ووراثي (البعض سيجادل فى أن القيام بذلك كان سيئودى إلى تناوب البيت الأبيض بين عدد قليل من العائلات المختارة). وبجرأة، وفي هذا السياق، يبرز بوبليوس كمدافع لهذه الوثيقة والتي تم العمل بجد لها، وتم الانتهاء منها، وضعت بفارغ الصبر قبل مختلف الولايات للتصديق عليها. وقد تفهم كل من هاملتون ومادسون وجاي كيف أنه قد يكون من الصعب إقناع غالبية الأمريكيين بأن هذا الدستور يعمل فى مصلحتهم.

3

لقد طرح هاملتون فكرة الأوراق الفيدرالية فى فقرة واحدة حاسمة، وتشبث هو - والمؤلفون المشاركون له - عمومًا بهذه الخلاصة بإحكام إلى حد كبير : «اقترح أن تناقش فى سلسلة من الأوراق البنود التالية المثيرة للاهتمام - جدوى الاتحاد بالنسبة لازدهاركم السياسى- عدم كفاية الاتحاد الكونفيدرالى الحالى للحفاظ على ذلك الاتحاد - ضرورة قيام حكومة فعالة بقدر يماثل على الأقل الحكومة المقترحة لبلوغ هذا الهدف - مطابقة الدستور المقترح للمبادئ الحقيقية للحكم الجمهورى واتفاقه مع دستور ولايتكم الخاص بكم - وأخيرًا، الأمن الإضافى الذى يكفل اعتماده الحفاظ على هذه الأنواع من الحكم، والحرية، والملكية» (30).

وقد طرح هاملتون فى ورقته الأولى، وهى قطعة رائعة من البلاغة، أحد وجوه حججه متعددة الجوانب، ملمحًا على نحو غامض إلى كتابات الكوادر المعادية للاتجاه الفيدرالى التى كانت وراءها عقول قوية عملت على مرّ الزمن على إقناع الولايات بألا تصدق على الدستور المقترح. وكان من أقواهم المزارع الاتحادى (ولم يتم مطلقًا تحديد اسم مؤلف هذه المقالات)، الذى ضارعت سيطرته على البلاغة نظيرتها لدى هاملتون (8 أكتوبر، 1787)، وقد لاحظ على نحو سافر أن ميثاق فيلادلفيا قد دعا إلى تنظيم التجارة ولاشىء أكثر من ذلك. وأكد «أن حكومة واحدة ومجلسًا تشريعيًا واحدًا» لايستطيعان مطلقًا «إيصال المنافع المتساوية لكل أنحاء الولايات المتحدة». وفى رأيه أن الولايات كانت متباينة على نحو أكثر مما تستطيع حكومة واحدة أن تسيطر عليه. ورأى أن الحرية طفقت تتناقص فى كل مكان وشعر بالقلق من جراء «الخليط غير العقلانى من السلطة المتركز فى نفس الأيدى» وقد حاج هاملتون، الذى قصر حنقه وعدم ثقته بالكاد (مثل مؤلف المزارع الاتحادى) على من يشعرون بالشك فى نظام فيدرالى قوى، بأن «الحكومة القوية جوهرية لتأمين الحرية» (29). وأهاب بزملاءه المواطنين» بأن يلتزموا كل الحذر من كل المحاولات، أيًا كانت مصادرها،

الرامية للتأثير على قراركم «بشأن التصديق على الدستور، كما لو لم يكن هو نفسه يحاول أن يفعل الشيء نفسه! والتي تهدد رفاهية الشعب الأمريكي وسلمه وازدهاره، وأنه ينبغي تجنبها.

وبعد ئذ شرع جون جاي في العمل، وكتب أربع مقالات عن السياسية الخارجية. كان محاميًا مشهورًا - وأصبح فيما بعد أول رئيس للقضاة في المحكمة العليا - ووضع مشروع دستور نيويورك (1777). وقد صاغ مع بنيامين فرانكلين وجون آدمز معاهدة 1783 التي وضعت حدًا للحرب الأهلية. وتظل مساهمته في بوبليوس وإن كانت وجيزة مهمة، حيث أرست أساس السياسة الخارجة الأمريكية التي تستند إلى التأيد الشعبي- وهو أساس، جرى تجاهله على نحو مؤلم في التاريخ الحديث، عندما أخذ التنفيذيون (خاصة لندون جونسون وجورج دبليوبوش) بإحساس مسهب بسلطتهم، على عاتقهم الانخراط في الحروب (فيتنام والعراق) وهي الحروب التي يصعب اعتبارها محققة لصالح الشعب الأمريكي، أو أي شعب آخر.

ويبدأ جاي المقال رقم 3 بسؤال هو : «هل مثل هذا العدد الكبير من الأسباب العادلة المتعلقة بالحرب يمكن أن تقدمه أمريكا متحدة مثلما يمكن أن تقدمه أمريكا غير متحدة؟ (36 - 37). وهو يتخذ عن حق (في رأيي) موقف أن الحرب بصفة عامة عندما يكون ذلك ممكنًا. ومثلما لاحظ جاري ويلز، فإن معظم الناس حينذاك كانوا سيفترضون أن الاتحاد جيد لأن الشعب المتحد يستطيع بسهولة أكثر هزيمة الجيران المحبين للحرب مما يستطيعه شعب غير متحد. بيد أن جاي لم يمض لهذا الحد. لقد كانت هذه هي أمريكا عصر التنوير، ومن ثم تصبح الحرب اختبارًا لفضيلة المرء الخاصة. ويوضح جاي أن الشعور بالقلق إزاء الاتجاهات المحبة للحرب لدى الشعب الأمريكي أهم من الشعور بالقلق إزاء معتدين محتملين من الخارج وقال أنه يشعر بالقلق بصفة خاصة بشأن السكان الهنود، الذين يعتبرهم معرضين للمعاناة وللهجوم والتدمير. وببصيرة تدعو للإعجاب، يلاحظ جاي في المقال رقم 4 أن هناك «أسبابًا مزعومة للحرب مثلما أن هناك أسبابًا عادلة لها». ويشير إلى

أن الطغاة «سيشنون الحرب التى عادة لا تحصل أممهم على شىء منها، ولكن لأغراض وأهداف شخصية فحسب، مثل التعطش للمجد العسكرى، والانتقام لإهانات شخصية، أو للطموح، أو لاتفاقيات خاصة لتعظيم مكانة أسرهم وأنصارهم الخاصة ودعمها» (40). وهنا كان يشير بالطبع إلى الملوك الطغاة، وليس إلى رؤساء الولايات المتحدة فى المستقبل. (فقد كان يعتقد) أن الرؤساء سينصرفون بصورة فاضلة على نحو أكبر، ويتجنبون على نحو رشيد المنازعات التى ستؤدى على نحو مؤكد تقريبًا إلى عدم الاستقرار وتكلف دافعى الضرائب قدرًا كبيرًا من الأموال التى كسبوها بشق الأنفس.

وقد كتب جاى يقول: «إن اتحادًا شاملًا وكاملًا سيمثل أساسًا راسخًا للسلم الدائم». ناقلًا حرفيًا من خطاب الملكة آن فى أول يوليو 1706، الموجه للبرلمان الاسكتلندى. وفى هذا، وبقدر ما كان فى أذهان الآباء المؤسسين، فقد كان لنموذج الحكم البريطانى تأثير ضخم (بالطبع لم يكن لدى البريطانيين أى دستور مكتوب، وهى نقطة حفزت واضعى الدستور فى فيلادلفيا. وبدا أنه من الضرورى جعل هذه الأمور المهمة مكتوبة). إن الصيغة الأمريكية من الحكومة الجمهورية تستند إلى النموذج البريطانى، بمجلسيه التشريعيين وقضائه المستقل. ومع ذلك، فإن النموذج الأمريكى نقحّ صيغة البرلمان البريطانى بطرق جذرية تمامًا، وأحلّ مجلسًا منتخبًا للشيوخ محل مجلس اللوردات الوراثى - رغم أن بعض المداولات فى فيلادلفيا قد طالبت بمجلس للشيوخ يستند للثروة. وسادت فكرة الدور المحدود للفرع التنفيذى بعيدًا عن فكرة الملكية، وإن سمحت «بالتوسع فى المهام» من قبل الرؤساء المتعطشين للسلطة (حاج ماديسون فى فيلادلفيا بأن الرئيس يجب ألا يكون له، هو نفسه، سلطة النقض، ويجب أن يتقا سمها عدد من القضاة، وبذلك يتم لمدى أكبر الحد من السلطات التنفيذية، ويجعلها فى الواقع مجلسًا للمراجعة، مثلما هو الحال فى دستور ولاية نيويورك).

وباعتبار جاى الكاتب الوحيد من الثلاثة الذى توافرت له خبرة كبيرة بالسياسة الخارجية والمعاهدات الدولية، فقد كان اختياره للقيادة أمرًا جيدًا. وفى الأوراق أرقام 2-5، حاج بإقامة

اتحاد على أساس أن كيانًا موحدًا تقل احتمالات مهاجمته من قبل دولة أجنبية عن احتمالات مهاجمة اتحاد كونفيدر الى فضفاض، كما أن احتمال رغبة الاتحاد فى مهاجمة الآخرين أقل؛ وبذلك تقوم حقًا جمهورية للفضيلة، تغلب فيها الفطرة السليمة واللياقة الحقيقية الزمر الأنانية والعدائية. وقد تنحى جاى جانبًا بعد المقال رقم 5 لكنه أُعيد ليكتب عن سلطات إبرام المعاهدات فى الاتحاد فى المقال رقم 64. وفى هذا يقول أن الرئيس نفسه لا يستطيع، ولا يجب أن يمارس سلطة شن الحرب أو إبرام المعاهدات، ولابد أن يوافق ثلثا مجلس الشيوخ مع الرئيس على هذه الأمور الحاسمة. وعلى نحو يتسم بالأهمية، يؤكد جاى أن كلًا من الرئيس وأعضاء مجلس الشيوخ يجب أن يكونوا رجالًا ناضجين (يزيد سن الرئيس على خمسة وثلاثين سنة وسن عضو مجلس الشيوخ على ثلاثين سنة) وأن يكونوا متميزين بفضائلهم المجردة عن الهوى. ويحذر بضراوة من «الانخداع» بمن يظهرون سمات العبقرية والوطنية الذين يضللون أحيانًا أويبهرون أيضًا مثلهم مثل الظواهر الجوية» (389).

وتقدم الأوراق الستة والثلاثين الأولى مبررات للاتحاد فى سياق مناوئ للفيدراليين، الذين تصطف إلى جانبهم مدافع ضخمة (وإن لم يضاهوا بهاء الكوكبة اللامعة من القادة المعروفين على النطاق القومى الذين كانوا يؤيدون التصديق على الدستور). وكانت هذه المدافع تدوى فى الصحافة اليومية. وفى حين صَدَّقَ بعض الولايات (ديلاور وبنسلفانيا ونيو جيرسى) على الدستور الجديد سريعًا وبحماس واضح، فإن قلة من الولايات الكبرى نكصت على عقبيها، بما فى ذلك نيويورك وفيرجينيا وما ساشوستس. ففى الولاية الأخيرة مثلًا، احتدم الجدل حول الافتقار إلى ميثاق للحقوق، والذى تم وضعه نتيجة للمناقشة التى دارت حول التصديق. وفضل المناوئون للفيدرالية فكرة إقامة اتحاد فيدرالى فضفاض من الولايات، مع تمركز السلطة فى عواصم الولايات. وكان هاملتون يؤمن بحكومة مركزية قوية، ووافقه ماديسون (بدرجة ما)، مثلما فعل جاى. وألقى چورج واشنطن وبنيامين فرانكلين (من بين كثيرين آخرين) بثقلهما خلف الدستور المقترح، مما جعل الأصوات تميل لصالحه.

وكانت هناك نقطة أثارت قلق واضعى الدستور الأصليين، وجرى التعبير عنها عادة فى مؤتمر فيلادلفيا، وهى أن سلطة أكثر من اللازم ستمنح للأغلبية، مما يخنق صوت من يحوزون ممتلكات، ومساحات كبيرة من الأراضى ومصارف ومشروعات أعمال. وكان هذا الخوف هو الذى عالجه ماديسون على نحو مقنع فى المقال رقم 10، فقال إن الدستور الجديد سينقل السلطة من الولايات إلى حكومة مركزية، حيث يمكن جعل أهواء الأغلبية «آمنة» بقوة التعددية والتجزؤ. ويجدر إمعان النظر فى المقال رقم 10 الذى ينطلق من دعوة هاملتون المنظمة على نحو جميل للاتحاد على أساس أنه يوفر ضمانات ضد «الشقاق» المحلى والتمرد المشار إليه فى المقال رقم 9.

وقد اشتهر ماكتبه هاملتون فى المقال رقم 9 من : «إنه من المستحيل قراءة تاريخ جمهوريتى اليونان وإيطاليا الصغيرتين فى شأنهما بدون الشعور بإحساس من الرعب والاشمئزاز من عمليات الإلهاء التى كانت تثيرهما، والتعاقب السريع للثورات التى أبقت عليهما فى حالة تأرجح دائم بين الطغيان والفوضى» (66). ويمكن للمرء أن يشعر بإحساس هاملتون بالرعدة، لأنه لم يكن يريد أن يعيش فى «جمهورية صغيرة الشأن» يمكن الإطاحة بها بسهولة. ويرجع للنص المستشهد به من مونتسكيو، هنا كما فى أماكن أخرى، مدركًا تمام الإدراك أن المعسكر المناوئ للفيدرالية قد استشهد هو أيضًا با لفيلسوف الفرنسى نفسه. فقد كان مونتسكيو داعية قياديًا للفصل بين السلطات - وبصفته هذه - كان هاملتون يعتقد أنه يقف تحت مظلته بثبات. وقد استشهد بكتاب روح القوانين بإسهاب كبير، ذاكرًا إيمان المفكر الفرنسى «بالجمهورية الكونفيدرالية». وقد صاغ هاملتون تعريفه لهذه الجمهورية بهذه العبارة : «إنها نوع من تجميع المجتمعات لتشكل مجتمعًا جديدًا قادرًا على التزايد، عن طريق انضمامات جديدة، حتى يصل إلى درجة من القوة تمكنه من توفير الأمن لكيان متحد» (69).

وقد تبنى ماديسون هذه الفكرة وصقلها فى المقالة رقم 10، التى تنبغى قراءتها فى سياق مزدوج من متابعة دعوة ها ملتون لدولة قوية (مفهوم «توسيع المجال» وهو الأمر المحورى

فى المقالتين رقمى 9و 10) وعدم اليقين المناوئ للفيدرالية بشأن حكم الأغلبية. «لقد كان عدم الاستقرار والظلم والارتباك الذى حل بالمجالس العامة، فى حقيقة الأمر، أمراضًا قاتلة هلكت بسببها الحكومات الشعبية فى كل مكان» (72). وهنا، فإنه يغازل المناوئين للفيدرالية، ملوحًا بشبح «الأغلبية المتأثرة بدوافع شخصية والمستبدة»، والتى تستخدم «قوتها الفائقة» لسحق الأقليات من نوع أو آخر. لكنه يفعل ذلك بطريقة تحيدهم فى الواقع، حيث إنه كان بصفة عامة يؤيد الدستور المقترح ويحث على التصديق عليه: إذا كان ماديسون بخوفه الحقيقى من «استبداد الأغلبية» هذا يؤمن بأنه إذا سارت كل الأمور على مايرام، فلن يكون هناك داع للقلق فى هذا الصدد.

ويقول ماديسون أن الفضائل المتنازعة ستظهر دومًا، وبذا تضعف الأغلبيات «طالما استمر عقل الإنسان عرضة للخطأ» (73). وهو يعتقد أن الناس ينقسمون لشيع لأسباب كثيرة، منها "الحماس لآراء مختلفة" حول أمور مثل الدين والأيد يولوجية السياسية. كما تصدى بصورة مباشرة لنقطة نزاع أساسية، يصفها بأنها «التوزيع غير المتساوى للملكية» (74). فالأشخاص الذين يملكون والأشخاص الذين لا يملكون يقعون إلى جانبى خط تقسيم أساسى، ولكن حتى إلى جانب «من يملكون» هناك انقسام بين الأعيان من ملاك الأرض، والتجار و «كثير من أصحاب المصالح المختلفة» وكذلك «الطبقات» المختلفة. «لذلك فإن تنظيم هذه المصالح المتباينة والمتداخلة يمثل مهمة أساسية للتشريع الحديث». ويصدق هذا حاليًا، حيث يخلق «التوزيع غير المتساوى للملكية» توترات وعدم استقرار.

والمثير للاهتمام، أن ماديسون لا يؤمن بأن «رجال الدولة المستنيرين» قادرون بالضرورة على تنظيم هذه المصالح المتباينة، كما أنه لا يعتقد أن مثل هؤلاء الرجال «سيمسكون بالدفة» على الدوام (75). ومن ثم، فإن النظام ينبغى ترتيبه بطريقة تجعل الإرادة العمياء للأغلبية تواجه ثقلًا موازنًا يتمثل فى الأقليات التى لديها بعضًا من قوة التأثير. ومثلما أوضح، فإن الجمهوريات ليست ديمقراطيات خالصة، حيث يتم تفويض السلطة السياسية الصرفة لقلة، هم نواب الشعب ويبدو أن ماديسون كان يعتقد أنه بتوافر عدد كبير من النواب، يمكن ببساطة

التصدى «لمكائد القلة» (77). وحول هذه النقطة الأخيرة، يصر على أن جمهورًا كبيرًا من الناخبين سيفضل التمثيل القوى والفاضل، وإن «المرشحين غير الجديرين بالاختيار» سيواجهون وقتًا صعبًا عندما يحاولون ممارسة «فنونهم الأثيمة» (ويبدو هذا اقتراحًا مشكوكًا فيه للغاية بالنسبة لى).

وتبعت ذلك المبررات المستمدة من «نطاق أرض الدولة»، باعتبارها تأصيلًا وتفصيلًا لما سبق. والواقع أنه كانت من الأفكار الكبرى فى الدستور، فكرة أن جمهورية كبرى ستعمل على نحو أفضل من جمهورية صغرى. وحتى هذه المرحلة من الزمن، كان الاعتقاد العام هو أن الجمهوريات يجب أن تكون صغيرة لكى تعمل جيدًا. ولذلك حاج ماديسون بأن «عدد المواطنين ونطاق أرض الدولة اللذين يمكن إدراجهما ضمن محيط الجمهورية أكبر مما يمكن إدراجه فى حكم ديمقراطى» وقال أن ذلك سيفيد فى دحر الذين يريدون «غزو حقوق الآخرين». والواقع أنه كان يخاطب الأقليات هنا، ملاك الأرض الأثرياء والتجار الذين كانوا حقًا قادة هذا المجتمع الوليد. وقد طمأن هذه المجموعة المبرزة بأن مصالح الأقلية لن يكتسحها دهماء جامحون. ولكن مثلما لاحظ عالم الدساتير و.ب. الين مؤخرًا، فإن ماديسون يحاج أيضًا بأن الحكم الديمقراطى يخلق نظامًا يحابى فعلًا إنتاج أغلبية فاضلة. ويؤمن ماديسون ضمنًا بأن فروع الحكومة الثلاثة تهذب الشيع المختلفة وتحقق الانسجام بينها، وأن فرعًا ما سيكبح باستمرار التجاوزات المحتملة من قبل فرع آخر.

والمقال رقم 10 هو بدرجة ما خجول وغامض. وقد خضع لتحليل ضارى (خاصة من قبل روبرت دال) ووجد أنه ضعيف، ولكنه يدعو أساسًا إلى قيام حكومة وطنية قوية. ويصدق هذا على هذه المقالات بصفة عامة. فمثلما قال مؤخرًا، فإن كتاب بوبليوس هو فى المحل الأول دستور قومى. ويصدق هذا على وجه التأكيد على ماديسون فى ورقته المحورية، حيث طرح «علاجًا جمهوريًا للأمراض العارضة بالنسبة للحكومة الجمهورية». ويقوم هذا العلاج على «نطاق الاتحاد وهيكله الخاص». أى أن يكون كبيرًا بما يكفى لاحتواء (بالمعنى الحرفى تمامًا) مختلف الآراء وللقيام «بتوازنات وتدقيق» بطريقة تجعل من الصعب على

أى شيعة أن تلغى غيرها أو تقلصها. وكانت هذا المقالة فى غالبيتها طمأنة للكثيرين من الذين ربما كانت لاتزال الشكوك تراودهم بشأن الدستور المقترح، وساعدت بطرق ماهرة فى الحملة الداعية للتصديق.

وإجمالًا، فإن الستة وثلاثين مقالة الأولى كانت تناهض النظام الكونفيدرالى القائم، الذى فشل فى إنتاج نموذج متماسك أو مستدام للحكم. وقد كتب هاملتون فى الورقة رقم 15 «ربما يقال إننا فيما يتعلق بالملكية قد وصلنا حقًا للمرحلة الأخيرة من الإذلال القومى تقريبًا». ويضيف أنه لا يوجد أى شىء يمكن أن يجرح الكبرياء أو يحط من شخصية أمة مستقلة إلا وعانينا منه (101). وتلك بالطبع مبالغة فى تصوير الوضع، ترمى لإرهاب القراء وإقناعهم بدعم التصديق على الدستور. ويضفى هذا التكتيك نغمة من الغلو والإلحاح على هذه الأوراق المبكرة.

ويبدأ هاملتون استعراضه للمبررات بكناية مستمرة على نحو يبعث على الدهشة، وهى كناية تقدم مفتاحًا لمنهجه، وهو منهج أدبى على نحو متميز، فيقول: «إذا بدا لك الطريق الذى يتعين عليك عبوره مملًا ومضجرًا فى بعض الأماكن، فتذكر أنك تسعى لمعلومات حول موضوع مهم جدًا يمكنه أن يستأثر باهتمام الأشخاص الأحرار، وأن الميدان الذى يتعين عليك أن ترتحل فيه فسيح فى حد ذاته، وأن صعوبات الرحلة زادت دون ضرورة بفعل الارتباك الذى تكتنف به السفسطة الطريق. ويتمثل هدفى فى إزالة العقبات أمام تقدمك، بطريقة مختصرة بقدر ما يمكن، بدون التضحية بجدوى الإنجاز» (100).

ويكشف هذا التصور المدروس جيدًا براعة ودهاء منهج هاملتون. وتستمر الاستعارة والكناية عن «الطريق» من البداية للنهاية، مجسدة فكرة الرحلة التى لها بداية (فى حالة من الخطر وضعف المعنويات) وخاتمة (هى الأمان والفخار). ربما كانت جميع الرحلات الجديرة بالعناء «حملة»، خاصة فى القرن الثامن عشر، حيث كانت العصابات تكمن على جانبى الطريق، متأهبة للانقضاض على العربات ومسافريها الذين لاحول لهم ولاقوة.

ويتملق هاملتون جمهوره بمهارة، داعيًا إياه «بالناس الأحرار». ويوسع نطاق الاستعارة قليلًا مسميًا إياه «الحقل» مثلما يسميه الطريق. ثم يضيف فى سياق دعاية مضادة للفيدراليين لمحة موحية أخرى: تزيد حيرة السفسطة التى تعرض لها قارئه دون ريب، إذ يقسم بأنه «سيزيل العقبات» التى تعترض تقدم قارئه بقدر ما يستطيع، بطريقة موجزة، ويقصد بها أن تكون دقيقة وشاملة. وتلك بلاغة خلاّبة، ترسى أساس استراتيجية، وتستدر تعاطف القارئ مع رحلة طويلة. إن أسلوب الكتاب متماسك ومحدد على نحو رائع، حتى وإن كان قويًا. وهو يُعدّ القراء حقًا للطريق القادم، بانعطافاته الكثيرة.

إن إلمام هاملتون بالتاريخ كان ملاذًا يلجأ إليه باستمرار ليضفى نغمة من السلطان على أوراقه. ففى الورقة رقم 18مثلًا، يقدم مسحًا جريئًا للتاريخ اليونانى، مشيرًا إلى الجمهوريات القديمة التى تجمعت بصعوبة فى مجلس يضم الدول المتجاورة للدفاع عن مصالحها المشتركة. ويلاحظ أن هذا المجلس «ينطوى على تماثل ملىء بالدلالات مع الاتحاد الفيدرالى الحالى للولايات الأمريكية» (118). وكتب يقول أنه لو كانت حكمة الإغريق مماثلة لشجاعتهم، لأدركوا الحاجة إلى قيام اتحاد أوثق». لكن أثينا وا سبرطة سرعان ما انقضتا على بعضهما، وأصبحتا خصمتين أولًا ثم عدوتين بعد ذلك (وللمرء أن يتساءل عن كيف أدرك هاملتون أنه يستطيع النظر فى كرة بلورية ليرى الحرب الأهلية). ويذكر انه فى اليونان انتهت الغيرة والمخاوف والكراهية والأضرار المتبادلة بالحرب البيلو بونيزية الشهيرة، التى انتهت هى نفسها بخراب و استعباد الاثينيين الذين بدأوها (121).

ويستمر السرد التاريخى الكاسح، ملمحًا إلى الاتحادات الكونفيدرالية غير المرضية فى ساكسونيا وأماكن أخرى، انطلاقًا من شواغل هاملتون الأولية التى نوقشت فى الورقة رقم22. وتتمثل هذه أساسًا فى الافتقار للقدرة والسلطة اللازمة لتنظيم التجارة وحشد الجيوش بطريقة متسقة وعادلة. ويقدم فى الورقة رقم 23 موجزًا لموقفه: «إن الأهداف الأساسية التى يحققها الاتحاد هى- الدفاع المشترك عن الأعضاء، الحفاظ على السلم العام، سواء ضد الاضطرابات الداخلية أو الهجمات الخارجية، وتنظيم التجارة مع البلاد

الأخرى وبين الولايات، والإشراف على تعاملاتنا وعلاقاتنا، السياسية والتجارية مع البلدان الأجنبية» (149). إن القارئ العارض فى القرن الحادى والعشرين سيجد أن كثيرًا من هذا مكرر، لكن يجب أن نضع فى الاعتبار أن هذه الأوراق نشرت فرادى، وأن أحدًا من المؤلفين لم يكن يستطيع أن يفترض أن القراء قد عرفوا بالفعل كل شيء حدث من قبل، أو يستطيعوا أن يتذكروا المبررات بتفصيل كامل، ولذا أصبح التكرار جزءًا لا يتجزأ من المنهج - وهو من عيوب أسلوبه الأساسية بالنسبة للقارئ الحديث. كما أن الأوراق كتبت على عجل، ومن ثم لم يستطع المؤلفون أن يتريثوا للتفكير فى حقيقة أن علماء الدستور فى المستقبل سيخضعونهم لتدقيق متشدد، باحثين عن الإيماءات لما كان يقصده المؤلفون الأصليون فى مقالاتهم (والتى كانت فى نهاية المطاف جزءًا من الصحافة، وليست مذكرات قانونية).

ويختتم هاملتون تشويهه لنظام الاتحاد الكونفيدرالى القائم فى الورقة رقم 36، ثم ينقل العصا إلى ماديسون، زميله الذى لايشبهه وغير المرغوب فيه، وأقول أنه غير مرغوب فيه، لأنهما فى المسار المناسب، أصبحا عدوين سياسيين لدودين، يمثلان مزاجين مختلفين ودوائر متباينة من الأنصار بصورة عريضة. فقد كان هاملتون النيويوركى حضريًا وتجاريًا فى مصالحه ومشاعره. وتحالف ماديسون الفيرجينى طبعًا مع المزارعين وملاك الأرض، والعناصر الريفية والزراعية. ومع ذلك، فإن جارى ويلز قام بعمل جيد فى المزاوجة بين فكر الاثنين، مشير إلى مادسون «الهاملتونى» وإلى هاملتون «الماديسونى». وكان يعتقد أن بوبليوس ككتاب لم يكن يعانى من الفصام كما اعتقد قراء كثيرون، موحيًا بأن «الأشخاص الذين يجيئون بوجهة نظر مقبولة عن هاملتون وماديسون إلى الأوراق الفيدرالية يمكن بسهولة إرباكهم إذا أعطيت لهم مقاطع منفصلة وطلب إليهم تحديد مؤلفها». ويلاحظ على سبيل المثال، أن هاملتون، وليس ماديسون (كما يمكن أن نتوقع) يكتب بطريقة حذرة فى الورقة رقم 35 عن مخاطر الرسوم الجمركية «التى تنزع إلى تحميل طبقات أخرى من الجزية المجتمعية بدرجة غير سليمة على كاهل طبقات الصناع، ممن يمنح لهم احتكار غير ناضج للأسواق» (208).

والحقيقة هى أن كلًا من هاملتون وماديسون كتبا آرائهما الفردية (كما عبرا عنها فى أماكن أخرى، خارج الأوراق الفيدرالية) ليحاجا بالنيابة عن دستور الولايات المتحدة المقترح، متبنين لوجهة النظر الأعرض لمن صاغوا الوثيقة.كانا هما نفسيهما من المبرزين بين واضعى الوثيقة، وهذا هو السبب فى أن المؤرخين اللاحقين وكذلك القضاة المتربعين فى كرسى القضاء وعلماء القانون، لجأوا طويلًا إلى هذه الأوراق وهم يبجلونها، مفترضين (صوابًا أو خطأ) أنه طالما أن هاملتون وماديسون كانا هناك، فى مداولات فيلادلفيا، فإنهما يعرفان ما كان مقصودًا.

وأدى هذا إلى بعض اللحظات الغريبة فى تاريخ القضاء، مثلما لاحظ ويلز، منها أن الدستور نفسه لم يذكر مطلقًا من الناحية العملية نظرية الفصل بين السلطات، حتى على الرغم من أن القاضى لويس د. برانديز كتب (فى قضية مايرز ضد الولايات المتحدة، 1926) أن «مبدأ الفصل بين السلطات اعتمده مؤتمر 1787». وكرر رئيس القضاة ايرل وارن هذه الفكرة فى 1965(فى قضية الولايات المتحدة ضد براون) بالطبع أن الدستور يخلق سلطات منفصلة، ويدعمها حتمًا، لكنه لا يسعى إلى تبرير هذا الفصل على أسس نظرية من أى نوع، لقد اضطلع هاملتون وماديسون بالعمل الخاص بإرساء «مبدأ الفصل بين السلطات»، فقد طورا نظرية الزواجرو الضوابط باعتبارها من المنافع العظيمة «للحكم المختلط»مثلما أشار مونتسكيو لهذا النوع من النظام.

ومثلما لاحظنا من قبل، فإن خليط الفروع استند صراحة إلى النموذج البريطانى، مع إقامة هيئة تشريعية لتزجر سلطة الملك وقضاء مستقل. وكان هاملتون واضحًا بشأن هذا وقال فى الورقة رقم 65 إن عملية توجيه الاتهام تقلد النظام البريطانى، وحاج فى الورقة رقم 75 بأن سلطة الرئيس يكبحها الكونجرس بثبات، لأن له سلطة اعتماد الأموال – وذلك تأثير بريطانى آخر. ومثلما يوضح هاملتون، فإن هيئة التشريع المقترحة تستطيع، إن أرادت، ألا تمول أى من الخطط الشاذة التى قد يقرر الرئيس الأخذ بها، مثلما «قلل» مجلس العموم فى بريطانيا «الحقوق المقصورة على التاج وامتيازات النبلاء» (433).

وتتضمن أوراق متعاقبة بدءًا من الورقة رقم 37 دفاعًا معقدًا عن الاتحاد فى بو بليوس، حيث يذكر ماديسون «أن الهدف النهائى لهذه الأوراق هو أن تحدد بوضوح وبشكل كامل مزايا الدستور، وجدوى اعتماده» (220). ويقترح «مسحًا دقيقًا لأعمال المؤتمر».وهكذا، فإنه يتابع فى الأوراق رقم 37 – 40، إلقاء نظرة فاحصة على «الشكل العام» للاتحاد الجديد، مع إيلاء مزيد من التأصيل للمبادئ الجمهورية ولفكرة الفيدرالية نفسها. وفى الأوراق رقم 41 – 46 يعارض بوبليوس المناوئين للفيدرالية، الذين أكدوا مرارًا وتكرارًا أن من الخطر إعطاء الكثير من السلطة لحكومة جديدة وأن حقوق الولايات ستتقلص بشدة إذا سرى الاتحاد. فقد حاج بوبليوس بأن ذلك ليس كذلك، لأن النظام يقام لضمان احتفاظ الولايات بدرجة من السيطرة على شئونها الخاصة.

ويخبرنا بوبليوس مرارًا وتكرارًا أن الزواجر و الضوابط وضعت لضمان ألا يكتسب أى فرع بعينه من الحكومة سلطة أكثر من اللازم. ومن ثم، فإن نظرية الفصل بين السلطات تحتل كثيرًا من اهتمام الأوراق رقم 47 – 51. وتقدم الأوراق رقم 52– 83 صورة لهذه الفروع المقترحة وواجباتها وجاءت ثلاث أوراق عن تنظيم الانتخابات. وفى الورقة رقم84، تم تفنيد مختلف الاعتراضات على الدستور الجديد، بما فى ذلك الافتقار إلى ميثاق الحقوق. وتلخص الورقة رقم 85 وتعيد بإيجاز النقاط السابقة، مدافعة عن النموذج الجمهورى على أساس تشابهه مع ما حققته الولايات بالفعل فى دوائرها. وأخيرًا، يلاحظ بوبليوس «الضمانات الإضافية» التى يوفرها الاتحاد، بقدرته على الدفاع عن الحرية والملكية بطريقة أكفأ من مواد الاتحاد الكونفيدرالى – وتلك عودة للمبررات التى طرحت فى أوراق سابقة. وأخيرًا، فإنه مثلما لاحظ برنارد بايلن بشكل أريب عن هذه الأوراق : «لقد كان هدفها هو مجرد إقناع الناس الذين شكلت الأيديولوجية الثورية عقولهم وخبراتهم بأن المبادئ التى يجلبونها، خاصة الحفاظ على الحقوق الخاصة، سيستمر تطبيقها فى ظل سلطات الحكومة الفيدرالية الجديدة».وفى رأيه أن الإنجاز الكبير الذى حققه بوبليوس كان يتمثل فى أن

هاملتون وماديسون وجاى «سعوا إلى تبنى التراث الثورى، ثم إلى تحديثه بطرق تجعله يتسق مع الضرورة التى لامهرب منها الخاصة بإقامة سلطة وطنية فعالة».

ويقتبس هاملتون مباشرة من ديفيد هيوم فى هجومه النهائى، مسلمًا بالصعوبة الجمة للاتفاق على أى نظام بأى حال، خاصة نظامًا وطنيًا. فقد كتب هيوم يقول : إن موازنة دولة كبيرة أو مجتمع كبير، سواء كانا ملكيين أم جمهوريين، فى القوانين العامة، عمل بالغ الصعوبة بحيث لاتستطيع أى عبقرية إنسانية مهما كانت شاملة، أن تحققه، بمجرد إعمال العقل والفكر. إذ يتعين أن تتحد فى هذا العمل أحكام كثيرين» (526). إن الأحكام الجماعية لواضعى الدستور، الذين اجتمعوا فى فيلادلفيا، هى التى يحتفى بها بوبليوس، متصديًا «للأفراد الأقوياء» الذين «يعادون قيام حكومة وطنية عامة فى أى شكل ممكن» (527). وهناك حقًا كلمات بوبليوس الأخيرة - التى تحذر من المعادين للفيدرالية الذين يحاولون بزلاقة لسان مماثلة أن يسحقوا الدستور الجديد حتى قبل اختباره.

وبعدة طرق، لاتزال الأوراق الفيدرالية، وثيقة لافتة للنظر لغرابتها وجدتها، وإن كانت بليغة، وهى مليئة باغفال الموضوعات (ليس هناك كلمة واحدة عن العبودية) والتناقضات، وتر تكن بشكل كامل على لغة فلسفة وعلم نفس القرن الثامن عشر، مثلما أوضح مورتون هوايت فى مؤلفه «الفلسفة والأوراق الفيدرالية، والدستور». وطوالها نستمع إلى نغمة مثالية، حيث ركز هاملتون (بصفة خاصة) تركيزًا كبيرًا على الفضيلة العامة باعتبارها القوة الأساسية التى تكفل بقاء الجمهورية الجديدة متماسكة، وجعلها تؤدى وظائفها لقد كان كتاب بوبليوس - مثل أعمال ديفيد هيوم - متشككًا فى الشيع (رغم أن ماديسون استطاع أن يتبين قيمتها) ولذلك اعتبر الأحزاب السياسية باعثة على الانقسام. إذ كان هاملتون على نحو أصيل (وإن كان ساذجًا) يؤمن بأن الأحزاب غير ملائمة لمقتضى الحال فى المجتمع الأمريكى وأن الأهواء الجامحة فى السياسة أمر سيئ. وكتب فى الورقة رقم 71 يقول : «إن المبدأ الجمهورى يقتضى أن يحكم إحساس مُتَروى بالمجتمع سلوك الذين يوكل إليهم تسيير الأمور» (430). و فى الحقيقة، كانت أهواء مجلس النواب هى التى أقلقته أكثر من أى

شىء آخر - هذا الفرع المتقلب والأكبر من الحكومة، الذى يسيطر على مغاليق الخزانة. فهو يستطيع، إن أراد أن يسيطر على العمليات من مبدئها، ومن ثم فإن له تأثير مفرط على السياسات العامة.

كان هاملتون يؤمن بأنه على امتداد الطريق، سيثير مجلس النواب، صعوبات أمام النظام، لأن له السيطرة على مجلس الشيوخ والرئيس، وكذلك على المحكمة العليا أيضًا. وفى رأيه، هناك خطر استسلام الرئيس والمحكمة العليا وانحنائهما أمام مجلس النواب «بولاء مطلق» (431). ومثلما يبين التاريخ، فلم يكن لدى هاملتون شيئًا يقلق عليه، حيث إن الرئاسة استطاعت (ربما بطريقة ماكرة) أن تكتسب المزيد والمزيد من السلطة.

وحق النقض الذى كان بوبليوس يعتقد أنه غير فعال تمَاما، أثبت أنه غير ذلك. ولم يكن بمقدور بوبليوس أن يعرف الكثير عن قوة منابر الخطابة المتنمرة، التى استخدمها الرؤساء بفاعلية كبيرة للالتفاف على الهيئة التشريعية. كما لم يتخيل بوبليوس أن المحكمة العليا نفسها يمكن أن تصبح محازبة بهذا القدر، مع انتماء القضاة صراحة لحزب أو آخر أو لايديولوجية متمايزة - رغم أن هذا يمكن تفاديه أو التخفيف منه، لو أن المجلس التشريعى وليس الرئيس كان هو المسئول عن اختيار القضاة على المستوى الفيدرالى.

والمؤكد أن بوبليوس أدرك أن كثيرين من المواطنين الأذكياء فى الولايات الثلاثة عشرة تنتابهم شكوك عميقة فى هذا الدستور المقترح، رغم النظام المحكم الذى يقيمه للحكم المختلط، بالزواجر و الضوابط التى غرست بصورة استراتيجية لضمان أنه إذا ساءت الأمور، وحدث مأزق ما - ليس شيئًا سيئًا على الدوام - سيتوافر مخرج. ويبدو أن ماديسون، على الأقل فى الورقة رقم 10، كان يميل تمامًا إلى جانب المآزق، التى تخدم فى رأيه مصالح الأقلية الثرية، التى قد تحتاج إلى فرملة التدابير الساعية لكسب رضا الشعب، لأسباب مشروعة. بيد أنه يبدو من المشكوك فيه أن رأى ماديسون كان مهمًا، مثلما اعتقد مؤرخون لاحقون، مثل تشارلس بيرد. (يبين مورتون هوايت بصورة مقنعة أن ماديسون

أدرك أن هناك «أسبابًا أخرى للانقسام حول هذه القضية الاقتصادية»، والتى ركز عليها بيرد مستبعدًا الإمكانيات الأخرى).

وعندما يفكر المرء فى الأوراق الفيدرالية مسترجعًا الماضى، مدركًا تمامًا ما أسفر عنه الدستور، يغدو من الطريف النظر فى ورقة هاملتون رقم 72 التى طرحت كل المبرِّرات لعدم قصر تولى الرئاسة على عدد معين من المرات. وكان كثيرون من واضعى الدستور يقاسمونه رأيه هذا على نطاق واسع، فقد تصّور وا أنه قد تحدث أشياء سيئة من جراء الحد من قدرة الرئيس على أن يعاد انتخابه المرة تلو الأخرى، إذا أراده الشعب. وقد حاج أساسًا بأن تقييد الرئيس بعدد معين من الولايات (كما نفعل حاليًا) يتعارض مع التزام من يحتل المنصب للفضيلة أو «السلوك الجيد». ذلك أن قلة من الناس هم الذين لن يقل حماسهم للقيام بواجباتهم عندما يدركون أن مزايا المركز المرتبطة بذلك ستتوقف فى فترة محددة (435). بل والأسوأ أنه إذا أصبح شخص جشع أو فاسد رئيسًا، فإنه ستغريه السرقة أو التسبب فى أكبر ضرر قبل أن يضطر للتخلى عن منصبه، شاعرًا بضغط الوقت. ويروّع هاملتون قراءة بأن يطلب منهم تخيل ما الذى سيكون عليه وجود رؤساء سابقين- جميعهم حانقين لأنهم حرموا من المجد السابق - «يتجولون بين الناس مثل أشباح ناقمة يتحسرون على المكان الذين كتب عليهم ألا يشغلوه أو يملكوه مرة أخرى» (437).

وفى هذا، يبدو هاملتون مُضلِّلًا. فقد تصرف معظم رؤسائنا السابقين بكياسة فى تقاعدهم، وقاموا عادة بدور رجل الدولة الأرشد، وأدلوا برأيهم فى الأمور التى تشغل عامة الناس، وسافروا كسفراء لأماكن نائية بحرّية. لكن كان من المستحيل على بوبليوس أن يتنبأ بما سيحدث فى المستقبل. ولاغرو أنه ثبت أن قدرًا كبيرًا من تخمينه بشأن ما قد يحدث خطأ، ولم يكن لمخاوفه أساس.

ومع ذلك، فقد حاول بوبليوس تصور كل أشكال التطورات، السليمة وغير السليمة، وكانت جهوده استثنائية ومتبصرة.

ويشار عادة إلى أن هاملتون بوجه خاص كان نخبويًا، متقد الحماس للديمقراطية فى شكل بسيط جدًا ليمكن ضبطه. ومع ذلك، فإن هاملتون لم يطرح بصور مشددة فكرة أن الجمهورية الأمريكية كما تضمنها الدستور، ينبغى طرحها إذا ثبت أنها جمهورية طاغية أو غير عملية، مرة واحدة فحسب بل طرحها ثلاث مرات. فقد كتب فى الورقة رقم 33 يقول إنه: «إذا تجاوزت الحكومة الفيدرالية الحدود المضبوطة لسلطتها واستخدمت سلطتها بطريقة تتسم بالطغيان، فإن الشعب وهو خالقها، يجب أن يلجأ للمعيار الذى أرساه، ويتخذ التدابير اللازمة لإصلاح الضرر الذى لحق بالدستور كما تقتضيه الضرورة ويبرره الحذر» (199). ويشير جارى ويلز إلى أنه كان يقصد الثورة بهذا، وأوافقه على ذلك. وقد استخدمت هذه الجملة والتى لم تكن غريبة على الآذن فى القرن الثامن عشر - بإسهاب فى الورقة رقم 60، ويكمن تبرير للثورة فى لبّ الورقة رقم 78، التى أعرب هاملتون فيها عن القلق من «المبتكرات الخطيرة فى الحكم»و «القهر الخطر لحزب الأقلية فى المجتمع». وقال صراحة أن «أصدقاء الدستور المقترح لن يتفقوا مطلقًا مع خصومه فى تشككهم فى المبدأ الأساسى للحكومة الجمهورية التى تعترف بحق الشعب فى تغيير الدستور القائم أو إلغائه عندما يجدون أنه لايتفق مع دواعى سعادتهم» (468). والتأكيد هنا من عندى، ويقصد به إلقاء الضوء على هذه الجملة المدهشة والتى يتم تجاهلها عادة. لقد كان ذلك، فى نهاية المطاف، هو عصر الثورة، وكان هاملتون نفسه قد أصبح ثوريًا مؤخرًا. لقد أدرك أن أى دستور، بما فى ذلك الوثيقة العبقرية التى أيدها هو والمؤلفون المشاركون له فى الأوراق الفيدرالية، كانت مع ذلك وثيقة بشرية، ليست معصومة من الخطأ، عرضة للتعديل- وعند الاقتضاء - لإسقاطها.

والمؤكد أن المحكمة العليا فى رأى هاملتون، كان لها دور محدود فى نظام الحكم الشامل. ولاحظ فى الورقة رقم 78 أن «الهيئة القضائية هى بلا ريب أضعف أقسام السلطة الثلاثة بما لايقارن»، مستشهدًا بمونتسكيو كحجة هنا: «من السلطات الثلاث السابق ذكرها، فإن الهيئة القضائية لاتكاد تساوى شيئًا». بيد أنه فى كتابته لهذا، كان يضع فى اعتباره المناوئين

للفيدرالية، مثل باتريك هنرى وجورج ماسون، اللذان كانا يعتقدان معًا أن قدرًا أكبر من اللازم من السلطة يوجد فى أيدى القضاء وأن القضاة يسبقون الفرع التنفيذى، وتنبآ بأن مثل هذا النظام سينتهى إلى الطغيان فى ظل «حكومة موحدة واحدة». وقد اختار هاملتون (بطريقة ليست مقنعة كثيرًا) التأكيد على أن القضاء بوضوح لا يعلو على السلطة التشريعية، وكتب يقول: «إنه لا يمكن أن يكون هناك أى وزن للقول بأن المحاكم يمكن، بدعوى الكراهية، أن تحل أهواء ها محل مقاصد الدستور من الهيئة التشريعية» (467). ولا يزال لهذا رنين أجوف، وغالبًا ما كانت الدعاوى حول أى من فروع الحكومة له وزن أكبر، مملة (وأشك أن ذلك أمر متعمد) ومثيرة للارتباك.

لابد أنه كان من الصعب على بوبليوس أن يكتب باستمرار عن وضع افتراضى، مخمنًا ما يمكن أن يحدث، لكن هذه كانت مهمته حقًا، وقد أداها جيدًا، مطوّفًا فى اتجاهات كثيرة، محاولًا التنبؤ با لظروف التى قد تكون بعيدة عما هو معقول فى عالم الواقع. وهو عادة يعود إلى حقيقة أن دستور الولايات المتحدة يستند بصورة مسهبة على «النسخ من نماذج تلك الدساتير» التى أثبتت نجاحها على مرّ الزمن، وكان يجد فى ذلك راحة له. ويذكر هاملتون بصفة خاصة «تجربة بريطانيا العظمى» التى تتراءى فى دستور الولايات المتحدة بطرق عدة. وإذا كان ذلك قد أجدى فى الجزر البريطانية، فربما يجدى على هذه الشطئان أيضًا.

4

ما التأثير الذى أحدثته الأوراق الفيدرالية حقًا ؟ كيف ساعدت فى تشكيل العقلية الأمريكية، إذا أمكن استنتاج هذا؟

المؤكد أنه ثبت أن هذه الأوراق مقنعة، حيث إن التصديق على الدستور قد حدث فى الوقت المناسب - وإن لم يكن بدون جدل محتدم. ومثلما قالت الورقة الأخيرة صراحة، فى إيماء للخصوم، فإن الدستور لم يكن «كاملًا»، فقد كان مليئًا بالغموض والحلول الوسط. وقد كتب هاملتون يقول: «لا أتوقع مطلقًا أن أرى عملًا كاملًا من إنسان غير كامل». ولاتزال الوثيقة التى وضعت فى فيلادلفيا فى 1787 نتاجًا «للأخطاء والأحكام المسبقة» وكذلك «التفكير السليم والحكمة» (523). والمسئولية هى مفتاح جعل مثل هذه الوثيقة تعمل لصالح الشعب وحريته - أى الرغبة فى الاستجابة للشعب والوعد بالعمل بطريقة فاضلة، مع تنحية المصالح الشخصية جانبًا لمنفعة المجتمع بأسره.

وفيما يتعلق بتشكيل العقلية الأمريكية، لا يمكن أن يكون هناك شك فى أن طريقة المحاجة. الدقيقة جدًا والمتسامحة إزاء الآراء المعارضة والمبتكرة والرشيدة بطريقة جذرية - كان لها تأثيرها على مفكرى المستقبل، الذين سيتم الحكم على كتاباتهم عن الشئون السياسية (ضمنا) بمقاييس الرقة البلاغية والمعرفة الواسعة لها ملتون وماديسون وجاى. إن أسلوب التنوير بتركيزه على الحكم العلمانى، كان له تأثير جدّ عميق: فحتى الآن. يفترض الأمريكيون على نطاق واسع أن الحكومة لا تنتمى لأى عقيدة معينة (رغم أن البعض لازالوا يقاومون الفصل بين الكنيسة والدولة، ويحلمون بحكم دينى). لقد قدمت الأوراق الفيدرالية نظامًا مثاليًا، وبالطبع، فإن تحقيقه يمكن بالكاد أن يفى بهذه المثالية، حيث إن الأوقات تتبدل وكل جيل يواجه ظروفًا مختلفة.

ولايزال من الصعب تخيل سياستنا بالمعايير التى توقعها بوبليوس، وهو نتاج عصر التنوير. فقد شهدنا عددًا لا حصر له من حالات الفساد والفضائح على مر السنين، وسوء الاستخدام الصادم للسلطة، والتهديدات للحرية من الداخل والخارج على حد سواء. لكن لاتزال هناك قوة باقية تفعل فعلها فى العقل والحكمة الجماعيين تتجسد فى الدستور الأمريكى، بكل عيوبه وحلوله الوسط. لقد أثبت أنه قادر على الاستمرار بصورة مرموقة، كما جرى تعديله بتعديلات مختلفة، ومثلما طبقه رجال ونساء ليسوا معصومين عن الخطأ على مرّ القرون. لقد أدرك بوبليوس قيمة هذه الوثيقة، وحتى عيوبها.

وأى مواطن سوف يستفيد من التنقيب فى الأوراق الفيدرالية بصورة دورية، وهى تدعونا إلى ما أشار إليه لنكولن على نحو شهير فى خطاب توليه ولايته الأولى على أنه «خير ملائكة طبيعتنا». إن هذه الملائكة حقيقية وترفرف فوق رؤوسنا وتومئ إلينا.



THE

L I F E

OF

Dr. BENJAMIN FRANKLIN.

WRITTEN BY HIMSELF.

SECOND AMERICAN EDITION.

PHILADELPHIA:

Printed For BENJAMIN JOHNSON,

No. 147. High-Street.

M,DCC,XCI[illegible].

3

السيرة الذاتية لبنيامين فرانكلين

1

من بين الأشياء الكثيرة التى اخترعها بنيامين فرانكلين هو سيرته الذاتية نفسها. بالطبع، كانت هناك مذكرات قبل ذلك، لكنها كانت محدودة فى مداها، وتتمثل فى ذكريات انتصارات رجال عظام: جنود ورجال دولة، وأمراء تجار، وما إلى ذلك. وكانت هناك تقاليد محدودة من السير الذاتية الروحية والثقافية، ترجع أيضًا إلى «اعترافات القديس اغسطين» من آواخر القرن الرابع أو «اعترافات جان جاك روسو» (1782). ولكن حتى ظهور السيرة الذاتية لبنيامين فرانكلين التى نشرت بعد وفاته، فى 1793، لم يكن لدى العالم نموذج واضح لهذا النوع من المذكرات، نموذج لتتبع فرد لنشأته بنفسه. وهو لايزال كتابًا مرجعيًا بالنسبة للأمريكيين، حيث إنه يقدم قالبًا لاختراع الذات وينطوى على قدر كبير من الإلهام.

ففى أمريكا، تنتشر أسطورة خلق المرء لنفسه وتحقيقه لرفعتها بتأثير الكتب، على الرغم من أن حقيقة ذلك يسهل افتراضها فى عالم لاتزال فيه الطبقات والأعراق ونوع الجنس تشكل حواجز مروّعة. ومع ذلك، فإن الحلم الأمريكى عن حراك الطبقات حلم مقدس، مثلما عبر عنه فرانكلين فى مذكراته، التى نشرت فى شكل مقتضب بعد وفاته وثم توسيعها لاحقًا بإضافة مواد لها. والقصة نفسها تتعلق بصبى ارتفع - بدون أن يستفيد من صلات عائلية أو تعليم رسمى أو ثروة موروثة - فى مراتب المجتمع الاستيطانى إلى وضع يحظى فيه بالثروة والنفوذ. وهذا الصعود تحقق ذاتيًا، وكان نتاجًا لعمل شاق وبراعة. فقد أصبح

فرانكلين- فى خلال عمره - معبودًا للأمريكيين، حصينًا مثل فورت نوكس، وشخصية حميمة لعامة السكان.

إن القصة الكاملة لمسيرة فرانكلين المبهجة والتى يتعذر تقريبًا سبر أغوارها، تتجاوز حدود مذكرات بنيامين فرانكلين. ومع ذلك، فهى المكان الذى نبدأ منه، وهى تتبع قصة تعد نموذجًا مثاليًا، تقدم للأمريكيين على مستويات عديدة، قالبًا لا يذم ولا يمدح من نوع ردئ، بطريقة، وطريقة للتقدم فى العالم. لقد أسهم فراكلين فى تشكيل الشخصية الأمريكية وخلقها على حد سواء. والواقع أنه يصعب حساب تأثير كتابه. وفى حين أن قلة من الأمريكيين سيقرءونه فى واقع الأمر، فإن قلة هى التى لن تشعر على نحو غريب أن مضمونه ليس مألوفًا بالنسبة لها، وهو المضمون الذى ولج إلى الميدان العام باعتباره أسطورة مؤسسة، بما يجعل فرانكلين، بمثابة الأب المؤسس للآباء المؤسسين، ورب الأسرة للأمة كلها.

2

يعرف الجميع بنيامين فرانكلين (1706 - 1790)، حيث إنه وجهة السائغ يزينّ كثيرًا من الواجهات العامة. وتحمل اسمه، البنوك والمدارس والمتاجر، مثلما تفعل المؤسسات والاتحادات المالية. وهو إذ يحدق فينا من ورقة بنكنوت فئة المائة دولار، فإنه يمثل الثرى الذى اقتطعنا جميعنا منه، أو شكلنا على صورته. ومن بين الآباء المؤسسين، فإنه يمثل الشخصية الأكثر قبولًا حتى الآن. ويبدو چورج واشنطن وتوماس جيفرسون جبارين بالمقارنة به. ولكن لا يمكن بلوغهما. لقد التقينا جميعًا بفرانكلين آلاف المرات، فى المتاجر والمكاتب على امتداد شارع ماين ستريت: الشاب قيد الإعداد، الدمث بحلاوة، المتلهف على أن يسرّ الآخرين، ربما ماكرًا قليلًا، ولكنه مستعد دومًا لأن يسهم فى الجهد المشترك. ويستطيع كل أعضاء نوادى الروتارى أن يتتبعوا أصلهم ويرجعوه إلى هذا الرجل، الشخص المحب لعامة الناس والذى يهوى الصحبة. والواقع أن بن الشاب باعتباره صاحب مطبعة ناجح فى فيلادلفيا، نظم بحماس زملائه أصحاب المحلات والتجار فى مجموعات لمناقشة الموضوعات المثيرة لاهتمامهم والنهوض بالصالح العام.

كانت له مقدرة خارقة على خلق الكيانات التى تعزز رفاهية زملائه المواطنين، وأسس أول مكتبة بالاشتراكات على الأرض الأمريكية وأقام إدارة إطفاء من المتطوعين وبدأ بمستشفى وأكاديمية تطورتا إلى جامعة بنسلفانيا. وعمل كمدير مكتب بريد فى فيلادلفيا وكان جامع أموال رائعًا ابتكر وسيلة لجمع رؤوس الأموال هى الصناديق المثلة. وابتكر فكرة التأمين ضد الحريق. ومثلما نعرف جميعنا اختراعاته المتباينة فإن البعض منها حمل اسمه، مثل موقد فرانكلين : وهو جهاز للاحتراق النظيف حسّن حياة أرباب البيوت فى أمريكا الاستيطان.

وكان عالمًا أيضًا : فهو الرجل الذى اكتشف أن البرق شكل من الكهرباء (واشتهر بأنه طيّر طائرة ورقية ليجرب هذه النظرية - ولحسن الحظ - فإنه لم يشو نفسه فى هذه العملية). وصنع أول نظارة ثنائية البؤرة: وكانت هذه من أكثر اختراعاته استدامة ونفعًا. وأنتج أول قسطرة للبول، وصمم مصابيح الشوارع. واخترع بطارية التخزين (وأسماها باسمه) وابتكر شبكة للأعمال الصحية تستخدم المياه الساخنة لتدفئة المبانى. وباعتباره عامل طباعة بحكم المهنة، شغل نفسه طويلًا بتقنيات حرفته، مدخلًا تحسينات فى تصميم الكليشيهات . وامتدت تجاربه العلمية على نطاق واسع أيضًا، من العمل الرائد فى مجال الكهرباء والأرصاد الجوية إلى التبريد إلى تصميم أبدان السفن. وكان مهتمًا بالمغناطيسية والبصريات ويبدو أن الطب قد فتنه دومًا، حيث قام بابتكارات كثيرة وقدم مقترحات عديدة أظهرت بصيرته المدهشة.

ولكل هذا كان رجل دولة مهاراته غير عادية. وكان دوره فى إنشاء الجمهورية الأمريكية محوريًا لا أقل من ذلك. فقد كان حاضرًا منذ البداية وعمل بدون توقف لتعزيز قضية الاستقلال الأمريكى وخدم كسفير مهم فى الخارج، وأقنع الفرنسيين بأن يمنحوا الثورة دعمًا كان حاسمًا. وقام بأدوار دبلوماسية مهمة فى لندن قبل نشوب الحرب. وفى باريس بعد ذلك. وبدون دبلوماسيته الحريصة والأريبة، ربما لم تكن الثورة الأمريكية لتنجح. وقد أدهش نجاحه فى المساعدة فى التوصل إلى تسوية سلمية مع بريطانيا بعد الحرب الثورية كثيرين من منتقصيه. وآخرًا وليس، أخيرًا، كان شخصية أساسية فى وضع ثلاث وثائق كبرى: إعلان الاستقلال، ومعاهدة التحالف مع فرنسا، ومعاهدة السلام النهائية مع بريطانيا. ومثلما قال على نحو شهير : «ليس هناك مطلقًا حرب جيدة أو سلم سيئ».

ويصل بنا ذلك إلى ما قاله فرانكلين. ذلك أن أقواله المأثورة (مثلما وردت فى كتاب «التقويم» الشهير الذى نشره باسم مستعار هو (ريتشارد الفقير) قد ساعدت فى تشكيل الشخصية الأمريكية ولاتزال تشكل جزءًا من نسيجنا العقلى. وشملت هذه الأقوال المأثورة: «فى العجلة الندامة»، «إسرع ببطء» «الضربات الصغيرة تسقط أقوى أشجار البلوط»، «رائحة السمك والزوّار النتنة تفوح فى ثلاثة أيام»، «ادخار بنس يربحك بنسين»، «الثعلب النائم

لايصطاد دجاجًا» كذلك قال «لسعة التوبيخ هى الحقيقة فيه» و «لا مكاسب تتحقق دون معاناة للألم». وتبدو مواقفه إزاء النقود صريحة فى أقواله، فمثلما كتب «الاضطرار لا يحقق مطلقًا مساومة جيدة». وفى خيانة لجذوره المتشددة، سخر قائلًا «إن الله لا يساعد إلّا من يساعدون أنفسهم». ومثلما كان فرانكلين أول من يعترف بذلك، فإن كثيرًا من هذه الأقوال كانت موجودة فى أشكال سابقة. ويعترف فى سيرته الذاتية، بأنه «ولا حتى عشر الحكم» التى تظهر فى هذه الأقوال يرجع إليه؛ والواقع أن معظم هذه الأقول المأثورة مأخوذة بتصرف من أمثال قديمة. فالمرء يجد مثلًا روايات معدلة تقول «النوم مبكرًا يضمن الاستيقاظ مبكرًا / أو يجعل الإنسان متمتعًا بالصحة والثروة والحكمة» فى المقتطفات الأدبية المختارة المعيارية للأمثال الإنجليزية. وقد اقتبس، حرفيًا تقريبًا، من دانييل ديفو أحد أقواله الساخرة وهو «فى هذا العالم، لايمكن القول عن أن شيئًا ما مؤكد عدا الموت والضرائب». وكان ما فعله فرانكلين هو أن يلمّع الأقوال المأثورة، ويجعلها جديرة بالتذكر، مضفيًا عليها نبرة محلية - وجميع هذا تم وفقًا لتقاليد الأقوال المأثورة، وهى أن القول المأثور الحاذق هو الذى يشيع ..... ويشيع.

كان فرانكلين ذكيًا فكيها ومتحدثًا لبقًا ومقتنعًا بأن الأمريكيين ينزعون إلى الاعتقاد بأنه يقول أشياء تشبههم وتعبر عنهم (وهو فى هذا يذكرنا بلاعب البيسبول يوجى بيرا). فهو لم يقل مثلًا «إن الأمانة هى خير سياسة»، لقد كان سرفانتس(*) هو القائل. ومع ذلك، فإن الناس ينزعون أيضًا لإعادة تشكيل أقوا له المأثورة الفعلية فى أدمغتهم الخاصة بهم، يحدث عندما يغمغمون لأنفسهم فى الجمنازيوم قائلين «لا ألم لا مكاسب». والواقع أن الذاكرة العامة تعاود تنقيح أقوال لفرانكلين، مثلما نقح هو الذاكرة العامة.

لقد كانت ادعاءات فرانكلين وغروره قليلين، وأراد أن يتم تذكره أساسًا باعتباره صاحب مطبعة. واتساقًا مع هذا، كان يوقع عن نفسه «فرانكلين، صاحب المطبعة». ربما كان ذلك أكثر من مجرد علامة على التواضع. فقد أدرك فرانكلين أن صورته العامة مهمة، وأحب أن

(*)- ميجويل دى سرفانتس (1547 - 1616) روائى أسبانى مؤلف دون كيشوت (المترجم).

يكون له ارتباط بهذه المهنة. وبعد فترة طويلة من الوقت الذى لم يعد فيه عليه أن يفتش عن الورق بنفسه، كان يجر عربة يد مملوءة ببكرات الورق عبر شارع السوق إلى ورشته، معلنًا عن عمله الشاق ودوره المهنى. كذلك كان يدعو للنظام والاجتهاد، رغم أنه يمكن أن يكون مؤجلًا للعمل وكسولًا هو نفسه.

كان هذا الكسل يضايق البعض. فعلى سبيل المثال فإنه عندما وصل جون آدمز إلى باريس فى 1778 لينضم لفرانكلين فى مساعيه الدبلوماسية نيابة عن المستوطنات المتمردة، روّعه «تبديده» لفكرة الحكيم الأمريكى الشهير، الذى أَجلّه الفرنسيون ووضعوه على قدم المساواة مع فولتير نفسه. وسجل آدمز انطباعاته عن فرانكلين فى يومياته:

> وجدت أن عمل لجنتنا لن يتم مطلقًا إلا إذا قمت به بنفسى .... كانت حياة الدكتور فرانكلين مشهدًا من التبديد المستمر .... كان يتناول الإفطار متأخرًا، وفور انتهاء الإفطار مباشرة. يجىء حشد من المركبات يحمل من يلتقيهم فى استقبال الصباح ..... بعض الفلاسفة والأكاديميين... وبعض من قبيلته الصغيرة من الأصدقاء الوضعاء بالمعنى الحرفى الذين كان يستخدمهم لترجمة بعض مؤلفاته القديمة... كان يدعى لتناول العشاء كل يوم ولم يرفض مطلقًا إلا إذا كنا قد دعونا رفقة للعشاء معنا. كنت دوما ادعى معه، حتى وقت شعرت فيه أنه من الضرورى أن أبعث باعتذارات، حتى يتسنى لى بعض الوقت لدراسة اللغة الفرنسية والقيام بأعمال البعثة.

كان من عادة فرانكلين، على الأقل عندما كان فى فرنسا، أن ينام متأخرًا وأن يعمل عندما يحب أن يفعل ذلك، وكان يتناول العشاء فى المساء مع أصدقائه، وكثيرات منهن من سيدات المجتمع، اللاتى كان يغازلهن بلا خجل. ومع ذلك يمكن القول بأن سلوكه هذا اعتبر محققًا لغايات ونتائج معينة. فقد أدرك فرانكلين أن الفرنسيين يعجبون بالرجل الذى يتمتع بمباهج

الحياة. ومن ناحية أخرى، فإنه تمتع حقًا بمباهج الحياة، وأنه فى نهاية المطاف اكتسب الحق فى التصرف على هذا النحو، بعد أن أمضى ساعات طوال فى ورشة الطباعة كشاب وجاهد ليحقق عرضًا مرموقًا من الإنجازات. وحتى مع حياته المترفة فى باريس، استمر فى أداء عمله ولم يكف عن التفكير بطرق خلاقة.

وعندما أصبح كهلًا، استمر يقوم بدور عام. والواقع أن حضوره المثير للانبهار فى المؤتمر الدستورى فى فيلادلفيا-فى سن الحادية والثمانين - اعتبر حاسمًا للوصول به لخاتمة ناجحة. فقد وقف فرانكلين بثبات مؤيدًا للدستور المقترح رغم تحفظاته (والتى عبر عنها بجرأة بالغة فى المؤتمر). وظلت الشكوك التى انتابته تحظى بالتفهم والتعاطف: فقد اعترض على إقامة فرع تنفيذى قوى بصورة مبالغ فيها، بوجود شخصٍ بمفرده يشغل منصب الرئيس دون كوابح كافية على سلطته. كان يعتقد أنه يحتمل أن ينتهى النظام المقترح إلى طغيان بعد فترة معينة (مثلما أوضحت فى الفصل السابق، مستشهدًا بخطاب فرانكلين فى المؤتمر).

كان فرانكلين متعلقًا بوضعه كصاحب مطبعة لأسباب قوية. فقد استطاع أن يعيد الاعتبار لهذه المهنة، واشترى مطبعة خاصة به (بمساعدة قليلة من أصدقائه) فى منتصف العشرينيات من عمره. ونذر نفسه للمهمة المتاحة بانضباط ذاتى مقدام، يصحو مبكرًا ويعمل حتى وقت متأخر. والأهم هو أنه استغل مهاراته الاجتماعية الهائلة، ليخلق شبكة متوسعة دومًا من المعارف وزملاء العمل. واشترى وهو مايزال فى العشرينيات صحيفة من ربّ عمل سابق كان قد واجه أوقاتًا صعبة، وحولها إلى جريدة شعبية، هى بنسلفانيا جازيت. وأصبح ناشرًا كبيرًا للكتب أيضًا، وكان عادة يقدم النسخ بنفسه. وأصبح التقويم الذى يصدره الأفضل مبيعًا فى كل أرجاء المستوطنات، ورسخ مكانة فرانكلين كصاحب رأى وطنى. وفى فترة قصيرة نسبيًا، أصبح، شخصية مؤثرة لها نفوذها فى مجال الأعمال، بأى عدد من المشاريع والامتيازات التجارية. لقد كان حقًا واحدًا من أوائل بارونات الإعلام على الأرض الأمريكية.

وللهدف الذى نتوخاه هنا، فإن فرانكلين أصبح أيضًا كاتبًا مهمًا، واحدًا من أكثر الكتاب تأثيرًا ونفوذًا فى عصره. وتراوحت أعماله بصورة واسعة من العلوم، للسياسة، والفلسفة- وتملأ أعماله الكاملة رفًا طويلًا فى كل مكتبة. ولكن من بين كل الكتابات التى خلفها وراءه، تظل السيرة الذاتية لبنيامين فرانكلين جوهرة إنجازاته، وعملًا أدبيًا أساسيًا ساعد فى تشكيل الشخصية الأمريكية بطرق لا تعد ولا تحصى.

ولسوء الحظ، فإنه لم يكن قد اكتمل فى وقت وفاته، ونشر بعد انقضاء أجله (فى شكل مختصر) فى 1793. أن تاريخ المخطوطة ومصيرها سيملآن مجلدًا صغيرًا فى حد ذاته. ويرجع بعض المشاكل إلى وليام تمبل فرانكلين، حفيد المؤلف الأكبر والسكرتير السابق فى باريس، الذى عهد إليه بأوراق فرانكلين. واستغرق الأمر سنوات كثيرة قبل أن تبدأ الطبعة الرسمية من الأوراق فى الظهور فى 1817. ومؤخرًا فى القرن التاسع عشر أصبحت أوراق سابقة ومتنوعة من السيرة الذاتية متوافرة، وبدأ الباحثون فى تصحيح «التصحيحات» التى أجراها تمبل، الذى حّطم أعمال جده بصورة منتظمة، حاذفًا ما اعتبره جملًا «فجة» ليجعلها أكثر أدبًا وعامة ومجردة. ومن ذلك، أنه حين وصف فرانكلين زملاءه فى مجال الطباعة فى لندن بأنهم من «كبار المسرفين فى شرب البيرة»، أصبحوا فى إعادة الصياغة التى قام بها تمبل من كبار «شاربى البيرة» وعلى أية حال، فإن صياغة فرانكلين الخاصة يفوق بريقها البديل الذى حلّ محلها.

3

تقع السيرة الذاتية فى أربعة أجزاء، كتبت فى أوقات مختلفة. واتخذ الجزء الأول، وهو الأكثر جدارة بأن يذكر، شكل خطاب إلى ابن المؤلف، وليام (والذى تبرأ منه فيما بعد لأن وليام أخذ صف البريطانيين خلال الثورة). وقد بدأ الكتابة فى أغسطس 1771، فى منزل أنيق فى الريف يملكه صديقه جوناثان شيبلى، وهو أسقف كنيسة سانت آساف (وبتأثير من فرانكلين، أصبح شيبلى مدافعًا عنيفًا عن الاستقلال الأمريكى فى مجلس اللوردات) وحسبما تقول الأسطورة، فإن فرانكلين كان ينكب على هذا العمل سبع ساعات يوميًا، ويكتب عادة فى الحديقة. وكان يقرأ الحصيلة لأسرة شيبلى بعد تناول العشاء، حول نيران المدفأة فى حجرة الجلوس.

واكتمل الجزء الأول خلال أسبوعين، ثم وضعه جانبًا ليقوم بمهام أخرى استوعبت كل جهد فرانكلين.

وعندما شرع فرانكلين فى عمله هذا، كانت لديه نماذج قليلة من هذا النوع من الكتابه، على الرغم من أن اللورد هيربرت تشيربرى كان قد نشر مذكرات مشهورة تمامًا قبل ذلك ببضع سنوات. لكن فرانكلين لم يكن من النبلاء. وبالطبع لم يكن رجلًا عاديًا – وأنارت إنجازاته فى مجال الأعمال والعلوم والحكومة والخدمة العامة أمامه الطريق الذى ارتحل فيه – لكن لم تكن له صلات اجتماعية بسبب مكانة أسرته، ولا ورث ثروة. ومن ثم كان تقديمه لمذكراته عملًا جريئًا، عملًا ثوريًا تقريبًا فى حد ذاته.

ولاتزال الثقة المحضة فى الرأى، والرضا السهل عن النفس، تضفى على هذا الكتاب بريقًا خاصًا.

لقد كان لدى فرانكلين موضوع خاص جدًا، هو قصة شاب شق طريقه بشجاعة فى عالم بحسابات غير هيابة. وحقق أشياء مذهلة، بالاقتصاد والاجتهاد والانكباب المستمر على

العمل لتحقيق الكمال الذاتى. وأصبح هذا النمط، فى الوقت المناسب نموذجًا لاختراع الذات، نموذجًا يشكل إحساس الأمة بنفسها باعتبارها مكانًا يمكنك فيه تحقيق أى شىء إذا حاولت باجتهاد كاف. وكان هذا هو الحلم الأمريكي فى مستواه الأكثر بساطة.

ويبدو أن فرانكلين لم يأخذ دور كاتب السيرة الذاتية بجدية، حيث ظل متعثرًا طوال تسعة عشر عامًا، كان العمل يحظى باهتمامه الكامل لفترات منفصلة وإن كانت موجزة.

وهو حقًا لم يزعج نفسه بأن يجمع شتات العمل، رغم أن الجزء الأول كان قد تشكل تقريبًا. وهو يغطى سنواته الخمسة وعشرين الأول، فى بوسطن وفيلادلفيا، بدءًا بأ صوله فى «الفقر وخمول الذكر». ونعرف منه أنه على الرغم من افتقاره للتعليم الرسمى، فقد كانت لديه رغبة خارقة فى معرفة العالم ويغرام ببراعته ودهائه، يتذكر تدريبه المهنى كعامل طباعة ومسيرته المطردة فى العالم، وهو تقدم أفضى به فى النهاية إلى إقامة مشروع لأعمال طباعة وصعوده لمصاف الشهرة فى النشر والخدمة العامة.

وبحلول الوقت الذى شرع فيه فرانكلين فى كتابة هذه المذكرات، كان فى الخامسة والستين من عمره، وربما كان الأمريكى الأكثر شهرة فى أيامه. وفى الجزء الأول يقدم صورة عن الشخص الذى كان عليه منذ عقود طويلة خلت. والنغمة التى تبناها معتدلة ولطيفة، بل ومتقلبة، مثلما يرد فى قوله: «سوف أطلق العنان للأهواء الطبيعية تمامًا فى الرجال العواجيز، فى أن يتحدثوا عن أنفسهم و أعمالهم الماضية، سأطلق العنان لها دون أن أكون مزعجًا للآخرين الذين قد يعتقدون بسبب من احترامهم لسنى أنهم مضطرون لسماعى، حيث إن هذا عمل يمكن للمرء أن يقرأه أو لا يقرأه كيفما شاء» (44). وقد ظل خجولًا بدرجة عالية بشأن كتابة المذكرات، لأن ذلك كان يعنى أن يعيش حياته مرة أخرى (قد تبين حقيقة أنه لم يكمل الكتاب مطلقًا خوفه من أن ذلك يعنى إنهاء حياته، كما لو أن وضع خاتمة للكتاب شكل من الانتحار).

وكصاحب مطبعة، كان من الطبيعى أن يقع فى الاستعارات الخاصة بحرفته. وبذلك أصبحت الحياة بالنسبة له (بشكل هادئ نوعًا ما) «جدولًا للخطأ والصواب»- أخطاء عامل

فى مطبعة. ونظرًا لأنه لم يكن رجلًا له عمق روحى بارز، فإن الآثام لم تكن شيئًا يقلق بشأنه كثيرًا. لكن الأخطاء يمكن للمرء أن يصححها بوضوح. وكان يقول أنه كان يود أن يعيش حياته مرة ثانية،«طالبًا فقط الميزة التى تتوافر للمؤلف فى أن يصحح بعض أخطاء الطبعة الأولى فى الطبعة الثانية» (43).

إن السيرة الذاتية نوع من الأدب القصصى، بل وربما حتى أقل واقعية من معظم الروايات. وهى تعتمد على عمل الذاكرة الهش، الذى يشكل الأحداث لتلائم احتياجات الحاضر. ومثل معظم كتاب السير الذاتية، كان فرانكلين يحسن قصته باستمرار باسترجاع الماضى، ونادرًا ما كان يرى نفسه شخصًا يقع فى الخطأ، بل وغيّر كثيرًا حتى ترتيب الأحداث لتعزيز تأثير القص. بالطبع أن كثرة النسيان نعمة هائلة لكبر السن، والسيرة الذاتية لبنيامين فرانكلين كتاب لحالات الغياب والتملص (فعلى سبيل المثال، فإن طبيعة زواج فرانكلين الحقيقية، مثلما حدثت، لاتعنيه و لا يذكر أبناءه إلا لماما. وحتى علاقاته بوالديه تظل غامضة، رغم أن المرء يستطيع أن يقرأ بين السطور أنه كانت هناك مشاكل).

وقد انتهت دراسة فرانكلين بالمدارس مبكرًا كما يقول لنا، فالأسرة ببساطة لم تستطع تحمل تكاليف تعليمه رسميًا رغم ذكائه الواضح. لقد أجبر بن الصبى على الالتحاق بعمل والده والذى كان صانع «شموع من الشحم الحيوانى والصابون الردئ» (53). ويقول ببساطة «لقد كرهت هذه الحرفة وكان لدى ميل قوى للبحر، وقد تعلمت مبكرًا السباحة جيدًا» وكان يمضى قدرًا كبيرًا من الوقت فى الماء، عادة ليعلم الآخرين السباحة. وأدرك والده أن طفلًا ساخطًا قد يختار الهرب للبحر (وقد فعل ذلك أحد الأبناء وهو جوسيا).

ومن ثم تحمل مشقة تعليم ابنه تشكيلة من الحرف، آملًا أن يجد الحرفة التى قد تثير اهتمامه. ويذكر فرانكلين أنه كان دائمًا منذ ذلك الوقت يستمتع وهو يرى الرجال وهم يعملون فى حرف متباينة وأحب إصلاح الأشياء. «كان من المفيد بالنسبة لى، وقد تعلمت الكثير من ذلك، أن أتمكن من القيام بمهام صغيرة بنفسى فى البيت. عندما يتعذر الحصول

على صنايعى بسهولة. وصنع آلات صغيرة «أجرى بها تجاربى فى حين أن القصد من إجراء التجارب هو إنعاش عقلى وتسخينه» (57).

ومنذ سن مبكرة، كان فرانكلين يقرأ بنهم، «وكل النقود القليلة التى وقعت فى يدى ضاعت على الكتب»(57). كان معجبًا بصفة خاصة بكتاب جون بونيان تقدم المهاجرين (1678)، وانكب على الأعمال التاريخية، مثل حيوات بلوتارك - وربما كان هذا هو أول عمل مهم للسيرة - والذى يروى فيه الكاتب الإغريقى حيوات ستة وأربعين شخصية، من الإغريق والرومان، وكان عادة يضع قصص حياتهم جنبًا إلى جنب على سبيل المقارنة. كما قرأ لدانيل ديفو، الروائى الإنجليزى الذى كان يجمعه به الكثير ككاتب: أسلوب صريح وواضح ومنهج يتسم بالفطرة السليمة إزاء الحياة. وبطرق كثيرة، كان فرانكلين نسخة من روبنسون كروزو، الرجل العملى الذى جمع أجزاء عالمه معًا وحقق هدفه بما وجده بين يديه.

وجعلت سمة حب الكتب لدى بن الصبى، والده يقرر أن يلحقه بالعمل كعامل طباعة، ودربه على أيدى أخيه جيمس شقيقه الأكبر الذى كان قد حقق نجاحًا ما فى تلك الحرفة. كان جيمس يكبر بن بتسع سنوات، وكان شخصية مستبدة. وثار قدر كبير من الشقاق والاحتكاك بين الشقيقين - ومرة أخرى ينبغى للمرء أن يقرأ بين السطور ليعلمّ بهذه الحقيقة. ومع ذلك، فقد اهتم بن بالحرفة، نظرًا لأنه كانت لها ميزات كبيرة بالنسبة لصبى له مثل هذه المواهب. فقد جعله العمل على اتصال بكثيرين من بائعى الكتب مثلًا، ووفر له فرصة للحصول على الكتب ، واتسع ذوقه فى القراءة. وسرعان ما أصبح صديقًا حميمًا لشاب آخر يهوى القراءة، هو جون كولينز، وكان يتبادلان الكتب والآراء بسعادة. وقد كتب فرانكلين عن هذا واسترعى الانتباه إلى إيمانه المبكر بضرورة تعليم المرأة - وهى نقطة اختلف فيها كولينز معه بشدة. وقد أيد فرانكلين طوال حياته بقوة حقوق المرأة - ولم تكن تلك قضية تحظى بالشعبية بصفة خاصة فى القرن الثامن عشر (من الواضح أن حقوق زوجته كانت أمرًا آخر).

وكان خلال سنوات تدريبه المهنى قد تعرّف على سبكتاتور: وهى صحيفة شعبية كان يحررها فى لندن جوزيف أديسون وريتشارد سيتل. فقد كان جيمس فرانكلين يمتلك مجموعة مجلده من أعداد هذه الصحيفة، فدرسها بن بانكباب. فقد استهوى الأسلوب النيّر والمألوف، برشاقته الميسورة وتركيزه الحاد، الشاب الذى بدأ يقلد بأسلوبه هو هذه المقالات. ويقول فرانكلين: «آمنت بأن تلك كتابه رائعة ووددت لو استطعت تقليدها» (62). وكرس نفسه لممارسة التقليد وتعلم من هذه العملية أن يكتب جيدًا. كما اهتم بالشعر، رغم أنه لم تكن لديه موهبة خاصة من هذا النوع، ومع ذلك فإن مجرد محاولة وضع أفكاره فى أبيات نظمت عقله وضبطته وعززت أسلوبه، الذى عرف بالاقتصاد والدقة.

كان فرانكلين يصحو مبكرًا ليقرأ ويكتب، مكرسًا أيام الأحد لهذين النشاطين «متملصًا قدر ما يستطيع من المشاركة فى طقوس العبادة» (63). وقد تفادى طوال حياته الذهاب للكنيسة فى معظم الأوقات ولم ينتم لأى عقيدة بعينها. وهذا النمط يذكرنا بأنه عاش فى عصر التنوير، حيث كان الحماس الدينى قد ذوى فى الدوائر الثقافية. وفى هذا، يذكرنا فرانكلين بما فعله فولتير، المتشكك الفرنسى العنيف الذى اعتبر نفسه مؤمنًا بوجود الله عقلًا فحسب وليس شخصًا، أى يؤمن برب بعيد غير شخصى جعل العالم يبدأ حركته ثم توارى ليرقبه وهو يتحرك. إن الرب الشخصى لم تكن لم جاذبية لدى فرانكلين. كان يعتبر المسيح مثالًا نقيًا للسلوك الإنسانى، نموذجًا للناس لكى يتبعوه، ولكن فرانكلين لم يذكر مطلقًا فى أى مكان من كتاباته الوهية المسيح. ومرّ بفترة وجيزة من تجدد الاهتمام بالدين فى منتصف عمره، ومع ذلك فقد تراجع عن ذلك نحو نهاية حياته، واختار إيمانًا عقليًا غامضًا بوجود الرب ومن ناحية أخرى، لم يكن لديه أى اعتراض على العبادة العامة بالنسبة للآخرين، محاجًا بأنها جيدة بالنسبة للمجتمع ككل، حيث إنها تشجع السلوك الأخلاقى.

وقد تحدث فرانكلين صراحة عن طبيعته المتشككة وإيمانه بوجود الرب عقلًا فحسب، شارحًا أنه وهو شاب درس أعمال شافتسبرى وكولنز. إذ كان الايرل شافتسبرى (1671 - 1731) متمسكًا بالفضيلة والأخلاق بحماس متقد وكان متشككًا دينياً، فى حين

كان انطونى كولينز (1676-1729) مؤمنًا بوجود الرب عقلًا فقط وأصبح فرانكلين «متشككًا حقيقيًا فى كثير من نقاط عقيدتنا الدينية» كما يعترف هو نفسه (64). وبالطبع، فقد توافق فرانكلين فى هذا مع كثيرين من الآباء المؤسسين الذين كانوا يؤمنون بوجود الرب عقلًا فقط وكانوا متشككين عادة - وبدت تلك نقطة غائبة فى القرن الحادى والعشرين، عندما بدأ الأصوليون الدينيون عازمين على طمس الخط الفاصل بين الدولة والكنيسة. وكان هذا هو الخط الذى كان مؤسسو هذه الأمة عازمين على الحفاظ عليه. لابد أن فرانكلين وزملاءه المؤمنين بوجود الله عقلًا فقط سيجدون أن كثيرين من السياسيين المعاصرين بدائيين تمامًا فى تمسكهم بالليبرالية بالمعنى الحرفى، وأن اتجاهاتهم بشأن الحكم الدينى تفزعهم.

لقد اتجهت نظرة فرانكلين المحدقة بثبات صوب العالم الواقع تحت أقدامه، ونادرًا ما نظر لأعلى - إلا عندما كان يطيرّ الطائرات الورقية. كان بمثابة «السيد إصلاح»، لأنه كان يحاول دومًا تحسين الآلات والأدوات التى تقع بين يديه أو يعمل على تحقيق الصالح العام. كان عمليًا على نحو متطرف، حتى فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية. وكان مستقلًا بصورة حادة كمفكر، لديه كراهية عميقة الجذور للسلطة، محتقرًا من ينتزعون مكانة لا يستحقونها. فعلى سبيل المثال، فإن سلوك أخيه للاستبداد به، كان أكثر من مجرد أمر يحنقه. فقد كتب فرانكلين يقول «كنت أحب خشونته و معاملته الاستبدادية لى، لأن ذلك ربما كان وسيلة لدفعى للنفور من السلطة الاستبدادية الذي لازمنى طوال حياتى» (69).

وهرب بن من المنزل فى سن السابعة عشر، فارًا من طغيان أخيه. ارتحل إلى فيلادلفيا حيث وصل إليها فى حالة مروّعة تمامًا من التشوش. «كنت قذرًا من جراء رحلتى، وكانت جيوبى مملوءة قمصانا وجوارب، لم أكن أعرف أحدًا وليس هناك مكان اتجه إليه للسكن. كنت مرهقًا من تعب السفر، كنت اتسكع وأريد أن أستريح. كنت فى غاية الجوع، وكان كل رصيدى من المال هو دولار هولندى ونحو شلن من النحاس» (75). سار بتمهل فى شارع السوق ولمح فى مدخل منزل، شابة أصبحت فيما بعد زوجة عرفية له هى «ديبورا ريد». إن منظر بن الشاب وثلاث أرغفة من الخبز تحت إبطه صورة من الصور التى لا يمكن محوها

فى التاريخ الأمريكى. وفيما يمثل لحظة لا تنسى، أعطى فرانكلين رغيفين من الأرغفة الثلاثة للمرأة وطفلها. وكان هذا السخاء والرحمة سمة مميزة للرجل، الذى كان يريد أيضًا أن يراه الناس سخيًا ورحيمًا.

والقصة التى ترد فى هذه السيرة الذاتية هى رواية أمريكية مثالية عن شاب جاء للمدينة وهولا يملك شفير ولا نقير وارتفع من خلال العمل الشاق وثبات العزم لأعلى المراتب فى العالم، وأصبح رجل المواهب. واستمرارًا مع هذه الرواية الأسطورية، اجتهد فرانكلين للحصول على وظيفة فى مطبعة، ووجد وظيفة مع صمويل كيمر -وكان شخصية مشهورة فى هذه المهنة فى فيلادلفيا. وسرعان ما أصبح بن الشخص الأكثر نفعًا فى هذه المطبعة واحتل موقعه بكل الوسائل الممكنة، جاعلًا نفسه شخصًا لا يمكن الاستغناء عنه. وسكن مع جون ريد، حميّه فى المستقبل. «و فى هذا الوقت اشتريت خزانة وملابس، وأصبح لى مظهر أكثر احترامًا فى عينى الآنسة ريد، بما يزيد كثيرًا على ما كان لى عندما رأتنى أول مرة وأنا آكل رغيفى فى الشارع» (79).

وتعقب ذلك جملة أساسية: «بدأت الآن فى تكوين معارف بين شبان البلدة، كانوا من هواة القراءة وكنت أمضى معهم الأمسيات وأنا فى غاية السرور وكنت أكسب النقود من جديتى فى العمل واقتصادى فى الإنفاق، وعشت بشكل لائق ومعقول، ناسيًا بوسطن بقدر ما استطعت، وكنت أرغب ألا يعرف أحد هناك أين أسكن إلا صديقى كولنز الذى كان يعرف سرى، وحافظ عليه عندما كتبت إليه» (79). وعلاوة على تدافع الأفكار، التى تنتقل بصورة مرحة من موضوع لموضوع (ربما بما يقلد تحولًا مراهقًا فى العقلية)، فإن مقاطع الكتاب تتضمن إيماءات لشخصية المؤلف. فقد كان لبن الشاب طابع اجتماعى وكان يحظى باهتمام الآخرين. لذا سرعان ما وجد دائرة من الأصدقاء ذوى العقلية المماثلة لعقليته. كانوا جميعًا من «عشاق القراءة» كما يقول لنا، بعبارة أخرى أنه لم يرتبط بأى شخص فحسب، مفضلًا الشبان فى مرحلة التكوين، رجال لايختلفون عنه. كانت هذه المجموعة تقرأ الكتب لتجعل أنفسها أفضل، وشكلوا حلقة داخلية من الزملاء الذين ساعدوا بن فى تعزيز مسيرته المهنية؛

والواقع أن الموضوع سرعان ما تحول إلى «كسب النقود». إن فرانكلين يريدنا أن نعرف أنه كسب ثروته بالجد و الاقتصاد. وهاتين الفضيلتين التوأم هما حجر الزاوية فى بنائه لنفسه. عمل فرانكلين بجدّ واجتهاد ليحقق النجاح، كما يخبرنا مرارًا وتكرارًا – فى حالة إذا ما نسينا بشكل ما. كان يذهب للمطبعة مبكرًا ويتركها متأخرًا. وإذا سقطت منه الحروف وتبعثرت عرضًا فى مطبعته، كان يلتقطها ويبدأ من جديد، رافضًا أن يترك المطبعة حتى يكتمل العمل. لم يكن يبدد شيئًا. وكان يعتمد على لفيف من الأصدقاء الجيدين مثل كولنز، للحفاظ على أسراره، ومساعدته عند الاقتضاء. وكان فى مقدوره أن يعتمد طوال حياته على دائرة من الأصدقاء، تزايدت اتساعًا بشكل مدهش مع مرور العقود.

كان هناك عادة راع كبير له: شخص له ثروة ضخمة أو منصب رفيع يكتشف مواهب هذا الشاب المقدام ويدفعه للأمام ليشق طريقة فى العالم. وكان راعيه الحاسم الأول هو السيروليام كيث، حاكم الإقليم. فقد حدث أن اطلع كيث على خطاب كتبه فرانكلين إلى نسيبه على عجل يدافع فيه عن نفسه ويشرح فيه السبب فى رحيله عن بوسطن بمثل هذه العجلة، دون كلمة وداع لائقة. وسرعان ما أصبح كيث راعيًا له، فقد زار مطبعة كيمر باحثًا عن الشاب اللامع الذى كتب مثل هذا الخطاب. ولا حاجة للقول، بأن كيمر شعر بالغيرة من هذه العلاقة وحدق فى فرانكلين «كما لو كان خنزيرًا مسممًا». فقد كان من الصعب عليه أنه يصدق أن الحاكم طلب من بن الشاب أن يخلو به فى حانة. وتدهورت العلاقات مع بن كما هو متوقع واستمرت فى التهاوى منذ تلك اللحظة. وفى الوقت المناسب، ترك فرانكلين كيمر كلية ليقيم شركته الخاصة المنافسة.

ومع استمرار الحكاية، نعرف الكثير عن عادات فرانكلين اليومية ومبادئه الأخلاقية المرنة. فعلى سبيل المثال، فقد كان نباتيًا فى الأساس فى ذلك الوقت، على الرغم من أنه كان كثيرًا ما يجد مبررًا جيدًا لتناول اللحم والسمك إذا شعر أنه يود ذلك. وقد كتب فى مرح شيطانى يقول «إن الأمر المناسب تمامًا هو أن تكون مخلوقًا قادرًا على التبرير وإعمال العقل، حيث إن ذلك يمكن المرء من أن يجد أو يخلق مبررًا عقليًا لكل شىء يرد لخاطره أن

يفعله» (88). كان ذلك هو عصر العقل. (ويجب ألا يشك المرء ولو للحظة فى أن فرانكلين كان مدركًا طوال ذلك لتأثير هذا على صورته وكان يتوق بشدة إلى إعطاء القارئ الذكى إيماءات كثيرة فيما يكمن وراء الصورة. والواقع يبدو أنه كان يريد أن نعرفه على حقيقته، وأن نحبه أكثر أيًا كان ما نكتشفه).

ويخبرنا فرانكلين على نحو مرتجل «قمت ببعض الغزل للآنسة ريد خلال هذا الوقت». وكانت هذه هى نفس المرأة التى لمحت بن الشاب لأول مرة عند وفوده إلى فيلادلفيا، وأرغفة الخبز تحت إبطه. لقد انجذب إليها وانجذبت إليه. وتزوجا فى الوقت المناسب – حسب السائد فى الزواج العرفي. ويكتب فرانكلين مؤكدًا : «اتخذتها زوجة فى أول «سبتمبر 1730» (129). وهذا ليس حقيقيًا حرفيًا، حيث إنه يشير إلى الاحتفال الرسمى. وبدلًا من ذلك، فإنهما عاشا معًا، وهو ما كان يعادل فى ذلك الوقت إعلان زواجهما (كانت ديبورا متزوجة بالفعل، لكن زوجها كان قد اختفى ذاهبًا إلى بربادوس وافترض أنه مات). كانت علاقة غريبة، نظرًا لأن ديبورا لم تكن تحب السفر ولم تصحب زوجها مطلقًا إلى أوروبا فى زياراته المطوّلة، هذا إن كان قد دعاها أصلًا لكى تصحبه. وقد أمضت السنوات الأخيرة من حياتها وحيدة، فى حين كان فرانكلين فى الخارج فى مهام رسمية: وكانت مراسلاتهما فى هذه الفترة تحصيل حاصل، وكان فرانكلين يبدو عادة متجاهلًا عن عمد لاحتياجاتها العاطفية. ربما كان هذا هو خطأه المطبعى الكبير، ذلك إن اعترف به.

كانت العلاقة مع الحاكم كيث تعنى كل شىء بالنسبة لفرانكلين خلال سنته الأولى فى فيلادلفيا، حيث وعده الحاكم بأن يجعل منه رجل أعمال. واقترح كيث بسخاء إرسال فرانكلين إلى لندن بخطاب ائتمان، لشراء أطقم من حروف الطباعة ومطبعة لنفسه. ومن ثم ففى 1724، اعتلى الشاب ظهر مركب تقصد لندن، على الرغم من أنه سرعان ما أدرك أن راعيه متقلب، إن لم يكن شخصًا لايعتمد عليه كلية. فلم يتقاعس الحاكم عن تزويده بخطابات الائتمان الموعودة فحسب، بل لم يكن لدى ائتمان يقدم. كان ذلك درسًا مهمًا

للشاب الحساس. فلم يستطع الثقة بأى إنسان وكان يتحقق دومًا من المصدر إن عرضت عليه المساعدة.

لم يلغ فرانكلين رحلته وسرعان ما قابل راعيًا آخر على ظهر المركب، وهو تاجر ثرى يدعى توماس دنهام أصبحا صديقين حميمين واستمرت علاقتهما. ووجد فرانكلين رفيق سفر هو جيمس رالف، وهو شاعر شاب حالم سرعان ما تعارك معه بشأن إمراة. لكن هذه الصداقة ساعدته على تحمل مرحلة الانتقال الأولى فى إنجلترا. «كنت أنا ورالف رفيقين لا يفترقان» (65). وفى حين بدّد رالف وقته فى لندن، شق فرانكلين طريقه كعامل طباعة نشيط مبتهج وعمل لدى اثنين من دور الطباعة المشهورة على التوالى. كما تصادق مع بائع كتب مستعملة ووجد فرصة وافرة لتعميق تعليمه. بالطبع استفاد من كتابات لندن اوف بوب، وسويفت وديفو وريتشار دسون. كانت بين يدى بن موارد ثقافية هائلة، استغلها، وكان يتردد على المسرح كثيرًا، ويقرأ على نطاق واسع، وينهمك فى حوارات جادة مع أشخاص مثقفين ومتعلمين تعليمًا جيدًا. لقد انفتح العالم أمامه بطرق لم تكن لتحدث مطلقًا فى فيلادلفيا.

لكن فرانكلين اشتاق للوطن. وكتب يقول «لقد مللت لندن» على النقيض من صمويل جاكسون الذى ادعى «أنه عندما يملّ المرء من لندن فإنه يملّ الحياة». وتذكر فرانكلين «بسرور الشهور السعيدة» التى أمضاها فى فيلادلفيا وتاق للعودة إلى ذلك العالم الدافئ (105). كانت أحواله جيدة فى لندن، لكن دنهام كان قد وعده بأن يقيم له مشروعه الخاص فى فيلادلفيا، إذا تعلم مهنة التجارة. وكان هذا، بالنسبة لمثل هذا الشاب الطموح، عرضًا لا يقاوم، حتى وإن لم يجد فرانكلين معنى لتغيير مهنته فى هذه المرحلة من مسيرته المهنية.

لم تكن العلاقة مع ديبورا ريد مطلقًا عاملًا فى عودته عبر الأطلسى. فطوال فترة وجوده فى لندن لم يكتب لها مطلقًا أكثر من خطاب واحد، وكذلك لإبلاغها «أننى لا يحتمل أن أعود قريبًا» (96). وكان هذا «خطأ مطبعيًا» ثانيًا، كما يقول، وهو يعود للاستعارة من مهنة الطباعة. لم «يأثم» مطلقًا الإثم بذاته، وكان يجفل من المواعظ التى تتبع خطى جوناثان إدواردز عن أن «الخطاه يقعون فى يدى رب غاضب» ذلك أن إيمان فرانكلين بوجود الرب عقلًا فقط لا

يجعله يتصور وجود رب غاضب أو منتقم. إن آثامه هى مشكلته الخاصة، اختزلها إلى أخطاء طابع، ويمكن «تصحيحها» مثلما يمكن للمرء أن يصحح غلطة الطباعة. وبالنسبة لفرانكلين، كانت هناك على الدوام طبعة جديدة قادمة.

وفى منتصف صيف 1726، أبحر قاصدًا المستوطنات، فوصل فى أوائل أكتوبر ليجد أن كيث لم يعد حاكمًا، والواقع أنه كان يلتقيه فى الشوارع، وكان راعيه السابق يشيح بنظره حرجًا. كان فرانكلين حينذاك واقعًا تحت سحر توماس دنهام، راعيه الجديد، ومع ذلك فقد ذوت مهنة التجارة كصنعة محتملة، لأن فرانكلين لابد وأنه أدرك أن تغيير المهن يعنى تبديدًا للجهود. وعاد للعمل لدى كيمر، حيث وجد أن مطبعته أصبحت فى حالة فوضى. وبشهادته هو، فإن فرانكلين عمل بكّد «لإعادة النظام والانتظام للمطبعة» (108). إذ كان يتمتع بموهبة التنظيم واستطاع أن يخلق نظامًا من خضم الفوضى عند الاقتضاء. وكما حدث من قبل، أثبت كيمر أنه رئيس صعب وحاول أن يجبر متدربه القديم على قبول أجر أقل. وكان نقّادًا لبن بطرق عدة، مما أحنق الشاب الذى كان يعتبر نفسه فوق النقد التافه. ويخبرنا فرانكلين: «مضيت فى طريقى رغم ذلك بقدر كبير من الصبر» (110). فقد كان الصبر فضيلة يمتلكها بوفرة، وقد ساعدته جيدًا. ووضع نصب عينيه فرصته الكبيرة التالية.

ولم تتأخر طويلًا. فقد كان لأحد أصدقائه فى الورشة، هيو ميردث، أب ثرى على نحو معتدل، وكان السيد ميردث يحب بن الشاب، ويرى له تأثيرًا كبيرًا على هيو. كان راغبًا فى أن يشرك ابنه مع فرانكلين فى مجال أعمال الطباعة. بالطبع، كان إنشاء مطبعة مكلفًا، حيث كان يتعين استيرادها بحشد من المعدات من لندن، ومن ثم لم يكن هذا عرضًا صغيرًا. وعمل فرانكلين وميردث سرًا، من وراء ظهر كيمر، لتنفيذ خطتهما. وفى ربيع 1728، كانا مستعدين لتدوير العجلة، بعد أن أقاما مطبعتهما الخاصة فى ورشة فى شارع السوق.

بيد أن ميردث كان يسرف فى الشرب، وسرعان ما هجر المطبعة التى تأسست حديثًا، واشترى فرانكلين حصته. ورسخ فرانكلين مكانته بجده واجتهاده ومؤازرة شبكة من الأصدقاء، كواحد من خيرة أصحاب المطابع فى المستوطنات، ونجح كصاحب مطبعة

وكناشر، وأخيرًا طرد كيمر من المهنة واشترى صحيفته الغِرة، بنسلفانيا جازيت. لكن فرانكلين يتحدث في سيرته الذاتية عن مهاراته في الأعمال بأقل مما يتحدث عن تطوره الأخلاقي. ولا يمكن للمرء أن يتبين فطنته، وحتى تحجر قلبه إلا فيما بين السطور.

وينتهى الجزء الأول فجأة بإنشاء فرانكلين لأول مكتبهة عن طريق الاشتراكات فى الأرض الأمريكية، وكان ذلك محل تباه رئيسى بالنسبة له. «كانت هذه هى أم مكتبات الاشتراكات الأمريكية وفيرة العدد حاليًا» (130). كانت مكتبة علمانية. ومن ثم كانت جد مختلفة عن معظم المكتبات فى المستوطنات، التى كانت مكرسة لحد كبير لخطاب المواعظ والقصة الدينى. وهكذا بدأ فرانكلين مسيرته المهنية الطويلة والرائعة.

وبدأ الجزء الثانى من المذكرات بعد ثلاثة عشر عامًا - وتلك فجوة شاسعة. وهو يستهلها بتمهيد يتكون من خطابات تحث فرانكلين على أن يواصل مذكراته. وهو بذلك يجعل القارئ يفهم أن فرانكلين يقدم لنا منّة برواية قصته. ولم يبد ولو للحظة واحدة أن الشكوك قد انتابته بشأن مشروعية خطته. فقد استغرقته حياته وأفكاره بالكامل، كما قصد بها أن تستغرق القارئ.

وهو حينذاك يذكر ما يسمى زمرته، دائرة الشباب متماثلى العقلية الذين كانوا يتجمعون على أساس ثابت لمناقشة الكتب والأفكار. وكان فرانكلين محور هذه الحلقة. وازدهرت حياته العملية لدرجة أنه سرعان ما أصبح أنجح صاحب مطبعة فى المدينة. ويخبرنا وهو مبتهج بأن «ظروفى كانت تصبح كل يوم أكثر سهولة». ويُرجع ذلك إلى حقيقة أن «عاداته الأصلية فى الاقتصاد» قد استمرت (144). ويذكر المثل 29 من الإصحاح 22 من سفر الأمثال الذى يقول «أرأيت رجلًا مجتهدًا فى عمله. أمام الملوك يقف ولا يقف أمام الرعاع». وهناك حقيقة حرفية فى هذا! فإن فرانكلين وقد أصبح رجلًا له أهمية بالغة فى العالم، سيقف أمام ملوك أوروبا دون أن يحنى رأسه. تلك الثقة بالنفس التى تقارب الغرور، أصبحت جزءًا من الشخصية الأمريكية.

إن فرانكلين يريدنا أن نعرف على وجه الدقة كيف انكب على تحقيق الكمال لنفسه، كمخلوق أخلاقى، وكيف فعل ذلك بدون اللجوء لدين موحى. ومرة ثانية، يشرح أنه هجر الأشكال التقليدية للعبادة، مفضلًا خطة اخترعها بنفسه للخلاص على الأرض. ويذكر «لقد تربيت دينياً كمنتسب للكنيسة المسيحية». لكن «بعض تعاليم تلك العقيدة، مثل أوامر الرب الخالدة، والاصطفاء، والإخراج من زمرة الأبرار، الخ، تبدو لى غير قابلة للفهم، وهناك غيرها محلّ شك، وقد نأيت بنفسى مبكرًا عن الاجتماعات العامة للطائفة، وكانت أيام الأحد هى أيام دراسة بالنسبة لى»(145-146). وإذا لم يكن فرانكلين قد وجد وقتًا للدين الموحى، فإنه خلق رغم ذلك مساحة للتأمل أيام الأحد. وكان خلال هذا الوقت العلمانى يقرأ ويكتب، مصممًا على تحسين نفسه كما رآه مناسبًا. وقد وضع قائمة خاصة به بالفضائل الثلاثة عشر، حاول نشر كل منها (149 -150).

والقائمة كما يلى:

1- ضبط النفس. لاتأكل حتى التخمة، ولاتشرب حتى الانتشاء.

2- الصمت. لا تتحدث إلا بما يفيد الآخرين أو يفيدك.

3- النظام. اجعل كل أشيائك فى مكانها الصحيح. واجعل لكل جزء من عملك وقته.

4- العزم. صمم على أداء ما يحسن بك ويتوقع منك. واحرص على ألا يهزم أداؤك ما عقدت العزم عليه.

5-الاقتصاد. لا تسرف لكن اعمل ما هو خير للآخرين ولنفسك، أى لا تبدد شيئًا.

6-الاجتهاد. لاتضيع وقتًا. كن دومًا منشغلًا بشىء مفيد. إلغ كل الأعمال غير الضرورية.

7- الإخلاص. لا تلجأ للخداع المؤذى. فكّر ببراءة وعدل. وإذا تحدثت تحدث وفق ذلك.

8- العدل. لا تخطىء، بأن تلحق الأذى أو تحجب النفع وهو واجبك.

9- الاعتدال. تجنب التطرف. تجمل بالصبر عند الامتعاض من الأذى الذى ترى أنه يستحقه.

10- النظافة. لا تتهاون فى نظافة البدن والملابس أو السكن.

11- الهدوء. لا تضطرب إزاء التوافه أو الحوادث الشائعة أو التى لا يمكن تفاديها.

12- الطهارة. لا تلجأ للجماع إلا نادرًا، سوى لدواع صحية أو للحفاظ على النسل، ولا تضر أو تضعف أو تلحق الأذى بسلامة بالك أو سمعتك أنت أو غيرك.

13- التواضع. احتذى بالمسيح وبسقراط.

وقد اعتزم فرانكلين أن «يكرس أسبوعًا للالتزام الصارم بكل فضيلة من هذه الفضائل بالتعاقب» (151). وكانت الفكرة هى التمكن من كل فضيلة بالتركيز عليها حصرًا لمدة أسبوع، مثلما قد يركز لاعبو التنس على حركة القدمين لإتقان التنقل، أو على الوقفة، أو على رمية معينة لإتقان لعبهم. وهناك شىء علمانى فى هذه القائمة على نحو غريب. ولم يحب الآباء المتشددون ما كانوا يسمعونه من بن الشاب. وفى مدينة سالم، كان يمكن أن يتم إحراقه على خازوق أو على الأقل أن يصلب بضعة أيام، ليعيد النظر فى أولوياته.

لم يكن للمشيئة الإلهية أى دور فى رؤية فرانكلين للواقع. كان المسيح وسقراط سيهزان أكتافهما بلا مبالاة وهم يرون الفلاسفة الدنيويين الذين يدعون لشكل من التواضع، يعتبره فرانكلين فضيلة أساسًا لأنها تشد الآخرين إليك.

وبنظرة سلبية، يمكن اعتبار فرانكلين مرتزقًا مستغرقًا فى شئونه الذايتة، بل شخصية مخادعة - إنسان قيد التشكيل. ولاريب أن هناك خطا (وإن كان ملتويًا) يمتد من بنيا مين فرانكلين إلى هوراشيو الجير (الذى كتب عددًا لاينتهى من الكتب عن أبطال انتقلوا من الإسمال إلى الثراء) وديل كارنيجى إلى البائع الجوّال التعيس المثير للشفقة محور عمل آرثر ميللر «موت بائع جوال». ومع ذلك، فإن لنهج فرانكلين العلمانى إزاء الأخلاق، والذى اعتبره وسيلة لتحسين حظوظه فى العالم، جانب مدهش، ومواقفه تجاه الحياة كان لها

تأثيرها المحسوس فى أمريكا حيث يود الجميع أن يمضوا قدمًا للأمام وحيث اختراع النفس هو القاعدة حاليًا.

إن الاعتدال والصمت والهدوء سمات مفيدة ينبغى تشجيعها، مثلما يؤكد فرانكلين. يجب ألا يكون المرء مبذرًا. ويجب على المرء ألايفرط فى الجنس أو تناول الكحول، لعدد كبير من الأسباب القوية، يتعلق كثير منها بالحفاظ على النفس. ورغم كل هذه النقاط، فقد كان فرانكلين إنسانًا،يشرد كثيرًا عن قائمة فضائله الثلاثة عشرة. وفى سنّه الأخيرة، أدان معارفه (كما سلف بيانه) كسله، وانجذابه للنميمة التافهة وغروره. ومع ذلك؛ فقد كان دومًا يحدد الأهداف ويحقق معظمها. كان مبدعًا بكثافة، مليئًا بالطاقة، ويبهج نفسه. وإذا كان قدر من الرضا عن النفس يتسلل إلى نغمته على مر الزمن، فإن المرء يستطيع أن يسامحه بسهولة. لقد كان دومًا هو نفسه، واستفاد كثيرون من مبتكراته واختراعاته، وتدين الولايات المتحدة بقدر كبير من نجاحها لجهوده.

هناك نوع من الأمانة فى السيرة الذاتية تحببه إلى القارئ، مثلما جاء فى قوله: «فى الحقيقة، فإننى أجد نفسى غير قابل للإصلاح فيما يتعلق بالنظام، والآن وقد أصبحت عجوزًا وضعفت ذاكرتى، أشعر على نحو محسوس بالحاجة لذلك» (156). وقد ضمّ الفضيلة الثالثة عشرة، وهى التواضع مؤخرًا كما يقول لنا، بعد أن أبلغه صديق من الكويكر بأنه بصفة عامة لا ينظر إليه على أنه رجل متواضع. وقال فى مرحلة لاحقة من العمر: «لا استطيع أن أتباهى بأننى حققت نجاحًا كبيرًا فى اكتساب حقيقة هذه الفضيلة، لكن لدى قدر كبير من الاعتبار لمظهرها» (159). ويختلف البعض مع هذا الجزء الأخير من التباهى، لكن المرء لا يستطيع إلا أن يستمتع بمحاولة فرانكلين الكتابة بأمانة عن نفسه، ويعجب بطابعه العملى. (على الأقل فإن النفاق لا يقلقه).

لقد طور فرانكلين مفهومه الخاص عما يصنع رجلًا له أخلاق. ويحسب له أن هذا المفهوم لم يغب عن ناظريه مطلقًا وأنه كان يعتبر نفسه «مخطئًا» عادة. كما كان يعتقد أن خطته «يمكن أن تكون مفيدة للناس من كل الأديان» (157). لقد كان فى نهاية المطاف، يروج

لنوع من الدين العلماني، دين له جذور تطهرية حقيقية (وإن كانت متهدلة)، مثل اعتقاده بأن المرء يجب أن يصحح نفسه على الدوام، وفى إيمانه الراسخ بالعمل الجاد والانضباط الذاتي. ولانزال نشير إلى هذه الفضائل باعتبارها «تطهرية» عادة كوسيلة للتخلص منها. لاشيء خطأ فى محاولة المرء لأن يحدد لنفسه ما هى الفضائل الأولية، ثم محاولة العيش وفق ما يعزز تعهد هذه الفضائل واحترامها.

وفى الغالب الأعم، ظل فرانكلين مقتصدًا ومجدًّا ومعتدلًا ونظيفًا ومراعيًا للآخرين طوال حياته الممتدة. وكان «الصمت» أحد الفضائل الغريبة التى احتفى بها. فالمرء عادة لا يعتبره سمة فاضلة. لكن فرانكلين يرى عن حق أن على المرء أن يتجنب الإفراط فى الكلام خاصة في الاجتماعات العامة. كان يستمتع بالنميمة فيما بين الأصدقاء لاريب فى ذلك، لكنه كان يختار كلماته بعناية عندما يكون عضوًا فى أى لجنة، مثلما فعل فى الانتصار الكبير الأخير فى حياته، وهو دوره فى المؤتمر الدستورى فى 1787، حيث كانت رباطة جأشه وسمعته الكبيرة مهمتين وكان لصمته وزن كبير. كان توماس جيفرسون حاضرًا ولاحظ أن كلا من فرانكلين وواشنطون – أشهر رجلين فى الحضور – كانا حريصين على عدم التطفل. كان حديثهما نادرًا وحكيمًا : «لم أسمع مطلقًا أى منهما يتحدث عشرة دقائق فى المرة، ولم يتحدثا فى أى شيء سوى فى النقطة التى ستبت فى مسألة ما. لقد أبديا انضباطًا وهمة لأقصى الحدود، عارفين أن الصغار يحذون حذوهما».

والجزء الثانى وجيز، يركز أساسًا على خطة المؤلف لتحسين نفسه بنفسه. وإذ اكتشف فرانكلين بعض المذكرات من عام 1731، فقد استعاد ذكرياته ثانية فى 1788. كانت هذه المذكرات تتناول عاداته فى القراءة، وتعلق البعض بإيمانه بوجود الرب عقلًا لاشخصا. وبعد ترو حريص، استقر فرانكلين على أن روح المرء خالدة وإن الرب يجب أن يُعبد. كان يؤمن بقوة بأن «الخدمة الأكثر مرضاة للرب هى عمل الخير للغير» (162). وفى هذا مضى بعيدًا عن فكرة بولس الرسول من أن الإيمان يمنح براءة من الأثم وخلاصًا، مفضلًا الفكرة القائلة بأن العمل الصالح هو طريق الخلاص (التى طرحت على نحو شهير فى رسالة

جيمس الدينية). لقد جعل فرانكلين الشباب يوافقون على «دينه» هذا (ربما يكون هذا مزحة ما) ووضع قائمته بالثلاثة عشر فضيلة موضع التطبيق. كتب يقول : «لقد اعتقدت دومًا أن رجلًا واحدًا له قدرات على التسامح يمكنه أن يحدث تغييرات عظمى، ويحقق أشياء عظيمة بين البشر، إذا وضع أولًا خطة جيدة، وتخلى عن كل الملاهى أو الانشغالات الأخرى التى تحرف انتباهه وتشتته جاعلًا تنفيذ تلك الخطة نفسها موضع تأمله وعمله الوحيد» (163).

وعندئذ بدأ فرانكلين يحكى عن نجاحاته التى تضمنت نشر تقويم ريتشار الفقير (صدر العدد الأول فى 1732). وقد جعلته هذه السلسلة ثريًا وشهيرًا، رغم أنه قصد بها توعيه العامة بفضائل العمل الجاد و الاقتصاد، والاعتدال، والإحساس الطيب. وكتب أيضًا عن بنسلفانيا جازيت، وهى وسيلة أخرى لتعليم الناس دين فرانكلين. كتب يقول: «فى إدارة صحيفتى حرصت على استبعاد كل أنواع التشهير وسوء الاستغلال الشخصى، اللذان أصبحا فى السنوات الأخيرة شائنين لهذا الحد فى بلادنا»(165). ولا يمكن للمرء إلا أن يتصور ما سيظنه فرانكلين ببارونات المحاصيل والصحافة.

ويذكر فرانكلين تأييده لتعليم المرأة : وهو موضوع كان تفكيره بشأنه متقدمًا فى زمانه (ربما يجدر تذكر أن الكثير من خيرة الكليات فى الولايات المتحدة، مثل دار تموث، كانت ترفض قبول الطلاب من النساء حتى أوائل العقد الثامن من القرن العشرين. وأظن أن فرانكلين سيفزعه أن يعرف أن الأمر استغرق مثل هذا الوقت الطويل حتى تحصل المرأة على موطئ قدم فى القرية الأكاديمية).

ومثلما لاحظ كثيرون، فإن فرانكلين نادرًا ما تحدث عن أى شىء شخصى، أو موضوعات يمكن أن تثير انفعالات قوية. ولايجد المرء سوى إيماءة خاطفة إلى وفاة ابنه فرانسيس فى 1736 – وكان ذلك حدثًا مزلزلًا بالنسبة له. لقد مات الصبى بسبب إصابته بالجديرى، وأعرب فرانكلين «بمرارة عن أسفه» لتقاعسه عن تطعيم ابنه ضد هذا المرض الرهيب. وبعد ذلك، أصبح الداعية القيادى للتطعيم وشعر أنه ملزم بأن ينشر فى صحيفته

بيانًا يقول فيه أن ابنه مات من الجديرى نفسه وليس من التطعيم- وكانت هذه شائعة مختلقة انتشرت فى كل أرجاء المجتمع، مما أثار سخط فرانكلين.

ومن بين الإنجازات التى يذكرها فرانكلين فى الجزء الثالث عمله لإنشاء جهاز مراقبة المدينة (وكان فى الواقع إدارة للشرطة) و «شركة أكثر استعداد لإطفاء الحرائق» (174). وإذ لاحظ الافتقار إلى كلية للدراسات المتقدمة، «فقد قدم اقتراحًا بإنشاء أكاديمية» (182). ومن الواضح أن واحدًا من أكثر إنجازاته مدعاة للرضى، كان المساعدة فى إقامة مستشفى عامة فى فيلادلفيا «لعلاج المرضى الفقراء» (199). واستغل فرانكلين صحيفته لاستدرار التبرعات. ومن بين الاختراعات الكثيرة التى يكتب عنها هنا موقد فرانكلين الذى كان تحسينًا كبيرًا لتكنولوجيا سابقة (رغم أن الموقد الذى يحمل اسمه هو صورة أشد تبسيطًا من التصميم الأصلى، وأثبت أنه أكثر قدرة على العمل بالكفاءة التى توقعها مخترعه). والمثير للاهتمام، أن فرانكلين رفض أن يحصل على براءة اختراع لموقده، رغم أنه عرض عليه ذلك. وقد فعل ذلك بالنسبة لكثير من اختراعاته. لم يشعر «بأى رغبة فى تحقيق ربح لنفسه من البراءات» (192). فقد كان يعطى الأولوية للصالح العام على ثروته الشخصية. وفى هذا، فإنه يختلف بصورة ملحوظة عن معظم منظمى المشروعات الحاليين. فطوال حياته المديدة، عمل فرانكلين لصالح جيرانه، ولم يكتف أبدًا. كان يعتقد أنه ليس فى حاجة لزيادة ثروته الشخصية فيما يجاوز حدًّا معينًا.

وعلى نحو يتميز بالتواضع، يتحدث فرانكلين قليلًا نسبيًا عن تجاربه العلمية فى مجال الكهرباء، حتى على الرغم من أن علماء لاحقين مثل ج.ج تومسون (الذى اكتشف الإليكترون) يؤكدون أن تجاربه «تستحق كل التقدير». ومثلما كتب مؤلف سيرته الذاتية وولتر ايزاكسون فقد «كان واحد من أشهر العلماء فى عصره»، وأنه تصور وأثبت واحدًا من المفاهيم الأكثر أهمية عن الطبيعة: وهو أن الكهرباء هى سائل فريد «بيد أن فرانكلين أبرز أن جامعتى هارفرد وييل كلاهما قد منحتاه درجة فخرية على عمله العلمى، مشيرًا إلى تجاربه» «بشأن التماثل التام بين البرق والكهرباء» على نحو عابر، أساسًا لتأكيد أنه اعتبر

على نحو جاد عالمًا فى إنجلترا وفرنسا (242). ويود المرء لو أن فرانكلين اختار أن يزود القارئ بتفاصيل أكثر ويقدم عنها تقريرًا شخصيًا عن تجربته مع البرق. وكما هو واضح، فإن معظم المؤرخين اعتمدوا على تقرير شفوى قدمه لصديقه جوزيف بريستلى، المخترع الإنجليزى وعالم الفيزياء التجريبية، الذى سجل هذه التفاصيل فى كتابه **تاريخ الكهرباء ووضعها الحالى** (1767).

وينتهى الجزء الثالث بتقرير جاء صدفة عن رحلة فرانكلين إلى لندن نيابة عن جمعية بنسلفانيا التشريعية - وهى بعثة دبلوماسية دامت خمس سنوات. لكن التقرير سرعان ما استغرقه الحديث عن الفيزيائيات وبناء أبدان السفن، وهو ماكان قد بدأ يفتن المؤلف فى رحلته للخارج عبر الأطلسى. وقد كتب بجرأة يقول :«هذا هو عصر التجارب» (257). ويصف بإيجاز مختلف التجارب التى أجراها على الدينا ميكا الهوائية للإبحار. ومن الواضح أنه لم يكن هناك شىء يخرج عن نطاق فضوله، ولم يهتم أبدًا بأن يكون خبيرًا قبل أن يحاول إجراء تجربة أو ينتهج خطا للتحقيق فى مسألة ما. وهذه هى فى الأساس الرسالة الأساسية فى مذكراته. كان أى شىء وكل شىء يستغرق فرانكلين، وكان يمضى فى طريقه بثقة مذهلة فى النفس، راغبًا فى تحمل المخاطر، حتى وإن جعل من نفسه أحمقًا.

والجزء الرابع موجز لأقصى حد، يتضمن تقريرًا مختصرًا عن نشاطات فرانكلين فى لندن نيابة عن الجمعية التشريعية. وبعد بضع صفحات، تتوقف المذكرات عن الكلام المباح. كما لو أن فرانكلين كان يأمل فى أن يكمل يومًا ما هذا التقرير عن حياته وعمله. ولم يحدث ذلك مطلقًا، وفقد الاهتمام بالكتاب، وبقى موزعًا فى مخطوطات مختلفة. وقد نشر بعد وفاته- فى شكل مختصر، فى 1793، بعد ثلاث سنوات من رحيله. إن رحلة المخطوطة العسيرة نحو النشر - فى طبعات شتى - ستملأ مجلدًا صغيرًا كما أشرت فيما سلف.

4

ترتبط مسيرة بنيامين فرانكلين التى ظهرت بعد وفاته بسيرته الذاتية، التى يعرض فيها المؤلف الأديب صورة لنفسه لتحكم عليها الأجيال اللاحقة. ويبقى هذا العمل عملًا تأسيسيًا، جزئيًا بسبب أن الشخصية الأمريكية نفسها - المبتهجة بذاتها والمخترعة لنفسها - يمكن إرجاعها إلى الصورة التى وضعها فرانكلين لنفسه. ولا حاجة للقول أن قراء كثيرين سيغضون الطبيعة العلمانية لهذا الكتاب ورفض فرانكلين الفظّ لقبول الأعراف الطبقية. ويموج الكتاب بحماسة ثورية، قد يمكن اعتبارها الكتاب التمهيدى عن القيم الديمقراطية الأمريكية.

لم يكن فرانكلين أرستقراطيًا، فقد كان ينتمى إلى طائفة حملة المرايل الجلدية وظل حرفيًا يعمل بجد واجتهاد حتى منتصف عمره، ولم يفقد الاهتمام أبدًا بمهنة الطباعة. كان ديمقراطيًا حتى النخاع، يرفض كل أشكال الحكم الاستبدادى، متخطيًا الحواجز الطبقية وكان يفلت من العقوبة على ذلك. وكما سبق بيانه، فقد لعب دورًا رئيسيًا فى المؤتمر الدستورى ورفض فكرة الرئاسة القوية، مفضلًا مجلسًا تنفيذيًا. كان يخشى كثيرًا ما يمكن أن يحدث إذا أصبح الرجل الخطأ رئيسًا واستخدم سلطته الكبيرة فى طغيانه، الذى كان يؤمن أنه من المؤكد تقريبًا أن يحدث فى مرحلة ما، فى ضوء ما اعتبره نواقص وعيوب فى الدستور.

كان فرانكلين يفضل ديمقراطية مباشرة بدرجة أكبر، و عارضَ بشكل عام تلك العناصر فى الدستور التى تضعف من هذه الروح. فقد عارض على سبيل المثال إقامة هيئة تشريعية من مجلسين، معتقدًا أن مجلس الشيوخ (مثلما يتشكل بموجب الاتفاق)، سيمسك بيديه سلطة أكبر كثيرًا مما يجب ويمكن أن يهدم مجلس النواب الأكثر ديمقراطية. لكن اقتراحاته

لقيت فى معظمها أذانًا صماء. لقد عومل باحترام بالغ، ومع ذلك فإن البعض اعتبره رجلًا عجوزًا متلعثمًا وأخرقًا فى هذا الوقت.

والمؤكد أن الشعب الأمريكى يعجب بفرانكلين ويبجله. وحتى نقاده، مثل جون آدمز كتبوا ثناء بدرجات دقيقة من الاختلاف للرجل بعد مماته. كان بطلًا حقيقيًا للتنوير، والمكافئ الأمريكى لفولتير. ولكن مع مجىء الفترة الرومانسية فى أوائل القرن التاسع عشر، ظهر النقاد الأشد قوة لفرانكلين. فقد استهجن جون كيتس الشاعر الإنجليزى «تعطشه للأمثلة السائرة». وفى 1855، سخر منه هيرمان ملفيل فى روايته «خزآف إسرائيل». وحتى رالف والدو إيمرسون الذى يدين بالكثير لفرانكلين أعرب فى مقالته المعنونة «الاعتماد على النفس» عن شكوكه فيه وكتب يقول إن «فرانكلين هو مواطن مقتصد مسالم مزدهر». وبدرجة ما، فإن كل هذا كان حقيقيًا، لكن مثل هذا الوصف لفرانكلين لا يحيط بكل أبعاد الرجل.

ربما جاء الهجوم الأشد شرًا على فرانكلين، كما صور نفسه فى سيرته الذاتية من دى اتش لورنس، فى دراسته المؤثرة عن الأدب الأمريكى الكلاسيكى، التى ظهرت فى 1923. لم يكن لورنس، وهو من الرومانسيين الجدد يستطيع أن يتحمل شخصية بن الشاب، بقائمته للفضائل الثلاثة عشر. ويشكو لورنس من أن «فرانكلين لايهتم حقًا بالروح الخالدة».

وطرح مبرره الخاص لكراهية فرانكلين: «لن أتحول إلى إنسان آلى صغير فاضل مثلما يريد فرانكلين أن أفعله.... أنه يحاول أن يجردنى من وحدانيتى الكلية، من غابتى المظلمة، من حريتى». ذلك ضرب من الجنون، وربما خروج على الموضوع، لكن لورنس له مأخذ مثير للاهتمام. لم يكن فرانكلين جاهلًا بالتأكيد، كما لم يسبر أغوار التجربة الإنسانية. وبدلًا من ذلك ظل قريبًا من سطح الحياة، يصلح الأشياء البسيطة ويحسن كل شىء حوله بقدر ما يستطيع. كان يتفادى المشاعر ولاييأس ولا تحنقه آثام، أو أى من الأخطاء المطبعية التى قد تظهر فى نصّ حياته. ويمكن للمرء أن يتبين بسهولة السبب فى أن كتابًا من المتنبئين مثل

إيمرسون ولورنس قد صدّوه، والسبب فى أن جاى جيتز (والذى أصبح جاتسبى فى رواية فيتز جيرالد المبهرة) قد اعتمدوه كنموذج لمخترع نفسه النظامى.

ومع ذلك، فإن فرانكلين يطلب الكثير ممن تبعوا مساره بقصد لفت الأنظار. وأظن أننا نستطيع جميعنا أن نستفيد من الاهتمام بقائمة فضائله وأن نحكم على أنفسنا فى ضوء اهتمامه المحموم برفاهية من كانوا حوله. ويمكن أن نتساءل عما إذ كنا نؤمن حقًا بالديمقراطية بقدر حماسه للإيمان بها. وفى إشارته لهذه القضايا، يظل فرانكلين هو نموذجنا المعاصر، رجل يطلب منا أن نفعل ما هو أكثر مما نستطيعه. ويقترح أن نحاول تحسين أقدار جيراننا، الذين يتعين علينا أن نعاملهم كما نود أن نعامل. وفى هذا يبدو فرانكلين مسيحيًا أكثر من معظمنا، ولا ريب أنه أكثر مسيحية من كثيرين من الذين يدعون لأنفسهم فضلًا فى هذا الصدد.

إن نغمة فرانكلين البصيرة والإنسانية والإيجابية - مثلما وردت فى مذكراته - هى على الدوام مقو و منشط، وهى إلهام بالمضى قدمًا للأمام على نحو متروى فى العالم. وتبقى الفطرة السليمة والحالة النفسية الطيبة هى محل الاختبار لديه. ولم يدهشنى عندما سمعت من بضع سنوات خلت أن السيرة الذاتية لبنيامين فرانكلين كانت من الكتب القليلة التى كان ديفى كروكيت يبقيها إلى جواره فى الحصار الأخير فى آلامو. وأنا أيضًا كنت أود أن يكون بن إلى جوارى فى مثل هذه الظروف.



THE

JOURNAL

OF

LEWIS AND CLARKE,

TO THE MOUTH OF THE COLUMBIA RIVER
BEYOND THE ROCKY MOUNTAINS.

IN THE YEARS 1804—5, & 6.

GIVING A FAITHFUL DESCRIPTION OF THE RIVER MISSOURI
AND ITS SOURCE—OF THE VARIOUS TRIBES OF INDIANS
THROUGH WHICH THEY PASSED—MANNERS AND CUS-
TOMS—SOIL—CLIMATE—COMMERCE—GOLD AND
SILVER MINES—ANIMAL AND VEGETABLE
PRODUCTIONS, &c.

NEW EDITION, WITH NOTES.

REVISED, CORRECTED, AND ILLUSTRATED WITH NUMEROUS
WOOD CUTS.

TO WHICH IS ADDED

A COMPLETE DICTIONARY OF THE INDIAN TONGUE.

DAYTON, O.
PUBLISHED AND SOLD BY B. F. ELLS.
JOHN WILSON, PRINTER.

1840.

4

يوميات لويس وكلارك

1

تغير ما تعنيه يوميات لويس وكلارك بالنسبة للشعب الأمريكى باستمرار منذ أن وصلت نسخة من هذا العمل الضخم إلى مكتب الرئيس توماس جيفرسون، الذى كان لديه اهتمام عارم باستكشاف الغرب سنين عدة. فقد كلف جيفرسون شخصيًا الكابتن لويس، سكرتيره الخاص، بأن يشكل بعثة تستكشف الأراضى الشاسعة التى كانت قد انضافت للولايات المتحدة مؤخرًا بشراء لويزيانا، والاندفاع غربًا نحو الأطلسى- ظاهريًا للبحث عن طريق للتجارة خلال الشمال الغربى ولجمع معلومات علمية عن المنطقة (جغرافية ونباتية).

ووجدت اليوميات وهى مجموعة نفيسة غنية من المواد الوصفية والتشويق السردى جمهورًا من القراء تواقًا لمعرفة أراضيه التى حصل عليها مؤخرًا. أن التوسع غربًا، «تلك الأرض التى نفهمها على نحو غامض والتى تتجه غربًا» التى كتب عنها روبرت فروست كتابه «الهبة الكلية» ، لايزال ينتظر إلى الأمام، ولكن ليس إلى الأمام بعيدًا. وقد أشعل التوسع صوب المحيط الهادئ خيال كثيرين فى سبعة عشر ولاية كانت تشكل بالفعل جزءًا من الولايات المتحدة، وقدم لويس وكلارك المادة الخام اللازمة لاحتلال الغرب بصورة منتظمة. وأثبتا بما يجاوز الشك أن هذه البريّة ليست سالكة فحسب بل غنية بالموارد الطبيعية على نحو مدهش. ذلك أن كل أنواع الحياة البرية يمكن العثور عليها هناك. وهى تزهو بغاباتها الولودة، حيث يمكن اختيار الفراء، وجلود الحيوان والأخشاب.

وتعكس اليوميات الرحلة نفسها، فتشكل نوعًا من النزهة الموازية باللغة. وهى تستأثر باهتمام أمة تواقة إلى الحصول على معلومات عن الأراضى التى كانت قد حصلت عليها مؤخرًا، مقدمة كنزًا من المواد التى تتجاوز مجرد تسجيل الجغرافيا المادية والاجتماعية للمناطق «المستكشفة». وقد لاحظ كل من لويس وكلارك على نحو متوقد الذكاء ووصفا النباتات والحيوانات والطيور، وأمثلة من حرف الهنود وعادات القبائل. ورسم كلارك نفسه خرائط مدهشة. وإجمالا، فإن اليوميات تمثل مغامرة مثيرة. ومعقدة إنسانيًا لن تفقد سحرها مطلقًا.

ومع استمرار نمو نطاق القوة الأمريكية فى القرن الحادى والعشرين، على نحو خيّر أو أقل من ذلك، تتوافر كل الأسباب لإعادة النظر فى عمل لويس وكلارك، اللذين قدما نماذج رائعة فى تواضعهما واستخدامهما الأريب للذكاء فى العالم كما اكتشفاه فى أسفارهما غربًا. والمؤكد أن الشخصية الأمريكية نفسها قد تأثرت بالجهود البطولية لهذه المغامرات، التى ألهمت المستكشفين طوال قرنين، ومن ضمنهم نيل ارمسترونج - وباز الدرين رائدا الفضاء اللذان نزلا بوحدتهما القياسية فى المركبة القمرية على سطح القمر فى 1969.

2

كان ميريوذرلويس (1774–1809) ووليام كلارك يدونان مذكرات يومية، حولاها فيما بعد إلى يوميات مجلدة تم حفظها فى صناديق من الصفيح لحمايتها من العوامل الجوية. وأحيانًا كان لويس وكلارك يكتبان فى اليوميات مباشرة. وعلى أية حال، فإنه الحصيلة النهائية سلسة وتنبض بالحيوية ومفصلة ووصفية وهى تقود القارئ المريد عبر ممر وعر، عبر ثمانية آلاف ميل، بدءًا من سانت لويس فى 1804، ثم تتحرك به على طول نهر ميسورى إلى معسكر شتوى فيما يشكل حاليًا داكوتا الشمالية، وتمضى قدمًا خلال الربيع إلى الفاصل القارى بمرشدين ومترجمين مدهشين جدد، هما تو سيانت تشاربونو (وهو ناصب فخاخ كندى) وزوجته ساكاجاوى. وهى من قبائل الشوشون. وشقت هذه المجموعة التى تضم أربعين رجلًا وامرأة واحدة طريقها على ظهور الخيل وزوارق الكنور (زوارق محفورة فى جذوع الأشجار) عبر شتى الأنهار حتى مصب كولومبيا على ساحل الأطلسى. وبعد قضاء فصل الشتاء فيما يعرف حاليًا بأوريجون، عادوا كأبطال إلى سانت لويس، فوصلوها فى سبتمبر 1806.

وقد وجدت اليوميات جمهورًا نهمًا للمعومات عن أرض العجائب البرية هذه، بطيورها وحيواناتها الغريبة جدًا، ومشاهدها الطبيعية التى تأخذ بالألباب، وسكانها الأصليين. وساعدت مآثر فيالق الاستكشاف فى إشعال الحماس لضم أراضى أوريجون واستيطان الغرب. وبدأ الشكل النهائى للولايات المتحدة يتضح للعيان بالنسبة للأمريكيين الذين استطاعوا فجأة أن يتخيلوا ما الذى يعنيه بالنسبة للبلد امتلاك قارة بأكملها، من الساحل إلى الساحل. (وظهر مفهوم «القدر الجلى» لاحقًا فى هذا القرن، نابعًا على نحو طبيعى من البدايات التجريبية للتوسع غربًا). كما قدم لويس وكلارك نموذجًا لكيفية التعامل مع السكان الأمريكيين الأصليين – من خلال استعراض للقوة اقترن باهتمام حقيقى بعاداتهم ومشاغلهم.

وفى الغالب الأهم، حظى فيلق الاستكشاف هذا بعلاقات سلمية مع شتى القبائل التى قابلها على امتداد طريقه وانتهى إلى الاعتماد عليها طلبًا للعون. لم يكن يستطيع عمليًا أن يكمل رحلته الشاقة مطلقًا بدون معاونة الهنود، الذين أطعموهم وآووهم وقدموا لهم الجياد والمعلومات عن الطريق. وهكذا أرسى نموذجًا للتكافل بين الغزاة ومن تم غزوهم (لا يختلف عما شوهد فى مستوطنة بليموث قبل ذلك بنحو قرنين)، على الرغم من أن آخرين دمروا للأسف هذا النموذج فى عقود مقبلة. ولا يزال العنف المروع الذى وسم فيما بعد توسعنا غربًا يجيش ويشوه مشهدنا العاطفى.

وقد نشر عدد لا يحصى من هذه اليوميات فى القرنين التاسع عشر والعشرين. فخلال بضع سنوات من اكتمال الرحلة، أدرجت مقتطفات فى تقارير مختلفة للبعثة الاستكشافية. وظهرت اليوميات كما حررها نيكولاس بيدل فى 1814، على الرغم من هذه كانت نسخة مختصرة كثيرًا، حذفت كثيرًا من المشاهدات النباتية والحيوانية التى أصبح لويس وكلارك مشهورين بسببها. وتبعت ذلك طبعتان فى لندن فى 1815 وفى دبلن فى 1817. وظهرت ترجمات أيضًا، بما فى ذلك النسخة الهولندية الشهيرة فى 1816. وفيما بين 1904 و 1906، أصدرت دار ريوبن جولد ثويتس طبعة شاملة من اليوميات، وهذه تم تنقيحها فى طبعة جارى مولتون التى تعد معلمًا. والتى صدرت فى ثلاثة عشر مجلدًا ولاتزال الطبعة الحاسمة فى انتظار الإصدار.

وقد تغير شكل اليوميات من جيل إلى جيل، عادة بما يعكس الاهتمامات والشواغل الجارية. ففى 1953 مثلًا، نشرت دار برنارد دى فوتو مختارات شعبية. وفى هذا الوقت، كانت اليوميات تتحدث إلى جمهور الحرب الباردة. قراء يشعرون بالقلق إزاء القوة الأمريكية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. فأصبحت رحلة لويس وكلارك قصة عن القوة الأمريكية التى تنتصر على الصعاب. (ولاتزال هذه الطبعة هى النسخة المطبوعة الأسهل منالًا حتى الآن) وفى فترة أحدث، كانت اليوميات تتحدث إلى جمهور يبحث عن نماذج سابقة للكتابة عن الطبيعة. وليس هناك أى شك فى أن لويس وكلارك يحتلان مكانة عالية بين العالمين

بشئون النبات والحيوان، ويقفان إلى جانب أودوبون أو ثورو كمدونين صبورين لمعالم المشهد الطبيعى المتنوع والوفير، بغزارة الحياة النباتية والحيوانية فيه. كذلك فإن اليوميات تقدم معلومات نفيسة، للمهتمين بميراثنا الأمريكى الأصلى.

وتضم اليوميات الأصلية (وهى موضوعة فى الجمعية الفلسفية الأمريكية فى فيلادلفيا) ثماني عشرة مذكرة صغيرة - وهى نموذج مما كان المساحون يستخدمونه فى مطلع القرن التاسع عشر. ثلاث عشرة منها مجلدة بجلد مراكشى أحمر، فى حين أن أربعة منها مغطاة بورق مقوى مجزع وواحدة مغطاة بجلد بنى. ولاتزال تعتبر إنجازًا أدبيًا رائعًا. فقد امتزج أسلوب لويس الشاعرى متقلب المزاج عادة بالنهج الأكثر حصافة والعلمى لكلارك (وقد احتفظ كلارك لنفسه بيوميات تملكها حاليًا جمعية ميسورى التاريخية). كما احتفظ عدة رفاق للويس وكلارك (بمن فيهم باتريك جاس، وجوزيف هوايتهوس، وجون اوردواى، وتشارلس فلويد) بيوميات أشهرها يوميات جاس التى نشرت للمرة الأولى فى 1807، ومن ثم كانت هى الطبعة الأولى للرحلة نفسها التى رأتها أعين القراء.

وفى خطاب مؤرخ فى 20 يونيو 1803، كتب توماس جيفرسون إلى صديقه وسكرتيره السابق ميريوذر لويس، الذى كان يوشك أن يقود بعثة استكشاف لأراضى لويزيانا وما وراءها يقول: «إن هدف بعثتك هو استكشاف نهر ميسورى، وكذلك النهيرات الأساسية المتصلة به على امتداد مجراه واتصاله بمياه المحيط الهادىء سواء، كولومبيا وأوريجون وكولورادو أوأى نهر آخر يمكن أن يوفر اتصالًا مائيًا مباشرًا وعمليًا عبر هذه القارة لأغراض التجارة».

والواقع أن التجارة كانت سببًا أوليًا لفتح الطريق بين المحيط الأطلسى والمحيط الهادئ. فقد كان ذلك حلمًا راود جيفرسون طويلًا. وفى فترة مبكرة تعود إلى 1783، حاول أن يقنع المستكشف چورج روجرز كلارك بأن يزور الأراضى الغربية. وباعتباره وزير خارجية فى ظل رئاسة چورج واشنطن حاول، تشكيل بعثة استكشاف، وفشل هذا لأسباب سياسية : لأن الولايات المتحدة كانت يمكن أن تثير أزمة دولية نتيجة لمثل هذه المغامرة. وعندما أصبح جيفرسون رئيسًا فى 1801، عادت هذه الفكرة لذهنه. فبا عتباره رجلًا ينتابه فضول شديد إزاء

العالم، كان يتساءل عن خصائص الجغرافية الغربية. ولابد أنه أدرك أن الخرائط القائمة وهم أكثر منها حقيقة. لكن كانت هناك أسباب أخرى كذلك للأمل فى تحقيق مشروع الاستكشاف هذا. ففى منعطف القرن التاسع عشر، كان التجار الأسبان والبريطانيون فى الساحة، وكان كلا هما يتوقان للوصول للثروة الشاسعة التى تكمن غرب المسيسيبى. وكانت فكرة أن هذه الجمهورية المدعية الغِرّة يجب أن تسيطر على منطقة شاسعة غير قابلة للتصور إلا لدى الأمريكيين أنفسهم، الذين أدركوا أن قوتهم (وإحساسهم بالأمن)ستزداد بصورة أساسية إذا مدّوا سيادتهم غربًا. وبالطبع فإن شراء لويزيانا جعل هذه البعثة الاستكشافية أكثر إلحاحًا وإثارة.

كانت لويزيانا وأراضيها الفسيحة مملوكة لأسبانيا خلال الثورة الأمريكية، وإجمالًا كانت هذه الأراضى تمثل حدًا أدنى من الخطر على الجمهورية الجديدة. فقد كانت أسبانيا فى أحسن الأحوال عملاقًا فى حالة سبات ولم تستكشف أو تعمر ممتلكاتها بصورة مقدامة (كانت قد حصلت على الأرض من فرنسا فى 1762، تعويضًا عن خسائر أسبانيا حليفة فرنسا فى حرب السنوات السبع).

ومرة ثانية كانت معاهدة سان الدفونسو (1800) التى وضعت لويزيانا فى أيدى فرنسا، جزءًا من رؤية نابليون التوسعية: فقد أراد الإمبراطور إعادة الإمبراطورية الفرنسية لأمريكا الشمالية، رغم أن هذه الفكرة أحنقت الأمريكيين، الذين لم يكونوا يستطيعون أن يتحملوا وهم سعداء فكرة وجود امبراطورية كبرى على جناحهم الغربى.

ولحسن حظ جيفرسون، فإن المستوطنين الفرنسيين كانوا قد وقعوا فى وحل فى الكاريبى، حيث كان الجيش الفرنسى قد أرسل إلى سانتو دومنجو لإعادة الاستيلاء على الجزيرة (وهى حاليًا مقسمة بين هايتى والجمهورية الدومينيكية) من توسيانت - يوفيرتور المتمرد الأسود المتهور. وضاءلت الحمى الصفراء قوة الغزاة الأوروبيين وجعلتها قوة مهلهلة غير فعّالة. وبهذا الضرر الخطير الذى لحق بالقوة الفرنسية فى العالم الجديد، قرر نابليون التركيز على أوروبا. ووافق على بيع منطقة لويزيانا بأسرها للولايات المتحدة، جزئيًا

لمنع وصول البريطانيين إلى هذه الأراضى والسيطرة عليها. وكان هذا الوضع المواتى هو الذى استغله جيمس مونرو عندما وصل إلى باريس (نظريًا) ليتفاوض على حقوق التجارة على المسيسيبى، وربما لشراء نيو أورليانز وضواحيها المباشرة. وانضم مونرو إلى زميله روبرت. ليفنجستون (السفير الأمريكي فى فرنسا) الذى وجد أنه يجرى محادثات بالفعل حول الحصول على لويزيانا بأسرها - وهى منطقة جغرافية أكبر من الثلاث عشرة مستوطنة السابقة مجتمعة.

ويمكن للمرء بالكاد أن يتخيل ضخامة صفقة شراء لويزيانا. فبضربة واحدة ضاعفت الولايات المتحدة مساحتها، وضمت منطقة لها قيمة مذهلة (وإن كانت غير محددة) كما يمكن للمرء أن يخمن. وفيما عدا ما كان يرد إلى أذهان البريطانيين الذين استمروا يأملون فى أن يكون لهم نفوذ فى أمريكا اللاتينية، بدا واضحًا حينذاك أن الولايات المتحدة ستسيطر فى نهاية المطاف على قارة أمريكا الشمالية بأسرها - وهو افتراض كان سائدًا بالفعل فى معظم الدوائر الدبلوماسية كان الأمن هو القضية الأولى بالنسبة للأمريكيين. وحينذاك أصبح مضمونًا للأبد، ونبعت قوة أمريكا فى العالم من هذا الجوهر الوطيد. كان تاريخنا ونفسيتنا كأمة سيختلفان كثيرًا لو لم نمتلك بمعجزة وبصورة سليمة هذه الأراضى. وقد استلزم الأمر يوميات لويس وكلارك لجعل نطاق هذا وأهميته واضحين للشعب الأمريكى.

لقد انصب اهتمام لويس وكلارك على تجارة الفراء والجلود المربحة، والتى كانت موضع اهتمام شركة الغرب الشمالى. فحتى ذلك الحين ،كانت هذه المجموعة قد استكشفت بالفعل الغرب الكندى، واستحدثت تجارة جلد القندس على امتداد نهرى ساسكا تشيوان وأثاباسكا ومدت نفوذها للمنطقة القطبية الشمالية فى حين اندفعت جنوبًا أيضًا. وكان من بين المستكشفين العاملين لصالح هذه الشركة، الكسندر ماكنزى الذى حاول لبضع سنوات أن يجد طريقًا إلى المحيط الهادئ على امتداد سلسلة من المجارى المائية التى كانت قيمتها التجارية قليلة لأنها تنطوى على عمليات نقل برى طويلة وصعبة بين الأنهار. لكن ماكنزى شق لنفسه مكان فى التاريخ، لكونه أول رجل أبيض يصل إلى المحيط الهادئ (شمال

المكسيك) منذ كا بيزا دى فاكا فى 1536. وظل ماكنزى يحلم بالعودة للغرب وقدم طلبًا لإثبات حقه فى نهر كولومبيا إلى بريطانيا (رغم أن سفينة أمريكية، هى كولومبيا، كانت قد وجدت النهر من قبل وأسمته باسمها فى 1792، بقيادة الكابتن رويرى جراى).

ويكمن هذا التاريخ المعقد وراء رحلة لويس وكلارك، واللذين توافرت لهما كل الأسباب للاندفاع غربًا. إذ كان لديهما هدف واضح ونيرّ: هو إيجاد ممر أسطورى للغرب الشمالى. إذ كان لهذا الطريق قيمة تجارية لاتقدر، لأنه يربط الولايات المتحدة بالتجارة البحرية فى المحيط الهادئ. فإلى الجنوب كان الأسبان والفرنسيون يتنافسون على التجارة، فى حين كان الكنديون البريطانيون فى الشمال يبذلون قصاراهم لممارسة النفوذ. وجاءت الضغوط من كل الجوانب، حتى من الداخل، حيث إن لويس وكلارك لم يكونا يستطيعان إنكار وجود أمم كبرى من القبائل، لكل منها ادعاءات مشروعة فى الإقليم. باختصار، إن ذلك لم يكن مسيرة بريئة فى البرية. وشقت الرحلة طريقها خلال بريّه سياسية معقدة أيضًا.

ويجب أن يضع المرء فى ذهنه أن الضم الجغرافى كان محدودًا لأقصى حد فى 1804. فلفترة طويلة جدًا، كان يفترض أن نهر ميورى يؤدى إلى نهر غربى وأن عملية نقل برى وجيزة من نهر إلى نهر مطلوبة للوصول إلى نهر كولومبيا. و فى 1765، اقترح روبرت روجرز القيام برحلة من منابع المسيسيبى إلى نهر اوريجون. وافترض (دون الاستناد لمعلومات حقيقية) أن مسافة النقل البرى من نهر إلى نهر تبلغ نحو 20 ميلًا. ولم يضع فى حساباته حقيقة أن جبال روكى تعترض الطريق. وعلى الرغم من أن ماكنزى عبر جبال روكى، فإن المعرفة الحقيقية بالصعاب التى تمثلها لم تكون قد توراردت للمخيلة الشعبية بعد. و مثلما لاحظ كلارك فى مستهل يومياته فى 14 فبراير 1860، فإن العشرين ميلًا أو ما إلى ذلك التى تنبأ بها الجميع كحاجز برى كانت تعادل نحو 220 ميلًا. ولم تكن تلك أميالًا سهلة.

كان لويس يبلغ من العمر تسعة وعشرين عامًا فى 1803، وكان عمر كلارك ثلاثة وثلاثين عامًا. كانا صديقين قديمين ورفيقى سلاح سابقين. كانا كلاهما جنديين محترفين، وكان لكلارك نفسه بعض الخبرة بقبائل هندية شتى. كانا يدركان تحديات البرارى ومباهجها،

ووفدا إلى هذه البعثة الاستكشافية والإثارة تملؤهما، مستعدين لمواجهة صعابها ومتأهبين للتصدى لها. وحقيقة أنهما تقاسما قيادة الفيلق بالتساوى لافتة للنظر فى حدّ ذاتها، رغم أن لويس كان لديه اتجاه طبيعى للقيادة وأن اتجاه كلارك كان نحو التبعية، وقد أثر هذا على طبيعة قيادتهما. ومع ذلك، فقد عمل الاثنان معًا. ويظل المثل الذى ضرباه مثلًا رائعًا وفريدًا فى حوليات الاستكشاف.

كان لويس حالمًا نوعًا ما بطبعه، لكنه أدرك تمامًا التداعيات الدبلوماسية والتجارية لهذه الرحلة. وكان كلارك عمليًا بصورة أكبر، كان من نوع الرجال الذى يسيطر على العمليات اليومية، متفاهمًا مع رجاله.

وكذلك مع الهنود الذين يلتقيهم على امتداد الطريق كانت عقلية لويس ميالة لمعرفة تفاصيل الحياة النباتية والحيوانية، ووجهت موهبته كعلاّمة بالنبات والحيوان اليوميات فى كل مرحلة. وكان لدى كلارك معرفة أكثر من كافية بالجغرافيا والطبوغرافيا، وكان رجلًا موهوبًا فى مجال الأنشطة التى تتم فى الخلاء.

وكان الرجلان كلاهما ماهرين فى استخدام القوارب، رغم أن كلارك كان يفوق لويس فى هذا المجال. ونتيجة لذلك، وقعت المسئولية عن القوارب بالكامل على كاهل كلارك.

كان لويس بحكم مزاجه، يتعرض لنوبات من الغضب والاكتئاب. وكان كلارك أكثر هدوءًا وعمليًا وكثيرًا ما كان عليه أن يهدئ رفيقه متقلب المزاج. لكن توليفة مواهبهما أفادت جيداً.

وانطلقت البعثة الاستكشافية فى هدوء وترو غير ألوفين - وكانت تلك علامة على الكفاءة والخبرة فيما يتعلق بالسفر فى البرارى. وواجه الفيلق تضاريس صعبة أحيانًا (قمم مرتفعة، وغابات كثيفة) وكذلك مياهًا مهلكة، ومناخًا متطرفًا، وفترات تقرب من الموت جوعًا (مثلما حدث فى بيترروتس). وحدثت بضعة أزمات، لكن لم يمت من البعثة سوى شخص واحد هو تشارلس فلويد ربما بسبب انفجار المصران الأعور - وهو شىء لم يكن

أحد فى تلك الأيام يستطيع أن يفعل حياله شيئًا. وعبر ثمانية وعشرين شهرًا من سفر شاق، غطى ثمانية آلاف ميل، كانت البعثة متماسكة معًا، ماديًا وعاطفيًا.

وتحتل هذه الرحلة بسهولة مرتبة بين أكثر الرحلات إثارة للإعجاب التى تم الاضطلاع بها فى أمريكا الشمالية فى أى وقت، ويبقى هذا التقرير الكلاسيكى (فى أى من تجسيداته ومختاراته المتباينة) بلانظير باعتباره تقريرًا عن تقدمها وسير أعمالها. فالكتابة واضحة صافية وسريعة- مثل غدير ينساب فى حقل. وتضم صفحاته الوفيرة بضع لحظات من التأمل باسترجاع الماضى (عادة كتبها لويس)، بيد أن اليوميات فى معظمها تقدم تقريرًا واقعيًا عن الجغرافيا المادية والبشرية التى تم اللقاء بها على امتداد الطريق.

وقد ظلت يوميات لويس وكلارك زمنًا طويلًا موردًا للأمريكيين الذين أعجبوا بكلا القائدين لهذه البعثة لقدراتهما العملية والمهنية. وقد أصبحت رحلتهما (ويومياتهما) هى رحلتنا أيضًا: سبيلًا إلى البرارى، سبيلًا للوطن.

3

واختلف فيلق الاستكشاف فى العدد، وتألف فى معظمه من الجنود، بما فى ذلك أربعة رقباء (جون اوردواى، ناثنيال بريور، وتشارلس فلويد، مع باتريك جاس الذى رقى لاحقًا لهذه الرتبة) وعريف وتسعة وعشرين نفرًا. وانضم إليه بيير كروزيت وفرانسواز لابيز باعتبارهما نوتيين خبيرين، وكان چورج درووير صياد حيوانات محترف. وكان يورك خادمًا أسود صحب كلارك (ما إذا كان يورك «عبدًا» أم لا على وجه الدقة أمر مطروح للتفسير رغم أنه كان يتصرف كعبد). وصحبت البعثة كتيبة من خمسة عشر رجلًا فقط حتى قرى ماندان على امتداد أعلى نهر ميسورى. وهى آخر نقطة للحضارة قبل أن تبدأ البرارى جديًا، وكان قد تم اكتراؤهم لحمل الإمدادات والمساعدة فى دحر الهجمات (المحتملة) من قبل الهنود. وانطلق الفريق - بقيادة كلارك وحده فى البدء - من كامب ديبوا فى سانت لويس فى ثلاثة زوارق فى 14 مايو 1804. وكان زورق القيادة زورق نقل نهرى مغطى لافت للنظر طوله خمسة وخمسون قدمًا. كان يزيح ثلاثة أقدام من المياه وله شراع وكذلك مجاديف ويزهو بقمرة صغيرة ومبيت للنوتية. كان الزورقان الآخران أصغر ويمكن أن يسيرا بالتجديف أو الشراع أيضًا. وكان جوادان يتبعان الفريق على امتداد الضفتين. وفى معظم الوقت، كان التيار السريع والأشرعة يجعلان الفريق يتحرك للأمام بصورة سلسة هادئة. وفى أكثر المسافات صعوبة، كان الرجال على الشاطئ يجرون القوارب للأمام: وكان هذا العمل البغيض يسمى «الجر بالحبال» وكانت الرحلة تقطع فى المتوسط من عشرة أميال إلى 15 ميلًا يوميًا.

وقد كتب الكابتن كلارك: «بدأت فى الساعة الرابعة بعد الظهر فى حضور الجيران من السكان، وانطلقنا فى ظل نسيم عليل فى المسيسيبى لأعلى نقطة عند الجزيرة الأولى التى تبعد أربعه أميال وعسكرنا على الجزيرة التى تقع على مقربة من الضفة اليمنى (الميمنة)، وقبالة مصب نهير صغير يسمى الماء البارد» (3).. ومثلما فعل لويس، فقد استخدم تهجئة

طريفة ومتباينة (وتلك عادة كانت نموذجية قبل توحيد التهجئة). وتظهر الحروف الاستهلالية بصورة عشوائية، رغم أن ذلك نادرًا ما كان من أجل التوكيد).

وكان استخدام النقط والحروف شاذًا، مع ترك مسافات شاذة بين الحروف أحيانًا - مثلما هو طبيعى فى أى يوميات(*) (استخدم المسافات بصورة طبيعية عندما اقتبس من اليوميات، إلا عندما يبدو واضحًا أن ترك المسافات هو نفسه نوع من التنقيط والفواصل، وأنه مفيد لعزل مجموعات الكلمات، مثلما يفعل الشعراء).

وسارت البعثة فى طريقها على ما يرام عندما لحق بها لويس وفريقه فى سانت تشارلس بعد يوم. وكاد المجرى الذى يمور يغرق الزوارق فى 21 مايو. وعسكر الرجال عند «مصب نهير صغير يسمى نهر شوريت، أعلى قرية فرنسية صغيرة مكونة من سبعة بيوت ونفس العدد من الأسر» (5).

والموقع المذكور هو لاشاريت، كما ننطق اسمه حاليًا. وقد اتفق أن دانييل بون وهو رحالة رائد شهير، كان يعيش على مقربة، عند مصب نهر فام أوساج. كان يبلغ من العمر سبعين سنة حينذاك، وكان أسطورة بين الرواد، ورغم ذلك فإن لويس وكلارك لم يكونا يعلمان بوجوده أولم يظنا أن الأمر جدير بالذكر. والمؤكد أنهما لم يبذلا أى جهد للاتصال به.

وهناك شرع الفيلق فى التجارة مع الهنود المحليين والصيد فى الغابات، وأثبت چورج درووير جدارته فورًا. فقد كان غير هياب، وموهوبًا بشكل مذهل كصياد وقاطع أشجار، وأصبحت البعثة تعتمد عليه فى الحصول على اللحوم. وظل هو وعدد قليل آخر على الشاطئ، مع الجياد، وكانوا يرحلون كثيرًا بمعرفتهم أيامًا بحثًا عن صيد. وشكلت مغامراته رحلة موازية تقريبًا لرحلة الفريق. وكثيرًا ما أشار لويس وكلارك إلى بطولاته التى يبدو أنها كانت تسليهما وتسحرهما.

*- (الاقتباسات المنقولة عن اليوميات زاخرة بالأخطاء الهجائية واللغوية) المترجم.

وفى أوائل الرحلة، مارس كلارك (الذى كانت له القيادة العملية للرجال) سلطته بعقاب شخصين من رفقته بسبب السكر و السلوك الفوضوى، وتم جلدهما - وهو شكل للعقاب كان سائدًا حينذاك. وكان لهذا الاستعراض للقوة سحره، ولم يحدث سوى قليل من عدم الطاعة فى هذه البعثة. وبشكل ما أزال كلارك الجمل التى تشير إلى هذا الجلد من اليوميات فى تاريخ لاحق، مدركًا أن أعينًا كثيرة ستقرأ كلماته فى النهاية (رغم أن آخرين فى الرحلة كتبوا يوميات هم أيضًا). وأساءت قلة من الرجال التصرف بطرق طفيفة، فسرقوا الويسكى وسكروا أثناء الحراسة، لكن مثل هذه الحوادث كانت نادرة، فى ضوء أن هؤلاء كانوا شبانًا يتعرضون لضغط هائل.

وتنقلنا اليوميات عبر نهر دوبوا إلى بليت. ويتخذ التقرير الذى كتبه كلارك شكل الاختزال وهو يشير إلى شتى المشاكل التى وقعت على امتداد الطريق. ويلمح كلارك إلى «أمة كنصو من الهنود»، وكان معظمهم حينذاك «قد خرجوا حينذاك إلى السهول لصيد الجاموس» (6) : ويخرج المرء بانطباع من هذه الأبواب بأن البرارى على امتداد النهر كانت تزخر بالحياة الإنسانية: مستوطنون فرنسيون، وتجار كنديون، وهنود من مختلف القبائل. وظل الهنود فى معظمهم بعيدين عن مجال الرؤية، رغم أن كلارك كان يشعر بوجودهم عندما كتب عن رسوماتهم ومنحوتاتهم على الصخور الجيرية (يذكرنى هذا برواية **قلوب الظلام** لجوزيف كونراد عن رحلة على امتداد نهر الكنغو إلى الآجام، المحاطة بدغل يكمن فيه السكان الأصليون على نحو مشئوم، يلمحهم الراوى من على ظهر الباخرة أكثر مما يلاقيهم وجهًا لوجه. بيد أنه فى رواية كونراد، كان السكان الأصليين يُرهبون الراوى، والآجام تهدده - وهى مكان يخرج عن نطاق الفهم الرشيد. لم يرتعب كلارك بصفة خاصة من الغابات الكثيفة أو عندما كان يراقب الحياة الهندية، فقد كان فضوليًا إزاء السكان، الأصليين على امتداد النهر وعاداتهم).

وقد دون عدد من الرجال فى الفيلق يوميات خاصة بهم، واتفقوا على نقطة واحدة: كان ميسورى نهرًا مروعًا وجميلًا، وأسرهم مشهد الطبيعة. كانوا ببساطة يكسحون، بالمعنى

الحرفى، الناموس والقراد الذى لاينتهى، والذى وصفه كلارك بأنه «وافر وسيئ». وكما يمكن للمرء أن يتوقع فى ميسورى وفى الصيف القائظ، فقد شكل الطقس تحديًا، فقد كان ملتهبًا ورطبًا بلا انقطاع. كانت الأمطار مدارية تقريبًا، تتحول فجأة إلى مايشبه الوابل، تنشط بشدة، ثم تصفو فيما يشبه المعجزة. وكانت نوبات من الحرارة الرطبة تجتاح الفيلق، وكان يتعين علاج حالات ضربات الشمس وضربات الحرارة.

وظل كلارك هو مدون اليوميات خلال الصيف، مقدمًا تقريرًا مدققًا عن كل شىء تقع عليه الأبصار: «النهر وهو يتعرج فى السهول المفتوحة الجميلة، الموشاة بأحراج الأخشاب، وكل نقطة مغطاة بغابات من أشجار طويلة، مثل الحور القطبى والصفصاف وأشجار التوت والدردار والسوكا مور لين (ربما يقصد الزيزفون) والرماد (كانت الأحراج تحتوى على حبات الجوز واللوز والبن، والبلوط إضافة لذلك)». (14) ذلك هو نموذج لكلارك، العليم بشئون النبات والحيوان المتضلع. كان محددًا لا مجال لديه للعواطف، وإن كان مدركًا لجلال البيئة المحيطة به. كانت هناك حيوانات أيضًا على مرمى البصر، مثل حيوان الغُزيْر الذى وصفه بأنه يشبه «الخنزير المخصى الفرنسى»، وهو مخلوق «يحفر جحرًا فى الأرض ينام فيه ويقتات على اللحم، و كلاب البرارى والخضراوات». وأورد السمات غير العادية للحيوانات: «شكلها وحجمها مثل القندس، وفمه فى رأسه مثل كلب أذنيه قصيرتان، وذيله وشعره مثل خنزير برى، وأطول وأخف وزنًا» (15). ويستمر وصف كلارك مطولًا.

والتقى الفريق بهنود شتى، كان ستة منهم زعماء. «التقيت أنا والكابتن لويس مع هؤلاء الهنود وأبلغناهم أننا مسرورون برؤيتهم». (16). وألقيت الخطب وتم تبادل الهدايا، وثارت المشاعر الدافئة . حتى الهواء بدا وديا - وتلك نقطة مهمة فى وقت كان الرأى الطبى السائد فيه يقول أن الأمراض مثل التيفود والملاريا يحملها الهواء. وقد كتب كلارك بعد أن تحدث عن الهنود بعض الوقت يقول: «إن الهواء نقى وصحى بقدر ما يمكننى أن أحكم». وفى هذه الحالة يصبح كلامه استعاره فقد كان الجو صحيًا، بقدر ما يستطيع كلارك أن يحكم.

إن المعنى الضمنى غير الملفوظ هو أن المتاعب كانت فى الطريق. لكنه استطاع أن يكبت مخاوفه. ضاربًا مثلًا لرجاله.

وكثرت المشاكل، لكنها كانت مشاكل صغيرة. ففى أوائل أغسطس حدث هروب. فقد فرّ النفر موزس ريد مع واحد من طاقم الزورق، تاركين البعثة. وفى 19 أغسطس أدى مرض الرقيب فلويد إلى توقف كل شيء: «فقد انصب كل الاهتمام عليه» (21). ورحمة من الله، فقد مات خلال بضعة أيام قليلة ودفن قرب قمة تل يطلّ على النهر، قرب ما يشكل الآن مدينة سيوكس سيتى، فى أيوا (ولايزال هناك نصب يميز مكانه). ومثلما أبرزنا فيما سلف، كانت تلك هى حالة الموت الوحيدة على امتداد الطريق. وفى هذا الصدد، يتعين على المرء أن يعتبر أن أعضاء الفيلق كانوا محظوظين بصورة مدهشة فى أن صحتهم كانت جيدة، خاصة وأن خطر العدوى كان كبيرًا فى هذه الفترة، قبل وقت طويل من ظهور المضادات الحيوية. فأصغر سحجة كان يمكن أن تتحول سريعًا لشيء مميت.

وبحلول نهاية أغسطس، اقترب الفيلق من تحقيق أحد أهدافه: الالتقاء بأمة السيوكس. كانت قبيلة الشيبيوا قد طردت هذه القبيلة (والتى كانت لها فروع شتى) للغرب، ومع ذلك فقد كانت قبيلة قوية تمامًا وميّالة للحرب. كانت تسيطر على ميسورى قرب مستوطنة ماندان، حيث أقام تجار الفراء البريطانيون تجارة مربحة. كان الرئيس جيفرسون يريد بشدة أن يقيم لويس اتصالًا مع السيوكس ويتبين ما إذا كان يمكن عمل أى شيء بشأن منع اضطراب التجارة عبر هذا الامتداد المهم من النهر. وقابلوا السيوكس قرب نهر جيمس. ورحب اليانكتون سيوكس كما كانوا يسمون، بالأمريكيين وبدوا مستعدين على نحو مقبول لإبرام السلام. (كان التيتون سيوكس أقل استعدادًا لصنع السلام، ولكن كانوا لايزالون بعيدين).

وفى هذه النقطة تصبح اليوميات انثروبولوجية بصورة مكثفة، حيث يقدم كل من لويس وكلارك تقريرًا عن اللغة والعادات، ومعدات القبائل وأسلحتها، وعادات تناول الطعام. والمعتقدات الدينية لدى الهنود. وحتى الآن، لاتزال هذه التقارير نفيسة بالنسبة للمؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا. وحيثما خطا لويس باعتباره كاتب يوميات، مثلما حدث

فى 17 سبتمبر1804، تصبح الكتابة أكثر سلاسة واستطرادًا. ويذكر لويس المرء بهيمنجواى أحيانًا، فى الكتابة بوضوح وقوة عن عالم الطبيعة. فيبدأ الباب الطويل إلى هذا اليوم الحار فى نهاية الصيف كالآتى: «نظرًا لأننى حبست نفسى فى الأيام الكثيرة السابقة فى الزورق، فقد عزمت على أن أكرس هذا اليوم لتسلية نفسى على الشاطىء ببندقيتى لأرى داخل البلد الذى يقع بين النهر ونهير كورفوس» (28). كان المشهد «باعثًا على البهجة وجميلًا على نحو ثرى». وينطلق هذا الباب مثل قصة، تُكدّس التفاصيل، وتستند إلى النقطة التى وجد فيها القاص الصياد «ظبيًا حذرًا ومتيقظًا». ورأى على مبعدة قطيعًا، أذهله وجوده السحرى الذى يكاد يشبه الأشباح «لاحظت سرعة هروبه على امتداد سلسلة التلال أمامى». ويشعر المرء بإحساس عميق بأن لويس، الصياد وكذلك الكاتب، كانت له عينان مدربتان على ملاحظة الأشياء بصورة حادة بصفة خاصة، وبصيرة كاشفة.

وفى أواخر سبتمبر تُسرع الرواية حيث التقى الفيلق بهنود أشد ضراوة أعلى الميسورى (خليط من التيتون السيوكى والاوماها والاريكانا)، الذين نكبوا التجار الفرنسيين والأسبان بعض الوقت، إذ كانوا يسرقون سلعهم ويعاملونهم بخشونة. وأدرك لويس وكلارك مايتعين عليهما عمله لممارسة السلطة: القيام بمجابهة قوية وإرعابهم. وعانى كلارك في ليال كثيرة من النوم السيىء كما قال فى 27 سبتمبر. وتصاعد التوتر، وحدثت مواجهة. وبدا حاسمًا بالنسة للسيادة الأمريكية، أن يظل الفيلق هادئًا غير منزعج. ولحسن الحظ، رفض الهنود القتال، رغم أعدادهم الكبيرة، وفضلوا تاكتيكات حرب العصابات التقليدية على أية حال، مثلما تبين مواجهاتهم اللاحقة مع البيض.

وفى منتصف أكتوبر، تم جلد عضو آخر فى البعثة خمسة وسبعين جلدة لعدم إطاعة الأوامر - وكانت هذه آخر مرة يحدث فيها ذلك فى الرحلة. وشهد زعيم هندى هذا الجلد، وصرخ بصوت مرتفع لهذا المشهد. ويذكر كلارك ببعض الدهشة «إن هذه الأمة لا تجلد مطلقًا حتى أبناءها منذ مولدهم» (51). وربما انتشر الحديث بين السيوكس عن أن هؤلاء المستكشفين البيض لا يعبثون وأن عرقًا عنيفًا يسرى بينهم. وعلى أية حال، لم يواجه الفيلق

أية متاعب على هذا الامتداد من ميسورى من قبل الهنود الذين ظلوا هادئين وإن لم يكونوا ودودين.

كان على الفريق أن يمضى الشتاء بين هنود الماندان، قرب ما يشكل حاليًا ستانتون، شمال داكوتا. كانت قبيلة هيداستا تعيش على مقربة، على امتداد نهر نايف. كانوا قبائل متوطنة بنت هياكل مهيبة من جذوع أشجار الحور القطبى، التى غاروا بها فى الأرض وغطوها بأسطح من الطين. كأن عددهم قد تضاءل فى العقود الأخيرة، بتأثير المرض (عادة الجديري) والاستنزاف الناجم عن حروب لا تنتهى مع أمة السيوكس الأكبر والأشد ميلًا للحرب. وقلّد لويس وكلارك مساكن الما ندان فى بناء قلعة ماندان، حيث شرعا. بإقدام فى إنشاء مخزن للطعام من أجل شهور الشتاء القادمة. واستمرت أعمال البناء خلال معظم نوفمبر. وبحكمة بدأوا عملية التحصن ضد الشتاء مبكرًا، «حيث بدأ الجليد يكسو النهر» فى صباح يوم الثلاثاء 13 نوفمبر. وبعد ثلاثة أيام، شهد كلارك فى الفجر «غابة بيضاء تمامًا كل أشجارها مغطاة بالثلج» (65).

كانت الأكواخ التى بنوها لأنفسهم «تقع على منطقة منخفضة من الأرض» على الجانب الشمالى من ميسورى كانت «مغطاة بأشجار الحور القطبى الطويلة والكثيفة» (66). وشرع الفيلق على النحو المناسب فى الحصول على «لحم طازج» ورحب بالهنود فى حصنه، وأطعمهم، وتعرف عليهم. وكان كل هذا جزءًا من عمل حريص من أعمال الدبلوماسية التى ميزت العلاقة بين الفيلق ومختلف القبائل التى التقاها. كتب كلارك يقول: «قدمنا لهم تطمينات بأننا سنحميهم من كل أعدائهم» (67). والواقع أنه أقام وجودًا أمريكيًا على امتداد هذا الجزء من ميسورى قائلًا لهم : أننا سنحميكم إن قبلتم سيادتنا. وكان هذا بالنسبة للهنود صفقة مع الشيطان. وتعرضت للخطر للمرة الأولى طريقة الحياة التى اتبعوها قرونًا طويلة.

وجاءت الثلوج فى نوفمبر، وزاد سمكها على قدم. وعندما هاجم محاربو السيوكس الماندان فى 30 نوفمبر، هبّ الفيلق لنجدتهم - مثلما وعد. وكتب كلارك يقول: «فوجئ الهنود الذين لم يكونوا يتوقعون تلقى مثل هذه المساعدة القوية فى مثل هذا الوقت القصير

وشعروا بالانزعاج قليلًا من هذا المظهر المخيف لفريقى» (70). وهو يشير إلى الماندان صراحة باعتبارهم «أطفالًا مطيعين». وكانت هذه النغمة الأبوية والمتعالية تتسق مع النهج العام للأوروبيين تجاه سكان أمريكا الأصليين، الذين اعتبروهم أدنى منزلة ومثل الأطفال، فى حاجة ليد حازمة وأبوية.

ولا يذكر لويس وكلارك فى اليوميات الكثير عن حقيقة أن فريقهما أضاف حينذاك لصفوفه ناصب فخاخ فرنسى كندى أُلعبان، هو توسيان شاربنو، وزوجته الذكية التى كانت تبلغ من العمر ستة عشر عامًا، ساكاجاوى، وهى من قبيلة الشوشون. كانت ساكا جاوى قد أُسرت من قبيلتها فى جبال روكى على أيدى محاربى الهيداستا فى سن الحادية عشرة وجىء بها إلى مركز تجارى على نهر نايف، حيث التقت شاربونو. وأصبح شاربونو وساكاجوى فى الوقت المناسب شخصيتين أساسيتين فى الرحلة، وبدونهما يبدو أنه كان من غير المحتمل أن تنجح البعثة على النحو الذى نجحت به. وفى 11 فبراير 1805، وضعت ساكاجاوى ولدًا هو جان باتيست (سمى بومب لاحقًا). ويورد لويس وصفًا مختصرًا وإن كان لاينسى لهذا المولد، بما فى ذلك حقيقة أنه قدم «حصة صغيرة من العضو المحدث للصلصلة فى ذيل الحية ذات الجرس» كدواء للتعجيل بالولادة. ويبدو أنها أفادت. وقد سافر هذا الرضيع بالفعل مع الفريق، وهو ما يبدو أمرًا لا يمكن تخيله، ولم يشعر لويس وكلارك بالانزعاج لوجوده الذى اعتبراه ببساطة أمرًا مسلمًا به. (وازداد كلارك تعلقًا بالطفل لدرجة أنه دفع فيما بعد تكاليف تعليمه فى سانت لويس). وكانت المهمة الأساسية فى فصل الشتاء، إضافة للبقاء على قيد الحياة نفسه فى أراضى قاسية وغير معهودة، هى جمع المعلومات عن حياة القبائل فى ميسورى الأعلى. وقد انكب لويس أساسًا على هذا العمل وخصص له دفاتر مذكرات منفصلة، اعتمد عليها فى إعداد تقرير مستقل قدمه للكونجرس الأمريكى نيابة عن صديقه وراعيه، توماس جيفرسون. كان هذا عملًا أنثروبولوجيًا رائع التنظيم تمامًا، ولايزال التقرير اللاحق مفيدًا للمؤرخين. وبمبادرة منه، صنف كلارك مذكرات حول الطبيعة الجغرافية للمنطقة، مسجلًا أنماط الطقس وكذلك حياة النبات والحيوان.

وانتهى المعسكر فى أبريل عندما ذاب الجليد ونبتت البراعم. ففى 7 أبريل كما سجل لويس، تمت إعادة زورق النقل النهرى المغطى الطويل إلى سانت لويس بطاقم صغير، مما قلل عدد الفريق إلى ثلاثة وثلاثين. وكان هذا الزورق يحمل صندوقًا معدنيًا يحوى عينات نباتية وحيوانية وكذلك تقارير عن النهر وخرائط له. وإضافة لأن زورق النقل هذا لم يكن ملائمًا للسفر في البرارى وكان يتعين التخلي عنه عند هذا الحد، فإن ذلك كان وسيلة جيدة للويس وكلارك للتخلص من أعضاء البعثة الذين لم يبد أنهم رفقة جيدة أو أكفأ.

وحينذاك بدأ الجزء الأشد مغامرة من الرحلة، آخذًا الفريق خلال أراضى نادرًا مارآها رجال بيض من قبل. وركزلويس وكلارك اهتمامهما على الجائزة التى طال تخيلها: رافد يدخل إلى نهر ميسورى قبل الحدود الكندية ويحمل المسافرين إلى كولومبيا، ويمكن أن يحظيا منه بسفر سهل إلى المحيط الهادئ. كان الاعتقاد السائد هو أن مثل هذا الطريق موجود وأنه سيفتح التجارة إلى الغرب، بل إلى الصين. وإضافة لذلك، كان من المعتقد أن عملية نقل برى واحدة لمدة يوم أو ما إلى ذلك ستكون مطلوبة. وقد سأل الفريق التجار والهنود بانتظام عن هذا الأمر، رغم أنه لم يكن لدى أحد معلومات مؤكدة. يبدو أنه كانت تراودهم آمال كبيرة فى وجود نهر هوايت إيرث، والذى ثبت (لاحقًا) - لخيبة أملهم الضخمة - إنه مجرد مجرى هزيل لنهير صغير.

تخيل ما الذى سيبدو عليه الاندفاع على امتداد الميسورى بغير يقين عن الطريق نفسه. كانت روافد كثيرة تغذى الجزء المركزى من المجرى المائى، وكان من الصعب تقرير أى شعبة منها هى ميسورى الحقيقى. ماذا عن النهر الأسطورى الذى سيأخذك غربًا إلى ساسكاتشوان، الطريق السريع الرئيسى إلى تجارة الفراء الغنية لأقصى الشمال؟ وفى 8 مايو، كتب لويس وهو يشعر ببعض القلق عما يسمى نهر اللبن الذى ظهر أمامهم فجأة، متفرعًا بطريقة معذّبة. هل كان هذا هو ما أشار إليه الهنود باعتباره النهر الذى يهزأ من كل الأنهار الأخرى؟ هل يمكن أن يكون هذا هو فعلًا المجرى المائى الذى سعوا وراءه؟

ربما لا، و قرر لويس وكلارك معًا مواصلة الإبحار فى المجرى الرئيسى لميسورى. وارتحلوا فى بلد رائع الجمال يزخر بالدببة والآيائل والجاموس والظباء. وترد فى اليوميات تقارير تأسر الإنتباه عن صيد هذه المخلوقات، كتبها أساسًا لويس الذى دون ملاحظات عامة عن هذا فى 31 مايو: «تظهر التلال وجروف الأنهار التى مررنا بها اليوم بمظهر أشد رومانسية. إذ يصل ارتفاع جروف الأنهار إلى 200 أو 300 قدم وهى فى معظم الأماكن عمودية، ومكونة من حجر رملى أبيض لافت للنظر وهو لين بما يكفى لكى يجرفه ضغط الماء بسهولة» (123). ولو كان كلارك وهو أقل الرجلين مسرحيه هو الذى كتب ذلك، لترك الجملة الأولى هنا، ومضى لتسجيل المقاييس مباشرة.

وأبحر الفريق وجدف و سحب زوارقه صعودًا فى المسيسيبى خلال ما أصبح حاليًا مونتانا، حيث صاد الدببة الرمادية، وكان البعض منها ضاريًا لدرجة أن الطلقات المتتالية من بندقية درورير الجديرة بالثقة لم تلقه أرضًا. كان لويس وكلارك يتتشيان بصيد هذه الوحوش الكبيرة. كما سجلا أيضًا وجود سلالة من البقر الوحشى والآيائل وسحرتهم كلاب البرارى، التى كانت تظهر بأعداد كبيرة وتقيم قرى تحت الأرض لنفسها. وفى مرحلة ما، شاهد الفريق وهو منبهر، قطيعًا راعدًا من عشرة آلاف جاموسة، وكان ذلك مشهدًا مرعبًا حقًا.

ونشبت أزمة فى أوائل يونيو، عندما اعترضهم مفرق طريق فى النهر. ويكتب لويس مغتاظًا: «كان كل رجال فريقى فيما عداى مقتنعين بالكامل بأن هذا النهر كان هو ميسورى» (132). وبطريقة ديمقراطية، استشار هو وكلارك كل شخص فى المجموعة. كان كثيرون منهم من الخبراء المحنكين بالغابات، وكان التوافق العام الذى استقر عليه الرأى هو أن الفرع الأنقى هو الفرع الصحيح. وخالفهم لويس وكلارك، وتبع الفيلق قائديه، آملًا أن يظهر قريبًا شلال المياه الكبير الذى ذكره الهنود ليؤكد الطريق الذى اختاراه. وسموا هذا الامتداد من الرحلة نهر ماريا.

وأعقبت ذلك بضعة أيام محمومة، حيث ظنت البعثة أنها سلكت الطريق الخطأ، وأنها بذلك بددت وقتًا ثمينًا. ذلك أن خطأ هنا كان يمكن أن يخرج المشروع عن مساره، ويجبرهم

على التراجع مبكرًا. ومما جعل الأمور أسوأ، أن ساكاجوى سقطت مريضة. وقد وصف لويس المرض الغامض بأنه «برد». واعطيت مياهًا كبريتية من ينبوع لمساعدتها، رغم أن لويس سجل أنها وضعت كمادات على منطقة الحوض لديها (وهذا ليس الدواء المألوف للبرد). وألقى كلارك باللائمة على شاربونو بسبب مرض زوجته، وينزع المؤرخون المعاصرون إلى الاعتقاد بأن ساكاجوى كانت حاملًا بالفعل للمرة الثانية واجهضت الطفل. وهذا يفسر تأكيدًا تأثير الكمادات، وكذلك لوم شاربونو، الذى اعتبره لويس وكلارك غير مسئول. ذلك أن جعل امرأته تحمل ثانية، بعد هذه المدة الوجيزة من ولادة بومب وهى مسافرة فى البرارى، كان عملًا غير مسئول لأقصى حد. كان ذلك جنونيًا، بل وخطرًا. بيد أن هذه الأزمة الخاصة، وإن سببت إزعاجًا، سرعان ما مّرت.

ظل لويس هادئًا، كما هو دومًا، ولم يكشف عن أى من قلقه خلال هذا الامتداد من الرحلة، وبدلًا من ذلك ركز على جمال الطبيعة والحياة الحيوانية الحافلة والوفيرة على هذا النحو فى كل مكان. لقد تركته هذه الأعاجيب منبهر الأنفاس كلما تقدموا فى طريقهم، ببطء وبصورة منهجية. ورسم هو وكلارك مسارهما على خريطة بأفضل ما يستطيعان، مسجلين الارتفاعات، وكانا كثيرًا ما يرجعان إلى الخرائط السابقة، مثل تلك التى رسمها رسام الخرائط الإنجليزى الشهير، آرون آروسميث، الذى كان قد استند إلى المعلومات التى جمعها بيتر فيدلر، وهو مساح ومستكشف زار هذه المنطقة قبل عقد من الزمان نيابة عن شركة خليج هدسون. ولاغرو أن فيدلر كان غير دقيق تمامًا فى حساباته.

واستمر الفريق فى طريقه، مصغيًا إلى الجلبة الغامضة التى تشى بوجود شلال، والذى ظهر أخيرًا فى المسافة المتوسطة: الشلالات الكبرى. جاء ذلك بمثابة الفرج للجميع والشعور بالراحة لأن الرحلة لم تبدد وقتها. لقد كان تخمين لويس وكلارك صحيحًا، وقد عزز هذا ثقة الفيلق كله فى حكمة قائديه (كما تبين يوميات كتبها أعضاء آخرون فى المجموعة). ومع ذلك، فقد كان النقل بريًا لمسافة ثمانية عشر ميلًا مطلوبًا للتغلب على عقبة كؤود، هى سلسلة من خمسة شلالات. وفى التقاليد الأمريكية التى تقوم على أن كل شىء ممكن، صنع

الفيلق عربات بعجلتين تجرها الخيول، بصنع عجلات متينة من جذوع الأشجار، كانت هذه العربات بدائية لكنها فعالة وتخلوا عن زوارقهم، حاملين الإمدادات عبر تضاريس صعبة أيامًا عدة. وكان على الزوارق الخفيفة الطويلة التى تعمل بالمجداف ويتم صنعها بتجويف جذوع الأشجار أن تحملهم باقى الطريق. (كان لويس قد جلب معه طاقمًا لزورق معدنى، لكنه لم يفلح عندما حاول تجميعه).

ومع تحركهم لما وراء الشلالات الكبرى إلى ما أسموه مفترقات الطرق الثلاثة، انتاب لويس خوف غير مفهوم مما ينتظرهم. فقد كانت هذه بالمعنى الحرفى أرضًا غير مطروقة. وإضافة لعدم اليقين هذا، فقد مرض الكابتن كلارك، إذ عانى من آلام فى العضلات وصداع وحمى متقطعة، ونحى كلارك شعوره بالبؤس، وقاوم، وفى النهاية هزم مرضه. وقد كتب لويس يقول أنه وفريقه أيضًا: «بدأنا نشعر بقلق كبير بالنسبة إلى هنود السنيك، لأننا إن لم نجدهم أو نجد أمة أخرى لديها جياد، أخشى أن يجعل ذلك نجاح رحلتنا أمرًا مشكوكًا فيه للغاية»(168).

كان المشهد الطبيعى يخلو من الحياة الإنسانية بصورة غريبة فى مطلع الصيف. أين الهنود؟ كان لويس يؤمن بأنه لابد وأن يلتقى بهم، لأنه ما لم يظهر الهنود، فإن ذلك سيكون معناه أن المنطقة غير صالحة للسكنى بصورة خاصة وأن الجياد لا يمكن الحصول عليها. وذلك يفسد مغامراتهم. وفى أواخر يوليو، شاهدوا إشارات دخان من بعيد: و كانت تلك على الدوام علامة على وجود الهنود. كان النهر ينساب خلال سهول خصبة، على نحو هادئ لحد ما. لكن لا يمكن للمرء أن ينسى وهو يقرأ اليوميات، كم كانت هذه المسافة من الرحلة مروعة. إذ سافروا فى بلاد من البرارى: الوحشية والجميلة، وغير المألوفة كلية. وظهرت الشعاب الثلاث فى منتصف أغسطس، واكتشف الفريق فرعًا من النهر أسماه جيفرسون. وسرعان ما وصلوا إلى منابعه التى سعوا وراءها طويلًا، وكانت مجرد مجرى هزيل يستطيع المرء أن يعبره على قدميه.

كان عدم ظهور نهر كولومبيا الأسطورى مخيبًا للآمال بصورة بالغة. وبدلًا من ذلك كانت جبال روكى تمتد فى كل الاتجاهات: مشهد رائع ومرعب من القمم المثلمة العالية. ومثلما أدرك لويس وكلارك بلمحة خاطفة، فقد كانت تنتظرهما رحلة برية كبيرة، وذلك مستحيل بدون جياد. ومع ذلك فقد جاهدا، واثقين فى حظهما، حتى تحقق الأمل فى حدوث معجزة فى شكل عدد قليل من رجال قبائل الشوشون جاءوا على ظهور خيولهم. كان من الواضح أن واحدًا منهم هو الزعيم، وعندما رأته ساكاجاوى انخرطت فى الرقص فرحًا، وبكت بغزارة. كان هذا فى الواقع هو شقيقها. بيد أن لم الشمل كان فرحة ممزوجة بالألم حيث عرفت منه الأخبار المحزنة بأن معظم أسرتها ماتوا سوى شقيقين وابن شقيقتها المتوفية. كان وجود ساكاجوى (وإن كان مصادفة وغير محتمل) حاسمًا هنا، حيث إنه من خلال شفاعتها زودهم الهنود بالخيول اللازمة وكذلك بنصيحة جيدة بشأن عبور جبال روكى.

ودوّن لويس ملاحظات ساحرة عن الحياة بين الشوشون. وأبهرته ممارساتهم الجنسية، خاصة حقيقة أن «عفة نسائهم لايولونها مكانة عالية» (208). فمقابل أشياء تافهة، مثل فراش ملون، يبيع الأزواج زوجاتهم لممارسة البغاء ليلة أو ليلتين. ومع ذلك «يبدو أن بعض نسائهم يعتبرون أكثر قداسة مما لدى أى أمة أخرى شاهدناها». وقد اهتم لويس بأن يشرح لرجاله بأنهم يجب ألا يناموا مع نساء هنديات بدون موافقة أزواجهن، حيث إنه لم يرد إثارة مشاكل. (ويجب ألايدهش أحد من زمرة من المستكشفين الشبان الشهوانيين الذين كانوا يريدون جماع النساء الهنديات اللاتى يقعن فى طريقهم).

وقد استمتع لويس وكلارك بصحبة الهنود، وبذلا جهودًا دبلوماسية ضخمة لتعزيز علاقات طيبة معهم. فعلى سبيل المثال، فإن الباب الطويل الذى كتبه عن 22 أغسطس، 1805، يصف اجتماعًا مع زعماء مختلفين لقبيلة الشوشون، وكيف أطعمهم الفيلق وشرح لشقيق ساكاجوى «إنه لن تمضى سنوات كثيرة قبل أن يمكن الرجال البيض أمته من العيش فى أراضى تحت الجبال حيث يستطيعون زراعة القمح والقرع» (220). وعلى المرء أن يتساءل عن كيف تلقى الشوشون هذه الأنباء، التى لا يمكن أن تسرهم.

وانطلقت الرحلة فى طريقها، بمساعدة جياد الشوشون، عبر الفاصل القارى. وقد كتب لويس فى 29 أغسطس: «أخشى نوعًا ما من أن نزوات الهنود وتقلبهم قد يدفعهم فجأة إلى حجب الجياد عنا فبدونها ستتبدد آمالى فى إتمام الرحلة إلى نهايتها» (231). لكن ثبت أن هذه المخاوف لم يكن لها ما يبررها، واستمرت البعثة فى طريقها، أحيانًا على امتداد مجارى مائية وأنهار صغيرة، مثلما حدث عندما اتبعوا فى نهاية أغسطس نهر ليمى إلى نهر سالمون، الذى تحول إلى نهير شاهق ثم إلى جدول فى وادى ضيق منحدر هو وادى نورث فورك. وسار الفريق فى وادى بيترروت، حيث اكتشف ممرًا تستخدمه قبيلة نيزبيرس لعبور جبال روكى لتصل إلى السهول التى يكثر فيها الجاموس على الجانب الغربى. وطوال سبَتمبر، عبر الفريق برًا على ظهور الجياد، إلى ممر لولو. وظهرت مناظر تأخذ بالألباب، مثلما كتب كلارك (وهو عادة لا يتأثر بالمشاهد المثيرة) فى عصر يوم الأحد 15 سبتمبر: «أستطيع من هذا الجبل أن أشاهد الجبال الوعرة فى كل اتجاه بقدر ما أستطيع رؤيته» (259).

وأجهز عليهم ممر لولو تقريبًا، حيث سقط كثيرون من الفيلق مرضى «بالإسهال وثقل المعدة» كما يتذكر كلارك. ربما كان هذا ديزنتاريا (زحار)، ربما جاءت من طعامهم الغريب الذى كان يحتوى على قليل من طيور الطيهوج (نوع من الدجاج البرى) والقيوط (ذئاب) بل والغربان. وأثبتت قبيلة نيزبيرس ودها وصداقتها بأن أعطت المستكشفين العليلين سمك سلمون مجفف ودقيق مصنوع من جذور نبات الكماسية، لكن أيًا من ذلك لم يشفهم من متاعبهم المعوية. وفى حين أنه لم يمت أحد، استمرت مشاكل الهضم خلال جزء كبير من فصل الخريف. وفجأة أصبحت اليوميات كتالوجًا من العلل والأمراض، مثلما ورد فى 4 أكتوبر عندما كتب كلارك يقول: «حيث إننا أكلنا حصاننا فليس لدنيا ما نأكله سوى السمك المجفف والجذور وهو ما لايلائم صحتنا بدرجة كبيرة». ويضيف «لايزال الكابتن لويس مريضًا لكنه قادر على السير قليلًا» (242).

لم تكن قبلية نيزبرس قد شاهدت رجالًا بيض مطقًا من قبل، ومع ذلك كان يبدو أنهم سعدوا باللقاء. والمؤكد أنهم ساعدوا الفيلق كثيرًا، فقد عملوا كأدلاء ووفروا الطعام. ووصل الفريق أخيرًا إلى الأنهار التى سعوا وراءها: كليرووتر، وسنيك، وكولومبيا. وعندما ارتاح بالهم، صنعوا زوارق تحفر فى جذوع الأشجار من شجر الصنوبر ثقيل الخشب والصنوبر

الأصفر، تاركين جيادهم وراءهم (لرحلة العودة) فى رعاية قبيلة نيز بيرس التى كان من الواضح أنهم يثقون بها.

وقد كتب كلارك مطولاً عن قبيلة نيزبيرس، التى يصف رجالها بأنهم «رجال أقوياء، لديهم نساء مليحات. والنساء متأنقات بطريقتهن» (246). ويغطى الرجال أنفسهم بأثواب من جلد الجاموس الأبيض أو الظباء، فى حين أن النساء «يلبسن قمصانًا من جلد الماعز البرى أو الداجن تصل إلى مادون كاحلهن مع حزام، ولا يزيّن رؤوسهن، وقمصانهن مزينة بنحاس أصفر ملفوف. قطع صغيرة من النحاس الأصفر مقطعة فى أشكال مختلفة، وخرز وقواقع وعظام غريبة الشكل» (248). ويمضين كثيرًا من وقتهن فى جمع الطعام، وهو ما يعنى عادة صيد أسماك السلمون أو صيد الغزلان. ويقول «أنهن أقوياء بصورة مدهشة ويعرفن كثيرًا ويستفدن من ذلك». وهذا يعنى أنهم كانوا يجتمعون فى أكواخ للتعرق: وتلك ممارسة دينية هندية تعزز الصحة الجيدة.

وتحرك الفريق سريعًا فى زوارقه الجديدة المحفورة فى جذوع الأشجار، مندفعين فى مجرى النهر وقابلتهم قبائل مختلفة من الهنود، الذين عملوا كأدلاء مؤقتين لهم، وجاءت صداقة الهنود باعتبارها فرجًا رحبوا به. وقد سجل لويس باهتمام أحوالهم الصحية، وعاداتهم وملابسهم وممارساتهم الاجتماعية، بقدر ما استطاع أن يحكم عليهم فى ضوء معرفته الوجيزة بهم. وفى نوفمبر، كتب كلارك. «تلك هى الليلة الأولى التى تخلصنا فيها كلية من الهنود منذ وصولنا إلى نهر كولومبيا» (277). وتشى هذه الملاحظة بنغمة طفيفة من الارتياح، بما يوحى بأن الفريق بأسره لابد و أنه كان يشعر بإحساس من الخطر، حتى وإن كان غامضًا. كانوا يدركون أنهم لم يكونوا يبلغون هذا الحد مطلقًا بدون مساعدة استراتيجية من السكان المحليين. وبالطبع، فقد عاد الهنود فى اليوم التالى، آملين فى المتاجرة مع الرجال البيض.

وفى 7 نوفمبر سجل كلارك لحظة فاصلة بالنسبة للبعثة: «انتابت المعسكر فرحة غامرة عندما رأينا المحيط، هذا المحيط الهادئ العظيم». كان مشهدًا مذهلًا «تاقوا كثيرًا لرؤيته»(279). وقد احتفظ كلارك بدفتر مذكرات منفصل، سجل فيه الوقفات والمسيرات. وسمح فيه لنفسه بقدر أكبر من التعبيرية: «المحيط على مرمى البصر! آه! يا للسعادة».

وإذ وصل الفيلق إلى ساحل المحيط أخيرًا، فقد كان عليه أن يتخذ قرارًا بشأن المكان الذى يمضى فيه الشتاء. كان خريفًا باردًا ورطبًا، بما يوحى أن فصلًا قاسيًا قادم؛ ولما كان الفريق قد أمضى فصول شتاء سابقة فى الجبال. فلم يكن حريصًا على الاندفاع عائدًا للوطن عبر جبال روكى المغطاة بثلوج سميكة. وفى حركة كريمة (وذكية) اتخذ لويس قرارًا بالاقتراع. وسمح لساكاجوى، ويورك وهو رجل أسود، بالاشتراك فيه. وفى هذا تبدت فعلًا ومضة العالم الجديد: الحافز الديمقراطى الذى يوفر مخرجًا طيبًا.

وقررت المجموعة على نحو حكيم أن تمضى الشتاء فى الجانب الجنوبى من كولومبيا، قرب ما يعرف الآن باستوريا فى أوريجون. ولما كانوا يدركون المخاطر المحتملة للفصل الوشيك، فقد شرعوا فى بناء قلعة فورت كلاستوب، وحددوا لأنفسهم روتينًا يوميًا بحرص. (فللحفاظ على أى قدر من الأسماك واللحوم يمكن أن يجدوها، كلفت فرقة صغيرة باستخراج الملح من مياه المحيط على الشاطئ فى تيلاموك هيد). وإذ استقر الفريق، فإن اليوميات تعكس أساسًا اهتمامات لويس الذى دون ملاحظات مهمة عن البيئة المحلية المحيطة، و الحياة النباتية والحيوانية، والعادات الاجتماعية للسكان المحليين. وكرس، كلارك، الذى كان دومًا أكثر تحفظًا، جهده لجمع البيانات الجغرافية ورسم الخرائط.

ورغم أن الجو لم يكن قاسيًا، فقد كان غير مريح ويسير على وتيرة واحدة. وأصبح الملل مشكلة، وعا شر بعض الرجال هنديات محليات، وأصيب البعض بأمراض تناسلية، لكن لم يعانى أى شخص من أمراض تهدد الحياة – وذلك انتصار فى حد ذاته. وكان من العلاجات الشاملة من أى شيء يمرضهم، ما يوصف بأنه «حبات الدواء الأسكتلندية». كانت هذه مليّنًا من نوع ما، وكانت على ما يبدو تقضى على حشد من المتاعب. كما استخدمت أيضًا الممارسة القديمة الخاصة بحجامة الرجل الذى يقع مريضًا فى بغض الأحيان كما يسجل لويس فى 18 مارس، عندما كان الفريق قد بدأ توًا رحلة العودة.

كان مظهر معظم الهنود الذين التقاهم الفريق فى أوريجون يدعو للرثاء، بأسنان سيئة وعلل فى الجلد. وثبت أن إمدادات الغذاء غير الكافية تمثل مشكلة لهؤلاء السكان المحليين، الذين كانوا يعيشون على السمك المجفف أغلب فصل الشتاء. وفى حين أنهم لم يكونوا يبالون بالنظافة بقدر الهنود الذين تم الالتقاء بهم فى مراحل سابقة من الرحلة، فقد

كانوا مسالمين بطبيعتهم، رغم أنهم كانوا ميالين للقيام بسرقات صغيرة. وكان تقلب الهنود يضايق لويس الذى كتب فى 2 ابريل: «اشتريت زورقًا محفورًا فى جذع شجرة من هندى اليوم وأعطيته كمية كبيرة من عقود الخرز المصنوع من الأصداف، وبدا راضيًا بالصفقة ورحل فى زورق آخر لكنه عاد بعد فترة قصيرة وألغى الصفقة، وأخذ زورقه وأعاد الخرز. وهذا هو الوضع الذى يتكرر كثيرًا فى أسلوبهم فى التجارة والذى يرونه عادلًا بالنسبة لهم» (338). وكما هو الحال دومًا، بقى لويس رابط الجأش هادئًا فى هذه المواقف وقبل عادات الهنود كأمر مسلم به، مهما كانت مثيرة للحنق.

وإذ استقر الفريق بجوار المحيط، فقد كان يأمل فى إجراء اتصال مع المراكب التى تؤجر، إذ كانت قلة من الرجال تريد العودة لديارها عن طريق كيب هورن بدلًا من المخاطرة فى رحلة أخرى فى البرارى. لكن لم تظهر أى سفن، ومن ثم كان على جميع أفراد المجموعة أن يعودوا إلى سانت لويس بنفس الطريقه التى جاءوا بها. لا حاجة للقول بأنها كانت رحلة مرهقة. لكن على الأقل كانت الخبرة قد توافرت لهم حينذاك، وستفيدهم الخرائط التى رسمها كلارك للرحلة غربًا جيدًا وهم يتلمسون خطاهم. وكما هو متوقع، فقد وجدوا أن قبيلة نزى بيرسى ترعى جيادهم بأناة وصبر. وانتظروا فى قرى الهنود حتى تذوب ثلوج الربيع، لأنهم خمنوا (صوابًا) أن عبور الممر عبر روكى سيكون صعبًا حتى شهر يونيو.

وانطلقوا فى طريقهم أخيرًا عائدين فى حوض نهر ميسورى، حيث انقسموا إلى زمرتين عند ممر لولو: وهى خطوة قصد بها زيادة معلوماتهم الجغرافية. فربما يكون أحد الطريقين مفضلًا بالنسبة للمسافرين فى المستقبل، وكان هؤلاء المستكشفون المحترفون تمامًا يرغبون فى أداء مهمتهم على أتم ما يمكن. سار لويس ومجموعته الأصغر فى الشعبة الشمالية، فى حين مضى كلارك وفرقته الأكبر (بما فيها ساكاجوى) إلى الجنوب، على امتداد نهر يلوستون.

وقد اتفق أن لويس واجه متاعب أكبر فى الطريق، إذ كان عليه أن يقاتل عصبة من هنود بلاك فيت الذين حاولوا سرقة بنادقهم وجيادهم. وفى حادث آخر. أصيب لويس نفسه بطلق نارى فى ظهره أطلقه أحد رجاله أثناء الصيد. واستغرق شفاء الجرح تمامًا أسابيع، ومنع ذلك لويس من كتابة يومياته وهو على النقالة حيث كان يجلس متألمًا. وكما هو مخطط فقد

اجتمعت المجموعتان ثانية فيما يعرف حاليًا بنورث داكوتا، حيث تلتقى الأنهر. وعادوا دون وقوع حوادث إلى قرى الماندان، حيث انفصل شاربونو وساكاجوى وابنيهما - وكان هو المدلل لدى الفريق - عن البعثة.

وأقنع لويس وكلارك زعيمًا هنديًا يدعى شيشك (أو «الأبيض الكبير») بالعودة معهم إلى واشنطن، للقاء الرئيس جيفرسون. كما أخذا معهما زوجة شيشك وأسرته. وفى غالبها، تظل اليوميات نوعًا من تقرير الواقع حتى النهاية، لاتعكس كثيرًا الفرح الذى لابد أنه سرى فى الفيلق، الذى لابد وأنه كان يتساءل عما إذا كان سيعود أبدًا إلى الحضارة. وفى 16 سبتمبر، كتب كلارك: «بدا اليوم حارًا بصورة مفرطة وكريهًا» (474). وبعد ذلك ببضعة أيام كتب عن التهاب فى العيون انتشر بين الرجال: «عجز ثلاثة من الفريق عن التجديف من جراء إصابة أعينهم» (476).

وكتب فى 23 سبتمبر أن الفريق «نزل إلى المسيسيبى وسار فى اتجاه مجرى ذلك النهر إلى سانت لويس التى وصلنا إليها فى الساعة 12. وأمرنا الرجال بأن يطلقوا بنادقهم تحية للبلدة. واستقبلنا كل من كانوا فى القرية ولقينا ترحيبًا قلبيًا من سكانها، إلخ.» ويبرز الباب قبل الأخير بدون حماس أنه «فى المساء كان هناك حفل عشاء ورقص». وكان هناك فى الحقيقة ابتهاج كبير فى سانت لويس. لأن كثيرين كانوا قد ظنوا أن الفيلق قد هلك فى البرارى بلاريب. وانتشرت الإثارة حول إتمام البعثة لمهتمها فى كل أرجاء الولايات المتحدة، وأصبحت الرحلة مادة خصبة للأساطير بصورة فورية تقريبًا. وقد أذكت اليوميات فى أشكالها المختلفة الأسطورة.

4

ما الذى تعنيه هذه الرحلة، وتجسيدها اللاحق فى اليوميات بالنسبة للأمريكيين؟ إن الإجابة الواضحة هى أن البعثة كانت استعراضًا للقوة، بداية الجهد الإمبراطورى الأمريكى فى العالم. فمع إتمام شراء لوزيانا. كان الأمر لايزال يتطلب قدرًا جيدًا من الدبلوماسية لتغيير الظروف على أرض الواقع. وقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا لكى يقبل التجار الفرنسيون والأسبان فى هذه الأراضى السيادة الأمريكية. وعملت البعثة، واليوميات كشهادة إثبات، على دعم الاستحقاقات الأمريكية فى المنطقة، وتعزيز المصالح (إن لم يكن الاستحقاقات) الأمريكية فى الشمال الغربى نفسه. ولو كانت هناك أى شكوك تراود أى شخص فى هذا حينذاك، فها هى القارة مفتوحة على مصراعيها أمام الولايات المتحدة، ولها أن تحتل الأرض كما تراه مناسبًا.

كان البعد التجارى مهمًا، إن لم يكن محوريًا بالنسبة للبعثة. فتجارة الفراء كانت موضع اهتمام كبير زمنًا طويلًا. وكان يمكن جمع الأموال من عدة جبهات، ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا، كان لابد وأن يتم استكشاف مستمر وتنمية مختلف المصالح والاهتمامات، التجارية بالغرب. وعلى مستوى آخر، جاء لويس وكلارك فى بداية مرحلة تعطش شديد للتوسع غربًا على نحو لم يهدأ مطلقًا.وقد شاهد الأمريكيون فى القرن التاسع عشر هذه الدراما وهى تتكشف ببطء : الاحتلال التدريجى لهذه المساحة الشاسعة غرب المسيسيبى. وقد لعبت إقامة سكة حديدية عبر القارة دورًا فى ذلك أيضًا، فى الربط بين الساحلين (فقد اتصلت خطوط سكة حديد يونيون باسفيك بخطوط سكة حديد سنترال باسفيك فى 10 مايو 1889 - فى لحظة رمزية). وفى النهاية، بدا استيطان القارة بأ سرها أمرًا محتمًا، جزءًا مما سمى قدرنا الجلى (وهو تعبير أصبح مسموعًا بعد 1845، عندما صكه جون أو سوليفان، وهو صحفى وسياسى من نيويورك.

ولسوء الحظ، فإن العلاقات السلمية التى أقامها لويس وكلارك مع الهنود، لم تصبح هى القاعدة للعلاقات فى المستقبل، حيث تم طرد كثير من القبائل من أراضيها إلى محميات، أو تمت إبادتها أحيانًا. ومع ذلك، فقد أرست اليوميات مثلاً أمام الرأى العام من القراء. فقد ركز لويس وكلارك بصورة مكثفة على عادات الهنود وكان لهذا تأثير حقيقى على الكثيرين. ولم يزد الاهتمام بتاريخ الأمريكيين الأصليين إلا فى السنوات الأخيرة، ويبرز لويس وكلارك كرائدين فى هذا الميدان. فقد كانت لمذكراتهما الأنثروبولوجية عن عادات مختلف القبائل من أهل قرى الماندان إلى هنود جبال روكى وساحل المحيط الهادئ، قيمة تتجاوز أى حسابات.

ويمكن قول الشىء نفسه عن الخرائط التى رسمها كلارك، والتى ثبت أن لها قيمة لاتقدر للمستكشفين اللاحقين. والحقيقة هى أن لويس وكلارك قدما خدمة جليلة فى ارتياد مسار حقيقى لأعلى المسيسيبى وروافده. وفى حين أن قياساتهما لخطوط الطول والارتفاع كانت خاطئة، فإن مذكراتهما عن الطقس ساعدت المستكشفين اللاحقين فى استعداداتهم. أن رحلتهما الرائدة عبر جبال روكى ونزولا لممر لولو قد أكدت بصورة جازمة أنه لا يوجد أى منفذ نهرى سهل، مما حطم، أحلام أجيال. لكنهما سبرا أغوار منطقة جمالها أخاذ ومواردها الطبيعية وفيرة.

وفى تراث الكتابة عن الطبيعة، يحتل لويس وكلارك منزلة عالية كممارسين. ذلك أن مشاهداتهما المدققة عن المشهد الطبيعى الغربى، وحياته النباتية والحيوانية لاتزال توقع الرهبة فى القلوب. فقد قدما أول وصف لعديد من المخلوقات البرية، مثلما فعلا فى وصفهما للدببة الرمادية. وكلاب البرارى، والأيائل، والماعز الجبلى - وللأسف الناموس. إن هذه اللحظات من اليوميات تذهل القراء وترسى أسلوبًا لكتابة التقارير عن عالم الطبيعة، استمر لدى كتاب مثل بارى لوبيز، وجريتل ارليتسن.

وكما سلف القول، فإن الأجيال المتعاقبة من الأمريكيين استخدموا هذه اليوميات بطرق مختلفة، ونظروا للعمل عادة نظرة خاصة. لكن اليوميات تقدم نوعًا من الخبرة الوطيدة للقراء

الأمريكيين : ها هو الغرب ينفتح أمامنا، بكل ثرائه وتنوعه. هنا الإمكانيات نفسها. لقد كتب ملتون فى نهاية مؤلفه الجنة المفقودة، وهو يصف نزول آدم وحواء للبرية ليعيشا مستقبلهما قائلًا: «لقد كان العالم كله أما مهما». ويصدق هذا على لويس وكلارك أيضًا. ذلك أن رحلتهما، كما تجسدت، فى كتابتهما، تبقى رحلة أسطورية، جزءًا من المشهد الطبيعى الذى يتخيله كل أمريكى تحول لاينتهى أمامنا، حلم بالأرض الموعودة وفى الوقت نفسه قصة عما تعنيه مواجهة «الآخر»، أولئك الذين يقبعون وراء نطاق القوة الأمريكية والعادات الأمريكية، والذين قد يرغبون فى مقاومة جهودنا من أجل التملك.



WALDEN.

By HENRY D. THOREAU.

AUTHOR OF "A WEEK ON THE CONCORD AND MERRIMACK RIVERS."



I do not propose to write an ode to dejection, but to brag as lustily as chanticleer in the morning, standing on his roost, if only to wake my neighbors up. — Page 92.

BOSTON:

TICKNOR AND FIELDS.

M DCCC LXII.



5

والـدن

1

يجسد هنرى ديفيد ثورو الاستقلال الأمريكى. فقد انتقل من قرية كونكورد إلى الغابات القريبة من بركة والدن بوند فى 4 يوليو 1845، معلنًا تحرره الذاتى من عالم الاستحواذ المادى، والحرب، والعبودية، وكذلك التفاهات العادية والكسل الروحى. فقد سلبت الطبيعة لُبه. والواقع أنه وجد فى الطبيعة، كما لاحظ أحد زوار والدن بوند (ي. ب. ويبل) ما وجده آخرون فى الدين. كان يبحث، مثله مثل الإغريق الذين يحبهم، بين أشجار الصنوبر وبجوار الماء، عن رؤية حقيقية وسليمة للأشياء فى هذا العالم. ومثلما لاحظ مؤلف سيرته روبرت د. ريتشاردسون: «فلم يكن مهتمًا بدين ما وكان يجاهد لإعتاق الإنسان من هذا العالم، أو لرفعه فوقه، كان يسعى وراء صفاء العقل، وليس نشوة الجزلان، وراء المعرفة وليس المنّة.

وكان كتاب والدن عملًا بارزًا، واحتل مكانة فريدة فى الأدب الأمريكى باعتباره عملًا عن الروحانية، مغامرة للسيرة الذاتية، ووصفًا للطبيعة وباعتباره تقريرًا عن محاولة رجل بمفرده أن يعيش ببساطة فى الغابات، فقد ألهم أجيالًا من الشبان للنجاة بأنفسهم، للانفصال عن القطيع، للاصغاء بدلًا من الكلام، للقراءة، وتدوين الملاحظات، والسير وفق قرع ضارب طبل مختلف. وهؤلاء عادة هم شيالو الحمول على ظهورهم الذين يشقون طريقهم إلى البرية «ليواجهوا فقط حقائق الحياة الجوهرية»، كما طرح ثورو الأمر على نحو جميل. كان يتحدث عن كل الملتمسين للنجاة عندما يكتب: «هناك مساحة كافية على نحو مشاع لنا

جميعًا» (175). والأمر لا يتعلق إلا بالعثور على هذه المساحة وهى مساحة حرفية ومجازية على حد سواء. «والغابة الكثيفة ليست مجرد مكان قرب بابنا، ولابركة، أنها على الدوام مساحة صافية ومألوفة دومًا على نحو ما، ونحن نتلبسها ونمتلكها ونسوّرها بطريقة ما، ونستردها من الطبيعة».

لم يكن ثورو سائلًا بقدر ما كان مجيبًا، تأمل قوله «لقد أضأت العالم كله لنفسى». كان ذلك عالم الطبيعة، لكنه كان أيضًا عالم الكلمات المتصلة بالأشياء الطبيعية، وباللغة التى تعكس الطبيعة، وتسكن فيها وتجعلها بادية للعيان. وفى عثوره على هذا المكان المذهل، أصبح ثورو نبيًا حقيقيًا، يدعو إلى بصيرة من النقاء والرحمة. ومثلما ورد فى كتابه الأول، أسبوع على نهرى كونكورد وميرماك (1849)، فإن «الحقيقة الأشد بهاء فى تجربتى لا تتمثل فى أى شىء قمت به أو كنت آمل فى القيام به، لكن فى التفكير العابر، أو الرؤية، أو الحلم». لكنه يتبع هذه الرغبة فى الرؤية هيابًا متواضعًا. «إننى سأتخلى عن كل ثروة العالم، وكل أعمال الأبطال جميعًا من أجل رؤية صادقة واحدة. لكن كيف يمكننى أن أتصل بالأرباب وأنا لست سوى صانع أقلام رصاص، ولا أكون مخبولًا؟».

وقد استطاع ثورو بطريقة ما أن يتصل بالأرباب، ولكنه اتصل بالقراء أيضًا. ويوجد سجل حديثه المهيب هذا فى كتابه والدن، وهو ينبوع خالد من الشباب اللغوى، لن يفقد عذوبته مطلقًا ولايزال حاليًا مهمًا مثلما كان فى يوم نشره.

2

كان ثورو (1817 – 1862) بالفعل صانع أقلام رصاص. كانت هذه مهنة أبيه، وهى التى أعالته طوال حياته على الرغم من أنه لم يكن يعمل إلاّلفترات متقطعة فى شركة مملوكة للأسرة، مفضلًا أن يقرأ ويكتب وأن يتجول فى الغابات. لقد ولد وترعرع فى كونكورد، وهى حاليًا ضاحية من بوسطن ولكن فى أيام ثورو كانت الرحلة طويلة من المدينة وتستلزم استخدام حافلة أو (مؤخرًا) قطار. درس فى هارفرد وتخرج منها فى 1837. وعاد إلى كونكورد فى خريف 1837 (جرى التخرج فى اليوم الأخير من أغسطس، حيث كانت هذه فى العادة فى تلك الأيام). وتولى منصب مدرس فى مدرسة القرية. وعاش مع أبويه فى بيت يسمى بيت باركان كان يواجه الشارع الرئيسى فى الموقع الذى تقوم فيه حاليًا المكتبة العامة. كان ذلك هو وقت احتدام الأزمة فى الولايات المتحدة، حيث كانت البلاد قد وقعت فى كساد خطير (دام حتى أربعينيات القرن التاسع عشر)، لذا كان على ثورو أن يشعر أنه محظوظ للحصول على أى وظيفة على الإطلاق وأنه سعيد الطالع لأن أبيه ازدهر كصانع للأقلام الرصاص.

وسرعان مافشل ثورو كمدرس، حيث رفض أن يضرب يوميًا التلاميذ الذين يحصلون على درجات ضعيفة فى دراساتهم. واستدعى عضو فى مجلس إدارة المؤسسة فى كونكورد المدرس الشاب ليوبخه على هذا العزوف، وأخبره أنه ينبغى أن يضرب الأولاد أو يرحل. وأطاع الشاب الأمر. واندفع كالعاصفة إلى الفصل، واختار ستة صبيان عشوائيًا، وضربهم بعنف. ثم استقال. وإذ هزته التجربة كما هو واضح، فقد عقد العزم على تجنب مثل هذه المواقف المذلة فى مقبل السنين. والواقع أنه نذر نفسه لحياة مستقلة، مسلمًا نفسه لحسن نية ورضا الأصدقاء والأسرة، التى لم تحرمه مطلقًا من المأكل و المأوى. لم يعش أبدًا على كَده بقدر ما عاش على كدّ أبيه وأقلامه.

وعاش بضع سنين مع رالف والدو إيمرسون وأسرته، الذين كانوا جيرانًا له فى كونكورد. كان إيمرسون قد انتقل إلى كونكورد من بوسطن فى 1834، عندما كان فى الحادية والثلاثين فحسب، وكان ثورو فى السابعة عشرة فحسب. وكانت تجربة حياة كبيرة تكمن وراء إيمرسون فى هذه المرحلة: فقد اختبر الوفاة المأساوية لزوجته الأولى، ايلين، واستقال من عمله كواعظ فى كنيسة فى بوسطن لينتهج حياة الكتابة وإلقاء المحاضرات. وباعتباره الفيلسوف وكاتب المقالات الكبير الأول فى أمريكا، أصبح «المساعد والملهم لمن يعيشون فى الروح»، كما قال عنه ماثيو ارنولد. وبحلول الوقت الذى وفد فيه إيمرسون إلى كونكورد، كان قد ترك بصمته بالفعل على ويليام وردزوورث وكارلين اللذين التقاهما فى رحلة كان قد قام بها لبريطانيا فى 1833. و فى 1836، نشر كتابه الذى كان بمثابة لقاح لأعمال أخرى، والذى لايزال أكثر الأعمال تأثيرًا التى كتبت فى أى وقت فى الولايات المتحدة: وهو الطبيعة. وأصبح هذا المقال المطول - وهو عمل تأسيسى لكل الذين يعتبرون أنفسهم من دعاة ما يسمى مذهب التسامى - إنجيلًا كبير القيمة للشاب ثورو ، وأثر على فلسفته عن الطبيعة. وتنتشر لغته وفكره تحت صفحات كتاب والدن كأساس عميق وراسخ.

إن والدن نص رئيسى بالنسبة لكتاب طبيعة الأمريكيين، كتاب يحدد وسائلهم ونهجهم. كما أنه يمثل لحظة فارقة فى كتابة السيرة الذاتية الأمريكية، نوع محلى اخترعه بنيامين فرانكلين. كان ثورو مطلعًا على كتاب فرانكلين جيدًا، وقدم محاكاة تثير الضحك لهذا العمل الكلاسيكى فى بعض أجزائه، بادئًا كتابه بفصل أسماه «الاقتصاد» وهو ملئ بتقارير تثير السخرية وموسومة عما كلفته الحياة فى البرارى. (لاحظ أن كتاب إيمرسون عن الطبيعة يتضمن أيضًا فصلًا مبكرًا عن «السلع»، ثم يتحرك مثل والدن نحو موضوعات أكثر سموًا أو روحانية.) وكما لو كان يغيظ فرانكلين، يسخر ثورو من أنه لم يكن لديه رأس مال كاف من أجل هذا المشروع فى والدن ويعترف أنه التزم بعادات صارمة للعمل عندما كان يعيش عند البركة. ويقدم هذا الفصل التمهيدى المطول نقدًا أريبًا لفرانكلين، بإنجيله الذى يبشر بالعمل باجتهاد، وحاجته الملحة لأن يرسخ مكانته فى نظر العامة باعتباره رجل المواهب

كلها، بعقلية المحاسب التى تمتع بها. وحيثما كان فرانكلين يحصل على الأشياء كان ثورو يهدرها، ناعيًا الذين لا يمكن أن يخرجوا من إسار نيرهم الموروث المتعلق بالملكية والوضع فى المجتمع.

يقول ثورو «أرى شبانًا، أبناء بلدتى، شاء سوء حظهم أن يرثوا مزارع ومنازل ومخازن حبوب وقطعان وأدوات زراعة، إن الحصول على هذه الأشياء أيسر من التخلص منها» (74). ويذكرنا بأن «الناس يعملون فى ظل افتراض خاطئ»، معتقدين أنهم سيخلدون للأبد، وأن الحياة دائمة. وقد كتب ثورو يقول: «وسرعان ما يتم طمر الجزء الأفضل من الإنسان فى التربة لكى يصبح سمادًا»، وجاء قوله هذا مقتصدًا فى عواطفه على نحو يأخذ بالألباب. إن معظم الناس يعيشون حياة «ملؤها اليأس» والحقيقة الضارية هى أنه «حتى فى هذا البلد الحر نسبيًا»، فإن هؤلاء الناس المنحوسين «مشغولون لمجرد جهلهم وخطأهم بالهموم المصطنعة وأعمال الحياة الفجة التى لن يستطيعوا جمع ثمارها الأكثر رفعة» (48).

إن الدعوة إلى التحرر دعوة دائمة فى والدن. وفى هذا فإن عمل والدن يجد له مثيلًا له فى مذكرات العبيد التى كانت قد حققت الشعبية بصورة مفاجئة فى تلك الأيام المحمومة التى سبقت الحرب الأهلية عندما أصبح إلغاء العبودية هاجسًا حماسيًا وعاطفيًا لدى المثقفين من أبناء الشمال، بمن فيهم إيمرسون وهوراس جريلى، وكان الأخير وهو رئيس تحرير شهير فى نيويورك، من أصدقاء ثورو ورعاته. وفى نفس الصيف الذى انتقل فيه ثورو إلى والدن بوند، نشر فريدريك دوجلاس الطبعة الأولى من سيرته الذاتية، حكاية حياة فريدرك دوجلاس، عبد أمريكى، كما حررها بنفسه. وكان هذا عملاً لقح أعمالًا كثيرة بعده، وربما كان أهم كتاب ينشره أمريكى أفريقى فى القرن التاسع عشر، وجذب اهتمام الشمال، راويًا قصة تحرر رجل أسود، عبد، هرب من الجنوب، وأصبح رجلًا حرًا. والرسالة الضمنية لهذا العمل الذى يفرض نفسه هو أن الرجل الأسود ينبغى اعتباره ندًا للرجل الأبيض. - فكريًا وروحيًا. إن فكرة المساواة بين البشر نفسها تقوض مبرر العبودية، وقد وجه دوجلاس ضربة قاصمة لمن

كانوا يريدون تخليد هذه المؤسسة الوحشية. وقد تأثر ثورو بهذا العمل، كما يمكن للمرء أن يتبينه من المقال الذى كتبه فى صحيفة اسمها المحرر حيث اسمى دوجلاس «عبدًا آبقًا بإحساس أكثر مما لدينا، أثبت امتلاكه لذكاء جلى، واكتسب شهرة لاتعرف الألوان فى هذه الأنحاء، والذى نثق فى أنه أسمى من التهوين من شأنه النابع من مجرد التعاطف مع الحرية، وكذلك من مجرد كراهية العبودية».

وتكمن فى هذه الكلمات فكرة أن الحرية نفسها – مثلما اختبرها البيض رجالًا ونساء فى الشمال – لاتضمن التحرر بالضرورة. بيد أن أغلال الحياة الحضارية فى الشمال كانت أغلالًا حقيقية بادية للعيان بأجلى معانيها. وقد اختبر ثورو حياة الرجل الأبيض من الطبقة المتوسطة فى ماسا شوستس كنوع من العبودية للأعراف والتوقعات. ومن ثم فقد اعتبر نفسه بذهابه إلى والدن بوند، محررًا لنفسه. كان يسعى للاستقلال الذاتى ويريد أن يكتشف لنفسه ما الذى يكمن وراء التكديس السطحى للخيرات الدنيوية والمكانة الاجتماعية. ويبدو من الفظاظة إجراء مقارنة بين التحرير الذى دعا إليه ثورو والنوع الذى حققه دوجلاس، حيث إن حياة العبد كانت أكثر إيلامًا بما لايقاس ومحدودة فى كل النواحى بدرجة أكبر من حياة الرجل الأبيض عن الطبقة الوسطى. وإذا نظرنا لثورو من زاوية معينة، فإنه قد يبدو مثل طفل أفسده التدليل، شخص توافرت له كل الفرص فى الحياة ومع ذلك ظل يشكو من وضعه. ولكن من الزاوية الأوسع، فقد كان على صواب. فالمرء يمكن أن «تستعبده» القيم والظروف الاجتماعية ويمكن للمرء أن يفقد الإحساس بالحياة الداخلية ويفقد الإحساس بعالم الطبيعة، والذى يوجد فى كل مكان حولنا لكنه غير مرئى وغير مكتشف.

كان ثورو داعية ضاريا لإلغاء العبودية وكتب دفاعًا متقد الحماسة عن جون براون المتمرد الشهير على العبودية، الذى كان هجومه على هابرز بيرى فى 1859 حدثًا محوريًا فى الشهور التى أفضت إلى الحرب الأهلية. كان تأييده لجهود براون العنيفة لتحرير العبيد يتعارض مع احترامه الشخصى للعصيان المدنى، الذى دعا إليه بقوة فى مقال له عن

الموضوع. قال إيمرسون ذات مرة: «إن الثبات الأبله على المبدأ هو بعبع العقول الصغيرة». والمؤكد أن ثورو لم يكن على مثل هذا الثبات على المبدأ بشأن استخدام العنف. ومع ذلك، فقد كان مقاله الأشد تأثيرًا هو «العصيان المدنى»، والذى كان تأثيره قليلًا فى وقت نشره وجرى تجاهله لحد كبير. بيد أنه تبناه فيما بعد الفابيون الاشتراكيون والبرلمانيون التقدميون فى لندن ثم اعتنقه المهاتما غاندى، الذى وجد فى فكرة ثورو وسيلة للمضى قدمًا للأمام فى جنوب أفريقيا وفى الهند، حيث أثبتت المقاومة غير العنيفة فاعلية هائلة ضد المستعمرين البريطانيين. وكان مارتن لوثر كنج كثيرًا ما يشير إلى هذا المقال فى أوج حركة الحقوق المدينة، وأصبح هو المتن المحورى لمن قاوموا حرب فيتنام فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضى. ومع ذلك، فإن ثورو هو أكثر من مجرد نصير سبّاق للمقاومة السلمية لأشكال السلطة الجائرة. وهو يقدم للقراء فى كتاب والدن برنامجًا لتحرير النفس وقراءة للطبيعة باعتبارها رمزًا للروح - مثلما قال إيمرسون.

ورغم مزايا هذا المتن الرئيسى، فقد كان غير معروف نسبيًا فى زمانه، واستغرق الأمر خمس سنوات لتوزيع طبعة متواضعة منه قوامها ألفى نسخة. وقد نشر ثورو كتابه الأول، أسبوع على نهرى كونكورد وميرماك بعد سنتين من ترك البركة. وجذب استعراضات له على صفحات الصحف ومبيعات قليلة، ومن ثم انخفضت معنويات ثورو. والمؤكد أنه لم يتعجل فى نشر والدن. ذلك أنه بعد أن كتب المسودة الأولى عندما كان عند البركة (من يوليو 1845 إلى سبتمبر 1847)، انكب على المخطوطة عدة سنوات يصقلها، ويضيف لها مواد من يومياته الغزيرة، صائغًا العمل ليحدث أقصى تأثير بلاغى. إن الدورة الطبيعية للسنة، بفصولها المتعاقبة، تمثل غطا للسرد، ومن ثم فإن حقيقة أن ثورو عاش عند البركة أكثر من عامين قد حذفت لحد كبير، رغم أن ثورو لم يذكر قدر الوقت الذى أمضاه فى والدن فى البداية. إن المؤلف هو بطل عمله، وتقلباته الروحية تتبع طبع الفصول المتقلب. ويحذو الكتاب حذو إيقاع استيقاظ الكاتب، وانبعاثه الروحى وانتعاشه. إن والدن يتيح للقراء جميعًا إمكانية لتحرير أنفسهم بأنفسهم. وهو ككل، يبقى عملًا ثوريًا.

عاش ثورو مع اميرسون وعائلته فى 1841 و1842، وارتبط بإيمرسون كصديق حميم ومعلم له طوال حياته (والواقع أن إيمرسون تحدث بطلاقة فى جنازة ثورو). وقد أصبح، مع إيمرسون، شخصية أساسية فى حركة التسامى. ويشير هذا التعبير إلى مجموعة من مثقفى نيو إنجلند، الذين قدموا صيغة أمريكية لفلسفة مثالية كانت قد تجذرت فى المانيا فى القرن الثامن عشر وهاجرت إلى إنجلترا فى السنوات الأولى من القرن العشرين. وضمت هذه الرابطة الفضفاضة علاوة على إيمرسون وثورو، كتابًا مثل فريدريك هنرى هيدج، وبرونسون الكوت، وجورج ريبلى، واليزابث بيبودى، واوريستس براونسون، وماجريت فولر، وكونفرز فرانسيس، وجون فيرى. وفى الجوهر، كانت هذه المجموعة تؤمن بالحقائق الروحية للأشكال الطبيعية - فكرة أن الطبيعة تجسد الروح. كانوا مفكرين انتقائيين، يستمدون الأفكار من أفلاطون وإيمانويل كانط، ومن ف. و. ج شيلنج وحشد عريض من الفلاسفة والشعراء الآخرين. وتحدث أحد الكتاب فى صحيفة ديال التى كانت ترتبط بهذه الحركة بصورة حميمة، عن فلسفة التسامى باعتبارها «الاعتراف بقدرة الإنسان على معرفة الحقيقة بالحدس». وركزت هذه المجموعة بشكل أكثر حيوية على التداعيات الأخلاقية لفلسفتها، وبعدت عن التقصى الفلسفى التقنى. وفى هذا، كانوا مثالًا مسبقًا لوليام جيمس والبراجماتيين الأمريكيين، الذين أسهبوا فى التداعيات العملية والأخلاقية لأعمالهم.

وقد أسس إيمرسون ما أسماه، هارولد بلوم «الدين الأمريكى»، وكتاب **الطبيعة** هو النص الأول لهذا الدين. إنه عمل يتسم بحدة ذهن وتأثير شاسعين. والمؤكد أن كتاب والدن لم يكن ليكتب بدونه مطلقًا. كذلك لم يكن ثورو فيلسوفًا تجريديًا، ولا مفكرًا أصيلًا. وبدلًا من ذلك، سعى وراء ما أسماه إيمرسون «العلاقة الأصلية مع الكون». وقد بين له إيمرسون كيف يفعل هذا - ليس فى الكنيسة، ولكن فى كنيسة الغابات، وحده. وكان هذا أمرًا ثوريًا فى حد ذاتة. عملًا لايحوم فوق نصوص مقدسة، وإنما يرحل إلى عالم الطبيعة ببساطة للاتصال

بالروح القدس. (كان ذلك هو أيضًا أسلوب دعاة الفلسفة الرواقية(*)، الذين رفضوا أعراف المجتمع والمعتقدات الدينية).

وفى كتاب الطبيعة، يكتب إيمرسون أن اكتساب الإحساس بما يسميه «الانسجام»، أى أن تكون للمرء رؤية داخلية للطبيعة «متكيفة» مع أحاسيس المرء الخارجية: «إذا شئنا الصدق، فإن قلة من الراشدين هم الذين يستطيعون رؤية الطبيعة. فمعظم الناس لايرون الشمس. على الأقل إنهم يرونها بصورة سطحية. إن الشمس لاتضئ سوى عينى الرجل، لكنها تشرق فى عينى الطفل وفؤاده. إن عاشق الطبيعة هو الذى لايزال إحساسه الداخلى والخارجى متكيفين حقًا مع بعضهما البعض؛ الذى يحتفظ بروح الطفولة حتى فى عهد الرجولة ويصبح اتصاله بالسماء والأرض غذاءه اليومى».

والأمر الأشد أهمية هو أن إيمرسون بشرَّ بأن عقل الإنسان هو نفسه فى كل الأوقات، وفى كل الأماكن، رغم الفروق المحلية والمنعطفات الثقافية. إن هوميروس وشكسبير لن يفقدا مطلقًا لزومهما، ولايمكن للمرء القول بأن تعاليم بوذا أقل أهمية ومعنى من تعاليم المسيح. إن كل العصور متساوية. وبالطبع، فإن هذا يعلى شأن الفرد بطرق مثيرة للاهتمام، مبينًا أن لأفكار المرء الخاصة قيمة تعادل قيمة أفكار أفلاطون وأرسطو، والاكوينى وكانط. إن المرء يستطيع أن يبحث فى قلبه هو عن كل المعلومات التى يحيا بها ليشكل صورة حقيقية وقيمة للعالم. ولايحتاج المرء للمكتبات والجامعات الكبيرة فى أوروبا لينهض بتفكيره، وليقف على قدم المساواة مع الشخصيات الثقافية البارزة فى التاريخ. وقد أذهل الطابع الراديكالى لهذا الفكر ثورو، مثلما أذهل أجيالًا من القراء الأمريكيين، باعتباره محررًا لهما. (وجدير بالذكر أن اميرسون وضع كتاب «الاعتماد على النفس» أيضًا : وهو بيان للفلسفة الفردانية الأمريكية التى تعلى مصلحة الفرد على كل شىء).

---

*- وضعها زينون حوالى 300 ق.م. وتقول أن الحكيم هو من تحرر من الانفعال وخضع لحكم الضرورة عن رضى - المترجم.

والقسم فى كتاب الطبيعة المسمى «اللغة» له أهمية ولزوم خاصين بالنسبة للكتاب، ولثورو بصفة خاصة. فقد قدم إيمرسون فيه نظرية مفيدة عن اللغة تقوم على ثلاثة مبادئ.

الكلمات إشارات لحقائق الطبيعة.

الحقائق الطبيعية المحددة هى رموز لحقائق روحية محددة.

الطبيعة هى رمز الروح.

وفى الوصية الأولى يتلاعب إيمرسون بفكرة أن الكلمات مطمور فيها محتوى تصويرى وأن اللغة تتطور فى اتجاه التجريد. ومثلما يبرز، فإن كلمتى «صواب» وخطأ معناهما الجذرى يعنيان «مستقيم» و «ملتوى»، وهما تخلوان كلية من المعنى الضمنى الأخلاقى. ومع ذلك فإن هاتين الكلمتين المحددتين قد تطورتا إلى أرفع تجريداتنا (وأكثرها احتمالًا للأوجه). وبالمثل، فإن كلمة «الخطيئة» «عبور الخط». وتعنى كلمة «متشامخ» «رفع الحاجب». وما إلى ذلك. ولمعظم الكلمات على حد سواء معنى مجرد، ومعانى نضرة، محددة، تصويرية تكمن فى جوهرها اللغوى (وحتى كلمة تجريد نفسها تتضمن صورة تعكس عبارة مؤداها الابتعاد عن الاحتكار بالواقع = الشد والجذب بعيدًا. ومن هنا، فإن التجريد يشد بعيدًا عن الصورة العينية الأصلية و «شد» الوقت – فى تطور الكلمة – يجعلها فضفاضة ويبعدها عن معناها الأصلى حيث إنه يكبت الاستعارة).

وتركز الوصيتان الثانية والثالثة لإيمرسون على أن الطبيعة والروح تعملان فى علاقة مستترة نوعًا ما. وهنا طور إيمرسون فكرة الانسجام – وهى نظرية مأخوذة من الصوفى السويدى الذى عاش فى القرن السابع عشر، إيما نويل سويد بتورج– وهى أننا نعيش فى عالمين فى الوقت نفسه. إن الروح والطبيعة يسيران معًا، حيث إن أشكال الطبيعة تومئ إلى حقائق روحية وهكذا، فإن كل طائر أو دغل، شجره، وصخره، تصبح إشارة لواقع روحى ما، نقاط على خريطة يمكن السير على هديها. وهذه الخريطة يمكن أن تقود من يودون القيام برحلة إلى الطبيعة، إلى إلهام روحى. بل إن الأمر يمكن أن يسمو على الواقع بصعود

«سلم الخلق» - وهى عبارة يستخدمها أتباع أفلاطون عادة. لكن اللغة هى المركبة التى تتم بها الرحلة، حيث إن العقل يحتاج إلى تجسيدات عينية لحدسه. وتصبح والدن (أكبر من والدن بوند نفسها) فى هذا الخط من التفكير، بديلًا للطبيعة. وتومئ هذه الصور العينية التى يزخر بها هذا النص الشاعرى بصورة مكثفة، نحو أشياء أسمى، وننتقل من خلال اللغة لواقع روحى أعمق.

ومثلما يقول ريتشاردسون، فإنه «منذ البداية، تميزت كتابات ثورو باهتمام مكثف بأعاجيب العالم المرئى وليس غير المرئى». وهكذا، فإن ثورو مثله مثل إيمرسون كان يؤمن بأن وظيفة الكاتب هى أن يخرج من إسار نوعية اللغة المجردة و «الفاسدة» من أجل أن «يربط الكلمات من جديد بأشياء مرئية». ومن ثم، فإن ثورو ينظر فى كتاب والدن، فى عينى البركة بنوع من الضراوة الفولاذية، فيرى أشياء لا ترى بغير ذلك، مثلما فعل قرب نهاية الفصل الذى أسماه «البرك»، حيث يكتب عن وضوح المياه نفسها: «إن هذه البركة نادرًا ماشوهدت وقد بخس من قيمتها زورق»، لأنه ليس بها الكثير مما يغرى صيادى الأسماك.

وبدلًا من أزهار السوسن البيضاء، التى تحتاج إلى طمى، أو قصب الذريره الشائع، ينمو السوسن الأزرق على نحو متباعد فى المياه النقية الصافية مرتفعًا من القاع الحجرى فى كل أنحاء الشاطئ، حيث تزوره الطيور الطنانة فى شهر يونيو، وألوان كل من أنصاله وأزهاره الزرقاء، خاصة انعكاساتها، تتناغم تناغمًا فريدًا مع المياه الخضراء الشاحبة (246 - 247).
وتصبح البركة فى النهاية هى العدسات التى يرى هنرى ثورو الروح الإنسانية من خلالها.

3

وفى فصله الافتتاحى المسمى «الاقتصاد»، يروى ثورو عن ماضيه القريب: «ظللت على هذه الحال زمنًا طويلًا، ويمكنني القول بلا فخر وبصدق، أنني أهملت عملى حتى أصبح واضحًا أكثر فأكثر إن مواطنى بلدتى لن يقبلونى بعد كل هذا فى قائمة موظفى المدينة، ولم يعد مكانى مضمونًا بتسامح معتدل. ولم تقبل مطلقًا حساباتى التى أقسم أننى دونتها بأمانة حقًا، ناهيك عن أن تقبل أو تدفع أو تسوى. لكن قلبى لم ينفطر لهذا» (61). كان بنيامين فرانكلين (وكان له تأثير مدهش على ثورو) سينكمش خوفًا من قراءة مثل هذا المقطع، الذى يسخر بشدة من رجل الأعمال الصغير وهاجسه الخاص بالمحاسبة والمراجعة. إذ كانت إقامة ثورو المؤقته فى البرارى «عملًا» دخله بدون رأس المال المعتاد، كما يقول.

إن البساطة هى الشرط الذى يبحث عنه ثورو. وهو يفكر قائلًا: «إن نفس بساطة وعرى حياة الإنسان فى العصور البدائية تعنى ضمنًا هذه الميزة على الأقل، التى تم التخلى عنها لكنها لاتزال تكمن فى الطبيعة» (80). وظلت العودة للطبيعة هى هدفه طوال السنوات التى أمضاها فى الغابات. وعلى خلاف عمل فرانكلين بجد واجتهاد، والذى تباهى بالساعات الطوال فى مطبعته، يشرح ثورو أن «أيامى فى الغابة لم تكن أيامًا طويلة جدًا» (85). وكان يحتاج لوفرة من وقت «الفراغ» للقراءة والكتابة، ويمضى الوقت متكاسلًا فى الغابة، عند البركة، يتمشى فحسب. «لم أتعجل فى عملى» كما يقول لنا كما لو كان يونج فرانكلين مباشره.

لقد قدم فرانكلين تقارير حازمة، كذلك فعل ثورو (وإن كان على نحو ساخر). فهو يقدم قائمة مفصلة بالمصروفات، تشمل 1.14 دولار مفصلات ومسامير بريمة، وحقًا، 01. دولار لقطعة طباشير - وهو العبث اللصيق بالمبالغ الضئيلة. وكلفة نَقل المواد من البلدة للبركة 1.4 دولار. «حملت جزءًا جيدًا على ظهرى» كما يخطرنا عرضًا. كان يذهب لمدرسة فى الغابات، ليتحدث ويقارن سعر بناء مأوى له فى والدن (زاد قليلًا على 28 دولارًا) مع إيجار حجرة فى هارفرد لمدة سنة وأثارت مصاريف التعليم فى الكلية المتاعب له. ففى حين كان

الطالب «يقرأ آدم سميث، وريكاردو، وساى» - علماء الاقتصاد العظام فأنه «أوقع أبيه فى الديون المتعذر سدادها» (95). وبالتداعى، كان التعليم «الحقيقى» تعليمًا ذاتيًا ولم يتطلب حجرة للنوم أو مصاريف للكلية. كان يحتاج فقط لكتاب وجزع شجرة يجلس عليه، وربما شجرة يستظل بها.

كان ثورو يعتقد أن معظم الناس يبددون وقتهم ونقودهم على توفير أسباب الراحة المسرفة وعلى أساليب الحياة التى تلائم وضعهم ولكنها تتجاوز احتياجاتهم الحقيقية كبشر. ويقول لنا «لقد تعلمت من تجربتى خلال ستتين أن حصول المرء على طعامه الضرورى لن يكلفه مشقة كبيرة، حتى فى هذه المنطقة، وأن الإنسان يمكنه أن يتناول طعامًا بسيطًا مثل الحيوانات ومع ذلك يحتفظ بصحته وقوته» (104). وقد يود المرء أن يقول: قولوا ذلك لمن يموتون جوعًا فى أفريقيا. لكن فكرة ثورو هى فكرة جديدة بأن تؤخذ مأخذ الجد: ففى بلد به خيرات وفيرة مثل الولايات المتحدة، يجب أن يكون هناك طعام كاف للجميع. وربما يتعين على المرء أن يعيد التفكير فى طبيعة عمله. ما الذى نعمل من أجله حقًا؟ المنزلة والثروة؟ ويبرز لاحقًا فى هذا الفصل أنه توصل بصفة عامة إلى «أنه بالعمل نحو ستة أسابيع فى السنة» يمكنه أن يسدد «كل تكاليف الحياة» (112). وإذا كان بنيامين فرانكلين هو مؤسس نموذجنا لليوبى وهو الموظف الذى حسنت ظروفه كلها، مثلما سخر كتاب ديفيد ذات مرة، فإن ثورو هو مؤسس نموذجنا للهيبى (الخنفس).

وينتهى الفصل باقتباس مطول من أقوال حكيم من الشرق الأوسط، هو سعدى الشيرازى. فقد كتب ثورو فى فقرته قبل الأخيرة: «لقد فسدت أخلاقنا بالتواصل مع القديسين» (122). ذلك حقًا كتاب علمانى بدرجة عالية فى روحه، كتاب يعزف عن أى عقيدة تقليدية أو كتاب مقدس. وبدلًا من ذلك فإن ثورو يدرس كتاب الطبيعة، ويقرأ صفحاته المرقشة، مستخلصًا من مصادره الحياة الروحية التى يريدها أن تسنده. وإذا كان نقادًا لعلم اقتصاد الطبقة الوسطى، فإنه يظل تواقًا لفحص ما يستلزمه الأمر للعيش فى الغابات باعتباره كائنًا بشريًا تحقق بالكامل. فالمرء لا يحتاج للإفراط أو للوفرة لكى يعيش جيدًا، إن المطلوب من المرء فقط هو الضروريات الضئيلة تمامًا. إن ما فيه الكفاية كاف حقًا. وكان ثورو يأمل بالانطلاق للغابات، «مكان أشجار الصنوبر» هذا، فى أن يعيد إجراء حساباته، مقدمًا نفسه كمثال، حالة

للاختبار. وهو يمزح قائلًا: «لكى تكون فيلسوفًا» لا يستلزم الأمر أن تكون «الديك أفكار أريبة، ولا حتى أن تؤسس مدرسة... بل أن تعيش. حياة البساطة، والاستقلال، والشهامة، والثقة» - هكذا ينبغى أن يعيش كل الناس (57).

وفى الفصل الثانى، المعنون «أين عشت، وماذا عشت من أجله»، نطّلع على خلاصة الكتاب وجوهره فى بيان هادف: «ذهبت إلى الغابة لأنى أردت العيش متروّيًا، لا أواجه سوى حقائق الحياة، وأرى ما إذا كنت قادرًا على تعلم ما يتعين على أن أعلمه وليس لأكتشف عندما يحين أجلى، أننى لم أعش» (135).

لاحظ السمة النشيطة للكتابة، بطابعها المباشر الصادم. وبدلًا من فعل «المواجهة»، الذى سيكون أكثر تجريدًا، يشذب الفعل إلى «مجابهة»، مضفيًا عليه مادية مفتقدة فى تنفيذه الأشد كمالًا. وتجبر الطبيعة المتضاربة للجزء الأخير من الجملة، بتلاعبه بالموت والحياة، القراء على أن يستيقظوا ويواجهوا مبادئهم الأخلاقية. إن والدن يقدم تحديًا فى كل صفحة من صفحاته، حيث يرمى ثورو القفاز متحديًا بقوله: انظروا إلىّ. ثم انظروا لأنفسكم. هل تعيشون فى مستوى قدراتكم؟ هل تتعلمون من الحياة ما الذى يتعين الوصول إليه حقًا؟ هل جابهتم فى أى وقت الجوهريات بطريقتكم الخاصة؟

ويكتب قائلًا: «علينا أن نتعلم ونبقى أنفسنا متيقظين، ليس عن طريق وسائل مساعدة ميكانيكية، ولكن بواسطة توقع لا ينتهى لطلوع الفجر، الذى لا يفوتنا بسبب نومنا» (134). ذلك هو إيمان ثورو، عقيدته الأساسية. هذا هو ما يعتقده ثورو : أن الصباح يترصدنا، والفجر سوف يبزغ مرة ثانية، حتى بعد «أعمق نوم لنا»، وهو موت. أن دين الطبيعة الوارد ضمنًا فى مثل هذا البيان مخادع. ويكشف المؤلف عن إيمانه بدورات الطبيعة للإعتاق والخلاص. تلك هى صيغة هنرى ثورو عن اليقظة الكبرى: إيمان أساسى بالتجدد الخالد للربيع والفجر. ويمكن للمرء فى الواقع أن يتتبع هذه الرموز عن التجدد، التى تتخذ أشكالًا مختلفة كثيرة، طوال الكتاب، متجهًا صوب نهاية مجيدة فى «الخاتمة»، حيث يكتب «إننا لا نستيقظ إلا لفجر ذلك اليوم. ليس هناك أيام أخرى يبزغ فجرها. أن الشمس ليست سوى نجم صباح» (382).

ويسجل الفصل الثالث وهو بعنوان «القراءة» بدايات الحياة اليومية عند بركة والدن. ويجب أن يضع المرء في ذهنه أن ثورو يخلق وهو واع ذاتيًا مثلًا نموذجيًا وهو يكتب، فهو يقدم للقارئ نصًا يحيا به. إن كلماته تصبح أعمال (الجملة تخص ويندل بيرى) وفى رأيه، إن المرء ينبغي أن يقوم بعملية القراءة المضنية بجدية، فهى عمل شاق، مثلما يذكرنا: «أن القراءة الجيدة، هى قراءة كتب صادقة بروح صادقة، إنها ممارسة نبيلة، تكلف القارئ أكثر مما تكلفه أى ممارسة. تجلها الأعراف الحالية. أنها تتطلب تدريبات مثل تلك التى يخضع لها الرياضيون، والقصد الراسخ، وتكريس الحياة كلها تقريبًا لهذا الهدف. ينبغى قراءة الكتب بنفس التروى والتحفظ الذى كتبت به» (146).

ويطالبنا ثورو بأن نقرأ كتابه باهتمام. وبدرجة ما، يحذرنا من أننا يمكن أن نسئ قراءته فحسب، ومثلما يقول فإن «أعمال الشعراء العظام لم تقرأها البشرية بعد مطلقًا، لأن الشعراء العظام هم الذين يستطيعون قراءتها» (149). لكنه يدرك أن القراءة هى عادة قراءة خاطئة، وأن كل كاتب يعيد اختراع أسلافه الأدباء ويسئ فهمهم بالكامل. ولا يمكن للمرء أن يقرأ سوى ما يستطيع خلقه بالكامل - أو إعادة خلقه - فى عقل المرء نفسه وفؤاده. ومن ثم يتعين على قراء والدن أن يلتزموا بالنص بلا تحفظ، بالتجربة الموصوفة، ويستخلصوا عن طريق الحدس الحقيقة الكامنة فى جوهره أيًا كانت، وبعض من هذه الحقيقة لابد أن يأتى من القارئ. ومما يجدر ذكره، أن المؤلف لا يقدم عادة برنامجًا للقراءة، ويسقط أسماء قلة من الكتاب المشهورين، ومن بينهم هوميروس، ودانتى، وشكسبير لكنه يدرك أن القراءة مغامرة شخصية تنطوى على التوهان فى غابة معتمة تحدث عنها - فى كتاب دانتى الحجم. ويعنى ذلك أن يترك المرء وراءه المفاهيم والتحفظات والأحكام المسبقة، وينطوى على تحرير النفس حيث يدعو المرء للاتصال بعالم آخر، عالم خلقته لغة ثورية لنص أساسى.

وتنطلق الرواية الى باب «الأصوات»، وهو تأمل وجيز فى الأشياء التى كان ثورو يسمعها فى كوخه فى والدن بوند. فمن المؤكد أن السكة الحديدية. أحدثت انطباعًا ضاريًا لديه، مع تداعياتها بالنسبة لمشهد طبيعى متغير. فقد أصبحت مدينة بوسطن فجأة جارا. أن والدن، بقدر أى شيء، هو كتاب يعترف بقيام عالم جديد، عالم لم تعد فيه البرارى بريّة - أو برية بقدر ما كانت. وهناك رنة أسف عميق، وإحساس بالضياع أصبح جزءًا من تراث كل

كاتب عن الطبيعة بعد ثورو. لم يعد أى شىء إلى ما كان عليه. ففى عصر الأحرار هذا مثلًا، عندما يبدو تدمير الطبيعة نفسها وشيكًا، يصبح كتاب والدن نذيرًا بكارثة. فالقطار، بقاطرته المطهمة وعرباته التى تصلصل، يدمر سلام المؤلف، الذى يصرخ متحديًا: «لن تقع عيناي أبدًا على دخانه ونجاره وهسهسته ولن أفسد سمعى بهذا» (168).

وبمزيد من الانفصال، يقول ثورو إن «كل صوت يسمع على أبعد مسافة ممكنة سيحدث نفس الصوت عينه، ذبذبة قيثارة الكون» (168). وهو يشير إلى قيثار (هارب) الريح أو مايسمى قيثارة الريح، وهى قطعة شعبية فى أثاث البيوت فى القرن الثامن عشر. وكانت هذه الآلة تعزف عليها الريح نفسها، التى تمر فوق بدنها وتسبب ذبذبات تتحول إلى موسيقى طبيعية. وقد وجد الشعراء فى هذا تشابهًا رائعًا مع الإبداع الإنسانى، مثلما يقول شيللر فى كتابه «دفاع عن الشعر» (1821): «إن الإنسان هو آلة، تعزف عليها انطباعات داخلية وخارجية، مثل تعاقب ريح تتغير دومًا فوق قيثارة ريح، تعزف عليها بحركتها لحنًا يتغير دومًا». وتجدر قراءة والدن فى سياق الشعر والنظرية الرومانسيين اللذين ألهما الكثير مما كتبه إيمرسون وفهمه ثورو واستخدمه بطريقته. فقد كان ملمًا بصفة خاصة بالاستعارات الرومانسية واستخدمها طوال كتاباته، مفترضًا أن جمهوره سيتعرف على الأصداء.

وبنى ثورو على فكرة أن الطبيعة «قيثارة كونية» موجودة فى قفر منعزل، وتلك واحدة من الذرى الشعرية في والدن، وتقرأ السطور الافتتاحية من هذا الفصل مثل جزء من مؤلف والت هويتمان «أغنية نفسى» باحتفائه بالروح التى تتبدى فى عالم الطبيعة. وكتب ثورو يقول: «تلك أمسية لذيذة، عندما يكون البدن كله مشهدًا واحدًا يتشرب البهجة من خلال كل مسامه. إننى أروح وأغدو بملء حريتى فى الطبيعة، كجزء منها هى نفسها» (175). ويبدو أن هذه المشاعر صدى لأقوال ويليام بليك، الشاعر الحالم، الذى كتب زواج السماء والجحيم (1790 – 1793) : «ليس للإنسان جسد متميز عن روحه، لأن ما يسمى الجسد، هو جزء من الروح تميزه الحواس الخمس، المدخل الرئيس للروح فى هذا العصر».

إن التسلل المتبادل بين العالمين الداخلى والخارجى، بتقلبات المزاج والطقس، جزء من تقنية ثورو، التى تصل لحد الكمال فى «القفر المنعزل» مثلما يكتب قائلًا: «إن بعضًا من أكثر ساعاتى مدعاة للسرور كانت خلال العواصف الممطرة الطويلة فى الربيع أو الخريف،

والتى كانت تحبسنى فى البيت لما بعد الظهر وكذلك فترة العصر تهدئها زمجرتها وانطلاقها السريع بغير توقف، عندما يظهر الشفق فى الأمسيات الطويلة التى يتوافر لى فيها الوقت لكى تتجدد أفكارى وتتفتح» (177). لاحظ مكر التصوير هنا، حيث «تتجذر» أفكاره، وبذلك يحول المجرد فى التفكير إلى عملية مادية وعضوية للتجذر والتفتح - وتكمن الاستعارة من النبات وراء الجملة.

ويستخدم ثورو فى أعماله المفارقة والتناقض، مثلما جاء فى قوله: «لدى قدر كبير من الصحبة فى بيتى، خاصة فى الصباح عندما لايجيء أحد» (182). وهذا هو الرجل نفسه الذى تجول وتنقل على نطاق واسع فى كونكورد. وهو حاليًا ليس فى عجلة من أمره. والطابع الهزلى لهذه الكتابة مصدر متعة دائم للقارئ اليقظ. وفى الحالة السابقة ينطلق ثورو من «القدر الكبير من الصحبة» الذى يتوافر لديه، قائلًا أنه كان من بين زواره «مستوطن عجوز ومالك أصيل» حفر بركة والدن وبلطها بالحجارة وزرع حولها أشجار الصنوبر. لم يكن هناك مثل هذا الزائر بالمعنى الحرفى كانت هناك «سيدة عجوز» أيضًا، وهى زائر لطيف ومحبوب آخر، لديه «عبقرية من الخصوبة التى لا تبارى»، وكان ذاكرتها ترجع «للوراء لما قبل الميثولوجيا» (183). هل هذين هما الاله الأب والالهة الأم للطبيعة نفسها؟ ربما كانت الغرابة هى الفكرة فى هذه المقاطع، وكان ثورو يبتهج بالتحكم فى بيانه فى الكتابة، معتمدًا نغمة حكيمة لا تفقد حلاوتها أبدًا.

وهو يشير إلى سلسلة من الزوار، الحقيقيين أو الوهميين لكوخه على حافة البركة، كان بعضهم من الهاربين من مستشفيات المجانين. وعن المجانين يقول ثورو بحكمة مضحكة: «فيما يتعلق بالعقل، أدركت أنه ليس هناك فرق كبير بين النصف والكل» (196). وهناك حظّ مستمر من قدر شخصيات من البلدة الذين يظهرون على أعتاب الناسك، هؤلاء «الرجال الملتزمين بلا كلل، الذين ينفقون كل وقتهم فى الحصول على أسباب المعيشة أو الحفاظ عليها» (198). بيد أن ثورو كان يوليهم احترامًا يحسدون عليه. ومن ناحية أخرى، كان يسخر من «القسس الذين كانوا يتحدثون عن الله كما لو كانوا يحظون باحتكار الموضوع، والذين لا يستطيعون تحمل كل أنواع الآراء». كما يلمح إلى «زيارات من أطباء ومحامين، ومدبرات منازل غير مريحات يفتش فى دولابى عندما أكون فى الخارج» (198). وللمرء أن يتساءل عما

إذا كان هؤلاء الأشخاص قد طرقوا بابه حقًا عندما كان فى والدن. لاشك أن قلة فعلت ذلك. والأمر الأكثر أهمية هو أن ثورو يستخدم فكرة الزوار لتقديم كتالوج من الناس وأنواعهم، معلقًا على مواقفهم وأساليبهم فى الحياة. إنهم يمثلون نقطة تناقض بالنسبة للقارئ، الذى يقارن ثورو بجيرانه وزواره، الحقيقيين أو الوهميين. ويعقب ذلك فصل «حقل الفاصوليا»، ونغمته ليست أقل اتسامًا بالنزوات. يقول ثورو «عزمت على معرفة ما يخص الفاصوليا. وإجمالا، يبدو على معرفة كبيرة بالبستنة ويشير لتشكيلة من الحشائش: الأفستين الرومانى، وعشبة الخنازير الحُماض، وحشيش الفلفل. وبعد ثورو، كان لابد وأن يشعر كتاب الطبيعة الأمريكيون أنهم مجبرون على تقديم تحديد دقيق مماثل، فذلك جزء من تراثه الباقى.

وأصبحت الفلاحة بالنسبة إلى ثورو اكتسابًا للمعرفة: «إن أيام الصيف تلك التى كرسها بعض المعاصرين لى للفنون الجميلة فى بوسطن وروما، وخصصها آخرون للتأمل فى الهند، وكرسها فريق آخر للتجارة فى لندن أو نيويورك، كرستها أنا وبعض المزارعين الآخرين فى نيو إنجلند للفلاحة» (207). وأصبح التوسيع المستمر لدائرة الاهتمام جزءًا من تقنية الكاتب الريفية. وفى إطار التقاليد الريفية الحقيقة، يقدم نفسه كرجل متمرس يتحدث عن أشياء حقيقيه لجمهور حضري، ساعيًا إلى جمهور دولى أعرض، جمهور يمتد عبر العصور. وتزخر هذه الصفحات بالإيماءات إلى الأدبيات الإغريقية واليونانية والتاريخ، وهناك إحساس ينبض بالحياة لدى المؤلف باعتباره شخصًا ينتمى إلى رفقة متمرسة وخبيرة بحياة الناس. والواقع أن واحدًا من نماذج ثورو للوعى بالذات كان خاصًا بجوته، الكاتب الألمانى الجليل، الذى شكّل كتابه الذى ظهر بعد وفاته عن سفرياته فى إيطاليا كشاب، مصدرًا دائمًا للإلهام.

وباعتباره جنانيًا وخبيرًا فى الزراعة، بشر ثورو برؤية طويلة الأجل، إذ يخبرنا بأن «خبير الزراعة الحقيقى سيكف عن القلق» مثلما لايبدى السنجاب أى انزعاج مما إذا كانت الغابات ستثمر كستناء هذا العام أم لا، «متخليًا عن أى ادعاء بأنه كان ينتج فى حقوله» (212). وقد ساد هذا الموقف الحياة المهنية للكاتب، فثورو لايستطيع أن يضمن أى شيء: قراء، أو حتى كتابًا حقيقيًا. أن عمله هو عمل معرفة، يتمه من خلال عمل الكتابة - المعرفة من خلال الكتابة كان يقوم بهذا العمل وهو مبتهج، مكرسًا نفسه بالكامل للمهمة الملقاة على عاتقه. ويستطيع

القراء أن يأخذوا ما يشاءون منه كما يوضح، يستطيعون تجاهله أو نسيانه إذا اختاروا ذلك. يستطيعون أن يرضوا أو لا يرضون.

وهو يبلغنا بأنه لم يضع نفسه فى جحر لمدة سنتين فى عزلة فى والدن، وذلك فى الفصل الذى يحمل عنوان «القرية». فقد كان «يتجول فى القرية ليسمع بعض النميمة» كل يوم أو يومين ولم يفصل نفسه عن أسرته وأصدقائه (213). كان يقضى معظم وقته وحيدًا عند البركة، يقرأ ويكتب أو يزرع حقل الفاصوليا الخاص به، لكن كانت هناك صحبة مفعمة بالحيوية فى البلدة، وكان ثورو يشارك فيها، كما هو مطلوب. وفى هذا الفصل، يروى عرضًا (إن لم يكن بحياء)، أنه «قبض عليه ووضع فى السجن فى عصر أحد الأيام قرب نهاية صيفه الأول عند البركة. إذ كان قد رفض دفع خراج الرأس الخاص به، لأنه لم يرد مساندة» دولة تشترى الرجال والنساء والأطفال وتبيعهم مثل القطيع أمام باب مجلس الشيوخ فيها (217). ربما لم يرد أن يعتم على دوافعه أو يخلط بينها، فلم يذكر اعتراضه على الحرب المكسيكية - وذلك سبب آخر لرفضه دفع الضريبة. لكن العبودية هى التى اختار أن يسجلها: إذ كانت قد أصبحت قضية صاخبة بحلول منتصف القرن، وكان ثورو (كما سلف بيانه) من دعاة إلغاء الرق المتشددين، ووضع كتابًا عن التحرر من العبودية - عبودية حياة الطبقة الوسطى. ومن ثم، ربما يكون من المعقول أن نقلل من قيمة بيانه عن دوافعه «لتشكيل» موقفه. كان ثورو يريد التحرر من جوانب معينة من الحياة الأمريكية لكنه يسلم (بمرارة) بأنه «حيثما ذهب الإنسان، فإن الناس سيتبعونه ويعاملونه بخشونة بمؤسساتهم القذرة، ويجبرونه إن استطاعوا على الانتماء إلى مجتمعهم اليائس وزمالتهم الغريبة» (218). إن ثورو يقلب المائدة على المجتمع. أنه ليس هو الشخص الشاذ، بل هم.

ويغير ثورو مسيرته لاتجاه جديد فى الفصل المعنون «البرك» مبتعدًا عن الحضارة مرة ثانية، فيمضى هذه المرة «بعيدًا نحو الغرب» (202). وهو عادة يبدأ فقرته بالإشارة إلى القرية. ثم ينتقل إلى مباهج الانسحاب والعزلة، مثلما جاء فى المثل الذى أورده: «أحيانًا، كنت بعد أن أبقى فى قاعة الاستقبال فى القرية حتى تنسحب الأسرة جميعها، أعود للغابات، وجزئيًا بقصد توفير عشاء اليوم التالى، أمضى ساعات منتصف الليل أصيد السمك من قارب فى ضوء القمر، أستمع للحن ليلى يعزفه البوم والثعالب، وأصغى من وقت لآخر، لصوت صرير

طائر مجهول يكاد يكون فى المتناول» (222). وللمرء أن يتساءل عن نوع السمك الذى كان يصطاده، حيث إنه كان قد سبق أن أخبرنا أن البركة لم يكن فيها ما يغرى الصائدون بالصنارة حقًا؛ لكن ربما كان ذلك حرفيًا بأكثر من اللازم. وفى هذا الفصل، فإنه يمعن النظر فى برك والدن والبرك المجاورة من أجل دواعى عقلية، متأملًا الألوان المتغيرة، وآثار الضوء على المياه. إن البركة تصبح رمزًا للعقل نفسه. ويتبدى الشاعر فى ثورو عندما يخلق الصور التى تغدو رموزًا، أى تصبح استعارات ينفصل فيها ما يسمى المغزى عن أداته للنقل (إذا كتب شاعر قائلًا «إن حبى مثل وردة حمراء، حمراء» مثلما فعل روبرت بيرنز، فإن المغزى هو «حبى» والوردة هى الأداة التى تنقل الاستعارة. وإذ كتب الشاعر «يالجمال الوردة، وإن كانت عليلة»، مثلما فعل ويليام بليك، فإن المغزى وأداة النقل منفصلان، فالوردة تصبح مغزى، بإمكانيات مرجعية لانهاية لها، شيئًا مضيئًا ويطفو حرًا بذاته).

ويوضح مثال من هذا الفصل التقنية التى اتبعها. فيروى ثورو عن مرة أسقط فيها فأسه فى ثقب فى الجليد عندما كان يصيد السمك فى الجليد فى البركة:

> بدافع الفضول، استلقيت على الجليد ونظرت من خلال الثقب، حتى رأيت الفأس إلى اليمن قليلًا، واقفًا على رأسه، ومقبضه منتصبًا يتمايل برقة جيئة وذهابًا مع نبض البركة، ربما ظل قائمًا منتصبًا متمايلًا حتى يبلى المقبض على مرّ الزمن، إن لم أحدث له اضطرابا. وإذ أحدثت ثقبًا آخر فوقه مباشرة بأزميل الثلج الذى كان معى، وقاطعاً أطول فرع من شجرة التبولا استطعت أن أعثر عليه فى الجوار بسكينى، صنعت أنشوطة منزلقة أمسكت بها من طرفها، وجعلتها تنزل بحرص، وجعلتها تمر فوق عقدة المقبض، وسحبتها على امتداد فرع التبولا، وبذلك استعدت الفأس ثانية. (225)

وتصبح الحكاية أسطورة صغيرة، رمزًا مجمعًا : فكرة. إن المؤلف يغوص فى أعماقه الجليدية، مستخدمًا براعته ليشكل من المحيط الطبيعى أداة ضرورية. إن «نبض البركة» يعنى الحياة المتضمنة فى هذه المياه. إن كتابة ثورو هى نفسها كتابة واضحة على نحو مدهش،

رائقة مثل المياه فى البركة. وعقله أيضًا صاف، إنه يستطيع التحديق للأعماق وتحديد أماكن أشياء فى القاع وهى تتمايل. إنه يستطيع أن يحتال على هذه الأشياء ويرفعها إلى النور.

ربما كانت هذه استعارة عن الكتابة نفسها.

ولو حظ عادة أن والدن هو كتاب الفصول. ففى مسودات ستة أساسية، عمل ثورو جادًا لجعل المؤلف متفقًا مع التحولات الموسمية، رغم أنه يشير عادة إلى فصول أخرى داخل أى جزء محدد. وقد تم تحديد هياكل كتب كثيرة على هذه الشاكلة، بما فى ذلك كتاب من الكتب التى يفضلها ثورو أكثر من غيرها، وهو كتاب التاريخ الطبيعى لسلبورن (1789) الذى كتبه جلبرت هوايت، وهو كاتب إنجليزى أحب الإقامة قرب موطنه، متجولًا فى المقاطعات الجنوبية والوسطى من إنجلترا وقد كتب هوايت بموضوعية بمسحة الكتابة العلمية. وعلى النقيض من ذلك، أضاف ثورو عنصرًا من الذاتية على كل مشاهدة تقريبًا، ويظل القارئ متيقظًا لحضوره المتلاعب بالكلمات والأفكار. وتتحول لغته إلى لغة مجازية؟ كفعل انعكاسى تقريبًا، مثلما كتب فى فصل «البرك» : «إن البركة هى أجمل سمة فى المشهد الطبيعى وأكثرها تعبيرًا. إنها عين الأرض، التى يقيس الراءى بالنظر فيها عمق طبيعته» (253).

وقد أضيف كثير من هذه المقاطع إلى المسودات اللاحقة، عندما كان ثورو يشكل مخطوطته الأصلية ويوسعها، مقسمًا العمل إلى فصول متمايزة، مضيفًا موادًا حتى تصبح دورة الفصول واضحة باعتبارها المبدأ الحاكم للتنظيم. وفى القسم المسمى «قوانين اسمى»، أضاف ثورو موادًا عن «البرارى». وكتب يقول «بيد أنه فى مرة أو مرتين عندما كنت أعيش عند البركة وجدت نفسى أتجول فى الغابة مثل كلب يكاد يموت جوعًا، جرى هجره هجرانًا غريبًا، باحثًا عن نوع من لحم الطرائد الذى أستطيع أن التهمه، ولم تكن أى لقيمات من طعام لتبدو لى ضارة. لقد أصبحت أشد المشاهد وحشية مألوفة بالنسبة لى على نحو غير مسئول. لقد وجدت فى نفسى، ومازلت، ميلًا لحياة أسمى، أو كما تسمى حياة روحية، مثلما يفعل معظم الناس، وميلًا آخر نحو مرتبة بدائية ووحشية، وإننى أجلّهما كلا هما» (257). ويحدث صراع عنيف بين العالمين المادى والروحى. وجدير بالذكر أنه فى القسم المعنون «قوانين أسمى»، ينفق ثورو مثل هذا القدر الكبير من وقته على الجوانب الوحشية من الحياة. وفى هذا، فإنه يفكك الاختلافات بين «العالى» و «الواطى»، ويربط بين جسد الفرد والأمة، على

سبيل المثال، عندما يؤكد أن الحضارة تزيد الاندفاع نحو الغذاء النباتى الذى ينتج بصورة طبيعية: «ليس لدى أى شك فى أن جزءًا من مصير الجنس البشرى، فى تحسنه التدريجى، يتمثل فى التخلى عن أكل الحيوانات، مثلما هو مؤكد أن القبائل المتوحشة قد تخلت عن أكل بعضها البعض عندما اتصلت بمن هم أكثر تحضرًا» (263).

ورغم تقديره للنزعة النباتية، فإن ثورو يخبرنا بمرح مؤكد أنه يستطيع «أن يأكل فأرًا مشويًا باستمتاع كبير» (264). ويقول أن عاداته الغذائية أصبحت خشنة على مرّ الوقت، وهو لا يطلب فى أدب البَرَكَة من الله على المائدة قبل أن ينقض على كتلة من اللحم. كان قد أصبح. «واعيًا بالحيوان» داخله على نحو متزايد، حيوان يستيقظ عندما تهجع الحياة الروحية. وينتقل الفصل على نحو غريب من موضوع لموضوع، ويجرى تلخيصه فى حكم مأثورة رديئة، مثل «كل الشهوات واحدة، وإن اتخذت أشكالًا عدة، وكل الطهارة واحدة» (267). ومع ذلك ينتقل الفصل إلى اعتراف عام بأن العقل والجسد يتفاعلان بطرق حيوية فيقول «إن كل إنسان هو بناء لمعبد، يسمى جسده». ويضيف «إننا جميعنا نحاتون ورسامون، والمادة الخام لدينا هى لحمنا ودمنا وعظامنا. وأى نبل يبدأ فورًا فى صقل سمات الإنسان، وتبدأ أى دناءة أو شهوة فى جعلها بهيمية» (269).

وفى المسودة الخامسة، فى صيف 1853، وسع الأبعاد الاجتماعية لوالدن. وإذ يتحرك سريعًا خلال المخطوطة، فقد رسم طبقات من اللوحات عن الزوار من الأول للأخير، بما فى ذلك إشارات للهنود والإسكيمو و وكذلك المبشرين اليسوعيين وقلة من السكان السود فى منطقة والدن، مثل كاتو انجرام وفندا فريمان. ويذكر بعضًا من الأصدقاء الجيدين مثل وليام اليرى تشاننج، الشاعر الذى «جاء من أقصى الأرض إلى مسكنى»، وبرونسون الكوت «وهو واحد من آخر الفلاسفة». وعلى نحو غريب، بل ومحزن، لا يقدم سوى لمحة غير مباشرة عن أقرب أصدقائه، إيمرسون «كان هناك شخص آخر أمضيت معه «مواسم قوية»، منذ زمن أطول من أن أتذكره، فى منزله فى القرية، والذى كان يزورنى من وقت لآخر»، وهو بذلك يقصد الرجل الذى أواه وأطعمه مثل هذا الوقت الطويل. كان إيمرسون كثيرًا ما يتوقف عند والدن بوند، وكانت كتاباته هى الينبوع الجليدى الذى انبثقت منه مياه كتاب

والدن الصافية. لكن ثورو لم يستطع أن يحمل نفسه على الاعتراف صراحة بالرجل الذى ربما كان نفوذه عليه طاغيًا بقدرما.

وينتقل الكتاب حينذاك خلال الشتاء، وهو فصل يقدمه فى سطر فى فصل بعنوان «تدفئة المنزل» : «كانت ريح الشمال قد بدأت بالفعل تجمد البركة، رغم أن الأمر استغرق أسابيع من الهبوب المستمر لكى تجمدها بهذا العمق» (289).

ومع استقرار الشتاء، أصبح الكوخ مأوى لمخلوقات شتى: «فقد عششت فئران الغيط فى قبوى، قاضمة كل حبة من البطاطس من كل ثلاث، وصانعة فراشًا وبيتًا محجوبًا عن الأنظار من شعرها بعد لصقه معًا ومن الورق البنى اللون، فحتى أكثر الحيوانات برّية تحب الراحة والدفء مثل الإنسان، وهى لاتنجو من الشتاء إلا لأنها حريصة على أن تؤمن ذلك». (300). وعانى ثورو كثيرًا ليؤمن نفسه من العناصر المزعجة، واحتل هذا العمل مركز عدة فصول هنا، من بينها فصل «حيوانات الشتاء» و «البركة فى الشتاء». والفصل الأخير فاتن بوصفه للبركة المجمدة: «مثل حيوانات المرموط القارضة فى التلال المجاورة، التى تغلق جفون أعينها وتبقى نائمة ثلاثة أشهر أو أكثر» (331). وكما الحال دومًا، تعكس البركة مزاج الكاتب وفصوله الموسمية الداخلية، فهى مرآة لعقله. ويقدم ثورو مسحًا تفصيليًا لجغرافية البركة ويتأمل قوانين الطبيعة، مستخلصًا أوجه تماثل بين العالمين الداخلى والخارجى : «لو كنا نعرف كل قوانين الطبيعة، لما احتجنا إلا لحقيقة واحدة، أو وصف لظاهرة فعلية واحدة، لاستخلاص كل النتائج الخاصة عند هذه المرحلة» (338).

لقد استخدم الكُتّاب المجيدون دومًا شكل الكلام المعروف باسم المجاز المرسل، وفيه يعبر الجزء عن الكل. لقد كتب إيمرسون بمكر فى كتابه «الشاعر» عن شكل التفكير لديه، قائلًا: «ليس هناك حقيقة فى الطبيعة لاتحمل معنى الطبيعة كله». وقال روبرت فروست عن كتابه عن أسلوب إيمرسون «أننى أؤمن بما أسماه الإغريق المجاز المرسل». وهو يحدد المجاز المرسل باعتباره «فلسفة أن الجزء يصور الكل»، وأشار إلى هذا الأسلوب فى التفكير باعتباره «يطوف حول حافة معبودة فاتنة» قائلًا أن «كل ما يحتاجه الفنان هو عينات». وهذا التصوير- أو هذه التقنية - مأخوذًا لأسمى مستوى - يعادل فلسفة المعرفة. فالمرء يستطع أن يحدس الخلق بأسره بمعرفة جزء صغير منه، فالجزء نفسه يقود العارف إلى

معرفة أوسع. وفى صيغة ثورو من هذا التصوير، يفحص المرء حقيقة واحدة من الطبيعة لكى يحدس الخلق بأسره، بما فى ذلك عالمى الطبيعة والروح. وفى صميمه لم يستطع ثورو هذا، «فالقوانين الأسمى» تبدو بالنسبة له جزءًا لايتجزأ من العالم المادى أو «الأدنى».

وخلال فصول الشتاء من والدن، ينقب ثورو فى أغوار نفسه، متسائلًا متشككًا فى الكون، ومحاولًا أن يميز إيمانه الخاص بالطبيعة. وفى فصل «البركة فى الشتاء» يظهر عدد من الأسئلة الميتافيزيقية الكبيرة، مثلما يتساءل الكاتب عن «ماذا - كيف - متى - أين؟ والطبيعة تجيب عن هذه الأسئلة المتبلدة، برسالتها الضمنية عن التجديد. واليوم نفسه الذى يدور إلى الفجر من غياهب الليل، يتبع فصلًا صغيرًا خاصًا به، لكن الدورة الأكبر تتحرك صوب الربيع، مثلما يعكس الاستيقاظ مرآة البركة استيقاظ العقل. بالطبع إن الميلاد من جديد يكمن فى لب رسالة المسيح، لكن يتم تحييدها هنا وإرجاعها لشكلها العينى بأجلى صورة. ويصبح الربيع بالنسبة لثورو، لحظة تجديد علمانية، حيث تتواكب مع عيد الفصح، وتغدو جزءًا من دورة حياة النبات. ويكتب ثورو نحو نهاية «الخاتمة» «أن فجر الأيام فقط هو الذى نستيقظ من أجله»، ويصبح هذا نقطة محورية فى والدن، بدعوته للملاحظة والانتباه (382).

و «الربيع» هو الفصل الرئيس النهائى قبل النهاية، «الخاتمة». كتب ثورو يقول «كان من عوامل الجاذبية التى جعلتنى أذهب للغابة للعيش فيها أنه ستتاح لى أوقات الفراغ و الفرص لرؤية الربيع وهو يفد» (235). فالربيع هو شىء يلاحظه معظمنا بنظرة خاطفة لكن ثورو يحدق فيه بصورة ملية، كما يتعين عليه، فى هذا الفصل، ملاحظًا التفاصيل، مثل كيف بدأ الجليد فى البركة يتحول إلى شىء أشبه بقرص العسل عندما أخذ فى الذوبان. فقد أذاب الضباب والأمطار والشمس الساخنة الثلوج، التى انسابت للأرض الرخوة العطرة. وتصم أصوات الحيوانات والطيور الآذان. وكتب يقول بمرح ظاهر: «إن والدن تذوب بسرعة» (359). ليس هناك فصل واحد يسمى الربيع، كما هو معتقد، إذ يصف ثورو تعاقبًا لا يعد ولا يحصى داخل هذا الفصل، مع تغيير الاحترار البطىء للأرض والسماء، مسببًا «أزمات لاتنسى» (360). ويتعجب نحو نهاية الفصل قائلًا: «وهكذا مضى الفصل متسارعًا ليدلف فى الصيف، مثلما يهيم المرء فى العشب صاعدًا لأعلى فأعلى» (367).

وفى 6 سبتمبر 1847، خلف ثورو حياته عند البركة وراءه، منتقلًا من تجربة والدن إلى نص والدن. وفى «الخاتمة» يتأمل فى مغزى هذه الإقامة المؤقتة، كاتبًا ما يعادل شعرًا منثورًا جرت صياغته بشكل جميل. ولا يبدأ الكتاب بفصل عن المواسم وإنما بتأمل عميق التفكير فى اقتصاد الحياة، ومن ثم لا ينتهى والدن بصورة موسمية بالربيع، ولكن بدعوة فلسفية وشعرية لامتشاق السلاح. وحينذاك يتحدى ثورو القارئ فى أن يعيش بصورة مباشرة بدرجة أكبر، كما فعل هو. ففى ذهابه للغابة، لم يعرض نفسه فى محاولة مغرورة نوعًا ما للارتفاع فوق المجتمع، فهو لم يكن ناسكًا هناك، كما يذكرنا المرة تلو الأخرى. وهو لايدعو، للخضوع لدورات الطبيعة. فالطبيعة كما يؤكد، تدعونا للنظر فيما وراء - أو من خلال - عروضها الفخيمة واكتشاف ما بداخلنا من حياة روحية متأصلة، بالمعنى الحرفى تمامًا، فى مناخ يقظتنا.

كتب يقول بحمية دينية تقريبًا: «لقد أدركت على الأقل من واقع تجربتى، أنه إذا تقدم المرء بثقة فى اتجاه أحلامه، وحاول أن يعيش الحياة التى تخيلها، فإنه سيلاقى نجاحًا غير متوقع فى الساعات العادية. سيخلف بعض الأشياء وراءه، وسيعبر حدودًا غير مرئية؛ وستبدأ قوانين جديدة، كونية، أكثر تحررًا فى ترسيخ أقدامها حوله وبداخله، أو تبدأ القوانين القديمة فى التوسع، ويجرى تفسيرها لصالحه بمعنى أكثر تحررًا، وسيعيش بترخيص من ترتيب إسمى للكائنات» (371).

ويتساءل ثورو طارحًا السؤال أمام قرائه على نحو فظ «لماذا نتعجل النجاح بهذه الصورة اليائسة، وفى هذه المشروعات اليائسة؟ (374)، لماذا نتعجل الأمور؟ ولماذا نحاول تحقيق إنجازات؟ وكم يكفى؟ وماذا نريد حقًا، وكيف نبسط حياتنا؟ وكيف نتعلم أن نعيش فى تناغم مع بيئتنا الطبيعية المحيطة بنا، ونراها حقًا، ونشعر بظهور الربيع وتغير الفصول باعتبار ذلك تحولًا داخليًا ضروريًا؟ وكتب ثورو يقول «أيًا كان معنى حياتك، فاقبلها وعشها» (376).

ولا يمكن للمرء أن يطلب نصيحة خيرًا من ذلك. إن والدن، كانت ولا تزال، نصًا أمريكيًا محوريًا، نصًا تغير على الدوام، ويستمر فى التغير، يعكس الحياة المادية والروحية لكل من يريدون العيش بترو، فى اتصال مستمر مع العالم الطبيعى، وفى اتساق مع جيرانهم.

4

خلال حياته الوجيزة نسبيًا (قتله السل فى سن الرابعة والأربعين)، لم ينشر ثورو سوى كتابين، أسبوع على نهرى كونكورد وميريماك و والدن. وقد تجاهلتهما الصحافة لحد كبير، رغم أن كل منهما جذب عددًا قليلًا من القراء حسنى الانتباه. ومع ذلك، فقد كان محظوظًا أن يعيش فى كونكورد، مركز حركة فلسفة التسامى، وأن يكون إيمرسون معلمه وناصحه. من يستطيع أن يجد قارئًا خيرًا من ذلك؟ وكما حدث، فإن أصدقائه أدركوا أنه لاينسى وأن كتاباته التى خلفها وراءه - مجموعة نفيسة شملت سبعة وأربعين مجلدًا من يومياته فى مخطوطات مجلده - سيتم تحريرها ونشرها.

لقد تُركت هذه المواد بين يدى شقيقة المؤلف، صوفيا التى عملت مع إيمرسون، وفرانكلين سانبورن، ووليام اليرى تشاننج فى جمع مجلدات عدة فى العقد التالى لوفاة ثورو، بما فى ذلك غابات ماين وكيب كود. وبنهاية القرن، وجد ثورو جمهورًا صغيرًا لكنه مخلص. ففى 1906، أصدر هيوتون فيفلين عشرين مجلدًا من «طبعة والدن» من عمله المسمى «كتابات هنرى ديفيد ثورو». ووسم هذا الاعتراف بثورو، الذى احتل مكانه اللائق على المنصة بجوار إيمرسون وهوايتمان وديكنسون وآخرين.

وشكلت ستمائة نسخة من طبعة والدن «طبعة المخطوطة»، كما كانت تسمى لان الجزء الأول من كل مجموعة كان يتضمن فى صفحاته الأولى، صفحة حقيقية عن مخطوطة ثورو- و كانت تلك فكرة غريبة، جعلت الباحثين يستشيطون غضبًا وهم يحاولون تتبع هذه الصفحات المبعثرة، التى ضاع كثير منها. واستندت هذه الكتب التى طبعت بطريقة مدهشة إلى طبعات سابقة، ومن ثم لم تكن كاملة. ولم تبدأ طبعات جديرة بالعلماء بشكل أكبر فى الظهور فى شكل كتابات هنرى د. ثورو التى طبعتها سنوات كثيرة مطابع جامعة برلستون

وحررتها أيادى مختلفة، إلا فى أوائل السبعينيات. (لم يتم تجميع أعمال ثورو الكاملة مطلقًا، حيث إنه ترك وراءه مواد بهذه الضخامة فى شكل مقالات، وأشعار، وخطابات، ومذكرات متنوعة).

وقد كتب الباحثون الكثير عن التأثير العالمى لكتاب ثورو المعنون «العصيان المدنى» على شخصيات مثل تولستوى وغاندى. كذلك كان لكتاب والدن تأثير عميق على أجيال من القراء، وكان عونًا وإلهامًا لمن كانوا يريدون الاقتراب بدرجة أكبر من الطبيعة ويبحثون فى الوحدة عن أنواع من الجوائز الروحية التى وصفها ثورو. ومع ذلك، يظل من الصعب قياس مدى تأثير ثورو فى تشكيل المخيلة الأمريكية على وجه الدقة.

ومثلما يشير لورنس بويل فى مؤلفه «المخيلة البيئية»، فإن منزلة ثورو فى الثقافة الأمريكية كانت معقدة، وأن سمعته تغيرت على نطاق واسع عبر الأجيال. ففى القرن التاسع عشر، كان ثورو يُعتبر إلى حد بعيد شخصية ضئيلة فى مدرسة فلسفة التسامى «شخصية» مضت بنفسها وإرادتها للبرارى، كاتبًا للمشاهدات الطبيعية. وقد استغله فى أوائل القرن العشرين النقاد الذين أرادوا أن يعلوا من شأنه عندما رغبوا فى أن يحطوا من قدر كُتاب آخرين «أكثر أرستقراطية»، مثل هوابتر ولونجفلو. وفى الثلاثينيات ومع نشر سيرة ثورو الكاملة بواسطة هنرى كانبى، اعتبر منشقًا أمريكيًا، ناقدًا للمادية ولم يأخذ ثورو مكانه ككاتب كلاسيكى أمريكى، إلا بعدما حلل ف. و. ماثين كتاب والدن مطولًا فى مؤلفه النهضة الأمريكية (1941). وسرعان ما بدأ النقاد (مثل جويل بورت) فى التمييز بين إيمرسون وثورو، فصوروا الأول باعتباره فيلسوفًا «مثاليًا» وصوروا الأخير بأنه من دعاة التجريبية. وبدأ ستانلى كافيل، وهو نفسه فيلسوف، يعتبر والدن جزءًا من جهود ما بعد كانط لاسترداد «الشيء فى حد ذاته» وهو ما يعنى (فى تخمينى) أنه اعتبر أن ثورو مضى لما وراء مثالية كانط وأتباعه، ممسكًا بأسطح الحياة الصلدة «الحقيقية»، مركزًا على مفردات يمكن لمسها وتذوقها، مثل الماء فى بركة

والدن. وأصبح ثورو شخصية مركبة له قامة أدبية كبيرة على نحو لاجدال فيه، مع ظهور عشرات الدراسات الكبرى عنه فى ستينيات وسبعينيات القرن الماضى.

ومثلما يؤكد بويل، فإن ثورو أغرم برواية الرحلات وقرأ نحو مائتى كتاب من هذا الصنف، وكان كتابه المفضل هو رحلة البيجل (كلب صيد) لدارون (1839). ويضع بويل ثورو ودارون عن حق على قدم المساواة، حيث أسهما كلاهما فى رؤية إيكولوجية لم تزدد على مر السنين إلاترسخًا. «إن أفكار دارون وفن ثورو لم يؤثرا على مسيرة العلم الحديث والكتابة الحديثة عن البيئة على التوالى فحسب، بل أثرا أيضًا على إعادة كتابة التاريخ، حيث إننا نرى حاليًا أن الفكر فى القرن الثامن عشر هو الذى أدى إلى دارون والكتابة الأمريكية عن البيئة كمرحلة ما قبل الطوفان «قبل ثورو». والحق أن المرء لا يمكنه أن يتخيل عالم الكتابة الأمريكية عن الطبيعة بدون ثورو. فقد قدم لنا كيانًا من الأعمال التى تستدعى على نحو محبب العالم الطبيعى وتستكشف «أوجه التطابق» التى لا تنتهى بالمعنى الذى قصده إيمرسون، مع العالم الروحى. لقد أنشأ ضربًا من الكتابة كان مثمرًا لمالا نهاية. وعلى مر الوقت، جذب والدن فى أعقابه حشدًا من الكتب التى تحذو حذوه، كان كثير منها رائعًا.

وتتراوح الكتب التى تنتمى لتراث ثورو من كتاب جبال كاليفورنيا (1894) لجون موير إلى كتاب إدوار آبى صحراء الماس (1968) وما بعده. ويستند كتاب آبى إلى تجربة الكاتب كحارس حديقة عامة فى جنوبى يوتاه، وهى مشهد طبيعى أشد بدائية ويخلو من آثار البشر أكثر من أى شىء اختبره ثورو. وترديدًا لصدى ثورو، يزعم آبى أنه مضى إلى الصحراء «ليواجه، فورًا وعلى نحو مباشر إذا أمكن، عظام الوجود الجرداء». ويضيف «حلمت بتصوف شاق و وحشى تتبدى فيه النفس العادية بعالم غير إنسانى، ومع ذلك يظل المرء حيًا منفصلًا دون أن يمسه ضُر». ومن بين الأعمال الأخيرة التى تدين بالكثير لكتاب والدن واحد من أفضل الكتب بالنسبة لى، وهو الهجرة إلى نهير تنكر (1974) لآنى ديلارد - وهو كتاب عن تجربة المؤلفة عن الحياة الطبيعية فى وادى جبال ريدج الزرقاء. ومثل ثورو، استكشفت ديلارد إمكانيات رؤية كل ما يوجد حولها من أوجه تماثل سامية مع الواقع الروحى والتوصل لذلك. ويمكن

للمرء أن يذكر أيضًا فى هذا السياق كتاب فى البرية، وهو كتاب جون كراكاور الأفضل مبيعًا عن مغامر شاب، وزاهد، هو كرستوفر ماكندلس، اختفى فى براري ألاسكا فى 1922. كان ما كندلس مغرمًا بثورو واحتفظ بيومياته خلال الإقامة المؤقتة فى البرارى التى أدت لوفاته قبل الأوان (يمثل ماكندلس الجانب الأشد قتامة من تأثير ثورو: السقوط طليق العنان فى الوحدة وتحول المرء إلى الإيمان بأنه لاشيء يوجد سوى الأنا، بل وإلى شخص مدمر).

إن الذى يميز كل الكتابات على غرار ما فعل ثورو هو التحول بفعل التفكير الذاتى. ذلك أن ثورو بوضعه لنفسه فى مركز عمله، جامعًا بين النوع المحلى من السيرة الذاتية الأمريكية وبين الكتابة عن الطبيعة بأسلوب عميق، خلق فى والدن كتابًا يواصل دعوتنا لأن نعيش بترو أكبر، فى ارتباط وثيق بعالم الطبيعة، متسائلين عن القيم التى نتبناها والافتراضات العريضة عن المجتمع عمومًا. ويمثل هذا الكتاب تحديًا مباشرًا للمادية الأمريكية ويفيد كحجة مضادة مدهشة للعناصر الموجودة فى هذا البلد التى تصر على أنه بلغ السيل الزبى، وأننا ينبغى أن نتطلع إلى الحصول على أشياء أكثر فأكثر، مثل المنازل والسيارات والملابس والأدوات. لقد وجد ثورو مصدرًا للسعادة فى العيش ببساطة، ويخبرنا المرة تلو الأخرى بأن الحياة الطبيعية تكمن حولنا، وفى متناولنا.

وهو يسأل فى والدن: «كم مرة أرخ الإنسان عهدًا جديدًا فى حياته من قراءة كتاب ما؟» كم فعلًا؟ وكم عدد من يعتبرون أن والدن هو هذا الكتاب؟ اعتقد أن عددًا جيدًا من الناس فعل ذلك. وفى كتابها «الذهاب إلى والدن» تتأمل الشاعرة مارى أوليفر «رسالة» ثورو المعقدة. وهى ترد فى شعرها على الأصدقاء الذين اقترحوا عليها أن تسافر بسيارتها إلى والدن بوند فى رحلة دامت يومًا، لتلمس عن كثب معنى العمل الفذ لثورو. فقد قاومت هذه الرحلة المادية، مشيرة إلى أن:

الذهاب لوالدن ليس شيئًا هينًا منى كزيارة خضراء،
بطيئة وصعبة كحيلة للحياة، وستجدها أينما كنت.



UNCLE TOM'S CABIN;

OR,

LIFE AMONG THE LOWLY.

BY

HARRIET BEECHER STOWE.



VOL. I.

BOSTON:
JOHN P. JEWETT & COMPANY.
CLEVELAND, OHIO.
JEWETT, PROCTOR & WORTHINGTON.
1852.



6

كوخ العم توم

1

لم يؤثر كتاب كوخ العم توم (1852) على قارئ بصورة ضارية مثلما أثر على هنرى جيمس كشاب فى مطلع خمسينيات القرن التاسع عشر كما يقول فى سيرته الذاتية. قال «عشنا وتحركنا فى ذلك الوقت، بصورة محمومة للغاية، فى رواية السيدة ستو» واصفًا هذه الرواية الشعبية بأنها «ككتاب أقل منها كثيرًا عنها كحالة من التجلى». والواقع أن قلة من الكتب فى أى جيل تقارن بكتاب كوخ العم توم من حيث تأثيره المحض. فلم يبع فقط كميات هائلة من أحسن الكتب مبيعًا، محطمًا كل الأرقام القياسية فى القرن التاسع عشر، ولكنه غيّر أيضًا طريقة تفكير الناس عن القضية العنصرية. وهى القضية التى سادت الثقافة الأمريكية طوال قرنين. وأذكت الحركة الداعية لإلغاء العبودية وطرحت السمات الأمريكية أمام جمهور حاشد (من البيض أساسًا) بطريقة تنبض بالحيوية.

وفى الترحيب بمؤلفتها هارييت بيتشر ستو فى البيت الأبيض فى 1862، قيل أن أبراهام لنكولن هتف قائلًا: «إذن أنت السيدة الصغيرة التى كتبت كتابًا أشعل هذه الحرب العظمى!» كانت سيدة ضئيلة فعلًا. لقد أذكت روايتها المشاعر المعادية للعبودية فى الولايات الشمالية، وأثرت على نحو دائم على فهمنا للعبودية. وفى حين كانت قراءة الكتاب بين مدّ وجزر، فإنها لم تبعد مطلقًا عن مركز المناقشة الأمريكية حول موضوع العنصرية، وبقيت عملًا كلاسيكيًا أمريكيًا، عملًا له قدرة غير مسبوقة على تغيير الأفئدة والعقول. وبالطبع، يتوقف ما إذا كان يمكن تسميتها عملًا «عظيمًا»، على معاييرك الجمالية، فقد دعاها جورج أويل «المثال

السامى للعمل السيئ الجيد»، لكنه أقرّ بأنها «رغم غرابتها المضحكة» فإنها «تدفع للأمام قدمًا بصورة عميقة وأنها صادقة فى جوهرها». وهذه الرواية التى تدور حول رجل أسود عبقرى باعه مالكه قليل الحظ إلى صديق سادى، ممتعة فى قراءتها ومؤثرة على نحو يدفعك لذلك دفعًا، مثلما لاحظ قراء من تشارلز ديكنز إلى جورج صاند وليو تولستوى، رغم أن الشخصيات فيها عادة تصدم القراء المعاصرين باعتبارها شخصيات مقولبة وميلو درامية - وذلك أمر لايدعو للدهشة بالنسبة لكتاب خلق كثيرًا من القوالب التى نربطها بالعبودية فى الجنوب قبل الحرب الأهلية. وفى ضوء موضوع الكتاب وقيمته التاريخية، فقد حظى بعملية إحياء فى السنوات الأخيرة، واسترده النقاد على جبهات كثيرة. ولايزال عملًا له قوة إغراء غير عادية، باعتباره أثرًا فينا ووثيقة اجتماعية. والمؤكد أنه استحوذ على جيل ستو وا ستمر يؤثر بصورة مباشرة على الأفكار المتعلقة بالعنصرية فى أمريكا عقودًا. (تم تمثيل صيغة مسرحية شعبية من الرواية فى الثلاثينيات).

2

لقد قدمت هارييت بيتشر ستو هذه الرواية (الأولى لها) فى نوبة الغضب المستعر التى ثارت ضد قانون العبد الآبق سيئ السمعة الصادر فى 1850، وهو قانون جاء كحل وسط صاغه هنر كلاى ودانييل ويستر وآخرون لابد أنهم كانوا على علم أفضل بالموضوع. وأعلن القانون الجديد أن الهاربين يمكن (ويجب) إعادة أسرهم وإعادتهم للعبودية. وأن من ساعدوا فى هروبهم يواجهون خطر المحاكمة القانونية، باعتبارهم شركاء فى الجريمة. وأنكر القانون على العبيد المأسورين الحق فى المحاكمة أمام هيئة محلفين وزاد عدد الضباط الفيدراليين المنخرطين فى عملية القبض على الهاربين. ولايكاد المرء حاليًا قادرًا على أن يفهم هذا العمل من قبل الكونجرس لكن كانت هذه لحظة حرجة فى الولايات المتحدة، عندما بدا مشروع الاتحاد كله أكثر هشاشة منه فى أى وقت سابق، أساسًا بسبب قضية العبودية.

وترددت أسئلة كثيرة لم تلق جوابًا. هل ستصبح الأراضى الجديدة التى أضيفت للاتحاد، بما فى ذلك كاليفورنيا، ولايات بها عبيد؟ كيف يمكن لبلد يتسم بالإنسانية ويعد ديمقراطيًا، بلد تأسس على فكرة أن كل الناس خلقوا متساوين، أن يسمح باستمرار تجارة العبيد؟ كان الإنجليز قد ألغوا هذه الممارسة فى 1833، وأصبحت عيون العالم مركزة حينذاك على الولايات المتحدة. وقد أصبح المثقفون فى الشمال، مثل إيمرسون وثورو، من دعاة إلغاء الرق متقدى الحماسة، وركزت الصحف على حركة إلغاء الرق التى انبثقت فى كل مكان، بما فى ذلك صحيفة العصر الوطنى التى رأس تحريرها جاماليل با يلى.

لقد كتبت ستو وهى ربة منزل وأم تزوجت من أستاذ للاهوت غير بارز، عملًا ليس من الخيال يتسم بالإقناع للاحتجاج على مرسوم العبد الآبق، أعجب به بايلى ونشره. كما كتبت بضعة من قصص أخرى، تكشف عن موهبة فى الأدب القصصى. وفى 1851، قدمت ملخصًا للرواية التى أصبحت هى رواية كوخ العم توم فى رسالة إلى بايلى، الذى ردّ عليها بحماس،

وحثها على الشروع فى العمل. وسرعان ما بدأت الرواية فى الظهور فى حلقات منتظمة، وأثبتت أنها ضربة موفقة لبايلى وصحيفته، ولحركة إلغاء الرق بصفة عامة. وينبىء مجرد أن ستو قد اختارت أن تكتب لصحيفة العصر الوطنى بدلًا من إحدى المجلات النسائية الشعبية، مثل كتاب ليدى جوديز، بالكثير عن ستو. وعلى الرغم من أن المرأة لم يكن لها حق التصويت، فقد مارست بشجاعة حقها فى الكلام، مثلما فعلت نساء كثيرات أصبحن من دعاة إلغاء الرق القياديين.

كانت ستو محظوظة فى تعليمها. فقد كانت شقيقتها الكبرى قد التحقت بمدرسة ثانوية للبنات فى كونكتكت، وأرسل والديهما هارييت هناك. وسرعان ما أبدت ذكاء هائلًا، فكتبت مقالات واحتلت منزلة بارزة كقائد بين جماعة الطلاب وباعتبارها جزءًا من عائلة تضم تسعة أبناء أشقاء بشكل كامل وأربعة أبناء غير أشقاء، كانت قد تعلمت بالفعل كيف تقاتل فى سبيل حقها فى الكلام.

كان أبوها، ليمان بيتشر يسيطر على هذه التفريخة الثرثارة. كان راعى كنيسة مستقلة مشهورًا وعالم لاهوت أصبح رئيسًا لمعهد لين اللاهوتى فى سنسناتى فى 1832. وأثبت الانتقال من كنكتكت إلى أوهيو أنه أمر جيد بالنسبة لهارييت الشابة التى التحقت بنادى سيمى - كولون، وهى جمعية أدبية كانت مزدهرة، حيث وجدت دائرة نشيطة للحديث. وحيث إن نهر أوهيو كان يفصل بين أوهيو، وهى ولاية لا تأخذ بنظام العبيد، وكنتاكى، وهى ولاية تأخذ به، فإن قضية العبودية كانت مطروحة بصورة مثيرة، وأصبح النهر نفسه رمزًا للحرية. وكان كثيرون ممن حولها فى سنسناتى يؤون العبيد الهاربين - وكان قطار الأنفاق - وهو شبكة طرق تحت الأرض لتوصيل العبيد الهاربين إلى كندا - معروفًا تمامًا بين أصدقائها وزملائها.

وفى اجتماع فى ناديها، قابلت أرملًا شابًا خجولًا، كان مثل أبيها أستاذًا للاهوت وراعى كنيسة. وتزوجت كالفن ى. ستو فى 1836 وبدت راغبة تمامًا فى الاستقرار. لكنها أحست برغبة عارمة فى الكتابة ونشرت فى 1843 مجلدًا من القصص عن حياة المهاجرين

فى ماساشوستس المبكرة جذبت عددًا صغيرًا من القراء وإن كانوا من المهتمين. كان هذا الزواج، بقدر ما يمكن للمرء أن يقول حقًا من مثل هذا البعد، زواجًا جيدًا، وتضاعف دخل الأسرة بصورة ضخمة بفضل كتابات ستو، رغم أن جمع المال لم يكن هدفها مطلقًا.

لقد انجذبت لقضية إلغاء الرق مبكرًا جدًا، لكنها لم تتحدث حتى 1836، عندما كتبت رسالة احتجاج بشأن تشويه بحث ينادى بإلغاء الرق، بعنوان المحن، حرره جيمس ج. بيرنى (وهو صديق كان قد شجع هارييت فى عملها الأدبى).

وظهرت رسالتها النارية بدون توقيع فى صحيفة سنسناتى جورنال التى كان يحررها أحد أشقائها. كان هنرى وارد بيتشر - وهو رجل دين بارز ومن دعاة إلغاء الرق، ومثقفًا عامًا، قد أصبح واحدًا من الأصدقاء الحميمين لمارك توين. وكانت كاثرين شقيقة هارييت بالفعل مع دعاة إلغاء الرق المفوهين ونشرت فى 1837 مقالًا عن العبودية وواجب نساء أمريكا فى التصدى لها. كما كان شقيقان لهارييت من دعاة إلغاء الرق الأقوياء، ومن ثم فقد أحاط بها مناخ يشجع إلغاء الرق. لم يكن أحد يستطيع أن يتنبأ بأنها ستكتب كتابًا مثل كوخ العم توم- رواية شدت الملايين من القراء، من عدة مستويات.

ولاتزال حياة ستو الشخصية سرًا نوعًا ما، على الرغم من أن كُتاب سيرة كثيرين كتبوا عنها مطولًا. ولاتزال علاقتها بزوجها محيرة. فقد كانت لهما اهتمامات مشبوبة مشتركة، بما فى ذلك التفانى فى قضية إلغاء الرق. ومع ذلك، فقد تصارعا، مثلما كان يفعل كثير من الأزواج فى هذه الفترة، حول قضية منع الحمل، مبددين قدرًا كبيرًا من الوقت - لمجرد التأكد من أن هارييت ليست حاملًا، مثلما توضح جوان د. هدريك فى كتابها عن حياة ستو. وتكشف الخطابات المتبادلة بين كالفن وهارييت عمق علاقتهما الحميمة، كما تنم عن ضغط عن ثنائية جنسية غير معترف بها عند كالفن. وكما يخبرنا هيدريك فقد كان لكالفن علاقات حميمة كثيرة مع رجال، وعندما كانت هارييت تسافر إلى الخارج أو تزور منتجعًا أو أقارب، كان ينام أحيانًا مع صديق وقد أخبر زوجته: «عندما أغدو يائسًا، ولا أعود قادرًا على الصمود، كنت أتصل بالأخ استاج الصديق العزيز من النوع طيب القلب وأطلب منه أن

يأتى وينام معى، وكان يضع ذراعيه حولى ويحضننى حتى قرارة قلبى» (وستاج وتعنى المهد اسم على مسمى). كما كان هناك صديق آخر، «السيد فاربر» يحظى بالنوم مع كالفن، الذى اعترف لهاربيت أنه «قبلّ وقبلّ وجهى البارد الخشن كما لو كنت أجمل سيدة شابة وليس رجلًا عجوزًا عفنًا. لقد أرسله الرب هنا لراحتى» ويضيف «إنه يجعلنى أنام معه بين حين وآخر، وهو يقول، إن ذلك جيد مثل جودة أن يكون المرء متزوجًا – الروح الجاهلة البريئة الصغيرة العزيزة».

ويجب على المرء أن يضع فى ذهنه أنه خلال هذه الفترة كان من الشائع أن ينام الرجال معًا وأن لم تكن العلاقة الجنسية الحميمة متضمنة فى ذلك بالضرورة. ومع ذلك لا يستطيع المرء أن ينكر الاتجاه اللوطى الخفى فى خطابات كالفن إلى زوجته، ولابد أن يفترض أنها لم تفكر بالسوء فى زوجها بسبب علاقاته الجنسية مع ستاج وفاربر، من بين آخرين. ربما كانت أقل رغبة فى أن ترى كالفن يبدد الوقت فى كيس كبير مع نساء شابات.

وأسئلة كبار كاتبى السيرة الذاتية لا يمكن مطلقًا «الرد عليها، لكن يمكن للمرء عادة أن يتبين أين تكمن الجذور المظلمة للأفكار. فلاريب أن لرواية كوخ العم توم مصادر كثيرة فى حياة المؤلفة. وفى 16 ديسمبر 1852، كتبت إلى داعية إلغاء الرق اليزا كابوت فولن تقول:

> كنت أمًا لسبعة أبناء، يكمن أجملهم وأحبهم مدفونًا قرب مسكنى فى سنسناتى. عند سرير موته وعند قبره تعلمت ما قد تشعر به أم عبدة فقيرة عندما يؤخذ ابنها بعيدًا عنها. وفى أعماق هذا الأسى، الذى يبدو لى أمرًا لا يمكن قياسه، كانت صلواتى لله أن لا تضيع المعاناة من مثل هذا الكرب هباء . كانت هناك ظروف أحاطت بوفاته لها مرارة خاصة، ولا يمكن أن يوجد ما يعزينى عن المعاناة القاسية التى تعرضت لها إلا أن يمكننى انسحاق فؤادى أنا هذا من العمل لتحقيق بعض الخير العميم للآخرين. وأشير إلى هذا هنا لأننى أشعر عادة أن كثيرًا مما جاء فى الكتاب له

> جذوره فى المشاهد المرعبة والحزن الأشد مرارة لهذا الصيف. وهو أمر لم يخلف، كما أثق، أى أثر على عقلى سوى تعاطف عميق مع الحزانى، خاصة الأمهات اللاتى انفصلن عن أطفالهن.

وإضافة لذلك، كان لستو مصادر خارجية كثيرة ألهمتها. فقد كانت أمامها على سبيل المثال السيرة الذاتية الشعبية لفريدرك دوجلاس وكتاب لعبد هارب اسمه جوسيا هنسون، عمل فى ماريلاند فى مزرعة للتبغ قبل هروبه إلى كندا فى 1830 (بعد نجاح كوخ العم توم أعاد الناشرون هنثون نشر هذا الكتاب باسم قصة حياة العم توم). وقد كانت هناك مذكرات أخرى كتبها عبيد سابقون، حكى كثيرون منهم حوادث مشابهة للأحداث التى وصفها كتاب ستو. ومثلما فسرت ستو فى مفتاح إلى «كوخ العم توم» (1853)، فقد استندت إلى مصادر وفيرة، تشمل محاورات مع عبيد هاربين وتقارير أعدها أحد أشقائها، الذى كان من الواضح أنه قابل رجلًا يشبه تمامًا سيمون ليجرى مالك العبيد الزنيم. ومن المستحيل تقريبًا تخمين أى المصادر كانت هى الأهم بالنسبة لستو، التى أكدت لقرائها أن الحوادث التى تشكل القصة «حقيقية لحد كبير جدًا» (462).

والمؤكد أنَّ القراء اكتشفوا فى كوخ العم توم قصة تطابقها كبير مع مقتضى الحال وجاذبيتها شديدة. وكان على ثمان مطابع أن تعمل ليل نهار لمسايرة الطلب، الذى بدا أنه لاينضب فقد تم بيع ثلاثمائة ألف نسخة فى السنة الأولى وحدها، وكانت هذه هى البداية فحسب. ولم تصبح الرواية مجرد ظاهرة أمريكية بل أصبحت ظاهرة عالمية، وباعت نسخًا أكثر من أى كتاب فى القرن التاسع عشر فيما عدا الإنجيل. كانت طبعات جديدة تظهر سنويًا لمدة خمسة عشرة سنة، وكانت هناك عمليات تكييف عديدة لها لتلائم المسرح (وأخيرًا) السينما. وأصبح النجاح التجارى للكتاب بندًا فى حد ذاته فى الأخبار، لايختلف عن نجاح سلسلة هارى بوتر حاليًا. لكن كتاب ستو يترك الصبى الصغير بنظارته المستديرة والندبة المتعرجة على جبهته فى حال من الهوان. لقد غير كتاب كوخ العم توم بالفعل - أو ساعد بصورة ضخمة فى تغيير - الطريقة التى كانت تفكر بها أعداد لاتعد ولاتحصى من القراء فى الولايات المتحدة فى العنصرية والعبودية. وربما القضايا المحورية للتاريخ الأمريكى.

3

تبدأ الرواية بأزمة، هى أن مالك العبيد المحسن آرثر شلبى قد يفقد مزرعته فى كنتاكى بسبب عدم الكفاءة المالية. وقراءة المشهد مؤلمة. حيث يلتقى شلبى الذى يطلق العنان لأهوائه مع تاجر عبيد فظ، السيد هالى، الذى يسعى لأن يشترى من شلبى عبدًا فى منتصف العمر أثيرًا لديه، هو العم توم، وكذلك صبيًا يافعًا، هارى، وهوا بن اليزا، خادمة السيدة شلبى. وكما يقول شلبى بطريقته واهنة العزم: «لم أكن أود أن أبيعه». كان مبرره لهذا هو: «أنا رجل عطوف، وأكره أن آخذ صبيًا من أمه، يا سيدى» (9). بيد أن هذا ما عمله فحسب، وإن كان بنفور.

استرقت اليزا السمع لهذا الحديث وروعتها هذه الخيانة. وكشفت عن مخاوفها لسيدتها، التى سارعت بطمأنتها بأن زوجها لن يفعل مثل هذا الشىء الرهيب. كتبت ستو: «كانت السيدة شلبى. الجاهلة كليًا بالمتاعب المالية لزوجها، والتى لاتعرف سوى الرحمة العامة فى طبعه، مخلصة تمامًا فى تشككها لذى ردت به على ظنون اليزا» (15). ومع ذلك، فقد ظهرت الحقيقة. وقررت اليزا بشجاعة أن تفرّ بابنها، وهكذا تبعت زوجها، جورج هاريس، وهو امرؤ كفء بصورة جبارة كان يعمل فى مزرعة مجاورة وفرّ مؤخرًا متجهًا إلى الشمال بعد أن وعد زوجته أنه سيتمكن بطريقة ما من الحصول على حريتها وحرية ابنه.

إنها بنية مثيرة للمشاعر بالنسبة لرواية لم تفشل أبدًا فى الانتقال سريعًا من مشهد لآخر. إن لغة ستو واضحة وتفكيرها نضر، وهى مشوقة فى قراءتها مثلما كانت عندما ظهرت فى شكل حلقات. كانت ستو تكتب عادة مستعينة بالاستعارات، مثلما ورد عندما أنهى شلبى وهالى الحديث بصورة مبدئية وقلّب شلبى الفكر فى رأيه: قال هالى: بعد أن تناولا الجوز واللوز فى صمت وفى أناة وتمهل شديدين «حسنًا ماذا تقول؟» (لقد أكلا الجوز واللوز بالفعل، ولكن المعنى مجازى مثلما هو حرفى). وتم اتخاذ قرار خطير، وكانت «الأناة والتمهل»

ضرورين لاتخاذه، فى شكل توقف طويل للتفكير. وبالمثل، فإنه عندما رأى هالى اليزا للمرة الأولى، قال «هناك بندا الآن!» (9). كانت كما هو مألوف «بندا» فى كل المعاشرات الجنسية التى لازلنا نطلق عليها ذلك المصطلح. لكن هذه المرأة الشابة الوسيمة، اختزلت أيضًا إلى شىء يمكن «تسوقه». إنها ملكية. وكما نرى، فإن اللغة تعمل على مستويات كثيرة.

ونلتقى بالعم توم فى الفصل الرابع المعنون مساء فى كوخ العم توم «وهذا الكوخ مكان جميل، نظيف ونقى فى كل المناحى فى اختلاف صارخ عن القول العنصرى بأن السود لايمكنهم الإبقاء على نظافة منازلهم أو أنفسهم.» كانت أمامه حديقة صغيرة رائعة، حيث تزهر فى كل صيف أشجار الفراولة والتوت، وتشكيلة من الفواكه والخضراوات فى ظل عناية حريصة «كما كتبت ستو» كانت الواجهة كلها أمامه مغطاة بورود البغنونية القرمزية الكبيرة وبورود محلية متعددة الأزهار، تنجدل وتتشابك معًا، ونادرًا ما تترك مجالًا لرؤية كتل الأخشاب غير المصقولة» (65). وأعتقد أن ما ينبغى ملاحظته هنا، هو خصوصية الكتابة، ودقتها العليمة، والكشف الأنيق عن المعلومات وتركيب الجمل المركب على نحو سائغ. لم يكن جون أبديك يستطيع أن يفعل خيرًا من هذا. إن الأداة اللغوية لكوخ العم توم رائعة وجديرة بالاهتمام فى كل مكان، وتدحض الآراء التى كثيرًا مايتم الإعراب عنها والقائلة بأن هذه الرواية عمل من الدرجة الثانية على نحو ميئوس منه ولاتمثل تحفة فنية على الإطلاق.

وتتجه الاعتراضات على الرواية عادة إلى «عاطفيتها» وإفراطها فى المشاعر الجياشة، وحبكتها الميلودرامية. المؤكد أنه يمكن وضع ستو بصورة عريضة ضمن تقليد الأدب القصصى العاطفى، وهو الشكل الذى بلغ أوجه فى القرن التاسع عشر. وكان المستهدف بهذا النوع من الروايات هو النساء القارئات بصفة خاصة، وتكمن قضايا المرأة فى لُبّ هذا الكتاب. فالشخصيات النسائية فى الرواية قوية، ويخرج المرء بانطباع هو أن ستو كانت تعتقد أن العبودية لن تنتهى إلا على يدى النساء. والروايات العاطفية كانت تخرج عن نطاق اهتمام القراء الجادين فى أوائل القرن العشرين، ومع ذلك فقد دوّت شهرة ستو مجلجلة. ومثلما أبرز هيدريك «لقد نجم الانهيار عن أبعاد الأدب من قاعات الاستقبال إلى المؤسسات التى

كان وصول النساء إليها محدودًا: نوادى الرجال، وصحف الأدب الرفيع، والجامعات عالية المقام». وبالحكم على أساس المعايير الجمالية، فإن روايتها يتعين فى الواقع اعتبارها إنجازًا متميزًا، يقف على قدم المساواة وعلى نحو مريح مع السير والترسكوت.وتشارلز ديكنز، وكلاهما اثيرين لدى ستو. (للاطلاع على استعراض متغير للتقاليد العاطفية التى تندرج فيها رواية ستو، انظر «القوة العاطفية: كوخ العم توم ومبادئ تاريخ الأدب، لجين تومكنز). كانت كلوى هى زوجة العم توم وأم أولاده. وكتبت ستو تقول «كانت على وجه التأكيد طباخة حتى النخاع ومن صميم فؤادها وروحها» (26). وعلى الرغم من وجود الأطفال، كان الزواج يبدو خاليًا من الجنس، كان سريرهما «مغطى بغطاء أبيض بلون الثلج بصورة مرتبة»، بما يوحى بنوع من البراءة، بل بالعذرية. لكن توم نفسه كان مثيرًا للإعجاب من الناحية البدنية: «فقد كان رجلًا ضخمًا، عريض الصدر، قُدّ من صخر، سواده مصقول بالكامل، ويتسم وجهه بملامحه الأفريقية بتعبير وقور ويترك انطباعًا طيبًا على الدوام، مقترنًا بكثير من الحنان وحب الخير». (27) إن العم توم هو صورة مغالى فيها على نحو لا يمكن إنكاره، وتظل صورته أحادية الجانب، بل غير متوازنة إذ يبدو طيبًا بأكثر مما هو فى صالحه. وإجمالًا أصبحت شخصية «العم توم» (خاصة خلال مرحلة النضال من عهد الحقوق المدينة، فى أواخر العقد السادس من القرن العشرين) طريقة ساخرة فى الحديث عن الرجل الأسود الذى يتزلف للرجل الأبيض. لكن توم كان فى ذهن ستو، الرجل نبيل المحتد المسيحى الكامل.

كما نلتقى بجورج شلبى الشاب فى هذا الفصل. وهو صبى فى الثالثة عشرة من عمره، كان يعبد العم توم، وكان توم يبدو متعلقًا بالصبى أكثر من تعلقه بزوجته وأبنائه (الذين يبدو أن اتصاله بهم كان قليلًا). وعندما يكون توم مع أسرته، كان يتحدث بعامية قومه، أما فى صحبة المتعلمين من الرجال والنساء البيض، فكان يتحدث مثلهم. ويعنى ذلك مستوى من الذكاء والمرونة اللغوية حرم منهما معظم شخصيات ستو من البيض. وعلى الرغم من أن قراء كثيرين يعجبون بعقل كلوى المتميز، فقد كانت شخصيته مبتذلة نوعًا ما، لا تتجسد قدراتها با لكامل مطلقًا. وقد أدت سطحية رسم الشخصيات عادة إلى اتهام ستو بأنها تتعامل

مع قوالب نمطية. وفى اعتقادى، فإن هذا يبدو حقيقيًا بصورة جزئية فحسب ولا ينقص من قدر الرواية باعتبارها إنجازًا فى سياقها. لم يحاول روائيون كثيرون فى هذه الفترة، ومنهم ديكنز، تحقيق الكمال لشخصياتهم. فلم يكن تحقيق الكمال جزءًا من قيمتهم الجمالية.

وتتدفق الرواية كموجة عارمة. وتدور حبكتها بسرعة كبيرة، بقصد انتزاع اهتمام القراء (كما فى روايات ديكنز المنشورة فى حلقات)، ولجعلهم يستمرون فى تقليب الصفحات لقراءتها. والفصل الخامس معنون بطريقة ستو الساخرة النموذجية: «إظهار مشاعر ملكية من الأحياء تجاه ملاك متغيرين». وحينذاك تكتشف السيدة شلبى فظائع توشك أن ترتكب وتعرب عن ألمها المبرح، لكنها ساذجة بشأن الحالة المالية لزوجها، بل وحيال شخصيته. وهى تتحدث عادة لغة شبيهة بلغة التوراة، مثلما تفعل شخصيات كثيرة فى هذه الرواية. وتكشف ستو باستمرار عن معرفتها بالتوراة، مثلًا عندما تقول السيدة شلبى لزوجها «لن أكون بأى حال شريكًا فى هذا العمل القاسى أو أساعد فيه. سأذهب وأرى توم المسكين، ليساعده الله فى محنته! سيرون على أية حال، أن بؤسهم يمكن الإحساس به من أجلهم ومعهم. وفيما يتعلق باليزا، لا أجرؤ على التفكير فيها. ليغفر الله لنا! ماذا فعلناه، لماذا أجبرتنا الضرورة القاسية على هذا ؟» (42). لابد أن قراء ستو سمعوا أصداء أبيات معروفة، بما فى ذلك ما جاء فى إنجيل لوقا 34:23 حيث يقول يسوع: «يا أبتاه اغفرلهم لأنهم لايعلمون ماذا يفعلون»، وما جاء فى سفر العدد 22: 28-30 والذى ضرب فيه صاحب حمار حماره وتحدث ملاك نيابة عن الحمار صارخًا: «ماذا صنعت لك حتى ضربتنى الآن ثلاث دفعات؟» وينتهى هذا الفصل بهروب اليزا مع طفلها، متجهين إلى كندا، حيث تأمل فى لم شملها مع زوجها، وكان ذلك تطورًا مفاجئًا يبعث على الأسى لكل المعنيين، بما فى ذلك توم وكلوى، اللذين شُدِها عندما علما أن السيد شلبى قد انحدر لهذا الدرك ليبيع هارى وتوم.

ويكشف الفصل السادس عن هرب اليزا، وسرعان مابدأت المطاردة، مع مسارعة هالى بملاحقة ملكيته التى كان قد اشتراها مؤخرًا. ويبدأ الفصل السابع كالتالى: «من المستحيل تصور وجود مخلوق بشرى أكثر بؤسًا ويأسًا من اليزا» (57). والكتابة هنا متوترة ومحددة

وصادقة بصفة خاصة. فقد أسرعت اليزا فى طريقها إلى نهر أوهيو، وتشير إيماءات هنا لعبور أنهار شتى فى القوراب، مثل نهر الأردن فى خلفية المشهد. وتعلى ستو هروب اليزا وهارى إلى منزلة أسطورية حيث ينتقل الفصل صوب مشهد شهير، تقفز فيه اليزا من طوف جليدى لآخر عبر نهر شبه متجمد، وهى تحمل طفلًا بين ذراعيها:

> لقد تهشمت كتلة الثلج الخضراء الضخمة التى ترجلت عليها وأصدرت صريرها عندما وقع ثقلها عليها، لكنها لم تمكث هناك ولو للحظة. إذ قفزت بصرخات وحشية وطاقة يائسة إلى كتلة أخرى ثم لكتلة متراصة أخرى - متعثرة - قافزة - منزلقة - مرتدة للوقوف ثانية! كان حذاؤها قد ضاع، وجوربيها تقطعا من على قدميها - فى حين كان الدم يلطخ كل خطوة، لكنها لم تكن ترى شيئًا، ولم تشعر بشىء حتى رأت بصورة مبهمة، كما فى الحلم، ضفة نهر أوهيو، ورجلًا يساعدها على الشاطئ (68-76).

وقد صور هذا المقطع فنانون كثيرون ولايزال يمثل صورة من الصور المحورية فى الرواية. وهو يتضمن كتابة تتسم بالإثارة من منزلة عالية، لاتقل كثيرًا عن كتابة ديكنز، الذى كانت له موهبة خاصة فى كتابة مثل هذه المشاهد وكان قادرًا على إدامة التوتر عبر فقرات كثيرة. ومضت ستو بالتوتر قدمًا بتسمية فصلها التالى: «هروب إليزا». لكنها كانت قد هربت بالفعل، ألم تفعل؟ ليس تمامًا، لقد حدث الأمر كذلك. فقد كان قانون العبد الآبق يجعل إيواء أى شخص لعبد هارب أو مساعدته عملًا غير قانونى. وظلت اليزا وابنها معرضين للخطر إلى أن يصلا إلى كندا، إذ كان توم لوكر البشع لايزال فى أثرها يتعقبها. كان هذا هو توم الطالح على النقيض من العم توم وهو توم الصالح. كان مساعد لوكر يدعى ماركس، وصف بأنه «رجل مراوغ»، مثل صياد فئران، أشبه بقط يتلاعب بفريسته قبل التهامها. وقد استأجر هالى هذين الرجلين للقبض على عبديه الهاربين. وألمت ستو بصورة حذقة بأسلوب

الحديث بين هذه الأنواع المنمطة، مقدمة للقراء هذا الكلام الذى يقال جانبًا على انفراد: إذا اعترض قراؤنا المهذبون والمسيحيون على الرفقة التى تقدم فيها هذه المشاهد، دعنا نرجوهم أن يبدأوا ويهزموا أحكامهم المسبقة فى الوقت المناسب. إن أعمال المطاردة، كما نرجو أن نذكرهم، آخذة فى التصاعد إلى منزلة تصبح فيها مهمة قانونية ووطنية» (79-80). وتنتج هذه السخرية المدمرة تأثيرًا بلاغيًا قويًا، دافعة للأمام الجدل فى الرواية بذكاء ماكر. وتبدأ حبكة فرعية فى الرواية تنطوى على بيرد سيناتور أوهيو وزوجته فى الفصل التاسع. وهنا تشن ستو هجومًا مباشرًا على قانون العبد الهارب. فالسيناتور الشفوق وحسن النية صوّت ضد القانون، لكنه كان يشعر أنه مضطر للالتزام به بيد أن زوجته صدمت من موقفه، محاجة بأن المسيحى عليه واجب «أن يطعم الجوعان، ويكسى العريان، ويعزى المكروبين (88). والسيناتور ممزق بين بين دوريه كسياسى وكزوج، ومع ذلك تظل ستو واقفة بثبات إلى جانب السيدة بيرد، مقتنعة أن واجب زوجها الأول يكمن هناك، مع زوجته. وكان السيناتور بيرد، مثله مثل جورج هاريس، زوجًا متفانيًا، لكنه كان يشعر أنه ملتزم بالامتثال للقانون، على الأقل على مستوى نظرى نوعًا ما.

ويتوقف كل هذا التنظير عندما تظهر اليزا فجأة «امرأة شابة ونحيفة بأسمال ممزقة ومتجمدة، بفردة حذاء واحدة». وتتعهد السيدة بيرد بحماية هذه العبدة الهاربة وابنها. وقالت لها «لن يؤذيك أحدًا هنا، أيتها المرأة المسكينة» وتحدث زوجها (90). واكتشف السيناتور وهو يستجوب اليزا بنفسه إنها كانت على وشك أن ينتزع منها ابنها. ومن ثم صعدت قضية فقد طفل إلى الصدراة، وهى قضية أثرت بعمق على ستو التى كانت هى نفسها قد فقدت ابنًا من صلبها. وقد اتفق أن السيدة بيرد كانت قد فقدت طفلًا هى أيضًا. وكقراء، نشعر أن اليزا وابنها أصبحا فى أيدى أمينة أخيرًا.

وتتحول الحبكة حينذاك إلى العم توم، فى فصل اسمه «الملكية تنتقل بالقوة». وهو فصل كتب بذكاء وإحكام: إن توم هو «ملكية»! ويمكن نقله مثل شيىء غير حىّ. ومأساة فصله عن أسرته محزنة، رغم أنها تبدو أقل إثارة للحنق من الفصل بين جورج شلبى وتوم.

ويتبدى هذا بجلاء عندما يربط جورج دولارا بحبل حول رقبة توم ويشاهد «توم وهو يربت على رأس الصبى المجعد الرقيق بيده الكبيرة القوية، لكنه يتحدث بصوت ناعم كصوت امرأة» (110). سيكون من المبالغة القول بأن هذا أمرًا لوطيًا، لكن هذه الأشياء تحدث، وإن كان بدون وعى، وقد يطير النشاط الجنسى تحت رادار معظم القراء، كما ينبغى أن يكون عليه الحال. أن ستو تعمل (بصورة واعية أو شبه واعية) بالمراوغة، فهى كاتبة «عاطفية» حيث إنها تصور كثيرًا من العواطف الصريحة، لكنها عواطف متعارف عليها. والرواية الحقيقة تعيش فى حواف النص أو فيما بين السطور.

ولاتكف ستو مطلقًا عن تصويرها لفظائع العبودية، ولذلك فإنه عندما مضى توم فى اتجاه مجرى النهر فى الطريق إلى مالكه الجديد، كانت الرحلة مريعة، مثلما حدث فى الفصل 512 حيث انتحرت امرأة عبدة بالقفز من فوق المركب عندما أخذت ابنتها منها. ويؤذن المشهد بصورة إيفا، أو إيفانجلين، فى الفصل 14. و تجذب هذه الطفلة الجميلة انتباه العم توم منذ أن لمحها لأول مرة. «كان شكلها صورة لكمال جمال الطفولة، بدون الملامح السمينة والمربعة المألوفة. كان لها حسن متموج ومشع، مثلما يحلم المرء به فى كائن أسطورى ومجازى» (155). ربما كانت إيفا أجمل من أن تكون حقيقة – واحدة فى سلسلة طويلة من البطلات الأطفال فى الأدب القصصى فى القرن التاسع عشر، مثل ابنة عم ليتل نيل الأولى فى رواية «ورشة الرجل الغريب العجوز»، التى أبرزها تشارلز ديكنز عندما أشار إلى أن ستو «كانت عديمة الضمير فى طريقة الانتحال».

لقد استحوذت إيفا على عقل العم توم، وكانت علاقتهما حميمة – ومن المحال أن تكون جنسية «كان توم يرقب السيدة الصغيرة باهتمام كبير، قبل أن يغامر فى مفاتحتها فى إقامة علاقة تعارف» (156). ومرة ثانية تصبح اللغة لغة أدب قصصى رومانسى. لكن محط تحديق توم كان مجرد طفلة، ومن ثم كانت خارج مجال الشهوة الجنسية الصريحة. وتطورت علاقتهما عندما سقطت إيفا من فوق المركب وأنقذها توم: «إمساكه بها بين ذراعيه، وسباحته بها إلى جانب القارب، ورفعها بيديه وهما يقطران ماء ومسكة مئات الأيادى، كما لو كانت

تنتمى إلى رجل واحد، والتى امتدت بلهفة لاستقبالها» (158). والواقع أن توم أنقذ نفسه بذلك هو أيضًا، حيث اشتراه أبوها من هالى. كان أوجسطين سانت كلير «ابن مزارع ثرى فى لويزيانا» رغم أن الأسرة كانت أصلًا من كندا - وهو ما يمكن أن يفسر عدم عنصريته فى عينى ستو. وقدم بيتًا ملائمًا ومريحًا لتوم. وكما تقول إيفا : «أن بابا طيب مع الجميع، إلا أنه يود دائمًا أن يضحك منهم» (161). لقد صنعتهم ستو من ورق مقوى، لذا ينكمش المرء قليلًا فى حضور هذه الطفلة البالغة حد الكمال وهذا الوالد البرئ.

ومع اطراد القصة فى مسيرتها، تقدم ستو عددًا من الشخصيات لها مواقف مختلفة إزاء العنصرية والعبودية، إحداها هى مارى سانت كلير، سيدة البيت المدللة الأنانية - وهى شخصية شائعة فى الأدب الداعى لإلغاء الرق. لم تكن مديرة للمنزل، كما قيل لنا. كذلك لم تكن أمها من قبلها. وكلاهما يوصف بأنه «متراخ وطفولى، وغير منهجى، وقصير النظر» (216). وعلى النقيض من ذلك، فإن السيدة أوفيليا (ابنة عم أوغسطين من فيرمونت)، كانت عجيبة من عجائب النشاط المنزلى. إذ كانت «تستيقظ فى الساعة الرابعة» وتقلب بانهماك كل شىء رأسًا على عقب لتنظف البيت : حجرة الخزين، كىّ البياضات، دولاب الصينى، المطبخ والقبو، وكان كل شىء يخضع لمراجعة مفرطة. وكانت الأشياء المخبوءة فى الظلام يتم إخراجها إلى النور لحدّ أزعج كل المشرفين والقائمين على المطبخ، وحجرة الاستقبال وأثار تساؤلات وهمهمات كثيرة حول «هذه السيدة من الشمال من قبل الطاقم المنزلى»(216). وهنا تردد ستو صدى العهد الجديد، فى رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 8 : 38 - 39 «لا موت ولاحياة ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة ولاعلو ولا عمق ولا خليقة أخرى تقدرأن تفصلنا عن محبة الله، التى فى المسيح ربنا». والمفارقة أن هذه السلطة كانت تقتصر على «المطبخ وحجرة الاستقبال».

وكان سانت كلير يدخل فى نقاش حاد مع أو ليفيا، التى كانت تؤمن بأن العبودية خطأ لكن يبدو أنها لم تكن تثق فى السود. ومن بين الشخصيات السوداء الكثيرة التى تدلف فى السرد فى المنتصف من الرواية فتاة شابة سوداء اسمها توبس، وهى مجهولة الأصل. وتخبرنا بأنها «لم تولد مطلقًا، ولم يكن لها أب أو أم مطلقًا، ولاشىء» (254). (وقد أصبحت عبارة

«نشأ مثل توبس» عبارة شائعة حاليًا، وتشير إلى أى شىء ينمو بصورة برّية). وتستخدم ستو توبس - وهى مخلوق بهيج وأصيل، من أرقى اختراعاتها - كطريقة للقول بأن السود أذكياء مثلهم مثل نظرائهم من البيض، وأن وضعهم فى الحياة هو الذى جعلهم يبدون متخلفين. تقول ستو كانت «توبس ذكية ونشيطة، كانت تتعلم بسرعة مدهشة بدروس قليلة. فقد تعلمت كيف تبدى آيات الاحترام للسيدة أوفيليا بطريقة جعلت حتى تلك السيدة لا تجد ما تخطئها فيه» (261). كانت توبس شخصية صعبة المراس، تحب المرح، ماهرة، ولها هالة، وكانت من أروع إبداعات ستو. ففيها، تجاوزت المؤلفة القوالب المألوفة للأدب القصصى العاطفى، رغم أنها ربما تكون (دون قصد) قد خلقت بها نمطًا مقولبًا آخر، حيث انتحل كتاب لاحقون عادة نسخًا من توبس.

ولمدة عامين، كما نعرف فى الفصل 22، ظل توم فى كوخ ريفى فيما يشبه النعيم مع أسرة سانت كلير. فقد كانت إيفا الصغيرة تجلس عادة على ركبتيه. وكانا يسيران متشابكى الأيدى معًا فى عالم مثل جنة عدن فى ضيعة سانت كلير. ويتلألأ النثر فى هذا الفصل متحولًا كالارجوان المشع أحيانًا. لكن كان هناك شىء ناقصًا، كما نعرف سريعًا: «أن القلب المخلص العجوز شعر باندفاعة مفاجئة، وفكر كيف أنه كثيرًا ما لاحظ، خلال ستة أشهر، أن يدى إيفا قد ازدادتا نحولًا، وأن جلدها أصبح أكثر شفافية، وكيف أنها عندما كانت تجرى أو تلعب فى الحديقة، مثلما كانت تفعل لساعات من قبل. سرعان ما تصبح منهكة وواهنة» (274). بدت إيفا، واسمها يعنى الملاك (وكذلك المبشر) كشبح بالفعل، وسرعان ما ماتت من جراء الإصابة بالسل، وهو مرض مألوف لقراء ستو.

إن إيفا شخصية مألوفة: طفل صغير ينشر فى معاناه الطيبة، والضياء والرسالة المسيحية. كانت تقول لأبيها وهى راقدة فى سرير موتها «بابا الحبيب، كم أود أن استطيع أن نذهب معًا» وكان أبوها يتساءل إلى أين تريد الذهاب، فكانت تشرح «إلى بيت مخلصنا» (292). ويرد مشهد الموت فى الفصل 26 وفيه تجسد إيفا دور الملاك، كما يعنى اسمها ضمنًا. وكانت تقول لوالدها أنها سترى المسيح قريبًا وجهًا لوجه. وتكتب ستو أن إيفا تدهورت سريعًا بعد ذلك (307). ويشبه موتها نفسه موت ليتل نيل، وهو يوجع قلوب قراء ستو. نحن

لسنا متعودين على مثل هذه المشاهد فى القرن الحادى والعشرين، لذلك، فإن مشهد سرير الموت قد يبدو بعيدًا و «عاطفيًا». وبالطبع، فإن المشهد بالنسبة لستو التى مرت بمثل هذه التجربة هى نفسها، له جانب واقعى بصورة شاساعة ويقول سانت كلير «لِنُصَلِّ لكى لا يطول ذلك»، قرب النهاية. وسرعان ماتصرخ الطفلة «يا للحب - يا للفرح - يا للسلام!» (321). ويبدو الحوار غير واقعى لحد كبير بالنسبة للقارئ المعاصر، ومع ذلك يظل المقطع مؤثرًا بالنسبة لمن يدينون بالكثير لتقاليد الميلودراما.

واستغرقت آثار موت إيفا على الأسرة وعلى توم فصلًا أو فصلين من ستو. ويبدأ سانت كلير يتداعى فى اتجاه المسيحية الذى كان قد قاومه حتى ذلك الحين. ويلعب العم توم دور القائد الروحى له. أما أم إيفا، مارى «فقدا أحست بفقد إيفا على نحو عميق بدرجة جعلتها لم تعد تحس بأى شىء» - وهو خط غامض بدرجة كبيرة حقًا. ثم يتحول فقد كل شىء إلى الابتذال عندما يموت سانت كلير على نحو غير متوقع. فقد كان جالسًا فى مقهى لوحده عندما بدأ سكيران يتعاركان. وفى محاولة للفصل بين الرجلين، «يتلقى سانت كلير طعنة مميتة فى جانبه بسكين ضخمة طويلة الشفرة، كان يحاول أن يحرفها بعيدًا عن واحد منهما» (333). وكما هو متوقع فقد راحت مارى فى حالة من «الهذيان» وظل توم وأوفيليا وحدهما رابطى الجأش والعقل فى خضم هذه الفوضى.

لم يعد توم يحظى بالحماية آنذاك، بالمعنى القانونى. إذ كان يمكن أن يباع، وسيباع، كما يدرك القارئ. وقد حدث هذا. ففى الفصل 30، تستحضر ستو صورة الجحيم باعتباره مستودعًا مليئًا بالعبيد الذين ينتظرون بيعهم بالمزاد على منصّة الدلاّل. «ومخزن العبيد هو منزل لايختلف من الخارج كثيرًا عن منازل كثيرة أخرى. مرتب بصورة جيدة، وفى كل قد ترى فيه صفوفًا من الرجال والنساء مرتبة، تحت نوع من المظلة على امتداد الخارج، يقفون هناك كعلامة على أنهم ملكية يجرى بيعها. فى الداخل» (343). والأحاديث التى تدور بين العبيد تبعث الرعدة فى البدن، مثلما يحدث عندما تنصح أم ابنتها بإخفاء شعرها الجميل، خوفًا من أن يجذب مالكًا يحولها إلى عبدة للجنس، وكان ذلك وضعًا شائعًا. تقول للفتاة «أن الأسر المحترمة ستكون أكثر ميلًا لشرائك، إذا رأتك عادية ومحتشمة». (348). وللأسف

يتم فصل الأم عن الطفلة وتباع لتاجر سيئ السمعة، هو سيمون ليجرى، الذى أصبح اسمه مرادفًا للشخص الذى يحب الإيلام للتلذذ الجنسى.

ويظهر ليجرى للمرة الأولى قرب نهاية هذا الفصل، ويوصف بأنه «رجل قصير، عريض المنكبين، مفتول العضلات، يرتدى قميصًا مربعات مفتوحًا بصورة واسعة عند الصدر، وسروالًا أسوأ كثيرًا لقذارته وتمزقه» (359) وأخيرًا، فإنه يسمى «رأس الرصاصة» بما يوحى بالقساوة، وجمود العقل، مع عرق من العنف فى شخصيته. ويوحى هذا القميص «المفتوح عند الصدر» بالخلاعة أيضًا. وهذا يجعله أشد خطرًا على الفتاة. وفيما يتعلق برد فعل توم: «فمنذ اللحظة التى رآه فيها توم يقترب، شعر فورًا برعب عام منه» (351). وتتحقق أسوأ مخاوف القارئ، عندما يباع توم إلى ليجرى. ومن نافلة القول، أنه منذ هذه اللحظة فصاعدًا أفل حظه.

ويبدأ الفصل 31 بصورة يتعذر محوها لتوم وهو مربوط بالسلاسل على ظهر سفينة للعبيد: «جلس توم على الجانب الأدنى من قارب صغير حقير، يبحر فى النهر الأحمر - والأصفاد فى رسغيه وفى قدميه، وكان الثقل الذى ينوء به قلبه أكبر من وزن السلاسل» (354). لقد ترك بيته الحبيب فى كنتاكى، وزوجته وأبنائه، وسانت كلير المحسن، وإيفا ذات الرأس الذهبى، وراءه، وكل ذلك يمكن استرجاعه بالكاد فى الذاكرة: «لقد خبا كل ذلك من سمائه - القمر والنجوم» ومثلما تفعل ستو عادة، فإنها تكتب مستخدمة الكناية: «فالقمر والنجوم.» ترمز للأحباء الذين يومضون من بعيد فى عالمه الخاص، لقد «خبا» هؤلاء على نحو يبعث على الأسى.

وفى هذه المرحلة، يحتل ليجرى صدارة المسرح، ويجرى تصويره كرجل مصنوع من رغبة جنسية وطاقة سادية صعبة. كانت عيناه «الرماديتان باخضرار» تحدقان فى ملكيته الجديدة، العم توم. كان يرتشف الويسكى - وتلك رذيلة كبرى فى نظر ستو وكثيرين من قرائها. كما لم يكن هناك أى لطف فى ليجرى، الذى كان يتباهى بفطنته فى الأعمال باعتباره مالكًا للعبيد: «عندما يموت زنجى، اشترى آخر» (358). وينصبّ واحد من أكثر انتقادات

هذه الرواية شيوعًا على تصويرها لليجرى، الذى يبدو فى بعد واحد. ذلك أن كل القسوة والوضاعة فى الروح تكمن فيه. ومع ذلك، فقد أحدثت الصورة تأثيرًا جيدًا: أنه الشيطان، ولا يمكن للمرء إلا أن يتخيل بالكاد شيطانًا ممتلئ الجسم يشبه أيضًا الأطفال والحيوانات. وأحدثت الرواية تأثيرها باللعب على التناقض، وقد تحقق عالم ستو الخيالى متعدد الأبعاد بالجمع بين شتى الأجزاء، وخلق انطباع عام متوازن.

وتوالى ستو إعطاء فصولها عناوين ساخرة، ويتعين على المرء عادة أن يقرأ ويستمر فى القراءة لكى يكتشف الطبيعة والنوعية الدقيقة لسخريتها. و «الأماكن المظلمة» عنوان للفصل 32، وهو فصل كئيب. وتوضح عبارة منقولة من سفر المزامير 74:20 فى مقدمته نغمة السرد: «أن مظلمات الأرض امتلأت من مساكن الظلم».وتبدأ القصة كالآتى : «كان توم ورفاقه الذين يتم جرهم وهم منهكين خلف عربة خشنة بدائية، وعلى طريق أشد خشونة وبدائية، يتطلعون للأمام» (360). وإذ كانوا يساقون نحو مزرعة سيمون ليجرى الجهنمية، ولم يكن هناك شك بشأن خلطة «الخشونة» التى تنتظرهم، والتى تعنى أنها تشكلت بقساوة وكذلك بطريقة غير إنسانية ليس لها شكل بائن وبغيضة. وكلمة خشونة فى أصلها الأنجلو ساكسونى - ستو تهتم بذلك دائمًا - تعنى «صليب ينبغى حمله». سار هؤلاء المسافرون الحزانى فى طريق مهجور قفر. ومن ثم يفكر المرء فى المسيح على الصليب، وهو يسأل الله لماذا نسيه. وتصبح هذه المسحة الباطنة الدينية نغمة متآلفة مسيطرة فى التراتيل التى بدأ توم يغنيها مثل: «أورشليم، بيتى السعيد، اسم عزيز على دومًا!» (غالبًا ما يغنى العبيد تراتيل وأغنيات كما يذكر فريدريك دوجلاس فى قصته «السرد» فى 1845: «لم أفهم عندما كنت عبدًا المعنى العميق لتلك الأغنيات الخشنة وغير المتماسكة ظاهريًا... لاتزال هذه الأغانى تطاردنى، لتعمق كراهيتى للعبودية، وتعجل بتعاطفى مع إخوتى فى الأغلال».)

كانت مزرعة ليجرى مملوكة من قبل «السيد نبيل المحتد موفور الغنى»، حافظ عليها باهتمام وحرص. أما الآن فقد أصبحت تنضح «بمظهر مهلهل بائس». فقد استخدم مالكها الجديد ملكيته هذه «مثلما فعل بأى شىء آخر، كمجرد أداة لجمع الأموال»(362).

وسجلت ستو هذه الفكرة قائلة «إن اعتصار المرء كل قدر من الربح من ملكيته، هو سوء استخدام لها وانتهاك لدور الفرد باعتباره مشرفًا وراعيًا للموارد». لقد كانت الرأسمالية العارية تخنقها. إذ يتعين على المرء دائمًا، كما تقترح ستو، أن يضع فى الاعتبار التكاليف الإنسانية للتشغيل ويؤمن بالطرق التى تعزز الروح ولاتحط منها. وفى كتابة هذا، تستبق ستو المقولات والدعوات التى كان لابد وأن تظهر فيما سمى العصر الذهبى، عندما أعطى للرأسماليين الأغرار بإلحاح منهم منفذ كامل يتسللون منه وعانى الفقراء والطبقة المتوسطة من العواقب.

قد يكون سيمون ليجرى شريرًا، لكنه يكشف عن مهارة كبيرة فى إدارة ملكيته لمصلحته. ويلاحظ أن توم «شخص يتمتع بمواهب من الدرجة الأولى» ومن ثم يحاول أن يعظم مواهبه. لكنه يكره توم مثلما تكره الظلمة النور. وتبدو ستو عاجزة عن أن تلم بطريقة مركبة بكراهية ليجرى الفطرية، التى تسميها «كراهية فطرية مطبوعة من السيئ للجيد» (369). وربما يستطيع المرء فى رواية حديثة أن يحصل على إحساس وإدراك أكثر اكتمالًا لخلفيّه ليجرى، وأن يتوصل لفهم ما الذى كان يدفعه للتصرف على النحو الذى كان يتصرف به، ولماذا كان يكره توم لهذا الحد، وما إلى ذلك. أننا لا نحصل سوى على اللمحة الأشد ضبابية عن الآليات الشيطانية الداخلية لعقل ليجرى. وعلى أية حال فقد كان يأمل فى «تحطيم» توم بأية طريقة يستطيعها. وعندما حاول أن يجعل منه سائقًا عبدًا، رفض توم قائلًا: «إننى مستعد للعمل ليل نهار، وأن أعمل طالما كنت حيًا وتتردد أنفاسى، لكن لا أشعر أنه من الصواب أن أقوم بما تطلبه - ياسيدى لن أفعل ذلك أبدًا - أبدًا!» (374-375). وتوافر لليجرى حين ذلك ما كان يريده: سبب لجلد توم، وفعل ذلك.

تم ضرب توم بوحشية، ومثلما يبدأ الفصل 34، فقد استلقى «يئن وينزف وحيدًا، فى حجرة مهجورة قديمة فى محلج، بين أجزاء من الماكينات المحطمة، وأكوام من القطن التالف، وغير ذلك من القمامة التى كانت قد تكدست هناك». (377). ومرة ثانية، فإن المرء يعجب من مدى الربط المجازى. فالمحلج يشير إلى محلج القطن الذى اخترعه ايلى هوايتى فى 1793. وهذا النتاج للثورة الصناعية يزيد من انتزاع الطابع الإنسانى عن الرجال والنساء، وينمى ربحية ملاك العبيد. و إنقاص الأعمال الزراعية التى كان يستكن فيها العم توم، ترمز

إليها الماكينات المحطة والقطن التالف. وحينذاك ساعدت السيدة كاثى توم، وهى عبدة «جعلتها عشرتها الطويلة لضحايا الوحشية تتقن كثيرًا من فنون العلاج» (378). وبمحبة، وضعت ضمادات باردة على جروح الرجل المحطم. وسرعان ما يعلم المرء أنها أم أبعدت عن أبنائها. وإذ فقدت الإيمان نفسه، فقد عارضت توم فى معتقداته الدينية. كانت تقول: «اخبرنى هل يوجد إله - إله يتطلع لأسفل ويرى كل هذه الأشياء». (386). والواقع أنها لم تكن تستطيع أن تقبل هذا الاحتمال. وكان رد توم عليها مبتذلًا حقًا: «يا سيدتى، أود أن تذهبى إلى الذى يستطيع أن يعطيك ماء الحياة» (387). لكن كاسى رفضت أن تؤمن، فلم ترشيئًا فى حياتها سوى «الأثم واليأس الطويل، الطويل، الطويل».

وكما يتضح، فإن هناك حدودًا لنفوذ ليجرى، وكانت كاسى نفسها من عوامل الضغط عليه، فهى مخلوق ماكر يظهر على مستويات كثيرة من سرد ستو (وفى انعطافة غريبة إلى منحى ديكنز، يتضح أنها بالفعل أم اليزا، التى اجتمع شملها معها فى كندا). وإذ تتصرف بصورة مشوشة عامدة، فإنها ترعب ليجرى «الذى لديه رعب خرافى من الأشخاص المجانين وهو الأمر الشائع فى العقول غير المصقولة وغير المتعلمة» (389). وتقوم ستو بمحاولة فاترة الهمة «لتفسير» ليجرى فى الفصل 35، فتخبرنا عن أمه الورعة وأبيه المرعب. لكنها تفشل فى ذلك. ربما كانت الأم المرعبة أمر يصعب أن تتخيله ستو : فالأمومة نفسها مقدسة لديها. كان ليجرى «العاصفة، صعب المراس، والطاغية» يتجاهل أمه (391) وهى تصلى من أجله جديًا، ولفترة وجيزة بدا أن خاله الطيب قد كسب وأن الملائكة الفضلى قد فازت، لكن الإثم استحوذ عليه ثانية حيث ارتد على عقبيه إلى «طبيعته النكدة».

وفى الفصل 37 الذى يسمى على نحو ملائم «الحرية» نعود إلى اليزا وجورج فى هروبهما إلى كندا، حيث ينتظرهما وعد قوى بالحرية. وفى وضع سابق من الرواية، كان جورج قد هاجم توم لوكر، دفاعًا عن النفس، لكن اليزا حملته على نحو رحيم إلى «سرير نظيف على أتم وجه لدى طائفة الكويكر»، حيث حدث التحول الأخلاقى والروحى للوكر (402). ويشكل موقف توم هذا، الثقل الموازن لقصة العم توم. وكما هو الحال دومًا، تسهر ستو على تشكيل سردها بعناية وتحب موازنة الصور وتقديم تيارات مقابلة لسيل سردها.

وتنساب القصة نحو مرحلة الذروة حيث تهرب كاسى وإميلن من مزرعة ليجرى ويعانى العم توم من إذلاله النهائى. لم يخضع توم كلية لسيده الدنيوى، مفضلًا سيده السماوى. وإذ بلغ السيل الزبى، فقد فقد ليجرى السيطرة على نفسه وعامل توم بوحشية باعتباره «روحًا شريرة» تغزوه (فى فصل جامع بعنوان «الشهيد». و كتبت ستو أنه الآن وقد «استشاط غضبًا» فقد «صرع» ضحيته أرضًا. وتضيف كلمة «صرع»التوراتية إلى الطبيعة المستبدة للوصف. وقبل أن يلفظ توم أنفاسه كلية، صاح (بطريقة تشبه المسيح) «إننى أغفر لك، من جماع روحى!» (434). وهذه الترديدة يصعب على القارئ الحديث أن يبتلعها.

ويظهر الشاب جورج شلبى، السيد المحسن والصديق القديم للعم توم باسم مستعار، حتى يستطيع توم أن يقضى نحبه بين ذراعيه الحبيبتين. وعندما يموت توم، فإنه يصرخ (لجمهور من القراء بأكثر مما يفعل لجورج) «من – من – من سيفصلنا عن حب المسيح؟» (440) ويذلك «يستغرق فى النوم» كما صاغته ستو، مستخدمة تعبيرًا لطيفًا نموذجيًا عن الموت. وإذ استعر جورج غضبًا من مصير توم. فإنه تغير لمحاربة العبودية بأقصى جهد يستطيعه: «سوف أفعل ما يمكن للمرء أن يستطيعه لإبعاد لعنة العبودية هذه عن بلادى» (442).

وتشرع ستو صانعة الحبكات فى العمل بنشاط وقوة، لربط خيوط القصة المتباينة فى انحناءة احترام بارعة قبل أن تقدم «ملاحظاتها الختامية» فى الفصل الأخير. وفى هذه الخاتمة تتحدث بصورة مباشرة لقرائها، مبينة أن روايتها تستند لأحداث حقيقية!» إن الحوادث المنفصلة التى تشكل الرواية، حقيقية إلى حد كبير، ووقع الكثير منها إما تحت بصرها مباشرة، أو بصر أصدقائها الشخصيين. فقد شاهدت هى وأصدقاؤها شخصيات نظيرة لكل من وردوا هنا، وكثير من الأقوال منقولة كلمة بكلمة مما سمعته، أو نقل إليها» (463). أى هراء هذا، هل هو رشوة للقراء المتشككين، خاصة فى الجنوب، الذين هاجم كثيرون منهم الرواية باعتبارها دعاية معادية للعبودية فور أن بدأت فصولها الأولى فى الظهور بالطبع إن حوادث على امتداد خطوط تلك الحوادث التى تخيلتها ستو يمكن أن تحدث حقًا، والواقع أنها شهدت العبودية مباشرة فى زيارة لكنتاكى فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر. (كما أجرت حوارات مع كثيرين من العبيد الهاربين عندما كانت تعيش فى سنسناتى). ومع ذلك، فقد

كانت ستو رغم ذلك يمكنها أن تتخيل حقيقة ما كانت تعرفه وأن تصوغ رواية تكشف كل خطوط الوجه القبيح للعبودية.

ومن بين السمات التى تم تجاهلها فى الرواية - وهى التى ربما لعبت دورًا ما فى جاذبيتها بالنسبة للقراء - هى الشهوة الجنسية العنيفة، مثلما لاحظ هنرى لويس جيتس. فالقصة تبدأ باليزا وجورج وكلاهما عبدين وسيمين شابين تزوجا حديثًا. كان زواجهما عن حب مشبوب بالعاطفة الجنسية. وستو لا تجد حرجًا فى ذلك. كذلك تنبض عروق العم توم بالجنس عندما ينقذ إيفا الصغيرة، التى وقعت فى الماء. ويتم وصفه فى مشهد الإنقاذ بأنه «عريض المنكبين مفتول الذراعين». وعندما اشترى والد إيفا توم، سقط سعيدًا فى نوع من النعيم الذى أقام فيه علاقة أفلاطونية مع البنت الشقراء الحلوة. وانجرفا فى عالم يشبه الأحلام، وهما يمسكان بأيدى بعضهما البعض، بل وتبادلا القبل.

وبالطبع فإن ستو لم تقصد مطلقًا، على الأقل ليس بشكل واع، أن تشير لجانب جنسى فى هذه العلاقة، وينبغى للمرء ألا يبالغ فى التركيز على التيارات التحتية شبه الجنسية فى الرواية. ومع ذلك، فإنه تسرى خلال الكتابة طاقة يمكن وصفها بأنها شهوانية، وهى غالبًا مستترة أو جرى تحويرها. وكما يقول جيتس «إن لغة الكُتاب المعاصرين الذين يستعرضون أعمال ستو غالبًا ما تردد صدى التهييج الجنسى المستتر:» «إنه كتاب مشتعل ومحرك، وهو يتحدث لقرائه كما لو أنه حى متقد. فهو يستثير أولًا انتباههم، ويأسر أفكارهم، ويمس عواطفهم، ويثير حب الاستطلاع لديهم، ويخلق اهتمامًا بالقصة التى يرويها لدرجة لا يستطيعون تركه حتى يروى القصة كاملة». وحتى اليوم، سيجد القراء أن المشاعر الواردة فى الكتاب مادية على نحو مدهش، وهذا يزيد من جاذبيته المستمرة.

4

شكلت رواية ستو فى عصرها وبشكل نشيط الطريقة التى كان الأمريكيون يفكرون بها فى العبودية بتقديم واقع محسوس وواضح لهم. ففى ولايات الشمال، كان لإلغاء الرق أنصاره المتحمسين، لكن لم تكن هناك مطلقًا معارضة عامة للعبودية. وبكتابها الأفضل مبيعًا على نحو ضخم بشكل رهيب، خلقت ستو لوحدها ودون معين جمهورًا حاشدًا للحركة المناوئة للعبودية، وساعدت فى توليد نوع من الدعم الذى كان مطلوبًا (فى نهاية المطاف) لشن حرب ناجحة ضد الجنوب. لقد كتب و. أ. اودن ذات مرة «إن الشعر لا يصنع شيئًا» لكن الأدب القصصى يفعل، على الأقل فى مناسبات نادرة.

وكما كان يمكن توقعه، فقد كان لكتاب كوخ العم توم خصومه وكذلك مؤيدوه. ففى الجنوب، صدر عدد هائل من الكتيبات والكتب المؤيدة للعبودية خلال سنة أو سنتين. وشجب ويليام جيلمورسيمز، وهو من أكثر المؤلفين شعبية فى الجنوب بقسوة عمل ستو فى كتابه السيف والنشوة، وظهر عدد من الكتب المعادية لتوم، بما فى ذلك كتاب كوخ العمة فيليس لمارى هند رسون ايستمان وكتاب عروس المزارع الشمالية لكارولين لى هنز. (والمفارقة أن هنز كانت من قبل صديقة لستو فى سنسناتى.) ويروى كتاب هنز الذى نشر فى 1854، قصة امرأة من الشمال تزوجت صاحب مزرعة جنوبى، وقد حظى بجمهور كبير كذلك. والبطلة فى كتابها هى ابنة واحد من دعاة إلغاء الرق، لكنها توصلت إلى تبين الجانب «الطيب» فى العبودية. وظهر ما يربو على دستتين من الكتب من هذه النوعية فى العقد التالى لظهور كوخ العم توم، لكن الزمن ابتلعها جميعها. ومن جانبها لم تستكن ستو غير مبالية تشاهد الهجوم وهو يستعر. فقد نشرت مؤلفًا بعنوان «مفتاح إلى كوخ العم توم» فى 1853، تحدثت فيه عن «الأمثلة من الحياة الحقيقية لشخصيات روايتها الحقيقية بل وساقت مزيدًا من الحجج ضد العبودية. وأصبح هذا أيضًا كتابًا من أفضل الكتب مبيعًا، مما سبب أثار الجزع لقراء الجنوب، الذين كانوا يرغبون فى أن تختفى ستو ببساطة.

وحولت كوخ العم توم أيضًا لمسرحية،وربما تعرف عدد من الناس على القصة من خالا المسرحيات والعروض الموسيقية أكبر ممن تعرفوا عليها فى شكلها الأصلى. كانت حقوق المؤلف فى ذلك الوقت متراخية، وكان يمكن لأى شخص أن ينظم ما يدعوه «عرض توم»، وقد جرى ذلك. واستوعبت هذه الروايات الفكاهيه التى حافظت على شعبيتها حتى العقود الأولى من القرن العشرين، عناصر الميلودراما والكوميديا السوداء. لكن إخلاصها للرواية الأصلية والتزامها بها تباين، والواقع أن بعضها كان مناصرًا فى الواقع للعبودية فى طبيعته، مما أحنق ستو وأثار جزعها. وقد كتب جورج أيكن أكثر «عروض العم توم» شعبيته، وأقنع الأصدقاء ستو بمشاهدتها. ومن كل النواحى، فقد سرها ما شاهدته. وأخلى تكييف الرواية من أجل المسرح الطريق لعدد كبير من الأفلام، بما فى ذلك الفيلم الذى أخرجه أدوين س. بورتر فى 1903 (وهو من أوائل الأفلام الصامتة). والمثير للاهتمام، أن الرواية اعتبرت أكثر سخونة من أن تعالجها هوليود بعد آخر فيلم صامت ظهر فى 1927 وتم قتل إنتاج للفيلم (كانت شركة مترو جو لدوين ماير فى قد اعتزمت تصويره فى 1947، وفى مرحلة ما قبل الإنتاج عندما اعترضت الرابطة الوطنية لتحقيق تقدم الملونين) على قالب الرجل الأسود الذى تقدمه الرواية.

وقد خلقت الرواية أو ضخمت قوالب كثيرة، لكن شخصية توم كانت هى الأشد تأثيرًا. فقد أدى خنوعه فى وجه المعاناة إلى ظهور مفهوم شخصية العم توم، وهى لرجل أسود مذعن بذلّة يخضع بسهولة لمطالب البيض، متزلفًا لنيل رضا السادة، راغبًا فى قبول سوء المعاملة. ومع تطور حركة الحقوق المدينة إلى حركة القوة السوداء فى أواخر الستينيات من القرن العشرين، أصبحت الشخصية الشهيرة التى رسمتها ستو رمزًا مكروهًا لسلبية الأمريكيين الأفارقة. كما أثارت الضيق قوالب أخرى، منها شخصية الأم الرئيسة للأم الزنجية للأطفال البيض (ظهر عديد منها فى الرواية، لكن أهمها كان شخصية الأم الرئيسة نفسها، وهى طاهية فى المنزل فى مزرعة سانت كلير). وقد جسدت توبسى شخصية الطفل الزنجى، وذلك قالب للأطفال السود. كذلك فإن الشخصية المولدة التراجيدية المثيرة للغرائز (والمتجسدة

فى اليزا وكاسى وإيميلين) صدمت بعض القراء باعتبارها تشويهًا مغالى فيه. ولا غرو أن رواية كوخ العم توم قد أزعجت كثيرين من القراء الأمريكيين الأفارقة.

ووجه جيمس بلدوين طعنة للرواية فى مقال نشره فى 1949 بعنوان «الجميع يعترضون على رواية»، ظهرت فى كتاب مذكرات ابن بلد (1955). ووصفها بأنها «رواية سيئة للغاية» وأبرز «العاطفية» البريئة فى عين نفسها والفاضلة فيها. ومع ذلك لايزال كتاب ستو يجذب القراء، وإن كان على نطاق أصغر كثيرًا. ويدعى ادموند ويلسون فى كتابه «الدم الوطنى» (1962) أن رواية كوخ العم توم سلبته لبه بالكامل ووجد أن قراءتها «تجربة مروعة». ومؤخرًا، أعاد باحثون فى شئون الحركة النسوية مثل آن دوجلاس، وإلين شولتر، وجين ب. تومكز، زيارة الرواية، ووجدن فيها الكثير الجدير بالإعجاب فى قوتها البلاغية، وقدرتها على الإقناع. وكما أكدن فإن العمل يعانى من افتقاد بعض الجماليات المتغيرة للحداثة، مما يجعل الرواية العاطفية تبدو غير ملائمة لروح العصر، بل وحمقاء. لكن ذلك بخس من قيمة رواية لها أهمية ثقافية أصيلة، رواية مازالت تستحوذ اهتمام القارئ مثل موجة مدّ عارمة. لقد كتبت آن د وجلاس تقول إن «العم توم كتاب عظيم، ليس لأنه رواية عظيمة، ولكن لأنه عظة عظيمة تدعو للاحياء، ترمى مباشرة إلى هداية مستمعيها».

ومضت جين سمايلى، وهى روائية وناقدة لمدى أبعد من دوجلاس فى مقال فى هاربرز، معترفة بأنها فضلت رواية ستو على هاكلبرى فن. وقد أثار هذا التجديف والفكر جدلًا صاخبًا بين قراء هاربرز، كما يمكن للمرء أن يتوقع، لكن سمايلى أصرت على رأيها فى حوار لاحق معها. وذكرت: «عندما أعدت قراءة كوخ العم توم، ظننت أنه يتعين على أن أضغط على نفسى للاستمرار فيها، لكن عند الوصول للفصل الثانى، كنت أحدق مشدوهة، فقد كانت جدّ مثيرة للاهتمام ومروعة. وفى نهايتها، كنت فى حالة رعب. فقد صورت مثل هذه الكوكبة اللامعة من الشخصيات، بيضًا وسودًا على حد سواء. ولم أكن أقصد أن أحط من قدر هاك فن، ولم أقل أنها ليست الرواية الأمريكية المحورية وأن رواية العم توم هى هذه

الرواية، ولكنني قلت ببساطة أن كوخ العم توم كتاب أفضل مما يظنه الناس، وأنه يتعين على الناس أن يقرأوه».

وأيًا كانت منزلة رواية ستو كتحفة فنية، فإنها تظل وثيقة أساسية فى الثقافة الأمريكية وخامة رئيسية للدورات الجامعية فى الدراسات الأمريكية. وقد أثرت على طائفة واسعة من الكتاب على مرّ السنين، بمن فيهم تونى موريسون - ففى رواية محبوبة على سبيل المثال، تقيم فى كثير من نفس الأرض المادية، بل والعاطفية التى أقامت فيها ستو، مستقصية القضايا المتعلقة بالعنصرية والعبيد والخلاص. خلاصة القول، أن هاريين بيتشر ستو فتحت طريقًا للحوار فى كوخ العم توم لم يستنفد أبدًا، مصورًا الخراب الناجم عن العبودية وتجارة العبيد ومذكرًا بقوة غير عادية بالتاريخ الكئيب للعلاقات العنصرية فى هذا البلد.

ADVENTURES

OF

HUCKLEBERRY FINN

(TOM SAWYER'S COMRADE)

MARK TWAIN



CHATTO & WINDUS, PICCADILLY

1884



7

مغامرات هاكلبرى فن

1

نقّب النقاد أعلى وأسفل كل كوم حجارة عن شيء يسمى «رواية أمريكية عظيمة». وكما أعلن أرنست هيمنجواى عاليًا، فإنها موجودة بالفعل: «فكل الأدب الأمريكى الحديث يأتى من كتاب واحد لمارك توين هو هاكلبرى فن». وبالطبع يمكن للمرء أن يتساءل عن جدوى فكرة. أن تحفة واحدة تنجب كل الكتب الأخرى: فقد يكون العثور على الكأس المقدسة(*) أيسر. ومع ذلك فإن كتاب مارك توين مغامرات هاكلبرى فن (1885) يحتل بسهولة مكانته بين أكثر الكتب الأمريكية تأثيرًا. ومثلما هو الحال مع أى عمل كلاسيكى، فقد اجتذب على نحو مستمر القراء والكُتاب من كل الأطياف وأثرّ عليهم، متحدثًا إلى جماهير متباينة بصورة واسعة على مرّ الزمن.

وقد شكلّ توين فى كتابة هذه الرواية، وسيلة جديدة للغة الأمريكية، خالقًا وسيلة لاذعة، مسلية، عامية مرنة يمكن أن تتراوح بين أعلى مستويات الفكر والمشاعر وأدناها فى بيان نابض بالحياة، بل وفظ. والنغمة الأصلية للكتاب، تسمع منذ البداية: «أنت تعرف كل شيء عنى، بدون أن يتعين عليك قراءة كتاب اسمه «مغامرات توم سوير»، لكن ليس لذلك أهمية. فالكتاب ألفه السيّد مارك توين، وهو يروى الحقيقة، أساسًا». وبدون طنطنة، يشق هذا المؤلف حاد الطبع، طريقًا جديدًا عميقًا وغنيًا فى اللغة. ويفعل ذلك فى سياق رواية عن طريق للصعاليك، تسببت فى مولد عدد لا يعد ولا يحصى من الروايات الأخرى عن

(*) - التى شرب فيها المسيح فى العشاء الأخير والتى يبحث عنها المسيحيون منذئذ - المترجم.

شخصين يمضيان فى رحلة نحو الحرية، حرفيًا أو مجازيًا. وقد بين لناتوين كيف نتحدث وقدم لنا أسطورة من أساطيرنا التأسيسية، والتى تنطوى على الهروب، فجأة إلى «أرض» تفضى إلى مناطق مجهولة بحثًا عن أرض الميعاد الأسطورية.

ورغم أن الرواية ظهرت فى 1885، فإن القصة جرت قبل ذلك بربع قرن، خلال السنوات التى كانت فيها العبودية لاتزال سارية، وإن كانت قد أخذت تبلى على الحواف. وفى هذا، فإن توين كان يطأ أرضًا كانت قد احتلتها بالفعل رواية كوخ العم توم، لكنه هاجم هو وهارييت بيتشر العبودية بشكلين مختلفين. ربما كانت مناظرة توين أقوى حتى من مناظرة ستو، حيث إنها تصدت للموضوع بطريقة غير مباشرة، ببساطة بإظهار نبل جيم لنا. وهو كرجل أسود كان الشخصية الأقل غرورًا وضئيلة الشأن والمعيبة أخلاقيًا فى الرواية، والنموذج الذى يمثله مهم فى حياة هاك. كان هذا الثنائى غير المرغوب فيه يبحران فى اتجاه مجرى المسيسيبى، هربًا من الأسر من نوع أو آخر، وفى مسار هذه الرحلة، التقيا بقطاع مستعرض نموذجى من المجتمع الأمريكى فى الجنوب القديم. كانا تخطيا عرضًا مدينة كايرو فى ايلينوى ودلفا لأرض العبيد. أى حشد من الكذابين واللصوص والقتلة والمدعين والمحتالين والبلهاء اعترض طريقهما! كان توين يمسك بمرآة تعكس صورة هذا الجزء من أمريكا، ولم يكن التفكير فى ذلك مبهجًا.

وفى المسار المتدفق للحكاية، يتناول الكاتب تقريبًا كل موضوع أساسى فى الأدب والفكر الأمريكى، بما فى ذلك القوة الأدبية للطبيعة وأسرار الدين. والأسرة موضوع آخر متصل، لكن - كما هو الحال دومًا - ينظر توين لهذا الموضوع نظرة جديدة، مثيرًا أسئلة عن معنى القرابة والأبوة والنسب، وهيكل الأسرة، والروابط العاطفية التى تربط الناس أو تفشل فى ذلك. وهو يثير التساؤل عن قضية العنصر بأكثر الطرق كياسة ورقة واضعًا رجلًا أسود فى مواجهة مجتمع أبيض ومتوصلًا إلى أنه على الأقل مساو لأفضل من فيهم، محققًا ذلك بدون أى مسحة من النزعة العاطفية التى ميزت كوخ العم توم. والأمر المحورى بدرجة أشد هو أن توين يطلب من قرائه النظر فى قيمة الحضارة نفسها. فمثلما يقول هاك فى البداية

والخاتمة، فإنه لا يريد أن «يحضّره ويهذّبه» أحد. وتكمن تحت هذا القول أسئلة عما يعنيه حقًا كون المرء متحضرًا.

إن هاكلبرى فن هى كتاب يقرأه المرء فى الطفولة للتمتع بالمغامرة نفسها، والإثارة التى يحدثها تخيل صبى شكس يهرب من البيت، مرتحلًا على عجل بحثًا عن أرض جديدة. وفى سن البلوغ، تنبغى قراءة الرواية مرة ثانية، بسبب الأسئلة التى تطرحها عن معنى النضج، وبسبب اتجاهات العيش التى تقدمها. وفى منتصف العمر، تمارس الرواية سحرها بطرق أخرى، بإبعادنا عن حياتنا المريحة، مقدمة رؤى بديلة، منها رؤية الطبيعة باعتبارها موردًا لإصلاح الحال. ويصدمنا نفاق الحياة «المتحضرة» مجددًا ويجبرنا على إعادة التفكير فى افتراضاتنا عما هو مهم. وفى أواخر العمر، تتعين قراءتها مرة ثانية، بسبب ما تقوله عن طبيعة الواقع النهائية. إن رواية بهذا التعقد وقوة الخيال لا يمكن استيعابها فى قراءة واحدة فى مرحلة واحدة من الحياة. فهى تقتضى تكريس العمر بأكمله لصفحاتها التى ترفرف، للصور المتغيرة لهاك وجيم فى لقائهما بالعالم، فى تجربتهما مع النهر الكبير والغابات التى تحف به، وبطبيعتهما المسهبة المتناقضة. فالمرء يرتحل فى النهر معهما، المرة تلو الأخرى، والرحلة لا تكتمل مطلقًا حيث يظهر دومًا منعطف آخر فى النهر. بالطبع يتم العثور على الأرض فى النهاية، لكن هذا المقصد يقع فى النهاية فيما وراء الفهم الإنسانى أو الحدود الإنسانية، إنه بصيص نور على الأفق.

وبهذه الطرق وغيرها، فإن مغامرات هاكلبرى فن تحدد المشروع الأمريكى، وبحثه المضنى عن الحرية والمساواة واستهداف السعادة. إنها تقدم لنا طريقًا للتفكير فى أنفسنا، وطريقًا للتعبير عن مشاعرنا بالكلمات. إنها تعلمنا، على نحو يتسم بالإعجاز، أن نعبر عما فى أعماقنا (مثلما يبين الاسم المستعار لمارك توين، مشيرًا إلى طريقة للقياس الثنائى يستخدمها النوتية فى المسيسيبى).

2

كان مارك توين هو صمويل لانجهورن كليمنس (1835 – 1910) – شخصية أصبحت ممثلة للأمريكيين. وذاعت شهرته بعيدًا، ولاقى الترحيب فى بلاط الملوك والأباطرة حيث جاب العالم، ملقيًا النكات والملح، مقدمًا نقدًا قارسًا لا يتسم بالاحترام للعالم الذى انفتح أمامه على مصراعيه، كان زائرًا مرحبًا به فى البيت الأبيض، حيث سعى الرؤساء المتعاقبون إلى صحبته، حتى على الرغم من أنه لم يكن أبدًا مؤدبًا بشأن سياساتهم الإمبريالية. (كان توين مناهضًا سباقًا للإمبريالية الأمريكية، وشجب السياسات التوسعية فى سنواته الأخيرة). ورغم أنه جاء من خلفية عادية، ولم ينل كثيرًا من التعليم الرسمى، فإنه يبدو أنه التقى كل الناس المهمين. وإذ أطلق وصف العصر الذهبى على عصره، فقد عاش هو نفسه حياة مترفة بالطول والعرض، فكسب ثروات كبيرة عدة وخسرها طوال حياته.

وفى مرحلة أو أخرى، عمل مساعدًا فى مطبعة، ومنقبًا عن الذهب، وقبطانًا لباخرة، وصحفيًا ومراسلًا عالميًا ومغامرًا، وصاحب صحيفة ورئيس تحريرها، وخطيبًا عامًا، ومغنيًا شعبيًا، وصاحب مشروع أعمال ومضاربًا ماليًا. والمؤكد أنه كان زوجًا وأبًا متفانيًا. والأهم أنه كان مؤلف كتب شعبية رائجة بصورة ضخمة، منها **صعلوك فى الخارج** (1869)، «**الحياة الخشنة**» (1872)، **مغامرات توم سوير** (1876)، **الحياة عل المسيسيبى** (1883)، **مغامرات هاكلبرى** (1885)، **يانكى من كنكتكت فى بلاط الملك آرثر** (1889) **بورنج فى رأس ويلون** (1894). ويعد كثير من القصص القصيرة مثل «الضفدعة النطاطة المحتفى بها القادمة من مقاطعة كالا فيراس» و «الرجل الذى أفسد هادليبرج» من بين الأمثلة الكلاسيكية من هذا الصنف.

كان توين أيضًا هو أول كاتب أريب فى الإعلام على نطاق واسع وتحول إلى مؤسسة أمريكية. وأصبح وجهه مألوفًا تقريبًا كوجوه فرانكلين وواشنطن أو لنكولن، على الرغم من

أن توين كان من عدة نواحى معاديًا لبن فرانكلين، قائلًا أشياء لايزال كل الفاسقين، والمتأنقين والمحتالين و الأوغاد يعجبون بها، مثل:

> **الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يستحى - أو يحتاج لذلك. افعل الصواب دومًا. ذلك سيسر بعض الناس ويدهش الباقين. الإنجليزى شخص يعمل الأشياء لأن ذلك جرى من قبل. والأمريكى شخص يعمل الأشياء لأن ذلك لم يجرمن قبل. الخيال ينبغى أن يتمسك بالإمكانيات. الحقيقة ليست كذلك. التعليم: هو الذى يكشف للحكيم حدود معرفته الشاسعة ويخفى ذلك على الغبى. لم اترك تعليمى فى المدارس يتدخل-تعليمى فى الحياة. الأمانة هى خير سياسة- عندما تنطوى على نقود. لا أوافق كلية على المبارزات، وإذا تحدانى شخص ما، سآخذه بين يدى بحنان وعفو إلى مكان هادئ وأقتله.**

ولا يمكن للمرء إلا أن يحب رجلًا يقول أشياء كهذه ولكن الأكثر أهمية بشأن مارك توين هو أنه كتب مغامرات هاكلبرى فن. وهى ليست المغامرات (مثل مغامرات توم سوير) بل مجرد مغامرات. وعدم وضع أداة التعريف يوحى بزيادة الإمكانيات الأسطورية. فهذه المغامرات ليست محددة على نحو قاطع فى سياق المكان والزمان، ولا هى مقصورة على تلك الواردة فى الصفحات، فهى معنا دومًا، وستكون كذلك دومًا: تشكل الرأى الأمريكى والشخصية الأمريكية، وتصقل الأخلاقيات عند كل منعطف فى النهر، الذى لا يزال ينساب فى طريقه أمامنا - طالما بقينا أحياء. وبالنسبة للقارئ المخلص، فإن هاكلبرى فن هى الحياة نفسها، حياة مجازية تغزو قسيمها الأدبى وتفعل فيه فعل السحر.

كان توين فى الأصل يعتقد أنه كان عليه ببساطة أن يوسع رواية توم سوير، حيث إن هذا المجلد - وهو كتاب للفتيان - كان قد حظى بشعبية هائلة. إذ اقترح عليه صديقه وناشره ويليام دين هاولز، أن يواصل مغامرات توم إلى سن البلوغ. وعلى الفور، رفض توين الاقتراح فقد كان توم سوير قد تجمد فى الزمان والمكان، ولم يكن هناك أى مستقبل فى قصته. وعلى

أية حال، فقد فضل توين هاك فين، الغريب الذى كان أهم شخصية (وإن كانت هامشية) فى كتابه السابق. كان توين نفسه نسخة من هاك، الصبى الأهوج وإن كان بريئًا الذى رفض أن «يتحضر». فقد اجتذب طابعه الفوضوى الكاتب المراوغ، ولذلك استمتع بإشعال الفتيل، وأخذ يراقبه وهو يحترق، منتظرًا الدوىّ ويداه تغطيان أذنيه (تقريبًا).

فقد كتب القراء الذين أحبوا توم سوير خطابات يرجون استكمالها. مثل الطلب الذى رد عليه توين فى خطاب جاء فيه.

> لى الشرف أن أرد على خطابك الذى تلقيته توًا، وفى نيتى أن أكتب تتمة لتاريخ توم سوير، لكننى لست قادرًا فى الوقت الحالى على تحديد متى سأبدأ العمل.

وعمل توين على التتمة بشكل متقطع خلال صيف 1876 الحار، وكان عادة يكتب فى عليّة منزل يطل على النهر فى مزرعة كوارى قرب الميرا، نيويورك: بيت كان قد اشتراه حماه الثرى قبل عدة سنوات كمنتجع ريفى. وصاغ روايته الجديدة وفق نموذج مغامرات جل بلاز، التى كتبها لوساج – وهى عمل شعبى من القرن التاسع عشر من تراث الأدب القصصى عن حياة الصعاليك يرجع إلى دون كيشوت. وبلاز هنا صبى صعلوك من الريف الفرنسى يروى قصته. كان يحيا على هامش المجتمع، مثل هاك، ويتحدث عن مغامراته فى صوت له خصوصيته (وإن كان محدودًا كما هو واضح). أنه امرؤ كبير القلب أيضًا مثل هاك، وعندما يلتقى مجتمعًا منافقًا، يصيبه الارتباك والانزعاج وبالطبع، فإن القارئ يرى أكثر مما يفعله، وبذا يتيح سياقًا من المفارقة الدرامية.

بدا أن مخطوطة توين كانت تنمو ذاتيًا، فوصلت لنحو 446 صفحة فى نهاية أغسطس، عندما توقف المؤلف فجأة عن الكتابة – تقريبًا فى منتصف جملة (ضاعت هذه النسخة للرواية لما يربو على قرن، ليعاد اكتشافها فقط فى 1991، ومنذئذ. يقوم الباحثون بتحليلها باهتام، مثلما فعل فيكتور أ. ديونو، الذى لاحظ أن عنوان العمل الأولى للمخطوطة، كان السيرة الذاتية لهاك فن) وإذ ارتبك من جراء ماكتبه – فيما يشبه الحلم، فقد وضع توين

المخطوطة فى درج، وتحول لعمل آخر. وأنهى كتاب صعلوك فى الخارج (1880) وبدأ العمل فى كتاب الأمير والفقير (1881). فقد كان من عادته أن يعمل فى مشروعات عدة فى الوقت نفسه، متنقلًا بينها مثلما تحركه روحه.

وعاد إلى هاك فى ربيع 1880، وكتب 216 صحفة بانتظام بالغ، مستندًا إلى خزانات ذاكرته ومشاعره العميقة. وانتهى المخطوط الأول بانفصال هاك عن جيم، ودخوله العالم الغريب الذى كانت فيه عشيرة جرانجر فورد قد استحوذ عليها الثأر والعداء لعشيرة شيبردسون - وهو عداء استمر طويلًا لدرجة أنه لم يكن يوجد من يتذكر سبب نشوبه. وعمليًا ترك توين المخطوطة تنتهى بسؤال هاك المشئوم والمفحم: ما هو العداء والثأر؟ ما هو حقًا؟ ولماذا يهاجم الناس اللطاف فى غير هذا بعضهم البعض بهذا الشر، وبدون سبب؟ ربما كان العنف غير الرشيد قد سلب عقله حينذاك، حيث ظل يكتب طوال سنوات التعمير، عندما كانت الولايات المتحدة تصارع بقوة ميراث العبودية. لم تكن جراح هذه الحرب قد برأت بعد، وأدت مرارة عشر سنوات، للتصرف بقسوة. والواقع أن العبودية، كانت قد ولدت من جديد، حيث وجد الأمريكيون الأفارقة أنفسهم عاجزين عن التصويت أو العمل بحرية فى سجن المجتمع الأبيض، الذى لن يمنحهم حريتهم حقًا (إلا على الورق).

بدأ توين يتبين كيف أن هذا الكتاب يمكن أن يصبح أكثر من مجرد كتاب آخر للفتيان. ومع ذلك فإن الحلقة الثانية كادت أن تتوقف فجأة كالحلقة الأولى. وإذ عجز توين عن الاستمرار، فقد عاد لمشروعات أخرى، بما فى ذلك رحلة على امتداد نهر المسيسيبى، التى أراد أن يستعيد بها الرحلة التى كان قد قام بها مرات عدة بهذا القدر فى سنينه الأولى كقبطان باخرة. كان هذا بحثًا عن كتاب «الحياة على المسيسيبى»، وهو مذكراته السخية عن النهر وعالمه، والتى كتبها بسرعة كبيرة وكتبها على الآلة الكاتبة سكرتيران من ايلما، فى نيويورك: ربما كانا من أوائل من مارسوا هذه المهنة. وإذ أتم هذه المذكرات، فقد عاد إلى ها كلبرى فن فى1883، وكتب بسرعة عاصفة، الوحي الذى جاء له مؤخرًا. وأخيرًا رأى أن واحدًا من

أكبر موضوعات هذه الرواية التى بدت للعيان مكتملة، هو حرية هاك. ومثل كتاب والدن. فقد كتبت رواية هاك للاحتفال بالاستقلال الأمريكى.

وتدور الرواية فى الفترة التى كانت فيه ميسورى ولاية تسمح بامتلاك العبيد، لذلك كان جيم مجرد شىء مملوك، بالكاد إنسانًا أصلًا - بقدر ما يتعلق الأمر بالقانون. كان توين يعرف ما كان يكتب عنه، فقد نشأ مع الجنوب، حيث اختبر العبودية بصورة مباشرة. فقد كان عمه جون كوارلس يملك مزرعة مساحتها 230 آكر يعمل فيها عدد صغير من العبيد «خمسة عشرة أو عشرين زنجيًا» مثلما كتب توين فى 1897. وكان من هؤلاء «العم دان» الذى منحه كوارلس حريته فى 1855. كان طول دان يبلغ ستة أقدام، وكان يتمتع بذكاء ورباطة جأش كبيرين جعلا منه نموذجًا لجيم، كما قال توين فى أواخر عمره عندما كتب يقول إن دان «أفادنى طوال هذه السنين الكثيرة والعميقة، لم أره لمدة تبلغ نحو نصف قرن ومع ذلك فإننى من الناحية الروحية أعتبر رفقته السارة جزءًا طيبًا من ذلك الزمن وقد صورته فى كتب باسمه الحقيقى «جيم»، ونقلته معى فى كل مكان».

إن هاكلبرى سيرة ذاتية مستترة، وكثير من الشخصيات والمشاهد فى الرواية لها أصولها فى شخصيات وأحداث من ماضى المؤلف. ولاغرو، أن الباحثين قد اختاروا ما يريدون فى هذا المجال. فقد أبرزوا، على سبيل المثال أن شخصية هاك تستند إلى شخصية صديق صبا لتوين كان اسمه. توم بلا نكشيب - وهو صبى فقير لم يجد من يرعاه كان له قلب كبير. وكان شقيق توم الأكبر قد هرّب طعامًا إلى عبد هارب على جزيرة فى المسيسيبى، ويتذكر توين ذلك، ويمكن للمرء أن يستخلص أوجه تشابه بين جون كوارلس، عم المؤلف، ومالك العبيد حلو الشمائل غائب العقل فى الرواية، العم سيلاس فيلبس. ففى صبا توين فى ميسورى، دار صراع طويل الأجل بين عشيرتين كان يشبه الصراع بين آل جرانجرفورد وآل شيبردسون. بيد أن الفكرة تظل هى أن توين استطاع أن يستوعب هذه الشخصيات والأحداث ويحولها إلى رواية أدبية كبرى.

ومن الواضح أن توين كان يكتب هاكلبرى فن عن عالم عرفه جيدًا ويتذكره بوضوح مختلطًا بهلوسة. فقد أعادت الجغرافيا والتاريخ والسياسة فى ميسورى المشهد أمامه. ويجدر تذكر أن منطقة ميسورى كانت محل جدل لبعض الوقت، وسيقت مبررات كثيرة حول ما إذا كان ينبغى السماح بالعبودية فيها أم لا. وقد نص حل ميسورى الوسط الذى تم التوصل إليه فى 1820، على أن أهل ميسورى يستطيعون الاحتفاظ بعبيدهم، لكن العبودية ستكون محظورة فى أى ولاية تقام فى المستقبل فوق خط 30° 30َ (خط ماسون - ديكسون). وهكذا انتصبت ميسورى لأعلى مثل إبهام مقروح، لأنها كانت تقع أعلى هذا الحد الفاصل، ولاية يوجد بها العبيد فى حين تحيط بها ولايات حرة. (وكانت هانيبال نفسها - وهى البلدة التى نشأ فيها مارك توين والتى جعلها أسطورة فى روايته - تبعد خمسة وستين ميلًا إلى الجنوب من أيوا، وكانت الينوى عبر النهر فحسب - وهما ولايتان كانتا قد حرمتا العبودية) كان هنرى كلاى هو الذى دعا إلى حل ميسورى الوسط (وليس من قبيل الصدفة) أن خطب كلاى هى التى كانت متداولة فى البيت فى مزرعة جوانجر فوردز فى رواية توين و ذلك إلماع أريب للتاريخ المضطرب لهذه المنطقة.

وإذ كان توين قد سافر إلى الجزء الجنوبى للنهر مرة ثانية لكتابه «حياة على المسيسيبى»، فقد وجد أن أفكاره تعود إلى هاك وجيم وحياتهما على النهر. وقد كتب إلى أمه الحبيبة جين كليمنس فى هانيبال يقول: «لم تزدهر أيامى فى العمل لسنوات كثيرة، وأنا أكدس حاليًا المخطوطة بطريقة تدعو للدهشة حقًا، وفى هذا الصيف، فإن الكتابة ليست أكثر مشقة من الاستلقاء». وانتهت هذه الموجة العارمة من الكتابة بكوم من نحو سبعمائة صفحة مكتوبة بخط اليد، وكان توين يراجع باستمرار ما كتبه (كما هى العادة)، شاطبًا كلمات وجملًا، مع تصحيحات فى الهوامش أو مقحمة بين السطور. وبهذا الكوم من الصفحات، ترك توين المنزل المطل على النهر فى الميرا، متجهًا إلى هارتفور، كونكتكت، حيث عمل على مخطوطة كتبت من جديد على الآلة الكاتبة لستة شهور أخرى. ورغم أن هذه المخطوطة المكتوبة على الآلة الكاتبة قد ضاعت، فإن المرء يتبين عن طريق المقارنة بين المخطوطة

الأولى والنسخة النهائية المطبوعة أن كثيرًا من التغييرات العنيفة قد أجريت. وهناك مثال يبين بصورة جيدة نوع التصحيحات التى أجراها توين. قارن المسودة التحضيرية بالصيغة النهائية لمقطع موجز من الفصل 16:

> لقد رحلوا، وحجلت على ظهر الطوف قائلًا لنفسى، لقد أخطأت ثانية، وكنت أحاول قدر ماوسعنى الجهد أن أفعل الصواب أيضًا، ولكن عندما تعين أخبارهم بأنه زنجى على الطوف، وفتحت فمى بغرض القيام بذلك، لم أستطع. أننى وضيع وجبان منحط، وهو خطأهم أن ربونى على هذا النحو. فلو نشأت نشأة سليمة، لم أكن لأقول أى شىء عن أى شخص يكون مريضًا، ولكن كلما حاولت فعل الصواب، فشلت بدرجة أكبر.

> لقد رحلوا، وركبت على الطوف، شاعرًا بالسوء والضعة، لأننى أعرف جيدًا أننى ارتكبت خطأ. وأرى أنه لاجدوى من محاولتى أن أتعلم فعل الصواب، فمن شب على شىء شاب عليه - وعندما يحين وقت العقاب لن يوجد شىء يسندْ ويبقى عليه فى عمله، ومن ثم يتلقى الضربات.

لقد ضغط توين المقطع الأول، متوصلًا إلى طرق أكثر تحديدًا ومتجسدة على نحو كامل ليقول بها ما يعنيه. على سبيل المثال لم تكن هناك حاجة لكى يعترف هاك بأنه كان «وضيعًا وجبانًا منحطًا» أو أن يرتكن إلى التبرير الذاتى المبتذل القائل بإن عيوبه ترجع «إلى خطئهم فى أن ربونى على هذا النحو». ويحدث تحول فى هذه النقطة فى فكرة «إن من شب على شىء شاب عليه». إن مواهب كاتب مثل مارك توين هى وحدها التى يمكن أن تحقق هذا التأثير المركز فى مثل هذه المساحة الصغيرة.

ومع اكتمال الرواية، وافق توين على قيام صحيفة شعبية، هى سنشرى، بنشر ثلاث حلقات (حاول رئيس التحرير ريتشار واطسون جيلدر، قصارى جهده، لجعل توين يوافق

على «القيام بنشر المزيد منها، لكن توين كان امرؤًا ماكرًا، لأنه كان يظن أن نشر قدر أكبر من اللازم من الكتاب فى صورة حلقات، قد يجعل مبيعاته تعانى). والمثير للاهتمام. أن هذه المجلة نفسها كانت تنشر فى ذلك الوقت نفسه حلقات من روايتين كلاسيكيتين أمريكيتين أخريين – صعود سيلاس لابهام لدين هاولز والبوسطنى لهنرى جيمس – ومن ثم فقد كانت عين رئيس التحرير تركز على النوعية الجيدة.

وظهرت مغامرات هاكلبرى فن فى شكل كتاب فى 18 فبراير 1885. وحققت كما هو متوقع، نجاحًا تجاريًا ونقديًا على الرغم من أن بعض النقاد (وعددًا ليس قليلًا من أمناء المكتبات) لم يستطيعوا هضم لغتها «الخشنة» بسهولة أو أصالة العمل بأسره التى تثير الاضطراب. وحتى فى الوقت الحالى، فإن الرواية تسبب الاضطراب للقراء. ومثلما يقول تى اس اليوت وهو نفسه من أطفال نهر المسيسيبى، فى كتابه أربع رباعيات: «إن النوع الإنسانى لا يستطيع أن يتحمل الحقيقة كثيرًا».

3

وبدأت الرواية، كما سبق أن رأينا، بإحالة من هاك إلى مارك توين، خالقة. وتضفى هذه المذكرة من الإحالة الذاتية على الكتاب نغمة خافتة مما وراء الخيال من البداية، حيث يكشف المؤلف عن يده، بل ويلوح بها بجرأة: أنا هنا، تحت صوت هاك هذا، وأنا أعرف ما أعمله، كما يقول لنا. يمكنكم الثقة بى، أننى أقول لكم الحقيقة «أساسًا». ثم يضيف اعتراف هاك ثانية: «إننى لن أرى أحد مطلقًا وإنما استلقى». أن به روح توين هنا. فالكتاب يستلقون ويخدعون، وهذا هو السبب فى أن أفلاطون كان يريد طردهم من جمهوريته الفاضلة: لكن استلقائهم يتيح للحقيقة إظهار وجهها بطريقة لم تكن تستطيع أن تجرؤ عليها مطلقًا.

ويستهل توين الرواية بأن يشرح أن هاك وتوم أصبحا أغنياء من النقود التى أخفاها اللصوص فى الكهف. «لقد حصلنا على ستة آلاف دولار لكل واحد - كلها من الذهب» (17). كان ذلك كومًا من النقود، ولم يكن هناك شك فى أن متاعب ستترتب على ذلك. فالمتاعب تتبع النقود دائمًا.

وسرعان ما نلتقى بالأرملة دوجلاس، التى كانت تحاول أن «تحضّر» هاك، وهو صبى فقير لا أم له. ويقتحم أبوه، والمعروف باسم باب، المشهد. لكن ذلك أمر طيب، حيث أن باب سكير عنيف ووغد. والنغمة منذ البدء ساحرة على نحو مدهش، مملوءة بالسخرية المأساوية: أى أن الجمهور يعرف عادة أكثر من المتحدث. وبالطبع، فإن المتحدث هو مجرد صبى، وأكثر من ذلك، فإنه ولد فظ غير متعلم. ومع ذلك، فإننا نرى من خلال ما يقوله هاك، (وهو يفعل ذلك بصورة جزئية فحسب)، عالمًا مملوءًا بالنفاق. وتعيش السيدة واطسون، شقيقة الأرملة فى المنزل هى أيضًا، وهى تحاول تحسين تهجئته وسلوكه. بل وتقول له أنه إذا أصر على أسلوبه، فإنه سيذهب للجحيم، على الرغم من أنها لم تذكر كلمة الجحيم حرفيًا. وقد طرح هاك الأمر كالتالى. «ثم أخبرتنى عن مكان سيئ، وقلت أننى أود أن أكون

هناك. واستشاطت غضبًا، لكنى لم أقصد سوءًا. كل ما كنت أريده هو أن أذهب إلى مكان ما، كل ما كنت أريده هو التغيير، كنت أريد شيئًا خاصًا» (19) وهنا يحتفظ هاك بسمة أولاد البلد، وتوين خالقة وراءه : فنحن نسمع توين، ونراه تقريبًا يغمز إلينا، عندما يتحدث هاك وهكذا، فإننا نسمع هذا الصوت المزدوج فى كل الأوقات، صوت ابن البلد وصداه اللاحق.

وطوال الفصول القليلة الأولى، نقرأ حكاية هاكلبرى فن كقصة نمطية لمغامرات صبى كتتمة لقصة توم سوير. والواقع أن توم يلعب دورًا كبيرًا فى البدء، بأساليبه الشيطانية. ففى نهاية المطاف، فإن توم هو الذى يريد أن يقوم بخدعة على الزنجى الكبير للسيدة واطسون، المسمى جيم» (22). وتظهر كلمة «الزنجى» ما يربو على مائتى مرة فى الرواية، ولم تكن لتثير دهشة كبيرة فى ذلك الوقت. بالطبع، ففى أمريكا حاليًا، فإن إدراج «كلمة - ز ...» جعلت، الكتاب محظورًا فى مكتبات ومدارس كثيرة.وفى عصر توين، كان فى مقدور المرء أن يسىء معاملة الأمريكيين الأفارقة بهذه الطريقة مع الإفلات من العقاب. ذلك أن اللغة تخلق الواقع: والرجل الأسود مثل جيم كان مجرد شىء مملوك فى ولاية تتيح امتلاك العبيد قبل الحرب الأهلية. ولم يتردد هاك وتوم فى استخدام هذه الكلمة أبدًا أو فى ممارسة حيل قاسية على جيم. لكن توين ليس هاك أو توم. وتصبح روايته فى النهاية، دفاعًا بليغًا عن إنسانية جيم (وبالتداعى) عرقه. (تستطيع فصول دراسية كثيرة فى أمريكا أن تتحمل حديثًا صريحًا عن تاريخ الأعراق.)

وتبدأ الحيلة فى الفصل الثانى، عندما يخدع توم وهاك جيم المسكين ليدفعاه للاعتقاد بأن السحرة يمارسون عملهم حوله. وفى الفصل نفسه، ينسلان من منزل الأرملة ليذهبا للنهر، حيث يلاقيان صبية آخرين ينتمون لعصابة توم من اللصوص المفترضين. وحتى هنا، يظل هاك غريبًا، ولما لم تكن له أسرة، كان يستطيع أن يقسم بأنه يستحق الموت إن كشف أسرار العصابة. أن كل هذا مادة تبين أن «الصبية ما هم إلا صبية»، لكن توين كان كاتبًا ساحرًا بالنسبة للصبية، مثلما أثبتت رواية مغامرات توم سوير، وتحتفظ هذه الفصول بسحر الكتاب

السابق بدون أن تتوقف لتفنيد أى شيء يقوله الصبية، حتى وإن كان عنيفًا تمامًا عادة أو يستند إلى الخيال الجامح.

واستمرأ هاك الحياة مع الأرملة دوجلاس والسيدة واطسون، وسار كل شيء على ما يرام إلى أن اكتشف أثر أقدام فى جليد كان قد سقط مؤخرًا. يقول هاك: «كان هناك صليب فى كعب فردة الحذاء اليسرى حفرته أظافر طويلة، لإبعاد الشيطان» (35). والواضح أن باب كان قد عاد. وكما يخمن هاك، كان باب يريد نقوده.

وفى الفصل الخامس يظهر باب فى البلدة : «كان فى نحو الخمسين من العمر، ويظهر عليه ذلك. كان شعره طويلًا ومتشابكًا وزيتيًا ويتدلى لأسفل، وكنت تستطيع رؤية عينيه تبرقان من خلاله مثلما لو كانتا خلف كرمة. كان شعره كله أسود ليس فيه شيء أبيض، كذلك كان سالفاه الطويلان الممزوجان» (39). كان باب سكيرًا وعنيفًا، وكان يريد استعادة ابنه (أو ثروة ابنه). واستنجدت الأرملة دوجلاس بالقاضى ثاتشر، وهو شخصية خيرّة،بغية إبقاء هاك بعيدًا عن باب، لكن كان هناك قاض جديد فى البلدة رفض إعطاء الأرملة الوصاية على الصبى. فقد اعتقد القاضى بسذاجة أنه يستطيع أن يصلح باب، لكن جهوده فشلت على نحو مثير للشفقة، حيث إنه لم يكن أحد يستطيع أن يمنع باب من الشرب. وخلص القاضى إلى أن الوسيلة الوحيدة لإصلاح باب «ربما تكون بإطلاق الرصاص عليه».

وبدأت المتاعب حقًا عندما اختطف باب هاك، وأخذه لأعلى النهر فى كوخه، على مبعدة ثلاثة أميال. كان مكانًا مخيفًا، أسطوريًا تقريبًا بالطريقة التى يصفه بها توين باعتباره «كوخًا خشبيًا قديمًا فى مكان كانت الأشجار حوله كثيفة بحيث لم تكن تستطيع أن تجد طريقك إن لم تعرف أين يقع» (45). واستمر باب يسعى وراء خياراته القانونية، محاولًا الحصول على الوصاية على هاك - والأهم - أمواله. ومثل المجنون، أخذ يلوم السلطات مرّ الشكوى، وطفق يصرخ قائلًا «هل تسمون هذه حكومة! آه، نعم أنها الحكومة عجيبة، عجيبة! لماذا، أسمعوا هناك زنجى حر هنا، من أوهيو، خلاسى، أبيض تقريبًا مثل الرجل الأبيض».

كان هذا الخلاسى، ليرحمنا الله، أستاذًا فى الجامعة. كان يلبس أكثر القمصان بياضًا فى البلدة، ويتباهى بساعة وسلسلة من الذهب - وهى بنود لاتتلائم مركزه «الحقيقى.» يقول باب «وذلك ليس أسوأ ما فى الأمر، فقد قالوا أنه يمكنه الانتخاب». أن توين يستسيغ السخرية ويجعلها تدوى. أن هذا الرجل الأسود الذى لايستحق والمدعى الذى يختال بقميصه الأبيض وساعته وسلسلته الذهبية، هو فى خيال باب الجامح، نسخة مبكرة من الأم السوداء المرفهة فى سيارتها الكاديلاك. وكما هو الحال دومًا، فإن القارئ يمكنه أن يدرك هذه السخرية الدرامية، وهو يعرف أكثر مما يعرفه باب.

إن الهروب من سكير مثل باب لم يكن ليمثل مشكلة، خاصة بالنسبة لصبى حاذق مثل هاك، لكن توين يستغل الموقف من أجل إحكام الدراما. ولم يهرب هاك إلا فى الفصل السابع، ويتوتر الموقف تمامًا عندما يفعل ذلك، حيث إن باب كان يفيق أحيانًا. وإذ زوّر هاك عملية اغتياله، فقد انسل بعيدًا فى زورق محفور فى جذع شجرة، متجهًا إلى جزيرة جاكسون. يقول هاك «لم يستغرق الأمر طويلًا لوصولى إلى هناك» (60). وتقترب الكتابة من ذروة شعرية استطاع توين الحفاظ عليها فى جزء كبير جدًا من الرواية: «صعدت ونزلت على كتلة من خشب على رأس الجزيرة ونظرت لما وراء النهر الكبير والخشب الأسود الطافى على الماء، إلى البلدة، التى تبعد ثلاثة أميال، حيث كانت هناك ثلاثة أو أربعة أضواء تومض». إن للغة تماسكًا ووضوحًا يدعوان للإعجاب، فهى صادرة من أعماق ذاكرة الكاتب الرحبة.

وعلى جزيرة جاكسون قابل هاك جيم، الذى كان قد هرب بعد أن سمع مصادفة حديثًا جعله يعتقد أنه يمكن أن يباع عند مصب النهر (وبالطبع، فإن حبكة مماثلة دفعت اليزا للهروب من كنتاكى بابنها فى رواية كوخ العم توم) وللأسف، كان جيم يعتقد أنه يبحث عن شبح، وفى لحظة مرحة يحكى لهاك أنه كان دائمًا يحب الموتى وأنه كان طيبًا معهم. وبا لطبع فإن توين يقع فى القالب الهزلى للسود هنا. وقد أفاد ذلك فى أيامه للأسف، ولايزال.

يستخدم توين تشكيلة من اللهجات العامية ويعرف ما يفعله، مثلما يخبر القارئ فى ملاحظة تمهيدية متظاهرًا بالخجل: «فى هذا الكتاب جرى استخدام عدد من اللهجات

العامية، لتعلم ذلك: إنها عامية زنوج ميسورى، والشكل الأقصى تطرفًا من اللهجة العامية فى الغابات الخلفية فى الجنوب الغربى، واللهجه العامية لمنطقة الجبال المستدقة»، وأربع تنويعات معدلة من هذه الأخيرة. أن الفروق الدقيقة لم توضع صدفة واتفاقًا، أو عن طريق التخمين، ولكن باجتهاد وعناية فائقين، وبتوجيه جدير بالثقة وبدعم من ألفة واعتياد شخصيين على هذه الأشكال المتعددة من الكلام». أنه لم يرد أن يتخيل القراء الأبرياء أن شخصياته المتنوعة كانت تحاول جميعًا الحديث على نحو متماثل ولم تنجح فى ذلك.

وفى الفصل التاسع، يقيم هاك وجيم رباطًا فيما بينهما، ليكتشفا الجزيرة ويتعلما كيف يبقيان على قيد الحياة. وهناك كتابة مثيرة للعواطف عن عاصفة هبت ومياه فاضت. وفى أحد الأمسيات وضعا أيديهما على طوف سيحملهما فى اتجاه مجرى النهر فى الوقت المناسب. إذ سرعان ما وجدا بيتًا كاملًا طافيًا فى المجرى الذى يعلو ويرتفع. تسلقا على ظهره لاستخلاص ما يمكنهما من أجل استخدامهما الشخصى، وفيه رأى جيم رجلًا ميتًا على الأرضية. كان باب، لكنه لم يقل ذلك لهاك. ويبقى سرًا السبب الدقيق فى أنه لم يكشف هذه الحقيقة لهاك، رغم أن هناك تفسيرًا محتملًا هو أنه لم يرد أن يتركه هاك، فبدون وجود باب ليخاف منه، ربما كان الصبى سيرجع إلى حياته المريحة فى البلدة. وربما يكون هناك ميل مضلل من جانب جيم لحماية هاك من رؤية والده هو فى مثل هذه الحالة الختامية.

وإذ أراد هاك أن يعرف ما يحدث فى البلدة، فقد ارتدى ملابس فتاة ليجرى تحرياته. وقام بزيارة غير متوقعة لامرأة تسمى مارى ويليامز، أو ساره .... فقد نسى الاسم المضبوط. وسرعان ما خمنت المرأة أنه «صبى وليس فتاة». وسألته «ما اسمك الحقيقى؟ هل هو بيل أوتوم أويوب؟» (88). وانكمش هاك خوفًا، لكنه عرف أن هناك قدرًا كبيرًا من النميمة والمعلومات الخاطئة عنه. فقدا فترض البعض أن باب قتل هاك، ثم هرب. واعتقد البعض أن جيم قتل هاك. وعلى أيه حال، فإن الوفرة من الاتهامات وقعت على رأس جيم. كانت المرأة التى سألت هاك عن هويته الحقيقية تعتقد أن جيم يختبئ فى جزيرة جاكسون.

وكان ذلك سببًا كافيًا ليفر هاك وجيم فى اتجاه مجرى النهر إذ قال له هاك «استعد ولنهرب بأقصى سرعة. ليس هناك دقيقة نضيعها، إنهم فى أعقابنا». وهكذا بدأت المطاردة، أو المطاردة المتخيلة. تلك حبكة جيدة. ومثلما قال ى. م. فورستر: فإن رجلًا يهرب، فتلك قصة، ورجلًا يفر من شخص ما فتلك حبكة.

وانطلق هاك وجيم على ظهر الطوف الخاص بهما، طافيًا فى اتجاه مجرى النهر إلى كايرو وتظل الصورة بين أكثر الصور التى لا يمكن محوها فى الأدب الأمريكى والحياة الأمريكية. لكنها ليست صورة مريحة كلية، ولم تكن كذلك أبدًا. ففى مقال شهير عن هاكلبرى فن اسمه «ارجع للطوف ثانية، يا عزيزى هاك!» (1948)، تقصت ليزلى فيدلر وجود تيار تحتى مستتر من الشذوذ الجنسى فى الرواية. وأشارت إلى علاقة شهوانية غامضة بين الرجال فى كثير من الروايات الكلاسيكية، مثل رواية موبى ديك، بحب اشمائيل لكويكج كمثال دال. والمؤكد أن عاطفة عميقة قد تطورت بين جيم وهاك الشاب، «كان العبد الهارب والصبى عديم الأهمية يستلقيان جنبًا إلى جنب على طوف يحمله نهر لا ينتهى صوب مهرب مستحيل». إن وجود تيار مشحون من المشاعر بين هاك وجيم أمر لا يمكن إنكاره. ومع ذلك، فإننى أعتقد أن رالف اليسون أصاب كبد الحقيقة عندما لاحظ: «جاءت صداقة جيم لهاك كصداقة صبى لصبى آخر وليس كصداقة راشد لقاصر».

إن جيم لا يفلت من القالب المستزنج لذوى الوجوه السوداء. إلا فى مناسبات قليلة، وفى غير ذلك فهو «صبى». وهكذا، فإن العلاقة بين هاك وجيم كانت تدور فى عالم يمكن حتى تسميته بأنه عالم «طبيعى»، فى ضوء الترجمة العرقية (والعنصرية).

وتنساب الحياة على النهر صوب الوضع المثالى الشاعرى فى الفصل 12، عندما يحسن جيم وهاك ظروف حياتهما على الطوف حيث أقاما عليه كوخًا مستدير الشكل حسن البناء. «لكن المثالية تتحطم عندما تهب عاصفة عنيفة عليهما. وفى أعقابها يمر حطام باخرة مخيف. ويقنع هاك جيم بالاقتراب منه والتعلق بجانبه، ويصعد هاك الفضولى دومًا، على ظهرها ليفتش فى المشهد. ويصادف ثلاثة لصوص، اثنان منهم قيدا الثالث وأخذا يهددان

بقتله بترك القارب يغرق به وهو على ظهره وأن يهربا على مركب شراعى صغير مربوط إلى جانب الباخرة. وإذ فكر هاك فى الأمر سريعًا، فقد قرّر أن يحصل على هذا المركب الشراعى الصغير، ومن ثم يتركهم على المركب المهجورة، حيث يستطيع المأمور أن يقبض عليهم. بيد أنه سرعان ما اكتشف أن الطوف الذى يتقاسمه مع جيم قد اختفى. ومثلما يفسر جيم وهو شديد الاهتياج: «ليس هناك طوف، لن نتحرك من هنا، لقد قطع الحبل ورحل» (101). وكان القارب الشراعى الصغير الذى يخص اللصوص يوفر آنذاك طريقًا للهرب. وبمعنى ما فإن «السارقون» كانت تتم سرقتهم آنذاك، ويقضى عليهم بالموت فى باخرة أو أن تعتقلهم السلطات.

ومره تلو الأخرى، فإن الالتواءات والانعطافات فى النهر تقدم مواقف ومعضلات جديدة يوفر كل منها لتوين فرصة لصقل شخصية هاك وتطويرها. ففى الفصل 13، يجد هاك وجيم طوفهما مرة ثانية: كان اختفاؤه بشكل دائم سيشكل خسارة كبرى للجميع، بما فى ذلك القراء. ومن ثم يستأنف الوضع الشاعرى المثالى فى الفصل 14، بوجود ثنائى غريب يناقش مطولًا قصة سليمان فى التوراة، بين أشياء أخرى. وكان الحوار بلهجة عامية غير مفهومة تمامًا:

> كان (جيم) أشد نقمة على سليمان من أى زنجى رأيته. ومن ثم شرعت فى الحديث عن ملوك آخرين، تاركًا سليمان جانبًا. أخبرته عن لويس السادس عشر الذى قطعت رأسه فى فرنسا منذ زمن طويل، وعن الصبى الصغير، الدلفين الذى كان ملكًا، لكنهم قبضوا عليه وأطلقوا عليه النار فى السجن، والبعض يقول أنه مات هناك.
>
> «يا للشاب الصغير المسكين»
>
> «لكن البعض يقول أنه خرج وهرب وجاء إلى أمريكا».
>
> «ذلك حسن. لكنه سيكون وحيدًا تمامًا، فليس لديهم ملوك هنا، هل لديهم؟».
>
> «لا».

«لن يحصل على أى وضع، ما الذى سيفعله».

«حسنًا لا أعرف. البعض منهم يذهب للشرطة، والبعض منهم يعلم الناس كيف يتكلمون الفرنسية».

وفى هذه الحوارات كان هاك ينزل إلى مستوى جيم ويتحدث تقريبًا بالعامية الزنجية نفسها بإتقان - تلك نقطة تقصتها بطريقة مثيرة للاهتمام شيلى فيشر فيشكين فى مقال» هل كان هاك أسود؟ وتؤكد فيشكين أن توين حدد نموذجًا لهاك حسب صورة صبى أسود كان قد روى قصته فى مقال كتبه قبل أن يبدأ فى تأليف قصته مباشرة. كما تلاحظ أن توين كان مغرمًا بأن «يعبر بالإيماءات» عن طفل أمريكى أفريقى معيّن فى هانيبال، حيث نشأ وكبر ولاريب، أن هاك أخذ بجوانب كثيرة من عامية السود، كما لاحظت فيشكين. وكان يبدو عادة أحمقًا - وجاهلًا - مثل جيم.

كانت كايرو هى مقصد الرحلة بإصرار، حيث ينضم المسيسيبى إلى نهر أوهيو. كانت خطة هاك وجيم هى أن يأخذا الباخرة لأعلى النهر للحصول على الحرية فى الشمال؛ لكن مسار رحلتهما انحرف على نحو سيىء فى الفصل 15، عندما اكتسحت النهر كتلة من «الضباب الأبيض الكثيف». كان هذا ضبابًا ماديًا ولكنه كان مجازيًا أيضًا، اعتبره جيم «حلمًا»، فقد خدعه هاك وجعله يعتقد أنه كذلك. كان أيضًا ضبابًا معنويًا بالنسبة لهاك الذى كان يمارس خداعه ثانية على جيم، مكررًا ميله السابق لممارسة ألاعيب عليه. إن ولاء هاك لجيم، ونوعية عواطفه تجاهه، على المحك هنا. ففى نهاية الفصل يشعر هاك بالأسف لخداع رفيقه ويعتذر، ويشعر المرء بالنضج الأخلاقى للصبى، الذى يعترف للقارئ: «لن أمارس عليه بعد الآن خدعًا وضيعة، لم أكن لأفعل ذلك لوأدركت أن ذلك سيجعله يفكر على هذا النحو» (121).

وتتقدم قضية العبودية إلى الصدارة والمركز فى الفصل 16 وجيم يتوقع حريته، متخيلًا أنه سيدخر ما يكفى من المال لشراء حرية زوجته أيضًا، ثم حرية طفليهما. فإن لم يبع السيد المالك هذين الطفلين، فإنه ببساطة «سيجعل أحد دعاة الرق يذهب ويسرقهما» (124).

وتشتد المعضلة الأخلاقية التى تواجه هاك. هل يخالف القانون ويساعد فى هروب جيم؟ وكما حدث، فإنه لم يكن يستطيع تحمل ترك جيم يسقط فى أيدى العبودية ثانية، واتخذ القرار السليم. وعندما اتجه للشاطئ ليرى مدى المسافة التى ابتعد بها هو وجيم فى اتجاه مجرى النهر، قابل رجلين أبيضين يبحثان عن عبيد هاربين. وباستخدام ذكائه، خدعهما وجعلهما يعتقدا أن باب على الطوف وأنه مريض على نحو خطير واستنتج هذان الرجلان أن والد هاك لابد وأن يكون مريضًا بالجديرى، ووضع واحد منهما قطعة نقود ذهبية قيمتها 20 دولارا على لوح خشب ليطفو ويصل إلى هاك - فى عمل من أعمال الكرم، ورشوة لإبعاده عن طريقهما نظرًا لأنه قد يكون معديًا، ووضع صديقه قطعة نقود أخرى بقيمة مساوية على اللوح. وفى مفارقة ساخرة مذهلة، نصح أحدهما هاك قائلًا: «إن رأيت زنوجًا هاربين ، احصل على مساعدة واقبض عليهم، يمكن أن تحقق بعض المال من ذلك» (127). وتتراكم طبقات السخرية.

وأدرك هاك وجيم أنهما تجاوزا كايرو ويجب أن يصعدا ثانية لأعلى النهر. وبدأت الأمور أخيرًا تسير فى الاتجاه الصحيح كما يبدو، عندما حدثت كارثة فى شكل باخرة، كانت تشق طريقها إليهما «استطعنا أن نسمع صوت فرقعتها، لكننا لم نرها جيدًا إلى أن اقتربت. كانت تتجه إلينا مباشرة» (103). وباعتبار توين قبطان باخرة سابق، كان يعرف موضوعه جيدًا، ويشع الوصف الناتج عن ذلك أصالة. «كانت باخرة كبيرة، وكانت قادمة باندفاع سريع، أيضًا، تشبه سحابة سوداء بصفوف من اليراعات المتوهجة حولها، ولكنها انتفخت بصورة مفاجئة، كبيرة ومخيفة، بصف من أبواب اتون مفتوحة على مصراعيها، تبرق مثل أسنان ساخنة حمراء وكأن رماة النبال وحرسها المتوحشون يهددون تمامًا بالانقضاض علينا». قفز هاك من الطوف، غاطسًا تحت عجلة المجاديف ليهرب من الموت. وعندما صعد، كان جيم قد اختفى ولم يرد على ندائه عليه. وتشبث هاك بلوح خشب وانجرف إلى الشاطئ.

وإذ أصبح على الشاطئ، فقد وجد هاك نفسه محاطًا بكلاب تعوى. وعندما واجهه رجل يتسم بالعداء، فقد ادعى هاك أنه جورج جاكسون يتيم من الجنوب سقط من باخرة. ورحبت

به أسرة جرانجر فورد فى عشيرتها، حيث إنه لم يكن على صلة بآل شيبردسون، أعدائهم الألداء. وعلى نحو غريب، تخلى هاك عن تاريخه الأخير، وانخرط فى تيار الحياة فى مزرعة جرانجر فورد وأصبح يونج جرانجرفورد الشاب صديقًا حميمًا لهاك، الذى اكتسب كثيرًا من قيم الأسرة. وفى هذا كان لدى توين شيئًا يقوله عن تأثير البيئة. فيبدو أن هاك لم تزعجه حقيقة أن جرانجرفورد كان يملك ما يربو على مائة عبد. وكان لكل فرد فى الأسرة خادم عبد، وحصل هاك أيضًا على واحد.

والواقع أن عبد هاك الجديد ألمح إليه بأن جيم يختبئ فى مستنقع قريب وأنه قد وجد الطوف وأصلح كل تلفياته. وكان السؤال هو: هل سيستأنف هاك حياته على الطوف مع جيم، أو يعود إلى حضن أسرته التى وجدها مؤخرًا؟ كان حينذاك قد أصبح شخصًا محترمًا من آل جرانجر فورد. ولكن عندما رأى هاك، باك وهو يحاول قتل أحد أفراد عائلة شيبر دسون اتفق أنه كان يمرّ فى الجوار، تساءل: «ما الذى تريد أن تقتله من أجله؟» ورد باك «لماذا، لاشىء - أنه فقط بسبب العداء فحسب» وسأل باك «أى عداء» (147). وعند هذه النقطة توقف توين عن الكتابة بعض الوقت، لأنه فقد على ما يبدو الثقة فى الاتجاه الذى يمضى إليه بالقصة، أو مدى جودتها.

وبحلول نهاية الفصل، شهد هاك العواقب الإنسانية الوخيمة لهذا العداء الذى ليس له معنى بين الأسرتين. فقد سقط والد باك ميتًا بإطلاق الرصاص عليه، مع اثنين من أبنائه. وبعد قليل، قُتل باك نفسه وابن عم له. وتهاوى هاك، فقد كان يشعر بعاطفة قوية تجاه باك، وشهد العواقب المحزنة للكراهية: «صرخت قليلًا وأنا أغطى وجهه، لأنه كان بالغ الطيبة بالنسبة لى» . ولذلك أعاد لم شمله مع جيم، وتواصلت الرحلة. ويخلص هاك وهو يشعر بالارتياح لاستئناف الحياة كما كان من قبل إلى : «أنك تشعر بالقوة والحرية والعفوية والراحة على الطوف».

لكن هاك لم تتح له سوى أيام قليلة من الحرية السهلة على الطوف. ففى الفصل التالى يتوقف عن التجديف فى مجرى يتجه نحو المنبع، ليستكشف ما حوله قليلًا - وتلك فكرة

سيئة دائمًا. فسرعان ما غشاهما رجلان كانا يجوبان المكان. كان أحدهما فى السبعين «أو أكثر» وأصلعًا، والثانى فى نحو الثلاثين، وادعيا أنهما من النبلاء، دوق دوفين (أو ملك كما يسمى عادة). وعاملهما هاك وجيم وفق ذلك، باعتبارهما من النبلاء، وإن أظهر هاك نضجًا متزايدًا إذ اتخذ خطًا متشككًا: «لم يستغرق الأمر طويلًا منى لأعمل فكرى وأتوصل إلى أن هذين الكاذبين ليسا ملوكًا أو دوقات على الإطلاق، ولكن مجرد دجالين ومحتالين» (166). بيد أنه احتفظ برأيه لنفسه، وانخرط فى بعض من الكذب الأبيض وهو يروى أنه ابن مزارع فقد أبيه وأخيه، وأن جيم هو آخر عبد تملكه الأسرة. وأخبرهما أنه يسافر هو وجيم ليلًا فقط لأنهما لا يريدان أن يظن الناس أن جيم عبد هارب.

والفصل العشرون ملئ بالمزح الخادعة المسلية، حيث إن الدوق والملك (التائهان، المنفيان، اللذان يهيمان على وجهيهما ويعانيان رغم أن أحدهما الملك الشرعى لفرنسا) كانا يخططان لتجريد بلدة أخرى من أموالها. ووضعا خططًا شتى لجنى الأموال، مثل تمثيل مشاهد من شكسبير. وفى مرة اصطنعا بمهارة إعلانًا يوزع باليد يجعلهما يبدوان كما لو أنهما يعيدان جيم، وهو عبد هارب إلى ملاكه الشرعيين، وكان ذلك يسمح لهما بعبور النهر فى عزّ النهار. ويتضمن الفصل لوحة لا تنسى لاجتماعات إيقاظ الروح الدينية: فتوين لا يمكن أبدًا أن يقاوم أى فرصة للسخرية من الورع أو الحماس الدينى. وكان الملك يستخدم هذه الاجتماعات كمسرح لنفسه، شارحًا للجمع أنه كان قرصانًا فى المحيط الهندى قبل أن يهديه الله. وكما هو متوقع، كان يجمع عطايا تساعده على العودة كمبعوث لهداية شركائه السابقين فى الجريمة. وجازت الخدعة، وعاد إلى الطوف ومعه 78،75 دولارًا. وحصل على ابريق به ثلاثة جالونات من الويسكى أيضًا.

وتهيم القصة فى حبكات فرعية شتى، تنطوى إحداها على عملية قتل وشنق، وتبين هذه الحكايات ثانية الطبيعة الفاسدة أخلاقيًا للعالم «المتحضر»، وهو موضوع موجود دومًا فى رواية هاكلبرى فن. وهناك مزيد من الخطط المزيفة للدوق والملك، كما هو متوقع. فمجرد أن يعثر توين مصادفة على هذه الشخصيات المضحكة لغرابتها، لايدعها تفلت منه

بسهولة، ولايتعين عليه أن يفعل ذلك. ففى أحد المشاهد، ينشدان شذرات ومقاطع من شكسبير لجمهور صغير. لكن الجماهير احتشدت عندما أضاف الدوق سطرًا إلى إعلانهما اليدوى يقول «السيدات والأطفال غير مسموح بدخولهم» وكانت المسرحية نفسها للمفارقة تسمى «الشخص الفذ الملكى»، ومن ثم فقد كانت تعلق على «مسرحية» مجتمع فارغ تمامًا حقًا. (وبهذه الطريقة، فإن توين يبزّ صمويل بيكت، الذى جعل من إنتاج «اللاشىء» فنًا بكل عمقه الفلسفى). وسرعان ما كان الجمهور يدرك أنه قد «خدع» لكنه يقرر ألا يفضح نفسه فى عيون مواطنيه إذا أدرك الجميع أن هذين المحتالين قد خدعوهما بمثل هذه المهارة. كانوا يتفقون على الثناء على العمل (مثلما يفعل كثيرون ممن يستعرضون الأعمال، فيثنون على «لاشىء» بدلًا من إظهار أن الإمبراطور عار). وفى النهاية. وقعت الواقعة، رغم أن الدوق والملك هربا للطوف مع كومة منهوباتهما. و فى حين توفر مثل هذه المشاهد الساخرة تسلية للقراء فإنها تفيد بفاعلية كبيرة فى اختبار النسيج الأخلاقى لهاك الشاب. فهو يتآمر مع الدوق هنا ويثبت أنه أقل براءة مما قد يتصوره القراء، وبذلك يجعل علاقته مع جيم فى المستقبل أشد توترًا وتعقيدًا وإثارة للاهتمام.

وكما يفعل توين عادة، فقد غيرّ الاتجاه بصورة ضارية، مثلما حدث عندما يشاهد هاك جيم وهو ملئ بالأسى. يقول هاك «عندما استيقظت، توًا عند انبلاج النهار، كان [جيم] جالسًا يندب نفسه وينعى حظه العاثر. لم أبال، ولم استغرق فى ذلك. كنت أعرف سبب ذلك. فقد كان يفكر فى زوجته وطفليه، البعيدين عنه على نحو نائى، كان محطمًا ويشعر بالحنين للوطن» (201). وانتهى هاك إلى إدراك أنه «يهتم بأهله تمامًا مثلما يفعل القوم من البيض تجاه أهلهم، لم يكن ذلك طبيعيًا، لكننى أدركته».

وكان ذلك حدسًا يدعو للدهشة من قبل هاك الشاب، ويعود بالقصة ثانية إلى القضية العنصرية. ولكن القراء تحيروا كثيرًا بشأن المسألة العنصرية فى هذا الكتاب.

وقد ركزت إحدى المناظرات التى دارت حول هاكلبرى فن على تصويرها لجيم. فهو يبدو للبعض، شخصية من جماعة المغنين السود على القيثارة، أحمقًا ببراءة، ومن ثم

شخصية يمكن أن يضحك منها مجتمع البيض. ولايمكن أن يجد أى أمريكى أفريقى هذا مضحكًا. وقد أدى الإصرار على استخدام كلمة زنجى - كما لاحظنا - إلى حظر الكتاب فى المكتبات والمدارس. ويمكن للمرء أن يفهم المبرر وراء هذا الحظر؛ فالقراء الشبان قد تفوت عليهم مفارقات الكتاب وسخريته ويفشلوا فى أن يروا ما وراء النعوت العنصرية ويدركوا أن توين كان يسخر من المجتمع الأبيض وهو يسجل اتجاهاته العنصرية. ويتطلب الأمر مدرسًا خبيرًا لكى يشرح هذه التعقيدات لفصل دراسى من المراهقين، والمدرسين (أو القراء) على هذا المستوى من الخبرة قد لا يتوافرون بسهولة. ومع ذلك فقد نجحت الرواية بامتياز فى تساؤلاتها عن العنصرية وتشكيكها فيها. ففى المشهد السابق مثلًا، فإن أسى جيم محسوس وواضح وحسن نية هاك الغافلة تدعو للسخرية بوضوح. وفى هذه المقاطع، فإن الرواية «تعلّم» نفسها. والسرد يسيطر على القارئ ويقنعه. لم يكن توين عنصريًا بأى معنى من معانى هذا المصطلح. ويتطور سرده إلى محاجة ضد العنصرية، بيد أن المؤلف لايستطيع أحيانًا مقاومة التلاعب بجمهور النظارة المبتذل. فقد كان توين قادرًا أحيانًا على أن يبتذل مادته، ويستمتع وهو يفعل ذلك. ولكن هذا لم يكن هو الذى صنع منه مارك توين وليس هنرى جيمس.

وتتطور شخصية هاك فى المسافات الأخيرة من الرحلة، حيث يكتسب تدريجيًا (تدريجيًا للغاية) إحساسًا أخلاقيًا ويرفض أن يتنحى جانبًا ويترك الأشياء السيئة تحدث دون تعقيب أو تصرف. لم يكن ليرضى بترك الأمور تجرى فى أعنتها، والانفصال عما يحدث، عازفًا عن أن يورط نفسه - مثلما كان عليه الأمر فى الفصول السابقة. أصبح التملص موقفًا أقل مدعاة لراحته أكثر فأكثر. وبطريقة أريبة، يعدنا توين لخاتمة الرواية، حيث كان من المتعين على هاك أن يتخذ قرارًا بشأن موقفه إزاء جيم، وبذا أخذ حياته الأخلاقية بين يديه.

وفى الفصول من 24 إلى 30، يتعرض هاك لمزيد من الاختبار من خدع الدوق والملك. ففى البداية، ألبسا جيم ملابس عربية، ودهناه «كله بلون أزرق باهت، مثل رجل غرق لمدة تسعة أيام» (203). كان يحمل علامة تبين أنه عربى مجنون. «وكانا يوبخانه أن لم يتحمل

أفظع الإهانات التى شهدتها» كما يقول هاك. وسرعان ما تتحول القصة إلى مشاهد تتعلق بأولاد بيتر ويلكس، الذى مات وترك نقودًا لبناته الثلاث وشقيقيه اللذان كانا فى شيفلد فى إنجلترا. فقد اعتبر الدوق والملك أن هذه فرصة وادعيا أنهما الشقيقان الإنجليزيان. ورغم أن هاكساير الخدعة، فقد تصاعد عدم إحساسه بالارتياح : بيد أنه كذب دون شعور بالخجل على البنات اليتيمات، مارى جين وسوزان وجوانا. وفى تحول جديد، أظهر اهتمامًا حقيقيًا بالفتيات باعتبارهن أعضاء إناث فى النوع الإنسانى. والواقع أنه كان يصف مارى جين «بالجميلة» وبدا منجذبًا لها: وكانت تلك علامة أخرى على تقدم فى النضج. لقد أقض انعدام الأخلاق فى خطة الاحتيال على البنات اليتيمات مضجع هاك، وأراد لأبعد حد أن يهرب من إسار هذين المهرجين. وفى مشهد صاعق فى الفصل 27 يقرر الملك بيع بعض العبيد الذين «ورثهم». وقد اتفق أن اثنين من تجار العبيد ظهرا. كان هؤلاء العبيد اثيرين، وكانت البنات ذاهلات من «المدى الذى وصل إليه الأمر فقد ذهب الصبيان لأعلى النهر إلى ممفيس وذهبت أمهما فى اتجاه مجرى النهر إلى أورليانز» (234). ويلاحظ هاك : «اعتقدت انهن بنات مسكينات وأن عبيدهن سيحطمون أفئدتهم حزنًا وغمًا». وكانت معرفة إن هذا «البيع» سرعان ما سيفتضح أنه زائف، وأنه نتيجة لذلك سيعود العبيد، هى التى أتاحت له التدخل ويضيف هذا المشهد الكثير لفهم هاك لقسوة العبودية ويربطه بجيم ومصيره بصورة حميمة بدرجة أكبر.

وفى الفصل 31، يتعين على هاك أن يتحمل عواقب انعدام الضمير، فقد غدا مدركًا لبؤس العبودية ومظالمها. كان «يعرف» أنه عليه أن يسلم جيم، وأن هذا هو حكم القانون، لكنه رفض. وفى انعطافة لاتنسى، يحاول جاهدًا أن يصلى، لكنه لايستطيع. فالكلمات لاتخرج من فمه، ويتساءل «لماذا لاتخرج؟» «ليس هناك جدوى من إخفاء الأمر على جيم، ولا على نفسى أيضًا .... أن ذلك حدث لأننى لا أجرؤ، لقد حدث ذلك لأننى ألعب على الحبلين» (270). لم يعد يريد أن «يلعب على الحبلين» أكثر من هذا. وكتب إلى السيدة واطسون ليخبرها عن مكان جيم، لكنه بعد ذلك مزّق الخطاب. على وجه التأكيد لن يخضع

للأخلاقيات المعهودة، ومع ذلك فإنه سينحنى لسلطة أكبر، السلطة التى تكمن بداخل ضميره الخاص. وسيتمسك بجيم. يقول «حسنًا، سأذهب إلى الجحيم» فى لحظة فارقة من الرواية «كانت تلك أفكار مروعة، وكلمات مروعة، وتركتها تخرج، ولم أعد أفكر مطلقًا فى الإصلاح» (272).

وتحول الرواية اتجاهها فى الفصول العشرة الأخيرة، عندما يعاود توم سوير الظهور على المسرح. وبطريقة ما تعود الرواية إلى أسلوب الفصول المفتوحة، حيث يستدعى توين عالمًا من خيالات الصبا، تكمله شخصيات أمهات سليطات اللسان وسلسلة من المزح و «المغامرات» الغريبة يقوم بها توم. ويتم استئناف السرد الشامل بشكل أنيق، ببداية ونهاية تمسان المشاعر بهذه الرقة. لكن ليس هناك ريب فى أن شيئًا ما قد تغير، بعد أن اختبر هاك رحلة، حرفية أو مجازية. لقد أصبح رجلًا تقريبًا، ومن ثم يبدوأقل تسامحًا مع مزح توم غير الناضجة.

ويروغ هاك مبتعدًا عن الدوق والملك فى الفصل 31، معتزمًا استئناف رحلته على الطوف مع جيم، هذه الرحلة المبهجة إلى الحرية، إلى سن البلوغ. لكن الملك كان قد باع جيم لأسرة محلية تحمل اسم فليب مقابل 40 دولارا. ولإنقاذ صديقه، تسلل إلى مزرعة فليب، لكن الكلاب سرعان ما أحاطت به. وشخصية الأم فى المنزل هى العمة سالى، وهى تظن خطأ أن هاك هو توم سوير الذى (اتفق) أنه كان قادمًا بزورق فى ذلك اليوم. وهكذا يصل توم، وهو تحول فى الحبكة يتيح لتوم وهاك استئناف صداقتهما. بيد أن جيم كان لايزال أسيرًا. وعلى الرغم من أن توم كان يعرف أن السيدة واطسون كانت قد منحت جيم حريته فى وصيتها (وكانت ماتت)، فإنه أخفى هذه المعلومة بغية القيام بمغامرة أخرى، مدبرًا خطة محكمة لتحرير جيم من الكوخ الذى أبقى عليه فيه أسيرًا. وتحرر جيم، ثم أعيد أسره. ولو لم تجر زيارة من العمة بولى وهى عمة أخرى لتوم، ربما لم تكن أخبار أن جيم لم يعد عبدًا لتوثق بطريقة تجعل عشيرة فليب تقبلها.

وعندما سأل هاك توم عن حجبه الأنباء عن تحرير جيم والإبقاء عليها سرًا، شرح توم بمرح أنه كان يأمل فى الهروب إلى نيو أورليانز مع هاك وجيم على طوف للقيام بمغامرة إلى مصب النهر مباشرة» (364). وعند تلك النقطة كان سيخبر جيم عن حقيقة حريته ويعيده لأعلى النهر فى «باخرة معززًا مكرمًا». كما كان سيعوضه ماليًا عن هذا «الوقت الضائع»، بغض النظر عن كم كان هذا الوقت سيغدو مشحونًا بالقلق. كانوا سيعودون جميعًا كأبطال، مع فرقة موسيقى نحاسية ترحب بهم. كان ذلك بالطبع، محض خيال، وكان يمكن للمرء أن يتبين من نغمة هاك المريرة و الساخرة أنه لم يفز من ذلك بطائل. كان قد نضج فيما يجاوز توم سوير وطرقه الطفولية، ولم يستسلم للخطط الطائشة إلا لأنه كان يعتقد أنها قد تجدى حقًا (ربما يواصل رحلته ويستمتع بهذه المزح أيضًا).

وأخيرًا يعلم هاك أن حظه مازال ينتظره وأن باب مات. فعندما تعرض جيم للتوتر، اعترف لهاك بأنه كان يعرف طوال كل هذا أن باب قد مات. ولم يقدم أى تفسير للسبب فى عدم إخباره بهذا، ومن ثم يتعين على القراء أن يخمنوا هذا بأنفسهم. وعلى أية حال، يبقى ماكان فى عقل جيم على وجه الدقة سرًا. كان يخطط «للرحيل بسرعة فائقة والاتجاه لأرض الراحة التى تنتظر». ولم يكن ليسمح للعمة سالى بأن تتبناه و «تحضره» يقول «لا يمكن أن أتحمل ذلك» ويضيف من الكلمات الأخيرة من الرواية: «لقد كنت هناك من قبل».

وتمثل هذه الكلمات الأخيرة الكثير من استراتيجية السرد لدى توين فى هاكلبرى فن. فالقصة، مثل ثعبان فى عالم أسطورى، يعض ذيله هو نفسه. ويرتد توين على عقبيه إلى البداية ليعيد تشغيل خيالات الصبا الجامحة، مستدعيًا للقراء رؤية مغامرات الطفولة وشخصيات الأمهات سليطات اللسان. لكن هذا عالم عنصرى أيضًا، مكان يوجد فيه السود فى نوع من مواطن النسيان، يحومون فى الخلفية، ويقومون بالأعمال الشاقة التى تعيل محيط صبا توم سوير، بمنازله النظيفة، وأسواره من الخوازيق البيضاء، ووجباته الدسمة. وقد أبحر هاك متجاوزًا هذا العالم. فقد حمله الطوف فى رحلة إلى سن البلوغ. ورأى قساوة الحياة، مشاهدًا الطريقة التى يعذب بها الناس الآخرين بل ويقتلونهم وهم سعداء. لقد استيقظ ضميره كما

يعترف فى نهاية الفصل 33 وحتمياته لن يتم تجاهلها. كان يمزح مع نفسه متسائلًا: «أن البشر يمكن أن يكونوا قساة على نحو مروع إزاء بعضهم البعض».

وقد تأمل النقاد مليًا فى الفصول الأخيرة من هذه الرواية، من النقطة التى عاود فيها توم سوير الظهور واستئناف الرواية لخيال عالم الصبا. وفى ثنائه على الرواية، اقترح ارنست همنجواى طرح الفصول العشرة الأخيرة أو ما إلى ذلك جانبًا، ودعاها «بالخداع». ووصف برنارد دى فوتو، فى كتاب مشهور له عن توين، هذه الفصول الختامية بأنها الانهيار «الأكثر حدة وبعثًا للرعدة» فى رواية باللغة الإنجليزية. وربما وجه ليو مارس أشد الهجمات ضراوة إلى النهاية عندما أشار إلى أن الفصول العشرة الختامية تدمر القصة كلها. فالخطة المفصلة لتحرير جيم من كوخه هى مجرد خطة خيالية بشكل مفرط، وتنطوى على مبالغة جد كبيرة وهى مملة»، كما يقول مشيرًا إلى أن «نبرة الكوميديا الرخيصة» تتصادم مع القصد الكامن وراء الرواية. ووافقت طائفة عريضة من النقاد ماركس فى رأيه بدرجة ما، ملاحظين أن جيم عومل معاملة سيئة فى مشهد «المغامرة» ومن ثم يبد وهاك وقد فقد بعضًا من كراهية العنصرية التى كان قد اكتسبها إبان الرحلة. ومضى أحد النقاد لحد أبعد ليسمى الرواية «تراجيديا» لأن هاك سلم سلطته الأخلاقية لتوم. وفى رأيي أن ذلك، لا يصيب القصد.

وتوم شخصية فنية، لكنه شخصية ساذجة. فهو يمثل رواية القصة، الخيال الجامح- كجانب من جوانب توين، وهو رجل أحب رواية قصص الفتيان، كما نرى فى مغامرات توم سوير. ربما كان يعتقد أنه بمقدوره أن يحقق الكثير من الأمر نفسه فى قصته هاكلبرى فن. بيد أنه، فورأن بدأت رحلة الطوف، وجد نفسه فى مياه عاطفية وميتافيزيقية عميقة. ويمكن القول بأن توين نضج ككاتب فى مسار روايته، فى الهرب من عالم العبودية ومن جوانب الصبا الأكثر سذاجة. وبالطبع فإن الخيال بالنسبة لتوم يبزّ الواقع وهو يقول باستهتار لماذا إذا جرحت مشاعر الناس؟ فالفتيان سيظلون فتيانًا. ومع ذلك، فالفتيان سيصبحون رجالًا. وتلك هى الرسالة الحقيقية لهاكلبرى فن، وعندما يعود توم فى نهاية الرواية ليعيد تشغيل الفصول السابقة، لاعبًا دور المخادع الفنان، يبرز هاك بالنسبة لتوين كصورة لنفسه نقحها.

فقد انتقل من عالم البراءة إلى التجربة. وفى المشاهد الأخيرة، يستسلم هاك لتوم، جزئيًا. فلا يزال صبيًا. لكن لا يفعل ذلك إلا لأنه لا يعرف أن جيم رجل حر فعلًا. إنه يريد أن يثق فى صديقه القديم، رغم أن المرء يحس مقاومة ما لمخطط توم الذى لم يكن حاضرًا مطلقًا من قبل. ويعترض هاك عندما يريد توم أن يضيف انعطافة أخرى لمؤامرته قائلًا: «لكن توقف عن ذلك يا توم» (336). لكن تكمن نبرة تشكك تحت كل تعليق يدلى به تقريبًا، ويبدو مغيظًا من خيالات توم الجامحة. ولكنه يساير الخطة المجنونة، بل والزيادات فيها، لأنه كان لايزال عليه أن يبلغ نقطة النضج الكامل، وذلك ما سيتحقق فى المستقبل. وفى هذه المرحلة من تطوره، كان يكتفى بمجرد إلقاء نظرة تعبة على صديق صباه وفرحه، ويستسلم لها ولكن بدون حماس. كان على النقيض مع ذلك، راغبًا فى مسايرة مزح توم فقط فى بداية الرواية ، فيرتدى ملابس أنيقة ويتصرف مثل سيد بورجوازى كريم المحتد لمجرد أن يحظى بميزة صحبة توم المستمرة. بيد أنه فى النهاية، لم يكن هناك إحساس يريد أن ينضم به لتوم، تحت سلطان أنثى، «تحضره» لقد هرب بنفسه، متجهًا إلى حيث يتحقق له النضج ولابد أن يتحقق.

4

بعد أن ملّ توين من الناشرين وأساليبهم، ولما كان تواقًا دومًا لتسويق نفسه على نحو أفضل وبيع مزيد من الكتب، فقد أنشأ دار النشر الخاصة به، وبستر وشركاه فى 1885. وجعل تشارلس وبستر (ابن شقيق زوجته) مسئولًا عن الشركة الناشئة، التى بدأت على نحو يبشر بالنجاح بنشر كل من مغامرات هاكلبرى فن و المذكرات الشخصية لأوليسس س. جرانت. وأصبح كتاب جرانت من أفضل الكتب مبيعًا بصورة هائلة وأرسى أساسًا وطيدًا للشركة، رغم أنها لم تنشر فى السنوات اللاحقة شيئًا يضاهى هذه المطبوعات الأولى. وقد طرد وبستر نفسه من الشركة التى تحمل اسمه فى 1888، وانهارت الشركة فى 1894، بعد أن نشرت فحسب كتاب توم سوير فى الخارج، وهو من كتب توين اللاحقة وأقلها إثارة للاهتمام بكثير.

وعلى الرغم من الإعلان الوفير (الذى تضمن استخدام إعلانات ملونة توزع باليد، فإن هاكلبرى فن لم تبع نسخًا بشكل سريع مثلما فعل بعض من كتب توين السابقة، ليس فى البدء، لكنها سارت سيرًا حسنًا بما يكفى. فبعد ظهورها فى فبراير 1885، كانت قد باعت تسعة وثلاثين ألف نسخة بنهاية مارس، رغم أن مجلس المكتبات الحرة كان قد حظرها، فقد أدان «تعبيراتها غير الرقيقة والفظة والجاهلة بالعامية». وحاج مجلس المكتبات بأن الرواية كشفت عن «درجة منحطة جدًا من انعدام الأخلاق وأنها لا تصلح سوى للأزقة»، وأنها ليست سوى زبالة مطلقة. ومع ذلك استمرت الرواية تجذب القراء، وبقيت واحدة من أكثر الروايات الأمريكية المحترمة على نطاق واسع فى كل الأوقات.

وبدأت لغة توين «غير الرقيقة والفظة» مزاجًا جديدًا فى الأدب الأمريكى، مقدمة للأمة مثالًا للغة العامية التى تنبض بحيوية تعادل أرقى كتابات الروائيين الإنجليز العظام، الذين

اتجه الروائيون الأمريكيين لتقليدهم من قبل. لقد كان ما قدم توين فى هاكلبرى فن هو اللغة الأمريكية نفسها، جلية وبسيطة، وأثبت أنها تستطيع أن تسبر أغوار التجربة الإنسانية وأن ترتفع لذرى شعرية.

إن اللغة الجلية للكلام، برنينها الساخر، تردد صدى نغمة كبرى حافظ عليها الكتاب الأمريكيون. لقد علم مارك توين زملاءه أن يقدروا رقة لغتهم الأهلية الخاصة، بل وأن يعلوا من شأن حديث «غير المتعلمين». وبدون توين، لم يكن المرء ليجد هيمنجواى وفوكنر أو من تبعوا خطاهم. بل أن موكبًا من الرؤساء الأمريكيين حاولوا (أحيانًا بصورة ضعيفة) تقليد فصاحة هاك وأسلوبه، مدركين أن الناخبين العاديين لايزالون يتوحدون مع هذا النوع من الحديث. (إن بلدا ننا وقرانا مليئة بأمثال مارك توين حتى الآن. وقد سمعت مؤخرًا فحسب نجارًا محليًا فى فير مونت يقول أن شخصًا ما «سقط من شجرة قبيحة وارتطم بكل فرع وهو فى طريقه لأسفل»، ولابد أن توين سيضحك بينه وبين نفسه، وهو يسمع لكنة صوته الخاص هذه).

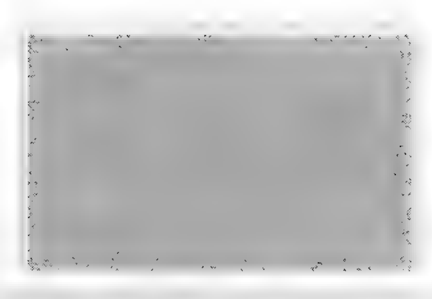
لاريب أن توين كان فظًا قاسيًا أحيانًا، ويرى المرء عناصر من التحيز لجنس الرجال والعنصرية تحتمل فى عمله، وينبغى ذلك. ومع ذلك، فإن المرء لابد أن ينسب له الفضل فى أن بذل جهده فيما أسماه هـ. ل. منكن «اللغة الأمريكية». أن عامية بليغة هى تراثنا، ويمكننا أن نرجع ذلك إلى مارك توين. وهذا لا يعنى القول بإنه «اخترع» طريقة للكلام: فقد كانت موجودة بالفعل فى الشوارع وكانت مستخدمة على نطاق واسع من قبل الظرفاء والمضحكين فى ذلك العصر، خاصة من كانوا ينتقلون من مسرح لمسرح فى الجنوب الغربى، وهم طاقم ينبض بالحيوية أُغرم باللهجة العامية واللون المحلى. ويمكن للمرء أن يتبين أيضًا تأثير العامية السوداء على توين : فهناك يكشف عن أذن خارقة لهذه الإيقاعات

والأساليب الساخرة. بل أن إنجاز توين تمثل فى التوصل لكيفية استخدام هذا النوع من الحديث فى الأدب، لجعله يغنى.

ومع هاك فن، الشخص المحب للانفراد بنفسه البالغ من العمر أربعة عشرة عامًا، حصلت أمريكا على واحد من أنماط شخصياتها المحورية: الغريب كبير القلب، الصبى الذى يحترم الناس بخلفياتهم المتباينة تمامًا لكنه يرفض أن يتم استيعابه هو نفسه، والذى سوف «يهرب إلى أرض الميعاد» وينبغى له أن يفعل. وإلى حد ما يمكن قراءة هذه النهاية باعتبارها مثالًا نموذجيًا لهروب ذكر من المسئولية، حتى منزليًا. ومع ذلك، أعتقد أن معظم الأمريكيين (ذكورًا وإناثًا) يمكن أن يتوحدوا مع هاك، ويقدروا مرحه ويتحدثون بعطف عن رغبته فى المساعدة فى هروب عبد إلى الحرية. كما ينبغى ملاحظة أن توين قدم لنا نموذجًا للتكامل العنصرى فى صداقة هاك وجيم فيبدأ الصبى باعتبار جيم شيئًا يمتلك، على الأقل من الناحية الفكرية. ولكنه ينتهى إلى أن يصبح صديقًا له مستعدًا لئلا يوقفه شىء عن مساعدة جيم على الهرب، بل أنه كان راغبًا فى الخروج على القانون، إذا اقتضى الأمر لتحقيق هذه الغاية.

إن هاكلبرى فن هى رواية عن الحرية الأمريكية، أو على الفكرة الأمريكية عن الحرية. فقد كانت تلك هى الفكرة المسيطرة على أمتنا منذ وقت الثورة، أو حتى قبلها. ومع ذلك، فإننا مازلنا مبتلين بأفكار منحرفة عما تعنيه الحرية حقًا، حيث يعتقد البعض أن العمل لتحقيق المصلحة الشخصية هو ممارسة «الحرية» ومثلما اكتشف هاك، فإن الحرية الحقيقية تعنى ضمنًا التحرر من السلوك المبنى على أحكام مسبقة، ومن كل قيود القمع فى الأعراف. إن مقولة أن كل الرجال (والنساء) خلقوا متساوين أساسية لتفعيل الديمقراطية الأمريكية، ومع ذلك فإن النضال من أجل المساواة مستمر. ومن جانبه، فإن توين يتحدانا، طالبًا منا أن نعيد التفكير فيما تعنيه الحرية عند كل منعطف فى النهر. كما يدعونا للإيمان بقوة الاختراع، وأن

نحتفى بعالم الصبا المزهو بنفسه. ويضغط علينا لنمحق الحدود الطبقية والحدود اللونية التى تبقى علينا فى مجالات منفصلة، ويهيب بنا أن نستكشف أعماق المتعة التى تقدمها الطبيعة، فى شكل النهر وبيئته الوافرة ولا حاجة للقول، بأنه يفعل كل هذا بإحساس مرير بالدعابة التى لاتزال تبدو أمريكية بصورة خاصة وتزودنا بترياق ضد النفاية المملوءة خيلاء والمعتدة بنفسها التى تملأ صحفنا ومجلاتنا وتغص بها موجات الأثيرلدينا.



THE

SOULS OF BLACK FOLK

ESSAYS AND SKETCHES

BY

W. E. BURGHARDT DU BOIS

SECOND EDITION



CHICAGO
A. C. McCLURG & CO.
1903



8

أرواح جماعة السود

1

كتب و. ى. ب. دوبوا فى أرواح جماعة السود (1903) يقول «أن تكون فقيرًا فذلك أمر شاق، لكن أن تكون من عرق فقير فى بلد الدولارات، فذلك هو الدرك الأسفل من المشقة» (49-50). فى جملة واحدة يسمع المرء نبرة جزم واستبشاع مميزين للكاتب مقترنين بإيقاع توراتى تقريبًا، وإحساس بالخطورة وحكمة. فبعدما يربو على مائة عام ظهوره فى بداية القرن العشرين، أصبح هذا الكتاب - وهو خليط من المقالات والتأملات عن معنى العرق فى أمريكا - محك الاختبار، مقدمًا خريطة طريق لمن يريدون الرحيل إلى الحرية.

وهناك شعور بالنقمة هنا، نبرة غضب تضخمت وتناقصت فى كتابات الكتاب الأمريكيين الأفارقة فى المستقبل. ولاريب أن الشعراء والروائيين، والكتاب المسرحيين وكتاب المقالات من حركة النهضة فى هارلم وحركة الفنون السوداء قد اعتبروا دوبوا بطلًا، خلق صوتًا من الثقة بالنفس الفولاذية فى وجه العنصرية الخبيثة، وابن عمها الشاحب وأن كان لايقل عنها إهلاكًا، وهو الإهمال الحميد. فقد رأوه نبيًا، لأنه أعلن مرارًا وتكرارًا طوال كتابه أن «مشكلة القرن العشرين هى مشكلة الانقسام حسب اللون» (54). وفى هذا الإعلان المثالى النبوئى، والذى كثيرًا ما يتم الاستشهاد به، توقع أن يلعب العنصر والعرق دورًا محوريًا فى العصر الحديث. وبالطبع، فإن صدوعًا أيديولوجية أخرى ابتلعت القرن العشرين بأسره: فصراع الديمقراطية الليبرالية ضد الفاشية والشيوعية، كان محوريًا بالنسبة للخط الذى سارت فيه قصة القرن العشرين. لكن قضية العنصر كانت شاغلًا مهيمنًا فى

العالم، من المقاومة الطويلة للتميز العنصرى فى جنوب أفريقيا إلى مختلف الحملات التى استهدفت الإطاحة بالاستعمار فى آسيا والهند وأماكن أخرى. وفى الولايات المتحدة، كانت الجهود المبذولة للقضاء على الفصل العنصرى تستحوذ على الاهتمام - وبالطبع ينصرف ذهن المرء إلى مسيرات الحقوق المدينة، وفرسان الحرية، والفهود السوداء، وما إلى ذلك. ولايزال الأمريكيون الأفارقة يصارعون ميراث العبودية وعنف الفقر والإهمال الذى لازمهم خلال عصر التعمير، فى تلك السنوات الثقيلة الجافة فى الجنوب بعد الحرب الأهلية. إذ كان ذلك هو الوقت الذى عمل فيه العبيد المحررون، دون فاعلية كبيرة، على تحسين أوضاعهم. وفى القرن العشرين، واصلت العنصرية القيام بدور كبير فى الحياة الأمريكية. وحاليًا، فى السنوات الأولى من القرن العشرين، لايزال يتعين على المثل الأعلى للاندماج أن يجد تحققه الكامل على أرض الواقع، فى المدارس، وأماكن العمل وشتى دهاليز السلطة. وبالطبع فإن سجوننا تكتظ بالرجال السود الفقراء الساخطين المرتبكين الذين نبذهم المجتمع عامة. ومثلما أشار أحد كتاب مقالات التحرير فى النيويورك تايمز بأسى: «أن رجلًا من كل تسعة رجال سود فى السجن». ومثل هذه الإحصاءات لا تخطر بالبال، وتداعياتها محزنة ومروعة على حد سواء.

لقد تنبأ دوبوا بكل ذلك، كما لو كان يحدق من قمة جبل فى المشهد الذى سيظهر فى المستقبل. وإذ كان يكتب من داخل مشكلة العنصرية، فقد حدد قضيته «الوعى المزدوج» فيما قد يشكل المقطع الأكثر شهرة وتأثيرًا الذى كتبه فى أى وقت: «إن هذا الوعى المزدوج، هذا الإحساس الدائم بنظر المرء إلى ذاته من خلال الآخرين، وقياس روح المرء بمقياس عالم ينظر إليه باحتقار ورثاء للتسلى، أمر يثير الغيظ بصورة فريدة. إن المرء يشعر دومًا بازدواجيته - أمريكى، زنجى، روحان، فكران، صراع غير مخفى، ومثلان أعليان متصارعان فى جسد مظلم واحد، لا تحميه سوى قوته العنيدة من التمزق أشلاء متناثرة» (45).

هل تغير أى شىء؟ لايزال الرجل الأسود يعيش حياة مزدوجة، كشخص ملون وكذلك كأمريكى. ويبدو أنه سيبقى دومًا «هذان : المثلان الأعليان المتصارعان فى جسد مظلم

واحد». ويبدو أن هذه «القوة العنيدة» التى لاحظها دوبوا مستمرة هى أيضًا، كترياق لألم العنصرية، التى لايتساوى الشخص الأسود فى ظلها مع الشخص الأبيض. ويخلّد عدم المساواة هذا نظام أنشىء لصالح أثرى الطوائف وأكثرها بياضًا. ورغم كل هذا الغضب، لم يفقد دوبوا مطلقًا الإيمان فى قدرة العقل على سحق هذه الأحكام المسبقة. وهو فى هذا يقف إلى جانب الآباء المؤسسين كشخصية داعية للتنوير. ومثلما لاحظ راندال كينان على نحو حكيم. فإن دوبوا ينشد «القراء البيض الأذكياء الذين كانوا بحكم الواقع السابق والقائم السبب فى مثل هذا القدر من معاناة السود». لكنه كتب أيضًا من أجل الرجل الأسود الذكى، آملًا أن يوقد مقاومة مشبوبة، وفى هذا، كان من الواضح أنه يعمل فى اتجاه معارض لكتاب «النهوض من العبودية» لبوكرتى واشنطن، الذى كان قد نشر قبل عامين. وفى هذه السلسلة من مقالات السيرة الذاتية التى لقيت ترحيبًا، حاج بأن السود يتعين عليهم أن يدفعوا أنفسهم للأمام بطاقة لتنظيم وإدارة المشروعات وتحمل مخاطرها، ولم يكن يريد حتى التفكير فى الدور الذى قام به البيض فى القمع، مفضلًا التركيز على فكرة أن على السود أن يشمروا عن ساعد الجد، ويخلقوا اقتصادهم الخاص بهم، ويظهروا استقلالهم من خلال إنجاز يغير أحوالهم (وأنشأ معهد تاسيكجى فى آلاباما كوسيلة لتعليم السود الحرف والمهن).

وأصبح واشنطون صوتًا قويًا فى الخطاب العنصرى وشخصًا ربما رأى فيه دوبوا حليفًا. لكن دوبوا كره نبرة التوفيق والمهادنة الضمنية فى كتاب النهوض من العبودية، قائلًا إن «السيد واشنطن يمثل فى الفكر الزنجى موقف التكييف والإخضاع القديم» (87). وأكد أن برنامج واشنطن لتحقيق تقدم السوق «يقر عمليًا بدونية الأجناس السوداء المزعومة»، وقال إن واشنطن كان يريد أن يتخلى السود عن السلطة السياسية، والإصرار على الحقوق المدينة، والحصول على التعليم العالى فى حين يركزون على «التعليم الصناعى، وجمع الثروة، ومصالحة الجنوب» (88). وباتباع البرنامج الذى قدمه واشنطن، سيتعرض الأمريكيون الأفارقة لتقويض مطرد فى حقوقهم المدينة وفرصهم فى التعليم- وعلى الأقل، فإن هذا ما رآه دوبوا. وطرح سؤالًا جريئًا: «هل يمكن، ويحتمل أن يحقق تسعة ملايين شخص تقدمًا

فعالًا فى المجالات الاقتصادية إذا حرموا من الحقوق السياسية، وشكلوا طبقة اجتماعية خانعة، ولم يسمح لهم إلا بأكثر الفرص ضآلة لتطوير رجال استثنائيين من بينهم» (88).

واختلف دوبوا مع واشنطن فى عدة جبهات، محاجًا بأنه يستحيل على السود رجالًا ونساء أن ينهضوا كمنظمى مشروعات «ويدافعوا عن حقوقهم ووجودهم بدون حق الاقتراع». وانهالت الحجج المضادة عليهما. ومع ذلك، فإن واشنطن ودوبوا وضعا طويلًا على طرفى نقيض. وقد اعترف دوبوا بالجدارة الكبيرة لجهود سلفه وأسماها جهودًا «نبيلة». وهو يشير إلى واشنطن باعتباره «رجلًا مفيدًا وجادًا» قدم «خدمة لاتقدر». ولاحظ أن الهجوم على واشنطن يأتى من أطراف شتى، بما فى ذلك الجناح المتشدد فى المجتمع الأفريقى الأمريكى، ومن «انحدروا روحيًا» من عدة شخصيات رمزية فى الماضى، ومنهم «توسيان المخلّص»، حيث كان يشير إلى المتمرد توسيان لوفيرتور فى هايتي، ونات تيرنر، العبد المتحدى الذى جعله تمرده الفاشل فى الجنوب قبل الحرب شخصية بطولية فى بعض الأوساط (رغم أن مذابحه المنتظمة للبيض لم تساعد فى رفعة تراثه كثيرًا). ويدعو دوبوا هذه السلالة من الفكر الأمريكى الأفريقى، تراث «الثورة والانتقام». كانت هذه الشيعة «تكره الجنوب الأبيض بصورة عمياء ولاتثق فى الجنس الأبيض بصفة عامة، وحيثما كانوا يتفقون على عمل محدد، كانوا يعتقدون أن أمل السود لايكمن إلا فى الهجرة إلى ما وراء حدود الولايات المتحدة». (89). ومثلما تكشف، كان ذلك هو خيار دوبوا نفسه، الذى مات فى المنفى فى غانا، وقد أحبطه كلية مصير الأمريكيين الأفارقة فى الولايات المتحدة.

ويندرج بعض نقاد واشنطن فى فئة المعتدلين الذين ربما لم يكونوا يختلفون عن دوبوا فى بعض المراحل، فقد اتفقوا مع دوبوا على أهمية تعزيز المدارس والمهن لدى الطائفة السوداء، لكنهم أيدوا أيضًا التعليم العالى. وأصروا على أن «هناك طلب على مثل هذه المؤسسات الكلية فى كل أنحاء الجنوب لتدريب خيرة شباب الزنوج كمدرسين، ومهنيين، وقادة» (90). ولم يتوقع هؤلاء المفكرون المعتدلون أن تسقط أغلال الاضطهاد فورًا، بل توقعوا تقدمًا بطيئًا مطردًا نحو الحرية. كما اتفقوا أيضًا مع دوبوا على أن «طريق الناس

للحصول على حقوقهم المعقولة لا يتمثل فى نبذها طوعًا والإصرار على أنهم لا يريدونها» (91). وبالنسبة لدوبوا نفسه، فإنه لم يكن يستطيع أن يقبل فكرة التنحي جانبًا ليشاهد «العبودية الصناعية والموت المدنى» للشعب الأسود.

والأسئلة التى يوجهها دوبوا للقراء حاليًا هى: هل تغير الكثير منذ بداية القرن العشرين؟ أين تكمن حقًا المسئولية عن «أرواح جماعة السود»؟ هل لازلنا نلوم ميراث العبودية عن الوضع غير المستقر للأمريكيين الأفارقة فى القرن الحادى والعشرين؟ هل العنصرية هى مايبقى على السود فى حالة من الفقر بمثل هذه الأعداد الكبيرة، وعلى آفاق مسيرتهم العملية محدودة على هذا النحو؟ إلى أى درجة لاتزال رغبة واشنطن فى إلقاء المسئولية عن الحرية على كاهل السود، مفيدة؟ ماذا تقول أرواح جماعة السود للأمريكيين بصفة عامة عن نظام الحكم لديهم، وأوجه القوة والضعف اللصيقة به؟ كيف ساعد هذا الكتاب فى تغيير، أو تشكيل أفكار أمريكا عن العنصرية؟

2

كان ويليام أدوارد بارجارد دوبوا، شخصية غير محتمل ظهورها، كان مثقفًا أسود ولد وترعرع فى جريت برنجتون، وهى بلدة بهيجة فى ضواحى ماساشوستس: مجتمع ينتمى إلى الوادى الهولندى لنهر هدسون، أكثر مما ينتمى للجانب المتشدد من نيو إنجلند. وشمل ميراثه المختلط، أسلافًا أفارقة وفرنسيين وهو لنديين، مما جعله شيئًا شاذًا متميزا فى بيركشير. (كانت أسرة أمه الهولندية فى بيركشير من منتصف القرن الثامن عشر، ولا يعرف الكثير عن أبيه، الذى هجر الأسرة عندما كان ابنه صبيًا. عاشوا فى كوخ كان يملكه عبد سابق استقر فى جريت برنجتون بعد الحرب الأهلية). ورغم أن بشرته كانت فاتحة، فإن دوبوا اعتبر نفسه من سلالة أفريقيا فى خلفيته - بالطبع لم يكن له خيار، فى ضوء التحيز العنصرى الذى لم يكن يسمح بغير هذا. وكصبى لامع الذكاء، فقد اعتبر أعجوبة، وكان اليافعون يستشيرونه فيما يقرأون. إذ كان ويليام الشاب كما يبدو قد قرأ كل شىء، وكان يقرأ ويكتب ببلاغة، فيدهش مدرسيه والمجتمع عمومًا بذكائه وتعلمه. وكان من الطبيعى بالنسبة له أن يقبل فى هارفرد، مثل كثير من الفتيان المهرة كريمى الأصل فى زمانه ومكانه. لكن دوبوا كان يعتبر أسود، مثلما أدرك بأشد الصور جلاء فى سن السابعة عشرة، عندما رفضته هارفرد بصورة فظة.

وبدلًا من أن يقوم بالرحلة الأقصر إلى كامبردج، سافر جنوبًا إلى ناشفيل، تنيسى، ليلتحق بكلية فيسك، وهى كلية رائدة للسود. وهناك، تعرض دوبوا للمرة الأولى للواقع القاسى للعنصرية فى الجنوب. كان ميراث العبودية يتبدى فى الشنق والجلد، فى أعمال تفرقة كبيرة وصغيرة. فقد كان السود يتنحون جانبًا ليمر البيض فى الشوارع، ولم يكونوا يجرأون حتى على رفع أبصارهم. كان أملهم قليلًا فى المشاركة فى النظام القانونى أو الحكومة المدينة. عاشوا فى معظمهم فى فقر وجهل. ولاحظ دوبوا كل هذا ساخطًا، لكن الفصل حسب اللون صدمه بدرجة أكثر إيلامًا حتى من ذلك عندما كان يدرس فى المدارس الريفية فى تنيسى. كما لم ينس الدروس الفظة التى كان يتم تدريسها فى الجنوب، عندما سمح له فى 1888

بأن يلتحق فى النهاية بكلية هارفرد (كطالب فى الصفوف الدنيا)، وأخيرًا أصبح أول أسود يحصل على الدكتوراه من هارفرد.

وفى لحظة محورية فارقة، ألقى دوبوا خطبة تخرج مدهشة فى هارفرد فى 1980. كان موضوعه غير المحتمل اختياره هو جيفرسون ديفيز رئيس الاتحاد الكونفيدرالى، الرجل الذى يجسد رمزًا لسلطة البيض فى الجنوب في عصر العبودية. وكان قدرة شاب أسود تآلف على نحو متقن مع مشكلة العنصرية على إلقاء خطاب متوازن عن ديفز بعد الحرب الأهلية بخمسة وعشرين، تبدو أمرًا غير متصور. ومع ذلك، فقد قبل دوبوا التحدى، وأخذ هذا الموضوع بإحساس بالابتهاج. ويبدأ كلامه بالقول: «إن جيفرسون ديفيز هو ممثل الحضارة» داعيًا ديفيز «بالبطل الجرمانى النموذجى» مشيرًا إلى أن «تاريخ الحضارة خلال الألفية الأخيرة كان تاريخ تطوير لفكرة الرجل القوى الذى كان تجسيدًا له. أن الأنجلو ساكسونيين يحبون الجندى-وكان جيفرسون ديفز جنديًا». ويسمع المرء فى هذه الخطبة نبرات معينة عاودت الظهور خلال كتابات دوبوا: الصياغة الواثقة من نفسها، والافتراض المغرور تقريبًا للفهم الكامل، والحضّ على وضع الأمور فى منظورها التاريخى، وإحساس بالموضوعية والتجرد. وبوضع ديفيز فى حدود زمانه التاريخى ونوع شخصيته، فأن دوبوا «وضعه» فى مكانه. وتلك استراتيجية بلاغية نيرّة.

وترك دوبوا هارفرد متجهًا لألمانيا لإجراء مزيد من الدراسات. كانت الجامعات الألمانية تقدم نموذجًا يحتذى لنظام الخريجين الأمريكى، ومن ثم جذبت الدارسين الجادين. ومع ذلك لم يمكث دوبوا سوى فترة وجيزة، إذا عانى صعوبة فى توفير المال اللازم. ومع ذلك فإن لقاءه مع الحياة الأوروبية أحدث لديه انطباعًا راسخًا - لم يتوقف أبدًا عن الإعجاب بطريقة الحياة المتحضرة التى تعرف عليها مباشرة فى ألمانيا. وعاد للولايات المتحدة للقيام بأبحاث فى التاريخ الاجتماعى، ونشر دراسة تعد علَمًا بارزًا، هى زنجى فيلادلفيا، فى 1889. وقد رسخ هذا الكتاب مكانته كباحث، وكواحد من أوائل من تناولوا حياة الأمريكيين الأفارقة بمثل هذه الطريقة المفصلة. ومثلما لاحظ بلا يثل بنجامين فإن «ما أثار دوبوا أشد الإثارة ودفعه لدراسة المجتمعات الأمريكية الأفريقية، فى الشمال والجنوب، هو أن هذه

المجتمعات كانت مختبرات حية حقيقية وفرت فرصة فريدة لعلماء الاجتماع لمراقبة العملية التى حقق بها مجتمع أمى فقير من الفلاحين قفزة من جماعة ريفية إلى أهل حضر عصريين قادرين على البقاء وتحقيق التقدم لوسطهم الصناعى. بالطبع، كان فى مقدور المرء بالكاد أن يأمل فى كسب العيش كباحث مستقل، حينذاك أو الآن».

وكانت المسيرة المهنية فى مجال التدريس هى الطريق الأكثر احتمالًا لتحقيق استقراره الاقتصادى، وسار دوبوا فى هذا الاتجاه وسرعان ما وظفته جامعة أطلانطا فى جورجيا. كان لايزال يتبنى اعتقادًا مثاليًا بأن السود يستطيعون، من خلال استخدام العقل والحكمة، أن يساعدوا فى التغلب على العنصرية والفصل العنصرى وهو أجلى مظاهرها فى المجتمع، لكن الطبيعة المتصلبة للعلاقات العنصرية فى الجنوب هزمته. و قد تصدى لأساليب التهدئة التى كان بوكر تى. واشنطن يدعوا إليها كما يبدو. ولم تستأثر المثل المحددة لمعهد تاسكجى بثقته. وتصدى رافضًا لقبول التمييز، حتى لو كان بصورة مؤقتة، بأمل الحصول على الحرية مستقبلًا وقاوم الطبيعة العملية العنيدة لنموذج تاسكجى. وقال «إن التعليم ينبغى ألاّ يعلم العمل فحسب، بل يجب أن يعلم الحياة». والحياة تعنى الحرية.

وأسس دوبوا حركة نياجارا فى 1905، بهدف تعزيز الحقوق المدينة للسود. وتحولت المنظمة إلى الرابطة القومية لتحقيق التقدم للملونين فى 1909. وكان شخصية بارزة فى هذه الرابطة ورأس تحرير صحيفتها المسماة الأزمة، وكانت لسان حال مهمًا للاحتجاج. وخلال فترة وجيزة، أصبح دوبوا صوتًا رئيسيًا للمقاومة، مثقفًا عامًا بلاغته غير عادية و شخصيته قوية. وقاوم فكرة أن السود يتعين عليهم أن يدرسوا الحرف فحسب وأن يقبلوا الإجحاف مؤقتًا، بأمل تحقيق حياة أفضل فى المستقبل. وكانت دعوته لتوفير التعليم العالى «للعشر الموهوب» - أذكى 10 فى المائة من السود - موضوعًا متصلًا فى كتاباته (وموضوعًا عرضه للاتهام بالنخبوية). واشتدت نضاليته فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين ووجد نفسه فى خصام مع وولتر هوايت رئيس الرابطة واسع النفوذ فى مطلع الثلاثينيات وتمثلت إحدى نقاط الخلاف فيما إذا كان الأطفال السود يحصلون على تعليم أفضل من مدرسين سود أم لا. كان دوبوا يعتقد ذلك، مؤمنًا بأن نظام التعليم، خاصة فى الجنوب مُعدٌّ لمحاباة

الطلاب البيض بطريقة لا تجعل الأطفال السود قادرين على اكتساب احترام النفس بداخله. ويبدأ يدعو لانفصال السود، وأدى هذا التحول فى محور تركيزه إلى استقالته من رئاسة تحرير صحيفة الأزمة فى 1934.

واستمر دوبوا فى العمل كأستاذ لعلم الاجتماع فى جامعة أطلنطا حتى مطلع الأربعينيات، ناشرًا دراسات كبرى عن الثقافة والتاريخ الأمريكيين الأفريقيين، بما فى ذلك كتاب مهم عن دور السود خلال التعمير. بيد أن حكومة الولايات المتحدة طاردته، حيث اعتبرته. شخصًا خطيرًا له ميول شيوعية. وكان هذا صحيحًا لحد ما. فقد كان تعاطفه موجهًا للحركة الاشتراكية، وللأسف فقد تمت ملاحقته باعتباره شيوعيًا فى 1951. كان دوبوا حينذاك فى الثالثة والثمانين من عمره! ورفض قاض متعاطفا معه القضية، ومع ذلك فقد زالت حينذاك أوهام دوبوا بشأن احتمالات الحقوق المدينة فى أمريكا. و فى 1961، التحق فى الواقع بالحزب الشيوعى رسميًا وترك الولايات المتحدة للأبد، متخذًا له مسكنًا فى غانا فى سن الثالثة والتسعين وفى العام التالى تخلى عن جنسيته الأمريكية ومات بعد ذلك بقليل، فى منفى فرضه على نفسه من بلد عمل جاهدًا على تشكيل قيمه.

ولا يقدم هذا الملخص الوجيز سوى لمحة عن الإطار الخارجى لهذا الرجل غير العادى والمركب. لقد عاش دوبوا زمنًا طويلًا حيث إن حياته بدأت (23 فبراير 1868) بعد خمس سنوات فقط من إصدار لنكولن لإعلان العتق. ومات قبل فترة قصيرة من المسيرة الشهيرة فى واشنطن التى ألقى فيها مارتن لوثركنج خطبته النيّرة التى كررفيها قوله «لدى حلم» «وأخيرًا فإننى حر» بإلحاح متزايد. كان حلم كنج هو نفس الحلم الذى راود دوبوا، قبل ذلك بسنوات طويلة، فى مؤلفه أرواح جماعة السود.ومثلما كتب دولان هيوبارد" «لقد تحدى دوبوا العقيدة الجامدة السائدة التى كانت تقول أن السود الأفارقة فى الدرك الأسفل من سلسلة عظمى من الكائنات وأن السواد شارة خزى». وتصدى دوبوا وهو رجل شجاعته ضارية، ورغبته عارمة يتحدى من كانوا يحاولون قهره، معارضًا نموذج بوكر تى. واشنطن، الذى اعتبره فى نهاية المطاف امرؤًا مخادعًا، محتالًا دار بحرص حول حقل ألغام القضية العنصرية فى أمريكا. وقد ذكر مؤخرًا فى فصل بعنوان غسق الفجر فى سيرية الذاتية أن «بوكر تى.

واشنطن لم يكن شخصًا تسهل معرفته. لا يعبر مطلقًا عن نفسه صراحة وبوضوح إلى أن يعرف على وجه الدقة إلى من يتكلم وما هى رغباته ومرامه».

لم يكن دوبوا نفسه برير رابت،(*) الذى يمر مرور الكرام على الأمور ويسلك سبلًا ملتوية، محاولًا ألا يتسبب فى أى إساءة. كان صريحًا بلا التواء، رجلًا رفض أن يجلس فى مؤخرة الحافلة أو يؤمر بما يفعل. كان التحرير من الرق هو هدفه وكرس نفسه لهذه المهمة، منتجًا كمًا ضخمًا من الأعمال فى حياته المديدة. لكن معظم أصحاب السير، حتى العظام منهم، يتضاءلون حتى لايبقى لهم فى الذاكرة العامة سوى كتاب أو كتابين. والمؤكد أن تذكر دوبوا أفضل بسبب الكتاب الذى أعاد فيه «الروح» إلى عنصره، واضعًا الهوية السوداء فى إطار عالم الروح، معلنًا شرعية موسيقاه وتقاليده، وفاحصًا تاريخ اضطهاد السود فى أمريكا بطرق ذكية وموضوعية بحيث لايستطيع أحد مهتم بهذا الموضوع أن يتجاهل ذلك.

وينبغى أيضًا النظر لكتابه فى سياقه. ففى ظل الأيديولوجية العنصرية للقرن التاسع عشر، خاصة فى الجنوب، كان يتم عادة إنكار أن جماعة السود لها روح، وهذه نقطة أكدها فريدريك دوجلاس فى كتابه المسمى السيرة. وكان هذا هو السبب فى أن السادة البيض فى المزارع لم يمنحوا عبيدهم بالضرورة الحق فى الحصول على التعميد، والمناولة، أوالزواج وكانت مراسم الدفن تلقى عبوسًا فى واقع الأمر. فالعبيد لم يكونوا بشرًا كاملين لهم أرواح ولكن مخلوقات تتحرك عند مستوى أدنى، مثل الحيوانات. ومثلما يقول دوجلاس. فإن هؤلاء لم يكونوا مخلوقات تحتاج إلى الخلاص، بل مجرد «قاطعى أخشاب وجالبى مياه». وتلك جملة كررها دوبوا. وكان هذا الهراء هو الذى اتخذ دوبوا موقف المعارضة له، مانحًا روحًا وجسدًا لواقع السود، معيدًا أرواح جماعة السود إلى أجسادها، فى مجتمعات، فى تراث مساو لأى تراث فى عالم البيض الذى يحبسهم رغم ذلك فى إطار «يعتبرهم» كائنات أدنى.

وسعى دوبوا بصبر وأناة لإبراز التراث الثقافى للسود، فى كتب ومقالات لاتعد ولاتحصى، لكنه أبرزه أساسًا فى كتاب أرواح جماعة السود وعنوان هذه المجموعة من المقالات وحده يضفى كرامة معينة على أناس بعينهم، «جماعة» السود، وكلمة جماعة

* شخصية فى قصص العم ريموس المحتال من جنوبى الولايات المتحدة المترجم.

نفسها متواضعة فى أن لها رنين عرضى، لكنها تنطوى على كرامة أيضًا، والجذر الألمانى لكلمة جماعة فى اللغة الإنجليزية يعنى جماعة عرقية لها تقاليد طويلة. ومثلما يؤكد أرنولد رامبرساد، فإن دوبوا استخدم المصطلح بطريقة ترجع به إلى الفيلسوف الألمانى يوهان جوتفريد فون هيردر (1744-1803): إن تعريفه لكلمة الجماعة هو تعريف سياسى فى المحل الأول وينبغى فهمه على أنه مرادف للكلمة الأكثر جسارة وهى «أمة». ويهدف دوبوا إلى ثقافة سوداء موحدة، تحدد هوية فى تراث الأغانى والمواعظ والموسيقى والفولكلور. ويحاج بأن المنتجات الثقافية للأمريكيين السود تعرضت باستمرار لإساءة فهم ويبخس لقيمتها، وعزفت عن إعطاء جماعة السود قيمتهم الحقيقية فى هذا و بقيامه بهذا، فقد أشاد أساسًا بما يمكن منه لمنظرى الثقافة والفنانون والمصلحون السياسيون اللاحقون أن يشيدوا معابد الحرية التى يريدونها.

ولاغرو أن الكتاب انتشر فورًا وذاع، بثلاثة وثلاثين طبعة على الأقل نشرها أ.س. مالكورج، الناشر فى شيكاغو، الذى كان أول من نشر مجموعة المقالات، واستمر فى ذلك بين 1903 و 1938 عندما ظهر أن الشركة قد تهاوت. وفى 1953، عندما بدأت حركة الحقوق المدينة تجد الصوت الحديث المعبر عنها، نشرت دار فاوست الكتاب فى طبعة جديدة بغلاف ورقى، وتمت ترجمته للفرنسية ولغات أخرى، مما أتاح له جمهورًا على النطاق العالمى. وفى 1961 ظهرت طبعة كتب مقدمتها المؤرخ الأسود سوندرز ريدنج عن دار دود ميد، وهى دار نشر كبرى فى نيويورك. وأصدر ناشر بريطانى كبير هو لونجمان طبعة شعبية بمقدمة للاشتراكى الذى ولد فى منطقة الكاريبى، اس ال آر جيمس فى 1965. وحظت طبعة بغلاف ورقى أصدرتها نيوا ميركان ليبرارى ظهرت فى 1969 بشعبية هائلة وساعدت فى إذكاء حركة القوة السوداء. وتوالى صدور الطبعات، وتتوافر طبعات رخيصة بغلاف ورقى على نطاق واسع حاليًا. وكان من بين من كتبوا مقدمات للكتاب، مثيرة للاهتمام ومفيدة أرنولد رامبرساد (993، كنويف) وهنرى لويس جيتس جونيور (1999، نورمان). وفى هذا الفصل أنقل عن طبعة سنجت كلاسيك، والتى تضم مقدمة رائعة لراندال كينان (1995).

3

يضم كتاب أرواح جماعة السود أربعة عشرة مقالة وصورة أدبية منفصلة، أحدث كل منها دويًا قبل جمعها فى شكل كتاب، بل وضمت قطعة من الأدب بعنوان «عن مجيء جون». ولاغرو أن نسيج وبنية كل منها مختلف، إذ تتراوح من مذكرات روحية فى إطار التراث الغنى على نحو هائل للسيرة الذاتية للسود إلى علم الاجتماع المباشر والتحليل الثقافى والاستدعاء الغنائى «للروح» السوداء كما تتجلى فى الكتابات الدينية والشعر والموسيقى والحديث. ومع ذلك، فإن الكُل موحد بشكل غريب، حيث إن الحساسية المتميزة لدو بوا تحكم العمل من بدايته إلى نهايته، ويشعر المرء على الدوام بنبض المقاومة، ويسمع نبرة الانشقاق العاقل.

و «النضال» الروحى لجماعة السود هو موضوع الفصل الأول، وهو فصل عام يتساءل فيه دوبوا عن معنى أن يكون المرء أمريكيا وأسود. ويتعجب «كيف تشعر إذا كنت أنت نفسك مشكلة؟» ويحوم السؤال فى الهواء حوله. ويفترض وجود «حجاب هائل» يفصل السود عن البيض. «لماذا جعلنى الرب منبوذًا وغريبًا فى بيتى الخاص؟ إن عزلة السجن المغلق تحيط بنا جميعًا» (45). وهنا وكما هو الحال فى العمل كله، فإن اللغة تردد صدى ترجمة الملك جيمس للتوراة وتراث الشعر الإنجليزى («فعزلة السجن مثلًا تومئ لشعر ورد زورث). وهذه اللغة المحكمة قد تبدو نبرتها غريبة على الأذن المعاصرة التى لم تعتد هذا الأسلوب البلاغى. بل قد تبدو منمقة بصورة مغالى فيها، وحتى متسمة بالخيلاء. لكن دوبوا بصفة عامة لم يبالغ فى أى من هذا، وغالبًا ما كان يرتد إلى تركيب الجمل والبيان البسيطين، مثلما صاغ فكرته المؤثرة عن «الضمير المزدوج».

لقد تخلل تعبير الوعى المزدوج، أو الإحساس بالولاء لمعسكرين متعارضين، الخطاب المعنى بالعنصرية فى القرن الأخير. فمشكلة أمريكا هى مشكلة الفصل العنصرى: الانقسام

إلى بيض وسود، والألم المبرح الذى يسببه هذا للأمريكيين الأفارقة، الذين يتعين عليهم أن يتغلبوا على هاتين الكلمتين ويحاج دوبوا بأن تاريخ العنصرية فى أمريكا هو تاريخ هذا الصراع. و التحليل مدمر، مثلما يشرح كيف تم الحط من قدر الرجل الأسود، حتى لو كان مهنيًا - كاهنًا أو طبيبًا. ومثلما أوضح نقاد محدثون، فإنه نادرًا ما يرد ذكر للنساء السوداوات فى هذا الكتاب، وعندما يذكرن، فإنهن يشغلن عالم الحياة المنزلية. وفى هذا، كان دوبوا ابن زمانه ومكانه، فقد كان يكتب قبل اليقظة الكاملة للوعى السياسى لدى النساء. وبهذا القول، فإن دوبوا يبرز (فى الفصل الثانى) «جهاد المدرسات فى نيو إنجلند»، مشيدًا بالعدد الذى لايحظى من النساء البيض اللاتى كرسن حياتهن لتعليم الأطفال السود فى عصر التعمير (64).

وفى الأساس، فإن دوبوا يضع إطارًا للمقاومة يسمح لسخطه وغضبه بأن يعبر عن نفسه بطريقة خاضعة للسيطرة، عازلًا الأحكام المسبقة باعتبارها القضية الأساسية. فيقول برباطة جأش «إن الناس يستدعون الأحكام المسبقة الشكلية ويفسرونها عمدًا باعتبارها دفاعًا طبيعيًا عن الثقافة ضد البربرية» (50). وإذ يدعى ببراعة أنه يتفق مع هذا، فإنه يؤكد أن السود لابد وأن ينحنوا «بتواضع» تقديرًا لهذا المسعى. لكنه يهاجم «أحكامًا مسبقة لايسميها تتخطى كل ذلك وتتجاوزه»، ملاحظًا أن «عدم الاحترام الشخصى والسخرية» يبرزان أيضًا، وكذلك «السخرية و الإذلال المنتظم، الذى يتعرض له جنسه على نحو شائع. وهو يجد أن هذه المظاهر للأحكام المسبقة أمر لايمكن تحمله إطلاقًا وتوفر دحضًا ضاريًا لها، وتبين للبيض ما قد يشعر به السود حقًا وما يفكرون فيه.

وفى الفصل الثانى، يعود للتاريخ مرة أخرى، فيروى سيرة النضال من أجل الحرية، خاصة فيما بين 1861 و 1872 - السنوات الأولى للانتقال من العبودية. ويركز بصفة خاصة على إنشاء مكتب الرجال الأحرار، الذى كان القصد منه هو مساعدة العبيد السابقين فى الانتقال إلى الحرية ويستند المبرر إلى افتراض، قدمه فى الجملة الأولى من هذا الفصل، هو أن «مشكلة القرن العشرين هى مشكلة الفصل على أساس اللون» (56). كان المرء كثيرًا

ما يسمع أن الحرب الأهلية لم تكن بسبب العبودية. و بالطبع، وكان دوبوا يكرر هذا القول لترسيخه، مذكرًا بأنه ما أن دلفت جيوش الشمال للجنوب حتى «ظهر (العبيد الهاربون) فى إطار الحدود الموضوعة لهم» (55). وقد وصف لنكولن، بدون احترام، باعتباره «الرجل طويل الرأس بوجه قُدّ بعناية الذى يجلس فى البيت الأبيض». فلم يكن دوبوا يسيطر دائمًا على سخريته، وقد تبدو كتاباته خرقاء، مثلما يتحدث عن جمعيات الرجال الرجال الأحرار لتقديم المعونة «التى ولدت من نداءات تمس شغاف القلب» وجهها محسنون شتى (57). ولكنه عندما يصف ببساطة الأبعاد التاريخية لمشكلة ما، فإنه يفعل ذلك بصورة حيوية للغاية:

> إن هذه الأشياء المميزة. يمكن للمرء أن يشاهدها فى غارة شيرمان داخل جورجيا، والتى أبرزت الوضع الجديد على نحو مبهم: الغازى والمغزو والزنجى. ويرى البعض كل الدلالات فى جبهة المدمر العابسة، ويراها البعض فيمن يعانون بمرارة من ضياع القضية. ولكن بالنسبة لى، فإنه لا الجندى ولا الهارب، يتحدثان بمعنى عميق مثلما تفعل السحابة الإنسانية الداكنة التى تتجمع متماسكة مثل ندبة عند مؤخرة هذه الأعمدة السريعة متورمة لنحو نصف حجمها، وتبتلعها وتخنقها تقريبًا. وكان إصدار أمر لها بالتراجع لاجدوى منه، وكانت الجسور المقامة تحت أقدامها بدون جدوى، والتى كانت تمشى عليها مجهدة متلوية من الألم ومتدفقة، حتى تبتلعها السافانا، قطيع يعانى المسغبة وعريانًا مكونًا من عشرة آلاف (58 – 59).

كانت عقابيل الحرب صادمة فى وحشيتها، مثلما يقول دوبوا «فغارات الفدائيين، والاضطرابات القائمة دومًا بعد اضطرام نيران الحرب، كانت تركز قواها على الزنوج، واستيقظت كل أراضى الجنوب كما لو كانت تصحو من حلم فظيع على الفقر والثورة» (167). والاستخدام الشعرى للجناس الاستهلالى (فى كلمتى اضطرابات واضطرم)، قد يدل على الكتابة بإسلوب طنان، لكن الموضوع ملائم تمامًا، لمثل هذه المعاجلة، ويستولى

دوبوا على لب القارئ بنثره الجميل ويستهلك جزءًا كبيرًا من هذا المقال، فى بيان كيف أنشىء مكتب الرجال الأحرار، وكيف تحطمت مقاصده الطيبة على صخرة راسخة من الأحكام المسبقة الجنوبية. فمن المؤكد أن المكتب لم ينجح فى نشر المدارس الحرة بين السكان السود، كما يعترف دوبوا، لكن عقبة العنصرية لم يكن فى الإمكان التغلب عليها: «كانت معارضة تعليم الزنوج فى الجنوب ضارية فى البدء، وتبدت فى الحرائق والإهانات والدم، لأن الجنوب كان يؤمن بأن الزنجى المتعلم سيكون زنجيًا خطرًا» (71).

وينعى دوبوا «زوال مؤسسة إنسانية كبرى» قبل أن تتمكن من إتمام عملها ويذكر صراحة أنه «على الرغم من الحل الوسط، والحرب، والصراع، فإن الزنوج ليسوا أحرارًا» (77). لقد أخلت العبودية بمعناها الحرفى الطريق أمام العبودية الاقتصادية، حيث كان السود رجالًا ونساء مقيدين بمزارعهم القديمة. وكان المهرب الوحيد بالنسبة لهم هو «الموت أو السجن» (78). ومثلما كان الحال من قبل، فإن نظام السجون فى أمريكا لايزال يعمل بهذه الطريقة فى كثير جدًا من الحالات.

وكان المقال الأشد إثارة للجدل والأشد تأثيرًا أيضًا فى كتاب أرواح جماعة السود هو الثالث، وهو بعنوان «السيد بوكر تى واشنطن وآخرين»، الذى يكمن فيه مفتاح قصد المؤلف السياسى. ففى 1903، لم يكن فى مقدور أى أحد أن يهاجم بوكر تى. واشنطن. إذ كان شخصية مرموقة، ولد فقيرًا وارتفع ليغدو شخصية ثقافية رفيعة بين السود، ومؤسسًا لمعهد تا سكجى فى الباما، الذى يدرس الحرف للسود الواعدين. وربما كان الأمر الأهم هو أن واشنطن قد اكتسب احترام البيض أيضًا، خاصة فى الجنوب، وقد سعى كما يقول لنا دوبوا لإقامة «تحالف مشرف مع خبرة أهل الجنوب» (80). لكن دوبوا لم يكن يستطيع أن يخفى ازدراءه وهو يصف «برنامجه عن التعليم الصناعى، والتراضى مع الجنوب، وخنوعه وصمته إزاء الحقوق المدينة والسياسية» (79). كان نهج واشنطن يسمى «حل وسط أطلانطا»، واعتبر دوبوا أنه لايمثل منحة لجماعة السود. ففى مقابل استعدادهم للتخلى عن حقوق المواطنة الأساسية، بما فى ذلك حق الانتخاب، قدمت لهم فرصة للحصول على مستوى معين من التعليم.

ومثلما يلاحظ دوبوا فقد «كان هناك بين الملونين المتعلمين عميقى التفكير فى كل أنحاء البلاد، شعور بالأسف والأسى العميقين، والخوف من الشيوع الواسع والسطوة الكبيرة التى اكتسبتها بعض نظريات السيد و اشنطن» (82). واعتبر حل وسط أطلانطا شكلًا من التراجع والخنوع وقال أن واشنطن يبادل بالسلطة السياسية للسود وحقوقهم المدينة، وموطئ قد مهم فى عالم التعليم العالى، منافع هزيلة. وبالتخلى عن هذه الحقوق الأساسية، فإن الرجال السود (لم تكن النساء مدرجات حقًا فى المعادلة)، يحرمون من امتيازا تهم الشرعية. إن ما كان دو بوا يريده للذكور الأمريكيين الأفارقة هو الحق فى الانتخاب، والمساواة، والتعليم حسب قدراتهم.

وفى رأى دوبوا، فإن بوكر تى. واشنطن «نزع إلى جعل البيض، فى الجنوب وفى الشمال، يحولون عبء مشكلة الزنوج إلى كاهل الزنوج»، فى حين «أن العبء يخص الأمة كلها» (94). كان دوبوا يؤمن بأن السود ينبغى لهم أن يناصروا واشنطن بقدر مايدعو إلى النمو القوى والصبر والتدريب الصناعى، حيث إن هذه كلها أشياء جيدة. لكنه كان يعارض أى سياسات قد تنطوى ضمنًا على تراجع أو يبدو أنها توفر مبررات للظلم. «بأى منهج متحضر وسلمى، يتعين علينا أن نناضل من أجل الحقوق التى وهبها العالم للرجال، متشبثين على نحو لا يتزحزح بالكلمات العظمى التى سينساها أبناء الآباء المؤسسين بسهوله: أننا نعتبر هذه الحقائق جلية فى حد ذاتها: إن كل الناس خلقوا متساوين، وإن خالقهم وهبهم حقوقًا معينة لايمكن التخلى عنها، ومن بينها الحق فى الحياة، والحرية والسعى وراء السعادة» (94 – 95).

ومثلما أوضح أرنولد رامبرساد، فإن دوبوا كان يكره تشاؤمية واشنطن الضمنية، وهو ما اعتبره تراخيًا روحيًا ورضًا بالواقع من قبل رجل عجوز. وكان يتمسك بقوة برأى أفلاطون عن الحياة، وفيه لا يصبح العمل مجرد وسيلة للمنافع المادية، ولكن عالم يمكن للمرء فيه أن يسعى وراء «المثل العليا للحقيقة والجمال والحب». خلاصة القول إن دوبوا كان يرى أن «هدف الحياة هو التطلع للمثل العليا». ويتعارض هذا تمامًا مع طبع واشنطن، الذى كان يرى أن مثل هذه المثالية كريمة المحتد «لاتزيد كثيرًا عن كونها مجرد زيغ».

وحينذاك تحول دوبوا إلى السيرة الذاتية فى كتابه أرواح جماعة السود : الأسلوب المحبب للكتاب السود، وهو أسلوب انبثق من تراث سرد روايات العبيد، الذى يصف على نحو نموذجى التقدم من العبودية للحرية، رغم أن دوبوا كان يعتبر الحرية شيئًا بعيدًا للغاية ويصعب تحقيقه. وتنتهى هذه النزهة فى السيرة الذاتية بنبرة مريرة! «وهكذا سافرت وأنا مستغرق فى التفكير الحزين إلى ناشفيل فى سيارة تمارس التفرقة ضد الزنوج» (108).

فقد فُرضت قوانين التميز العنصرى الفصل، عازلة المواطنين السود عن البيض. وأى شخص سافر إلى الجنوب فى الأيام السابقة لعصر الحريات المدينة الحديثة سيتذكر الطريقة التى كان يتم بها إجبار الأمريكيين الأفارقة على أن يتناولوا الطعام فى مطاعم منفصلة، ويركبوا فى مؤخرة الحافلات، وأن يذهبوا لمدارس منفصلة. (لازلت أتذكر القيادة خلال الجنوب ذاهبًا إلى فلوريدا مع والدى فى 1956. كانت الموتيلات على امتداد الطريق تضع إعلانات وقحة تقول «للبيض فقط». وأتذكر صبيًا أسود كان يراقبنى فى حسد وأنا أشرب من حنفية مقصورة على البيض فى ميدان بلدة فى جورجيا).

ويسمى هذا الفصل، بسخرية مميزة «عن معنى التقدم». لقد درس دوبوا فى مدرسة لفقراء السود فى تنيسى كشاب، وها هو الآن يعود - بعد خمسة عشرة سنة - ليرى كم «تقدمت الأمور» ويبدأ بطريقة تشبه حكايات الجن: «حدث ذات مرة أن كنت أقوم بالتدريس فى مدرسة فى تلال تنيسى، حيث كان وادى المسيسيبى المعتم العريض قد بدأ ينفتح ويتسع مرحبًا بالأعشاب والزهور النضرة». ويروى بعد ذلك، أنه كان حينذاك طالبًا فى فيسك، كلية السود الأسطورية، وأراد بشدة مساعدة الطلاب المحتاجين فى المدارس الريفية. ووصفه لمجتمعات السود فى هذه الأنحاء محدد بطريقة تبعث على الإعجاب، وهى فوّاحة بالعطر فى التفاصيل : «كانت الأكواخ وبيوت المزارع تنتشر فوق التلال والوادى، معزولة عن العالم بالغابات وكانت التلال تنحدر نحو الشرق» (97). ويفيض الوصف إلى إلهام فى مثل هذه المقاطع، كما يتذكر دوبوا «الجبال الزرقاء والصفراء التى تمتد نحو كارولينا» (68). وحتى تجربة الفصول تبدو بهيجة : «كانوا يجلسون هناك، نحو ثلاثين منهم، فوق مقاعد طويلة خشنة، ووجوههم تتلون من الأصفر الشاحب إلى البنى الغامق، وأقدامهم الصغيرة عارية

وتتأرجح، وعيونهم مملوءة بالأمل، والتى تبرق بين حين وآخر تنبئ عن نزوع للإزعاج، وأيد تقبض على كتب ويستر للهجاء ذات اللون الأزرق الداكن» (100). كان دوبوا والأطفال «يقرأون ويتهجأون معًا. كانوا يكتبون قليلًا ويلتقطون الأزهار ويغنون، ويحكون حكايات لبعضهم البعض. وكان المدرس يذهب عادة مع الأطفال لمنازلهم ليقابل آبائهم. وقد استوعبه المجتمع المحلى وهو سعيد، وهو المجتمع الذى أصبح بسبب عزلته، عالمًا فى ذاته».

وعند عودته، وجد أن حياة تلاميذه السابقين قد تهاوت «كانت دار مدرستى المصنوعة من الخشب قد اختفت وفى مكانها يقوم التقدم، والتقدم هو أمر قبيح بالضرورة كما أدركت» (105). كانت أحد طلابه المفضلين قد مات حينذاك ولم يبق فى المجتمع المحلى أى إحساس بالإنجاز أو التحرك للأمام. بدأ الجميع وقد تهدمت معنوياتهم. لقد شهدوا بعض الخيارات والمفاضلات بين أمور مختلفة، ولكن ثبت أن هذه ملتبسة فى أحسن الأحوال. وتساءل كما لو كان يكتب مثلًا رمزيًا مأثورًا: «كم من القلوب المكلومة والأسى سيوازن مكيالًا من القمح؟» (108). وهكذا، كان يفكر مليًا فى مثل هذه الأسئلة، وركب عائدًا إلى ناشفيل فى عربة للفصل العنصرى: مواطنون منفصلون ومنقسمون ولكنهم غير متساوين تمامًا.

والفصل الخامس الغريب هو تأمل لمعنى جامعة ومعنى الافتقار لجامعات كافية فى الجنوب. لقد أضفى دوبوا صبغة مثالية على القرية الأكاديمية وتطلع إلى أيكة مثالية، مكان يمكن أن تتحقق فيه فكرته عن الحياة المستنيرة. كان يعتقد إن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا «بإقامة الحق على الصلاح والصدق وعلى البحث الذى لايعرقله شيء عن الحقيقة، وبتأسيس المدارس المشتركة على الجامعة، والمدارس الصناعية على المدارس المشتركة، وبذا يتم نسج نظام، وليس شيئًا مشوهًا، وتحقيق الميلاد وليس الاستيعاب» (119). ومهما كانت مقاصده سامية، فإن هذه الرؤية ليس لها وضوح حقيقى، إنها تومض على نحو باهت من خلال غلالة من التجريد. وفى الفصل التالى المتصل بذلك والمعنون «عن تدريب السود»، يتأمل دوبوا التعليم «كدواء واحد شاف لكل العلل يقفز إلى شفاه الجميع» (123). وحتى

فى نهاية القرن العشرين، كان التعليم يعتبر علاجًا للعنصرية. ولكن دوبوا كان يتشكك فى فكرة أن التعليم يمكنه أن يستأصل الأحكام المسبقة، فلم ير فى التعليم نمطًا يكفل خلاص العبيد السابقين. يقول: «إن كليات الزنوج، التى تأسست على عجل، ليست مجهزة على نحو كاف، وهى موزعة بصورة غير منطقية، وكفاءتها ودرجتها متباينة» (125). وبالمثل كانت المدارس العادية التى يلحق بها الأطفال السود سيئة التجهيز ومشوهة الشكل. وفى الوقت نفسه، تشددت العنصرية فى الجنوب، بعد أن تم وضعها فى شكل قانون. وهو يوضح أن الجنوب أصبح «معسكرًا مسلحًا لترويع جماعة السود» (136). ويطرح مرة ثانية فكرته عن العشر الموهوب، زبدة وصفوة شباب السود الذين يتعين تعليمهم بصورة سليمة. وهؤلاء الرجال «لن يطرحوا جانبًا تطلعاتهم ويصبحوا وهم قانعين أشخاصًا يؤدون الأعمال الشاقة يقطعون الأشجار ويجلبون المياه بعد سحبها»، كما يقول ملمحًا كما أو ضحنا - إلى جملة فريدريك دوجلاس (136). وحاج بأن وظيفة كلية الزنوج تبقى واضحه، حيث إنه «يتعين عليها أن تحافظ على معايير التعليم العام، ويتعين عليها أن تسعى إلى تحقيق الانبعاث الروحى للزنوج، ويتعين عليها أن تساعد فى حل مشاكل الاتصال والتعاون العنصرى» (138). كما يتعين عليها أن «تطور الرجال». وهؤلاء رجال يسعون إلى معرفة أنفسهم بعمق، إذ تعزز معرفتهم بذاتهم عنصرهم بصفة عامة. وبضرب مثلا بنفسه، وينهى الفصل على نحو جميل قائلًا: «إننى أجلس مع شكسبير، ولا يجفل منى. وعبر خط الفصل على أساس اللون أتحرك وذراعى فى ذراع بلزاك وديما، حيث ينسلّ الرجال المبتسمون والنساء المرحبات فى القاعات الذهبية». ويتساءل بصوت عال: «هل هذه أرض الميعاد؟»

ومن ذروة البلاغة هذه يهبط إلى وادى الوصف الواقعى، متناولًا جانبًا من جورجيا باعتباره عالم اجتماع فى الفصل السابع المعنون «عن الحزام الأسود». وذلك فصل حاسم وخصب، لكنه فصل ينزع النقاد إلى تجاهله، مركزين بدلًا من ذلك على دوبوا ككاتب مقالات أو ككاتب سيرة ذاتية. ومع ذلك، فإن هذا العمل «راسخ فى تحليله لحياة الأمريكيين الأفارقة فى الجنوب وفهم علاقة العمل الأفريقى وأهميته التى أدت إلى تجارة العبيد وإدامة مصالح مزارعى الجنوب»، مثلما لاحظ جيمس دانييل ستيل. ويقدم هذا الفصل دوبوا

باعتباره عالم اجتماع، يشتغل بعلم لم يتشكل بعد. كان ينظر للعالم بصورة مباشرة، متخذًا مقاطعة فى جورجيا كمثال لما أصبح عليه السود فى الجنوب بعد نهاية العبودية. إن ما كان يثير الاضطراب فى الجنوب لم يكن هو الأحكام المسبقة لأفراد بعينهم، وإنما كان العيوب والنواقص الهيكلية كما يؤكد. وقد اختار جورجيا لأن «مشكلة الزنوج كانت مركزة على ما يبدو فى هذه الولاية» (141). وقد أدى التعمير وعقابيله إلى وضع تم فيه إنكار الحقوق الأساسية للرجال والنساء السود. فقد طبقت قوانين تقنن المشاعر العنصرية. و تم تقييد حق الانتخاب نفسه بصورة شديدة بالنسبة للرجال السود (وبالطبع، فإن النساء البيض لم يكن يستطعن الانتخاب حتى 1920). وكما حدث، فقد تم استبعاد الأمريكيين الأفارقة من ميدان السياسة بصورة كاملة، تقريبًا. وفى 1901، ترك آخر عضو أسود فى الكونجرس الأمريكى، وهو جورج هوايت النائب عن نورث كارولينا، منصبه. ولم يظهر صوت أسود آخر فى مجلس النواب حتى 1928. ومماله دلالته، أن الجنوب–وهو مركز أساسى للسكان الأمريكيين الأفارقة – لم يكن له ممثل أسود فى الكونجرس حتى 1972، عندما انتخب اندرو يونج من جورجيا فى المجلس.

ومسح دوبوا مقاطعة دافترى بعين ثاقبة، ملاحظًا الصفوف المتعددة. من الأكواخ القديمة المملوءة بالمستأجرين والعمال : «كانت مفتقدة للبهجة، وعارية وقذرة فى معظمها، رغم أنه كان يبدو هنا وهناك قدم العهد والاضمحلال الذى يجعل المشهد جديرًا بالتصوير» (155). ويتأمل فى الفقر فى كل مكان من المشهد، وعواقبه، مثل الافتقار لفرص التعليم. ويذكر القوانين التى استخدمت لترسيخ نظام الأحكام المسبقة، وبذا تضمن الفشل للسكان السود، يعد دوبوا المشهد للاحتجاج الاجتماعى. يقول ستيل «كان يسعى إلى دحر الوضع العنصرى القائم بتأكيد أن سوء أحوال الأمريكيين الأفارقة لايرجع إلى النظام الطبيعى وإنما إلى النظام الاجتماعى، والنظام الاجتماعى أمر يمكن للمرء الاعتراض عليه.»

وكانت دافترى فى جوهرها نموذجًا لمقاطعات أخرى فى الجنوب تمثل نوعًا من الإقطاع حلّ محل نظام العبيد. لم يكن حكم الأغلبية قائمًا فى المقاطعات الجنوبية، حيث كانت جماعة السود هى الأغلبية ومع ذلك فليس للكثيرين منها أى سلطة سياسية. إذ كانت

حفنة من ملاك الأراضى البيض تسيطر على الحكومات المحلية وحكومة الولاية. وإذ تجول دوبوا في الريف، متحدثًا لجماعة السود التى تعيش هناك، فقد قدم صورة متعاطفة لشعب مقهور. وعارض المفهوم السائد القائل بأن الأمريكيين الأفارقة كسالى لكنهم مرحين، ويحتاجون إلى توجيه أبوى. وهذا التوجيه الأبوى، كما لاحظ دوبوا فى مطلع الخاتمة، الذى يتجلى فى صورة لواعظ أسود، زائف وكاذب. إذ يسأل دوبوا الواعظ وزوجته عما إذا كانوا يملكان أرضًا قالت الزوجة «نملك أرضًا، حسنًا إننا لانملك سوى هذا البيت». ثم أضافت بهدوء : «لقد اشترينا سبعمائة أكر قائمة هناك، ودفعنا ثمنها ولكنهم خدعونا بشأنها»(160-161).

وقد شكلت قوانين الفصل العنصرى المسماة جيم كرو عبر الجنوب نظامًا لا يمكن فيه لجماعة السود أن تزدهر أبدًا. (كان جيم كرو شحاذًا أسود خياليًا فى المسرحية الهزلية لتوماس «دادى» رايس. وكانت أغنية من هذا العرض مشهورة بصفة خاصة وهى اقفز يا جيم كرو.) كان أحد أسباب إقامة نظام قانونى يهدف «لاستعباد» السود سببًا اقتصاديًا، كما يؤكد دوبوا فى الفصل الثامن المعنون «عن البحث عن صوف الخروف الذهبى»، حيث يواصل فحص مقاطعة دافترى. كتب يقول: «نادرًا ما نبحث أحوال الزنوج حاليًا بأمانة واهتمام. ومن الأسهل كثيرًا افتراض أننا نعرفها جميعها» (163). وألقى نظرة فاحصة ومدققة على حياة جماعة السود هناك، راسمًا صورة لاتبعث على السرور، فيها عمل شاق لايلقى جزاء فى متجر بالنسبة لمعظمهم. وحتى الأطفال يخضعون لهذا العمل الذى يجرد المرء من إنسانيته، ولايتوافرلهم وقت للتعليم أو للترويح الذى يرتبط بالحياة الطيبة. كانت الدورة الزراعية تستغرق هؤلاء الناس وتسحقهم.

ومع ذلك، لم يكن القطن محصولًا مربحًا بصفة خاصة، كما يقول دوبوا: «كانت الأرض إجمالًا لاتزال خصبة، رغم سوء استخدامها الطويل. ولمدة تسعة وعشرة أشهر على التعاقب كان يمكن للمحاصيل أن تأتى لو كان قد طلب منها ذلك: خضراوات الحدائق فى إبريل، والحبوب فى مايو، والشمام فى يونيو ويوليو، وحشيش العلف فى أغسطس، والبطاطا فى

سبتمبر، والقطن منذئذ حتى عيد الميلاد. ومع ذلك لم يكن يزرع فى ثلثى الأراضى هناك سوى محصول واحد، و كان ذلك يترك الكادحين مدينين. ما السبب فى هذا» (17).

سؤال جيد. لماذا يساء استخدام الأراضى بالتقاعس عن الأخذ بالدورة المحصولية؟ لماذا يتم سجن مثل هذا العدد الكبير من العمال بهذه الطريقة؟ يرد دوبوا على هذه الأسئلة بتأكيد يستند إلى حشد عاصف من الحقائق، منها أن «مخطط زراعة كل الأرض قطنًا» يخدم مصالح البيض جيدًا، ويرسخ العبودية جميعها فيما عدا اسمها فى السوق الذى يعتبر القطن فيه هو العملة الوحيدة: «ومن ثم كان مالك الأرض يطلب الإيجار قطنًا، والتاجر لايقبل تقديم قروض الرهن إلا على هذا المحصول» (174). وأبقت «عبودية الدين» كما أسماها دوبوا السكان تحت السيطرة. ومن ثم، فإن «حرية الزنوج» كما يقول اختصرت إلى «بيوت مهدمة فى الغرب، وتربة منهكة، وفدادين مرهونة» كانت تواجه أى زائر للجنوب فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر. ورغم غضبة المستعر، حافظ دوبوا على نبرة رشيدة، حريصًا على إجراء التمييز وإصدار الأحكام بدقة. وفى فصله التاسع، يتأمل الأحوال الاجتماعية فى الجنوب بعد الحرب الأهلية والتعمير، مدركان أن تغيرًا قد حدث : «فصولجان الإمبراطورية الذى انتقل من أيدى السادة كرام المحتد فى الجنوب فى 1865، جزئيًا بالقوة، وجزئيًا بنزق منهم، لم يعد لهم أبدًا، وبدلًا من ذلك انتقل إلى هؤلاء الرجال الذين تولوا مسئولية الاستغلال الصناعى للجنوب الجديد- أبناء فقراء البيض الذين يشعل أوار سعارهم تعطش جديد للثروة والسلطة، اليانكى النهمين والجشعين، والمهاجرين معدومى الضمير. وقد سقط بين أيدى هؤلاء الرجال، عمال الجنوب بيضا وسود، وكان هذا لسوء حظهم» (192 -193).

وكما يقول دوبوا فقد كانت «الدولارات والأرباح» هى الشىء الوحيد المهم بالنسبة لهذا الجنس الجديد من السادة. لكنه لم يكن من القائلين بالحتمية الاقتصادية. والواقع أنه سار فى اتجاهات كثيرة، منخرطا فى نوع من البحث عن النفس، معترفًا بالطبيعة المعقدة للمشكلة العنصرية فى الجنوب، مؤكدًا أن ذلك «كان يهب على جيل عميقًا كعاصفة وإجهاد للروح الإنسانية، وكثيفًا مثل اهتياج المشاعر، ومعقدًا مثل تضوّر الروح، وعلى نحو لم يقاسه الناس من قبل» (203). كان يرى أن هناك طاقات اجتماعية هائلة تفعل فعلها، للخير وللشر،

داخل وخارج «ستار معتم الألوان». وسلّم بأن حلول المشكلة العنصرية لا تكمن فى السير فى اتجاه الإحسان البسيط: «فتقدم الإنسان ليس مجرد مسألة تتعلق بإعطاء الصدقات» (207) فالتقدم يقتضى التقاءًا معقدًا للعقول: على تمكين جماعة السود من أسباب القوة، هذا مؤكد، ولكنه يتطلب تغيير القوانين أيضًا، وإعادة التوازن فى النظام للنهوض بالعدالة. ويؤكد دوبوا أن التعاطف يتعين توسيع مجاله على جانبى خط التقسيم حسب اللون لكى يحدث تغيير جيد.

ويتأمل فى الفصل العاشر وهو بعنوان «عن إيمان الآباء المؤسسين» الدين فى الجنوب الأسود، مقدمًا دراسة حادة استفزازية عن النبض الدينى فى مجتمع السود، مع تحوله من الديانات الأفريقية التى تؤمن بوجود أرواح فى كل شىء، إلى الشكلين المنهجى والمعمدانى للمسيحية. لقد التقى العبيد بالمسيحية فى المزارع، وكان لممارسات العبادة التى تطورت قدم من قدميها فى إفريقيا، وقدم فى العالم الجديد. وكانت جماعة السود فى رأى دوبوا «تملك طبيعة عاطفية عميقة تتجه بصورة غريزية صوب ما هو خارق للطبيعة» (218). وكان يميز وجود «مخيلة مدارية غنية» تفعل فعلها، مقترنة «بتقدير باتر ومرهف للطبيعة» كان عالم العبيد «يزخر بالأرباب والشياطين، بصغار الجن والسحرة».

وأخلى هذا السبيل فى نهاية المطاف للإيمان بالقضاء والقدر. ويقتبس دوبوا من كلام واعظ، فقد كان يصرخ مرددًا شعرًا «يا أبنائى، سنصبح جميعًا أحرارًا عندما يظهر الرب!» ويرتبط هذا الإيمان بالقضاء والقدر فى ذهن المؤلف بالاستشهاد المسيحى من النوع المرتبط بشخصية العم توم فى رواية هارييت بيتشر ستو. كان الاتجاه المنحدر لأسفل هو انحراف نحو ما أسماه دوبوا منهجًا «حسيًا» يتسم «بدين للاستسلام والخنوع» (219). وفى رأيه، فإن اضطهاد العبيد شجع هذا الانحراف، الذى كان جد ضار فى آثاره. لكن دوبوا يحتفى بالقوة الفريدة للممارسات الدينية للسود، التى يشرحها بصراحته وتعاطفه المعهودين. ويعلمنا دوبوا بأن «ثلاثة أشياء تسم دين العبيد هذا»، واصفًا إياها باعتبارها «الواعظ والموسيقى والسعار» (211). وحتى الآن، فإن شخصية الواعظ الأسود البليغ لاتزال بارزة. فهو قائد الجماعة، وخطيبها المفوه، وهو شخص يجمع بين «دهاء معين وجدية عميقة الجذور،

بحساسية تكملها قدرة». «ويومض الواعظ نفسه فى قلب الطقوس الدينية المتوهجة، تصحبه الموسيقى بلحنها الإيقاعى الحزين». وهذه الموسيقى كما قيل لنا، تنبع «من الغابات الأفريقية، حيث لايزال يمكن سماع نظيرتها» (212). وقد تم تطويعها، بل وتكثيفها، بفعل «الحياة الروحية المأساوية للعبيد». ويشير ما يدعوه دوبوا «السعار» إلى الدعوة والرد فى الطقوس الدنيية للسود، «الصراخ». قد يكون هذا زمجرة خافتة من مكان ما من مقصورة فى الكنيسة أو صرخة، تجرّ التحرك بقعقعة أو نوع من رقص الجاز، بل «وتحريك مجنون للأذرع». ولما كان دوبوا ميالًا لتأريخ كل شىء، فإنه يلاحظ أن هذا السلوك لم يكن جديدًا فى شىء وأنه يعود لعهود سحيقة مثل دلفى واندور.

ويذكر دوبوا أن الكنيسة أصبحت مركزًا اجتماعيًا للحياة بين جماعة السود - واحتفظت بمركزيتها هذه. لكن يبدو أيضًا أن الكنيسة كانت تمثل «العالم الكبير الذى استبعدت الزنوج منه الأحكام المسبقة المبنية على اللون والأحوال الاجتماعية» (214). لقد أصبحت الكنيسة قوة كبيرة كاملة السلطان، عالمًا فى حد ذاتة. وكان يبدو أن كل السود تقريبًا ينتمون إلى كنيسة ما، كما يقول لنا موحيًا بأنه «لم تكن هناك أى مؤسسة مثل كنيسة الزنوج تستطيع أن ترتفع عاليًا بدون وجود أسس تاريخية محددة، وهو ما أرجعه أيضًا إلى مصادر أفريقية، منها «حياة العشائر التى تأخذ بتعدد الزوجات تحت قيادة الزعيم والنفوذ القوى له».

وتشمل هذه الحياة الدينية «عبادة الطبيعة، بإيمان عميق بتأثيرات البيئة المحيطة». (215-216).

وبعد أن حدد دوبوا «المشاعر الدينية العميقة فى قلب الزنجى الحقيقى»، ينهى مقاله عن الدين بأسلوب بلاغى رفيع «ذات يوم ستأتى اليقظة، عندما تكتسح القوة المحبوسة لعشرة ملايين الطريق إلى هدفها بشكل لا يمكن مقاومته، خارجة من وادى عتمة الموت، حيث كل ما يجعل الحياة جديرة بالعيش - الحرية، والعدالة، والحق - مخصص للبيض فقط» (252). وبطريقة أريبة - يحول دوبوا بلاغة الأحياء الدينى نحو هدف علمانى، والواقع أن «الرب» يصبح «ربا» وتصبح النهايات التى يفضى إليها التعزيم والتعويذ هى «الحرية،

والعدالة، والحق» - وهى أهداف الثورة الأمريكية، السامية لكنها علمانية على نحو متميز، مثلما تجسدت، فى الدستور، ثم توسعت فى قانون الحقوق.

وفى الفصل الحادى عشر، وهو «عن وفاة المولود الأول»، ينعى دوبوا وفاة طفل، رضيع صغير ولد فى عالم للأحكام المسبقة: «وهكذا شاهدت فى بلاد الفصل اللونى ظل الستار الحاجب، كما أحس به عبر طفلى» (227). والستار الحاجب الذى يستدعيه كثيرًا طوال أرواح جماعة السود هو حاجز اللون الذى يفصل عنصرًا عن الآخر، يفصل السود عن البيض فى أمريكا. ومشكلة هذا الفصل هى أن دوبوا يبالغ فيه بحكم العواطف التى تملؤه، فاللغة مسهبة، منمقة بصورة مغالى فيها، والإيقاع توراتى كاسح: «لقد وُلد داخل هذا الستار الحاجب، وقلت لنفسى أنه سيعيش فيه - زنجى وابن زنجى. يحتبس فى هذا الرأس الصغير - آه، يا للمرارة - فخرًا لاينحنى أبدًا لجنس مطارده، ويتشبث بهذه اليد النحيلة ذات الغمازات - آه ياللسأم- أمل بعدم اليأس ولكن بدون أمل، ومشاهدًا مع هذه العيون اللامعة المتساءلة التى تحدق فى روحى متطلعة أرضا الحرية فيها بالنسبة لنا ملهاة، والتحرر كذبة» (227-228). لقد عالج الفكرة جيدًا، لكن التعبير كان منمقًا وملتفًا وواعيًا بذاته بدرجة ما تجعل القارئ يحفر خلال اللحم السميك للغة ليصل إلى العظم.

وترد نفس اللغة المنمقة فى الفصل المعنون «عن الكسندر كروميل»، ويتضمن ذكرياته عن قس أسود وصراعه مع المواقف العنصرية. كان هناك الكثير الذى يجمع بين كروميل ودوبوا، إذ كان فى الأساس يعتقد مثلما لاحظت شاني ام هارس «أن تمثل الثقافة الأمريكية الأوروبية والتكيف حسب أنماطها، كان يمثل الطريق الوحيد للأمريكيين الأفريقيين للحصول على المساواة الاجتماعية والتمكين من القوة الثقافية». هناك حدّة لاذعة هنا، تتمثل فى فكرة أنه فقط إذا استطاع المرء أن يتكلم جيدًا وأن يكتب جيدًا مثلما يكتب الأوروبيون والأمريكيون ويتكلمون، فإنه يستطيع التغلب على التحامل العنصرى، وإنه فقط إذا استطاع المرء أن يأخذ بالثقافة البيضاء كاملة، فإنه سيقبل فى أعطافها.

لم يفد هذا النهج كروميل مطلقًا، الذى وجد نفسه مرفوضًا من المعهد اللاهوتى العام فى نيويورك وأجبر على إعادة النظر فى علاقته مع البيض الذين رفضوه. ومع ذلك، فقد عاود

تركيز طاقاته، وكرس نفسه لتعليم جنسه وإلهامه. بيد أن ما حصل عليه لم يكن مطلقًا «رؤية عادلة أولى للشباب»، بل رؤية قاتمة، تغيرت بفعل تجربة قاسية.

وفى الوقت المناسب، يأس دوبوا من تحقيق العدالة لجماعة السود فى الولايات المتحدة وانتقل إلى أفريقيا - أى بمعنى ما ارتد إلى مهد الحضارة الأمريكية الأفريقية. وتبقى الحقيقة هي أن كتاب أرواح جماعة السود قدم للأمريكيين البيض لمحة عن الحياة والأفكار داخل مجتمع السود، مما زاد من صعوبة اضطهادهم لمن كانوا يعتبرونهم من قبل مجردين من حياة داخليه، محرومين من التقاليد القيمة. وطرح دوبوا سلسلة من الصور المحددة لهذه الحياة الداخلية، وتقاليدها، فى مقال عنيف بعنوان «عن أغانى الأسى»، الذى يناور فى تسلسله للوصول للخاتمة بالنظر فى الترانيم التى يغنيها العبيد، أغنياتهم المملوءة بالأمل و «الإيمان بالعدالة فى آخر الأمر» (242).

ومع ذلك فإن الكتاب لايحقق خاتمته العاطفية والفكرية إلا بعمل دال على البراعة ويأسر الانتباه أسماه «عن مجىء جون»، وهو الفصل قبل الأخير.

إن هذه القصة القصيرة، الأسطورة الصغيرة، ليست سوى قطعة من الأدب القصصى داخل هذه الأغلفة. ولها سمة الطراز البدائى، كما لو أن دوبوا يكتب بقلم نبى فى العهد القديم. و هو فى هذا يتبنى وعيًا مزدوجًا، و هو ما يمثل فكرته الأساسية، ويتلاعب بفكرة الأبيض والأسود، مكثفًا شخصية جون، ويروى عن شخصية رئيسية هى جون جونز، وهو شاب أسود كان يلعب وهو طفل مع ابن قاض محلى فى قريته النائية فى جورجيا. وهذا الصبى الأبيض كان يسمى جون أيضًا، وهو ابن القاضى هندرسون، وهو شخصية بارزة فى القرية. يذهب جون الأبيض إلى برنستون، فى حين يذهب جون الآخر لكلية للسود فى الشمال، هى معهد ويلز. ومثلما يكتشف جون الأسود، فإن الستار الحاجب موجود فى الشمال أيضًا، «حيث معاملات الطلاب السود قليلة مع المدينة البيضاء تحت» (246).

ويستمر صانع الأسطورة فى التوسع فى الثنائية: الأبيض والأسود، فوق وتحت، الشمال والجنوب. ومثل رواة الحكايات العبرانيين القدامى، فإنه لايبدد لحظة فى السرد، منتقلًا بسرعة من نقطة إلى نقطة، تاركًا الكثير للخيال.

وفى البدء لا يأخذ جون الأسود دراسته بجدية ويطرد من ويلز، فقط ليتحول إلى شخص أكثر نضجًا ومسئولية، مستعدًا لإتمام دراسته. وعندما يعود للديار، يلقى ترحيبًا حارًا من مجتمع السود، رغم أنه يشعر أن تعليمه قد جعله غريبًا. لقد جعلته المعرفة معزولًا. وكما نعرف، فقد كان قد جرى له لقاء غريب فى نيويورك مع جون هندرسون زميله فى اللعب، الذى التقاه فى لحظة رمزية فى المسرح، حيث اضطر للتخلى عن مقعده لتجلس عليه صديقة جون الأبيض. ويهيئ هذا المسرح للخاتمة - عندما يهاجم جون الأسود - فى نوبة غضب عارم جون الأبيض فى الغابة، عندما وقع بصره على مشهد اغتصاب رأى فيه الرجل الأبيض (والذى كان قد عاد حينذاك من برنستون وهو يزدرى قريته الأصلية، التى لايرى فيها سوى «طين وزنوج») وهو يهاجم أخته المحبوبة جينى جونز. ويكتب دوبوا باقتصاد صارخ فى الإيماءات وهو يروى عملية القتل: «لم يقل كلمة، لكنه أمسك غصنًا كبيرًا سقط من شجرة وضربه بكل الكراهية المحبوسة فى ذراعه الأسود الضخم واستلقى الجسد شاحبًا ساكنًا تحت شجرة الصنوبر، يغمره كله ضوء الشمس والدم. نظر إليه جون وكأنه يحلم، ثم قفل عائدًا إلى البيت سريع الخطو وقال فى صوت ناعم يا أمى، إننى راحل - إننى سأصبح حرًا» (262).

إن الحرية تمضى شمالًا مرة ثانية، إلى مكان «يتلألأ فيه نجم الشمال شاحبًا فوق المياه». وفى مشهد القتل، يختزل جون الأسود إلى «ذراع سوداء ضخمة»، صيغة بدائية للرجل الأسود القوى الذى يحول الرجل الأبيض إلى ضحية، «غارقًا كله فى ضوء الشمس وفى الدم». ولكن جون بالطبع كان له كل الحق، بل وكان عليه واجب، فى أن ينقذ أخته من الاغتصاب وقد فعل ذلك بعد أن عرف أن والد جون الأبيض سيغلق مدرسته لأنه سمع من قروى أن جون الأسود كان يدرس للأولاد الثورة الفرنسية، مشيرًا إلى «المساواة وما إلى ذلك». قال القروى: «إنه ما أسميه زنجيًا خطيرًا» (260).

وتهاوى عالم جون فى غمضة عين، رغم أنه كان بالفعل قد اغترب عن ناسه بسبب تعليمه. كان يدرك أسباب اغترابه، لكنه يعترف لأخته أنه لايأسف على ما تعلمه. وكانت المشكلة كما يشير دوبوا ضمنًا، هى أن التحامل العنصرى كان مترسخًا على نحو محزن فى المجتمع الأمريكى، فى الشمال والجنوب على حد سواء. و كانت الجهود المبذولة للارتقاء

بالرجل الأسود – مثل تلك التى شجعها بوكرتى. واشنطن – ستضيع سدى فحسب. ذلك أن الأمر يتطلب إجراء تغييرات هيكلية كبرى إذا أردنا أن تنتصر المساواة والحرية على التحامل والقهر. والفصل المعنون: «عن مجىء جون» بعنوانه التوراتى الذى يردد صدى قضة يوحنا المعمدانى (الذى جاء قبل المسيح وفقد رأسه فى هذه العملية) ينتهى بخيول يمتطيها منتقمون بيض ساعين للثأر «ترعد وتبرق سائرة نحوه». والمؤكد أن جون المحاصر سيفقد رأسه هو أيضًا. حيث لم يكن أحدًا يقتل رجلًا أبيض فى أعماق الجنوب – حتى لو كان لإنقاذ أخته من الاغتصاب – وينجو من العقاب، ليس فى تلك الأيام. كان الشنق محتمًا.

وتوفر لوازم أغنيات الزنوج الحزينة أو «أغانى الأسى» التى تتدفق طوال مختلف الفصول فى كتاب أرواح جماعة السود، تسجيلا صوتيًا ملائمًا يصاحب كتابًا عن البؤس العنصرى والانقسام الثقافى. وهذه الأغانى تؤطر وتمضى قدمًا للأمام بالمبررات الأكثر صدى «فى الكتاب مثلما كتب ايريك ج. صاندكويست. هناك حقًا حزن عميق فى هذه المقالات الأربعة عشر، لكن هناك أمل أيضًا، يكمن فى غضب دوبوا الذى يرفض ترك الستار الحاجب العنصرى يردعه. وهو يحدد غضبه المستعر بدقة، مخصصًا له مساكن محلية شتى. ويضع استدعاؤه للحياة العاطفية والفكرية، الموضوع فى الزمان والمكان المناسبين. إذ توجد طوال عمله النيرّ هذا رؤية للتحول الاجتماعى، وإن كانت غير نهائية وبدائية. كان دوبوا يعرف أنواع التغييرات التى لابد وأن تحدث إذا كان للولايات المتحدة أن تأخذ بالتكامل والمساواة، لكنه كان يدرك تمامًا ما يواجهه. والعجيب هو أنه لم يجفل من التحدى، على الأقل عندما كان يكتب هذا الكتاب.»

4

كتب صديق عارف بالفضل ندوبوا بشأن أرواح جماعة السود له يقول: «إننى سعيد أنك كتبته – لقد كنا نحتاج إلى شخص يُعرب عن تعقيدات المتاهة العمياء للأفكار والأفعال التى يصارعها الملون المتعلم رجلًا كان أم إمرأة». و قال جيمس ويلدون جونسون، الشاعر الذى كتب السيرة الذاتية لرجل كان ملونا من قبل – وهى رواية كلاسيكية فى شكل مذكرات – أن كتاب دوبوا هذا : «كان له تأثير على وفى داخل الجنس الأسود فى أمريكا أكبر من أى كتاب آخر نشر فى هذا البلد منذ كتاب كوخ العم توم». وحتى بين القراء البيض، كان هناك اعتراف بأهميته فى التعبير عن معالم القضية العنصرية فى أمريكا، بل وتشكيلها. والواقع أن ويليام جيمس، فيلسوف هارفرد بعث بنسخة إلى شقيقة الروائى هنرى فى إنجلترا، الذى أعجب بها بصورة عميقة وأسماها «الكتاب الجنوبى الوحيد المتميز الذى نشر من سنوات عدة».

قد يبدو هذا تلطفًا من قبل هنرى جيمس، لكن كتاب أرواح جماعة السود هو فى الأساس كتاب جنوبى، رغم أن الشمال يحوم فوقه، حرفيًا ومجازيًا، حيث اعتمدت القوة الصناعية على عمل جماعة السود فى حقول القطن. وهنا يكرر النموذج الاستعمارى القديم نفسه، مع تحول الجنوب لأرض أسيرة ومستغلة، وفى إطار هذا النموذج، أصبحت جماعة السود فلاحين، ومزارعين مستأجرين، وعمالًا بالأجر، عبيدًا فى كل شىء عدا الاسم. ويدرج دوبوا، بحدة ذهنه، أفريقيا فى النموذج الأكبر، مدركًا أن جماعة السود التى يكتب عنها كانوا عمليًا قرويين أفارقة فى ماضيهم الحديث ولاتزال تحركهم دياناتهم الوثنية، وأغانى الأسى» الإيقاعية، وتكويناتهم القبلية. وتظهر أوروبا أيضًا فى هذه المعادلة، باعتبارها محك اختبار لأكثر الأمريكيين ثقافة. والواقع أن دوبوا، كان قد اختبر الثقافة الأوروبية شخصيًا، لذا فإن قلة من قرائه تفهم على نحو جيد مثلما فعل، الرابطة الدقيقة بين أوروبا والولايات المتحدة. والثقافة عند دوبوا هى مباراة، صراع بين جماعات متكافئة، ومجرد حقيقة أنه كان يفكر بمعايير عالمية بطرق ما، تعلى من شأن خطابه. وباعتباره مؤرخًا وعالم اجتماع، كانت لديه

طائفة من المراجع عريضة وعميقة. وبوضعه أفريقيا فى المعادلة، حوّل التجربة السوداء وأعلى شأنها وهو يفسرها.

ويمكن للمرء أن ينسى بسهولة أن هذا الكتاب نشر فى 1903، عندما لم يكن قد مرّ زمن طويل على الحرب الأهلية والتعمير لم يكن يوجد الكثير قائمًا فى المنظور التاريخى، وكانت قد بذلت جهود قليلة ثمينة للتوصل إلى فهم حقيقى. وبفحص تاريخ السود المهجرين، والتمعن فى جهود الشمال لمساعدتهم، وبإلقاء نظرة محايدة على التحامل العنصرى فى الجنوب، يكشف دوبوا عن طريقة التفكير الجديدة كلية فى «الوعى المزدوج» و «الستار الحاجب». والواقع أنه يرسخ مقاييس لازلنا نفكر بها فى المسألة العنصرية فى الولايات المتحدة. وقد يمكن إرجاع الإطار إلى هذا المجلد المحورى، بدعوته لمقاومة السود لشتى أشكال الظلم اللصيقة بالمجتمع الأبيض الجنوبى، ووعيه بتأثير التحامل والتفرقة العنصريين.

وقد كتب أحد المعلقين المرموقين وهو شلبى ستيل، مقالًا متسمًا بالتبصر عن العيد المائة لنشر أرواح جماعة السود. ومدخله نموذج لرد الفعل تجاه الكتاب طوال قرن أو أكثر منذ أن ظهر. يقول ستيل، إنه كان «أكثر الكتب التى كتبت عن موضوع الأعراق تنبؤًا» والتى نشرت فى الولايات المتحدة فى أى وقت. وهو يقر مقولة أن مشكلة التقسيم اللونى ستهيمن على القرن العشرين، ويعتبر هذا نبوءة عادلة، مؤكدًا أن كتاب الأرواح «وفر للقرن العشرين أول لقاء له مع احتجاج للسود غير تبريرى». وفى هذا، فإنه يختلف عن كتاب بوكرتى. واشنطن المهادن المعنون «الخروج من العبودية»، حتى على الرغم من أن واشنطن طرح منظورًا مهمًا بالمثل، إن لم يكن أكثر أهمية، حيث إنه دعا لاستقلال السود، بوجهة نظر ضمنية بأن الأمريكيين الأفارقة لايستطيعون أن يعتمدوا على السكان البيض لانتشال أنفسهم من الفقر والاستعباد.

ومع ذلك فإن دوبوا أشعل فتيلًا من الغضب المستعر زاد استعارًا لدى كتاب لاحقين، مثل لانجستون هيوز، ريتشار رايت، جيمس بلدوين، والد ريدج كليفر، ومالكوم اكس. وفكرة الملاءمة التى يربطها المرء بالعم توم، أو ببوكرتى. واشنطن، اكتسحها ازدراء ضار.

إن ما فعله دوبوا هو أنه أوضح الإطار غير الأخلاقى للتعمير، حيث كانت القوانين وكذلك الافتراضات الثقافية المهيمنة على غرار أنه لايمكن لاسود أو امرأة سوداء أن يأمل فى مسح الخط اللونى أو التحرك خارج الستار الحاجب. كان على مجتمع البيض، الذى استحوذ على كل دوافع القوة السياسية والاقتصادية، أن يتحمل بعض المسئولية عن بؤس السود، الذى أنتجه البيض فى نهاية المطاف. وكان على جماعة السود أن تعترض على هذه المعاملة، وأن تقدم احتجاجاتها بجرأة، رافضة أن يكون الرد هولا.

وبملاحظة كل ماسبق، فضل ستيل (وهو نفسه كان أسود) طريقه المضى للأمام الذى اقترحه بوكرتى. واشنطن. (ينبغى ملاحظة أن حفنة من المحافظين السود فى السنوات الأخيرة قد وجدت فى مبررات واشنطن ما يعجبها أكثر مما وجدت فى مبررات دوبوا). والمؤكد أنه كان لدى واشنطن حجة قوية عندما طالب بأن يأخذ السود أمورهم بين أيديهم، وأن يعتبروا أنه من الملائم أن يحصل أطفالهم على مستوى معين من التعليم، تعليم يلهم قيم تنظيم المشروعات التى تؤدى فى النهاية إلى حريتهم الاقتصادية. لكن ستيل فى رأيى، مضى لأبعد من ذلك عندما تساءل: «ما السبب فى أن أى أمريكى يعلق علنًا على القضية العنصرية فى 2003 يقع بسهولة فى المنطقة المريحة لاحتجاج دوبوا الذى يعتبر البيض دومًا مسئولين ويعتبر السود دومًا ضحايا؟» ولاأعتقد أن كلمة «دومًا» صحيحة هنا، أو أن هذا التشخيص للمشكلة يدحض الحجة المقدمة بأية طريقة مفيدة.

ووفق رأى ستيل، فإننا «نستمر فى اعتبار القهر مصدر مشاكلنا العنصرية فى حين أنه لم يعد كذلك». أنه يرى المشكلة الراهنة «مشكلة طلوع - الصدمة التى تعرض لها الأشخاص الذين كانوا مضطهدين من قبل عندما طلعوا لأول مرة إلى الحرية الجديدة، والصراع والمسئولية اللذين أعقبا ذلك دومًا». ولكن هل «انتهت» العنصرية بطريقة ما، وهل طلعت «حرية جديدة»؟ إن أى شخص ينظر إلى المدارس المنفصلة على أساس عنصرى فى الولايات المتحدة، حيث لم يتغير الكثير فى نصف قرن، لابد وأن ينظر بتشكك لمثل هذه الادعاءات رغم طلوع شخصية قوية مثل باراك أوباما. أن الشبان السود رجالًا ونساء لم تمنح لهم نفس فرص البدء مبكرًا مثل نظرائهم البيض، ومن ثم لايستطيعون العثور على وظائف

جيدة بنفس السهولة. إن ميراث العبودية لايزال ثقيلًا، ولايزال يقع على كاهل السود. ومجرد حقيقة أن نزلاء السجون لدينا سود فى غالبيتهم، توضح، بالنسبة لى، بأن هناك شيئًا ما خاطئ على نحو خطير. ومع ذلك، فإن السؤال الأكبر الذى لايمكن الرد عليه بمثل هذه السهولة هو : هل أمريكا البيضاء مسئولة عن معاناة السود؟ إن الإجابة لابد وأن تقع فى مكان ما فى المنتصف، وفى- نقطة ما - يتعين تقاسم المسئولية، وسيتم ذلك.

وينبغى مرة أخرى الانتباه إلى أن دوبوا لم يعارض على نحو مطلقًا المبررات التى قدمها بوكرتى. واشنطن وأثنى على جهوده الهرقلية لإيجاد مكان لتعليم السود فى مجتمع البيض فى وجه معارضة ضخمة. وقد أعجب «بإخلاص هدف» واشنطن وحيّاه على «مسعاه الشريف الذى يفعل شيئًا يستحق أن يفعل» (82-83). ويقول : «إن الإشادة واجبة لبراعة هذا الرجل، الذى كان يجد لنفسه سبيلًا بين مثل هذا العدد الكبير من المصالح والآراء المختلفة، وهو ما كان يتعين عليه، ومن ثم فقد حاز إعجاب الجميع بشكل كبير». ومع ذلك، كان يدرك حدود المواءمة. بدا واشنطن جدّ راغب فى مبادلة السلطة السياسية والحقوق المدينة بحرية إنشاء وتعهد نوع من التعليم داخل مجتمع السود، وقبل فكرة إقامة مجتمع أسود منفصل لكنه مساو. ولم يؤمن دوبوا بأى من ذلك، رافضًا السماح بقبول أى شىء سوى المساواة، بمفهومها الكامل. كان يود مسح خط اللون الفاصل مرة واحدة وللأبد.

هاجم ستيل فكرة «الوعى المزدوج»، فكرة رؤية المرء لنفسه من خلال عيون الآخرين، باعتبارها «ليست حقيقة بقدر ماهى اعتراض، وأنها فكرة وضعت لاستهلاك البيض». ومع ذلك من يستطيع أن ينسى ما فعله رالف اليون برؤية دوبوا الثاقبة هذه فى المقدمة اللافحة لكتاب «الرجل الخفى؟» فقد كتب يقول «أنا خفى ببساطة لأن الناس يرفضون رؤيتى مثل الرؤس التى لاجسد لها التى تراها أحيانًا فى الاستعراضات الجانبية فى السيرك، إن الأمر كما لو أنى محاط بمرايا من الزجاج الصلب الذى يشوه الأشكال. فعندما يقتربون منى لايرون سوى المحيط الذى يلفنى، أنفسهم، أو أشياء اختلقها خيالهم- الحقيقة كل شىء وأى شىء فيما عداى»، وكان دوبوا قد تصور اليسون سلفًا فى كتاب غسق الفجر، وهو مذكراته، عندما يذكر أنه حاول وهو فى هارفرد أن «ينسى بقدر ما يستطيع ذلك العالم الخارجى، الأبيض»،

رغم أنه ثبت أن هذا مستحيل، حيث إنه (لمجرد قوة اللون) «كان يجذب الانتباه وأحيانًا مايشبه الإهانة».

و من المهم أن نقول بجرأة أن الأمور قد تغيرت للأفضل. لقد تغيرت فعلًا. ومع ذلك فإن الخط العنصرى الفاصل فى الولايات المتحدة لم يختف، وإن كان قد بهت. فالسود والبيض يختلطون فى الأماكن العامة، حيث لم يكن مثل هذا الاختلاط ليحدث مطلقًا فى زمن دوبوا. لقد عززت حركة الحقوق المدينة - وهى ثمرة من ثمار كثيرة لكتاب أرواح جماعة السود- مركز السود الأمريكيين على نحو لا يمكن قياسه. فقد أصبح من غير القانونى حاليًا التمييز فى أماكن العمل، فى المدارس، أو فى أى مكان على الساحة العامة على أساس الجنس. لكن العنصرية لم تمت، ولايزال دوبوا يدعونا، نحن القراء من كل الخلفيات العنصرية، لفهم عنف التحامل وإقرار المساواة للجميع. ذلك هو الوعد الأمريكى، ولن نتخلى عن تحقيقه على أكمل وجه.

THE PROMISED LAND

BY MARY ANTIN

WITH ILLUSTRATIONS
FROM PHOTOGRAPHS



BOSTON AND NEW YORK
HOUGHTON MIFFLIN COMPANY
The Riverside Press Cambridge
1912

9

أرض الميعاد

1

إن الجميع فى الولايات المتحدة، فيما عدا الأمريكيين الأصليين، مهاجرون أو أولاد مهاجرين. فقد ازدهرت طائفة عريضة من المستوطنين الأوروبيين - الإنجليز والهولنديون والأيرلنديون والألمان والفرنسيون والأسبان أو فشلوا على أرض أمريكا الشمالية منذ أربعة قرون خلت، لكن كل منهم قام برحلة طويلة من العالم القديم إلى العالم جديد نادرًا ما كان يمكن تخيله. لقد وفدوا لتشكيلة متنوعة من الأسباب، وإن جاءوا عادة للبحث عن حياة أفضل من تلك التى خلفوها وراءهم. ولاغرو أن ذاكرة المهاجرين كانت دومًا سمة محورية فى الأدب الأمريكى والواقع أن كتاب «من مزرعة بلايموث» يمكن أن يعتبر نموذجًا أوليًا لهذا الضرب، مع اعتبار رحلة ماى فلور واحدة من عمليات عبور لاتعد كانت مملوءة بالأمل، مع وفود ركاب كثيرين جاءوا بحثًا عن الحرية الدينية. والمؤكد أن كتاب مارى آنتين عن أرض الميعاد (1912) يحتل مرتبة عالية بين هذه المذكرات.

إذ يقدم كتاب مارى آنتين نموذجًا متواضعًا، نموذجًا كان قد بدأ عادة منذ أمد بعيد، فى البلد القديم، حيث كانت ظروف المعيشة شاقة، بل ومستحيلة. وفى خضم الفقر والقهر، تعرف الكاتبة بوجود مكان ناء عبر البحر، أرض الميعاد المملوءة لبنًا وعسلًا، حيث الشوارع مرصوفة بالذهب، وحيث تكمن ثروة لاتعد ولاتحصى فى متناول الجميع بسهولة، وحيث لايوجد التحرر من القهر فحسب، بل كان نظام الطبقات نفسه قد اهترأ أو تفكك. كان المهاجر المملوء أملًا يعبر المحيط فى الأماكن الأقل أجرًا فى السفن. كان عبورًا صعبًا، ومات كثيرون أثناء الطريق. ومما جعل الأمور أسوأ، أن المهاجرين الذين رسوا فى العالم

الجديد لم يجدوا سوى أن العجائب والثروات كانت أمرًا مبالغًا فيها. وترتب على ذلك صراع، واستغرق الأمر سنين طويلة قبل التغلب على العقبات الصعبة (الفقر والتحامل والجهل). وفى النهاية، بقيت صاحبة الذكريات على قيد الحياة، بل وازدهرت أحوالها. وحدث الاستيعاب.

يقول ويرنر سولور الذى أعد أرض الميعاد مؤخرًا للنشر أن كتاب آنتين أنشأ حقًا ذلك الضرب من السيرة الذاتية للمهاجرين. وكما يذكر سولور فقد كان من أحسن الكتب مبيعًا على النطاق القومى «لقد كان أكثر سيرة ذاتية للمهاجرين شعبية فى وقته»، و ألهم جيلًا من الأمريكيين كان قد شُكّ حديثًا، ورأى فى قصة آنتين نسخة من قصته. فقد ظهر الكتاب خلال ما سمى بالهجرة الكبرى والتى امتدت من العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر حتى بدايات الحرب العالمية الأولى. ومثلما صاغ روجر دانيلز الأمر «فقد كان المهاجرون الجدد، وهم أشخاص من جنوبى أوروبا وشرقيها جاءوا بعد العقد التاسع من القرن التاسع عشر، من أصول اثنية وأعراق مختلفة للغاية (استخدم كثيرون من كُتاب أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مصطلح عناصر أو أجناس) تتحدث لغات غريبة وتعبد آلهة غريبة - أى أنهم لم يكونوا بروتستانت». كان هؤلاء المهاجرون، الفقراء وغير المهرة عادة، فى معظمهم من اليهود والكاثوليك من شرقى أوروبا وروسيا، من إيطاليا، واليونان، وآيرلندا.

وتعكس أرض الميعاد صورة ذلك العصر الهائج من الهجرة، عندما اكتظت مدن العشوائيات بالوافدين الجدد الذين لم يكن كثيرون منهم ينطقون كلمة واحدة بالإنجليزية. وتبرز مذكرات آنتين المثيرة للعواطف كوثيقة إثبات رئيسية (ونادرة) عمل بلغ من قوة البيان حد أنه يساعد فى تفسير عصر لنفسه ولمن جاءوا لاحقًا. كان ما غيّره الكتاب هو المواقف الأمريكية إزاء هذه الموجة المتقاتلة من الوافدين الجدد. كذلك ساعدت مذكراتها فى إثبات أن الولايات المتحدة هى أرض الميعاد، مكان يقصده الناس (مخاطرين بكل شىء) بأمل كبير حيث يمكن العثور على فرص اقتصادية وتعليمية بطرق لم تكن متخيلة من قبل. ولا يمكن الشك فى أن هذه الرؤية لأرض الميعاد قد استمرت، حيث واصلت الملايين القدوم إلى حدونا كل سنة، بشكل قانونى وغير قانونى. جاءوا بنفس الآمال والمخاوف التى تفعم مذكرات آنتين بالحيوية.

2

كانت مارى آنتين (1881 - 1949) نموذجًا للموجة الجديدة من المهاجرين، الوافدين من منطقة سياج المستوطنات، التى تقع على الحدود الغربية لروسيا حيث عاش اليهود فى مجتمعات مترابطة بصورة وثيقة، فى ظل تهديد دائم من السلطات الإمبريالية للقيصر. (تقدم رواية فيدلر على السطح، المأخوذة بتصرف من مجموعة من قصص ساحرة بلغة اليديش(*) كتبها شولوم اليتشم، صورة مشهورة لهذا العالم).

جاءت إلى بوسطن على ظهر السفينة بولينيزيا، وهى مركب طولها ثلاثمائة قدم كانت تحمل ما يربو على تسعمائة مهاجر فى قمرات الدرجة الثالثة، فى 1894. واستقرت الأسرة فى إحدى العشوائيات الحضرية، حيث تعرضت آنتين للسحجات المميزة للفقر. وسرعان ماتحولت، كما كان يحدث عادة، من لغة اليديش إلى اللغة الإنجليزية واستطاعت التفاهم على أمور الحياة فى العالم الجديد على نحو جيد بصورة مرموقة بفعل تشكيلة من الأسباب: أساسًا لأنها كانت ذكية جدًا، وكان أبواها يدفعانها للمضى قدمًا للأمام. كانت آنتين تؤمن بفضائل الاستيعاب، ورفعت هذا العلم بفخار (وإن كانت مؤخرًا قد توصلت إلى أن موقفها وهى أصغر سنًا كان ساذجًا، وحتى عاطفيًا). وظل كتاب آنتين البليغ محط مناقشات حول مايسمى بوتقة الانصهار وهى المثال الأعلى للمجتمع الأمريكى. وهو تعبير مستمد من مسرحية شعبية فى 1908 لإسرائيل زانجويل، أحد معلمى آنتين وناصحيها.

لم تكن سنواتها الأولى فى بوسطن مدعاة للسرور بصفة خاصة، حيث عاشت أسرتها فى شقة باردة وحارة مظلمة. لكن كان أداء آنتين نفسها مرموقًا فى ظل هذه الظروف، فنشرت أشعارًا وقصصًا حتى وهى فتاة صغيرة. فبعد وصولها بقليل، كتبت خطابًا طويلًا بلغة اليديش لعمها، تضمنّ تقريرًا عن رحلتها من بولوتسك إلى بوسطن. وبعد ذلك ترجمت هذه الوثيقة إلى الإنجليزية، وتم نشرها (مع تهجئة مختلفة لاسم القرية الروسية فى العنوان) باسم من بولتزك إلى بوسطن فى 1899، بمقدمة ترحيب حار لإسرائيل زانجويل، وكان حينذاك

* لغة يهود شرق أوروبا - المترجم.

شخصية يهودية بارزة وكاتبًا مشهورًا. والتحقت آنتين بمدرسة بوسطن اللاتينية للبنات، رغم أنها لم تتم دراستها مطلقًا، وحضرت بعض الدورات الجامعية لاحقًا. وفى 1901 تزوجت بعالم مشهور بأشكال الحياة فى العصور الجيولوجية السالفة، هو أماديوس ويليام جرابو (1870 – 1946)، الذى التقته فى بوسطن، فى اجتماعات نادى التاريخ الطبيعى، حيث التقت أيضًا بكثير من مسانديها الأول. وقد صعد جرابو لمنزلة بارزة فى هذا الميدان، متوليًا منصبًا رئيسيًا فى جامعة كولومبيا. وانتقل الزوجان إلى ضواحى نيويورك، حيث أنجبا ابنة فى 1907. وازدهرت مسيرة آنتين المهنية باعتبارها كاتبة.

وتطورت أرض الميعاد من خطاب كتبته لعمها ونشر عندما كانت فى الثامنة عشرة من عمرها فحسب. وقد تذكرت آنتين لاحقًا بعد بضع سنوات: «لم يكن لدى أى خطط عندما بدأت. وفى أحد الأيام وجدت نفسى أفكر فى الوقت الذى كنت أذهب فيه إلى المدرسة فى بولوتزك، وكتبت عن ذلك. وفى يوم آخر ظللت أفكر فى البنات الصغيرات اللاتى اعتدت اللعب معهن، وكتبت عنهن. ثم كان السوق هو الذى انتابنى التفكير فيه، أو مياه نهر ديفينا التى كانت تقرقر فى أذنى طوال الليل، أو قصة المرأة التى اعتادت أن تحكى الحكايات وهى تجمع الريش فى أمسيات الشتاء والتى وردت لذهنى. كتبت هذه الأشياء فور أن راودتنى، ومن ثم نما كتاب. وعندما جاء وقت جمع هذه الأجزاء معًا، وجدت أنها متلائمة جيدًا بصورة مدهشة، فى ضوء أصلها الذى جاء اتفاقًا. وبعد إعادة ترتيب قليلة للصفحات المفككة، وكتابة جملة استهلالية هنا، وربط جملة هناك، أصبحت القصة فى فصول تسمى نفسها. لم أكن مطلقًا أعرف ما كنت أوشك على القيام به إلى أن تحقق».

ورغم أنه كان هناك جانب من الأخطاء الساذجة فى هذا التقرير، فإنه يبدو رغم ذلك قابلًا للتصديق، خاصة عندما يدرك المرء أن آنتين لم تكتب مطلقًا كتابًا آخر سوى هم الذين يطرقون بواباتنا (1914)، وهو تأمل فى الهجرة ظهر بعد وقت قصير من أرض الميعاد، والذى أشارت المؤلفة إليه على نحو ساخر فى سنوات لاحقة باعتباره «الطارقون»، واصفة الكتاب بأنه «مزيج غريب من السذاجة ومن القصيدة الملحمية». وبعد هذه التتمة، لم تصدر بالكاد كلمة من قلمها فى الثلاثة عقود التالية. ربما كان لدى آنتين قصة واحدة لترويها، هى قصتها،

وكانت تلح عليها بقوة بحيث استهلكتها. وما أن تجسدت فى شكل مطبوع، حتى كان الباقى هو الصمت.

وقد حققت أرض الميعاد شهرة هائلة وكذلك حقوقًا ضخمة للمؤلف، ومع ذلك فلم تكن حياة آنتين هنية فى السنوات اللاحقة. فقد هجرها زوجها هى وابنتها، وذهب إلى الصين، حيث قام بالتدريس فى جامعة هناك بضعة عقود. لم يكن الزواج نفسه مستقرًا بصفة خاصة مطلقًا. وقد طرحت أسباب عدة لعدم الاستقرار هذا، ولكن من المؤكد أن مواقف زوجها الموالية لموقف الألمان، فى الحرب العالمية الأولى سبب لها الكرب. ومن الواضح أن حياة آنتين قد تحطمت فى العشرينيات حيث كانت تصارع لتربية ابنها بمفردها وتسعى لتدبير أمورها فى حدود إمكانياتها. وماتت فى 1949، وكانت لاتزال تعيش على حقوق تأليف أرض الميعاد، الذى كان قد أصبح نصًا كلاسيكيًا بحلول ذلك الوقت.

3

إن كل شيء يكمن في الجملة الأولى: «لقد ولدت، وعشت، وتجددت» (1). وتشرح آنتين في مقدمتها أنها أصبحت شخصًا جديدًا وتتذكر بالكاد الشخصية التى كانت تعيش في سياج المستوطنات بين يهود متدينين. والجانب الدينى في هذا واضح من الفقرة الثانية، حيث تتأمل ميلادها الجديد: «لم يكن مولدى الثانى أقل من مولد حقيقى لأنه لم يكن هناك تجسد متميز». وفى كل الأحوال، فإن اللغة هنا مسيحية على نحو واضح بصورة مغالى فيها تقريبًا: لقد ولدت من جديد، ولكن بطريقة علمانية «أن كل عمليات اجتثاث الجذور، والنقل، وإعادة الغرس، والتأقلم والتطور وقعت فى روحى أنا»، كما كتبت مستخدمة استعارة عضوية، وهى أن النبات أخذ من التربة، وغرس فى مكان آخر، وتم تعهده، وإعطائه حياة جديدة فى ظروف جديدة (3). إن آنتين من شعراء الطبيعة، وتستخدم الاستعارات بشكل مكثف، فعلى سبيل المثال تتردد استعارات عن الميلاد من جديد، بل والبعث طوال الفصل.

والفصل الأول يسمى «داخل السياج»، ويبدو أن آنتين كانت تستمتع بالجذور اللغوية لكلمة سياج والتى ترتبط بكلمات إنجليزية مثل «التسييج» و «المُسيّج» و «السياجى». والسياج هو سور أبيض من الأوتاد يلتف حول ملكية ما، وبذلك يتم تمييزها. وكان ما يسمى سياج المستوطنات مكانًا عاش فيه اليهود، لايختلطون بغيرهم، ومعزولين بالكامل عن الروس. كتبت آنتين تقول : «كانت روسيا مكانًا يذهب فيه والد المرء للعمل»، فذلك ما توارد لذهن الفتاة الصغيرة التى كانتها (5). وهى تصف بطريقة آسرة مغامرة للسفر بعيدًا عن القرية، عندما ذهبت إلى فتبسك مع ابن عمها: كان ذلك أحد النزهات (والامتدادات) الكثيرة فى حياتها. لم تكن رحلة طويلة بالقطار: لكن كانت مكانًا جديد كلية عرفته، بداية لاستئصال جذورها. ومع ذلك فهناك استمرارية أيضًا، حيث إن نفس النهر الذى يمر بفتبسك كان يتدفق مارًا ببولو تسك : نهر ديفينا. «لقد شاهدت دفينا طوال حياتى كلها. كيف إذن يمكن أن يكون

ديفينا فى فيتبسك؟ » والنهر استعارة لقوة الحياة نفسها، مثلما كتب تى. اس. اليوت فى «الإنقاذ الجاف»- «أن النهر داخلنا، والبحر كله عنا».

ويبدو أن آنتين كانت معزولة فى هذا الفصل الافتتاحى. بالطبع لم تكن من الأمم، الذين يشكلون عنصرًا آخر فى عالم طفولتها. والأمم هم ببساطة غير اليهود: والكلمة اليونانية هى ethnikos، العرق. وبهذا المعنى، فإن الأمم هم أشخاص اثنيون ليسوا من عالم اليهود، وهو النموذج. وقد غاب المعنى العكسى الساخر الذى تطورت إليه الكلمة عن آنتين، التى كانت لها إذنًا مدهشة بالنسبة لتنافر الأصوات، والسخرية، والانفصال. كتبت تقول : «قالت الأمم أننا قتلنا ربهم، وذلك عبث، لأنه لم يكن لهم رب مطلقًا - لاشىء سوى صور» (9). وتنساب الإيماءات التوراتية خلال هذا الفصل، مثلما يحدث عند مقارنة حبس اليهود فى السياج بأسر اليهود فى مصر. وهى تخبرنا أنه «حتى فى بيت أبى لم أشعر بالأمان» (12). وكان عدم اليقين أحد العناصر الأساسية للعيش فى السياج. كانت الحياة محفوفة بالمخاطر، وكانت المذابح تحدث. وكان هناك خطر محتم هو التجنيد فى الجيش الروسى، إذا كنت شابًا.

فإذا كنت ثريًا بما يكفى، كان يمكنك أن تستأجر بديلًا: شخص يقوم بالخدمة العسكرية نيابة عنك. وتتذكر آنتين رجلًا كهذا تسميه ديفيد البديل. وتروى فى فقرة واحدة قصة لها أبعاد توراتية، بإيجاز وقوة الراوى فى العهد القديم. فقد تولى ديفيد القيام بمهمة البديل فى الجيش مقابل النقود وحدها وعاش مثل الأمم وهو يلبس زيًا عسكريًا موحدًا. لكنه كان يعرف أن هذا آثم، «لأنه كان رجلًا ورعًا فى قلبه» (15). وعندما عاد لدياره، كان يمشى مترنحًا فى شوارع البلدة بطريقة من يلتمس التوبة، داعيًا اليهود ليصلوا يوم السبت!

> كان ذلك حينذاك أمرًا يصعب القيام به، لأن دلفيد كان يعمل على نحو يبعث على الإنهاك طوال الأسبوع، معرضًا للطقس، صيفًا وشتاء، وفى صباح أيام السبت لم يكن هناك أحد متعبًا وضعيفًا ومتألمًا مثل ديفيد. ومع ذلك كان يجبر نفسه على أن يغادر فراشه ونور النهار لم يطلع بعد ويمضى من شارع إلى

شارع، عبر بولوتزك كلها، داعيًا الناس للاستيقاظ والذهاب للصلاة. كنت أصحو فى أيام سبت كثيرة وديفيد يدعو الناس، واستلقى مستمعة إلى صوته كما لو كان يموت ويقضى نحبه، وكان من المحزن أن ذلك يوجع، مثلما توجع الموسيقى الجميلة. كنت أشعر بالسرور لأن أختى تستلقى بجوارى، لأن الوحدة تكون شاملة فى الفجر الكابى، ولم يكن سوى ديفيد وسواى مستيقظين، وكان الرب ينتظر صلوات الناس (15).

إن آنتين تحب حكايات مثل هذه: حكايات التفانى والإصرار والشغف، والتصميم، والجائزة الروحية. وتستقر حكاية ديفيد البديل المصغرة فى السرد فى عزلة عن غير ها، رغم أن آنتين الماهرة، تضع نفسها فى الصورة فى النهاية، حيث تستلقى فى السرير وتصغى للدعوة الحزينة لديفيد قائلة أنها «توجع» بنفس الطريقة التى توجع بها الموسيقى الجميلة. ومن الواضح أنها كانت تحب أناسًا مثل ديفيد، الذى يقدم نوعًا من النموذج الروحى، رغم أن إحساسها بالشفقة لم يكن له مطلقًا بعد دينى. لقد أصبحت صوفية بطريقة إيمرسون فى هذه الصفحات: متفانية فى حب الطبيعة، والروح التى تكمن فى الطبيعة.

ومع ذلك، فإن آنتين تدافع عن طائفتها اليهودية بقوة. فقد كتبت تقول: «كانت شكوى مفضلة توجه إلينا هى أننا جشعين نهمين للذهب. لماذا لا تستطيع الأمم أن ترى الحقيقة كلها حيث ترى النصف؟» (23) فقد كان على اليهود أن يدفعوا مقابلًا حتى للتنفس، كما تقول. كان عليهم أن يشتروا الإذن بالسفر لأسباب تتعلق بالأعمال، وأن يدفعوا مئات الروبلات كغرامات لحكومة القيصر إذا أراد أبناؤهم تجنب الخدمة فى الجيش، وما إلى ذلك. كان ثمن أن يكون المرء يهوديًا فى ذلك الوقت كبيرًا. وتكتب آنتين قائلة «أن معرفة أشياء مثل التى أقولها تترك ندوبًا فى اللحم وفى الروح».

وفى الفصل الثانى، تطوّر الصورة التى رسمتها لحياة اليهود فى السياج، فتشرح أنه هناك كان «نظام للطبقات بمستويات اجتماعية لها حدود فاصلة بصورة حادة، وكانت روابط

العشائر هى التى تربط بين الأسر» (32). إنها ترسم صورة كئيبة بصفة عامة للحياة فى العالم القديم، حيث كانت مرونة الطبقات الاجتماعية قليلة. «فابنة صانع الأحذية لا يمكنها أن تأمل فى الزواج من ابن صاحب حانوت». بالطبع كان صانع الأحذية حرفيًا فى حين ينتمى صاحب الحانوت إلى مكان ما فى الطبقة الوسطى. كان التعليم هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن يرفع شأن المرء «ولم يكن لصبى ولد فى الدرك الأسفل أن ييأس من دخول منازل الأغنياء، إذ كان له عقل جيد وشهية كبيرة للتعليم المقدس» (32). كانت الفتيات الذكيات والمتعلمات شيئا آخرا، ورفضت آنتين أن تطيل فى هذه النقطة، ففى العالم الجديد افترضت ببساطة أن عقلها الجيد سيكفل خلاصها، وأنها ستسير بلا خوف لمنازل أهل بوسطن الاغنياء، مطمئنة لمواهبها الفكرية، التى تزودها ببطاقة دعوة.

وتستدعى صور حياة اليهود التقليدية التى رسمتها آنتين أعمال كُتاب آخرين بلغة اليديش، منهم اليتشيم. فلا يمكن للمرء مثلًا أن ينسى بسهولة، وصفها لعرس أبيها: «كان عزف الكمان بهيًا فى عرس أبى، الذى كان حفيدًا لإسرائيل كيمانير النازل من نسل مقدس. رقص كل الرجال الورعين فى بولوتزك طوال الليل، وكانت تتدلى خصلات شعرهم المعلقة أمام آذانهم، وتطير ذيول معاطفهم الطويلة فى ابتهاج غامر ورع» (34). ويتذكر المرء أيضًا الروائى إبراهام كاهان (1860 – 1951)، وكان معاصرًا تمامًا لآنتين، والذى انحدر من أسرة متشبثة بدينها فى ليتوانيا وهاجر إلى الولايات المتحدة فى 1881. وقد ظهرت روايته عن الحياة فى حى اليهود فى نيويورك، والمسماة يكل، فى 1896، ولاقت إعجابًا كبيرًا. ولابد أن هذا الكتاب كان فى ذهن آنتين وهى تكتب. والمؤكد أنها اعتبرت نفسها – بإسلوب كاهان – تقوم بدور الوساطة بين عالم اليهود والأمم الأمريكيين، الذين كانوا عادة يعتبرون المهاجرين اليهود، أشخاصًا غامضين، بل ولا يمكن الاقتراب منهم. وتخبر آنتين قراءها قائلة: «كنت أتغذى على الأحلام، كنت مستنيرة عن طريق النبوءات، ومدربة على أن أسمع وأرى أشياء صوفية لا يمكن للحواس الكلية أن تدركها» (35).

ويشعر المرء عادة بجانب متمرد فى ذكريات آنتين، مثلًا عندما تصف كيف أجبرت أمها على أن تخضع للرجل الذى يعمل كخاطبة. كتبت تقول: «فى كل مرة كان يأتى فيها الرجل

الخاطبة كانت أمى تهرب» (46). وفى النهاية «قبلت أن يتم وزنها وقياسها وأن يحدد لها ثمن فى وجودها، واستسلمت لما كان سيحدث» (47). ويدرك المرء ضمنًا أنه لم يكن مصير كهذا ينتظر مارى آنتين. فهى مخلوق يتسم بالتحدى، تحترم التقاليد اليهودية لكن من المؤكد أنها لم تكن تحترم الشخص الذى يؤمر بما يفعله. استمرت فى أن تكون خالقة لذاتها، كما ينطوى عليها ضمنًا افتخار ها (بل واعتدادها بالنفس) فى الجمل الأخيرة من الفصل الثالث : «منذ أن وقفت على قدمىّ، لم أرض أبدًا بسيد يأمرنى. وفى كل مرة كنت فيها أختار صديقًا كنت أحدد مصيرى من جديد. ويمكننى أن أعتقد أنه لا توجد نازلة لها من القوة ما تستيطع به أن تخرجنى من طريقى. أن النار والفيضان وحسد الرجال يمكن أن يمزق سطح منزلى، لكن روحى ستظل فى مستقرها تحت أشجار الصنوبر الجبلية السامقة التى تقحم رؤوسها فى هباء النجوم. وحتى الحياة، التى يصعب للغاية بلوغها، قد لاتفيدنى سوى كخان على جانب الطريق، إذا اخترت أن أسير للأبد. ورغم أننى جئت إلى هنا، فإن من أكونه شأن خاص بى لو حدى» (49).

وكما هو الحال دومًا، «فإن آنتين تكتب بأسلوب شعرى، تشيد الاستعارات بحرص مدقق، وتجعلها تنمو وتحكم الاتجاه الذى يأخذه المعنى الذى تريده. لاحظ على سبيل المثال. الاستعارات البحرية المحكمة والمسهبة التى تختتم بها الفصل الرابع: «حتى هذه المرحلة كنت أستعير الذكريات من والدى، لإكمال ذكرياتى المفتتة. ولكن من الآن فصاعدًا سأصنع حبكتى الخاصة عبر بحار الذكريات، وإذا تهت فى ضباب عدم اليقين، أو ارتطمت بالأرض على سلسلة صخور شاطئ التكهن، سأظل آمل فى أن أبلغ البّر أخيرًا وأتطلع للوجوه المرحبة على الشاطئ. لأن التاريخ والحقائق سيشكلان بحنان نيران المنارة التى تهتدى بها السفينة التى أبحر بها».

وترد إلى الذهن فورًا وبسهولة صوفية إيمرسون، كما هو الحال فى الفصل الخامس، عندما تسمع غناء فلاح وهو يدفع محراثه «خلال أخاديد طولية سوداء لم يتم بذر الحب فيها بعد» (71). تقول : «إن التناسق فى الألحان هو وحده الذى يؤثر فى، لكن المعنى ينبثق فى قلبى ليتسق معه – أغنية الأرض وآمال الأرض». ويتبع ذلك مقطع يمكن أن يكون إيمرسون

نفسه هو الذى كتبه: «أن شيئًا بداخلى يتلهف على الحياة، لايزال كامنًا هناك. لم أكن سوى جسد صغير، وفجأة تفتح الحياة الكونية الباب علّى بقوة. وللحظة أضع يدى الصغيرة على النبض الكبير».

إن قدرة على الارتفاع لرؤية أكبر هى التى تعلى من شأن هذا العمل، وتجعله كتابًا عن اليقظة الروحية بقدر ما هو كتاب عن الهجرة والاستيعاب. إن المرء يهاجر، لكن الهجرة الميتافيزيقية جزء من الرحلة. تقول آنتين دون أن يرمش لها طرف «تلك حكاية حياة خالدة». وتتساءل : «هل ينبغى لى أن أجلس هنا، أثرثر عن مغامرات طفولتى، أن لم أعرف أننى أتحدث عن الآلاف؟» (72). ولايمكن للمرء إلا أن يفكر فى والت هوايتمان، الذى كتب فى «أغنيتى أنا نفسى» بتحد مرح للأعراف المتفق عليها:

إننى أحتفى بنفسى، وأتمنى لنفسى وما أقوم به تقوم أنت به لأن
كل ذره تنتمى لى تنتمى لك أيضًا.

يمكن للمرأة أن تتخيل مارى آنتين الشابة وهى تقرأ ذلك، مومئة برأسها دليلًا على الموافقة. أنها تعرف، مثلما قال هوايتمان، إنها تحتوى على حشد من الأشياء.

وينبغى ملاحظة أن آنتين كانت محظوظة بوالديها، اللذين أصراَ على أن تتعلم تعليمًا جيدًا. لقد تعلمت العبرية هى وأختها فيتشك، وكذلك شقيقها. تتذكر قائلة : «كان علينا أن ندرس الروسية و الألمانية والحساب» (90). ذلك أن التعليم يوفر مفتاحًا لمغاليق عالم الراشدين. كانت مدرستها الأولى «كوخًا على حافة مستنقع». وكتبت أن نوافذ المدرسة رغم ذلك «لم تكن صغيرة لحد أن تحجب عنى مشهد عالم جديد رحب» (94). وكما هو الحال دومًا، فإنها تكتب مستخدمة الاستعارات، «فالعالم الجديد الرحب» أكثر من مستنقع يقع على مرمى البصر بسهولة.

وتعترف آنتين طواعية بأنها تحب المبالغة، وأنها تضيف تفاصيل تجعل القصة أكثر استساغة، وإثارة للاهتمام، بل وباعثة على الرعدة، مما كانت ستبدو عليه بغير ذلك «الحقيقة

هى أن كل شيء حدث لى يلوح لى كبيرًا حقًا ويتلألأ فخيمًا فى عينى، ولا أستطيع أن اختزل رؤيتى لأشكالها وألوانها الحقيقية. إلابجهد واع. فإن رأيت زوجًا من الأوز يتقدم إلى أوزة أنثى كسولة، أتصور أنهما يأتيان بكل أنواع السلوك الغريب أمام عينى لأن الأوز السمين غير معروف بأنه يطلق العنان لنفسه» (107-108). وهى تحذرنا سلفًا من أن الحقيقة التى تقدمها ربما كانت مزخرفة و مغالى فيها. إذن تقول للمرة الثانية أن مذكراتها تمثل شكلًا من الأدب القصصى الخيالى خاضعًا «للتشكيل» المتضمن فى كلمة خيالى. وهذه المذكرات هى حقًا، أشبه بالشعر منها بأى شيء آخر، مثلما توضح السطور الأخيرة فى الفصل السادس، حيث تبلغ آنتين الذروة بطريقة تذكر بوليام بليك، الشاعر الإنجليزى: «يبدو لى أننى لا أعرف شيئًا واحدًا لم أتعلمه، بصورة مباشرة تقريبًا، من خلال حواس بدنية. فطالما أن لى جسدى، فلست بحاجة لليأس من الخلاص» (109).

لقد بزعت فكرة الهجرة خلال عيد الفصح عند اليهود وما يصحبها من تطلع للخلاص من المنفى. وبدأ والدىّ آنتين يفكران «ألايمكن أن نكون فى أورشليم فى العام القادم»، لكن فى «العام القادم - كانوا فى أمريكا!» فقد كانت هناك أرض الميعاد الخاصة بنا، واتجهت وجوه كثيرة للغرب. وإذا كانت مياه الأطلسى لم تنشق بالنسبة لهم، فإن عصا الأعاجيب فيها التى تفيض بالمعجزت فيها عظيمة مثل أى معجزات صنعتها عصا لموسى». (113) إن مثل هذه النغمة التوافقية التوراتية لاترن هنا فحسب، بل أنها تكتسح النص تقريبًا. وتصبح الرحلة إلى أمريكا بالنسبة لآنتين وأسرتها، رحلة لأرض الميعاد، إلى مكان يمكن فيه لشعب إسرائيل أن يستريح أخيرًا. وتعلن الكاتبة: «كانت هناك رؤية تلهم أبى. فقد رأى شيئًا ما - ووعدنا بشيء ما. وكان هذا الشيء هو «أمريكا»، وأصبحت «أمريكا» حلمى.

والمؤكد أن الحياة فى بولوتزك كانت قد أصبحت كابوسًا: «كيف انحدرنا سريعًا من مقر عظيم، بخدمه وحشمه، ومكان من أفضل الأماكن فى بولوتزيك إلى حجرة واحدة تؤجر بالأسبوع، وصحبة أشد تواضعًا، ورءوس تتحاشانا من الأصدقاء السابقين»! (114). ومن ثم، فإن والد آنتين وقد تعلقت به آمال قلوب الأسرة (وبحزن كبير أيضًا لأنهم خلفوا حياتهم وراءهم) حفر فى الصخر لجمع الأموال (وكان قد وصل بالفعل لأمريكا لإعداد الطريق)

اللازمة لنقل زوجته وأطفاله إلى أمريكا. وكتبت آنتين وهى نشوانه : «إذن أخيرًا سأذهب إلى أمريكا. حقًا، حقًا سأذهب أخيرًا» (129).

ويسمى الفصل العاشر «الخروج» أن غاب على أى قارئ النغمة التوراتية للقصة حتى الآن. وقد وثقت المراهقة الشابة العبور نفسه بالكامل فى رسالة بعثت بها إلى عمها بلغة اليديش تمت ترجمتها ونشرها، وهى تنقل عن نفسها هنا بما يحدث أثرًا طيبًا: فى صباح رطب كئيب فى أوائل أبريل اتجهنا للحدود» (134). ويبدو تعبير «الصباح الرطب الكئيب» ملائمًا، بل وربما حتى صادقًا. لأنه لو كان يومًا مشرقًا مشمسًا، فلا أعتقد أن آنتين كانت ستجعله «صباحًا رطبًا كئيبًا»، مثلما تبدأ كل الرحلات الأسطورية فى ظل غمامة من الضباب، سديمًا من التوقع والقلق. كانت حقًا رحلة تبعث على القلق: «كانت محنة المهاجر المرتبك فى طريقه إلى بلاد أجنبية تدعو للرثاء دومًا، ولكن بالنسبة لنا كان رعب الطريق من روسيا الزاخرة بالبلايا مزدوجًا» (138). وشقت الأسرة طريقها إلى هامبورج فى ألمانيا، حتى يستقلوا سفينة فى رحلة طويلة لأمريكا.

واستغرق العبور ستة عشر يومًا، وسبب الرعب لمارى «حيث كانت السفينة تغوص وتطفو وتدور حتى يسقطون من مضاجعهم». وتتذكر أنه «مرت أيام وليالى كنا ندبّ فيها من خلال ضباب كثيف. وكان بوق الإنذار من الضباب يدوى للرد على تحذيرات من سفن غير مرئية». ومع ذلك، فإن مهالك البحر «لم تتضاءل فى مخيلتنا نحن المسافرين عديمى الخبرة» (141). كانت هناك أوقات طيبة أيضًا. بضوء الشمس الهارب، والطيور على قمة الموجات المتوجة بعرف، وحفلات الموسيقى والرقص والطرب. وكما ينبغى، انتهت الرحلة فى «صباح يوم مجيد من شهر مايو» عندما رأت عيوننا «أرض الميعاد» بكامل جلالها فجأة (142). وسقطت سعيدة بين ذراعى ابيها الذى كان ينتظرهم.

وتصوغ آنتين الأسطورة بحرص، بحيث تصبح نوعًا من القالب لكل المهاجرين: البؤس فى الوطن، الذى يستلزم الفقر والمرض، وعسف القانون. وتختلط معاناة الهجرة بالأمل. وتبدأ الرحلة نفسها فى يوم رطب بارد، وتنتهى فى ضوء الشمس المشرقة بجلال. وتنير هذه

الدعائم الرمزية الحكاية. وأخيرًا، تحصل أسرة آنتين على بيت جديد، فى بوسطن. ويسمى هذا الفصل «أرض الميعاد»، وقد تحقق الميعاد بالكامل، وأن لم يكن بدون انتكاسات فى الحظ، ونوبات من الألم، والخطوات الخاطئة، ومنعطفات كثيرة على الطريق المالى، وكانت كلها تهدد بتحويل الحلم الأمريكى إلى كابوس.

وكانت آنتين متأهبة لعملية التمثل : «أن أشد المهاجرين جهلًا، يشرع عند رسوه فى تقديم التهانى. وتلقيها، وفى الأكل والنوم و الاستيقاظ، حسب الأساليب المتبعة فى بلده الأصلى، وفى هذا يتم التصحيح له، ولومه، والسخرية منه، سواء من قبل أصدقاء مهتمين بأمره أو من قبل أشد الغرباء لامبالاة، وهكذا تبدأ تجربته الأمريكية. أن العملية تلقائية فى كل جوانبها، مثل تعليم الطفل الذى تقوم به دائرة أسرته» (142). وكانت الحصافة والحكمة لهما معوّل كبير وآنتين تشق طريقها للأمام. وجاء جزء من الرزانة فى الرؤية من إحساس لايهتز بجدارتها. كانت توبخ كل من يدعو المهاجر لأن يفكر ثانية فى موقفه، وتذكرّ بأن «للغريب الملوث بالشحم فى الشارع» ميراث قديم، وأنه «ولد قبل آلاف السنين من مولد أكبر أمريكى من أهل البلاد، وأنه ربما كان لديه شىء يعلمه لك، عندما تتعلمان أنتما الاثنان لغة مشتركة» (144-145). واستطاعت آنتين أن تبقى على منظور عالمى، مؤمنة: بأن أى أحد يعترضها سيندم ذات يوم. (وفى هذا يسمع المرء نغمة تحد، بل تهديد تقريبًا).

انتقلت عشيرة آنتين إلى أقذر عشوائيات بوسطن، حيث يتجمع فقراء المهاجرين: «شكلهم شعث، تنقصهم النظافة، وكادحين». وكانت هذه الجماعة الملطخة بالوحل «تثير الرثاء فى أعين المبشرين، واليأس لدى مجالس الرعاية الصحية، والأمل لدى السياسيين الساعين لفرض الوصاية، وكانت محك اختبار للديمقراطية الأمريكية» (145). وهذه الملاحظة الأخيرة جعلت كتاب. أرض الميعاد كتابًا مثيرًا للجدل فى أيامه، حيث لم يكن الجميع يتفقون مع مارى آنتين على أن جحافل المهاجرين الذين لايتحدثون الإنجليزية الوافدين من شرقى أوروبا وجنوبيها الذين سيحتشدون فى العشوائيات كانوا «محك اختبار للديمقراطية الأمريكية». واشتكى أستاذ متكبر من هارفرد، هو باريت ويندل، من أن آنتين «قد استحدثت عادة مثيرة للغيظ هى وصف نفسها وقومها باعتبارهم أمريكيين، متميزين

عن أقوام مثل اديث (زوجة ويندل) ومثلى، الذين كنا هنا من ثلاثمائة سنة». واستمرت الانتقادات وفق هذا المسار فى العقد الذى تلا نشر كتاب آنتين، وكانت قراءة كثير منها شيئًا مقيتًا: «أن الأمريكيين الحقيقيين - المتحدثين بالإنجليزية الذين جاءوا على ظهر السفينة ماى فلور أو خلال المائة سنة التالية أو ما إلى ذلك لا يمكن أن يعتقدوا أن يهودية روسية محدثة نغمة تجرؤ على الادعاء بأن الآباء المهاجرين كانوا أسلافها».

وقبلت آنتين بسهولة، بل وبفهم سخاء الديمقراطية الأمريكية، التى انطوت على الحصول على الحريات العامة والمدارس العامة.إن وصفها لكيف يبدو شعور من يلتحق بالمدارس الأمريكية يقفز من الصفحات، وتكتب بطاقة مماثلة عن تخلصها من الغربة. فعلى سبيل المثال تم تغيير اسمها واسم شقيقتها وشقيقها : «كان اسمى العبرى هو مارياش بالكامل، ومشاكى مختصرًا، وتم جعله روسيًا بتحويله إلى ماريا، وقالت صديقتى أنه سيكون له صدى طيب بالإنجليزية إن أصبح مارى» (149 - 150). وفيما بين السكان المهاجرين ذبلت الأسماء الأولى والأخيرة أو تقلصت، وتغيرت بطريقة فضفاضة حسب العرق، مثلما حدث عندما أصبح المغنى الأمريكى الإيطالى، أنطونى بندتو، طونى بينت - وهو تحول نموذجى فى صالح الأمركة. وببطء، ببطء شديد، صعد حظ أسرة آنتين، فقد ازدهرت آنتين نفسها وحققت نجاحًا فى نظام التعليم العام، فحصلت على درجات جيدة فى دروسها وعلى رضا مدرسيها. كانت تواقة دومًا لدعم مصلحتها الخاصة وأقامت صداقات مع أولاد الأسر «الميسورة». وتبدو فى شخصيتها الروائية، فى أرض الميعاد، باعتبارها مارى آنتين المبتهجة مهما حدث لها. والأمر الأكثر أهمية، أنها وقعت فى غرام اللغة الإنجليزية. «بدا لى أن السعادة ليست حلوة بهذا الشكل فى أى لغة أخرى، فالمنطق فيها ليس بهذا الوضوح». وبدأت تقرأ الشعر الإنجليزى، وكان لهذا صداه بالنسبة لها. «أستطيع تقريبًا القول بأن إيمانى بالخلود مرتبط بالإنجليزية فيما تعد به. وأنا متمسكة. بتحاملى، إذ يتعين على أن أحب اللغة الإنجليزية» (164).

ومثل هذا الحماس الذى لايهن كان يسرّ القراء المعاصرين لها، رغم أنه يبدو غريبًا حاليًا، خاصة فى وقت يحاج فيه كثيرون فى معسكر تعدد الثقافات بأن الإنجليزية نفسها يجب ألا

تكون شرطًا للمواطنة، وأن المدارس يجب أن تنشيء فصولًا للأسبانية مثل الإنجليزية. ومن ثم، فإن أسئلة كثيرة تحوم حول هذا الموضوع : إلى أى مدى ينبغي لنا إجبار المهاجرين على تعلم الإنجليزية؟ هل نستطيع أن نعيش، كأمة واحدة، بتشكيلة من الألسنة وبعادات ثقافية أو تقاليد مختلفة؟ ماذا عن مسألة الكلمات المركبة هذه، والتى تعنى ضمنًا ولاء مزدوجًا؟ هل يمكن للمرء أن يكون مكسيكيًا أو كوبيًا أو صينيًا أو فيتناميًا، وأمريكيًا فى نفس الوقت؟ بالطبع إن اناسًا كثيرين استطاعوا الموازنة بين ولاءاتهم. فقد احتفظت أسر أمريكية راسخة بانتمائها إلى إيطاليا، وأيرلندا، وبولندا، وعدد جد كبير من البلدان الأخرى. لقد حظت بحق أداء العبادات (أو عدم أدائها) كما رأته مناسبًا. وطهت أطعمتها الخاصة بعرقها. لكن هذا لم يمنعها مطلقًا من أن تنخرط بالكامل فى النظام الأمريكى. وباسترجاع الماضى، فإن حماس مارى آنتين مثير للمشاعر لكنه فى غير موضعه - وهو أمر اعترفت به لاحقًا، عندما تحولت إلى العداء لسماتها الوطنية الخاصة.

المؤكد أن آنتين نفسها كانت تتقن الإنجليزية. ومذكراتها، الجملة تلو الجملة، تتسم بالبلاغة إن لم يكن بالشاعرية. ومثل جوزيف كونراد وفلاديمير نوبوكوف، حققت على نحو ما الانتقال إلى الإنجليزية، وكتبت بصورة مبدعة بلغة لم تكن لغتها الأصلية. كيف أنجزت ذلك بالضبط؟ تتذكر قائلة: «إن إتقان لغة بهذه الطريقة، كلمة فكلمة، له سحر يمكن أن يقضى على المثالب، أنه يشبه جمع باقة زهرة بعد أخرى» (166). ويمكن أن يشم المرء رائحة الزهور فى نثرها وهى تتذوق كل كلمة وكل جملة.

وأحدثت المدارس العامة سحرها، فعرفتها (هى وملايين المهاجرين مثلها) على الأساطير والتقاليد الأمريكية. ليس مهما أن جورج واشنطن لم يقطع مطلقًا شجرة كرز، أو أن ما كتب فى كتب التاريخ للأطفال قد تفادى عرض الحقائق الفظة مثل تدمير حضارة الأمريكيين أبناء البلد، ووحشية العبودية، والموجة الأمبريالية العارمة التى استحوذت على قادتنا. وعلى أية حال، فإن مارى الفتية لم تكن تريد أن تسمع هذا النوع من الأمور. وقد كتبت فى بداية الفصل الحادى عشر المعنون «بلادى» تقول: «لقد بذلت المدارس العامة قصارى جهدها من أجلنا نحن الأجانب، ومن أجل البلاد، عندما جعلت منا أمريكيين صالحين» (175)

لقد حولها النظام التعليمى إلى وطنية متحمسة، وإن كانت ساذجة، وربما كان هذا أمرًا طيبًا، هو أيضًا. فقد كانت هذه بالنسبة للمهاجر الخام، مرحلة ضرورية فى عملية استيعابه. و كان هناك الكثير مما يستحق الإعجاب، بل والحب: المدارس والمكتبات العامة، والإحساس العام بالتحرك للأمام والمرونة الاجتماعية. وعودة لروسيا، كان أصدقاؤها اليهود وأسرتها اليهودية معزولين داخل المجتمع الأكبر، بصورة حرفية تمامًا، كانوا محاطين بحجاب عازل، مجبرين على العيش فى سياج المستوطنات، أما فى الولايات المتحدة فكانت آنتين تنتمى للمجتمع بأسره.

وأصبح جورج واشنطن بطلها، وكتبت قصيدة فى الثناء عليه. وتخبرنا مطولًا عن كيف جابت بهذه القصيدة على صحف شتى فى بوسطن، مستمتعة باهتمام المحررين الشبان الأكبر سنا، الذين نظروا إليها بتعاطف. وحصلت عمليًا على موافقة صحيفة الهيرالد على نشر القصيدة. تتذكر قائلة: «عندما وصلت الصحيفة وفيها قصيدتى، انكب عليها البيت كله فورًا» (187). وخرج أبوها الفخور بها ليشترى كل النسخ التى استطاع العثور عليها. فبالمعنى الحقيقى، فإن هذه القصيدة أعلنت وصول أسرته للعالم الجديد. وكان النشر نفسه إشارة مسبقة لمسيرة مارى آنتين.

لكن أصابع الإعجاب لم تشر دومًا إلى طريقها. ففى المدرسة مثلما تشرح فى الفصل الثانى عشر، اعترفت بصفاقة للبنات الأخريات بأنها لاتؤمن بالله. وأثار هذا الغضب والصدمة بين زملاء فصلها الأتقياء، وكانوا خليطًا من البروتستانت والكاثوليك. فقد سألتها إحداهن: «هل تؤمنين بالله؟» فردت ببساطة طفولية: بالنفى فسألتها زميلتها «إذن من خلقك يا مارى آنتين فأجابت «الطبيعة خلقتنى» (191). لايهم إن كانت مثل هذه الإجابة تثير السؤال عمن خلق الطبيعة، فقد كانت مارى آنتين بذلك خارجة عن السرب وجرت ملاحقة ضارية للفكر الحر. وتضمن هذا انتماءها للحركة النسوية، مثلما كانت عليه فى تلك الأيام قبل أن تستطيع المرأة حتى الانتخاب. كان أبوها كما تقول مشغول البال بشأن أمور شتى، «لكن خط تفكيره لم يكن قد جعله يدرج المرأة بعد فى التحرر الفكرى الذى كان هو نفسه تواقا إليه حتى فى روسيا». ولم يكن يتخيل حتى وقت قريب، أن امرأة تستطيع أن تكتب كتابًا.

ومع ذلك فإنه «كان دومًا لا يلتزم بالإعراف فى قلبه»، وكان نزاعًا للشك. كان عازفًا عن الالتزام الدينى، وإن تسامح مع رغبة زوجته فى التمسك بالعقيدة اليهودية: «لم يحرم على وجه التأكيد إجلال الله بحب جارها، وهو الأمر الذى لم يكن بعيدًا عن جوهر اليهودية» (194).

وتنهى المؤلفة هذا الفصل، الذى يتبدى فيه تشككها الدينى بجلاء، مع مزيدمن الثناء على النفس الخالدة. «إننى وريثة عهود، وكل ذلك موجود بداخلى، وسأستمر فى أن أكون فى نفسى الخالدة» (197). وهنا ثانية، فإنها تردد صدى رالف والدو إيمرسون، الذى قال فى كتابه عن الطبيعة : «فى الغابات، نعود للعقل وللإيمان. فهناك أشعر بأن لاشىء يستطيع أن يصيبنى فى الحياة - لا خزى، لا نكبة.» وأضاف ببلاغة تأخذ بالألباب مميزة له فى أحسن أحواله «واقفًا على الأرض الجرداء - ورأسى مغمورة فى الهواء البهيج مرفوعة لأعلى فى فضاء لاينتهى - حيث تختفى كل الأنانية الوضيعة. أصبح مُقلة عين شفافة، أنا لاشىء، أرى كل شىء، كل تيارات الكون تدور من خلالى، إننى جزء لايتجزأ من الله».

وقد آمنت آنتين من جماع قلبها تقريبًا بما أسماه هارولدبلوم «الدين الأمريكى»، وهو فى جوهره إيمان إيمرسون بالطبيعة، بالدورات الطبيعية للميلاد والموت والتجدد، وبالنفس الديمقراطية، التى تشمل الجميع لأنها تشعر بحدس داخل ثنايا الضمير المتموجة بشرارة إلهية وهذا الإيمان يعتقد على نحو غامض بوجود الرب عقلًا، وهو لايختلف عن الإيمان الذى ألهم كثيرًا من الآباء المؤسسين. وتوصل آنتين لهذا الإيمان عن طريق الحدس، فى مثل هذه السن الصغيرة، أمر يثير الإعجاب.

ونبع إيمان آنتين بنظام العدالة الأمريكية، من تجربة مباشرة. فمثلما تقول لنا، فإن «صبيًا ملونًا كبيرًا وضخمًا، كان مصدر عذاب للحى» عاملها بخشونة (203). وجرّ أبوها الولد إلى المحكمة، حيث وبخه القاضى وشاهدت آنتين دراما تتكشف «متهم ومقدم اتهام، وشهود ومتعاطفين، ومتفرجين والجميع». وتعلن «كنا جميعًا أحرارًا، ونعامل جميعًا على قدم المساواة، تمامًا مثلمًا ورد فى الدستور» (204) لايمكن للمرء إلا أن يعجب بمثل هذه

الصراحة فى المشاعر، وإن كانت قد تبدو مثالية. وربمّا يجدر بنا أن نذكر أنفسنا أحيانًا بأن التجربة الأمريكية فى الحكم الذاتى الجمهورى كانت لها جذورها فى المذهب المثالى من النوع الذى عبرت عنه آنتين.

وإذ كانت تواقه لأن تربط ذكرياتها عن الحياة فى العالم الجديد بما وجدته فى أمريكا، فقد كانت تتحدث عادة عن الحرية، مثلما فعلت فى الفصل 14، حيث كتبت: «فى بولوتزك كان يتم تدريبنا ومراقبتنا، وكانت أيامنا قد جرى تنظيمها، وسلوكنا تم إصدار الأوامر به. وفجأة فى أمريكا، ترُكنا أحرارًا فى الشوارع. لماذا؟ لأن أبى ارتد عن إيمانه، وأمى لم تعد متيقنة من إيمانها، لم يكن لهما عقيدة يلزماننا بها» (12-2-213). وهكذا، فإن والدى آنتين تركا لها الحرية فى المدينة، مقدمين لها «حرية بلا حدود» وتعترف بأنه كان هناك جانب سلبى لهذه الحرية «فقد كانت النتيجة هى انحلال التنظيم المنزلى، وتغيير الوضع السوى للعلاقات الطبيعية مما أثار الاحتكاك، والذى انتهى أحيانًا بتحطم أسرة كانت متحدة وسعيدة من قبل». بعبارة أخرى، كان هناك ثمن للحرية: تفكك الأسرة. وكما تقول، فربما جرت هذه العملية المحزنة لتفكك الحياة المنزلية تقريبًا فى أى أسرة مهاجرة من طبقتنا بتقاليدنا وتطلعاتنا. وتسلم آنتين ببلادة بأن ذلك «كان جزءًا من عملية الأمركة: جيشان يسبق حالة الهدوء. كان هذا هو الصليب الذى تعين على الجيلين الأول والثانى حمله». وتقول كان «المنفى والحنين للوطن والسخرية والضياع والاغتراب» جزءًا من دورة المهاجر (213). وفى حين أنه بعد جيل أو جيلين كف الاغتراب عن أن يكون عاملًا مؤثرًا، فإن المهاجرين الأصليين وأطفالهم دفعوا مقابل حرية من جاءوا بعدهم.

وفى 1897، عندما كانت آنتين فى السادسة عشرة تخرجت من المدرسة الإعدادية فى بوسطن. وتم الاعتراف بها كدارسة موهوبة وكلفت بإلقاء خطابين فى حفل التخرج. وفى مرحلة ما، وقف أحد أعضاء مجلس المدرسة ليثنى عليها، وإن لم يكن بالاسم. وقال أنه يرى فى هذه الفتاة التى لم يحددها «تصويرًا لما يمكن لنظام التعليم المجانى الأمريكى» أن يقدمه للمهاجرين الأوروبيين (221). وأعقبت ذلك عاصفة من التصفيق، ودفع زميل أو زميلين لها فى الفصل مارى للوقوف وشكر المتحدث على كلماته العطوفة. ووقفت وبدأت

فى التحدث قائلة «أود أن أشكرك.....» فأشار الناظر لها بأن تجلس. ومثلما يمكن للمرء أن يتوقعه، فقد كانت مشدوهة تمامًا. وكتبت تقول «عانيت من ألم الخجل المبرح» (222). وقد استغرق الأمر منها سنوات لكى تفكر فى هذه الحادثة بدون أن تشعر بالخجل. «اتذكر على نحو متميز كيف أن المشهد الصغير كان يومض أمامى فى الليل، حيث كنت أستلقى وأنا يقظة فى السرير، وكنت أتقلب بنفاد صبر، كما لو كنت أطرد كابوسًا» (223). وسيشعر معظم القراء بحرج مماثل فى خلفيتهم، لذلك كان لقصة آنتين صداها. والطريقة التى تروى بها هذه الحكاية نفسها تجعل القراء يقشعرون.

وتقول آنتين فى الفصل 16: «بدأت حياة جديدة بالنسبة لى عندما التحقت بالمدرسة اللاتينية فى سبتمبر» (230). فقد أصبحت الآن تتحرك بين «مجموعة أرستقراطية» وشعرت بالألم من جراء صعوبة أحوال أسرتها. كانت صحة والدها قد اعتلّت بعض الوقت، وكان يعمل مقابل أجر منخفض حيثما يستطيع العثور على عمل. بيد أن الفتيات فى المدرسة حكموا على آنتين وفق مواهبها الدراسية، وليس حسب وضع أسرتها. كتبت تقول: «كان الفقر أمرًا سطحيًا مؤقتًا». ولاغرو أنها ظلت تعانى من لحظات كان فيها «كيانها كله يعترض على حياة العشوائيات» (23). إن مثل هذه المقاطع تنم عن صراعات غير محلولة.

وتكرس فصلًا بأكمله للسيدة هاتش، التى كانت تحيل حياة أسرها بؤسًا عندما تطالب بالإيجار فى وقت لايوجد فيه نقود لتقديمها لها. كانت مارى الشابة مصممة على أن تقدم نفسها لهذه المرأة وجعلها تدرك إنها ليست فتاة عادية. كانت تسعى للحصول على الاحترام باطلاع السيدة هاتسن على الإجرومية اللاتينية التى تعلمتها فى المدرسة، وذكرت على نحو عابر أنها تأمل فى الالتحاق بالجامعة يوما ما. وكان ذلك بقصد الإيحاء للسيدة هاتش بأن تنظر لأسرتها فى سياق جديد. ولصدمتها، لم يبهر السيدة هاتش أى من ذلك ونظرت لمارى الشابة كمحدثة نعمة. ورجعت مارى وهى تستعر غضبًا، وتلعن زائرتها الحمقاء على ادعاءاتها بالانتساب لنبالة محتد الطبقة الوسطى. وأدركت مارى آنتين والألم ينتابها أنه ليس الجميع فى أمريكا لديهم فكرة حسنة عن المهاجرين الذين يجاهدون لتحسين أحوالهم. (والتحقت مارى بالجامعة بعد بضع سنوات).

ولا حاجة للقول، بأنها استمرت فى طريقها وقابلت بعض الأشخاص المميزين، منهم الدكتور إدوارد إيفريت هيل، وهو واعظ مشهور فى بوسطن ومن رجال الأدب كما وجدت لنفسها مكانًا فى نادى التاريخ الطبيعى، حيث استمعت لمحاضرات ألقاها «رحالة بارزون معنيون بدراسة الطبيعة وغيرهم من الوجهاء» (254). وكان أعضاء هذا النادى يذهبون عادة فى نزهات للحقول، حيث «تتبدى القصة الرائعة للطبيعة» لآنتين (256). لم تذكر هذا مباشرة، ولكنها قابلت من خلال النادى زوج المستقبل: أما ديوس جرابو، الذى كان قد حصل على درجة الدكتوراة فى العلوم الطبيعية من هارفرد. كتبت آنتين: «جمعت معًا» ببطىء شذرات سريعة التلون من المنظر العمومى الهائل المرسوم فى فى أدبيات الداروينية» (258). لكنها اعترفت وهى متألمة بأنها لم تكن عالمة بأحوال الطبيعة بأى مستوى من الإتقان. وتقول «وعلى أية حال، فقد غدوت أكثر اتساقًا بطابع البنات» فى وسط علماء حقيقيين (262).

كان الدكتور هيل العظيم يتركها تتجول فى منزله فى شارع هايلاند «وتنقب فى مكتبته، وتأخذ أى كتب تعجبها» (270). وأعطت الصداقة مع هذا الرجل الكريم صاحب النفوذ لآنتين إحساسًا بأنها عنصر فاعل فى العالم. وفى مناسبات كثيرة كانت تقف أمام أبنه هيل لترسمها، وهى مصورة لوحات موهوبة. وتتذكر وهى مبهورة الأنفاس، إنها فى مرة أو مرتين بقيت لتناول الغذاء مع آل هيل، واعتبرت السيدة هيل شخصية على قدم المساواة مع مارثا واشنطن. «كان كل شيء مدهشًا فى هذا المنزل القديم المدهش» (273).

وفى معظم الأوقات، كانت تحيا حياة متصلة الحركة مولعة بالدراسة فى شارع دوفر، فى العشوائيات. «عندما لم أكن أستذكر الدروس، ولا أكتب شعر منتصف الليل، ولا أبيع الصحف، ولا أطرح قضية، ولا أدرس علم الاجتماع، ولا أنظف المكان من البقّ، ولا أجرى حوار مع رجال دولة، ولا أهرب من البيت، كنت أقوم بتدوينات مطولة فى يومياتى، أو أكتب خطابات من أربعين صفحة إلى أصدقائى» (273-274). كان لديها إيمان دائمًا بأن متاعبها المالية، وسكناها فى العشوائيات، سينتهيان. وكتبت بثقة فى النفس تقرب من خداع الذات: لاشيء يمكن أن يكون مبتذلًا تمامًا يستطيع أن يؤثر على حياتى، لأن لدى القدرة على اجتذاب الأشياء غير المبتذلة. «كانت ساحرة تقريبًا». «لقد توصلت منذ زمن طويل،

إلى أن البقاء على قيد الحياة فى أمريكا هو امتطاء للتيار الرئيس فى نهر الحياة الحديثة». (278). كانت الحياة هناك، فى الولايات المتحدة، وكانت آنتين تعتبر ذلك عقيدة محورية فى إيمان المهاجر الخاص بها.

كيف ينهى المرء كتابًا كهذًا ؟ إن آنتين تلوح مودعة فى الفصل الأخير، العشرين، متأملة فى الأسلوب نفسه. «إن أحد المثالب اللصيقة بالسيرة غير الناضجة هى إنها لايمكن أن تمضى إلى النهاية الطبيعية للقصة» (281). بيد أنها تعترف بأن أى شيء يمكن أن تضيفه سيكون تكرارًا. فقد وصفت بالفعل رحلتها كمهاجرة، من العالم القديم إلى سفينة إلى المدرسة العامة، من خلال المكتبات المجانية وقاعات المحاضرات فى العالم الجديد. لقد أتمت عملية الاستيعاب، وليس هناك المزيد ليقال. وعلى سبيل الخاتمة تكتب بغرام خاص عن نادى التاريخ الطبيعى وأعضائه الذين أدخلوها حياتهم: «لقد فتحوا لى بيوتهم حيث عرفت كيف يعيش الأمريكيون الصالحون. وفى اهتمامهم البالغ بى، احتفوا با لمواطن قيد التكوين» (283). وتدوى الجمل الأخيرة من المذكرات بتفاؤل لايزال يدفئ القلب : «إن أمريكا هى أحدث الأمم، وورثت كل ماحدث فى التاريخ من قبل. وأنا أحدث أطفال أمريكا ووقع بين يدى كل ميراثها الذى لا يقدر بثمن، حتى آخر نجم يتم التجسس عليه من خلال التليسكوب، ولآخر فكرة عظيمة للفلاسفة. إن الماضى المهيب كله ملكى، والمستقبل المشرق ملكى» (286).

4

نشرت كتاب أرض الميعاد، دار هوتون ميفلن، وهى من أعلى الشركات مقامًا، مما أعطاها حق نشر عمل مهم. وأكدت مبيعات ضخمة وتعليقات تكيل الثناء، نجاح الكتاب، ومع ذلك فإن تأثيره امتد حتى لما وراء هذه الحقائق. ففى صيف 1912، قدمت صحيفة نيويورك صن تقريرًا عن الكتاب الأكثر طلبًا من قبل مكتبات شتى. وكان اسم آنتين فى صدارة القائمة. وكانت تلك إحصاءات مهمة، حيث إن مهاجرين كثيرين – مثل آنتين نفسها – لم يكونوا قادرين على شراء الكتب، فكانوا يستعيرونها من المكتبات العامة. ولم ينقص الاهتمام الحقيقى بالكتاب؛ والواقع إنه ظهر فى طبعات لاتعد ولاتحصى فى العقود التى تلت نشره، بما فى ذلك فى حجم ومقاس وشكل مدرسى تضمن كتيبات للمدرسين بها أسئلة للطلاب. وقد استخدم فى دروس التربية المدينة فى المدارس الثانوية حتى 1949، وهى السنة التى ماتت فيها آنتين. وعلى الرغم من أن طلاب المدارس الثانوية نادرًا ما يسمعون عن هذه المذكرات حاليًا، فإنها لاتزال متنًا له شعبيته فى الحرم الجامعى للكليات ويجرى تدريسها فى دورات عن تاريخ الهجرة والسيرة الذاتية الأمريكية.

ومع ابراهام كاهان، تعتبر آنتين من أوائل الشخصيات الرئيسية فى الأدب اليهودى الأمريكى. كما ألهم كتابها تقاليد طويلة من السير الذاتية للمهاجرين. لكن استعراضات الكتب المعاصرة تبرز «الأنانية الصعبة والقاسية» للمؤلفة (مجلة ييل)، بل و «عربدة الأنانية عندها» (أمريكان هيبريو). وقد ظهر استعراض مترو ومتوازن فى النيويورك تايمز أكد أن قصة آنتين كانت «نموذجًا» لتجربة المهاجر. وكانت الأقسام الأمريكية فيها تعتبر ورديه ومثالية نوعا ما. وقال القائم بالاستعراض إنه فضلّ الأجزاء التى جرت فى روسيا، وكان نفس هذا الشخص يعتقد أن التجربة الروسية تشرح الاستجابة المثالية إزاء الحياة فى أمريكا.

وفى سجل القصاصات الذى احتفظ بين زوج آنتين عن زوجته، يوجد مايربو على مائتى قصاصة صحفية، يرجع تاريخيها إلى 1912 و 1913 فحسب.

ولبضع سنوات أغفل النقاد مذكرات آنتين باعتبارها وردية بأكثر مما يجب واعتبروها عازفة عن الاعتراف بأعماق صراعها هى الخاص. فقد لاحظ ستيفن .ج. روبن أن تصوير آنتين لتجربة المهاجر قد اعتبرها نقاد كثيرون «ساذجة وغير واقعية» وأنها تقدم قصة امرأة «تنازلت بترحاب عن ماضيها، وثقافتها ودينها مقابل ما تعد به أمريكا». ويمكن تقفى مثل هذا النقد وصولًا إلى لود فيج لو يسون (وهو ناقد وروائى يهودى شهير كان يدرس فى جامعة براندايز التى ساعد فى تأسيسها) وآخرين، رجوعًا لعقود كثيرة مضت. بل ويطفوا على السطح إحساس بالخيانة مثلما ورد فى ملاحظة سارة بليتشر كوهين بأن أمركة آنتين تشكل نوعًا من «الستربتيز (عروض التعرى) الدينى الثقافى» الذى منعها فى النهاية من أن «تصبح كاتبة عميقة فى الأدب اليهودى الأمريكي، أو بالنسبة لهذا الغرض، فى أى نوع من الأدب».

ولقد بدا كتاب أرض الميعاد دومًا كتابًا مثيرًا للإزعاج بالنسبة لبعض القراء، الذين يجفلون من ثقة آنتين بنفسها وتبجحها فى التظاهر بالشجاعة، مثلما يتبدى فى قولها «بزغت في ظل هذا التمييز، كائنًا جديدًا، شيئًا لم يكن من قبل» (1). والمؤكد أنها تكشف فى مثل هذه المقاطع عن غرامها بنفسها، واحتفائها بتفردها فى العالم، وقوتها فى السيطرة على الآخرين، ومواهبها الفكرية، وإحساسها بنفسها باعتبارها كائنًا محوريًا. وبعض من هذه الأقوال إعادة تدوير لبلاغة إيمرسون، ويمكن أن نرفضها لكن هناك أيضًا غرور هنا، بل وغرور طاغ شامل، بل أن آنتين تبدو أيضًا ذكورية فى أسلوبها وكثيرًا ما كانت تشير إلى أنها تفضل صحبة الرجال على صحبة النساء: «لم أكن أهتم كثيرًا بالتدبير المنزلى، كنت أفضل الجنود» (86).

كما يوجد فى صفحات آنتين قلق كامن، وإحساس بمخاطر الطموح. فقد كتبت مثلًا عن شقيقتها فريدة، بقدر كبير عن الحيرة والأسى. كانتا قريبتين من بعضهما البعض بصورة مدهشة فى بولوتزك، لكن هذه الحميمية انقضت فى أمريكا، عندما تم تفضيل مارى على أختها للاستمرار فى الدراسة. وإضافة للإهانة إلى الأذى، أجبرت فريدة على حياكة ثوب أختها المدرسى – وهى حقيقة تتذكرها آنتين بلمسة من الخجل. وتفتح الفصل 13 المعنون «جنة طفل» بمقطع يثير الكرب بصفة خاصة. ففى حين كانت هى، مارى تثب مرحًا فى العالم، مستكشفة، «منطقة الحدود بين الحياة القديمة والجديدة»، كانت أختها أسيرة رتابة أشغال النساء، «لاتخرج أبدًا عن مسار الواجب» (198). وتعترف قائلة: «لم أكسب مطلقًا خبزى مثل أختى فى تلك الأيام» (200). والواقع أن كتاب أرض الميعاد متن ملىء بالقلق والشك فى النفس، والالتماس القلق لرضا أصحاب السلطة من نوع أو آخر. وسبب لها إغراقها فى الطلب الآلام، بل والإذلال، مثلما فعلت عند تخرجها من المدرسة المتوسطة، عندما وقفت لتتكلم بدون إذن، وأشارلها الناظر على نحو صارم بأن تجلس.

وفى كل الأحوال، فقد كانت مارى آنتين مخلوقًا عدم اليقين لديه مدهش. ربما تباهت بنجاحها الذى صنعته بنفسها، لكنها كانت تتذلل أيضًا. ونحو النهاية، عندما ربطت نفسها بنادى التاريخ الطبيعى، بلغ تذللها أقصاه، إذ كانت تدرك افتقارها إلى الملكات العلمية، وكانت مستعدة لامتهان نفسها حقًا. لم تذكر مطلقًا أنها كانت واقعة تحت سحر زوجها فى المستقبل، لكن هناك تغير فى النقمة، إحساس جديد بالضعف، كما لو أن كاتب المذكرات يتخذ نغمة اعتذارية وتعترف «لم أصبح عالمة متبحرة فى الطبيعة» (258). وبتواضع، تشرح أن حياتها قد تغيرت منذ أن بدأت تفكر جديًا فى عالم الطبيعة، الذى جعلها تعيد النظر فى الأمور الروحية. تقول لنا: «أن الذين يجدون أعظم رضا فكرى وعاطفى لهم فى دراسة الطبيعة يحق لهم أن يحيلوا مشاكلهم الروحية إلى العلم» (259).

وتعترف أيضًا بأن الأسئلة القديمة عن طبيعة عالم الروح، والمشاكل التى أثارت اضطرابها فى روسيا، تسبب لها الاضطراب حاليًا مرة ثانية. والواقع أن أرض الميعاد هى سيرة ذاتية روحية وكذلك حكاية دورة استيعاب المهاجر وتبقى كتابًا معقدًا، فى نغمته وتأثيره، وهو ليس بأى حال إعلانًا بالاستقلال، كما هو الحال فى كتاب والدن.

وبعد آنتين، أصبحت قصص المهاجرين اليهود (والتى كتبت عادة فى شكل روايات) أكثر رزانة فى تقيمها لما ضاع وكذلك ما تم اكتسابه. وهذه القصص تشمل صعود ديفيد ليفنسكى (1917)، لإبراهام كاهان، وخروجًا من الظل (1918) لروز كوهين، وقلوب جوعى (1920) لانزيا يزيرسكا، وصعودًا لأعلى المجرى (1922) للودفيج لويسون. وهناك بالطبع حكايات الهجرة لطائفة من اللاجئين. وصدرت رواية شعبية عن الهجرة كتبها و. ى. رولفاج بعنوان عمالقة فى الأرض (1927)، وقصة بير هانسا وبريت، وهما مهاجران من النرويج عزيمتهما قوية استقرا فى برارى داكوتا فى سبعينيات القرن التاسع عشر. وهناك عدد قليل من قصص المهاجرين الإيطاليين أيضًا بعضها رائع مثل المسيح متجسدا (1939) لبيترو دى دوناتو، وهى رواية سيرة ذاتية عن بناء كان يعمل بالطوب الآجر فى الجانب الشرقى الأدنى من مدينة نيويورك قبل الكساد الكبير. ومع ذلك، تظل الحقيقة هى أن احتمال أن ينتج المهاجرين الإيطاليين والإرلنديين من عصر آنتين مذكرات كان قليلًا، رغم أنه يمكن العثور على استثناءات، مثل ابن إيطاليا (1924) لباسكال دانجيلو، وهى مذكرات بليغة لشاعر مهاجر تم نسيانه لحد كبير.

وإجمالًا، فإن ما يمكن التقاطه من مذكرات المهاجرين الأول ضئيل نسبيًا. «وفيما عدا استثناءات قليلة، مثل اليهود، فإن كثيرًا من هذه الجماعات العرقية أنتجت قليلًا من الأدب المتميز»، كما كتبت كاثرين ب بايانت التى درست أنماط العرقية والهجرة فى الولايات المتحدة. «وحتى الأير لنديون، الذين جاء من بين صفوفهم مؤخرًا كُتاب أمريكيين عظام مثل يوجين أونيل، أنتجوا أدبًا مرموقًا قليلًا خلال القرن التاسع عشر، سنوات ذروة الهجرة»

بالطبع كان المهاجرون الأيرلنديون والايطاليون غير متعلمين لحد كبير وجاءوا من ثقافات شفوية حيث كانت فكرة الكتابة نفسها بعيدة.

وفى بلد المهاجرين هذا، مع غزارة الطارقين الشرعيين وغير الشرعيين على الأبواب، فإن مذكرات المهاجرين (وروايات السيرة الذاتية عن المهاجرين) حظت مع ذلك بجمهور يتزايد باطراد، مع إضافات أخيرة من كتاب من خلفيات شتى، مثل آمي تان، وفرانك ماكورت، وريتشار رودريجيز، وساندرا سينروس، وجوليا الفاريز، وجيش بن. وكل من هؤلاء يتأمل ويجسد تجربة المهاجرين، ودوراتها من الوصول، والتفاؤل، والحيرة، والاستيعاب، من وجهة نظر عرقية محددة، عادة برباطة جأش. وبالنسبة للمستقبل المنظور، فإن مذكرات المهاجرين - مروية كسيرة ذاتية مباشرة أو قصص من الخيال - من المرجح أن تظل بندًا مطلوبًا فى أدبنا وتظل مارى آنتين أُمًا مؤسسة لهذا الضرب.

NOW OVER 4,717,500 COPIES SOLD

HOW TO WIN FRIENDS AND INFLUENCE PEOPLE

BY DALE CARNEGIE

10

كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر على الناس

1

كثيرًا ما يشعر الناس أنهم لاحول لهم ولاقوة، وأن مايواجههم فوق قدراتهم. وأنهم مغلوبون على أمرهم، وأن لديهم قلة من الأصدقاء الحقيقيين أو يتخيلون أن الأمر كذلك. ويبدو الطريق للمضى قدمًا للأمام مستحيلًا، دغل لايبدو خلاله أى طريق واضح يمكن انتهاجه. ويلوح الفشل باديًا للعيان. وفى الولايات المتحدة حيث الفشل مدعاة للخجل وحيث أصبح النجاح نوعًا من الدين، كانت هناك دائمة حاجة ماسة للنصيحة حول كيفية المضى قدمًا. وفى هذا الميدان، لم يكن هناك كتاب أكثر نجاحًا فى مسألة النجاح من كتاب **كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر على الناس**(1936) لديل كارنيجى - وهو مثال أولى سباق ونموذج معبود من ضرب كتبت الاعتماد على النفس.

لقد ظهر فى ظلام الكساد الكبير، حيث كانت طوابير الخبز قد احتلت شوارع المدن والبلدات فى كل أنحاء البلاد. لم يكن الفشل محسوسًا بهذا الشكل فى أى وقت سابق، ويمثل هذه الحيوية المفعمة فى مشهده. إذ كان الرجال لم يعودوا قادرين على شغل قاعدة تمثال «كاسب الرزق المعيل». وكان الأطفال جوعى. وكانت النساء يشعرن بالعجز عن مساندة أزواجهن وأطفالهن. كانت فرص العمل نادرة، لذا فإن التنافس على الوظائف القليلة الثمينة أصبح مثل قطع الرقاب. وفى خضم هذا المشهد الكئيب، جاء ديل كارنيجى بكتاب مبهج أدار رؤوس الملايين، مقدمًا لهم طريقة محددة لإعادة اختراع أنفسهم فى بلد يحدد فيه اختراع النفس نفسه ثقافتنا. وبأسلوب الصريح والواثق، توهج الكتاب مثل نار أمسكت بالعشب فى ظل جفاف تذروه الرياح، وصدرت منه سبعة عشرة طبعة فى بضع

شهور فحسب. وبحلول الوقت الذى مات فيه كارنيجى فى 1955، كان قد تم بيع مايربو على خمسة ملايين نسخة فى الولايات المتحدة، وتمت ترجمة الكتاب إلى ما يزيد على ثلاثين لغة. وتلقى نحو نصف مليون شخص دورات بشأن الحديث على الملأ وتحسين النفس فى معهد ديل كارنيجى، بفروعه الكثيرة. والأهم من ذلك، أن هذا الكتاب غيرّ الحيوات.

لقد علمّ كارنيجى الناس كيف يمضون قدمًا للأمام بالتزلف إلى من هم فى السلطة وأن يفوزو بالحظوة لدى من يحتلون مناصب تحقق مصالحهم. وعلى أية حال، فتلك طريقة سلبية للنظر إليه. ففى ضوء أكثر إيجابية، نجد أنه يعلم الناس استغلال قدراتهم المخبوءة واستخدام أجزاء من أنفسهم كانت مكبوتة من قبل لقد أدى كتاب كارنيجى إلى انفتاحهم على الناس الآخرين وهمومهم.

والواقع أنه فى صميم كارنيجى كانت تكمن فكرة «التقدير الأمين للآخرين». فقد علم قراءه أن يجدوا فى الآخرين شيئًا قيمًا وأن يقدموا لهم التأييد بإبراز النقاط الجيدة لديهم. فإذا اتفق أن كان الجانب الذى يستفيد من هذا النشاط بالغ النفع لمن يتعامل بكياسة ولطف، فهذا أمر حسن، أمر أفضل كثيرًا.

لقد غيرّ كتاب كارنيجى الحيوات، وأثرّ على أمريكا على نحو دائم، ذلك أمر لايمكن الشك فيه. لقد وجدت أمة من رجال الأعمال (ورجال الأعمال الطامحين) فى كتاب كارنيجى سبيلًا. بالطبع، لقد كانت فكرة البيّاع الجوال مهمة فى أمريكا على الدوام. ومثلما يقول تيموثى ب. سبيرز: «فمن الإعلان إلى العلاقات العامة إلى السياسة، تخلل العاملون بالبيع واستراتيجيات البيع الحياة الأمريكية. ويشكل الرجال الذين يبيعون فرش فولر، والسيدات اللاتى يبعن مستحضرات آفون للتجميل، وتجار التجزئة، والذين يطوفون لترويج السلع من باب إلى باب، والقائمون بالتسويق عن طريق الهاتف، بل والرؤساء، قائمة جزئية من الأشخاص الذين لديهم شيئًا يبيعونه». ولاغرو أن الكتاب الأمريكيين ركزوا عادة (بطرق أقل تزلفًا) على شخصية البيّاع الجوال، فهو يحتل موقع القلب من أعمال كلاسيكية فى الأدب الأمريكى مثل الأخت كارى ليتودور دريسر، وبابيت لسنكلير لويس، وبائع الثلج

يأتى ليوجين أونيل، وموت بائع جوّال لآرثر ميللر، وطاقية اجلين روس لديفيد ما ميت - كمجرد ذكر بضع أمثلة واضحة.

إن الأمريكيين يحبون البياعين الجوّالين، وإن كانوا أخسّاء ومتلاعبين.وتعرض شبكة الكابل لدينا تشكيلة من الوعاظ الأغرار أو المعلمين الروحيين للاعتماد على النفس الذين يبيعون أنفسهم مثلما يبيعون «بضاعتهم»، وهى اختراع للنفس. وقد أذهلني جويل أو ستين باعتباره مثالًا كلاسيكيا لهذا الضرب من الناس، فقد كان يبشر بنسخة خاصة به من أسلوب ديل كارنيجى بمسحة رقيقة من الدين. إن الله يحبك، ويريدك أن تنجح. آمن بنفسك. امض قدمًا فى العالم. ثق فى النظام، داهنه، وسيعتنى بك. وتلك مثلما قال الموقر الدكتور نورمان فنسنت بيل (وهو معجب كبير بأسلوب ديل كارنيجى)، هى «قوه التفكيرا الإيجابى».

يعترف كارنيجى أن الرائد كان بينامين فرانكلين، الرجل الذى قال «أن الله يساعد من يساعد نفسه»، وقدم نفسه كمثال لشاب بلا أصل ولا فصل مضى قدمًا عن طريق حسابات تتسم بالدهاء وكذلك بالعمل الشاق. إن أقوال فرانكلين المأثوره تلمح لطرق المضى قدمًا فى الحياة، لكن كارنيجى طور هذه الومضات الوضاءة بطريقة بسيطة ونظامية على نحو واضح. وقد أثمر كتابه، وهذا هو السبب فى أنه بعد كل هذه السنوات لايزال يلقى نجاحًا فى العالم، على نحو مفرط. والواقع أن هناك مثالًا يبين مدى هذا النجاح. ففيما بين 1989 عندما فشلت الشيوعية فى روسيا، و 1997، تم إصدار كتاب كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر على الناس فى ثمانية وستين طبعة باللغة الروسية. ويمكن للمرء القول بأن كارنيجى مثّل (بالنسبة لمنظمى مشروعات الروس الطامحين) «الطريقة الأمريكية» وأن هذه الطريقة كانت ناجحة بصورة ضارية فى العالم. ونجاحها يبيع نفسه.

2

مثلى مثل كثيرين آخرين، أدين بفضل شخصى لهذا الكتاب. فقد كنت صبيًا خجولًا فى سكرانتون، بنسلفانيا، فى الخمسينيات وأوائل الستينيات. وأرعبنى الانتقال من مدرسة أولية صغيرة إلى القاعات التى تبدو مثل الكهوف فى المدرسة الإعدادية فى وست سكرانتون. وفى سن الرابعة عشرة، كنت أعتقد أنه ليس لى أصدقاء (وكثيرون من المراهقين يعتقدون الأمر نفسه). كنت نادرًا ما أتحدث فى الفصل، ولا أفعل ذلك إلا بالإكراه. كنت أحس بالضياع إلى أن وجدت فى المكتبة المحلية، طبعة بالية من كتاب كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر على الناس. كيف يمكن أن أقاوم كتابًا له مثل هذا العنوان؟ كيف يمكن لأى شخص كان؟

وأخذًا بنصيحة كارنيجى، اشتريت لنفسى دفتر مذكرات من متجر يبيع برخص التراب، وكتبت خطوات للتعامل مع الناس لكى يحبوك. إذ يخبرنا كارنيجى أنه لتكوين أصدقاء يتعين عليك أن تهتم حقًا بالآخرين. ينبغى أن تصغى إليهم وأن تقول ما يعجبك فيهم. وأتذكر أننى أخذت أردد لنفسى فى رأسى سطرًا من الكتاب: «كن ودودًا فى الاستحسان وسخيًا فى ثنائك». (جاء هذا الاقتراح من تشارلس شواب الذى كان يعمل لدى أندرو كارنيجى وحقق مليون دولار فى السنة لأنه استطاع أن يحمس العاملين فى شركة كارنيجى للصلب). وضعت قائمة بكل الأولاد فى فصلى وأبرزت بجانب أسمائهم الشىء الأكثر إثارة لاعجابى فيهم. كان ذلك صعبًا فى حالات معينة، لكن كان هناك دومًا شىء ما أجد أنه مثير للإعجاب.

وشرعت أتحدث لكل منهم بدوره، دون خجل وبطريقة منتظمة تمامًا. وواحد تلو الأخرى وفى غضون فترة امتدت عدة أسابيع، أسطعت أن أُكره كل زملائى فى الفصل على الاستماع لى وأقول لهم شيئًا ما يتسم بالمجاملة فى آذانهم. لم يكن ذلك صعبًا مع كثيرين. كان بيتر ممتازًا على نحو لايصدق فى الرياضيات وقلت له هذا. وكان لفريد أفضل ذراع فى ساحة الكرة. افترضت أنه يعرف هذا لكنه كان يجب أن يسمع ذلك وهو يقال له بجلاء (وفى النهاية ظل شهورًا يمتعنى بقصص منحطة). وكانت هناك فتاة، هى أيدنا، هزمتنى تقريبًا فقد

كانت مفرطة الوزن بصورة مغالى فيها، وبطيئة، ومنعزلة بطريقة برية بحكم شخصيتها مفرطة الحساسية (كانت تحتفظ بكرات من اللبان الذى تم مضغه فعلًا فى علبة أقلامها، فى حالة إن نفدت لديها الشرائح الطازجة). ولا يمكننى أن أفكر إلا فى شىء واحد أعجبت بها بشأنه: هو لكنتها الحقيقية فى اللغة الأسبانية. فبالنسبة لأذنى غير المدربة، كانت الطريقة التى تنطق بها حرف آر تجعلها تبدو مثل أولاد البلد فى مدريد. قلت لها فى عصر أحد الأيام بعد الدراسة: «أن لديك أكثر لكنات الأسبانية إثارة للإعجاب.. أن نطقك مثل الأسبان» واعتقدت أنها ستتزوجنى ذلك اليوم.

وأمضيت جزءًا كبيرًا من العام وأنا أشق طريقى بنجاح من خلال نظام كارنيجى، محاولًا التمكن منه. وفى قيامى بهذا، تعلمت الكثير عن نفسى وعن الآخرين، وعن طرق المضى فى العالم وتطور لدى نفور معتدل من كارنيجى، لأننى توصلت إلى أن أسلوبه يتسم بالتلاعب، بل والوضاعة. ومثلما كتب جيمس ثورير ذات مرة فإن «السيد كارنيجى يؤكد بصورة صاخبة أن المرء يمكن أن يكون صادقًا وفى نفس الوقت ضليعًا فى الخدع الرامية للتأثير على الناس. ولسوء الحظ، فإن المخادعات (هكذا وردت) فى مجموعة قواعده وفى حكايات الحالات التى يذكرها، تبرز مثل أشباح فى مأدبة». وفى الوقت المناسب، استطعت أن أضع سقط متاعه فى منظوره الصحيح، لكننى لازلت أعتقد أن منهج كارنيجى له فوائده وأنه فعل الأعاجيب فى حياتى، وجعلنى أقل خجلًا، وأكثر اهتمامًا بحيوات الآخرين مما كنت عليه قبلًا، وجعلنى أكثر استعدادًا لرؤية الأشياء الطيبة فى الناس. وتوصلت بطريقة أكثر تعقيدًا لإدراك الفكرة التأسيسية فى كتاب كارنيجى: وهو أن الناس يهتمون أساسًا بأنفسهم، وبحيواتهم، وبأسرهم وبنجاحهم وبفشلهم. فإن لم تدرك ذلك، فإنك ستنزلق خلال الحياة إلى شىء ما كالفقاعة، وتنغلق على نفسك مثل الأكثرية، ويفيد كثيرًا أن تدرك هذه الحقيقة الواضحة، وأن تضعها فى الحسبان عند التعامل منع الذين يدخلون إلى حياتك.

كما يشير افتراض كارنيجى المسبق إلى الجوانب الباعثة على الاكتئاب فى النظام الأمريكى، الذى يعلى النجاح على الصدق، والفردانية على المجتمع. (لم يكن صدفة أن الكتاب لم ينطلق فى روسيا إلا بعد سقوط الشيوعية). ويطلب كارنيجى منا المرة تلو

الأخرى أن نكون «صادقين»، لكن نظامه يتعارض مع الصدق. فالقاعدة 4 فى الباب الثانى من الكتاب على سبيل المثال، هى «كن مستمعًا جيدًا. شجع الآخرين على الحديث عن أنفسهم». وهناك خط رفيع بين الإصغاء للناس حقًا، ويتعاطف، وبين تشجيعهم على أن يعيشوا داخل نرجسيتهم. ويفترض كارنيجى فحسب (بدون وعى) أنه يتعامل مع عالم من النرجسيين المرضى، حيث يتغذى الناس على من هم حولهم، ويشفون جراحهم هم الخاصة، ويضخمون أنانيتهم، ويعززون دفاعاتهم ولنطرح المسألة بصراحة: ليس من الرحمة دائمًا تشجيع الناس فى أنانيتهم المكرهة. هناك فى النهاية شىء ما يدعو للأسى فى طريقة كارنيجى، التى تستخدم عالمًا من الأنا المنفصلة لدى الجميع تتضارب بالضرورة حيث يصارع كل شخص للحصول على نصيب من كعكة محدودة. إن كتاب **كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس** هو فى النهاية وصفة للوحدة والانفراد، وكسل روحى، خاصة أن جرت قراءته بدون منظور.

لقد كان ديل كارنيجى (1888-1955) شخصًا اخترع نفسه بنفسه. فقد ولد فى ميسورى، وترعرع فى ظل فقر ريفى، إذ كان ابن مزارع غير ناجح. بيد أن أمه كانت طموحة فيما يتعلق به وكانت تأمل فى أن يصبح كاهنًا. كان اسمه الحقيقى هو ديل كارناجاى، لكنه غيرّ نطق اسمه لتحسين حظوظه فى العالم. إذ كان يوجد حينذاك اندرو كارنيجى الذى أصبح اسمه، اسمًا لأسرة بالغة الثروة والسلطة. وكان صاحب مصانع الصلب الأمريكية هذا بطلًا أمريكيًا. ولذلك أصبحت كارناجاى كارنيجى، مما أضفى بهاء على اسمه بتغيير بضع حروف. وبعد أن التحق بكلية للمعلمين فى وارنبرج، فى الولاية التى بها مسقط رأسه، حقق نجاحًا كبائع جوال وباع دورات دراسية فى المراسلة لأصحاب مزارع الماشية والمزارعين فى التلال الرملية فى غربى نبراسكا وشرقى واينج. وبعد ذلك أخذ طريقه على قطار بضائع إلى أوماها، حيث أخذ يبيع لحم الخنزير المقدد والصابون لحساب شركة آرمور آند كومبانى. والواضح أنه كان يرتحل فى هذه المساحات الكبيرة بقطار البضائع ومركبات الجياد العمومية وعلى ظهور الخيل، وينام فى فنادق رثّة حيث لم تكن القواطيع بين الغرف سوى ملاءات من قماش

الموسلين غير الشفاف. كانت طاقته مذهلة وغيرّ المياه الراكدة نسبيًا فى الميدان الإنتاجى للشركة التى يمثلها.

كانت الولايات المتحدة فى العقد الأول من القرن العشرين تشهد ازدهارًا تجاريًا. وطرح هنرى فورد سياراته الشهيرة بالآلاف. وحتى البيوت المتواضعة كان قد تم مد الأسلاك لها لكى تضاء بالكهرباء. وتكاثرت المخازن التجارية المخصصة للبيع مباشرة: مثل جى. سى. بنى، وأيه آند بى وولوورث. وكان جورج ايستمان يبيع الكاميرا الجديدة التى أنتجها. وكانت آر دبليو سيرز وأيه سى روبوك حينذاك قد صقلتا فكرة البيع بالبريد، مما مهد الطريق لكتالوجات لاتنتهى للبيع بالتجزئة التى انهالت على مكاتبنا. وفتح جون واتا ميكر مجمعات كانت تعرض منتجات أرخص سعرًا، وبكميات ضخمة، على جماهير حاشدة. وتدفق ملايين من الشبان والشابات إلى مدن أمريكا ليشقوا طريقتهم، آملين المضى قدمًا للأمام. وكان كارنيجى من بينهم. وبحلول 1910، كان قد ملّ حياة البائع الجوّال الريفى واتجه إلى نيويورك.

كان يأمل أن يبدأ مسيرة مهنية واعدة، وزايد بنجاح للحصول على مكان فى أكاديمية الفنون الدرامية. وبعد أن أكمل البرنامج، حاول الحصول على أدوار يؤديها دون نجاح كبير، رغم إنه شارك لفترة وجيزة فى مسرحية اسمها بولى من السيرك لمارجريت مايو. وعندما انتهت هذه المسرحية، انتهت مسيرته المهنية فى مجال التمثيل. ووجد شقة فى مبنى رخيص فى الشارع السادس والخمسين، قرب الجادة الثامنة، وتولى وظيفة فى بيع سيارات الباكارد والشاحنات. ويتذكر مؤخرًا: «كنت أرجع للبيت وحيدًا إلى غرفتى كل ليلة بصداع مرضى، صداع تغذيه خيبة الأمل وتطعمه، مصحوبة بالقلق والتمرد. كنت أتمرد لأن الأحلام التى تعهدتها منذ أن كنت فى كليتى قد تحولت إلى كوابيس».

وفى هذا الوقت واتت كارنيجى فكرة تعليم الناس كيفية التحدث على الملأ – وبالطبع كان هذا من دواعى الهلع المرضى الكبيرة ومصدرًا للرعب بالنسبة للكثيرين يفوق الموت كثيرًا. وتحدث إلى مدير جمعية الشبان المسيحيين فى الشارع الخامس عشر للسماح له بتدريس دورة عن أساليبه، التى ثبت أنها عالية الفاعلية. كان يُعلّم الخجولين من الشبان

والشابات التغلب على خوفهم من الحديث على الملأ عن طريق القيام بذلك. كان يقول عادة معيدًا صياغة قول إيمرسون: «افعل الشيء الذى تخاف أن تفعله ويصبح موت الخوف عندئذ أمرًا مؤكدًا بصورة مطلقة». وبحلول 1916، أصبح ناجحًا إلى حد أنه استطاع استئجار قاعة كارنيجى (والاسم نفسه هو الذى جذبه للمبنى) لإلقاء محاضرات تزدحم بالمستمعين عن تقنياته للحديث على الملأ. وبالكاد كان وحيدًا فى هذا. ففى 10 يوليو 1916 مثلًا، التقى آلاف من الباعة الجائلين فى مبنى أركاديا للاجتماعات العامة فى ديترويت، لحضور المؤتمر العالمى الأول للباعة الجائلين. وألقى الرئيس وودرو ويلسون الخطاب الرئيس أخبر فيه هؤلاء القوارض المتطلعين: «ارفعوا أعينكم إلى أفق الأعمال. لا تنظروا لموطىء قدميكم حيث العمليات الأخيرة التى تنشغلون بها، لكن دعوا أفكاركم وخيالكم ينطلق للخارج فى كل أرجاء العالم بأسره. وبإلهام من فكرة أنكم أمريكيون وأنه قضى عليكم بأن تحملوا الحرية والعدالة ومبادىء الإنسانية حيثما ذهبتم، اذهبوا وبيعوا السلع التى ستجعل العالم أكثر راحة وأشد سعادة، واهدوهم إلى مبادىء أمريكا». ويسمع المرء الكثير عن هذا نفسه حاليًا من أعداد جمة من السياسيين وقادة الشركات الأمريكيين، الذين يؤمنون على نحو راسخ بنظام المشروع الحر باعتباره مفتاحًا لنشر الديمقراطية فى كل أنحاء العالم. (ربما ترجع حرب العراق إلى هذه الفكرة، حيث إنها كانت شائعة بين المفكرين من المحافظين الجدد الذين أثروا على جورج دبليو بوش عقب 11 سبتمبر).

وبدأ كارنيجى يطور دوراته عن التحدث على الملأ ويوسعها. فاجتذبت جماهير أكبر. وكان كتابه الرئيس الأول هو **التحدث على الملأ: دورة عملية لرجال الأعمال** (1926). وكان هذا أساسا لكتاب ثان هو **التحدث على الملأ والتأثير على الناس فى مجال الأعمال** (1932). وبالطبع، جاءت بعدئذ القنبلة شديدة الانفجار فى 1936: **كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس**. وألقى فى غياهب الماضى بالأيام التى كان يبيع فيها أى شىء عدا نفسه وأساليبه والواقع أنه أصبح ثريًا من كتبه ودوراته، وسوّق نفسه بمهارة مدهشة، رغم أن القليل نسبيًا هو

المعروف عن حياته الخاصة. فقد فرّ من زواج مبكر سيء فى 1931، ثم تزوج ثانيه فى 1944 وكانت له ابنة واحدة، هى طفله الوحيد، من زوجته الثانية.

ولاتزال ظروف وفاته غامضة نوعًا ما : فقد أوردت التايم أنه مات بسبب البولينا فى الدم، ولكن ما يمكن للمرء أن يستخلصه من حوارات جرت لاحقًا مع أرملته، هو أنه ربما كان قد أصيب بالزهايمر أو العته أيضًا. ورغم أنه كان والدًا عجوزًا مخرفًا فى سنواته القليلة الأخيرة، فقد كان يبدو سهل القياد كثير النسيان. وربما يكون من المعقول أن رجلًا طالبنا بأن نركز على الآخرين، وكان يعتقد أن الطريق إلى القمة يمر من خلال الاستتار وعدم الظهور للعيان، كان هو نفسه رجلًا محجوبًا غير مرئى، يعرف أساسًا بأنه مدرس يعلم التحدث على الملأ.

3

يبدأ كتاب كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر على الناس بفصل مثير للاهتمام اسمه «إذا أردت جمع العسل، لاتبدأ في حرق خلايا النحل». و هذه الفكرة ترجع إلى بنيامين فرانكلين الذي قال: «عزمت على ألاّ أتكلم بالسوء عن أى إنسان مهما كان... و .... و أن أتكلم بالخير بقدرما أعرف عن الجميع». ومثلما يخبرنا كارنيجي: «فإن أى أبله يمكن أن ينتقد، ويدين ويشكو - ومعظم الحمقى يعرفون ذلك. لكن لكى يكون المرء متفهمًا وعفوًا، فإن الأمر يقتضى شخصية قوية وضبطًا للنفس» (28). ويُتبع هذه الفكرة ببيان نابض بالحيوية يفترض أنه يعود إلى توماس كارليل، الفيلسوف البريطانى: «إن الرجل العظيم يظهر عظمته فى الطريقة التى يعامل بها البسطاء».

ويوسع سطر آخر هذه الفكرة : «أن معرفة الجميع هى العفو عن الجميع». كان كارنيجى يدرك أن الناس يتصرفون بفعل أساب معينة، معظمها لن يكون معروفًا للعالم الأوسع. وسيتوافر لأسوأ القتلة مبررات لما يفعلونه. بالطبع أن ذلك لايبرر القتل، ويجب التسليم بأن المشكلة الحقيقة بالنسبة لكارنيجى تكمن هنا: فهو يطالبنا بألاّ تنتقد أبدًا،وألا نقلب عربة التفاح، حيث إن مثل هذا النوع من السلوك سيسفر عادة عن صفعة للانتقام، رد فعل عنيف من الشخص الذى يتم انتقاده. لكن على المرء أن يرسم حدًا فى مكان ما. وبهذا القول، فإن هناك قدر طيب من الصدق فى الفكرة العامة القائلة بأن على المرء أن يحاول فهم ظروف من يتصرفون بطرق قد تحيرنا أو تضايقنا. ونادرًا مايكون هناك شىء يمكن كسبه بالنقد العلنى أو الفظ.

ويذكر كارنيجى أنه كرس قدرًا كبيرًا من الوقت لإبراهام لينكولن، بل وأنه كتب كتابًا أسماه لنكولن المجهول (1932). وهو يستخدم أمثلة من حياة لنكولن ليعلم قراءه كيفية التعامل مع الناس. ففى ذروة الحرب الأهلية مثلًا، أمر لنكولن الجنرال ميد بمهاجمة الجنرال لى وقواته فى 4 يوليو 1863، بعد يوم واحد فقط من انتهاء معركة جيتسبرج. وتم إيقاع لى

وجيشه فى فخ فى بوتوماك، وكان فى مقدور ميد أن يكتسحه بسهولة، ويأسرلى ويهزم جيشه هزيمة منكرة وينهى الحرب. لكن ميد عصى أوامر لنكولن وفعل بالضبط ما أُمر بألا يفعله، وهرب لى بجيشه سليمًا. وجلس لنكولن إلى مكتبه وكتب خطابًا يستعر بالغضب إلى ميد بدأه كالآتى : «لا أعتقد أنك تقدر ضخامة البليّة التى ينطوى عليها هروب لى. لقد كان فى متناول قبضتك بسهولة، وكان الأطباق عليه، مقترنًا بنجاحاتنا الأخيرة، سينهى الحرب». كان ذلك توبيخًا لاذعًا، ومع ذلك فإن لنكولن لم يرسل الخطاب مطلقًا، وقد وجد بين أوراقه بعد وفاته. لماذا لم يرسله؟

يتصور كارنيجى أن لنكولن نظر من النافذة وفكّر على النحو التالى : «من السهل كفاية علّى أن أجلس هنا فى هدوء البيت الأبيض وآمر ميد بالهجوم؛ ولكنى لو كنت فى جيتسبرج، ورأيت مثل هذا القدر من الدم الذى رآه ميد خلال الأسبوع الأخير، ولو كانت صرخات وصيحات الجرحى والمحتضرين قد اخترقت أذناى، ربما لم أكن لأتلهف على الهجوم أنا أيضًا. ولو كان لى طبع ميد الهيّاب، لربما فعلت ما فعله بالضبط. وعلى أية حال فقد انقضى الأمر وفات الأوان حاليًا» (26). وكل ما يمكن للمرء أن يأمل فيه هو أن لنكولن لو كان هو الذى كتب ذلك، لكان بلمسة أكثر بلاغة، ومع ذلك فإن كارنيجى ضرب مثلًا جيدًا وهو يحذر من مهاجمة الناس وانتقادهم. فذلك سيجعلهم يستشيطون غضبًا فحسب ومتلهفين على توجيه ضربة مضادة. إنك لن تكسب شيئًا. بيد أن هذا لايعنى أنه ينبغى لك ألاتحاول جعل الناس يفعلون الأشياء بطريقتك. على العكس، ذلك هو هدفك. لكن يتعين عليك أن تشرع فى عملية الإقناع بطرق تجدى فعلًا.

والفصل الثانى هو تأملُ فى كيفية جعل الأشخاص الآخرين يتصرفون (بالطرق التى تحب أن يتصرفوا بها). ويشرح كارنيجى أنهم لن يفعلوا أى شىء إلاّ لأنهم يريدون أن يفعلوه. وبطريقته المألوفة يذكر مرجعيات مشهورة كبيرة، منها لنكولن، وجون ديوى، ووليام جيمس، والأخيران فيلسوفان شهيران (فى مدرسة البراجماتية الأمريكية) أعجب بهما المؤلف كثيرًا وكان يقتبس من أقوالهما كثيرًا. لقد صرح جيمس ذات مرة بأن: «أعمق مبدأ للطبيعة البشرية هى التلهف على أن تكون محلّ تقدير» ومن حبّة الحقيقة هذه خبز

كارنيجى رغيفًا كبيرًا. فهو يبرز أنه حتى الرجال العظام مثل كولومبس وجورج واشنطن يلتمسون الألقاب التى تبرز عظمتهم (كان واشنطن راغبًا فى أن يسمى «عظمة رئيس الولايات المتحدة»، رغم أنه - رحمة من الله - تنازل عن العرش).

وكان كارنيجى على وعى تام بالاتهام الموجه له بأنه يدعو للزلفى. كتب يقول «كلا! كلا! كلا! لست أدعو للزلفى! إننى بعيد عن ذلك. إننى أتحدث عن أسلوب جديد للحياة» (37). وهو يقتبس (أو يسىء الاقتباس) قليلًا عن إيمرسون ليحدث تأثيرًا طيبًا: «أن كل رجل التقيه هو أسمى منى بطريقة ما. وفى هذا، فإننى أتعلم منه». عجبًا. فلو كان كل رجل التقاه المفكر البارز رالف والدو إميرسون أسمى منه، فأين يترك ذلك بقيتنا؟ كان كارنيجى يهيب بنا قائلًا : «دعونا نتوقف عن التفكير فى إنجازاتنا أورغباتنا»، ويدعونا لاكتشاف النقاط الجيدة فيمن حولنا وجعلهم يعرفون أننا نراها. ويوجد فى صميم هذا، ما أدعوه نبضًا دينيًا: رغبة صادقة فى أن تضع جانبًا رغباتك وتفكر فى حاجات الآخرين. وحسب الكيفية التى تفكر بها فى هذا الرأى، فإنه يتحول إلى محو للذات أو تسامى ذاتى: إن المرء يجب أن يخرج من آسار نفسه فى كل الأحوال. ويدرك كارنيجى وهو على صواب أننا لا «ننجح فى الحياة» إلا بفقد حيواننا، بالحكم بالموت على ذواتنا القديمة، وبالعيش من أجل خير الآخرين. وتكمن هذه النظرة العميقة فى صميم المسيحية - إن لم يكن فى معظم أديان العالم. وفى إطار تقاليد المتطهرين، سخرّ كارنيجى طاقة هذه النظرة العميقة لأغراض عملية.

ويواصل كارنيجى تقديم نصائح محددة عن كيفية جعل الناس يفعلون ماتريدهم أن يفعلوه. والنقطة الأساسية هى أنك، القارئ، تريد شيئًا ما من الأشخاص الآخرين. أنك تريدهم أن يفعلوا شيئًا ما. لكن هل تستطيع أن تجعلهم يفعلونه بالرفس والصراخ؟ أن المصلحة ضد هذا. وكالمعتاد، يبدأ كارنيجى بعدد من الأمثلة عن حسن العشرة، البعض منها شخصى. ويذكر إيمرسون مرة ثانية، راويًا قصة عن إيمرسون وابنه وهما يحاولان إدخال عجل فى الحظيرة. كان الفيلسون الكبير يدفع فى حين كان ابنه يشد، ورفض العجل أن يتزحزح. وكان الأمر يقتضى حكمة فلاح من مدبرة منزل آيرلندية لإدخال العجل فى الحظيرة. فبسهولة سحرية قادت العجل بيسر إلى الحظيرة بوضع إصبعها فى فمه. فقد أحب

هذا الشعور وتبعها. ومثل كل الحكمة الشعبية ، فإن مغزى هذا لايمكن مهاجمته، ويدعم هذا المثال البسيط فكرة أن الناس حقًا سيفعلون فقط مايريدون أن يفعلوه. يتعين عليك «أن تساعدهم» على التوصل لأسباب القيام بالأعمال. وبترجمة هذه الفكرة إلى مبيعات، يبرز كارنيجى أن آلافًا من الباعة الجائلين يقرعون الأبواب دون نجاح لأنهم لا يريدون سوى إجراء المبيعات. ويغير كارنيجى محور التركيز: فكر فيما يريده المرء حقًا. أجعل الزبون المفترض يرى أنه من الرشد امتلاك هذا المنتج: فرشه شعر، تأمين على الحياة، مصيدة أفضل للفئران.

والخلل هو أن البيّاع الجوّال ربما يبيع منتجًا لا نفع فيه. فكثير من المنتجات لا نفع فيها. حقًا أن الولايات المتحدة بلد يعوم على منتجات تافهة تقلد منتجات تافهة أخرى، لكن شخصًا ما فى مكان ما أقنع الزبون بشراء هذا الشىء عديم النفع، أوذاك. ومع ذلك، فإن كارنيجى ليس منظر اجتماعيًا، ولم تراوده هذه الفكرة مطلقًا. ماذا إذن إن خلق البياع الجوال حاجة مصطنعة لدى الزبون؟ تلك هى الطريقة الأمريكية. فقد رأينا المرة تلو الأخرى أن وسائل الإعلام تولد «الحاجة» ويطلب منا كارنيجى «أن نوقظ أولًا حاجة متلهفة لدى الناس». ويمكنك المحاجة بذلك، إن كان هدفك هو إتمام البيع.

وحينذاك يتأنى كارنيجى، بفصل بينى موجز يشرح فيه للقراء كيفية الاستفادة من هذا الكتاب. وهو يهيب بهم أن تكون لديهم رغبة عارمة فى النجاح، رغم أنه يخفى هذا باعتباره «رغبة عميقة حافزة للتعلم». عليك أن تتعلم كيف تبيع، كيف تؤثر على الناس لكى يتصرفوا بطريقة معينة. وينقل عن جورج برنارد شو، وهو واحد من أكثر كتاب المسرحيات استشهادًا به وأشدهم فطنة: «إذا علّمت رجلًا أى شىء كان، فإنه لن يتعلم أبدًا». وقد توصلت أنا نفسى لإدراك هذا، بعد عمل كأستاذ فى الجامعة لنحو ثلاثين عامًا. فالطلاب ينسون ما تأمرهم به، لكنهم يتذكرون ما يقومون به من تلقاء أنفسهم بصورة شخصيته. والمدرس الجيد يقودهم إلى جملة من المعارف، ويجعلهم يدركون كيف أنها ستغير حياتهم للأفضل. يتعين عليهم أن يستخدموا المعارف التى اكتسبوها بنشاط وإلاّ تبددت.

وباتجاهه المألوف للعدّ بطريقة نظامية، يقدم كارنيجى قائمة بتسعة أشياء يتعين على القارىء القيام بها، مثل الاحتفاظ بيوميات تسجل النتائج. ينبغى تجسيد التقدم وفهرسته وجعله واضحًا جليًا. ومثلما سلف بيانه، فقد اتبعت هذه النصيحة منذ عدة عقود خلت، عندما كنت فى سن المراهقة، وكان من المبهج رؤية المبادىء المجردة وهى توضع فى التطبيق. ولازلت أذكر الإثارة التى شعرت بها وأنا أرى درجة التقدم التى حققها: فقد أصبح لى فجأة أصدقاء كثيرين منهم. وأصبحت أقل اهتمامًا بحاجاتى الخاصة، وأكثر اهتمامًا بحاجات من حولى. كان هناك حقًا، شىء ما دينيًا على نحو غامض بشأن هذه الخطة، ولازلت أتساءل عن سرها. بالطبع، أننا نريد أن يحبنا الناس جميعهم. ربما يصدق هذا على نابليون وهتلر وستالين وآل كابونى. وهو يصدق بالتأكيد على دوى، الرجل الذى يسير فى الشارع، أو على سوزى دومى، المرأة التى تسير فى الشارع. ولا أعتقد أنه عاش فى أى وقت شخص لا يتقاسم هذه الحاجة الأساسية لأن يكون محل تقدير، بل وحبّ. إن الناس المضطربين بصورة مرضية هم فقط الذين لايهتمون بما يظنه الناس بهم. ويقلب كارنيجى المائدة على هؤلاء بصورة أريبة تمامًا ويؤكد أن الناس لن يحبوك إلا إذا أحببتهم ويهيب بنا أن نركز على حيوات الآخرين، وليس على أنفسنا. ومرة ثانية، فإن توهجًا دينيًا يعزز هذه الحجة. ويناشد القراء أن يدركوا هذا المبدأ الأساسى. إنس نفسك، انظر حولك، تبين ما يحرص الآخرون عليه. بيد أن ذكاء عمل كارنيجى لا يكمن فقط فى إدراكه لهذه المبادئ العامة وتشبثه بها. فهو أيضًا أستاذ فى رواية النوادر، يسرد الحكاية تلو الأخرى عن كيف يتصرف الأشخاص الناجحون بطرق تكشف عن اهتمامهم الحقيقى بالآخرين.

بيد أننى أحيانًا ما أجد أن الأمثلة التى اختار أن يقدمها مروّعة نوعًا ما، مثلما يخبرنا عن مصرفىّ مخادع كان يطلب بإلحاح معلومات ما من رئيس إحدى الشركات. وكان الرئيس حذرًا من تقديم هذه المعلومات، التى كان يعتبرها سرية. وشاهد المصرفى باهتمام سكرتيرة الرئيس وقد ظهرت ومعها بعض طوابع البريد الأجنبية المثيرة للاهتمام، كانت هذه لابن الرئيس، وهو جامع طوابع شره، وابتهج الرئيس. وفى هذه الزيارة لم يعط المصرفى

المعلومات التى كان يريدها، لكن المصرفى الّم بشىء شخصى عن قائد الشركة. وبعد أيام قليلة، عرف أن البنك تلقى رسائل لاتنتهى من الخارج، جميعها بطوابع بريد أجنبية عليها. وجمع بعضًا منها، ثم اتصل برئيس الشركة ليقول له أنه حصل على مجموعة ثمينة من الطوابع الأجنبية لابنه، وأنه اختار البعض من أجودها. وإذ انتشى الرئيس بذلك، فقد دعا المصرفى وأراه بفخر صورة ابنه. وبدأت علاقة دافئة. ولا حاجة للقول، أن المصرفى حصل فى الوقت المناسب على المعلومات التى يحتاجها.

إن مدى أخلاقية القصة السابقة موضع خلاف. هل من السليم التلاعب بالناس بهذه الطريقة؟ أفترض أن الأمر يتوقف عادة على روح الصفقة. لاريب أنه يثمر إبداء الاهتمام بالآخرين. لكن من المؤكد أنه من الصواب أن يكون هذا الاهتمام صادقًا. ومن الناحية النظرية، ليس هناك مبرر لئلا يهتم المرء بالآخرين وبأطفالهم. فالحياه مشوقة على نحو لاينتهى، ويشعر المرء بإحساس طيب عندما يبدى اهتمامًا بالآخرين. لكن انتظار شىء ما فى المقابل، أمر مشبوه. فهناك ما أسماه لويس هايد «اقتصاد الروح الخلاقة». أى أن يعطى المرء هدية دون أن ينتظر شيئًا فى المقابل: إن الهدية الحقيقيه هى هدية من المرء لنفسه، منفعة مستمدة من القيام بالعطاء. «يقول هايد أن رجلًا يملك شيئًا ما من المتوقع أن يتقاسمه، وأن يوزعه، ليكون القيّم عليه أو الصرّاف له».أو مثلما طرح والت هو يتمان الأمر ذات مرة: «أن الهدية هى لمن يقوم بالإهداء، وتعود فى معظمها إليه».

وفى بعض الأحيان تعادل النصيحة المقدمة فى كتاب كارنيجى هراءًا سخيفًا. فهو فى الفصل الثانى فى القسم المسمى «كيف تجعل الناس يحبونك» يقدم نصيحة بسيطة بل ساذجة بأن يبتسم المرء دومًا. ويأمرنا المؤلف بأن نبتسم للجميع. ليس ابتسامة مزيفة كما يحذرنا كارنيجى، وأنما ابتسامة صادقة. ومثلما فعل من قبل فأنه يقتبس من ويليام جيمس، الفيلسوف والأستاذ فى هارفرد. (وتلك تقنية مفضلة فى المحاجّة: الاستعانة بمرجعية: أفعل هذا لهذا وذاك، فقد قالت بذلك مرجعية مشهورة). كان جيمس يقول: «يبدو أن العمل يسير فى ركاب الإحساس، لكن فى الحقيقة، فإن العمل والإحساس يسيران معًا». وبتعبير

كارنيجى ومقاييسه، فإن هذا يعنى: ابتسم وستشعر أنك تحب الابتسام. وأذكر أننى تحيرت بصورة عميقة من هذا الفصل وأنا فى سن المراهقة. كنت أكره الابتسام للناس. وإذ تشربت ذلك، تجولت مبتسمًا مثل الأبله لمدة أسبوع، لكننى هجرت الفكرة عندما سألتنى فتاة فى فصل عما إذا كان هناك خطأ ما. قالت أن ابتسامتى أثارت أعصابها. وحتى هذا اليوم، كنت أتردد عند ما يبتسم شخص ما باقدام ناظرًا تجاهى، وكنت أحاول تقنين ابتسامتى الخاصة. إن كون المرء منفتحًا على الناس، متوقًا لرؤيتهم، يجعل الحياة أكثر مدعاة للسرور من الوضع العكسى. لا أحد يحب شخصًا يتجهم أو يعبس، لكن لا أحد كذلك يفتنه على نحو شديد شخص يبتسم ابتسامة عريضة طوال الوقت. قد يبدو شيئًا عجبًا بكل معانى الكلمة.

ويأتى بعد ذلك، تذكر أسماء الأشخاص. والسياسيون الناجحون جميعهم يعرفون هذه الاستراتيجية. ويخبرنا كارنيجى عن نابليون الثالث، إمبراطور فرنسا، الذى كان يتباهى بأنه يستطيع تذكر اسم كل شخص التقاه. كان يفعل ذلك بأن يستوعبه تمامًا من اول مرة، وكان يطلب من الشخص تهجئة اسمه إن كان معقدًا. وكان يتحمل مشقة تكرار الاسم خلال لقائه الأول، عدة مرات، متأكدًا من أنه يطابق بين الاسم والسمات والتعبيرات الخاصة بالشخص أو مظهره العام. ومثلما هو الحال فى أى من تقنيات كارنيجى، فإن هذه يمكن الإفراط فيها، بل وجعلها مثيرة للسخرية. ألم نقابل جميعًا بائعين جائلين مهلهلين يبدلون أسمائنا بغيرها مع أنها جد واضحة؟ لقد أخذت مرة صديقًا عزيزًا هو الشاعر والروائى روبرت بن وارين، إلى المستشفى لإجراء عملية بسيطة وعندما كنا نسجل الاسم للدخول، ابتسمت المرأة الجالسة إلى المكتب بتلطف وقالت «لماذا ، بوب، إنها لفرصة طيبة أن أراك. كيف تشعر اليوم، يابوب؟» لم يكن وارن هو بوب، وكان يشعر بأن حاله أسوأ ما يكون فى كل لحظة يمضيها هذه المرأة. والفكرة هى أن الحكمة يجب أن تدخل فى الحسبان عند استخدام اسم شخص آخر. لاينبغى الإفراط فى ذلك، والإفراط فى التودد يجلب الازدراء عادة.

وعندئذ يتناول كارنيجى موضوع كون المرء متحدثًا بارعًا. وكما يتعين عليك أن تتوقع، فإن ما يجعل المرء متحدثًا جيدًا هو الإصغاء وليس الكلام. وهو ينصحنا بجعل

الناس يتحدثون عما يهمهم. لاريب أن ذلك مجد. لكن ذلك يعنى أن يكون المرء مهتما حقًا بالآخرين. أتذكر لقاء مع الرئيس كلينتون عندما كان فى سدة الحكم، فى حفل استقبال فى جامعة أوكسفورد. فقد أمسك بيدى وهو يهزّها، ناظرًا فى عينى مباشرة، وسألنى من أين جئت وما هو تخصصى. وعندما قلت له أننى أدرّس الأدب، سألنى ما هى الكتب الذى يتعين عليه قراءتها. كان يبدو تواقا لمعرفة رأيي فى الكتب الجيدة التى يتعين قراءتها، وقال أنه سيحاول الحصول على هذه الكتب. والمؤكد أننى اعتقدت أنه مخلص وصادق. وعند رحيله قال «جاى، آمل أن تعود إلى فيرمونت قريبًا. أنها ولاية محببة للنفس». لقد تذكر اسمى، وأننى قلت على نحو عابر أننى جئت من فيرمونت. كانت تلك تجربة باعثة على البهجة بالنسبة لى - وأنا واحد من أشخاص لاحصر لهم يلتقيهم هذا الرجل كل أسبوع.

هل كان يتلاعب بى؟ ربما. فقد أتقن كلينتون فن الحديث، وكان يعرف بصورة غريزية كيف يركز على الشخص الآخر ويهتم به، وأن يصغى، وأن يكون لنفسه صورة عن الشخص الذى يقف أمامه، وما يهمه، وأظن أن كلينتون ميال للتعلم بطبعه وأنه مهتم بالعالم بصورة حقيقية، وأنه يحب الناس حقًا. ربما كان يحب أنواعًا مختلفة من الناس أيضًا. والمؤكد أنه يحب الحديث: فالعالم كله يعرف ذلك. لكنه تركنى أتحدث معظم وقت لقائى به. لاريب أن ديل كارنيجى يصفق فى السماء لكلينتون.

والحقيقة هى أننا نعرف القليل جدًا عن العالم وعملياته المتعددة والمتنوعة، ويجدر بنا الاستماع لمعظم الناس. أن البعض نرجسيون، مثيرون للضجر ولايريدون إلا الحديث عن حيواتهم وإنجازاتهم، ومثل هؤلاء الناس غير منفتحين على الحوار على أية حال: أنهم يتحدثون فحسب ولا يمكنك التأثير عليهم. لكن هناك الكثير الذى يمكن كسبه، شخصيًا، بل وروحيًا، من تعلم كيفية الإصغاء وإيلاء الاهتمام للآخرين. على المرء أن يعمل على اكتساب مهارة توجيه الأسئلة السليمة وانتظار الرد. ومع ذلك فإن كارنيجى يتوسع فى هذه النظرة العميقة بشكل كبير فى الفصل التالى المعنون «كيف تثير اهتمام الناس». ويقول أنك تثير اهتمام الناس بالتوصل إلى ما يجعلهم يسلكون فى العمل ويجعل ساعتهم تتك

وجرسهم يرن، والتركيز على ذلك. ويدعونا للحديث من زاوية «مصالح الرجل الآخر». (أنه الرجل دائمًا، عند كارنيجى، حيث إنه كتب فى أيام لم تكن فيه المرأة قد دخلت بالكامل لعالم الأعمال، حتى وإن كانت وفرة من النساء قد تلقين دوراته عن الحديث على الملأ). وفى بعض الأحيان يدفع هذه التقنية لحد الاستنزاف.

ويعقب ذلك الفصل السادس المسمى «كيف تجعل الناس يحبونك فورًا». أنك تحقق ذلك بأن تجعلهم يشعرون أنهم مهمون. وبصريح العبارة: بأن تتملقهم. ويتذكر كارنيجى أنه ذهب إلى مكتب بريد فى نيويورك وأخبر الكاتب أنه معجب بشعر رأسه. فأشرق وجه الكاتب وقال : «حسنًا أنه لم يعد حسنًا كما اعتاد أن يكون». وأعقب ذلك حديث باعث على السرور، وفاضت المشاعر الإنسانية الطيبة. وعندما روى كارنيجى هذه النادرة لجمهوره سأله أحد المستمعين: «ماذا كنت تريد الحصول عليه منه؟». واستشاط كارنيجى غضبًا من مجرد الإيحاء بأنه كان يحاول الحصول على أى شىء من الكاتب فى مكتب البريد. فهل كان يريد خصمًا على طابع بريد؟ كان يريد أن يروج المشاعر الطيبة فحسب. وهنا يعود كارنيجى إلى مبرره المعتاد المستمد من مرجعيه ما (وهو من الأنماط الكلاسيكية للمبررات غير المنطقية) فيدعم إصراره على زعمه بالرجوع إلى زرادشت، وكونفوشيوس، ولاوتزو، وبوذا، والمسيح. إن ذلك يعنى فى نهاية المطاف أن تفعل بالناس ما تحب أن يفعلوه بك.

وعلى مستوى بسيط، ليس هناك خطأ فى هذه النصيحة. فهى تمثل منطقًا رشيدًا عن التوافق بينك وبين الآخرين، وأن تعاماهم كما تود أن يعاملوك. فإذا أردت أن يعترف الناس بأوجه القوة لديك، فاعترف بأوجه قوتهم. وكما هو الحال دومًا، فإن الخيط الرفيع بين التقدير الصادق والتزلف - الثناء الزائف - لاينبغى تجاوزه، رغم أنه يسهل تخطيه. ويأتى الجزء الذى يدعو للتزلف فى هذا الفصل عندما يخبرنا كارنيجى عن كيف استخدم ثلاثة من رجال الأعمال المجاملات تحقيقًا لمصالحهم. يبدو هذا مكرًا وخداعًا ويجعل جلد القارىء يقشعر. ومع ذلك فإن هناك حكمة لانزاع فيها تكمن فى ملاحظة بنيامين دزرائيلى

الشهيرة، التى اقتبسها كارنيجى لكى يختتم بها هذا الفصل: «تحدث مع المرء عن نفسه وسيصغى لك لساعات طويلة».

ويركز الباب الثالث على جعل الناس يقفون فى صفك، ويبدأ بحقيقة بسيطة: «لا يمكنك أن تكسب جدلًا». ولن تستطيع، ربما تسجل نقاطًا وتدلى ببيان لا يمكن دحضه، لكن لن «تكسب» أحدًا حقًا إلى صفك بالمجادلة. «ففى تسع مرات من كل عشرة ينتهى الجدل وقد أصبح كل من المتجادلين أشد اقتناعًا من أى وقت مضى بأنه على حق بصورة مطلقة» (105). ومرة ثانية يستند كارنيجى إلى التراث الدينى العالمى، مقتبسًا من أقوال بوذا: «أن الكراهية لاتزول أبدًا بالكراهية بل بالحب». (لقد حضرت ذات مرة دورة فى أحد الفنون الحربية وتعلمت أن مواجهة أى شخص لاتجدى أبدًا، وأن جوهر الدفاع عن النفس هو التنحى جانبًا. أن الهروب خير من القتال دائمًا. خاصة فى حارة مظلمة!). لكن تجنب النزاع يمكن أيضًا الوصول به لحدود متطرفة. فالنزاع أحيانًا، يكون ضروريًا فى الواقع ويؤدى إلى وضع أفضل - وهى فكرة لن يسمح بها كارنيجى أبدًا.

ويمكن للمرء المحاجة أيضًا بأن كارنيجى يعلّم الهجوم السلبى فى هذا الفصل وفى أماكن أخرى. وينطوى منهجه - أو يبدو منطويًا عادة - على العمل بطرق مخادعة، بل وسريه، لإقناع شخص آخر بشىء ما. وفى رأيي أنه من الأفضل عادة الإعراب عن الخلاف فى الرأى صراحة، ولكن بحنو وتواضع - مدركًا أن حجتك قد لا تكون هى الأفضل. إن حصولك على ما تريده بالضبط ينبغى ألا يكون دائمًا هو الهدف النهائى.

ويعالج الفصل التالى مشكلة الأعداء وكيفية تجنب صنعهم. ويحتل بنيامين فرانكلين مركز هذا الفصل، فى نادة نادرة عن كيف تعلم من تجربة مريرة ألاّ يفرض على الآخرين الاعتراف بحقوقه، بجرأة مبالغ فيها وعلى نحو مولع بالقتال. فقد قال فرانكلين ذات مرة: «وضعت قاعدة هى أن أتذرع بالصبر إزاء كل تناقض نحو مشاعر الآخرين» (115). فلم يذكر مطلقًا الأشياء بصورة قاطعة، لكن كان يفضل القول «أتخيل» أو «أتصور أن...» وتلك بلاريب طريقة للتصرف عندما تطرح فكرة ربما تكون مثيرة للخلاف. قل «أعتقد أن»

وسيدرك الشخص الذى تحادثه أن هذا هو رأيك بالضبط، وأنه ليس سوى رأى. (أتذكر طالبًا فى بريطانيا كان يبدأ كل محاجة بكلمة «بالتأكيد». وبالتأكيد هى لاشىء كما أعتقد. وقد كرهت هذا الشخص بشدة، وكذلك فعل كل من كانوا لابد وأن يعانوا منه).

لكن هناك شىء ما يقلق الذهن قليلًا بشأن الطول الذى تناول به كارنيجى هذه النصيحة البديهية. فهو يحذر «لا تقل مطلقًا لإنسان ما أنه على خطأ». كنت أرغب لو أن عددًا أكبر من الناس قد أخبرونى فى مقتبل العمر، بصورة مباشرة أننى كنت على خطأ بصدد أمور معينة. ومرة أخرى فإن النجاح كله يكمن فى النهج ودرجة الحساسية التى يمكن استدعاؤها بها. إنك تستطيع أن تقول للناس أى شىء إذا قلت لهم ذلك بإخلاص، بطريقة مُحبّة. ربما كانت هذه هى فكرة كارنيجى الحقيقية - رغم أنه بدا عاجزًا عن عرضها. ولايزال اتجاهه لتسفيه المادة التى قدمها يمثل مشكلة من الأول للآخر. بيد أنه على الطريق الصحيح على وجه الإطلاق عندما يقول أنك إن أخطأت، يجب أن تعترف بذلك عن طيب خاطر. أنه من المرضى دومًا أن تقول لشخص ما أنك ارتكبت خطأ وأنك آسف. اعترف بأخطائك وابدأ من جديد. تلك نصيحة بسيطة جيدة، ومع ذلك فإنها لقمة يصعب ابتلاعها.

وتتبع ذلك الاقتراحات العملية فى الفصل التالى الذى أسماه «الطريق الأكثر سهولة لعقل الإنسان». بيد أن هذا مزيد من الأمر نفسه: كن لطيفًا تجاه الناس، اجعلهم يعتقدون أنك مخلص فى تقييم ما يقولونه. ويبدأ باجتماع جون دى روكفلر مع ممثلى عصبة من المضربين. فقد هدأهم روكفلر، وجعلهم يشعرون أنهم مهمون، وادعى أنه يوم سعيد جدًا لاينسى فى حياته إن كان له حظ الاجتماع بهم. وقد صدمتنى بضعة أمور فى هذه القصة الغريبة. ففى البدء، فإن كارنيجى يستدعى مرجعيات قوية مرة أخرى، خاصة مليونيرات أمثال أندرو كارنيجى وجون دى روكفلر. أنه لايستطيع أن يقاوم رجلًا ثريًا، كما لايستطيع ذلك جمهوره الواسع (على ما يبدو). فإذا كان أمرؤ ما غنيًا، فلابد أن يعرف شيئًا ما لا يعرفه الفقراء. لابد أن يكون على صواب فى الواقع. يبد و هذا افتراضًا مغرضًا بل خطيرًا. ففى حالة

روكفلر والمضربين من عماله، ربما كان المضربون على حق. كان روكفلر يشق صفوفهم. ومع ذلك فإن نهجه فى الحديث المعسول خلصه من السنارة.

وهنا يقدم كارنيجى مزيدًا من النصائح عن كيفية التعامل مع الناس، ويبدو البعض منها مفيدًا. من يمكن أن يعارض الاقتراح بأن على المرء أن يبدأ كل اجتماع (خاصة حيثما تلوح احتمالات النزاع) بطريقة ودية؟ فليست فكرة طيبة على الإطلاق الإبراق بالعداء عند البداية. بيد أن الفكرة الأعمق هى أن كارنيجى يعتقد أن المرء يتعين عليه أن يفعل أى شىء يقتضيه «الفوز» وقد ينطوى هذا على ادعاء الصداقة لعدو. بأمل طرحه أرضًا. ولهذا النهج فى «حلّ» المشاكل جانب تآمرى مقيت.

وهناك نصيحة طيبة على نحو واضح بالنسبة للبياع الجوال فى فصل «أسرار سقراط». إذ يشرح قائلًا: لاتدع الزبون المحتمل يقول لا مطلقًا فى ظل أى ظروف. ويسمى كارنيجى هذا - لأسباب يصعب على فهمها - الأسلوب السقراطى ويصف سقراط بأنه «فتى عجوز لامع» ويثنى على سقراط لقدرته، باعتباره رجلًا له علامة بيضاء على رأسه وحافى القدمين فى الأربعين من العمر، على أن تكون له اليد العليا فى زواج من فتاة كان عمرها تسعة عشر سنة، موحيًا بأن الفيلسوف الأغريقى، كان عندما يحاج، يجعل المستمعين يوافقون على أفكاره الوحدة تلو الأخرى. وكان يحمل ذراع من عبارة نعم بين يديه يسير إلى النصر فى الجدل. لكن أسلوب سقراط (كما صوره تلميذه وصديقه أفلاطون) لم يكن بمثل هذه البساطة، إذ كان ينطوى على توجيه أسئلة واستخراج المعرفة المطمورة فعلًا فى طلابه وجعلهم يرون ويفهمون حقًا ما الذى يوجد فى النظرية ويعرفونه بالفعل. هناك سمة ساذجة وجاهلة على نحو بين فى كتابات كارنيجى هنا لا يمكن تحملها.

ويكمن جوهر الفصل التالى مطمورًا فى هذا السطر : «قمين بنا أن نكون متواضعين، لأنه لا أنا ولا أنت نساوى الكثير» (144). قد يبدو هذا لاذعًا على نحو مدهش. أن معظمنا غير مهمين كثيرًا، إلاّ بالنسبة لمن يندرجون فى الدائرة المباشرة للأسرة والأصدقاء. ولا يود المرء سوى لو استطاع كارنيجى أن يفصّل هذه النظرة العميقة على نحو أكبر، معترفًا

بقيم المجتمع مثل اعترافه بقيم الفرد. لقد فشل فى القيام بهذا على نحو واضح. فكل نظرة متعمقة توضع فى خدمة «المضى قدمًا»، إتمام المبيعات، الحصول على الترقية. ويصبح هذا مقززًا فى النهاية، رغم أن المرء يمكنه أن يتبين أن الملايين الكثيرة من «الفاشلين» فى مجال الأعمال رجالًا ونساء قد التمسوا التوجيه من كارنيجى. من المؤكد أن البياع الجوال المتذلل الذى يولى اهتمامًا للزبون سيبيع عل وجه التأكيد بدءًا من الأدوات أكثر مما يفعل البياع عالى الصوت، المتضخم الأنا، والمغرور الذى لايولى اهتمامًا بجمهوره.

ويحاج الفصل السابع، بصورة فعالّة تمامًا، بأن أحسن طريقة لجعل الناس يتبنون فكرة ما هى جعلهم يعتقدون أنها فكرتهم. وهنا فأن عقلية التصاغر تقدم عرضها بجرأة أنك أحمق مسكين، وتريد شيئًا ما. إذن اجعل من هم فى موقع السلطة يعتقدون أنها فكرتهم، وسيد عونك تنفذها. ذلك تلاعب، لكن لايمكن إنكار فاعليته. إننا جميعًا نتعرض لمواقف نريد فيها أن يفعل شخص ما آخر شيئًا سيفيدنا بطريقة ما. ربما يفيد المجتمع الأكبر. إذن كيف يمكن للمرء جعل الآخرين يفعلون هذا الشىء، خاصة أن لم يكن شيئًا يريدون حقًا أن يفعلوه؟ يطلب منا كارنيجى «تقديم الاقتراحات» ثم ترك الآخرين يستنبطون العواقب. وينتهى هذا الفصل بسطر صادم، بل وغريب من لاو تزو، مؤسس الديانة الطاوية(*): أن السبب فى أن الأنهار والبحار تحظى بإجلال مئات الجداول الجبلية هو أنها تبقى تحتها» (150). لكنك تريد شيئًا ما. علاوة؟ أن يتبع الناس قيادتك؟ مكتبًا على الناصية؟ إذن اجعل أهل السلطة يستمرون فى النظر إليك من علٍ، فيحبون الإحساس بأن لهم السلطة عليك. والواقع لن يبالوا بإعطائك ما تريد، حيث إنهم يستمتعون بوضع السمو فوقك.

هذه تقنية منفرة، لكنها أجدت كما هو واضح بالنسبة لملايين.

وفى الفصل التالى، يهيب كارنيجى بالقراء أن يضعوا أنفسهم فى مكان الذين يعارضونهم ويحاولوا فهم الجانب الآخر من المحاجة بأفضل ما يستطيعون. ذلك هو مسار الشخص «الحكيم، المتسامح، والاستثنائى». وهو يعنى أن على المرء التعاطف مع رغبات الآخرين

* فى الصين ثلاثة أديان البوذية والكونفشيوسية والطاوية - المترجم.

ومحاولة فهم أصول رغباتهم، والتنقيب فى دوافعهم. وعندما تريد محاولة تغييرهم، اجتذب جانبهم «الأشد نبلًا». افترض الأفضل عنهم. وفى حين تفتقر هذه النصيحة إلى الإتقان السيكولوجى، فأنها تبدو أمينة وسليمة تمامًا.

كما يتعين عليك أن تتعلم إضفاء طابع مسرحى على أفكارك، كما يحاج كارنيجى لاحقًا. فالتدريب المسرحى الذى تلقاه كشاب يبدو أنه كان ملائمًا للاستعمال وهو يحث على تقديم استعراض حقيقى. وعلى سبيل المثال، يروى أن متجرًا كان يحاول أن يبيع سم فئران جديد، فنظم عرضًا فى فاترينااته تضمن عددًا من الفئران الحية. والمؤكد أن هذا العرض قد استحوذ على انتباه العامة. وأجدى عرض الفئران على مايبدو - إلا بالنسبة للفئران. والمثير للاهتمام، أن هذا فصل من أقل فصول كارنيجى فاعلية. فهو لم يخبر أحدًا فى الواقع عن كيفية مسرحة أى شىء، ولا بين ما هو المسرحى وما هو ليس كذلك. لقد ذكر ببساطة، المرة تلو الأخرى: كن مسرحيًا ! وبالطبع استمر إنفاق تريليونات وتريليونات من الدولارات على الإعلان، والجميع يريدون بيع منتجات بطريقة مسرحية. إن الشيطان كامن فى التفاصيل، وكارنيجى يفتقر للوقت أو الميل اللازمين لتقديمها. (إذن فمرة ثانية، كيف كان يستطيع ذلك؟ إن هذا الكتاب يجدى على مستوى عام، تاركًا التنفيذ للقارئ الفرد).

ويقترح كارنيجى : ألهم العاملين لديك والبائعين الجوالين عندك بالتميز، وذلك فى الفصل النهائى من الجزء الثالث. اخلق تحديًا، احفز المنافسة. لاريب أن هذه كانت نصيحة نافعة للمديرين الذين احتاجوا إلى جعل أداء من هم تحت قيادتهم أفضل. لكن مرة أخرى، أن هذا فصل دون قدر كبير من الجوهر. وأظن أن معظم قرائه سارعوا بالانتقال للجزء الثانى، حيث إنهم نادرًا ما كانوا فى حاجة لمعرفة كيفية إلهام الآخرين لإنتاج مزيد من البدع من الأدوات وبيعها. وكان معظمهم يتساءل فحسب عن كيفية تحويل الدور الأرضى من المصنع إلى مكاتب. كانوا يريدون أن يغيرو ياقاتهم الزرقاء كعمال، إلى ياقات بيضاء كموظفين.

ويأتى لُبّ الموضوع فى الكتاب فى الباب الرابع المعنون «تسعة طرق لتغيير الناس بدون التسبب فى إهانة أو إثارة السخط». والطريقة الأولى هى تهنئة شخص ما قبل أن تقدم

نقدًا حقيقيًا. ويبدأ بالرئيس كالفن كوليدج، الذى هنأ سكرتيرته ذات مرة على ردائها البهيج، ثم طلب منها أن تكون أكثر حرصًا فى وضع النقط والفواصل عندما تكتب خطاباته على الآلة الكاتبة. وعلى مستوى أكثر جدية، ينقل من خطاب لإبراهام لنكولن (المرجعية العليا لكارنيجى) أرسله لأحد جنرالاته. يبدأ الخطاب بثناء كبير وصادق، ثم يشرع فى النقد اللازم وتقديم الاقتراحات يكمن فى هذا الخطاب قدر كبير من الحكمة. إن ذلك أمر يتعلمه كل من كان فى موقع السلطة - أو يفشل فى تعلمه مع ما لذلك من عواقب وخيمة. إذا اعترفت نقد شخص ما، وهو ما يتعين عليك أحيانًا، فمن المهم تقديم هذا النقد فى مناخ من المساندة. فلن يجدى على سبيل المثال أن تقول لمراهق شاب: «أنك تتحدث بصوت مرتفع بأكثر مما يجب، وتضايقنا فى حفلات العشاء». يجب على الوالد أن يفكر فى شىء إيجابى، مثل: «أنه لأمر طيب أن تحب المشاركة فى الحديث الذى يدور على العشاء عندما يكون لدينا ضيوف. لكن قد يكون من السداد التحدث باعتدال أكبر واكتساب عادة الإصغاء. أنك ستتعلم دومًا شيئًا قيمًا، وكل الناس سيسعدون بتصرفك».

وفى توسع فى هذه الفكرة، يقترح كارنيجى أن نلفت الانتباه لأخطاء الناس بطريقة غير مباشرة، إن أمكن. ويقدم جون وأناميكر، المالك الشهير للمجمعات، مثالًا فى هذا. فقد كان يسير خلال أحد متاجره الكبيرة ووجد زبونًا ينتظر الخدمة على الطاولة. وكانت مجموعة من البائعين تقف فى الخلفية، يتبادلون النميمة ويضحكون، متجاهلين الزبون. ووقف وانا ميكر بنفسه خلف الطاولة، وساعد هذا الشخص فى شراء صنف ما، ثم سلمه إلى البائعين ليلفوه. لم يقل كلمة واحدة كنقد، لكن الرسالة كانت قد وصلت. لايمكن أن يعترض أحد على مثل هذه النصيحة. فمن المعقول أن يشير المدير، الوالد، الصديق، أو الزوجة، لأخطاء المرء بصورة غير مباشرة - طالما أن ذلك لا يتحول إلى هجوم سلبى، وهو خطر قائم دومًا عندما ينطوى الأمر على شىء غير مباشر. وكما هو الحال دومًا، فإن المثال الجيد يستحق ألف اقتراح.

وينصح كارنيجى فى الفصل التالى، وأن كان بحكمة، بأن يتحدث المرء عن أخطائه أولًا. فمن المثمر، من الزاوية الإنسانية، أن يضع المرء نفسه على نفس المستوى مع الشخص الآخر. وقد تعلمت أنا نفسى أن أتأكد عند حديثى لأولادى الثلاثة، أن أدرج نفسى فى المعادلة عندما أستطيع. وإذا أردت أن أقول لأحدهم أنه لم يكرس وقتًا كافيًا لعمله، أحاول أن أتبع اقتراح كارنيجى و أقول شيئًا مثل: «لقد كنت كسولًا جدًا فى المدرسة الإعدادية. وكنت أكره أداء الواجب المنزلى. لم أكن آلفه. وكانت نتائجى سيئة فى المدرسة نتيجة لهذا الإهمال واستغرق منى الأمر وقتًا طويلًا لكى أفهم بطريقة واقعية أنه ليس هناك بديل للعمل بجد واجتهاد». ولهذا الخط فضيلة أنه صادق، مثلمًا هو مجد. ومع ذلك، فأن كارنيجى يتجاوز فى هذا كثيرًا، مثلما يفعل عادة.

فهو يروى قصته عن الأمير فون بولو من ألمانيا، وكان مستشارًا للقيصر المتعجرف ويلهلم الثانى. فقد كان القيصر قد قال أشياء خطره وغبية بصورة رهيبة للصحافة، وآثار هذا اهتياجًا عالميًا واستدعى فون بولو وطلب منه تحمل اللوم عن نصحه بأن يقول مثل هذه الأشياء المضحكة. واعترض المستشار الوفى قائلًا أنه لم يكن أبدًا لينصحه بأن يقول مثل هذا الهراء. وانفجر القيصر غضبًا. واتخذ فون بولو عندئذ مسارًا آخر، قائلًا أن قيصر هو رئيسه وأسمى منه فى كل المناحى تقريبًا. وأنه يعرف أكثر منه عن العلوم والشئون العسكرية، والمزيد عن كل شيء فى العالم الواسع بأسره. وقال فون بولو أنه لايملك سوى موهبة صغيرة، هى الموهبة فى الشئون الدبلوماسية وانتشى القيصر من الحديث عن معرفته المسهبة بمثل هذه الأشياء الكثيرة، وأقسم أن يأخذ برأى فون بولو فى الصغيرة والكبيرة. وانتهت الأزمة. والمغزى الأخلاقى هنا هو : احن رأسك أمام الرئيس، وأخبره بأنه رائع، وأن الشمس تشع من أذنيه ومن كل فتحة فى جسده المذهل، وكل شيء سيكون على مايرام.

من المؤكد أن كارنيجى كان يدرك أن إنقاذ ماء الوجه أمر مهم. فلا أحد يحبّ أن يجرى توبيخه أو لومه بصورة مباشرة عن أشياء فعلها، مهما كانت غبية وطائشة. ومن ثم فأن كارنيجى يحث فى الفصل التالى على العمل بصورة غير مباشرة - مرة ثانية فعندما

تحاول «التعامل» مع الناس، خاصة من هم تحت سيطرتك، ينبغى أن تسأل أسئلة لا أن تعطى الأوامر. وحسبما يقول كارنيجى، فإن الأسئلة التى عليك أن تسألها هى أسئلة موصلة لإجابات بعينها وتتسم بالمناورة، مثل «ألا تعتقد أنه يجب عليك أن تفعل هذا أوذاك؟ فتلك طريقة أكثر لطفًا لقول «افعل هذا أو ذاك». وإننى أتساءل هل تجدى هذه التقنية حقًا. (أن أبنائى سيرون أن هذا صواب).و كثيرًا ما تبدو نصيحة كارنيجى عن مسايسة الناس واضحة أو ساذجة. ففى الفصل المعنون «كيف تدفع الناس إلى النجاح» ينادى بِفن التشجيع، قائلًا أنه من المثمر تقديم مجاملات بسيطة على امتداد الطريق. ويصدق هذا بنحو كاف. فالمؤكد أننى لو كنت أدير مشروع أعمال، فأننى سأحقق نجاحًا بملاحظة الأشياء الجيدة التى يقوم بها الناس، بأمل تشجيعهم على القيام بمزيد منها. ومن المؤكد أن هذه الطريقة مثمرة بالنسبة للآباء. لكن هذا الأسلوب سيتجاوز الحدود فحسب، ولن يراعى لا روبنسون كروز و لا تشارلز ديكنز، رغم أن كارنيجى يدعى العكس. فهو يخبرنا مثلًا أن ديكنز نما فى ظروف من الفقر المدقع، وكان عليه أن يعمل فى مصنع يضع البطاقات على الزجاجات وهو طفل لأن والده دخل السجن بسبب الإفلاس. هذا حقيقى. ثم يشرح لنا أن ديكنز أرسل بالبريد أول عمل يكتبه، وأن رئيس تحرير شفوق قبله، مع تهنئة أسّرت المؤلف الشاب. وغير هذا النجاح الواحد حياة ديكنز كما يقال لنا، وأصبح روائيًا عظيمًا نتيجة لذلك. بالطبع إن هذا هراء. ذلك أن الحافز الذى أمدّ ديكنز بأسباب القوة طوال مسيرته المهنية الحافلة فى مجال الكتابة، وأفضى به لإنتاج عدد كبير من أرقى الروايات، لم يحركه رئيس تحرير واحد قبل عمله الأول بكلمات قليلة رقيقة. فقد كان ديكنز رجلًا مركبًا، وأوجه الغضب الشديد التى دفعته للكتابة لايمكن عدّها على يد واحدة. كانت مواهبه تستعصى على الفهم اليسير أيضًا. وكان خياله فريدًا فى هذا العالم، وواصل فى النهاية كتبه المدهشة، الحزينة، المستعرة غضبًا. والمسلية بصورة ضخمة إلى المطبعة. وكان عاجلًا أو آجلًا سيصبح ما كان عليه: تشارلز ديكنز. أن القداس الذى يقيمه كارنيجى بالنسبة لديكنز فى هذا السياق، يقلل من قيمته ويثير السخرية .

إن كارنيجى عادة يضع العربة أمام الحصان، قائلًا أن شيئًا ما هو الحالة التى يأمل فى أن تصبح هى الحالة. لذا فإنه يوصى بمنح الناس «سمعة طيبة» اعتقادًا بأنهم حينذاك سيرتفعون إلى مستواها. وهو يقول «اجعل الشخص الآخر سعيدًا دومًا بالقيام بالشىء الذى تقدمه». ذلك خير من حدوث العكس. لاريب فى ذلك، لكن هناك شىء فى غير موضعه بصورة واضحة بشأن المشاعر. أن المرء يجب أن يطريه الناس بإعزاز. والسؤال هو كيف يتحقق هذا، وكارنيجى يبعد عن الجانب العملى هنا، تاركًا القارىء فى غمامة من التجريد.

وينتهى الكتاب بنبرة غريبة، مرحة بصورة طفيفة. إذ يتحول كارنيجى إلى مستشار زواج، وينصح (مثلما ينبغى لأى مستشار زواج جيد) بأنه ينبغى ألا تناكد زوجتك. ويقول أنه ينبغى ألا تحاول مطلقًا أن «تُعدّل» شريكتك. فهى على ما هى عليه. اقبلها أو ابعد، إعمل معها. ومرة ثانية، فإنه يشير إلى أن النقد فكرة سيئة. ينبغى أن تقدم تقييمًا أمينًا حيثما يمكن بروح ادخار القرش الأبيض لليوم الأسود. عبر عن مشاعرك بكلمات، وقل لشريكك أنه ممتاز فى هذا أو أوذاك. ينبغى أن تزجى مجاملات قليلة. وهو يقتبس عن قاص شهير ترأس الفصل فيما يربو على أربعين ألف نزاع بين الأزواج، أنه قال أن كثيرًا من هذه الصعوبات كان يمكن تحاشيها لو أن الزوج لوح فقط بيدة مودعًا زوجته عند ذهابه إلى الشغل. ويدعو كارنيجى لفضائل المجاملة. عامل زوجتك كما ستعامل نفسك: باحترام. ثم تأتى أم جميع نصائح الزواج: احصل على كتاب جيد عن الممارسات الجنسية واقرأه. ويلمح كارنيجى بمواربة تبعث على السعادة، إلى أن هناك جوانب حميمة للحياة الزوجية يجب عدم إهمالها. وتتطلب هذه الأشياء الحميمة درجة من الخبرة والمعرفة، مثل أى شىء آخر. وهو يوصى بعدة كتب ويتفادى على نحو حكيم أن يقول أى شىء زيادة عن كيف تكون شريكًا جنسيًا جيدًا. كان هذا حقًا فى عام 1936 - قبل عقد من ضرب كتاب متعه الجنس لقوائم أفضل الكتب مبيعًا وقبل أن يظهر جون لينون عاريًا مع يوكو أونو.

وفى حين يوجد شىء ما عتيقًا على نحو واضح فيما يتعلق بكتاب كارنيجى، فأن هناك الكثير للتفكير فيه فى هذه الصفحات. وقد اتبعت الملايين بحرص نصائحه حول

دائرة واسعة من الأمور. ربما كان رجل الأعمال هو القارئ المثالى الذى تصوره كارنيجى لكتابه. إنه «رجل قليل الشأن» فى الشركة. أنه يريد إجراء المبيعات والترقى فى عالم الرؤساء وزوجات الرؤساء الذين يصعب إرضا ؤهم. ولكى يفعل ذلك، يتعين عليه أن يستخدم كل ضروب الخداع التى يستطيع أن يحشدها. ينبغى أن يستخدم فطنته، وأن يكون أكثر مهارة من رئيسه أو من زوجته. ينبغى عليه أن يفوق الزبون دهاء المرة تلو الأخرى. ولكنه يتعين عليه أن يكون صادقًا ومخلصًا، فذلك هو المفتاح للنجاح. وفى غير هذا ينحدر أسلوب كارنيجى إلى وصفة للزيف والخداع والهجوم السلبى. وإلى درجة مذهلة، شكل كارنيجى جيلًا من الشباب فى أمريكا، وساعدهم على تعلم كيفية مساعدة أنفسهم.

لقد كان لرسالته عن تحسين المرء لنفسه جذور طويلة وعميقة فى الثقافة الأمريكية، ترجع بالطبع إلى بنيامين فرانكلين، لكنها ترجع أيضًا إلى هورا شيو الجير، مؤلف القصص التى لاتنتهى عن المضى قدمًا فى الحياة، والصعود من الأسمال إلى الثراء من خلال الإيمان السحرى بالنفس والدأب. وما فعله كارنيجى، بصورة ألمعية تمامًا، هو إعطاء تحسين المرء لنفسه وجهًا منظمًا. وقد أجدى أسلوبه ولايزال. ولاتزال للكتاب جاذبية كبيرة على النطاق العالمى، رغم أنه ربما يكون قد فقد بعضًا من بريقه الأصلى. ولاحاجة للقول بأن كثيرًا من خيرة أفكاره مستمدة من صفحات الكتب المقدسة العالمية. اعمل للآخرين ما تود أن يعملوه لك. تلك هى الرسالة الجوهرية فى هذا الكتاب، وفى هذا قدر كاف من الحقيقة (والتعقيد) للأجيال لكى تتأمله دون توقف.

4

من الصعب حساب التأثير الحقيقى لمثل هذا الكتاب، لكن المرء يستطيع اختبار فاعليته على نبضه هو الخاص. لقد غير كتاب كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس حياتى الخاصة وأنا فى سن المراهقة، وربما أثر فىّ بطرق ماكرة منذئذ. قبل كتابة هذا الفصل لم أكن قد عاودت قراءة الكتاب لمدة أربعة عقود، لكننى ذهلت عندما تبينت أننى أتذكره بمثل هذا التحديد. كنت أستطيع تقريبًا أن أكمل الجملة وأنا أقرؤها. وسواء كان ذلك خيرًا أم شرًا، فربما أدخلت فى قرارة نفسى كثيرًا مما دعا إليه كارنيجى حتى بات جزءًا منى. فإن صدق هذا علىّ، فربما يصدق على كثيرين آخرين – ملايين من الآخرين. وتبرز الطبعة التى لدى والتى يرجع تاريخها إلى 1964، على غلافها أن مايربو على 9783000 نسخة قد بيعت حتى وقت صدورها. ربما تضاعف هذا العدد حاليًا فى الولايات المتحدة وحدها. وقد تمت ترجمة الكتاب إلى عشرات وعشرات من اللغات، وتم بيعه – كما سلف بيانه – بأعداد هائلة لأقصى حد فى روسيا بعد سقوط الشيوعية، وهى حقيقة تخبرنا بشىء ما عن ارتباطه بثقافة تنظيم المشروعات. ومثل هذا الكتاب لايجذب جمهورًا عريضًا متفانيًا، إلا فى عالم يتم فيه، «المضى قدمًا» عن طريق بيع الأشياء – أو بيع النفس. بيد أنه فى نص كهذا، يثبت كارنيجى أنه مصدر مرحب به للنصيحة. إن مبيعات كتاب على هذا النطاق تتوقف على نطاق واسع على تناقل أخباره، ولن يوصى القراء طوعًا بكتاب لم يعن شيئًا بالنسبة لهم.

ومع ذلك فإن كتابًا بهذه الضخامة، هو كما قلت، أكثر من كتاب، إنه مناخ للرأى. لقد استند إلى كتب كانت موضوعة بالفعل – مثل كتب فرانكلين والجير – وولّد كتبًا من النوعية نفسها. إن الأفكار المكتوبة تتداول وتتوسع. وعادة فإن الكتاب يمكن أن يكون مؤثرًا تمامًا حتى عندما لايكون قد تأثروا به قد سمعوا به مطلقًا، وهذا هو بالتأكيد حال كتاب كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر على الناس. كانت كتيبات الإرشاد المكرسة لمساعدة البائعين الجوالين شائعة للغاية فى العقود الأولى من القرن العشرين وكان كارنيجى قد استوعب هذه

النصيحة بسهولة. ويستطيع المرء أن يتجول فى أى مكتبة فى أمريكا حاليًا ويجد رفا طويلًا من الكتب الخاصة بالاعتماد على النفس التى تدين بالكثير لكارنيجى.

فعلى سبيل المثال، هناك كتاب **المدير لمدة دقيقة واحدة** (1981) لكينث بلانشارد وسبنر جونسون، الذى باع مايربو على اثنتى عشرة مليون نسخة فى سبعة وعشرين لغة. والكتاب هو كتاب كارنيجىّ صرف، ويتبنى تقنية تقدم قوائم مراجعة موجزة للنقاط المهمة التى يتعين تذكرها. وهو ملئ بالنوادر الصغيرة، التى تفيد فى توضيح الفكرة المحورية فى كل فصل. ومن الأفكار الرئيسية فى الكتاب أن المرء يتعين عليه أن ينقضّ على الناس وهم يعملون شيئًا ما بصورة سليمة، ثم يثنى عليهم على ذلك. فعندما تكون نقادًا للناس، يتعين عليك أن تجعلهم يعرفون أنك تقف فى صفهم. ازج لهم التهنئة، وابتسم لهم. ذكرهم المرة تلو الأخرى بأن فكرتك عنهم طيبة بصفة عامة، حتى وإن كنت تشير إلى شىء ما خاطئًا فى سلوكهم. ويستمر المؤلفان فى تذكير القارىء بأن المستخدمين الذين يشعرون شعورًا طيبًا تجاه أنفسهم سيتصرفون بطرق منتجة. أظن أن كارنيجى كان سيحب هذا الكتاب. فقد جاء منه مباشرة.

ومن بين أبرز كتب الاعتماد على النفس التى ظهرت مؤخرًا كتاب **7 عادات للأشخاص ذوى الفاعلية العالية** لستيفن آر كوفاى، الذى باع مايربو على خمسة عشرة مليون نسخة منذ أن ظهر لأول مرة فى 1989. ففى فصل «تمهيدى آسر» يتحدث كوفاى عن التراث الطويل من الكتب التى تتحدث عن النجاح، والتى أرجعها إلى بينيامين فرانكلين. وهو يشير إلى أنه قبل الحرب العالمية الأولى، ركزت مثل هذه الكتب على الأخلاقيات الشخصية، ويعتبر فرانكلين هو المصدر هنا. أن النجاح سيتحقق إن كان المرء مخلصًا، متواضعًا أمينًا، معتدلًا، وما إلى ذلك. (هناك نغمة روحية خافتة تمامًا فى كتابه كوفاى، رغم أنه لايذكر الله إلابصورة عابرة). وبدون أن يذكر ديل كارنيجى بالاسم، يبدو ناقدًا له، مشيرًا إلى أن الكُتاب الذين كتبوا عن كيفية النجاح فى الحياة بعدالحرب العالمية الأولى، قد ركزوا على القضايا المتعلقة بالهوية الشخصية. وكتب يقول: «لقد أصبح النجاح بصورة أكبر دالّه على الهوية

الشخصية، على الصورة العامة، على المواقف و السلوك، والمهارات والتقنيات، التى تجعل عمليات التفاعل الإنسانى سلسة». والواقع، أن كوفاى يدين الكتب «التى تتسم بالتلاعب، بل بالخداع، والتى تشجع الناس على استخدام تقنيات لجعل أناس آخرين يحبونهم». وينقل بصورة غير مباشرة عن كارنيجى ساخرًا منه، فكرة أن «الابتسام يكسبك أصدقاء أكثر مما يفعل التجهم».

ولدى كوفاى حجة قوية. ذلك أن كارنيجى ومن هم على شاكلته مثل نورمان فنسنت بيل، مؤلف كتاب قوة التفكير الإيجابى (1952)، يركزون على تقنيات بعينها للتعامل مع الناس عبر اتباع نهج الكل أكبر من مجموع الأجزاء، معتبرين «الهوية الشخصية» جزءًا من شىء أكبر يسمى «الشخصية». وكان من التطورات الواضحة فى كتب الاعتماد على النفس فى العقود القليلة الماضية التركيز على فهم ما يمكن أن يسمى على نحو غامض الأبعاد الروحية للتفاعل الإنسانى. وفيما بعد فى الستينيات من القرن الماضى، تغير مفهوم «النجاح» بأسره؛ فقد زاد الوعى بأن النجاح لايمكن تحديده بسهولة فى الترقيات، والمنافع المالية، والسلع المادية، والاعتراف العام بمنزلة المرء. لقد شهدت مؤخرًا حوارًا مع رجل كان يعرف كل شخص مشهور بصورة جيدة لأقصى حد، وقد وجه له سؤال فى الحوار: «هل كان هذا الرجل سعيدًا.» فرد ذلك الأخ آه نعم. لقد كان سعيدًا جدًا. فيما عدا فى حياته الشخصية». وبالطبع، فهناك حياة شخصية واحدة فخسب؛ ومع ذلك فإننا نعيش هذه الحياة بين آخرين. ويستلزم الفهم السليم للخبرة الإنسانية إحساسًا مركبًا بالمجتمع، والترابط المتبادل. أن الديانات الكبرى فى العالم تعلمنا على نحو شامل تقريبًا أن تقديم الخدمات هو مفتاح السعادة و «النجاح» إننا ننجح بقدر ما نستطيع مساعدة بعضنا البعض. وقد أدرك كارنيجى هذا بدرجة ما، وأضفى تركيزه على الإصغاء للآخرين، وزنًا أخلاقيًا معينًا للبرنامج الذى تبناه. فهو يطلب من المرء الذى حقق نجاحًا ونفوذًا أن ينسى نفسه، وأن ينظر لشخص الآخر. وتلك بداية وإن كانت محدودة.

ومما يحسب لكوفاى، أنه أسس خطته «للسعادة» و «النجاح» على الأخلاق والقيم الروحية. كذلك فعل ريك وارين، وهو مؤلف آخر يحظى بالشعبية لكتب الاعتماد على النفس - منها الحياة التى يحركها هدف، الذى باع مايربو على ثلاثين مليون نسخة فى شتى أنحاء العالم منذ ظهوره لأول مرة فى 2002. ووارين كاهن بروتستانتى، وراعى ابرشيه ومؤسس لكنيسة سادلباك فى ليك فورست فى كاليفورنيا؛ ولاغرو أن عمله سار فى اتجاهات لاهوتية صراحة. وهو أيضًا مبرمج، مثل كل كتاب هذه الكتب منذ كارنيجى، ويقدم للقارئ رحلة روحية لمدة أربعين يومًا، طريقة لتغيير حيواتهم. ويقول أن لدى الله خطة بالنسبة لنا، وأننا هنا على الأرض لنخدم الرب وزملائنا فى الخليقة. وتتبع فكرته الأساسية قول القديس متى فى الإصحاح العاشر الآية 42 «ومن سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ فالحق أقول لكلم أنه لايضيع أجره». ويهيب بنا وارين أن نتصرف مثل الخدم، مبرزًا «أن الخدم يفكرون فى الآخرين أكثر مما يفكرون فى أنفسهم». ويمكن للمرء أن يتبين كتاب ديل كارنيجى يحوّم فى الخلفية هنا، وإن كان على بعد، ومع ذلك، فإن منهج وارين يتكشف فى إطار سياق دينى محدد كان سيبدو مبالغًا فيه بالنسبة لكارنيجى.

لم تكن لدى كارنيجى رسالة دينية واضحة، كما هو واضح، لكن ذات مرة دعاة نورمان فنسنت بيل لإلقاء عظة فى كنيسة، وكان هذا بالنسبة له لحظة خاصة فى حياته. لقد قدم وارن باعتباره بشرًا مسيحيًا، فلسفة مباشرة عن الحياة تقوم على مبادئ عقيدته. وكان ماحصل عليه من بنيامين فرانكلين وكارنيجى، وعدد لايحصى من مؤلفى كتب الاعتماد على النفس ممن جاءوا قبله، هو فكرة أن المرء يمكنه أن يضع فى كتاب خطة لحياة القارئ، خطه باعثة على التحول. ينبغى أن تستند لأفكار عملية، رغم أن الافتراض الأساسى هو إنه ليس عنك أنت، أيها القارئ. أن الحياة لاتتعلق بتعظيم الذات، و السلع المادية، والإجلال، والحفلات. إنها تتعلق بإعطاء الأولوية للآخرين (أو فى حالة وارين، إعطاء الأولوية لك بإعطاء الأولوية للآخرين).

ومثلما يعرف كل الناشرين، هناك تعطش شديد لكتب الاعتماد على النفس. والأمريكيون بصفة خاصة يحبون هذه الكتب، وليست لها نهاية. لقد قرأت مؤخرًا كتابًا اسمه «**الإنجاز الأقصى : استراتيجيات ومهارات تفتح مغاليق قواك المخبوءة للنجاح** لبريان تريس. ومع ذلك، فإن تريس هو ابن آخر من أبناء كارنيجى الكثيرين، وهو يحث القارئ على أن يحدد الأهداف وأن يعمل بطرق متروية ورشيدة»: إذا رأيت نفسك حاليًا على الصورة التى تود أن تكون عليها، ومشيت، وتحدثت، وتصرفت مثل أفضل شخص تتصور نفسك على غراره، فإن أفكارك وأهدافك المسيطرة ستتجسد مثل حقيقتك. ستصبح ما تفكر فيه معظم الوقت. ويمكن تسمية هذا بالمسيحية التطبيقية، العلمانية، حيث إن العهد الجديد يقدم مرارًا وتكرارًا صيغًا من هذه النصيحة.

وبقدر كاف عادة، فإن الكُتاب من تراث ديل كارنيجى هم مبشرّون من نوع أو آخر، وهم حاليًا يستعرضون أفكارهم فى التليفزيون أحيانًا، حيث يمكنهم الوصول لجمهور حاشد. ويبدو أن الأمريكيين وقعوا فى غرام البائعين الجوالين ممن لأخلاق لهم، ونادرًا مايوجد من بين هؤلاء من لايحملون بذرة ما من الحقيقة فى رسائلهم (وهم عادة من الذكور، ومن ثم لم أهتم بالتأنيث هنا). وكما سلفت الإشارة إليه، فإن واحدًا من أكثر البائعين الجوالين الحاليين ضحالة هو جويل أو ستن، مؤلف «**حياة فضلى لك الآن وغيرّ نفسك للأفضل: 7 مفاتيح لتحسين حياتك كل يوم**. ومثلما جاء على الغلاف الورقى للكتاب المشار إليه: «أن جويل أو ستن وصل لجمهور حاشد فى الولايات المتحدة وفى كافة أرجاء الكرة الأرضية. فقد استلهم ملايين الناس فى أكثر من مائة بلد على النطاق العالمى أفكارهم من خلال برامجه التليفزيونية الأسبوعية ومن عروض كتبه الأكثر مبيعًا فى النيويورك تايمز، وجولاته الدولية لإلقاء المحاضرات المحجوزة والمباعة بالكامل، ومن إذاعاته الأسبوعية على أجهزة البود فى إطار برامج العشرة الأول». وقد شاهدته بنفسى عدة مرات فى التليفزيون، ورأيت مدى جاذبية رسالته. إنها قوة التفكير الإيجابى، عن طريق كارنيجى، وعن طريق التنقيب فى التوراة. أن مشكلتى الخاصة مع أوستن هى تركيزه على السعى وراء الثراء والعظمة الذاتية.

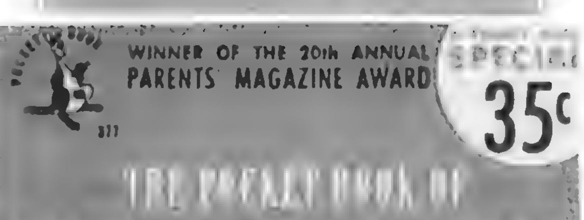
أنه يؤمن بأنك تستحق بيتًا أكبر، وسيارة ألطف، وأجرًا أفضل. وهو يعتقد بأن الله يريدك أن تحصل على هذه الأشياء. وكل ما عليك عمله هو أن تُسرّ بأمنياتك للنجوم - أي تصلى لله أن يعطيك ما تستحقه.

ويعكس هذا النهج جانبًا من أسوأ جوانب الاجتهاد المتشدد: فكرة أن الله يكافىء أحبائه بالسلع المادية. وعلى الجانب الآخر من ذلك، توجد فكرة أنك إذا كنت فقيرًا، فذلك خطؤك. لابد أنك فعلت خطأ ما، وتصرفت بصورة سيئة بطريقة ما، ومن ثم فقد اختار الله أن يعاقبك. ومن ثم، فإن جزءًا من هذه الأخلاقيات المتشددة، هو الاتجاه إلى الإعجاب بالأثرياء بل والتزلف لهم . لابد أنهم فعلوا الصواب. فلماذا يمكن بغير هذا أن يحصلوا على مثل هذه الأشياء، مثل هذا البيت الكبير، ويرتدون ملابس رائعة، ويكون مثل هذا العدد الكبير من الناس عبيدًا لهم؟

ومثله مثل كارنيجي، يعتمد أوستن بصورة كثيفة على نوادر عائلية بهيجة عن أناس مشهورين. ويبدأ كتاب اجعل نفسك شخصًا أفضل بقصة عن فرانك لويد رايت، الذى وجه له سؤالًا ذات مرة عما هو التصميم الأحب لديه من تصميماته الجميلة الكثيرة. فأجاب «التصميم القادم». ومن ثم، فإنه يطلب من القراء أن يسارعوا الخطى دون التفات للوراء. يقول لنا أوستن أن «علماء الأمراض العصبية اكتشفوا أن الشخص العادى يستخدم أقل من 10 فى المائة من عقله». ويصدر هذا من كارنيجى مباشرة (سواء اعترف أوستن بهذا أم لم يعترف)، الذى قال الشيء عينه مرارًا وتكرارًا، وهو يستشهد بوليام جيمس حول هذه الفكرة تحديدًا. كذلك فإن أوستن، مثله مثل كارنيجى، كثيرًا ما يلخص أفكاره الأساسية، مقدمًا نقاطًا بارزة حاسمة، فى كبسولات. أنه يطرح أفكاره الأساسية بحروف بارزة مميزة، مثلما فعل كارنيجي. وفى بعض الأحيان يقوم ببساطة بإعادة صياغة لكارنيجى مع تغيير طفيف، كما جاء فى قوله: «أن مجاملة بعضنا البعض هى الغراء الذى يبقى علاقاتنا متماسكة معًا». وبصفة عامة، فان يعيد تشكيل صيغة كارنيجى بصورة تامة نوعًا ما.

ومع ذلك، فإن كثيرين ممن أتوا بعد كارنيجى أضافوا قيمة على ما وجدوه. فكتاًب مثل كوفاى ووارين مثلًا، أضافوا بعدًا روحيًا كان مدفونًا نوعًا ما عند كارنيجى، الذى كان ينقل عن الكتب المقدسة لكن يبدو أنه لم يكن يفهمها على نحو عميق. وأوستن ووارين أقل اتسامًا بالطابع العملى أيضًا على نحو مزعج، وأقل تفانيًا للارتقاء بالنفس. لقد قدما خططًا للحياة أقل تلاعبًا. بالطبع أن كتاب كارنيجى، يرجع بجذوره العميقة إلى الكساد، وكان يستهدف قراء يشعرون أنهم مجردون من القوة. ويبدو أنه كان يروج (على نحو غير واع) لما يسميه علماء النفس للهجوم السلبى.

ومع ذلك، هناك شيء قيم بما لا يقاس فى كتاب **كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس**. فقد أدرك كارنيجى، مثل بنيامين فرانكلين من قبله الفكرة الأمريكية الجوهرية عن خلق المرء لنفسه. أننا نستطيع، ويجب، أن نخلق أنفسنا. وعلى خلاف نظرائنا الأوروبيين، الذين يستمدون أحساسهم بأنفسهم من الروابط الأسرية، فإن الأمريكيين بطبيعتهم منظمو مشروعات الأنانية. قد لايبدأون بسجل أعمال خال، لكنهم يعتقدون أنهم كذلك، وتلك فكرة قوية، تومئ والأمل يملؤها إلى اتجاه اختراع المرء بنفسه لنفسه والوكالة.



BABY AND CHILD CARE

by BENJAMIN SPOCK, M. D.



COMPLETE & UNABRIDGED

11

كتاب الحصافة

فى رعاية الرضيع والطفل

1

غيرّ كتاب الحصافة فى رعاية الرضيع والطفل للدكتور بنيامين سبوك الذى نشر فى الأصل فى 1946، الطريقة التى يربى بها الأمريكيون أطفالهم، ربما للأبد. وقد أصبح الكتاب المصدر المفضل لدى الآباء فى سنوات ما بعد الحرب، وساعد فى حد ذاته فى تشكيل جيل طفرة عدد المواليد، ولاتزال آثاره تتردد أصداؤها ولايزال نجاحه التجارى يشكل أسطورة. فحسب أحد المصادر فأنه يحتل المرتبة السابقة من الكتب الأفضل مبيعًا على الدوام، مع إصدار مايربو على خمسين مليون نسخة فى تسعة وثلاثين لغة. وكانت النصيحة التى قدمها سبوك للأمهات الصغيرات مباشرة، وبطريقة ما تقليدية، لكنها كانت ثورية فى نبرتها. فقد شرح لهن بصوت باعث على الاطمئنان ووديع إنهن يعرفن أكثر مما يعتقدن، وأهاب بهن أن يثقن فى غرائزهن. فإذا شعرن بأنهن يرغبن فى حمل طفلهن عندما يبكى، فيجب عليهن أن يفعلن ذلك، فلن يلحق ذلك ضرر بالرضيع. وقد شجعهن على إقامة علاقة دافئة بين الأبوين والطفل. وفى حين كان الوالدين فى الجيل السابق يتسلط عليهما هاجس وضع مبادئ توجيهية صارمة وتحديد أنماط محددة للسلوك، لم يبد سبوك اهتمامًا كبيرًا بهذه الأمور فلم يكن «تدليل» الطفل يقلقه. كان يريد أن ينمو الأطفال بطرق تناسب شخصياتهم فرادى، واستغلال قدراتهم الداخلية لأقصى حد.

وقبل سبوك، كان معظم النصائح المتعلقة بتربية الأطفال تأتى من الوعظ، بصيغ متباينة لموضوع مستمد من سفر الأمثال، الإصحاح 13 الآية 24: من يمنع عصاه يمقت ابنه ومن أحبه يطلب له التأديب. «وبالتعبير الدارج: امنع العصا تفسد الطفل. وثارت على رأى سبوك قلة من الخبراء فى القرن التاسع عشر، منهم الدكتور إلى إيميت هولت، مؤلف كتاب رعاية الطفل وتغذيته (1844)، وهو كتاب إرشادى حظى بالشعبية عقودًا كثيرة. فقد حذر الدكتور هولت الأمهات من ألا يثقن فى قوة قلبهن، «حيث إن الغريزة وحب الأم كثيرًا ما يفترض إنهما مرشد كاف». وقد ركز كتابه، مثل معظم الكتب والمجلات والمقالات والكتيبات التى تتناول تربية الآباء للأطفال والتى ظهرت قبل الدستور سبوك، على نهج «موضوعى» أو نهج رفض السفاسف، مثل إجر التدريب على قضاء الحاجة بأسرع ما يمكن، لاتحمل طفلك عندما يبكى، حيث إن ذلك سيشجعه على البكاء، والتعجل مهم فى فطم الطفل عن الرضاعة من الثدى أو الزجاجة، ولاتتسامح مع مصّ - الإبهام - فتلك علامة مؤكدة على التردى، بل والاضطراب العصبى الوظيفى، وضع جدولًا زمنيًا صارمًا للنوم والأكل.

واتبع بنيامين سبوك نهجًا مختلفًا تمامًا، مناديًا باتخاذ الوالدين وضع مسترخ وإن كان يقظ العينين. وأخذ فى الاعتبار حاجات الطفل، لكنه راعى مشاعر الأبوين واحتياجاتهما هما أيضًا. بدا وكأنه يحوم فى الغرفة مع الأبوين، مشجعًا على اتباع نهج طبيعى وإنسانى بدرجة أكبر - رغم أن القراءة المدققة لكتاب سبوك ستكشف عن تحيز محافظ تمامًا أيضًا، تحيز يضع السلطة فى يدى الآباء والأمهات. ومع ذلك، فإن التحول المزلزل كان فى النغمة فى الأساس: فقد قدم سبوك للأبوين وسيلة للمضى قدمًا بالمهمة المطروحة أمامهما، دون أن تعوقهما المعارف والمعتقدات النقلية للآباء والأجداد، وتحذيرات الكنيسة الصارمة.

وقد اعتبر النقاد طويلًا نهج الدكتور سبوك متساهلًا بأكثر مما يجب، مشيرين إلى أن أساليبه ترسى الأساس لكل أنواع المشاكل الشخصية التى تصبح، عند توسيعها لتشمل أعداد كبيرة من السكان، مشاكل اجتماعية أيضًا. ومن بين من هاجموا سبوك أثناء حياته القسيس الدكتور نورمان فنسنت بيل ونائب الرئيس سبيرو تى أجنيو، وقد حاج كلاهما بأن

الافتقار للانضباط الذى يفرضه الأبوان دمّر جيلًا من الشباب، وحولهم إلى غيلان أنانية، وذلك هراء كامل، مثلما أوضح سبوك هو نفسه، لكن شيئًا من هذا الموقف لايزال قائمًا فى المخيلة العامة حتى الآن.

وربما كان الأمر الأساسى الذى يتعين قوله عن الدكتور سبوك هو أنه استخدم فراسة علم النفس الفرويدى كمفتاح لتنشئة الأبوين للأطفال. لقد أدرك أن كل طفل هو فرد يسير على مسار النمو، له احتياجات ورغبات، وأن جزءًا من مسئولية الوالدين هو الوفاء باحتياجات الطفل، وإذا أمكن، تلبية تلك الرغبات (رغم أن ذلك لايتم مطلقًا على حساب الصحة العقلية للأبوين). كما فكرّ فى ديناميات الأسرة واعتبر الأسرة نفسها نظامًا، بمعنى أن كل عضو فى الأسرة يشد كل عضو آخر فيها بطريقة مؤثرة. وقد حث سبوك الوالدين، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، على إيلاء الاهتمام لديناميات الأسرة ككل والاحتفاظ بالمرونة عند الرد على الأطفال. ويقدم صوته الطبيعى الدافئ والمتميز (مثلما يتبدى فى الإيقاع السلس للكتاب) للأبوين نموذجًا يستطيعان الأخذ به، ويحثهما (بصورة مباشرة وغير مباشرة) على إبداء حبهما، والتعبير عن مشاعرهما، والسماح للأطفال بالتطور بصورة طبيعية. وإذا كانت هناك قاعدة واحدة ضمنية فى كتاب سبوك فهى: لاتفرض شيئًا مطلقًا.

كل الأمور الصغيرة تتغير مع سبوك، الذى كان مبدؤه الأساسى دومًا هو: ثق فى نفسك. والواقع أن السطور الافتتاحية الشهيرة من كتاب رعاية الرضيع والطفل (وهو الاسم المعروف عادة للكتاب) هى : «إنك تعرف أكثر مما تعتقد» (3). وتستمر هذه النبرة الباعثة على الاطمئنان مع مسيرة الكتاب، وتقود الأبوين خلال مراحل متعاقبة من تنشئة الطفل، وتتصدى لأكثر المشاكل وضوحًا من الرضاعة الطبيعية لقضاء الحاجة، عبر المراهقة ومخاطرها التى لاتعد ولاتحصى. وعلى وجه التأكيد، يظل سبوك واثقًا ومتواضعًا بعزيمة وطيدة، ولايصر مطلقًا على صحة أساليبه. وكما يقول فإن «القصد من الكتاب هو أن يكون مصدرًا لاقتراحات معينة عامة، وليس قولًا فصلًا. إن تواضعًا كريمًا وإحساسًا بالتوازن

يومضان فى كل أرجاء كتابته، مثلما كتب يقول : «لقد تغيرت أفكارنا عن كيفية معاملة الطفل كثيرًا فى الماضى، وستتغير فى المستقبل على وجه التأكيد».

لاريب أن أفكار سبوك هو نفسه قد تطورت، بل وتغيرت فى العقود اللاحقة، وقد نقحّ كتابه المرة تلو الأخرى، واضعًا فى الاعتبار دومًا البحوث الجديد فى الطب والأفكار الحديثة. والواقع أن أحدث طبعة ظهرت بعد وفاته، ونقحها روبرت نيدلمان الحاصل على درجة الدكتوراه فى الطب، الذى عالج الأفكار التى لم يكن أى أبوين فى 1946 يتخيلانها، مثل كيفية التعامل مع الإنترنت أو وكالات التبنى الدولية أو كيف تتحدث مع الأطفال عن السياحة (غالبًا ما يعزل نيدلمان حكمة سبوك فى إطار منفصل ويسميها «سبوك الكلاسيكى»، وبذا يستطيع القارئ أن يسمع الصوت الأصلى ويتبين كيف تغيرت الأمور على حد سواء).

لم يكن فى مقدور أحد، خاصة الدكتور سبوك أن يتنبأ بالاستجابة الكبيرة والحماسية لهذا الكتاب من الآباء عبر عقود طويلة، أو الرجفة التى أحدثها فى المجتمع – أو كان يبدو أنه سيحدثها. لقد هز كتاب رعاية الرضيع والطفل العالم بالمعنى الحرفى، لكنه هز المهد بعنف وأثر فى جيل من الآباء فى مواقفهم تجاه الفن القديم لتنشئة الآباء لأطفالهم. وأرسى نغمة جديدة لعصر ما بعد الحرب مشكلًا جيلًا لايزال يتعين عليه أن يترك بصمته الكاملة والنهائية على الولايات المتحدة.

2

ولد بينيامين ماكلان سبوك (1903 – 1998) لأسرة مهنية من الشريحة العليا من الطبقة الوسطى، فى نيو هافن، فى كنكتكت، حيث كان أبوه يعمل محاميًا فى شركة سكة حديد نيويورك ونيو هافن. عاش آل سبوك فى منزل فسيح فى شارع كولد سبرنج، له أروقة وشرفات واسعة، على شارع تحفّه أشجار الدردار. كان هو الأكبر بين ستة أطفال وتعلم شيئًا عن التعامل مع الأطفال من تجربة مباشرة باعتباره مراهقًا له أشقاء أصغر. وبكل المقاييس، كان يحظى باهتمام أمه التى كانت مدلهة بحبه، وهى مليدريد سبوك، التى كانت تخبره مرارًا وتكرارًا: «لابد أن لديك الكثير من الكثير من الهواء النقى». ولاغرو أن امتلاك وفرة من الهواء النقى كان شيئًا استمر يوصى به الأبوين حتى النهاية.

كان والد سبوك منعزلًا نوعًا ما، يمضى الكثير من وقته فى المكتب، حيث ترقى فى سلّم الشركة بلا هوادة، لكن أمه كرست نفسها (بما يشبه الهاجس المتسلط تقريبًا) لأبنائها. وتتذكر ابنتها هايدى فيما بعد : «كانت تريد أن تكون أمًا كاملة وأن يكون لديها أبناء كاملين». وإذ اعتمدت بصورة مسرفة على كتاب الإرشادات الشعبى للدكتور هولت، فقد اهتمت بالتمارين البدنية والطعام البسيط والصحى وكذلك على الكثير من الهواء النقى. وكانت مثلها مثل هولت تعتقد أن الفواكه المدارية سيئة بالنسبة للأطفال، حيث إنها تفسد جهازهم الهضمى. واعتمدت موقف الحزم، وعلّمت أولادها ما هو الصواب وما هو الخطأ، وشجعتهم على التفكير واسع النطاق فى العالم، بمقاييس أخلاقية، وتحملهم مسئوليتهم بجدية.

وبطرق ما، حظى سبوك بفترة صبا أمريكية مثالية، دعمتها الموارد التى يمكن أن يوفرها المال والوضع الاجتماعى. ووجدته فترة العشرينيات الهادرة بالدقة فى الوضع الذى يأمل أى شاب فى أن يجد نفسه فيه فى ذلك الوقت: فى جامعة ييل. كان سبوك قد قرأ وأحب رواية أوين جونسون، ستوفر فى ييل (1912)، وكانت من أكثر الروايات شعبية فى عصرها، وهى

تصور دينك ستوفر، وهو رجل ييل المثالى. واتخذ الرواية قدوة له، وأثبت نفسه كطالب رياضى جدير بهذا التراث، وأصبح عضوًا فى فريق جمعية سكرول وكى، وهى جمعية سرية لها مكانتها المرموقة، ونجح فى التجديف بما يجاوز أشد أحلامه إسرافًا. والواقع أنه كان عضوًا فى الطاقم الذى حصل على الميدالية الذهبية الأوليمبية فى باريس فى 1924: وهو انتصار كان مدهشًا لحد أن كاتب العمود الصحفى الوطنى دامون روينون كتب مبتهجًا يقول أن ييل نفسها «لم يكن لها فى أى وقت تمثيل رياضى فى أى مجال يقارن بطاقمها الأوليمبى». وحتى آخر أيامه، كان سبوك يستمتع بالتجديف والإبحار، وكان يروى عادة للأصدقاء والأسرة مغامراته كعضو فى طاقم ييل.

وجاب سبوك العالم وهو شاب، ممتلئًا بالشعور بالفخر والشرف، محبًا لأسرته، وأحب (رغم أذنيه الكبيرتين اللتين كانتا تسببان له حرجًا) شابة جميلة، جين تشينى، التى أصبحت زوجته الأولى. والتحق بكلية الطب فى ييل، حيث يبدو أنه كان قد خطط منذ البداية ليصبح طبيب أطفال، جزئيًا بسبب اهتمام أمه بالأطفال الرضع، والذى يبدو من الواضح أنها نقلته إلى أكبر أبنائها. ولدهشة أسرته لحد ما، تزوج جين فى منتصف دراساته الطبية فى ييل، وقرر الزوجان الانتقال إلى نيويورك، حيث سينهى بنى (كما كان يسمى) دراساته فى كولومبيا. ولدهشته، ودهشة كثيرين من أصدقائه، تخرج من كلية الطب كأول دفعته. ومثلما قال أحد زملائه مندهشًا ليغيظه : «سبوك، من دون كل الناس! لماذا، كنت أعتقد أنك غبى!»

كان جد بعيد عن الغباء، وبدأ يتخصص فى طب الأطفال، رغم أن هذا الميدان كان صعبًا فى بداية الكساد. لم تكن أسر كثيرة تستطيع تحمل تكاليف إعداد متخصص، أو حتى طبيب، إلا فى حالات طارئة ملحة. ومع ذلك، وجد سبوك عملًا فى مستشفى فقيرة هيلز كيتشن فى نيويورك، واكتسب سمعة عن استعداده لقضاء الوقت مع الأمهات اللاتى تشعرن بالقلق، مجيبًا بصبر على أسئلتهن لساعات بغير انقطاع. وشعر أنه غير مستريح للمهنة لأنه كان يفكر فى كل طفل باعتباره فردًا بذاته، وكان من الصعب بالنسبة له أن يقبل الأفكار القديمة (مثلًا) عن وضع حد لمصّ الإبهام فور ظهوره. وكان أقل ضراوة بشأن التدريب على قضاء الحاجة

أيضًا. إذ كان يرى أنه من البلاهة محاولة تدريب طفل أصغر من أن يصلح لذلك. واستهوى نهجه الأكثر حنانًا ولطفًا الأمهات.

ولاحاجة للقول بأن تاريخًا طويلًا من المعتقدات والأحكام المسبقة كان يكمن وراء المواقف التى واجهت سبوك فى جهوده ليفكر بأسلوب جديد فى تربية الطفل. لقد كان البروتستانت الأول يعتبرون الأطفال فاسدين كلية بحكم طبيعتهم وشجعوا الآباء على «تقويمهم» بشدة، وإجبارهم على الخضوع لمشيئة الرب. وتغيرت الأمور نوعًا ما فى القرن السابع عشر، عندما أصدر جون لوك، الفيلسوف الإنجليزى، كتيب إرشادات عن تربية الأطفال أُعجب به المستوطنون الأمريكيون. فقد كان مثل كثيرين فى أيامه يعتقد أن عقل الطفل صفحة بيضاء (لوحة ممسوحة)، بعبارة أخرى، أنه لم يفترض ببساطة ان الطفل ولد فى الخطيئة. وكان هذا يعنى فى الواقع، أن الوالدين يستطيعان ترك بصمة على الطفل، والواقع أن فكرة الطفولة نفسها باعتبارها مرحلة منفصلة من النمو كانت قد بدأت تكتسب موطئ قدم. ومع ذلك، فقد أوصى لوك بقوة بإعطاء حمام بارد، ووضع مدوّنة صارمة للملابس، والغذاء البسيط - لم يكن هناك شىء «يتم التساهل فيه» عنده. وفى القرن الثامن عشر، أهاب جون ويسلى (مؤسس حركة الكنيسة المنهجية) الإباء على استئصال الاثم لدى أطفالهم، ومحذرًا من التساهل، وحاثًا على الصرامة وعدم مرونة الآباء. وفى القرن التاسع عشر، ظهر مفهوم التعليم المسيحى الجيد، مع التركيز على تشكيل التطور الأخلاقى للطفل، وكان ذلك بونًا شاسعًا صارمًا يبعد عن الضراوة البروتستانتية. كان ذلك فى نهاية المطاف، هو قرن تشارلس ديكنز، الذى فعل الكثير لتركيز الانتباه على تطور الطفل. وفعل ذلك بتعاطف كبير مع هذه الفترة من حياة الإنسان. بالطبع، إن معظم كُتاب العصر الفيكتورى الذين كتبوا عن تربية الطفل حذروا من الطراوة والتساهل، معتقدين أنه من المهم استئصال أى اتجاهات خطرة فى المراحل المبكرة من حياة الطفل. وبحلول الوقت الذى ظهر فيه سبوك على المسرح كطبيب أطفال شاب، كان نهج عالمى بدرجة أكبر قد اكتسب شيوعًا، حيث كان مجال علم نفس الطفل قد ازدهر. وكانت أفكار جون ديوى عن التعليم المتدرج قد بدأت تترسخ فى

مطلع القرن، وشاهدنا كُتابًا كثيرين يدعون إلى نهج لتنشئة الأطفال لايبدو جد مختلف عما نادي به سبوك نفسه فيما بعد. فعلى سبيل لامثال، كان هناك كتاب إلين كاى الشعبى المسمى قرن الطفل (1909) الذى نفخ هواًء جديدًا فى الخطاب القديم عن الطريقة السليمة لتنشئة الطفل. إذ كتبت فى الفصل المعنون «التعليم» تقول : «إن قمع الشخصية الحقيقية للطفل، وغرس شخصية أخرى بدلًا منها، لايزال جريمة تربوية شائعة بالنسبة لهؤلاء الذين يعلنون عاليًا أن التعليم يجب أن يطور الطبيعة الفردية الحقيقية للطفل فحسب». وأضافت باقتناع: «أن التعليم يجب أن يقوم على التيقن من أن النقائص لا يمكن التعويض عنها، أو تدميرها، ولكن لابد أن تكون لها عواقبها دومًا». ويبد وهذا إلى حد بعيد قريبًا من سبوك فى النغمة والمضمون.

وكان من بين الكتب الكثيرة عن تنشئة الطفل التى قرأها سبوك باهتمام كتاب جون بى واطسون الرعاية النفسية للرضيع والطفل (1928). والذى حدّث التفكير فى هذا الموضوع وجعله عصريًا بفصل أسماه «الكثير جدًا من حب الأم»، الذى كتب فيه: «عندما يغريك تدليل طفلك تذكر أن حب الأم أداة خطرة. أداة يمكن أن تحدث جراحًا لاتشفى أبدًا، جراحًا يمكن أن تجعل الطفولة تعيسة، وتجعل المراهقة كابوسًا. أداة يمكن أن تحطم المستقبل المهنى للابن البالغ أو الأبنة البالغة وفرصهما فى السعادة الزوجية». ولاريب أن هذا لم يقدم إيماءة تريح الأم القلقة.

وعلى نحو متزايد، كان سبوك يريد أن يفكر فى الأسس السيكولوجية للطفولة ويدرسها. وقاده هذا الاهتمام إلى الانكباب على علم النفس ودراسة أعمال فرويد وأتباعه بدقة. وأخضع نفسه لتحليل على يد ممارس فرويدى مشهور، هو الدكتور برترام لوين، الذى كان قد تدرب على يد أحد تلاميذ فرويد وأثبت هذا العمل أن له قوة إيحاء، فسرعان ما أجرى سبوك مزيدًا من التدريب فى معهد التحليل النفسى فى نيويورك. ومثلما يفسر توماس ماثير، كاتب سيرته، فإن «سبوك عقد العزم على ضم رؤى فرويد الثاقبة لعمله كطبيب أطفال». وفى آواخر الثلاثينيات، دخل فى جولة ثانية من التحليل مع الدكتور ساندور رادو، وهو

عالم لامع لمرحلة، مابعد فرويد كتب مقالًا شهيرًا، بعنوان «الأم القلقة»، فى 1927. وكانت الفكرة هنا هى أن الأم تستطيع، حقًا، أن تلحق ضررًا دائمًا بالطفل بالإفراط فى حمايته. كان رادو رائدًا فى مجال التفكير بشأن الآثار الضارة للنرجسية فى العلاقة بالأمومة. والمؤكد أن الدكتور سبوك، الشاب تعلم من رادو أن تفاعل الأم مع طفلها مهم بصورة هائلة وأن هذا التفاعل الحرج ينبغى أن ينطوى على قدر كبير من التفكير والاستعداد.

وذاع فى نيويورك أن طبيب أطفال شاب يدعى بنيامين سبوك مهتم جدًا بعلم النفس الفرويدى وأنه استخدم هذا التدريب بصورة فعّالة تمامًا فى عمله مع الآباء. وفاتحه رئيس تحرير من دار نشر دابلداى فى 1938، مقترحًا أن يكتب كتابًا عن تربية الأطفال. ورفض سبوك العرض، لكن شرارة كانت قد انطلقت، وتفجرت بعد ثمان سنوات فى كتاب «**الحصافة فى رعاية الرضيع والطفل**».ومع ذلك، فقد كانت على الدكتور سبوك فى البدء أن يوفق بين فهمه لوجهة نظر فرويد عن الطفولة وتأثيرها الحاسم على حياة البالغين، وبين نهجه هو الخاص، عن الموضوع. هل يتعين الأخذ بنهج صارم إزاء الوالدين، وتحذيرهما من أنهما يمكن أن يفسدا حياة الطفل؟ أم أن هناك طريقة أخرى ألطف؟

ورفض الجيش قبول سبوك فى صفوفه بداية الحرب لأنه كان قد أصيب مؤخرًا بنوبة التهاب رئوى، كانت لها آثار دائمة على رئتيه، ولكن فى 1944 قبل فى صفوف الاحتياطى البحرى للولايات المتحدة، وجند للمجهود الحربى ليعمل كطبيب نفسى فى المستشفيات البحرية فى نيويورك وكاليفورنيا. ومع ذلك، فقد كانت هناك بضع سنوات هادئة فى بداية الحرب توافر له خلالها وقتًا أطول نوعًا مما كان يتوافر له عادة، واستغل هذه الفترة استغلالًا حسنًا، فكتب مذكرات أدت إلى كتابه. وقد حدث أن رئيس تحرير آخر، هو تشارلس دويل (من دار دويل، سلون آنديبرس) فاتحه فى وضع كتاب عن الأطفال، حيث كان سبوك هو طبيب طفله الخاص ولمس بصورة مباشرة جدة نهج سبوك. وبحلول ذلك الوقت كان شكل الكتاب قد غدا أكثر وضوحًا فى رأس سبوك وقبل الاقتراح.

ومن حيث الشكل، لم يختلف كتاب سبوك بصورة هائلة عن كتاب هولت، الذى كانت أمه معجبة به، أى أنه انطلق من مرحلة الرضاعة إلى الطفولة، والمراهقة، مع قدر كبير من النصائح العملية، لكن النغمة، حتى فى النصائح المحددة، اختلفت بصورة حادة. فقد حث سبوك الوالدين على الأخذ بنهج حنون يظهر رغم ذلك حزمًا وعزمًا. لم يكن يريد أن يتصرف الوالدان مثل ضابط تنفيذ القوانين، وبدلًا من ذلك، يتعين على الوالدين أن يحدثا الطفل، ويلعبا معه، ويشجعانه ويرشدانه. وفى معارضة مباشرة لنصيحة جون بى واطسون، نادى بأن الوالدين ينبغى ألا يشعرا بالقلق بشأن مواعيد الطعام والنوم، حيث إن هذه ستصلح نفسها بنفسها. ورفض الهاجس القديم المسيطر بشأن حركات الأمعاء لأنه محض هراء. خلاصة القول، فقد دعا الوالدين للاسترخاء وترك غرائز هما الجيدة توجه سلوكهما. فإن فعلا ذلك، فكل شىء سيسير على مايرام. لقد اختفت. النغمة المركزة، الدكتاتورية عادة، لكتب الإرشادات السابقة عن تربية الطفل، وظهر نهج أكثر حنانًا ونعومة. وباعتباره دارسًا لعلم النفس، أدرك أن إرهاب والدى الطفل المولود حديثًا ليس فكرة ذكية. كان يعرف أنه عندما يرجع الوالدان إلى كتابه، فإنهما يفعلان ذلك وهما يشعران بالكرب. وليس هناك أى فائدة من إرهابهما أو جعلهما يشعران بمزيد من القلق أكثر مما هما فيه بالفعل. كان سبوك يطمئنهما، ويتحدث إليهما كصديق حكيم له خبرة بالأمور المطروحة. وقد فعل ذلك بلغة واضحة ومحددة، معتمدًا نبرة العم أو الخال.

كان سبوك حريصًا على ألا يستخدم لغة تستدعى شبح الدكتور فرويد، حيث إن الجمهور الأمريكى لم يستطع أبدًا أن يبتلع الكثير من هذا. والواقع أنه لم يذكر فرويد مطلقًا، وقدم صيغة حميدة من نظرياته. وتكمن أصالة عمل سبوك فى استخدام فرويد ليحكم فكره هو الخاص عن تطور الطفل والنشاط الجنسى. كان يدرك بالقدر الكافى تمامًا أن الأمريكيين فى الأربعينيات لم يكونوا سيتحملون حديثًا صريحًا عن الأمور الجنسية، وقد خفف هذا الجانب من الأمور. فعلى سبيل المثال، فإنه لم يتكلم مطلقًا بصراحة عن عقدة أوديب، عن موضوع الرضاعة من الثدى، وكان يخبر الأم ببساطة أن الأطفال يحبون أن يأكلوا ويحبون المصّ بصفة خاصة. وفى هذا، كان يبدو أشبه كثيرًا بطبيب أرياف، عائلى وباعث

على الطمأنينة. وهناك بالكاد لمحة عن رجل كان قد خضع مؤخرًا لجولتين من التحليل الفرويدى، وطبيب درس النظريات الحديثة الأكثر تقدمًا عن تطور الطفل.

وحل هذا النهج الأكثر إشراقًا محل القواعد المتعسفة فى الكتب الإرشادية السابقة عن تنشئة الطفل. إذ يمكن للأم أن تقرر لنفسها متى يحين وقت التوقف عن الرضاعة من الثدى. وعليها ألا تقلق بشأن حركات أمعاء الطفل، أو الافتقار إليها.

وبالنسبة للأكل، يبدو من الواضح أن الأطفال لايميلون إلى التضور جوعًا. ذلك أنهم يأكلون عندما يكونون جوعانين ولأنهم جوعانين. إن فرويد يقول أن الناس تحركهم دوافع وحوافز طبيعية، وقد قبل سبوك هذا الفهم. وطبقه على الأطفال بلطف وحرص، وكذلك على تنشئة الأباء للأطفال. وجميع هذا به قدر كبير من الرشد. وفيما يتعلق بموضوع الانضباط والأخلاق، عاد سبوك إلى فكرة فرويد الأساسية عن الأنا العليا، وهى فكرة أن وعى الفرد يتطور فى الوقت المناسب وأن ذاته تصبح قوة تكبح شهوة الجنس الجامحة، وهو الذى يروض ويشكل الأنا نفسها. كانت فكرة فرويد هى أن الأطفال يتبنون تدريجيًا الأنا العليا لوالديهم، ومن ثم تصبح عملية تنشئة الآباء للأبناء عملية توفيق بين الوالد والطفل.

وكانت مسألة كيف يتعين على وجه الدقة إجراء مثل هذا التوفيق مطروحة للاستخلاص، وهنا أضاف سبوك بثقة مساهمته القيمة، مؤكدًا أنه على الوالدين أن يرسيا نموذجًا للانضباط والسلوك القويم فى حياتهما هما نفسيهما. إذ كان يدرك أنه من المستحيل إجبار الطفل على إدراك هذه الأمور بصورة مجردة، وأن مثل هذا النهج النظرى لم يكن فعالًا بأية حال مطلقًا. أن الوالدين الأذكياء يقدمان ببساطة مثالًا للسلوك ويشجعان أطفالهم بهدوء على أن يتبنوا النموذج القائم أمامهم. وبدلًا من النصح باستخدام العقاب والإرهاب كأدوات للأبوين، أوصى سبوك باتباع العقل السليم مقترنًا بالتعبير عن المشاعر الدافئة.

كان هذا التغيير فى النهج جذريًا فى أيامه، عندما كان الأطفال فى المدارس لايزالون يتعرضون للعقاب البدنى، وكان صفع الأطفال سلوكًا عاديًا فى الأسر الأمريكية. ولاحظ سبوك دون مواراة أن الأطفال الذين كانوا يصفعون لأنهم يسرقون اللعب من أطفال آخرين

يستمرون عادة فى سرقة اللعب. ويشرح لقرائه أن الصفع واللطم لايجديان، فهذه ليست طريقة رشيدة للسيطرة على الأطفال والتأثير على سلوكهم، بطريقة إيجابية. إن ذلك لايرسى سوى نموذج للنهج العنيف فى حلّ المشاكل. ومع ذلك فقد أشار سبوك إلى أن انفجار نوبات الغضب القصيرة من الوالدين ليس أمرًا سيئًا. ورفض «المناكدة» المنتظمة أو الصفع المستمر، لكن إظهار الغضب لفترة وجيزة أمر طبيعى ومتوقع. ومرة ثانية، كان هذا الأسلوب المتوازن هو الذى حكم منهجه وجعل كتابه يحظى بمثل هذه الجاذبية (يندر وجود الوالدين الذين لايتعين عليهم التعامل باهتياج لصفع طفل، وقد كان سبوك عونًا كبيرًا فى تهدئة ضمائر الوالدين بهذا الصدد).

وقد تحدث سبوك للأم أساسًا، كما يمكن توقعه. فقد كان هذا ببساطة هو الأسلوب السائد فى العالم فى 1946، واستمر أيضًا حتى الخمسينيات. ولكن سبوك أخذ دور الآباء بجدية وأكد أهمية جعل الأب يشترك بصورة وثيقة فى تربية الطفل منذ البداية. ويشرح بعبارات واثقة أن نفوذ الأب يمكن أن يستمر طوال الحياة، وأكد أنه أمر حاسم بالنسبة للصبيان بصفة خاصة أن يرتبطوا بعلاقة حميمة مع آبائهم. كل ذلك بدا منعشًا وجديدًا. وعلى نحو عارض وبهدوء، اعتمد سبوك على رؤى فرويد الثاقبة، وجمع بين فطرته السليمة باعتباره يانكى وبين تدريبه على التحليل لخلق صوت أراح وأرشد أجيالًا من الآباء القلقين. واستبعد الجوانب الأكثر خشونة من فرويد، وخفف من المسألة الجنسية، ومال إلى تفضيل التربية على الطبيعة، وبذلك عزز دور الوالدين فى التطور الأخلاقى والمعنوى للطفل. والأمر الأكثر أهمية بالنسبة للقارئ العادى، هو أنه قدم فيضًا من النصائح الجيدة بشأن المسائل الطبية.

وراج كتاب الحصافة فى رعاية الرضيع والطفل عن طريق تناقل أخباره من فم لفم، وباع كميات هائلة. ففى عضون سبعة أعوام، تم شراء خمسة ملايين نسخة منه. ولم تبلغ حقوق التأليف التى تقاضاها سبوك مطلقًا قدر ما كان يستحقه، للأسف لأنه كان قد وقع عقدًا مجحفًا (من زاويته). وحسب كلامه، فإنه لم يحصل إلا على 37 ألف دولار كمدفوعات عن

حقوق التأليف عن طبعات الغلاف الورقى حتى 1953، فى حين أنه كان سيحصل بموجب عقد معيارى بدرجة أكبر على مايربو على 200 ألف دولار بحلول ذلك الوقت. ومع ذلك، فإن النجاح المستمر للكتاب كان يعنى أن بنيامين سبوك قد أصبح فى نهاية الأمر رجلًا ثريًا. والأكثر من هذا، أصبح اسمه كلمة تتداولها الأسرة، وغدًا هذا الاسم مرادفًا لتنشئة الوالدين الجيدة للأطفال، ولايزال كتابه (وهو الآن فى طبعته الثامنة عشرة) ملبيًا للحاجات بعد عقد من موته.

3

يبدأ سبوك «بخطاب إلى الأم والأب» (استخدم طبعة 1946 طوال هذا العرض). وكان بالفعل قد خرج عن مسار الكتب السابقة بإدراج الأب فيه، والأكثر من ذلك، أنه اعتذر عن استخدام كلمة «هو» عندما يتكلم عن الطفل – وتلك ميزة مرموقة فى حد ذاتها. وهو يشرح أن البنات مخلوقات رائعات بحيث إنه لايريد أن يكرر قول كلمتى «هو أو هى». وهناك صراحة غير عادية إزاء هذا الخطاب، مثلما يشرح قائلًا أن كتاب الحصافة فى رعاية الرضيع والطفل لاتتعين قراءته من الغلاف للغلاف وأنه يتكشف مع نمو الطفل. كما يجعل القراء يدركون أنه لايحوى القوى الفصل فى الموضوع، وأنه يتعين على الوالدين ألايتخيلا أنهما ارتكبا خطأ رهيبًا لأنه، الدكتور سبوك، ينادى بشىء مختلف عما يمارسانه. فالأم تعرف أفضل، وكذلك يفعل الأب.

وينطلق سريعًا إلى السطر الافتتاحى عن الثقة بالنفس فى «الاستعداد لاستقبال الطفل». فمثلما أدرك، فإن كل أبوين جديدين يشعران بالذعر ولايكونان متأكدين تمامًا مما يتعين عليهما توقعه عندما تصل الصرّة الصغيرة التى تصرخ ويطمئنهما سبوك قائلًا: «أنكما تعرفان أكثر مما تعتقدانه». ويحذر من الإصغاء لأى أحد لديه قليل من النصح يقدمه. ويقول «لاتأخذا بجدية مبالغ فيها كل ما يقوله الجيران»، ويشرح أن «الرعاية الحانية الطبيعية» هى الشىء الوحيد المهم حقًا، وليس كيف تربط حفاضة طفل أو تعد له غذاء بديلًا عن اللبن. ثم يقدم قائمة مراجعة معقولة بما يحتاجه الوالدان الجديدان: مكانًا ينام فيه الطفل، غطاء مرتبة مضادة للماء، بطاطين دافئة، وما إلى ذلك. ويصف النوع المثالى من بزازات الرضاعة ويتحدث عن التعقيم والتعبئة السليمة. ويقدم نصائح بشأن الرعاية الصحية للطفل، آخذًا فى الاعتبار حقيقة أن آباء كثيرين سيذهبون بعيدًا عن مدينتهم ليروا أخصائيًا.

وفى الحديث عن دور الوالدين فى القسم التالى، يركز على أهمية الأب، ملاحظًا أنه معرض للحصول على انطباع خاطئ بأنه غير مهم. ويلاحظ «إن الأب المسكين يكون غريبًا بصورة تامة «فى المستشفى كما شاهده سنوات طويلة من عمله كطبيب أطفال. ويحاج بعبارات واثقة بأن» قرب وصداقة الأب ستلعب دورًا فى حياة الطفل للأبد. وكانت تلك معلومات جديدة بالنسبة لقراء كثيرين، كانوا قد نسوا مايتعلق بأبيهم.

وغاص سبوك الذى لم يخش أبدًا الموضوعات المثيرة للجدل، فى المبررات الداعية للختان والرافضة له، ومال (بنعومة) إلى جانب الذين يعارضون هذه الممارسة. وفى طبعات لاحقة، أصبح أكثر حسمًا حول الموضوع، محاجًا بأن المرء يجب ألا يجرى هذه العملية التى لاطائل منها، بل وأبرز «خطر الضرر النفسى الذى يمكن أن ينجم عن هذه العملية». ومرة ثانية، كان سبوك سباقًا فى هذا الاتجاه ففى الطبعة الثامنة، نرى وجهة نظره الموجزة حول هذه المسألة: أنها عملية آمنة، لكن لاجدوى منها، ولايتعين القيام بها إلا لأسباب دينية. (ويقول أنه إذا كانت هناك أسباب دينية، فحسنًا : ولن يعانى الطفل من أى ضرر).

وعندئذ ينطلق سبوك بكامل سرعته، فيقول للقارئ أن الطفل يجب ألاينظر إليه أبدًا باعتباره «مدبر مكائد» يحاول أن يجذب الانتباه. وكتب سبوك يقول «إن طفلك ولد ليكون كائنًا بشريًا معقولًا وودودًا» (19). وفى حالة إن لم تصدقه فى هذه النقطة، فأنه يشير إلى كتاب كان قد صدر مؤخرًا هو الأطفال كائنات بشرية لأندرسون الدريتش. وهذه الدعوة للاستناد للسلطة تخالف ما عرف عن سبوك الذى يستند عادة إلى خبرته وحصافته. والحجة الأساسية هنا هى أن الوالدين يجب أن يستمتعا بطفلهما وألا يذعرا من الأبوة وتبعاتها.

ورغم غرابة ذلك، فقد وسم تحولًا مزلزلًا فى الأدبيات المتعلقة بتنشئة الوالدين للأبناء. ففى الأيام الخوالى، كانت الأبوة تعتبر عملًا شاقًا ومهلكًا. فإن أخطأت، فإنك ستدمر ابنك. وقال سبوك مرارًا وتكرارًا إن الوالدين لايمكن أن يدمرا ابنهما بارتكاب خطأ. وأبرز على سبيل المثال، أن الأطفال أقوياء، ومن ثم لاحاجة للذعر بشأن التعامل معهم. وفى الفصل المتعلق بالتغذية، عارض الحكمة السائدة التى تقول أن الأبوين يغرسان عادة سيئة لدى

الطفل بالإسراف فى التغذية الليلية، مما يجعل الطفل يرغب فى استمرار هذه التغذية. «إن تغذية الساعة الثانية صباحًا لاتخلق عادة سيئة كما يقول بثبات» (27). ويشرح قائلًا إن الطفل يريد أن ينام، ومن ثم يطيل الوقت بين الوجبات وهو يكبر. ويهيب سبوك بالأم أن تتمسك بالمرونة فى كل شىء، وأن تتكيف مع احتياجات الطفل الفردية، تاركة الطبيعة تفعل سحرها. ويقول إن هذا سيؤدى إلى «السعادة».

كان الاتجاه قد تحول بعيدًا عن الرضاعة من الثدى عندما ظهر كتاب رعاية الرضيع والطفل للمرة الأولى. لم يحب سبوك هذا الاتجاه، رغم أنه ظل حذرًا فى نصائحه، لايريد أن يقلق أحدًا. كتب يقول. «أن الرضاعة من الصدر هى رضاعة طبيعية» (33). وفى رأى سبوك، فأن ما هو طبيعى جيد. كانت المنافع السيكولوجية للرضاعة من الصدر، التى تعود على الطفل والأم، تستهويه، وأشار إلى هذه المنافع بعبارات مؤكدة. وأشار إلى أن الرضاعة من الثدى أرخص، حيث إنه لايتعين على المرء أن يشترى أغذية غالية بديلة عن اللبن. ومع ذلك، فقد حرص سبوك على السماح للأمهات اللاتى يفضلن لأسباب شتى، استخدام زجاجات البزازة، مقدمًا قدرًا كبيرًا من أحدث المعلومات عن صنع الأغذية البديلة للبن. بالطبع أن كثيرًا من هذا يبدو جذابًا حاليًا. ويطلب من الأمهات إضافة فيتامين دال لطعام الطفل لمنع كساح الأطفال – وهو مرض لم يعد يذكر فى آخر طبعة من كتاب سبوك. ويشيد باستخدام زيت كبد سمك القدّ، وهو مادة بغيضة نادرًا ما كان يسمع عنها فى تلك الأيام (رغم أن استخدام زيت السمك أخذ فى الصعود مؤخرًا، إلى حد كبير لفوائده المتعلقة بأوميجا 3).

وفيما يتعلق بترتيبات النوم، يوصى سبوك بإخراج الطفل من حجرة نوم الأبوين عند بلوغه سن ستة شهور. وقد كان هناك خلاف كبير بين أطباء الأطفال على مر السنين بشأن نوم الرضع والأطفال مع والديهم. بيد أن هذه الممارسة منتشرة على نطاق واسع، وكانت كذلك دومًا؛ ويرتبط ذلك جزئيًا بالافتقار للمساحة فى بلدان كثيرة. وفى الولايات المتحدة، فى القرن الحادى والعشرين، فإن تخصيص حجرة منفصلة للطفل منذ البداية ممارسة شائعة، إذا أمكن. وفى هذا يتخذ سبوك، كما هو حاله دومًا، موقفًا معتدلًا. وتدخل نبرة فرويد

بطريقة أريبة، عندما يقول سبوك أن الأطفال قد «يزعجهم» النشاط الجنسى لوالديهم، الذى «سيسيئون فهمه» (101. وبالنسبة لسيجموند فرويد، كان هذا أمرًا مهمًا حقًا، خاصة فى إطار محددات عقدة أوديب.

وفيما يتعلق بمسألة البكاء بذل سبوك قصارى جهده ليبدو معقولًا، لكنه كان ينفر من ترك الطفل يبكى ويبكى. وهو إذ يعجز عن إخفاء ميل لاختبار الأمر، يقول: لا أعتقد أنه من الخير ترك الطفل يبكى على نحو بائس لفترات طويلة» (117). بيد أنه لايدعو للاندفاع لحمل الطفل فى كل مرة ينشج فيها. إنه يطلب من الأمهات التذرع بالصبر، وإذا ساء نكد حظهن أن يكون لديهن طفلُ يبكى كثيرًا جدًا، عليهن التأكد من خروجهن من المنزل مرتين أسبوعيًا أو ما إلى ذلك، لإعطاء أنفسهن فترة للفسحة والترويح. كما يطالب بتداول رعاية الطفل بين الأبوين: «فالطفل لايحتاج إلى والدين قلقين فى نفس الوقت للاستماع إليه» (118). وكما هو حاله على الدوام، فإن نغمته باعثة على الاطمئنان وحازمة فى الوقت نفسه – وتلك توليفة غريبة، لكن من الواضح أنها تفعل الأعاجيب. لقد استطاع الآباء أن يصغوا لسبوك، واستطاعوا أن يتعلموا منه أيضًا.

وبطريقة منتظمة، يلقى سبوك نظرة خاطفة على شواغل الأبوين المعتادة من رعاية الرضيع إلى رعاية الصغير الدارج فى أول مشيه إلى رعاية الطفل. ويناقش تدريبه على قضاء حاجته، وأمور السلوك. وفيما يتعلق بهذا الموضوع الأخير، يتخذ ما يعتبر حاليًا نهجًا جديدًا، وهو نهج أوقعه فى مشاكل كبيرة مع من اتهموه بأنه «متساهل». ففى صفحة 211 مثلًا، هناك تصوير مثير للاهتمام: «طفل دارج فى أول مشيه يوشك أن يشد مصباحًا من على المائدة. فتهلع الأم المذعورة وتصرخ، وكانت قد دخلت الغرفة توا. ويعلق سبوك على هذا بقوله: «لا، لا! أن تبعديه وتلهيه خير من أن تقولى لا، لا!» ويصفع هذا وجه قرون من توبيخ الأبوين. فقد كان قول كلمة لا بصوت مدو عنصرًا رئيسيًا فى تنشئة الأبوين للأطفال منذ أن بدأ سكان الكهوف فى الهمهمة بالكلمات. لكن سبوك قال لا لكلمة لا. وبدا أنه يحاج قائلًا ابق على العقوبة وابق على الطفل. فعند مواجهة طفل فى وضع خطر. يتعين على الأبوين

فى رأى سبوك. أن يحملاه ويبعدانه عن المشهد ويلهيانه قدر الإمكان، ومن المهم تفادى الصراع. وتذكر أن الأطفال ولدوا ليجربوا أشياء مختلفة بعضها خطر. فإذا أخمد الوالدين التجريب، فإنهما يخاطران بخنق الإبداع والخلق.

كما يحذر سبوك الوالدين من الصراخ فى الأطفال الذين يضعون أيديهم فى الطعام. إذ كتب يقول : «إن التغذية هى تعلم» (222). دع الطفل يلعب بطعامه. فيكف يعرف بغير هذا جوهر الواقع؟ ولاشك أن هذا النوع من الأمور قد سبب الربكة لبعض الوالدين وأغضبهم، خاصة أولئك الموسوسين بشأن الطعام. ليس من السهل تغيير عادات استمرت قرونًا. ولكن فى هذا، كما فى أى شىء آخر، ينصح سبوك الوالدين باتخاذ موقف متوازن، ويحثهما ألا يفرطا فى رد فعلهما عندما يحدث سلوك «سيىء»، حيث إن ذلك يمكن أن يكون له تأثير مدمر على الطفل الحساس. وحول موضوع السباب مثلاً، يلاحظ أن كل الأطفال يسبون، فهم يتعلمون «كلمات قذرة» من أطفال آخرين، ومن الطبيعى أن يحدث هذا.

وهو بصفة خاصة يهيب بالوالدين بأن ينخرطوا مع الأطفال، خاصة مع الأولاد، لأنهم يحتاجون لمثل طيب أمامهم. ويعتقد سبوك «أن الطفل لاينمو روحيًا ليصبح رجلًا لمجرد أنه ولد بجسد ذكر» (245). فالتربية أهم من الطبيعة، ومن ثم فإن أبوة الوالد تتضمن تربية. ويضيف (بحكمة) أن البنت تحتاج للأب هى أيضًا، ويتحدث حديثًا معقولًا عن هذا. فالفتاة تتأهل هى أيضًا لمرحلة البلوغ الخاصة بها، كما يشرح سبوك وسيتعين عليها أن تتعامل مع الرجال طوال حياتها، ومن الواضح أن أبيها هو أول رجل فى حياتها. ويتعين عليه أن يدرك حاجات تطورها وأن يستجيب لها على النحو السليم. وكان هذا حديثًا متهورًا فى 1946.

ويدعو سبوك بصفة عامة، إلى أن يتصرف الوالدين بطريقة حازمة ولكن ودودة أيضًا. إن ذلك التوازن هو الذى يجدى. وفيما يتعلق بالعقاب. يتخذ موقفًا مثيرًا للجدل (أصبح مألوفًا). وهو بصفة عامة، يوصى الأبوين بأن يصرا على السلوك الطيب وأن يجعلا أنفسهما نموذجًا لذلك، وينبغى تجنب العقاب، إن أمكن. وكتب فى مقطع مشهور تمامًا يقول: لا أعتقد أن الوالدين المقبولين ينبغى أن يشعرا بالخجل أو الإخفاق لأنهما احتدا أو استخدما

العقاب أحيانًا. لكننى أختلف مع الأب المتجهم سريع الاهتياج الذى يعتقد بصورة جادة بأن العقاب أسلوب معتاد جيد للسيطرة على الأطفال» (270). ويلطم هذا التعليق وجه التنشئة الأبوية بالطريقة التقليدية، مستدعيًا شبح الطفل «المدلل» ويعرض سبوك للاتهام بأنه يدعو «للتساهل». ومع ذلك، فإن فجوة ما توجد بين التساهل وبين رفض التغاضى عن العقاب. كوسيلة معقولة أو فعالّة للسيطرة على سلوك الطفل.

ويؤكد سبوك أن العواقب السيئة لابد وأن تترتب على السلوك السيىء، وتلك فكرة طورها مؤلفون لاحقون ووسعوها بطرق مفيدة (مثلما جاء فى كتاب سحر 1 – 2 – 3 لتوماس دبليو فيلان، و كتاب وضع حدود لابنك قوى الإرادة لروبرى جيه ماكنزى – وذلك لمجرد ذكر بضع من الكتب الأخيرة عالية الشعبية عن انضباط الأطفال). ويؤكد سبوك مثلًا، أنه إذا كسر طفل طبقًا عمدًا، فقد يكون من الحكمة جعله يدفع ثمن شراء بديل له من مصروفه. ويقول لقرائه: «أن الطفل فوق السادسة يطور إحساسًا بالعدل ويرى أن إنزال عقوبات معقولة أمر عادل» (271). وكان هذا الإحساس بالعدل حاسمًا فى التطور الأخلاقى للطفل.

وبالانتقال خلال مراحل نمو الطفل، يعالج سبوك أزمات شتى لابد وأن يواجهها الوالدان على نحو شائع عندما يكذب الطفل على والديه مثلًا، كما يفعل كل الأطفال، فأنه يحث على رد فعل هادئ. ويقول: «إن قليلًا من الخيال أمر طيب. لست فى حاجة للانقضاض عليه إن أدلى بحكايات أحيانًا، أو لجعله يشعر بأنه مذنب، أو حتى أن تقلق أنت نفسك، طالما أنه يواصل طريقه بصفة عامة ويسعد مع الأطفال الآخرين» (295). لابد أن قرونًا من رجال الدين الأمريكيين تقلبوا فى قبورهم عندما كتبت هذه السطور. وكما هو حاله دومًا، فأن سبوك يتخذ موقفًا فلسفيًا، متسائلًا فى المحل الأول عن السبب فى أن الطفل يكذب. كانت الإجابة القديمة هى أن الأطفال ولدوا فى الخطيئة ولايمكن أن نأمل أبدًا فى تخليصهم من طبيعتهم الشريرة بدون فرض انضباط حازم من أعلى. إن سبوك يفضل موقفًا علمانيًا بدرجة أكبر، مؤكدًا أن الأطفال، خاصة الأكبر سنًا، يكذبون لأنهم يتعرضون لضغط سيكولوجى.

«إذا أخفق فى عمله المدرسى وكذب بشأن ذلك، فهل هذا لأنه لايبالى. إن كذبه يبين أنه يبالى» (296). كان ذلك تفكيرًا ثوريًا، ولايزال يبهر الأنفاس فى بساطته وتسامحه.

وفيما يتعلق بمسألة التربية الجنسية، يروج سبوك لنهج الصراحة الشائع حاليًا. فمن غير المحتمل بدرجة كبيرة أن يقول أى أبوين حاليًا لطفلهما أن طائرًا ضخمًا جاء به إلى العالم. بل أن الأطفال الصغار سرعان ما يدركون حقائق الحياة، مثلما يلاحظ سبوك. فعندما يلاحظ طفل فى الثالثة أن أمه حامل، من الطبيعى أن تثور لديه الشكوك، حتى وإن لم يتم الإفصاح عنها. ويحث سبوك الأبوين على التحرك ببطء، ولايعطيان الطفل سوى المعلومات التى يحتاجها. والتنشئة الأبوية عنده، تعنى أن يبحث الوالدان عن اللحظات المناسبة لنقل المعلومات عن حقائق الحياة بطريقة طبيعية لاتتسم بالوعيد، وبلغة ملائمة للعمر. ويأسر نهجه اهتمام المدرسين والآباء، ويدين إطار التربية الجنسية فى المدارس بالكثير لاهتمام سبوك وأسلوبه.

كان سبوك موفقًا بصفة خاصة فيما يتعلق بالتعامل مع مرحلة المراهقة - وهى مرحلة فى تنشئة الطفل تسبب الارتباك لآباء كثيرين. وتثور كل أنواع القضايا الحاسمة خلال مرحلة البلوغ، ويستدعى سبوك ما هو أكثر من الكمية المعتادة من الحصافة وهو يتصدى معارضًا للحكمة التى يتم تناقلها. فعلى سبيل المثال، فإنه من الشائع أن تقول الأمهات لبناتهن فى سن العاشرة أو الحادية عشرة أنه ربما يجدن أنفسهن بعد فترة وجيزة فى ظروف «حرجة». ويؤكد سبوك أن هذا يرعب البنات فحسب، ولايقدم أى معلومات مفيدة. ويطلب قول الحقيقة لهن. ويحث الوالدين على التركيز على الجوانب «الخطيرة» فى الجنس، لكن مع الالتزام بموقف الاعتراف بالواقع. وهو يقول أن «الأم العصبية قد تروّع ابنتها من أن تصبح حاملًا بحيث ينتاب الابنة المسكينة الذعر من الصبيان فى كل الظروف». (310). إن المراهق يجب أن يتعلم أن الجنس هو أمر «صحى وطبيعى ومفيد» (وأنه مرحب به فى برج الدلو).

إن الأطفال يظهرون عادة تقلصات فى عضلات الوجه ويبدون عدم ارتياح بين نظرائهم. وينصح سبوك الوالدين بالتخفيف عن أطفالهما المحزونين، حيث إن مثل هذه

المشاكل تنجم عادة عن قلق الآباء. والرسالة واضحة: دعوا الطفل لشأنه. وهناك نرى فى سبوك سليلًا لجان جاك روسو (1712-1778)، الفيلسوف الفرنسى الذى كان يؤمن بأنه إذا اتبع المرء ميوله، فكل شىء سيكون على مايرام. فالإنسان طيب بطبعه، و وظيفة التعليم هى تعزيز هذه الطيبة، وليس التدخل فى تقدمها. كتب سبوك يقول : «إن تقطيب الوجه مثله مثل الدوافع التى لا تقاوم، أكثر شيوعًا لدى الأطفال ذوى الوالدين الصارمين. قد يكون هناك ضغط أكثر من اللازم فى البيت» (318). وتنسجم هذه النصيحة مع كل ما حاج به سبوك حتى الآن: الطفل طيب بطبيعته، حساس، مرح، ومتمتع بالعافية، ولايجب على الوالدين أن يفسدا النمو الطبيعى للطفل. وفى حين أن هذه النصيحة قد تبدو مثل أمل بعيد فى السماء بالنسبة لقراء كثيرين، حتى حاليًا، فإن لها جذورها فى عصر التنوير، الذى أثر على مفكرين أمريكيين نافذين فى مجال التربية مثل جون ديوى (الذى كان كثيرًا مايقتبس عن روسو باعتباره المصدر لنظرياته). ومن الطبيعى أن سبوك انحدر من ديوى.

كان المذياع يستقر فى وسط معظم البيوت فى الأربعينيات (وحاليًا تقوم أجهزة التليفزيون بوظيفته). وثار السؤال: كم من الوقت يسمح فيه للأطفال بالاستماع للمذياع؟ واقترح سبوك، على نحو متردد، السماح للأطفال بالاستماع لبرامجهم المفضلة فى المذياع إذا كانوا قد أدوا واجبهم المدرسى وفى غير هذا قاموا بمهامهم اليومية. ومع دخول التليفزيون للبيوت، تزايد قلق سبوك من تأثيره. ففى الطبعة الثامنة من رعاية الرضيع والطفل جاءت النصيحة واضحة: تخلصوا من التليفزيون إن استطعتم، فإن لم تستطيعوا، حدوا من الوقت الذى يستطيع الطفل فيه مشاهدته. ويعتبر استخدام الشرائح الرقمية التى تمنع مشاهدة برامج بعينها، هبة من الله للآباء الذين لايستطيعون دومًا أن يتواجدوا فى المنزل. والمستحب أن تشاهد التليفزيون مع طفلك كترياق للرسائل غير الصحية التى تبعث بها البرامج بمثل هذه الكثرة.

والفصل المتعلق بالالتحاق بالمدرسة مستمد مباشرة من ديوى الذى نادى بالتجربة والنهج النشيط للتعلم. كان هذا الأسلوب يسمى «تقدميًا» لأن ديوى كان يعتقد أن إجبار الأطفال على «الانتظام فى الصف» مبدد وغير مثمر. وقد كتب ديوى على نحو مشهور

يقول «أن التعليم هو الحياة نفسها» ووافقه سبوك على ذلك. ودعا المدرسين لربط التعليم بالعالم الخارجي، وقرن العمل الذى يجرى فى الفصل بالحياة الحقيقية. وكما هو الحال مع ديوى. فإن الأبعاد السياسية للتعليم لم تغب عن سبوك. ففى مقطع مولد للأفكار، كتب يقول: «إن الديمقراطية هى أمر طيب آخر تود المدارس أن تعلمه، ليس فقط كشعار سياسى ولكن كطريقة للحياة والإنجاز. إن مدرسًا جيدًا يدرك أنه لا يستطيع أن يعلّم الديمقراطية من كتاب إذا تصرف شخصيًا مثل ديكتاتور (329). وتمثل هذه الفكرة تحديًا للمدرسين وكذلك للآباء. فلا يمكن للمرء أن يتصرف مثل دكتاتور ويتخيل أن الأطفال (أو طلاب المدرسة الثانوية والجامعة) سيفهمون كيف تعمل الديمقراطيات. إن المثال الطيب هو كل شيء.

وكان لدى سبوك الكثير ليقوله عن كيف ينبغى للوالدين أن يعملا فى ارتباط مع النظام المدرسى، وينصحهما بالحديث إلى المدرسين بطريقة ودودة ومتعاونة. ويذكرهما بأن خوفهما من الحديث إلى المدرس أمر طبيعى. ويشير إلى أن المدرس هو أيضًا قد يعانى بعض الذعر فى مواجهة أبوين يعانى ابنهما من متاعب. وكما هو الحال دومًا، يحذر سبوك من السلوك غير المعتدل. ويحث على بقاء المرء هادئًا ومعقولًا. فذلك يمكن من إجراء الحديث بين الأبوين والمدرس ويكون مفيدًا فى الوصول لجذور مشاكل الطفل فى المدرسة. وتبقى هذه نصيحة رشيدة كلية، وإن كانت واضحة. (كان سبوك نفسه مدرسًا ممتازًا، لذا كانت لديه موهبة أن يتحمس لما هو واضح).

ويختتم الكتاب بعدة فصول عن المشاكل الطبية الشائعة، مثل البرد والحمى، واعتلال المعدة، والجيوب الأنفية، واللوز، والحساسية، والحمى القرمزية، والدفتريا. وكما ينبغى أن يكون عليه الأمر، فقد تغيرت النصيحة عن كيفية التعامل مع هذه المشاكل من طبعة لأخرى بسبب توافر معلومات جديدة وتغيير المؤسسة الطبية لعقلها الجماعى بشأن أفضل علاج للمشاكل المختلفة. فقد استبعد بعض من هذه الأمراض مثل الحمى القرمزية من سجل الأمراض الرئيسية. ولكن فيما يتعلق الأمر بالإسعافات الأولية - مثل علاج الجروح والحروق والإصابات الشائعة- لاتزال النصائح القديمة صالحة مثل الطلاء الجديد. ويقول لنا سبوك: «إن أفضل علاج للخدوش والجروح الطفيفة هو غسلها بالصابون والماء النظيف

بقطعة من القطن الماصّ المعقم» (448). وفى الطبعة الثامنة، بعد ذلك بنصف قرن، لم تتغير النصيحة. اغسل الجرح بالصابون والماء الدافئ. ضع ضمادة. بس خلاص.

ويختتم كتاب الحصافة فى رعاية الرضيع والطفل بعرض «مشاكل خاصة» لا يزال البعض منها ماثلًا، مثل «السفر مع الطفل» أو «الطفل المعوّق». والنصيحة دائما إنسانية ومتوازنة، لكن الزمن أبعدنا عن كثير من هذه القضايا، مثل «مشكلة» الأم العاملة. فقد كتب سبوك كتابه خلال الفترة التى كان فيها «الإحساس بالهيبة النسوية» (كما وصفتها بيتى فريدان) قد رسخ أقدامه مؤخرًا برغبة فى الانتقام. إذ كان الرجال قد عادوا للديار من حرب مفجعة، متلهفين للعودة للعمل والأستقرار وعادت النساء للبيوت حيث سرعان ما حملن. ومثل كل الناس، فإن سبوك انجرف فى التيار السائد، وطالب الحكومة بأن تدفع للأمهات مقابل بقائهن فى البيوت، نظرًا لأن البقاء فى البيوت كان أفضل طريقة لضمان وجود «مواطنين نافعين ومتكيفين جيدًا» (484). وتم التسامح مع النساء المهنيات التى كن يعتقدن أنهن لن يكن سعيدات بدون العمل. يقول سبوك: «فى النهاية، فإن أمًا تعيسة لايمكن أن تربى أطفالًا سعداء جدًا وكان الافتراض الذى توصل إليه هو أن الأطفال يحتاجون أمًا تركز انتباهها عليهم، مثلما ركزت أم سبوك عليه.

ويسخر سبوك من فكرة الرعاية النهارية. ويقول بصورة قاطعة : «إن حضانة النهار العادية أو «مزرعة الرضع» ليست شيئًا جيدًا بالنسبة للطفل» (485). وبإعلانه هذا، كان يعكس أحكامًا مسبقة شائعة فى تلك الأيام، مثلما نعكس نحن حاليًا الأحكام المسبقة الشائعة لأيامنا. بيد أن ما يدهش القارئ الحريص، هو المدى الذى ترك به بنيامين سبوك نفسه نهبًا لمثل هذا العدد الكبير من الافتراضات العادية، مما خلق هالة جديدة حول فكرة الأبوة. وهو يشجع التسامح، وكبح جماح النفس، والدفء، والحصافة ويرفض الإكراه والعناد. وكانت لديه قناعة راسخة هى أن أكبر أمن يمكن أن يتوفر للطفل هو الاعتراف «بأنه محبوب» من صميم القلب وبصورة طبيعية» (507). ويضيء هذا الاعتقاد كل صحفة من كتاب رعاية الرضيع والطفل.

4

واجه الجمهور صورتين لبنيامين سبوك إبان حياته فقد كان هناك طبيب الأطفال الخيّر الذى كتب كتابًا من أفضل الكتب مبيعًا عن رعاية الطفل، والذى توالى من طبعة لأخرى، وباع ملايين النسخ كل سنة. وكان هذا هو الرجل نفسه الذى عمل فى هيئة العاملين فى مؤسسات شهيرة كثيرة، منها مستشفى مايو كلينيك ومعهد روشستر لصحة الطفل. وكان محل طلب لاينتهى كمتحدث فى الميادين المتصلة بطب الأطفال وعلم نفس الطفل. وكثيرًا ما كتب مقالات عن الأبوة للمجلات الوطنية. ومع ذلك، فقد ظهر سبوك آخر، كما لو كان من غير المعروف من أين جاء، فى أوائل الستينيات.

فقد أصبح من النشطاء المعادين للحرب، واستند لمكانته الهائلة لمناصرة نزع السلاح النووى. ومثلما أخبر أحد محاوريه: «أدركت فجأة أن العالم كله معرض للتهلكة لقد واصلنا اختبار مزيد من الأسلحة النووية وتكديس مزيد منها- وبالطبع فإن الكونجرس متحمس دومًا لمزيد من الأسلحة ... لقد صدمنى ذلك فجأة - وكانت تلك لحظة رهيبة وبعد ذلك انغمست فى خركة السلام». وقد انضم إلى مجلس منظمة وطنية مكرسة للحدّ من الأسلحة النووية، ووقع باسمه على التماسات شتى. ووجد بعد ذلك نفسه معرضًا لقدر كبير من النقد، بل والتوبيخ.

وعندما جاءت انتخابات 1964، رأى سبوك فيها اختيارًا بين رجل سيصعد الحرب فى فيتنام (بارى جولد ووتر) ورجلًا لن يفعل ذلك (لندون جونسون). وألقى بنفسه فى خصم النشاط السياسى، وظهر فى التليفزيون كعضو فى مجموعة تسمى علماء ومهندسون مؤيدون لجونسن وهمفرى. لكن كل شىء ذهب هباء. فعقب الحرب مباشرة، صعّد الرئيس جونسون الحرب، وأرسل عشرات الآلاف من الجنود إلى جنوب شرق آسيا، مستندًا فى كل شىء فعله على قرار خليج تونكين، والذى بدا حتى فى ذلك الوقت زائفًا. واعتبر سبوك أعمال

جونسون تهديدًا للسلام العالمى ومثالًا إجراميًا لمثيرى الحرب. ويدأ فى الانخراط فى نشاط معاد للحرب ووقف بكل قواه خلف حركة مقاومة التجنيد الإجبارى. وأشرف على إصدار إعلان معنون «دعوة لمقاومة السلطة غير المشروعة». ودعم الأحراق على الملأ لبطاقات التجنيد كشكل من حرية الكلام. ولدهشته، فقد أدانته هيئة المحلفين الاتحادية الكبرى فى بوسطن فى 5 يناير 1968، مع أربعة آخرين، بتهمة التآمر «الرعاية ودعم برنامج للمقاومة على النطاق القومى» للاعتراض على التجنيد الإجبارى.

وقُدم سبوك وزملاؤه المتهمون إلى المحاكمة أمام القاضى فرانسس جى دبليو فورد، واستحوذت هذه الإجراءات على اهتمام الرأى العام. وقد أدينوا لدهشتهم الكبيرة. وفى مؤتمر صحفى عقد بعد المحاكمة، طرح سبوك المسألة فى إيجاز بارع بقوله: «لقد قال القاضى فورد أن القانون يجب أن يطاع. ونحن نتفق معه. لست مقتنعًا بأننى انتهكت القانون، فليس هناك أدلة على التآمر. فهناك ملايين من الأمريكيين يعارضون الحرب. وليس هناك ذره من الشرعية أو الدستورية فى هذه الحرب، إنها تنتهك ميثاق الأمم المتحدة، واتفاقيات جنيف، ووعد الولايات المتحدة بأن تلتزم بقوانين السلوك الدولى. أنها غير قانونية كلية، وكريهة تمامًا». ولحسن حظ سبوك وزملائه المتهمين معه، ألغت محكمة استئناف إدانتهم لأسباب تقنية، ولم تتابع الحكومة القضية مطلقًا.

كان بنيامين سبوك إنسانًا نبيلًا، كرس نفسه كلية متفانيًا فى العمل كطبيب أطفال وكناشط من أجل السلام على حد سواء. ومع ذلك، فإن الصلة بين هذه الجوانب المختلفة جدًا من سبوك تظل محيرة. هل كان نائب الرئيس أجنيو محقًا عندما ربط بين «التساهل» الذى دعا إليه سبوك وعدم احترام هذا الرجل الواضح للقانون، عندما جرؤ على مقاومة التجنيد الإجبارى واعترض على حرب يوجهها الرئيس ويدفع مقابلها كونجرس الولايات المتحدة؟ هل خلق نهج سبوك إزاء التنشئة الأبوية جيلًا من النرجسيين المستغرقين فى ذواتهم، كما يعتقد البعض؟ وفى كتابه ثقافة النرجسية (1979)، وهو تحليل لامع للشخصية الأمريكية فى عصر ما بعد الحرب، أبرز كريستوفر لاش فكرة واضحة ولكنها غير ملحوظة عن سبوك هى أنه

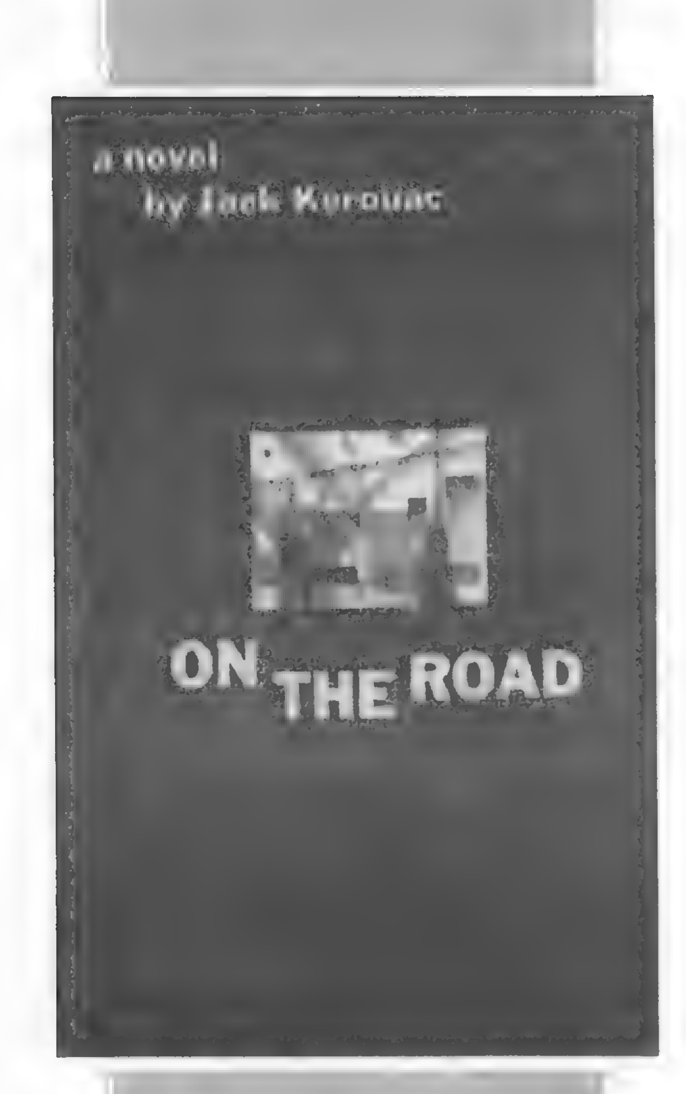
شجع عمليًا سلطة الأبوين. كتب لاسن يقول «إن سبوك الذى كثيرًا مايوجه له اللوم على الإفراط فى التساهل فى تربية الطفل، ينبغى النظر إليه بدلًا من ذلك باعتباره أحد نقاد ذلك، فقد سعى لاستعادة حقوق الوالدين فى وجه انشغال مغالى فيه بحقوق الطفل». والواقع أن كتاب رعاية الرضيع والطفل هو كتاب يشجع الوالدين على أن يثقا فى مشاعرهما ويقوما بعمل مستقل. لقد عادت الفكرة القديمة عن «غريزة الأمومة» مع سبوك. لقد أعطى للأبوين سلطة اتخاذ القرارات لنفسيهما، وليس إجبارهما على الاعتماد على إملاءات الوعاظ، والحكمة الشعبية، أو ذكريات عن كيف تصرف أبويهما هما نفسيهما. كانت عبارة «ثق بنفسك» رسالة قوية وهى رسالة يصعب توجيه اللوم لها عن «التساهل».

وهذه التهمة ترتبط كثيرًا بنصيحة سبوك بترك الأطفال يستمتعون، يغمسون أيديهم فى الطعام فى أطباقهم. كما يحتاجون، أو يلعبون فى الهواء الطلق بدون القلق من تلوث ثيابهم بالطين، وحذر من العقاب القاسى وغير المعقول ولم يشجع إساءة المعاملة البدنية. وطلب من الأبوين الارتباط بأطفالهم بطرق مُحبّة. هل كان يمكن حقًا إرجاع الاحتجاجات الحاشدة على الحرب والتجاوز فى حركة الخنافس إلى صفحات كتاب الحصافة فى رعاية الرضيع والطفل؟ لا أعتقد ذلك. والواقع أنه لو لم يكن سبوك قد رفع صوته مطلقًا ضد انتشار الأسلحة النووية وحرب فيتنام، فربما لم يكن قد اتهم بأنه أب التساهل، الذى ساعد فى خلق جيل من المنغمسين فى ذواتهم من أبناء فترة ارتفاع إعداد المواليد بعد الحرب. ومع ذلك، فإن تراث كتابه يرتبط بصورة لا انفصام فيها بأنشطته السياسية فى الستينيات وأوائل السبعينيات. وكان من الصعب أن ينحل هذا الارتباط.

كتاب سبوك الإرشادى لعب دورًا كبيرًا على عدة جبهات. فبداية، فإنه قدم للأبوين هدية مدهشة: أنهما يمكن أن يتصرفا بإحساس بالتفاؤل، معتقدين أنه يمكنهما حقًا التصرف بطرق تعزز حياة أطفالهما، وأنهما يستطيعان التعامل مع المشكلات العادية مثل بلل الفراش والفأفاة بدون قلق مغالى فيه، وأنهما يستطيعان تعريف أطفالهما بمسائل الجنس بدون اللجوء لحواديت خيالية مضحكة عن الطير الذى جاء بهم من السماء، ويستطيعان فرض القواعد بشأن الاستماع للمذياع، ومؤخرًا، مشاهدة التليفزيون ويستطيعان السيطرة على ما يأكله

أبنائهما، ويقدمان طعامًا صحيًا بدون اللجوء للإكراه، ويستطيعان التعامل مع مسائل مثل الحمى، وتوعك المعدة، والجروح والخدوش، والحساسية بدون ذعر، حتى بدون معاونة مباشرة من طبيب. لقد أو حى كتاب سبوك الإرشادى بالثقة بالنفس وأعطى للوالدين نغمة صوت يستطيعان نمذجته. لقد أعطى لهم الإذن بإن يكونا على ما هما عليه، وطمأنهما على أنه ليس هناك أى خبير يستطيع حقًا أن يخبرهما عما هو أفضل لابنهما. ذلك أنه طفلهما فى نهاية المطاف.وظهر طوفان من كتب الإرشادات عن تربية الطفل عقب ظهور كتاب رعاية الرضيع والطفل، وتبع كثير منها خطى سبوك. فعلى سبيل المثال، لايمكن للمرء أن يتخيل كتابى تى بيرى برازلتون أو مارى شيدى كورسينكا اللذين يحظيان بالشعبية (والرائعين) - وذلك لمجرد اختيار اسمين واضحين من بين أساطين الكتاب عن تنشئة الأبوة - بدون سبوك. أن كل شيء من النغمة إلى النهج الحصيف لدى هؤلاء الكتاب مستمد من سبوك مع تغيرما. إن الرف الطويل من كتب تنشئة الآباء للأطفال فى أى مكتبة أمريكية يشهد بتأثير سبوك الدائم فى هذا المجال. ولايمكن للمرء أن يتخيل عالم كتب تنشئة الأطفال بدون حضوره العبقرى المشجع.

لقد أحدث كتاب سبوك الإرشادى ثورة فى 1946، ولاتزال أصداؤه تتردد. وربما ترجع الكلمة النهائية عن بنيامين سبوك إلى جارى ويلز، الكاتب الذى أمضى وقتًا فى السجن مع طبيب الأطفال الكهل فى أواخر الستينيات والذى كان قد اعتقل معه للاحتجاج على حرب فيتنام. فبعد عشرين عامًا، يتذكر ويلز، الطبيب الطيب بإعزاز: «كان سبوك أبًا ليس لعصر التساهل، ولكن لعصر واسع الخيال. كان لديه احترام للشخصية الفردية، لدى الرضع مثلما لدى المواطنين الكبار. وقد جاء ذلك، مثل كل النواحى الأخرى، من إحساسه بكرامته. لقد كان من أشرف الراد يكاليين، كان مؤدبًا على الدوام فى كل شيء، حريصًا على رفاهية الشرطة أيضًا مثل حرصه على المتظاهرين. لقد جاء للاعتراض على الحرب، وليس لشنها، وهدأ الغاضبين فى حين كان يجتذب القلوب الجريئة». وإجمالًا، يظل الدكتور سبوك شخصية لها أبعاد بطولية، أمريكى عظيم أن وجد أحد مثل هذا فى أى وقت. وقد رسخ كتابه الحصافة فى رعاية الرضيع والطفل مكانته بصورة دائمة فى روح أمة، ساعد فى تشكيلها.


a novel
ON THE ROAD

12

على الطريق

1

عيّن كتاب على الطريق مفهوم الثقافة المضادة الأمريكية وساعد فى تحديده. كما رسخ الكتاب مكانة جاك كيرواك كشخصية رئيسية فيما سمى جيل النبضة، الذى أعطاه اسمه. وخلال مسار قصتها الممتدة عن رحلة، تلخص الرواية وتغير كثيرًا من الأفكار الأساسية التى وصفت فيها حتى ذلك الحين. وباعتبارها قصة عن الطريق، فهى تعرض مثالًا رئيسًا لهذا الضرب الأمريكى من القصص. ومع ذلك، فإنها أيضًا رواية مهاجر، كبطل لها، هو سال بارادايز، وهو من أصول عرقية إيطالية (بنفس الطريقة التى يرتبط بها كيرواك بتراثه الفرنسى الكندى بقوة). ويتخلل موضوع هاك فن عن الخروج بحثًا عن أرض، سرد كيرواك، الذى يصور دين موريا ترى باعتباره هاك المعاصر - صبى نزق (طائش) وابن لأب خارج على القانون، ولد غريبًا تواقًا للهروب بأى وسيلة أو آخرى من الامتثال للحياة الأمريكية فيما بعد الحرب. وأخيرًا، فإن رحلات سال ودين المتعرجة تذكر من بعيد بسفريات عدد لاينتهى من الرواد، منهم لويس وكلارك، اللذين كانا يبحثان عن الذهب والمجد فى أرض الميعاد فى الغرب.

وتتردد عبارة «أرض المعياد» بما يشبه الهاجس المتسلط طوال رواية كيرواك. وحتى اسم بطله، سال بارادايز، ينطوى على مسحة توراتية (بل ومجازية). إن المشاعر الدينية تمتد عميقًا فى أغوار كيرواك، كما سنرى، وتربطه بالكتاب السابقين (مثل وليام برادفورد) الذين بحثوا عن مملكة الرب على الأرض. وكان كيرواك نفسه كاثوليكيًا طوال عمره كلما كبر سنه

زاد ورعًا، بل أن اهتمامه بالبوذية تعمق أيضًا (خاصة فى سنيه الأخيرة، بعد أن عرف الكثير عن تعاليم بوذا من أشعار جارى سيندر، الذى صوره فى (هارما بومز). ويمكن بسهولة وصف رواية على الطريق باعتبارها سعيًا للخلاص، وكذلك إثباتًا لأن يد الله تسيطر على الأرض. ومثلما طرح دين، البطل، الأمر بفظاظة: «فإن الله موجود بدون ريب أو وسواس ومع اضطراد سيرنا فى هذا الطريق فإننى على يقين يتجاوز أى شك من أن كل شىء سيتم الاعتناء به من أجلنا» (121). وفى مكان آخر، يتذكر سال قائلًا: «كانت المكسيك كلها أمامنا أنا وسال»، وبذلك يرد صدى الأبيات المشهورة من كتاب ميلتون الفردوس المفقود (الكتاب 12)، حيث أصبح آدم وحواء، وقد طردا من الجنة، يدركان أن «العالم كله أمامهما» وظلا على يقين بأن «العناية الإلهية ترشدهما».

وفى طابعها البرّى، وصراعها للانفصال عن الحدود المتشددة لحياة الطبقة الوسطى الأمريكية، تذكر الرواية بسكان ميرى ماونت فى القرن السابع عشر حيث جمع توماس مورتون مفكريه الأحرار، وعصبة من السكيرين المعربدين، الذين طفقوا يثبون مرحًا بحرية هنا وهناك مع نساء السكان الأصليين لأمريكا وسببوا العذاب لمستوطنة بلايموث القريبة منهم. ووضع ويليام براد فورد وميليشياته حدًا للطرق الكريهة لجيرانهم فى ميرى ماونت، هذا «الحشد الهمجى الذى وقف متراصًا. دفاعًا عن مايبول» كما صور الكاتب هاوثورن فى قصة شهيرة، ومع ذلك فإن مورتون وحشده ربما يعتبران مؤسسى حركة، الهيبيز الخنافس (ربما أكثر من ثورو أو هوايتمان). وكان كيرواك وأصدقاؤه فى حركة النبضة يمثلون إزهارًا متأخرًا لهذه الموجة، التى تفتحت أزهارها بالكامل فى أوآخر الستينيات.

وأساسًا، فإن رواية على الطريق تمثل نموذجًا أمريكيا جديدًا ووضاء للرواية التى تدور عن الطريق، وذلك تراث من السرد بدأ فى العصر الحديث برواية دون كيشوت (1605)، وامتد لأعمال أمريكية حاسمة مثل هاكلبرى فن (1885)، ورواية جاك لندن وادى القمر (1913) ورواية نيلسون الجرين شخص ما يرتدى حذاء عالى الساقين(1935) و رواية جون شتاينبك

عناقيد الغضب (1939) وفلاديمير نابوكوف لوليتا (1955). وهو تراث قوى تم الاحتفاء به فى قصيدة وولت هوايتمان المسرفة فى العاطفية «أغنية الطريق المفتوح» التى تبدأ كالآتى:

على قدمى وبقلب يطفر مرحًا، أخذت الطريق المفتوح
متمتعًا بالصحة وحرًا والعالم أمامى، الطريق البنى الطويل
أمامى، مؤديًا إلى حيث أختار.

وقد بلغ تراث روايات الطريق ذروته، مؤخرًا جدًا، فى تحفة كورماك ماكارثى، الطريق (2006) وفيها يرتحل أب وابنه خلال مشهد طبيعى حائل اللون ومحطمًا فى أمريكا، ما بعد المعركة الفاصلة، بحثًا عن طعام ومأوى، وعن ملاذ آمن من أى نوع، فى سعى معكوس عما كان أرض الميعاد من قبل.

وقد اندفع الناس أفواجًا للحصول على رواية كيرواك، مما جعلها من أفضل الكتب مبيعًا فى أيامها ورسخ فى العقل العام فكرة حركة الثقافة المضادة. ومثلما لاحظ جيلبرث ميلستاين فى استعراضه الذى يمثل علامة فارقة فى النيويورك تايمز، فإن كتاب كيرواك اعتبر فورًا هو عهد وميثاق حركة النبضة وفى نصف القرن الذى انقضى منذ نشره فى 1957، مما رسخ مكانته كنص كلاسيكى، نص يُدرّس فى الكليات فى مجال الأدب الأمريكى ويقرأه القراء طوعًا على حد سواء – وذلك هو الاختبار الجوهرى لقوة كتاب ما. واتخذت أجيال من الشباب الأمريكى، تقليدًا لكيرواك (بعلم أو بغير علم) الطريق، وهم يحملون صرّة على ظهورهم، يتقدمون على نحو متقطع عبر القارة، ويتسمون بطبع الروايات الغريب (إن لم يكن شديد التهور). وبصفة عامة، فإن رؤية التجوال فى أمريكا التى أثارها كيرواك تقدم خريطة من نوع متواضع، ليس فقط بالنسبة لأرض الميعاد من المروج، والبلدات الصغيرة، والمستنقعات، والجبال المثلمة، والمدن النابضة بالحياة، ولكن بالنسبة أيضًا لما وصفه ملتون فى الفردوس المفقود باعتباره «فردوسًا فى داخلك، أكثر سعادة بكثير». وأؤكد أن رواية على الطريق، غيرت ووسعت وعى أعداد لاتنتهى من الأمريكيين، حتى وإن لم يعلموا بها.

2

ولد جاك كيرواك (1922 – 1969) فى لويل، ماساشوستس، وهى بلدة مصانع كئيبة كانت آخذة فى الانهيار بصورة خطيرة من ذروة نموها فى القرن التاسع عشر. وقد تم تعميده باسم جان – لوى ليبرى دى كيرواك. كانت هذه الأسرة المهاجرة تتحدث الفرنسية بلهجة كندية تسمى لهجة الحصان التى يتحدثها الكنديون الفرنسيون غير المتعلمين، ولم يبدأ كيرواك عمليًا فى التحدث بالإنجليزية إلى أن بلغ السادسة من عمره. وقد فقد أخيه، جيرار، فى الطفولة وأصبح هو الطفل الوحيد؛ بأم متفانية ظلت هى المرأة الوحيدة فى حياته، رغم أنه تزوج (لفترة وجيزة) عدة مرات. وكان أبوه، الذى فقد وظيفته كعامل طباعة خلال الكساد الكبير، شخصية نائية يتعذر التواصل معها إبّان حياة جاك الشاب. كان العالم الاجتماعى لطفولة كيرواك هو عالم الطبقة العاملة، عالمًا معاديًا للثقافة لحد كبير. وعلى الرغم من أنه كان يحب القراءة، فإن كيرواك لم يحب المدرسة مطلقًا ورفض الامتثال لانضباط الفصول الدراسية. وقد أكسبه تميزه فى ملعب كرة القدم، منحًا دراسية أولًا فى مدرسة هوراس مان، وهى مدرسة خاصة فى مدينة نيويورك، ثم فى كولومبيا حيث لعب كرة القدم حتى أخرجه منها كسر ساقه. ودرس ما يزيد قليلًا عن عامين قبل أن يلتحق بالبحرية، التى سرح منها فى 1942 بسبب طبيعته المكتئبة المتمردة. وانضم للبحرية التجارية لفترة، وانتقل لمكان آخر مع والديه بعد الحرب.

كان يعبد أمه واستمر يعيش معها بعد وفاة أبيه فى 1946، رغم أنه كان كثيرًا مايقيم مع أصدقائه فى قرية جرينويتش، ومنهم الشاعر الين جنسبرج، ويسافر (كما وصف فى رواية على الطريق) مع نيل كاسادى وآخرين فى الصيف، متجولًا من نيويورك إلى دنفر إلى سان فرانسسكو إلى تكساس إلى المكسيك. وفى أواخر الأربعينيات، عمل على نحو متقطع فى روايته الأولى، البلدة والمدينة، التى نشرها فى 1950. لكنه ظل كاتبًا مغمورًا حتى تحقق النجاح الهائل لرواية على الطريق الذى غيرّ حياته للأبد. ويمكن القول أيضًا بأن نجاح هذه

الرواية دمّره، حيث حاول يائسًا أن يوفق بين حياته والصورة الشائعة عنه التى انطوت على الإسراف فى الشرب. كان الكحول هو الذى دمّره فى نهاية المطاف.

وقد تمت كتابة مسودة أسطورية من رواية على الطريق على لفيفة ضخمة من الورق بلغ سمكها ثلاث بوصات وطولها 120 قدمًا. كان كيرواك يعمل بصورة محمومة، بحيث أكمل هذه النسخة فى ثلاثة أسابيع، وتمت فى ربيع 1951. وقد أجرى مزاد على هذه الوثيقة فى صالة كريستى فى 22 مايو 2001، حيث بيعت إلى جيم ايرساى، وهو رجل أعمال ثرى ومالك فريق كرة القدم انديانا بوليس كولتى، مقابل 2.2 مليون دولار. وقد صنع كيرواك اللفيفة بنفسه من سلسلة من اللفات طول كل منها اثنتى عشرة قدمًا أوصلها معًا ثم أدخلها على نحو مستمر فى آلته الكاتبة بما مكنه من عملية أسماها «الكتابة التلقائية». وتجاهل قواعد التقسيم إلى فقرات، رافضًا ترك بياض فى بداية الفقرات والتنقيط والفواصل من أى نوع، فى تفجير غير عملى لقواعد الإنشاء. واستخدم الشرط عادة بدلًا من الفواصل والشولات المنقوطة، وكانت الشرط تمثل فترة طويلة لالتقاط الأنفاس بين دفق النثر. واحتفالًا بالعيد الخمسين للرواية، نشرت دار فايكنج نسخة من على الطريق فى شكل لفيفة أسمتها: **اللفيفة الأصلية** (2007).

وعرض هاوارد كونيل فى تقديمه للفيفة المنشورة، فحصًا تفصيليًا لكثير من البدايات والمسودات والمقتطفات والمراجعات استخدمت فى صنع على الطريق. ويمكن تتبع أصولها التمهيدية رجوعًا إلى قصة سابقة من أربع صفحات، كتبت فى 1940، لكن الرواية نفسها بدأت تتشكل فى يوميات كيرواك، التى سجلها خلال سفرياته فى الولايات المتحدة والمكسيك بين 1947 و 1950. وفى 23 أغسطس 1948، ذكر الرواية صراحة، قائلًا إن رواية على الطريق هى «عن فتيان يسافران إلى كاليفورنيا عن طريق مطالبة سائقى السيارات بأن يحملاهما معهم، بحثًا عن شيء ما لايجدانه حقًا، ويضيعان نفسيهما على الطريق، ثم يعودان أدراجهما على امتداد نفس الطريق كله ليجدا شيئًا ما آخر» ويصف هذا الموجز الجميل الرواية التى ظهرت، وأن فعل ذلك على نحو غير منتظم.

وهى بطريقة ما تنبع من روايته الأولى عن سيرته الذاتية، المسماة البلدة والمدينة، وهى قصة عن انهيار أسرة لاتختلف عن أسرة كيرواك المنتمية للطبقة العاملة، أسرة مهاجرين. وهذه الرواية العاطفية على الأصح (والتى تدين بالكثير إلى توماس وولف، صاحب التأثير المبكر على كيرواك) تقدم صورة مبكرة عن ثقافة حركة النبضة وتكشف عن وجود بعض المقاومة للحياة الطليقة التى تصورها: وهو موقف يؤيد ضمنًا القيم المحافظة «للبلدة»ويفضلها على قيم «المدينة». وربما يدهش موقف كيرواك فى تلك الرواية، الذين ربما يفترضون بسهولة أن المؤلف يحتقر القيم المحافظة لأن شخصياته تبدو «متهورة» لهذا الحد وتنخرط فى الجنس والمخدرات بحرية، ساخرة بالسلطة، وتعيش على حافة القانون. والواقع أن كيرواك كان يصارع قيمه فى رواية على الطريق كما أنه لم يقف مطلقًا فى صف الصبى المتهور دين موريارتى، الذى يسميه باسمه الحقيقى ببساطة، وهو نيل كاسادى، فى النسخة اللفيفة، والتى تعد مذكرات أكثر منها رواية.

وكاسادى، باعتباره دين موريارتى، من بين الشخصيات التى لاتنسى مطلقًا فى الأدب الخيالى الأمريكى. لقد أغوى سال (كيرواك) وتحداه، وأخيرًا دمره. ورواية على الطريق هى محاولة كيرواك لصرع كاسادى أرضًا على الورق، وأن يرسم له صورة تخطيطية وأن يفهمه. لكن لم يكن أى كتاب يستطيع أن يأمل فى أن يحتوى مثل كتاب كيرواك على طاقات كاسادى الشهوانية العربيدة، الذى يبدو أنه يجسد ما أسماه فرويد ذات مرة «الانحراف متعدد الأشكال». فلم يكن لهذا الصبى المتهور المروع أى حدود، جنسية أو اجتماعية. فهو شاذ جنسيًا ومستقيم، خارج عن القانون ومن صبيان الكشافة، صديق وعدو. ربما هو ما قد يدعوه دى إتش لورنس كاهن الحب، شاب مخلص للروح النقية التى تحركه، وتلويه على عقبيه، وتضعه فى موقف مرهق بعد الآخر. ويكتب كيرواك فى بداية نسخة اللفيفة قائلًا «مع مجىء نيل بدأ بالنسبة لى حقًا ذلك الجزء من حياتى التى يمكنك أن تسميه حياتى على الطريق». تلك لحظة ورع بالنسبة لسال براديز بديل المؤلف، وتُذكّر «بمجىء» كل الأنبياء.

ورغم اللفيفة، فقد ظهرت الرواية فى مئات من الصفحات من مسودة القصة الخام، والخطابات، وأبواب الصحف، وكثير من الحوارات مع ألين جينسبرج، نيل كاسادى،

ويليام اس بورروز، وكثيرين غيرهم. لقد كتب كيرواك إلى صديق له فى 1948 أن خطط روايته قد تبددت منه وذهبت «حتى لأشخاص غرباء تمامًا». بيد أن هوارد كونيل حدد عدة نسخ مصورة من الرواية، منها مسودة من أربعة وخمسين صفحة اسمها «رواية راى سميث فى خريف 1948»، ونسخة مولتر، الين (دين فيما بعد) وبوميراى فى 1949 (أحيانًا يكتب الاسم بوميرى أو بوميروى)، ومخطوطة «ذهب على الطريق» لعام 1950، وهى من ثلاثين صفحة وتصور كوك سميث ودين بوميراى، ونسخة اللفيفة نفسها، والتى تم تنقيحها باجتهاد وحماس لإنتاج الرواية النهائية فى 1957 مع سال براديز ودين موريارتى كبطلين لها.

وتجدر قراءة نسخة اللفيفة باعتناء وحرص، حيث إن الكتابة فيها أكثر عفوية، وأحيانًا أكثر عاطفية، والمؤكد أنها أشد إثارة للغرائز الجنسية، وأكثر هزلًا. ففى الفصل الخاص من الكتاب الثالث مثلًا، يلتمسان من سائق توصيلة للعودة إلى الشرق فيما أسمياه «سيارة المرهق البلايموث» حيث إنها كانت تخص «شخصًا مرُهقًا طويلًا ونحيلًا كان فى طريقه للعودة لدياره فى كانساس». وهذه السيارة «لم يكن فيها أى لاقط للإرسال الإذاعى ولا أى كهرباء حقيقية»، وأسماها دين «سيارة مخنثة»، إذ كان كثيرًا، مايدلى بملاحظات فظة عن الشواذ جنسيًا، رغم أنه هو نفسه كان ثنائى الجنس ولا يخجل من ذلك وأنه عمل فى شبابه فى منزل للشواذ الذين يقومون بدور الذكر مثلما اعترف، حتى فى نسخة 1957 (207).

وفى ساكرا منتو، حصل اللوطى الأكبر سناً على غرفة فى فندق، ودعا دين وسال لتناول شراب. يتذكر سال قائلًا: «كان المرهق يحب الشبان مثلنا، وكان لابد أن نصدقه، لكنه لم يكن يحب الفتيات حقًا. كان قد قال أنه أقام مؤخرًا علاقة مع رجل فى فريسكو قام فيها بدور الذكر وقام الرجل بدور الأنثى» (210). ويلاحظ بسخرية لايكاد يسيطر عليها «أن المرهق قال أنه لا يحب شيئًا أفضل من أن يعرف ما يعتقده دين بشأن هذا كله.» وفى رواية 1957، فإن دين أفزع «المرهق» بجعله يعتقد أنه لوطى إيجابى، لذلك ظل الرجل يراجع محفظته ليتأكد أن دين لم يسرق أى شىء. ويقول دين عن الرجال الشواذ: «قدم لهم ما يريدونه سرًا وبالطبع سيصابون بالذعر فورًا». قد يصدق هذا على بعض الشواذ جنسيًا، لكن من الواضح أنه ليس حقيقة عامة. و نعرف من اللفيفة ما حدث بالفعل، وهو يبدو معقولًا بدرجة كبيرة ويكشف

عن الجانب ثنائى الجنس فى دين (وهو نيل فى المسودة) وهو أمر يبقى بدون هذه التفاصيل، مراوغًا، بل ومحيرًا أحيانًا.لقد قال كيرواك فى اللفيفة: «وإذ حذره أولًا من أنه كان من قبل لوطيًا إيجابيًا فى شبابه، بدأ يعامل الكادح مثل امرأة، يربت على ساقيه و عليه كله ويضربه ضربات وحشية كبيرة».

كان ذلك مايريده الرجل، وأعطاه له نيل- وهو أمر أشد صراحة فى اللفيفة. لقد «روض» الرجل العجوز، الذى كان توًا قد تباهى أمامه الصبيان بقيامه بدور الذكر فى أعمال لواط. وتم تحويله للوطى سلبى (ومن ثم «تأنيثه») فى وضع تبشيرى. وبمعنى ما حقيقى، فإن هذا كان مباراة قوة من قبل دين (وعلى نحو أكبر من قبل نيل)، وليس عملية جنسية. وتتركنا الرواية للاعتقاد بأن دين لم يكن يريد الجنس «حقًا». كان يريد قيادة السيارة، وأن يشعر بالسيطرة. ولاريب أن دين كما يفسر سال «كان قد قهر صاحب البلايموث بما يكفى ليأخذ عجلة القيادة بدون اعتراض، ونحن حاليًا نسافر حقًا» (210). وبدون المشهد اللوطى، مثلما يظهر اللفيفة، أشك فى أن القارئ سيجد فرصة لفهم ما كان سال يتحدث عنه (فى رواية 1957).

وقد عمل كيرواك مع ما لكولم كاولى، وهو محرر متميز يعد كتابات الآخرين للنشر فى دار فايكنج و كان شاعرًا موهوبًا، وضع يوميات ما أسماه، الجيل المفقود لهيمنجواى وفيتز جيرالد و آخرين فى كتاب عودة المنفى (1934)، وهو مذكراته الرائعة عن باريس فى العشرينيات. وفى مذكرة بعث بها إلى زميل له فى دار فايكنج، أوضح كاولى أن مخاطرتهم بالفحش و القذف والتشهير كانت عائقًا أمام نشر رواية على الطريق. وإذ كان كيرواك متلهفًا على رؤية الكتاب مطبوعًا، فقد عدّل نسخة اللفيفة (بنصيحة من المحامين فى دار فايكنج)، واضعًا قناعًا على شخصيات شتى كان يمكن أن تقاضيه، وحاذفًا الجنس الأشد صراحة، وأحكم القصة بصفة عامة لكى يجعل العمل كله متوافقًا معًا على نحو أكبر مع الأعراف. وأحدثت الفقرات فرقًا كبيرًا بالنسبة للقارىء العام. وقدمت النسخة النهائية لكاولى فى 8 يناير 1957، وحصل المؤلف مقدمًا على ألف دولار من الإيرادات التى ستتحقق فى المستقبل. لم يكن ذلك عقدًا مجزيًا، لكنه كان نمطيًا، والمؤكد أن حقوق التأليف توالت.

كانت قوانين محاربة الفحش فى أمريكا فى الخمسينيات تجعل الكتابة بحرية أمرا خطرًا، خاصة الكتابة بطريقة «داعرة». فقد وجد ألين جينسبرج (إلى جانب ناشره فى سيتى لايتس، لورنس فيرلنجيتى) مقدمًا للمحاكمة فى مارس 1957 عن قصيدته العواء، وهى قصيدة طويلة مسرفة فى التعبير عن العواطف لامعة اعتبرت فاحشة بسبب بيت فيها عن الرجال «الذين يتركون أنفسهم لينكحون فى دبرهم من قبل راكبى الدراجات النارية الورعين كالقديسين، ويصرخون بسعادة». ولدهشة كثيرين، حكم القاضى فى هذه القضية، وهو كلايتون هورن، بأن القصيدة «تسترد الأهمية الاجتماعية». وانفتح السبيل أمام رواية على الطريق، التى ظهرت فى 5 سبتمبر 1957.

وكما سلف بيانه، فقد كان أول استعراض مهم للرواية هو الذى كتبه ميلستاين فى النيويورك تايمز، حيث وصف على الطريق بأنها «رواية كبرى» وأنها تجعل من نشرها «مناسبة تاريخية». ولم يوافق على ذلك كل النقاد. فقد أصرّ روبرت سى روارك فى النيويورك ورلد تليجرام آندصن على أن الرواية ليست سوى اعترافًا صريحًا بأن المؤلف «ظل يعتمد على مؤخرته لمدة ستة سنوات». واعترف ويليام موراس فى نيو ليدر بأهمية الرواية كوثيقة اجتماعية لكنه خلص إلى أن المؤلف لم يكن «فنانًا على وجه التأكيد، لأن ذلك كان سيعنى ضمنًا انضباطًا ووحدة الغرض وهو ما لا تعكسه كتابته».

ولم يول القراء اهتمامًا كبيرًا لهذه الملاحظات، وحققت الرواية مبيعات جيدة، وباعت ثلاث طبعات فى سنتها الأولى. ولاحظت مديرة الدعاية فى دار فايكنج فى ذلك الوقت، باتريشيا ما كما نوس، فى مذكرة بعثت بها إلى زملائها (فى يناير 1958) أن «كليتين على الأقل اعتمدتاها لدروس الأدب المعاصر» (لم يتم التحقق بعد من كيف كانت المدارس تستخدمها... ربما للقراءة فيما بعد إطفاء الأنوار). ولم يتوقف مطلقًا نشر الرواية منذ يوم صدروها. وحسبما يقول بول سلوفاك، وهو نائب رئيس فى فايكنج، فإنها لاتزال تبيع نحو مائة ألف نسخة سنويًا وتمت ترجمتها إلى اثنتين وثلاثين لغة. لقد حققت الرواية حقًا أكثر من مجرد الإعجاب المنبهر بها، واعتبرت من أكثر الكتب تأثيرًا التى كتبها أمريكى فى أى وقت.

لم يكتب كيرواك مطلقًا كتابًا يعادل على الطريق، رغم أن ومضات إشراق كانت تلمع فى كل شيء أنتجه. فقد اعترض إدمانه المسكرات طريق الكتابة المطردة، ومات من جراء هذا المرض فى 1969، وإن لم يكن قبل أن يرى كثيرًا من مخطوطاته الأولى وكتبه اللاحقة وقد نشرت. ومن بين أفضل هذه الأعمال الدهارما بومز (1958) رؤى كودى (1960)، سور الكبير (1962)، ملائكة الأسى (1965). وتشكل هذه الأعمال، بما فيها على الطريق جزءًا من سلسلة تضم أربعة عشرة رواية من روايات الطريق التى تندرج تحت العنوان العام «أسطورة دولوز»، رغم أنه سيخيب أمل أى شخص يبحث عن شيء من الوحدة هنا. لم تكن وحدة السرد مثلًا أعلى لجاك كيرواك، إذا كان يفضل نوعًا من الكتابة العفوية المترابطة – وهو أسلوب لا يختلف عن كونه صيغة نثرية من الجاز، جرى تصويره على نحو بارز فى على الطريق.

3

الرواية مقسمة إلى خمسة أبواب وتركز على أربع رحلات كبرى على الطريق (خمسة فى النسخة اللفيفة)، مثلما تركز على دين موريارتى. إنها كتاب عن المراوغات، مثلما يتبدى فى الجملة الثانية من الكتاب : «لقد تعافيت توًا من مرض خطير لم أكن أهتم بالحديث عنه، لولا أنه يرتبط على نحو ما بالتصدع المرهق على نحو يدعو للبؤس الذى أعانيه وبشعور بأن كل شيء قد مات وانقضى» (1). أن موت والد سال يختفى تحت سطح النص، مثلما يختفى تحطم زواجه الأول. ويشعر المرء بأشياء غامضة أخرى : أن سال براديز لايستطيع أن يلم شتات حياته معًا، وأن بحثه عن السعادة يضفى على الرواية سمة مسعورة. والطريق يمثل الحياة نفسها. والبطل هو نفسه كاتب - مما يضع رواية على الطريق ضمن تراث الروايات التى تدور حول كتاب شبان يحاولون اكتشاف رؤيتهم، مثل رواية صورة فنان كشاب (1916) لجيمس جويس، وهو كتاب أعجب به كيرواك. (يصور شخصية دولوز فى السيرة الذاتية على نموذج ستيفن ديدالوس، الشخصية الروائية المقابلة لجويس نفسه).

ويأسر دين موريارتى ويجتذب انتباه القاصّ منذ البداية. فهذا «الصبى الشاب نزيل السجون المغلف بالغموض» جاء إلى الشرق، افتراضًا ليتعلم حرفة الكاتب، وهذا هو السبب فى أنه توجه إلى سال فى المحل الأول. كان دين متزوجًا من ماريلو «كتكوته الصغير الجميل الذكى.» وبالفعل، فإن كلمة «كتكوت» كانت تومىء للقراء فى 1957، بأن رواية مفعمة بالحيوية بصورة طليقة ومملوءة بالعامية ستنفتح أمامهم. لقد بحث دين عن سال فى باترسون، نيو جيرسى، حيث كان يعيش مع عمته. وفى نسخة اللفيفة فإن سال هو جاك كيرواك نفسه ويعيش مع أمه، مثلما حدث بالفعل. لم يكن لدين مثل هذه الروابط الأسرية، وكان مكرسًا نفسه كلية وببراءة تقريبًا للجنس، الذى كان يعتبره «الشيء المقدس والمهم الواحد والوحيد فى الحياة» (2).

ويقيم دين وسال علاقة فورية، ويتفقان على «الخروج إلى الغرب فى وقت ما» (4). وذلك هو تراث هاك فن، متجسدًا فى الرغبة فى «الارتحال بحثًا عن أرض». ويمثل الغرب التحرر من قيم الجاكت والكرافته فى الشرق، أنه سماوات فسيحة، ورعاة بقر، وجبال، والحق فى فعل أى شىء ترى أنه سيسرك. والأم (أو العمة سالى) ليست هناك. لتقول تأكد من أن تعود للبيت ليلًا، وتطفىء الأنوار عندما تذهب للفراش. ويظهر أصدقاء آخرون من حركة النبضة: فسرعان مانلتقى مثلًا بكارلو ماركس (الين جينسبرج)، «الرجل الضد المقدس ذى العقلية اللامعة» (5). وفى نسخة اللفيفة، مارس نيل والين الجنس معًا، ولكن لم يرد ذلك فى تنقيح 1957. كما يسمع المرء شائعات عن أولد بول لى (وليام اس بوروز فى اللفيفة). ويستعرض سال قائمة طويلة من الشخصيات والأماكن، ملمحًا إلى الجنس والمخدرات بطريقة لم تشاهد مطلقًا من قبل فى الأدب القصصى الأمريكى.

ويبرر سال توقه للترحال مع دين بأنه كان يأمل فى أن يعرف دين على نحو أفضل، ولكن أيضًا لأن «حياته التى كانت معلقة حول الجامعة كانت قد وصلت إلى اكتمال دورتها وأصبحت سفيهة» (7). (بطريقة ما ينظر توم سوير إلى هاك وطريقته طليقة العنان للحياة، ويحسده على تلك الحرية). إن التيارات اللوطية لم تكن مطلقًا صريحة على هذا النحو الرهيب، لكن التهمة هى أن مشاعر سال فى حضور دين لم تكن سوى مشاعر جنسية. إذ كان يتورد كلما دخل دين الغرفة، كان يستمر فى الكلام بقوة ويعتبر ذكاءه «متوقدًا و كاملًا بدون اتخاذ وضع المثقف الممل» الذى يتخذه آخرون (7). إن أكثر ما كان يحبه فى دين هو «فرط الانفجار العاطفى من عينيه البريئتين اللتين تقولان نعم وتفيضان فرحًا بذلك» (7-8). أنه «أحد أقرباء الشمس الغربيين» وهو ذهب من نوع خاص. كان سال يعتقد أنه إذا اتبع دين، «فإنه فى مكان ما على امتداد الحظ ستسلم اللؤلؤة» إليه (8).

تلك هى لؤلؤة الحكمة، ومضة تنطوى على «فتيات، ورؤى، وكل شىء». وهكذا، تبدأ الرحلة الأولى فى يوليو 1947. وكانت هذه هى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية مباشرة. كان الشباب الذى تعوزه الحماسة فى الخمسينيات مختلفًا، لا يمتلىء بالطاقة والأمل والجرأة مثل الشبان والشابات اللذين صورهم كيرواك. كان سال يقرأ كتبًا عن الرواد، مثل

يوميات لويس وكلارك، ويحدّق فى خرائط الولايات المتحدة. وهكذا بدأت الرحلة مثل كل الرحلات الأسطورية فى ضباب رمزى: «كل ماكنت أستطيع أن أراه هو أشجار بلون الدخان وبرارى كئيبة ترتفع لعنان السماء» (10).

إن الكتابة عن الترحال هنا رائعة، مثلما تستمر طول رواية على الطريق. وبطريقة هوايتمان، يقدم كيرواك بيانًا مسهبًا بالمناظر والأصوات والأسماء والأماكن. والتمس توصيله إلى كولورادو، وكتب بوضوح كالنبوءة يقول : «استطعت الآن أن أرى دنفر تلوح أمامى مثل أرض الميعاد» (14). وتلوح أرض الميعاد مرارًا وتكرارًا، ثم تزوى. ذلك أنه من الصعب العثور عليها. واحتلال مركزها. ومثلما كتب دبليو إتش أودن ذات مرة:

> مثلما حدث فى السنوات السابقة شاهدنا الرؤية الحقيقية وفشلنا
> فى أن نفعل أكثر من تأملها باعتبارها إمكانية مستساغة.

وباعتبارها رواية عن المتشردين، فإن على الطريق تصور بطلًا مارقًا، أو متشردًا، يذرع أرجاء الريف، قافزًا من فراش إلى فراش، ومن مغامرة إلى مغامرة. لقد عمل كيرواك فى إطار الشكل القديم، معيدًا اختراعه. وبين يديه اتخذ هذا شكلًا مفعمًا بالحياة بلاقيود، واتسم أيضًا بريف لاينتهى، ومقاطع طويلة يمكن اعتبارها عزفًا منفردًا. وهناك تغييرات مفاجئة فى المزاج والوتيرة. واللغة نفسها تستخدم بطريقة موسيقية، مع استعمال الكلمات كأنغام. ليس هناك حبكة كبيرة، لاشىء سوى قصة. (والفرق هو أنه فى القصة، فإن أمرا يتبع الآخر، ويحدث انفجار متسلسل لأحداث غير مترابطة. أما فى السرد الذى تحركه حبكة، فيتواصل التسلسل، وكل شىء مترابط بطريقة حتمية نوعًا ما). أن سال هو المتشرد الذى نراه هنا، ونحن نتبعه أينما ذهب، ونقابل أى شخص يلتقيه، مثل أيدى، الذى يوصف بأنه «نيو يوركى نموذجى، رجل ايرلندى يقود شاحنة لمكتب البريد فى معظم سنوات عمله وهو الآن متجه ليلقى فتاة فى دنفر ويحيا حياة جديدة» (16). ويلقى بكثير من هذه الشخصيات جانبًا مع تقدم الرواية فى مسيرتها.

وفى دنفر، يكتشف سال أن دين قد انضم إلى جماعته القديمة، التى تشمل شخصيات مثل تشادكنج، وتيم جراى، وورولاند ميجور. كان عليه الاختيار، لكنه ليس اختيارًا بأية حال. كان عليه أن يستمر مع دين متجهين إلى الغرب، كما خططا. كان سال مستثارًا تمامًا بشأن إعادة الارتباط مع دين، الذى كان «يمارس الحب مع فتاتين فى الوقت نفسه» فى دنفر. هاتان الفتاتان هما ماريلو، زوجته الأولى، وكامى، وهى فتاة جديدة. ويشرح كارلو ماركس كل هذا بقوله: «كان يندفع إلى من بينهما من أجل عملنا الذى لم نتمه». ولم يُذكر مطلقًا ما إذا كان هذا العمل جنسيًا. ولاريب أن ماركس ومورِيارتى حاولا أن يرتبطا على مستوى روحى أيضًا، حيث كانا يجلسان «على الفراش وأرجلهما متشابكة ويواجهان الواحد منهما الآخر». لقد بذلا مجهودًا «للتواصل بأمانة مطلقة، وبتكامل مطلق» (41). وهذا الأسلوب من الحديث، العارى والشخصى على هذا النحو، جذب القراء بقوة فى آواخر الستينيات والسبعينيات، عصر الخنافس وأشباه الخنافس، الذين كانوا يجلسون على فراشهم فى عنابر النوم فى الكليات والشقق المليئة بالدخان، يعرّون أرواحهم لبعضهم البعض وهم يتبادلون سجائر المخدرات.

وقد بدأ سال نفسه سلسلة من المغامرات الجنسية، مثلما فعل مع ريتا بتنكورت، وهى «كتكوت رقيق يسهل تعليقه ولايعانى من صعوبات جنسية كبيرة» (43). وكلمة تعليقه المستخدمة بهذه الطريقة فيها ترشيح للغة من خلال كيرواك (الذى كان قد التقطها من أصدقائه فى حركة الخنافس)، ولم تفقد أبدًا جدواها بالنسبة لنوع معين من القلق والتردد (الجنسى عادة). بيد أن بعض العامية فى رواية **على الطريق** تبدو عتيقة الطراز بصورة فظة، وإن كانت جذابة، مثلما حدث عند وصف أولدبول لى بأنه «ذلك القط المتيمّ» (48).

وينطوى هذا الجزء من الرواية على رحلة إلى جبال و أطراف شتى، وكذلك على تقديم شخصية محيرة مثل دنفر دول، والذى يصوره بوضوح أكبر فى نسخة اللفيفة حيث يكون وجوده منطقيًا. ومن الواضح أن أسبابًا تتعلق بالفحش منعت كيرواك من أن يفعل أى شىء بهذه الشخصية الغريبة التى كانت فى أواسط عمرها، والتى ركزت على نحو متسلط

كالهاجس على الشبان المتمردين أو الشبان الأحداث ذوى التصرفات الصبيانية، الذين كان «يصلحهم» ويساعدهم على الالتحاق بالكلية. كان دين من بين من وضعهم تحت حمايته، لكنه فشل فى أن يتعايش مع رؤية دول عنه ولم يعان من الإصلاح، مثلما حدث لهاك نفسه.

ويستمر هوايتمان فى الظهور فى روايته، مثلما حدث عندما ذهب سال وأصدقاؤه إلى الجبال: «كنا على سطح أمريكا وكل ما استطعنا عمله كان هو الصراخ» كما يقول. (كتب هوايتمان فى أغنية لنفسى يقول: «رددت صرخاتى البربرية على سطح العالم»). وفى مقطع حاسم، يتحدث سال عن «المحيطين بأحدث المستجدات فى أمريكا البائسين، جيل جديد من حركة النبضة» الذى «أخذ ينضم للصفوف ببطء» (54). ويحس المرء بهذا التوحد الهادف مع مجموعة بعينها، عصبة من الشباب المتمرد بعد الحرب. لم يكن هؤلاء على وجه الدقة هم المرتبطين بحركة النبضة فى الخمسينيات، بل لقد خسفوهم، وشكلوا جماعة متطرفة للثقافة المضادة الذين يحبون الجاز والجنس والمخدارت. لقد تسببوا فى مولد وعى جديد، وعى ازدهر فى الستينيات حيث توحد جيل جديد ضد التماثل مع جيل آبائهم.

وكثيرًا ما أشار سال ودين إشارات ضمنية (أحيانًا على سبيل الادعاء) لأعمال أدبية. فقد ذُكر هيمجواى عدة مرات، بل وذكز أحيانًا على سبيل المحاكاة الساخرة. وهناك إشارات إلى سيلين وجوته، إلى هارت كرين وآخرين، ومع ذلك فإن بعضًا من أهم الإشارات الضمنية هنا، لهوايتمان، توين، وجويس، واف سكوت فيتزجيرالد وملفيل، لم تكن صريحة مطلقًا. إن صدى هؤلاء الكتاب هومجرد: صدى. بيد أنه مع رجع الصدى هذا، وضع كيرواك روايته عن وعى فى التراث الأدبى، وتقرأ روايته مثل مقتطفات أدبية مقنعة من الكتابات الأمريكية العظيمة. إنها رواية جاز، رواية تأخذ موضوعات ومقاطع ومسرحيات مشهورة كثيرة لتقدم صورة للريف. إنها نسيج من الإشارات الضمنية. وتلعب سان فرانسسكو دورًا ضخمًا فى السرد، حيث كان كثيرون من جيل النبضة قد هاجروا إليها بعد الحرب فى مرحلة ما، منهم جارى سيندر، جنسبرج، ولورانس، فريلنجيتى. وما أن وصل سال إلى سان فرانسسكو، حتى عاش مع صديق قديم له من المدرسة الإعدادية، هو ريمى بونكير، الذى كان يردد

دائمًا «أنك تستطيع أن تعلم الما يسترو العجوز مقطوعة موسيقية جديدة» (62). وكان هذا نوعًا من اللازمة بالنسبة له. كان يعيش فى ميل سيتى، خارج سان فرانسسكو، «وهاجم حركة النبضة وأيام الشر التى انتابت الفتية من الشباب فى أواسط العشرينيات من عمرهم» (63). وفى مشهد من أكثر المشاهد إثارة للضحك فى الرواية، ينضم سال إلى ريمى كحارس أمن فى ثكنات محلية، حيث كلفا بالحفاظ على السلام بين حشد من الشخصيات السطحية، التى كانت تستعد للإبحار إلى أوكيناوا. ويخبرنا سال بأن «وظيفة الحراس الخاصين كانت السهر على ألايحطموا الثكنات». لبسا زياً موحدًا وحملا شارة وتقلدا سلاحًا (فعلا ذلك بثقة ساخرة). ومثلما كان يتعين عليهما، فقد زاملا (على نحو أخرق) حراسًا آخرين «طاقم رهيب من الرجال، رجال لهم روح الشرطى» (65). وفى مرحلة ما، وقع سال فى مشكلة عند وضع علمًا أمريكيا على سارية وهو مقلوب. وقال له «شرطى سمين» أنه يمكن أن يذهب إلى السجن بسبب هذا الجرم، وصدم. «كنت مرتعبًا؛ بالطبع لم أدرك هذا» ولاحاجة للقول، بأن المرء لا يصدق سال كلية ربما لم يتعمد وضع العلم مقلوبًا. إذ يقول: «كنت أفعل ذلك كل صباح بصورة آلية» (66). لكن افتقاره الكبير لاحترام العلم يكشف عن تيار من المقاومة، ومسحة من العدوان السلبى. لم ينظّر سال ودين مقاومتهما تجاه حكومة الولايات المتحدة وثقافة الموت الخاصة بها - ممثلة فى «الشرطى السمين». ومع ذلك، فإن هناك نزعة تمرد كامنة تتفجر طوعًا أو كرهًا. فسال فى نهاية المطاف متمرس وكذلك كان كيرواك. كانا يعرفان ما تمثله الولايات المتحدة، وما لا تمثله. باختصار، لاتجوز عليهما الأساطير، ليس بالكامل.

ففى أمريكا ما بعد الحرب، كان هناك اندفاع قوى نحو التماثل - ربما كرد فعل طبيعى ازاء الفوضى التى أوقعتها الحرب. وقد اعتبر كيرواك نفسه فى السنوات التى كان يكتب فيها رواية على الطريق شخصًا ينتمى لتراث ثورو، وهو رجل ينفصل عن الحشد وينتظر يوم الدينونة الخاص به وحده. ففى خطاب محموم ملىء بالحيوية والحماسة فى 1949 مثلًا، كتب يقول: «قررت ذات يوم أن أصبح ثورو الجبال. أن أعيش مثل يسوع وثورو» كان ببساطة سوف يسعى إلى «التجول فى البرارى، فى الجبال البرية وينتظر يوم الدينونة، ليس

للرجال.. وإنما للمجتمع». وبالنسبة لإدانته للمجتمع الأمريكى، لم يكن يستطيع أن يكون أكثر صراحة ولعنًا : «أنه الشر. وسوف يسقط».

ويصف سال أحد حراس الأمن، هو شاب بغيض يسمى سليدج، بأنه «غرفة تعذيب تسير على قدمين»، بسترته المتهدلة وقبعته المختالة بنفسها، ومسدسه وحزام ذخيرته. لم يكن يرغب فى شىء أفضل من معاقبة من لايريدون الإصغاء إليه. كان يتباهى مرارًا بقوله «إننى لم أعط مطلقًا لأى شخص أُكثر من فرصتين». وكان سال يراقب باحتقار مكبوت سليدج وهو يسعى وراء البعض من هذه الأرواح التعيسة، لمعاقبتهم على رفض أوامره. يقول سال : «تلك هى قصة أمريكا. كل شخص يفعل ما يعتقد أنه يتعين عليه فعله» (68). لكن سال براديز كان ينتمى إلى نوع مختلف، كان يسعى وراء ومضة مثالية. كان يسير على ضربات قارع طبول خاص به هو وحده. وانتهت فترة العمل كحارس فجأة.

يقول سال «عدت للطريق مرة ثانية». (74). ويستطرد «إننى هنا فى نهاية أمريكا - لا مزيد من الأرض - وهنا لم يعد يوجد حاليًا أى مكان يمكن الذهاب إليه سوى العودة» (77). ويتريث فى نهاية الفصل 11، الجزء الأول، ليفكر فى «ضخامة وجسامة القارة الأمريكية الصرفة» التى تبدو أمامه، وتمتد غربًا وتبلغ ذروتها فى مدينة نيويورك. ويشير إلى أن «هناك شىء أسمر ومقدس عن الشرق» بأسلوب شاعرى أكثر منه سوسيولوجى.

واتخذت رحلة العودة طريقًا غير مباشر، حيث يتوقف سال لإقامة علاقة غرامية مع فتاة مكسيكية تسمى تريزا (أو تيرى) فى أحد مراحل الرواية التى لاتنسى. كان قد تعرف عليها فى حافلة، وبدأت علاقتهما الغرامية ببراءة مدهشة: «وبدون التوصل لاتفاق معين بدأنا نتعانق فى الحافلة» (82). وناما معًا بأسرع ما أمكنهما. ونادرًا ما كتب عن هذا النوع من السلوك المندفع، وأن كان شائعًا بما يكفى، بمثل هذه العذوبة والصراحة. لم يجد سال شيئًا دنيئًا أو «قذرًا» بشأن هذا الجنس، فقد تقرر «على نحو جميل ونقى» أن ينام هو وتريزا معًا فى حجرة فى فندق فى لوس أنجلوس. وكتب سال فى محاكاة ساخرة لعهد الزواج التقليدى

«وللخمسة عشرة يومًا التالية كنا معًا فى مختلف الأحوال» (86). أن سال يجد أنه لاشىء مقدس وأن كل شىء، مقدس.

وبالطبع فقد كانت كاليفورنيا الجنوبية (ولاتزال) مليئة بأنواع الثقافة المضادة. ويتذكر سال «أن الشخصيات الأكثر التزاما بحركة النبضة فى البلاد كانت قد تحلقت على أرصفة المشاة» ملاحظًا أنك كنت تستطيع أن تشم فى الجو رائحة «الشاى، والأعشاب، أقصد الماريجوانا» (87). ووجد عملًا لدى مزارع، وتردد الكتابة هنا صدى شتاينبك حيث يصف كيرواك «البلاء الكبير للثلاثينيات»، ويشير إلى ارتحال أسرة بكاملها فى «شاحنة عتيقة». وبالكاد تبدو رواية عناقيد الغضب بعيدة عن المشهد بصورة طفيفة فى منعطفات كثيرة من على الطريق. كما تلوح تحف أمريكية أخرى على الهامش، مثلما يتبدى فى إشارة سال «للفقر الفظ فى حقول سايمو ليجرى» والتى تستدعى للذاكرة شبح السائق العبد البغيض فى رواية ستو كوخ العم توم (96). ومع ذلك، فإن النغمة التى ترن هنا، وهى نغمة كيرواك كلية، هى الفرح نفسه. يقول سال وهو يغنى تقريبًا «إننى أغامر فى الليل الأمريكى المجنون» (100).

إن سال كاتب، ولكنه مثل كل الكتاب الجيدين، فإنه قارئ فى الأساس. والإشارات الضمنية لكتاب آخرين وكتب أخرى لاتنتهى، مثلما يفعل عندما يبدأ الفصل الرابع عشر بتعليق على كتاب آلان - فور نييه - المولانى الكبير - وهى رواية حزينة عن شاب متمرد يقع فى الحب، كتبها روائى فرنسى قتل فى الحرب عام 1914. والواقع أن كيرواك نفسه كان قد قرأ قدرًا كبيرًا من الأعمال باللغة الفرنسية، وكان كثيرًا ما يكتب بها، فقد كانت هى لغته الأولى. بيد أن سال «يقرأ» فى الأساس المشهد الأمريكى، الذى يصفيه عادة من خلال النصوص، مثلما فعل فى وصف المسيسيبى وإطالته الحديث عن السفن التجارية القديمة «بزخارفها الملولبة التى يجعلها الطقس أكثر لولبة وذبولًا» وبذلك يذكرنا بتوين (103). وبعد صفحات قليلة فحسب يلمح إلى بنيامين فرانكلين، الذى «كان يكدح فى الأيام الصعبة عندما كان يعمل كمدير لمكتب بريد» خلال «برارى الشرق» (105). وقد حدّد هذا الشاب الواعى بذاته

حرفيًا على نحو حريص الارتباطات والعلاقات، وقرأ المشهد من حيث مضمونه الثقافى والفكرى. وعند كيرواك، مثلما عند إيمرسون، فإن «الطبيعة هى رمز للروح». إن الحقائق الطبيعية فى المشهد هى علامات على الحقائق الروحية، والمرء لايمس سوى سطح العالم على نحو عابر، مدركًا على الدوام أن قدمه قد تغوص من خلال القشرة فى أى لحظة فى عالم الروح الصرفة.

ويبدأ الجزء الثاني، مثل الجزء الأول، بدين. فقد ذهب سال وعمته إلى تستامنت، فى فيرجينيا لزيارة شقيق سال (فى النسخة اللفيفة، فإن العمة هى أمه حقًا، والشخص الذى تمت زيارته هو شقيقته). وفى بيت الأسرة هذا فى الجنوب، تظهر سيارة هدسون، وهى سيارة عجيبة، تحمل دين وماريلو واد دانكل «وهو شخص طويل، وهادئ وغافل» (111). (وتستند شخصية دانكل إلى آل هنكل، وهو صديق آخر لكيرواك من حركة النبضة). وتلبست سال روح الكريسماس واستمتع برائحة الديك الرومى المحمّر، لكنه لم يستطع البقاء عندما أراده صديقه دين إلى جانبه على الطريق مرة ثانية، الواقع «أن العلّة انتابتنى مرة ثانية، وكانت العلة اسمها دين موريارتى» (115).

كان دين يتقلب فى نوع متواضع من الصوفية رغم أن هذه «كانت هى الأيام الأولى من تصوفه، والتى أدت إلى ورع غريب خشن فى أيامه الأخيرة» (121). ومضى دين هنا إلى رحلته الكبيرة الأولى. إلى الله:«أن الله موجود لاريب فى ذلك». ويتسع الجانب الخاص بحرية الجنس فى الكتاب إلى جانب النزعة الصوفيه فيه، وهو تواز ضرورى ينتقل بين الجانبين الشهوانى و الروحى من الحياة. يعترف سال: بدأت ماريلو تقع فى حبى، قالت أن دين سيعيش مع كامى» (115) لكن الموضوع الحقيقى فى هذا الجزء هو البحث عن الله من خلال الجاز، خاصة فى شكل جورج شيرنج، عازف بيانو موسيقى الجاز الأسطورى. فقد ذهب دين وسال لرؤيته فى خضم «عطلة نهاية أسبوع طويلة ومجنونة»، وشعرا بالنشوة من عزفه. كانت نغماته «تتدفق من البيانو مثل شلال هادر كبير» كما يتذكر سال (128). كان شيرنج رجلًا أسماه دين «هو» بضمير الغائب، بمعنى أنه يمثل فرصة خفية عميقة للوصول للحقيقة، علاقة بالكون ممتنعة على الفهم تقريبًا.

وسرعان ما نعرف جوانب قليلة أخرى عن والد دين الغامض، «دين موريارتى المتبطل السكير العجوز السمكرى» الذى كان يركب قطار الشحن ويعمل كمساعد طاه فى أكواخ «الطهى الخاصة بالسكة الحديد، والذى كان يتعثر ويسقط من طوله بسبب سكره وهو يسير ليلًا فى الحوارى، ثم يستلقى خامدًا على أكوام الفحم، وتسقط أسنانه الصفراء الواحدة تلو الأخرى فى مزاريب الغرب» (132). ويصبح نسخة من والد هاك فن، وأن كان حضوره المشؤوم أقل. أنه الأب الغائب، الذى لايختلف عن والد سال المفقود، أو والد كيرواك. إن سال و دين كلاهما متشردان، مثل توم وهاك على الطريق، كان عليهما أن يكونا والدى نفسيهما. (وقد أصبح دين أخًا لسال، ربما كرد فعل لفقد كيرواك مبكرًا لأخيه فى طفولته).

ويمضى سال ودين إلى الغرب مرة ثانية، عاشقين «لنقاء الطريق» (135). ومرة أخرى يصبح سال تجسيدًا عصريًا لروح هو ايتمان، مقدمًا بيانًا جميلًا وتفصيليًا عن الحياة الأمريكية. فالمرء يسمع هوايتمان مثلًا، فى مقاطع مثل هذا : عندما رأى سال ودين المسيسيبى : «على السكة الحديد حدقنا وشاهدنا أب المياه الأسمر ينساب من منتصف أمريكا مثل سيل جارف من الأرواح المحطمة، حاملًا جذوع أشجار مونتانا وطمى وادى داكوتا ووادى أيوا وأشياء انجرفت فى فروع النهر الثلاثة، حيث بدأ السير فى الجليد» (141). ويمكن سماع صدى كلام تى اس ايليوت فى هذا المقطع بوضوح والذى جاء فى «الإنقاذ اليابس»، حيث يسمى اليوت المسيسيبى (نهر صباه فى سانت لويس) «ربًا أسمرًا طيبًا». كما تكمن رواية توين الحياة على المسيسيبى تحت مثل هذه الكتابة. أن كيرواك كثير الثرثرة، يلتقط الأصوات والأصداء ويكسرها، ويفعل هذا بألحان الجاز فى الأدب الأمريكى.

وفى الجزء الثانى، نلتقى أخيرًا بأولد بول لى، وهو نسخة أفرغت فى قالب روائى على نحو رقيق لوليام اس بوروز (1914-1997)، مؤلف الغذاء العارى (1959)، وهى رواية مختلطة بغير نظام على نحو مستحيل، وبليغة، ولها تأثير كبير جعل بوروز شخصية رئيسية فى حركة النبضة. كان لى يعيش مع زوجته وابنين صغيرين. (راى الصغير الذى وصف بصورة شعرية باعتباره «طفل قوس قزح الأشقر الصغير). ويقدم تصوير سال لأسرة لى صيغة مبكرة لأسر الثقافة المضادة التى اكتظت بها كوميونات خنافس الهيبى فى أواخر الستينيات والسبعينيات

(كان أحد هذه الكوميونات، والذى ازدهر كثيرًا فى التسعينيات يسمى أطفال ضوء قوس قزح، ترديدًا لصدى وصف كيرواك). ويتذكر سال أسرة لى فيقول: «كانت فاتورة طعامهم هى الأقل فى البلاد، كانوا بالكاد يأكلون» (143). ربما لم يكن هذا مدعاة لرضا الأطفال كما اعتقد سال، لكنه بقى متيمًا بأولد بول لى المنبىء بالغيب، الذى يمثِّل شخصية مدهشة ومثيرة للاهتمام على نحو لاينسى، مثلما يحدث عندما يتأمل فى النظام الاقتصادى الذى تدمر فيه المنتجات نفسها بعد فترة وجيزة، وبذلك تكفل الحاجة إلى بديل لها. «لماذا تعتقد يا سال أن الرفوف التى يصنعونها هذه الأيام تتشقق تحت ثقل الأشياء الصغيرة التافهة بعد ستة أشهر أو تنهار بصفة عامة؟ والأمر نفسه يصدق على البيوت، وعلى الثياب. لقد اخترع أولاد الزنا هؤلاء البلاستيك الذى يستطيعون به بناء بيوت تدوم إلى الأبد. والإطارات، إن الأمريكيين يقتلون أنفسهم بالملايين كل عام بإطارات مطاطية معيبة تسخن على الطريق وتنفجر كانوا يستطيعون صنع إطارات لاتنفجر أبدًا» (149).

ويستغل كيرواك أولد بول للإعراب عن تشككه بشأن التبديد والتبذير فى أمريكا وثقافة الإهمال المتأصلة فيها. ولكن سرعان مايحين وقت الرجوع إلى الطريق، وكما يقول سال «ويرتفع أزيز السيارة»، وبطريقة لا إرادية تقريبًا «مضيا سراعًا عائدين إلى كاليفورنيا»(155).

ويلى ذلك بعض من أكثر مقاطع الرواية إثارة للعواطف، عندما يتحرك السائقون عبر أرض سبخة جنوبية: «كنا محاطين بغابة كبيرة من الأشجار الشبيهة بالكرمة التى كنا نستطيع فيها أن نسمع انسلال مليون من الأفاعى نحاسية الرأس» (157). كان دين وماريلو يمارسان الحب عادة، تاركين سال لوحده. لكن الشحنة بين سال وماريلو لم تخمد أبدًا؛ والواقع أن المرء يشعر (مثلما أوضح سال لاحقًا) إنها كانت تستغل سال للتقرب أكثر لدين، الذي كان ينزع إلى التأرجح فى الجنون، مبتعدًا عنها. وأخيرًا قالت ماريلو لسال: «إننى حزينة على كل شىء ياللعنة، كنت أود لوأن دين ليس بمثل هذا الجنون حاليًا» (163). لكنه كان مجنونًا، يدور ويلف فى نشوة من الحركة، كدرويش يدوّم بسرعة خارجًا عن السيطرة بطرق جديرة بأن تبعد سال عنه، رغم صبره وهيامه به.

ويندفع الثلاثي في طريقه، عائدًا إلى سان فرانسسكو «سان فرانسسكو المدينة البيضاء الخرافية على تلالها الأحد عشر السحرية على المحيط الهادئ الأزرق، وسورها الآخذ في التقدم من الضباب وراءها، ودخان وقت مابعد العصر الذهبي» (169). لاحظ سمو البلاغة هنا، الوصول إلى الدلالة، للحقيقة العامة. كان ذلك مجرد عصر أحد الأيام الذي كان كيرواك يتحدث عنه، «كان وقت العصر المتأخر». كان الوقت نفسه يبدو قريبًا من الانتهاء، مما يعطي الرواية هالتها الخاصة بسفر الرؤيا. والمؤكد أن هذه الزيارة لسان فرانسسكو كانت قصيرة الأمد بالنسبة لسال براديز، رغم أنه دخل في ارتباط وثيق مع مشهد حركة النبضة، الذي يصور سليم جايار «وهو زنجي طويل ونحيل له عينان كبيرتان حزينتان» (176). وكانت الحشود المتلهفة تتجمع في نوادي ليلية ليجلسوا عند قدميه ويستمعون إليه وهو يعزف على البيانو، الجيتار، أو طبول البونجو القارعة. إن وصف ارتجال سليم المفعم بالحياة رائع، هنا كما في أي مكان من رواية على الطريق. ومع ذلك، فإن سال يعترف قبل الرحيل: لا أعرف ما الذي حققته بالقدوم إلى سان فرانسسكو» (178).

وتبدأ الرحلة الثالثة في ربيع 1949. وهذا هو الجزء الثالث من الرواية، ويمضي سال متجهًا للغرب مرة ثانية. يقول لنا: «جريت فورًا إلى دين، كنت أحترق شوقًا لمعرفة ما يدور في ذهنه وما الذي سيحدث حاليًا، لأنه لم يكن هناك أي شيء ورائي بعد، كانت كل جسوري قد انهدمت، لم أعد آسف على أي شيء على الإطلاق» (182).ليس من الواضح على وجه الدقة السبب في أن سال كان يشعر بمثل هذا الضياع وأن السيل بلغ الزبى. تلك ببساطة هي الطريقة التي حكم بها على الوضع. فبعد أن قطع أواصره بالبيت والمأوى في نيو جيرسي مرة ثانية، فإنه ربط مصيره بدين على الأقل لفترة. وفي الوقت نفسه، كان دين يتأرجح بين ماريلو وكامي، وظل مستوى نضجه أقل من أن يكون مدهشًا. ومع ذلك، فقد تحدث إلى سال، الذي كان في الواقع أكبر منه بضع سنوات، بنغمة واثقة لرجل لديه حكمة كبيرة، رغم أن مايقوله كان هراءًا «إننا نعرف الحياة يا سال، إننا نكبر في السن، كل منا، قليلًا قليلًا، ونتوصل لمعرفة الأشياء». كان يلعب على حاجة سال لعلاقة: «أنني أتعمق في مشاعرك». وفي تحول يتسم بالرحمة، يشجع سال على «أن يشبك مع فتاة عظيمة حقيقية». فقط إن

استطاع العثور على واحدة. وهو يأسف للمشكلة التى ثارت بينه وبين ماريلو وكامى، «هاتين المرآتين الملعونتين الخاصتين بى» (187).

كان دين فى حالة لخبطة، وقد جرح إبهامه وأصبح مظهره مزريًا. كان «يرتدى تى شيرت وبنطلونًا ممزقًا متدليًا عن بطنه، وحذاءً رثًا، لم يكن حليقًا، وكان شعره أشعثًا منكوشًا، وعيناه حمراوتان بلون الدم، وكان ذلك الإبهام الملفوف بضمادة مروعة ينتصب مرفوعًا برباط فى مستوى قلبه» (188). واعتمد تكشيرة بلهاء وبدا غير مركز تمامًا وغير متزن. وأصبح دين، على حد تعبير سال، «الأحمق المقدس» (194).

وحدثت خير الوقائع فى هذه الزيارة إلى سان فرانسسكو فى نوادى الجاز، ويبرع كيرواك فى وصفها. ففى أحد العروض على سبيل المثال، «قفز العازف نازلًا من على المنصة ووقف بين الجمهور الحاشد، وهو يعزف متنقلًا، كانت قبعته فوق عينيه، ودفعها شخص ما للوراء من أجله. تراجع للخلف فحسب ودق الأرض بقدمه وعزف بصوت أجش، وأثار عاصفة بنفخ هادر وسحب نفسًا ورفع البوق وأصدر نغمة عالية واسعة صارخة فى الهواء» (198). وعلى نحو يجعل الأنفاس تتقطع، ينافس الكاتب الموسيقى نفسها، وتتقلب تركيبات الجمل لديه حول الألحان. إن الجاز، الذى كان فى ازدهاره على الساحل الغربى هو فى الأساس من تراث التناغم وموسيقى البلوز السوداوية، كنقيض لأسلوب البيبوب (نوع من موسيقى الجاز) الذى ازدهر في الشرق - يعمل فى هذه الرواية على عدة مستويات، لكنه فى الأساس يحدد النغمة، معلنًا عن جيل جديد، جيل مكرس لعصفات بدائية من الموسيقى، إحساس روح تحلق حرة فى الهواء. إن الموسيقى مادية، ويستعذبها الجميع - الموسيقيون والمستمعون على حد سواء.

ان العصابة كلها هنا، بما فى ذلك كارلو مارس، «بعينيه الخرزيتين اللامعتين» و «ساقيه المستطيلتين المستدقتين» (201). كان سال وأصدقاؤه يقيمون فى المدينة بشكل دائم تقريبًا، مشغولين بالدندنة الطنانة والمدوية الكبيرة لما يمثل المدينة الأمريكية الأكثر إثارة حقًا» (205-206). لكن المرء لايستطيع أن يبقى طويلًا على هذه الدرجة من السعار، باحثا عن «هو» بضمير الغائب، أى «هو» كان (اتحاد صوتى مع الله، أو إضاءة حدسية عن طريق بوذية

الزن(*) أو استناره وعى سام). لقد حاول سال مرارًا وتكرارًا أن يفهم «هو» الذى يمثل فرحنا النهائى البهيج فى الحديث والعيش حتى النهاية الناشئة المربكة لكل الخواص الملائكية الوفيرة التى لا تعد التى تكمن فى أرواحنا فى كل حيواتنا» (209). ولكن من الواضح أنه فى كل مرة كان يجرب فيها معادلًا لفظيًا، كانت «هو» بضمير الغائب يتحلل فى سديم التراكيب التى ليس لها محصلة أبدًا.

وعادت القيادة فى سيارة «المرهق البلايموث» فى هذه المرحلة من السرد، بسال ودين إلى الشرق. تحدثًا بلطف إلى العاملين فى مكتب السفريات ليدعوهما يقودان سيارة كاديلات ليموزين طراز 947 لتوصيلها إلى مالكها فى شيكاغو، مما وسم انعطافة أخرى كالمعجزة فى حظهما. أن طالبين بريئين من مدرسة الجيزويت فى الشرق يمضيان فى طريقتهما كمسافرين، لكن هذين الشخصين البائسين كانا يبحثان عن توصيلة لحياتهما. يشرح سال قائلًا «قبل دنفر بميلين تحطم عداد السرعة لأن دين كان يندفع بسرعة تزيد على 100 ميل فى الساعة» (226). وبحلول الوقت الذى أوصلا فيه السيارة إلى مالكها الصحيح، لم يكن سوى القليل فيها غير مكسور.

وفى القيادة فى اتجاه الشرق، استغرق سال فى المشهد. يقول «إن أنواع الظلمة الكلية التى تلف البرارى على هذا النحو غير متصورة لدى أهل الشرق. لم تكن هناك نجوم، ولا قمر، ولا أى ضوء كان» (228–229). وتحلق الكتابة مرتفعة، وتشارف مستوى عاليًا، مثلما حدث عندما ارتحلا خلال نبراسكا وتكشفت الولاية كلها أمام سال : «مائة وعشرة أميال خلال ساعة فى طريق مستقيم، طريق أشبه بالهم، وبلدات نائمة، ليس هناك زحام، وقطار يونيون باسفيك الانسيابى يسير خلفنا فى ضوء القمر (231). وبسرعة تشبه الحلم، توالت البلدات: أوجالالا، جوتنبرج، كيرناى، جراند ايلاند، كولومبوس. وبدا سال مستمتعًا بكل اسم مع تكشف بيانه من البلدات والمشاهد. ولكن يجدر تذكر أن الحرب، وأى تجارب تعرض لها سال، ظلتا تحت السطح فحسب، تنبثقان على نحو عارض، مثلما حدث عندما تذكر، «باعتبارى بحارًا اعتدت الاعتقاد بأن الأمواج تتدافع تحت بدن السفينة حيث توجد أعماق

* طائفة يابانية من البوذية تستهدف الاستنارة عن طريق الحدس من خلال التأمل – المترجم

لاقرار لها» (235). ويتخلل هذه الكتابة شعور طائش، كما لو كان سال يشعر أنه سعيد لبقائه حياً، رغم أنه كان يشعر بالذنب. أيضًا لأنه لم يمت مثل كثيرين من جيله فى الحرب. ويكمن هنا إحساس الناجين بالذنب، مما يثير هذين الشابين من حركة «النبضة»، اللذين يخاطران بحياتهما بالقيادة بسرعة مخيفة، ويعيشان بسرعة الضوء. وصلا إلى شيكاغو بعد سبعة عشرة ساعة مسعورة، وكان ذلك «نوعًا من الرقم القياسى المجنون» (238).

والآن تومض شيكاغو أمام أعينهما، غارقة فى توهج غريب من لغة كيرواك المثالية السامية. ويزداد سال اهتياجًا، متحدثًا بازدراد نشوان للنثر، خاصة عندما يذهب هو ودين «ليشاهدا الملاهى الوضيعة الخليعة ويستمعا لموسيقى البوب» (240). ويمضى إلى عمليات الغوص هذه ليختبر عروض الجاز المدهشة، وليفكر فى بعض العظماء مثل ثيلونيوس مونك وتشارلى بيكر. ويخبرنا فى جملة واحدة جميلة بصفة خاصة: «أننا هنا أطفال ليل البوب الأمريكى (241). وفى أحد العروض. يعاود جورج شيرنج الظهور ويؤدى ألحانًا شعبية مدهشة ترتفع عاليًا فعاليًا حتى يتناثر العرق على البيانو كله ويصغى الجميع وهم فى حالة رعب وفزع» (242 – 243).

وسرعان ماحان وقت الرحيل، عودة إلى نيويورك، حيث يلتقى دين «امرأة سمراء ضخمة شهوانية». كان يريد حينذاك الطلاق من كامى، التى كانت قد بقيت فى سان فرانسسكو، حاملًا باين دين الثانى. بالطبع لم يكن هناك أى إحساس بالمسئولية لدى دين. ويظل هذا المناخ المتحرر من الأخلاق ماضيًا فى طريقه باعثًا على الصدمة تمامًا. ويظهر الجانب المظلم للثقافة المضادة، ويصوره كيرواك بأمانة. فقد كان فى قرارة نفسه، صبيًا كاثوليكيا طيبًا، ولم يشجع مطلقًا عدم المسئولية هذا، رغم أن هذا كثيرًا ما كان يحنقه. كما أنه لم يتوافق أبدًا مع هذا التناقض، وربما كان هذا هو السبب فى أنه انزلق إلى حالة من التشوش فى سنواته الأخيرة، وقتل نفسه بالإسراف فى السكر.

ويبدأ الجزء الرابع ببيع سال لكتاب. وبالنقود القليلة التى دخلت إلى جيبه، يسيطر عليه التلهف للسفر مرة ثانية: «كلما أتى الربيع فى نيويورك لا أستطيع أن أقاوم إيحاءات الأرض التى تهب على النهر آتية من نيو جيرسى ويصبح الرحيل أمرًا وجوبيًا» (240). ويعفى سال

نفسه من المسئولية الأخلاقية، كما لو لم تكن له سيطرة على ما يحدث له. فالطريق يغرى ويتكشف ويصبح «قصيدة شعر لا تنتهى» بالنسبة لسال، الذى يندفع مسرعًا إلى دنفر، حيث يلتئم شمله حتمًا مع دين موريارتى. من غيره؟ ويشرح دين لسال قائلًا: «من الناحية الرسمية يا سال هذه الرحلة هى للحصول على الطلاق من المكسيك»، وكان سال سيصحبه للحدود الجنوبية (262). وانطلقا ليلًا فى سيارة فورد سيدان طراز 1937. «باب الجانب الأيمن فيها مخلوع المفصلات ومربوط فى الإطار» كانت تراود دين آمال كبار من هذه الرحلة. ويعلن «يا رجل إن هذه الرحلة ستأخذنا أخيرًا إليه «هو»!» (265).

قادا السيارة عبر تكساس، ووصلا أخيرًا إلى المكسيك، حيث تستطيع «أن تشم تقريبًا رائحة مليار من كعكة الترنية المصنوعة من دقيق الذرة وهى تقلى وتدخن ليلًا» (273). بدا أن كل شىء قد تغير عندما عبرا النهر إلى بلد أجنبى. حتى الشرطة فى المكسيك بدو مختلفين، «كسولين ويتسمون باللطف». وباستهتار، يبادل المسافران الدولارات بالبيزو، وبذا يعظمان إمكانياتها حيث إن سعر التحويل كان يميل لصالحهما بصورة رهيبة. وقاما بحشو اللفافات الكبيرة من النقود الأجنبية فى جيوبهما. ويدعى سال «لقد وجدنا أخيرًا الأرض السحرية فى نهاية الطريق» (276). إن أرض الميعاد تلوح، لكن من المؤكد أنها لا توجد فى المكسيك.

بيد أنه للوهلة الأولى، كان المكان يبدو مدهشًا. يقول دين «أن الجميع هادئون» وفى كل مكان هناك «نبات، نبات» (278). وهناك وفرة من الماريجوانا أيضًا. والواقع أنهما دخنا «أكبر كتلة شاهدها أى إنسان فى أى وقت» (282). وسرعان ما ظهرت الفتيات، بصورة سحرية تقريبًا، فى ماخور متهدم. ويرسم سال لوحة برّية كالكابوس لبيت للمومسات فى الريف، حيث تبدو الفتيات أصغر مما يصلح لهذا النوع من العمل. وتأتى الفاتورة النهائية بمبلغ ثلاثمائة بيزو، أو ستة وثلاثين دولارًا أمريكيا، ويشرح سال كاشفًا عن دنيويته «أن ذلك كان قدرًا كبيرًا من النقود فى أى بيت للمومسات. ومع ذلك لم نستطع أن نفيق ولم نرد الرحيل، ورغم أن قوانا كانت قد استنفدت كنا لا نزال نريد أن نعاشر فتياتنا المحبوبات فى هذه الجنة العربية الغريبة التى وجدناها أخيرًا فى نهاية طريق شاق، شاق». بالطبع، كان دين يريد الرحيل: «أن الكثير ينتظرنا، لن يكون هناك أى فرق». ويسمع فجأة طفلًا ينتحب،

ويتذكر أنه فى المكسيك، وليس «فى حلم يقظة فى خضم الحشيش والعرى فى السماء» (289). وتستمر الحقيقة فى التكشف.

ازدادت كل الأمور سوءًا بالنسبة لسال، الذى أصيب بالإسهال بصورة مروعة. وبعد أن أصبح مصابًا بالهذيان، سقط فاقد الوعى. وعندما عاد لوعيه، كان دين يقول له وداعًا ويتركه وحيدًا فى المكسيك. ويقول كما لو كان ذلك يفسر سلوكه الأناني: «"لقد حصلت على الطلاق من كامى هنا وسأعود بالسيارة إلى اينز فى نيويورك الليلة، إن صمدت السيارة. ويقول لصديقه سأعود لأستعيد حياتى» (301). وهز سال كتفيه فحسب، رغم أن المرء يشعر أنه قد تعلم شيئًا ما عن دين. «عندما تحسنت، أدركت أى حقير كان، كان علىّ حينذاك أن أعى التعقد المستحيل لحياته، وكيف كان عليه أن يتركنى هنا، مريضًا، ليلاقى زوجاته وبلاياه» (302). ويستغرق الجزء الخامس أقل من خمس صفحات، لكونه تقفيلة أكثر منه امتدادًا جديدًا لترحال سال. وعندما عاد لمدينة نيويورك، كان هو ودين تتقاطع طرقهما ثانية على نحو وجيز، ذلك أن الرحلة المكسيكية، بل والزمن نفسه، غيرّا كل شىء. كان سال لايزال يحب دين، لكن لم يعد يستطيع الثقة به وفى الصفحات الأخيرة من الرواية، يوافق سال على حضور الحفلة الموسيقية لديوك الينجتو فى موعد مزدوج مع صديقه القديم ريمى بونكير. ويطلب دين توصيله إلى الشارع الأربعين، فى سيارة يقودها وكيل مراهنات ريمى، لكن ريمى رفض ذلك وقال «لامجال لهذا مطلقًا ياسال». ومن ثم ينفصل سال عن دين ملوحًا له من ظهر السيارة الكاديلاك: وهو رحيل كئيب رمزى.

وتنتهى الرواية بنبرة عاطفية، لاتختلف عما يسمعه المرء فى نهاية رواية فيتز جيرالد المسماة جاتسبى العظيم - تلك النغمة الحزينة البائسة الجميلة حيث يطيل الراوى لدى فيتزجيرالد التفكير فى «العالم القديم المجهول» ويتأمل توق جاتسبى إلى حبه المثالى، ديزى بوكانان، وهو «يلمح الضوء الأخضر فى نهاية ظهر ديزى». كان جاتسبى قد اقترب من تحقيق حلمه، ومع ذلك «فقد خلفه وراءه بالفعل، فى مكان ما فى الخلف فى الظلمة الشاسعة خلف المدينة، حيث الحقول المظلمة للجمهورية تنطوى فى دسار الليل: لكن الضوء الأخضر بالنسبة لسال هو دين موريارتى. وهو يفكر فى مجىء العصر القديم والموت،

«الشاطىء الأخير»، ويقول مع بعض التناقض فى جملة الحنين للماضى فى الرواية: «أفكر فى دين موريارتى، بل وأفكر فى دين موريارتى الكبير الأب الذى لم نجده مطلقًا، أفكر فى دين موريارتى» (307).

لن نعرف مطلقًا فيما كان يفكر فيه بالضبط بشأن دين. لكن مرح اللعب كان قد انتهى بالنسبة إليه. لم يعد الطريق يومئ إليه ويغريه بنفس الإلحاح تمامًا. ربما أصبح على بيتر(*) بان أن يكبر الآن؟ من يعلم؟ ويمكن المحاجة بأن كيرواك لم يضع خاتمة مطلقًا. وأعتقد أنه عن حكمة، ترك ذلك للقارىء.

* صبى فى مسرحية جيمس بارى، يحيادون أن يكبر مطلقًا فى أرض لم توجد قط - المترجم

4

وجد أكثر من جيل من القراء فى رواية على الطريق مزاجًا جذابًا وموقفًا مغريًا، وطريقًا مفضلًا للوجود فى العالم. إذ يومض امتلاء الشباب بالحيوية والمرح فى كل صفحة. ويعيش هواة التجديد والبدع لدى كيرواك بسرعة تحطم الرقاب، على شفا الحافة، على النقيض من الثقافة السائدة لجيل آبائهم. أنهم يصبحون قبيلة من نوع متواضع، يترددون على نوادى الجاز، يعيشون فى نشوة، من خلال ترحال أبدى. ويرفضون الامتثال للأعراف الجنسية العادية. ويبحثون عن الله، بل ويجدونه، لكنهم لايفعلون ذلك فى الكنائس التقليدية، وهم أشد شبهًا بإيمرسون وثورو يجدون الله فى الجبال، فى الصحارى، وفى المروج. كما يقدرون (على خلاف إيمرسون وثورو) حيوية الحياة فى المدن، خاصة كما تعاش فى نيويورك وسان فرانسسكو.

إن جيمس دين وبوب ديلان (من بين متمردين أمريكيين آخرين) هما من أقرباء سال براديز، بلمسات من دين موريارتى فى كل منهما. وبالطبع، فإن جيل الخنافس أخلى الطريق، فى الوقت المناسب، لحركة الثقافة المضادة فى أواخر الستينيات والسبعينيات، ولاتزال نسخة من حركة النبضة تلك تدوى فى آذان الشبان. أن الميت المستحب لن يموت أبدًا، طالما استمر عزف أغنياتهم، أو وجد النبض فى موسيقاهم أصواتًا وإيقاعات جديدة. إن الطريق يومىء ويغرى، وقد فعل ذلك فى رواية على الطريق. إذ كانت تلك رواية للملتمسين، ولن يخلو العالم من هؤلاء مطلقًا.

ومثل كثيرين من الأمريكيين من جيلي، اطلعت على رواية على الطريق فى الستينيات، عندما بلغت معارضة الثقافة السائدة ذروتها، باختصار كرد فعل لحرب فيتنام. إن أطفال الزهور فى سان فرانسسكو، وحركة حرية الكلام فى بيركلى، والاحتجاجات المعادية للحرب فى كولومبيا، ييل، وفى شتى أنحاء العالم، يبدو أنها نبعت بصورة طبيعية من حركة النبضة، رغم أن كيرواك نفسه رفض فى سنواته الأخيرة أن يعترف بأن حركة خنافس الهيبز

والمحتجين على الحرب لهما أى شأن به. وبحلول ذلك الوقت، كان قد أصبح مدمنًا للمسكرات مثيرًا للرثاء، وكان لايزال يعيشى فى ظل النظرة الحزينة المحدقة من أمه (من مفارقات حياة كيرواك أنه لم يستطيع حقًا فى أى وقت أن يقطع حبال السيطرة التى تقيده، وأنه فشل فى أن يجد أى شيء مثل السلام الروحى أو الإشباع الفنى. والمؤكد أنه لم يجد أبدًا «النعيم الداخلى» السالف الإشارة إليه. كان سال براديز، فى كثير من الجوانب، نزوة بالنسبة له).

لقد ألهمت رواية على الطريق حركة - حركة الثقافة المضادة - التى كانت لها بالفعل جذور عميقة فى المجتمع الأمريكى، تعود للوراء إلى توماس مورتون و معربديه الشهوانيين فى مارى ماونت. وتتخذ نغمة التمرد أشكالًا كثيرة عادة شجية مبهمة، لدى الساعين للنشوة الدينية. إنها تتوطن هؤلاء الذين يسعونْ وراء صوت صغير فى الغابات، مثل ثورو وإيمرسون. كان ذلك موجودًا عند هوايتمان، الذى ردد «صرخته البربرية» فوق قمة سطح أمريكا الشابة والذى قبّل كل شخص التقاه فى شوارع العالم الجديد، ذكرًا أم أنثى. و تحقق ذلك من خلال التدافع على نوادى الجاز فى عصر نهضة هارلم، من خلال تراث الإيقاع وموسيقى البلوز، وأبطال البوب - تشارلى بيكر على سبيل المثال - الذى ألهم كيرواك. واستمرت الحركة من خلال كتاب كثيرين فى عصر ما بعد الحرب، حركة النبضة ونورمان أو براون (مؤلف كتاب جسد الحب، وهو تأمل فلسفى يستند إلى صوفية ويليام بليك و «الانحراف متعدد الأشكال لفرويد) إلى ديلان، وأى عدد من الكتاب، منهم توماس بنكون، وروبرت ستون، ودنيس جونسون.

ولا يمكن للمرء أن ينكر الطابع الذكورى المفتئت لخيال كيرواك، الذى يهين القارئات النساء أو يستبعدهن. بالطبع كان توم وهاك صبيان، وكذلك كان سال ودين. هذا كتاب عن «الرفاق»، رواية عن الطريق فى قالب كلاسيكى. هناك خط مباشر من رواية على الطريق إلى أفلام مثل الراكب المرتاح. ومع ذلك، لايمكن للمرء إنكار أن النساء فى الرواية لهن طاقة خاصة بهن. ذلك أن تيرى، الفتاة المكسيكية الشابة التى ارتبطت بسال فى علاقة غرامية عنيفة ووجيزة، تلعب طوعًا وبتوق دورها فى الرقص الجنسى، مثلما تفعل نساء دين،

اللاتى يبدو أن الطريق يتسلط عليهن مثل دين وسال واللاتى استهوتهن حركة النبضة. ومع ذلك، يبقى هناك اختيال ذكورى يتسم بالتحدى فى نثر كيرواك، ويسمع المرء أصداءه لدى كتاب من نورمان مايلر إلى روبرت ستون، حتى عندما كان هواة التقاليع يخلون الطريق فى الستينيات أمام خنافس «الهيبيز». ولم تجد الحركة النسوية حقًا صوتًا صادقًا يعبر عنها حتى أوائل السبعينيات، فى كتب مثل الخوف من الطيران (1973) لأريكايونج ولدى كاتبات من النساء مثل كيت ميليت، وروبن مورجان، وجلوريا ستاينم.

إن رواية على الطريق تدور فى الأساس حول البحث عن هو بضمير الغائب. وهذا البحث لاينتهى أبدًا. إنه بحث عن التنوير، عن وعى سام، عن الله، عن أى شىء يمثل «الشاغل النهائى للإنسان (مثلما طرح الأمر عالم اللاهوت بول تيليتس). كانت حركة الخنافس ترمى إلى اكتشاف نفسها، وكانت رواية كيرواك شكلًا من التحقيق الصحفى الروحى، تقريرًا عن «مواجهة حقائق الحياة الجوهرية فحسب»، مثلما قال ثورو. إنها عن الالتقاء بالمقدس، فى الموسيقى والفنون، وعن مواجهة المشهد الأمريكى. إنها عن البحث عن أرض الميعاد، عن ذلك الشاطئ البعيد المستحيل حيث تزدهر الحرية والمساواة وحيث يهم صوت كل إنسان. لكنها مثل أرض كنعان الأسطورية، تظل هدفًا مراوغًا، فيما وراء قبضة المرء فحسب، لا يمكن احتلالها مطلقًا. ربما كانت هى الهدف، لكن الرحيل إليها ربما يكون أهم من الوصول لها - كما ندرك من رواية على الطريق.

THE FEMININE MYSTIQUE

BETTY FRIEDAN

13

الإحساس بالهيبة نحو النساء

1

لعبت كتب كثيرة دورًا فى الحركة النسائية، لكن قلة منها كان لها تأثير الصدمة الذى أحدثه كتاب بيتى فريدان المسمى الإحساس بالهيبة نحو النساء (1963)، الذى أشعل لوحده وبصورة فردية مرحلة ثورية أثرت بصورة عميقة على حيوات عدد لايحصى من الأمريكيين من النساء والرجال. وباعتراف الكثيرين بأنه كتاب «مهد الطريق للحركة النسوية المعاصرة» مثلما كتب أحد النقاد، فقد غيرّ ثقافتنا النسوية المعاصرة»، لقد غير ثقافتنا بطرق تصعب مجاراتها. إذ عجل بموجة من التفكير الجديد عن سياسات الجنس، أدت فى نهاية المطاف إلى تقدم الحركة النسوية التى أصبحت جزءًا مهمًا من الحياة الحديثة. ومثلما لاحظ الفين توفلر، ربما بلمسة من المبالغة، فإن هذا كان هو الكتاب «الذى أطلق زناد البندقية على التاريخ».

إن الثورات الاجتماعية تأتى فى موجات، والحركة التى ساعدت فريدان فى جعلها تبدأ، تعرف عادة بأنها الموجة الثانية من الحركة النسوية، بما يشير إلى التحول الذى حدث فى الستينيات، عندما بدأت النساء (مثل أولئك اللاتى أجرت فريدان مسحًا لهم، والذين كن فى الأساس من ربات بيوت الطبقة الوسطى) فى الشعور بالإحباط من إنزال مرتبتهن إلى المطابخ وغرف النوم فحسب. كانت داعيات الحركة النسوية الأمريكية الأصليات (الموجة الأولى) من المناديات بحق المرأة فى الاقتراع - ومن بينهن اليزابث كادى ستانتون (1815-1902) وسوزان بى انطونى (1820-1906) - نساء أثرن قضية حقوق المرأة فى الولايات المتحدة. وشكل مؤتمر سينيكافولز (1848) نقطة البدء لحركة المرأة على هذه

الشطآن،وحضره أيضًا فريدرك دوجلاس، الذى كان يأمل فى ضم قضية إلغاء الرق إلى قضية حقوق المرأة. والواقع، أن الحركة توّجت بالتصديق على التعديل التاسع عشر لدستور الولايات المتحدة، الذى أعطى المرأة حق الانتخاب. (والمثير للانتباه أن المرأة استبعدت من التعديلين الرابع عشر والخامس عشر، وهما التنقيحين للدستور اللذين تما بعد الحرب الأهلية لتحرير العبيد السابقين الذكور).

وقد اكتسبت المرأة حق الانتخاب فى 1920، لكن الأمر اقتصر على ذلك. فقد ظل مكانها فى البيت، فيما خلا استثناءات قليلة، وكانت الأدوار المهنيّة الوحيدة للمرأة مقصورة على المدارس والمستشفيات، كمدرسات وممرضات، وكانت هذه الوظائف تعطى عادة للنساء غير المتزوجات، اللاتى كان عليهن أن يعُلن أنفسهن. ولم تتدفق المرأة للقوة العاملة بصورة حاشدة، إلا عند نشوب الحرب العالمية الثانية، حيث كانت هناك حاجة ماسة للنساء فى صناعة الأسلحة. كانت روزى عاملة البرشام هى النموذج الجديد، المرأة التى تستطيع القيام بأى شىء والتى استطاعت أن تساعد فى صنع السفن الحربية والدبابات وقاذفات القنابل والمدافع. وعندما عاد الرجال للديار من الجبهة، طالبوا بوظائف ومكان فى المجتمع، وببساطة أعيدت النساء للبيوت. كان ذلك الوضع هو الذى استحوذ على اهتمام بيتى فريدان ودفعتها من كلية سميث، ممن قامت بإجراء مسح عليهن فى الخمسينيات. وفى مقدمة لكتابها نشرت بعد عشر سنوات من نشره لأول مرة، تتذكر قائلة: «فى 1957، أصبت بحالة غريبة من الملل من كتابة مقالات عن الرضاعة من الثدى وما إلى ذلك لصحيفة ردبوك وصحيفة ليدز هوم جورنال، وكرست قدرًا مفرطًا من الوقت لإعداد استبيان لزميلاتى من خريجات كلية سميث من دفعة 1942، على اعتقاد بأننى سأدحض الفكرة السائدة التى تقول أن التعليم أفسد دورنا كنساء». و قد صدمتها النتائج، حيث أعربت نسبة ضخمة ممن رددن على الاستبيان عن أسفهن للزواج فور التخرج وقالت معظمهن أن تعليمهن عالى القدرة قد ضاع سدى لحد كبير. وحركت نتائج هذا المسح التفكير الذى أدى لوضع كتاب الإحساس بالهيبة نحو النساء.

كانت موجة مدّ - ما سمى الموجة الثانية من الحركة النسوية - قد أخذت تحتشد ببطء منذ الحرب، وجاء أعلى الموجة المزيدة فى 1961، عندما أصدر جون اف كيندى أمرًا تنفيذيًا بإنشاء اللجنة الرئاسية المعنية بوضع المرأة، التى رأستها اليانور روز فلت. وأعطى قانون الحقوق المدينة لعام 1964 للمرأة دفعة أخرى حيث جعل الفصل السابع من ذلك القانون التمييز بين الناس على أساس العنصر، الدين، الأصل العرقى، أو الجنس عملًا غير قانونى. (أضيف الجزء الخاص بالجنس كإجراء لاحق، وأغرق القارب تقريبًا). وتم إنشاء لجنة المساواة فى العمالة لدعم هذا القانون، لكن كان هناك تحفظ من قبل كثيرين من أن تنفذ اللجنة الجزء الخاص بالمرأة. وفى 1966، تم تأسيس المنظمة القومية للمرأة، وكانت بيتى فريدان المتحدثة باسمها ورئيسها المختلف عليه. وفى أوائل السبعينيات، تم إصدار الفصل التاسع، الذى يحظر على المدارس أن تحابى الصبيان على البنات فى مجال الرياضة البدنية: وكانت تلك خطوة ضخمة للأمام بالنسبة للمرأة، خطوة كانت لها آثار بعيدة المدى. وأصدرت المحكمة العليا حكمها الذى يعد معلمًا فى قضية روى ضد ويد فى 1973، الذى أباح الإجهاض فى الولايات الخمسين كلها، مما أوصل الموجة الثانية لذروتها.

ولايزال السؤال قائمًا: هل ركبت بيتى فريدان موجة كانت آخذة فى التشكيل بالفعل، أو أحدثت زلزالًا جعل الموجة تتحرك؟ إن مايبدو حقًا لا يعتريه أى شك هو أن كتاب فريدان قد غيرّ عقول أعداد لاتحصى من النساء، وشد الانتباه إلى الظروف غير المريحة لحياتهن، وأجبرهن على البحث عن بدائل. إن هذا كتاب من تلك الكتب النادرة لأقصى حد التى ساعدت فى استهلال حركة اجتماعية، حركة تعود للوراء إلى الحملات الداعية لحق المرأة فى الانتخاب التى قامت فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في حين توقع حدوث تغييرات كاسحة حققتها الحركة النسوية بالفعل فى الثمانينيات والتسعينيات، ولاتزال هذه الثورة مستمرة. ولايمكن لأى مؤرخ للحركة النسوية الأمريكية، فى مختلف مراحلها، أن يتجاهل كتاب الإحساس بالهيبة نحو النساء. إنه واحد من الكتب التى على نحو ما «اخترقت حواجز الفكر الزمانية وترددت أصداؤها عقودًا»، مثلما لاحظت إحدى كتاب سيرة فريدان، جوديث هينسى.

2

كانت بيتى فريدان (1921 – 2006) محطمًا شرسًا للمعتقدات البالية، ولدت فى بيوريا، إيلينوى، بعد التصديق على التعديل التاسع عشر بأقل من ستة شهور. كانت ابنة مهاجر يهودى من روسيا (هارى جولد شتاين) كان يملك محل مجوهرات ناجحا افتتحه فى 1908. وكانت أمها، ميريام (هوزفيتز) جولد شتاين ابنة طبيب؛ متعلمة جيدًا، وتحرر صفحة المرأة فى صحيفة محلية، وقد هجرت هذا العمل لتصبح أمًا وربة بيت. وفى أواخر حياتها، كانت فريدان تؤمن بأن طبيعة أمها المستبدة كانت تخفى مرارة معينة جاءت من تضحيتها بنفسها بقرارها بأن تتخلى عن مستقبلها المهنى.

لم تلق فريدان، الذكية والوقحة قبولًا فى بيوريا، الينوى، على الأقل بين زملائها فى الدراسة (لعب العداء للسامية دورًا فى هذا، على نحو مؤكد تقريبًا). وتصف هينسى طفولتها بأنها شهدت عراقيل من جراء عوائق بدنية أيضًا: فقد «كانت الحياة صراعًا منذ البدء. إذ كانت بيتى طفلة كثيرة المرض، لها ساقين متقوستين، وكان عليها أن تلبس سنادات حديدية لثلاث سنوات. وكان الالتهاب الشعبى يصيبها فى كل شتاء، مثلما كانت تتعرض لمتاعب شتى فى الرئتين تحولت لاحقًا إلى ربو. كانت تستطيع أن ترى بالكاد من إحدى عينها وكان عليها أن تلبس نظارة». وهلم جرا. لقد عانت بيتاى (كان أبواها ينطقان اسمها بهذه الطريقة الغريبة المتكلفة) الكثير وهى صغيرة.

لكنها فردت جناحيها فى مدرسة كلية سميث، وهى مدرسة كلية، إعدادية ثانوية، لبنات النخبة فى ماساشوستس، حيث غيرت نطق اسمها إلى بيتى: وهو عمل من أعمال التطبيع من قبلها. أحبت المدرسة الكلية ولمعت فيها على نحو مشرق، وتخرجت بامتياز فائق. وبعد تخرجها من المدرسة الكلية واصلت الدراسة فى جامعة كاليفورنيا فى بيركلى، حيث حصلت على زمالة فى علم النفس ودرست على يد إيريك اريكسون، العالم الشهير فى علم النفس التربوى إلى جانب كثيرين. وواعدت فيزيائيًا شابًا، ورفضت منحة زمالة ثانية مرموقة،

بإلحاح منه، وهو ما أسفت له كثيرًا فيما بعد. وكثيرًا ما كانت تذكر هذه الحقيقة فى الحوارات التى كانت تجرى معها، رغم أنها نادرًا، ما كانت تتحدث عن ارتباطاتها بشتى الحركات التقدمية وهى فى الكلية وهى نقطة أثارت فيما بعد بعض الغضب بين نقادها، الذين اتهموها بأنها كانت رفيق سفر للاشتراكيين والنشطاء العماليين.

وأنهت فريدان علاقتها مع الفيزيائى وانتقلت (بعد فترة وجيزة أمضتها فى بيوريا) إلى جرينويتش فيلج، حيث عملت محررة لإدارة للأخبار مرتبطة بحركة النشطاء العماليين. ولاريب أنها ارتبطت بطائفة من الناس الذين عملوا على تحقيق العدالة الاجتماعية، وكثيرون منهم تحولوا فيما بعد إلى اشتراكيين إن لم يكن شيوعيين. كان عالمها هو إلى حد كبير عالم النشطاء العماليين، وأسهم ذلك فى تكوين صورتها الذاتية كشخص يستطيع تغيير الأمور بالجهد المثابر. واستمر الجانب الجهادى من حياتها حتى النهاية، حيث كانت متأهبة دومًا لبدء لجنة أخرى أو الانضمام إليها، ولتوقيع العرائض، ودعم قضية ما، أو المشاركة فى مسيرة احتجاج.

وتزوجت فى السادسة والعشرين من كارل فريدان، وهو من قدماء المحاربين، وكان قد أصبح مديرًا لمسرح وتحول مؤخرًا لمهنة الإعلان عندما تزوج. ومثلما كتبت هينسى: «لم تكن النذر مشجعة حتى بعد أن قررا الزواج. فقد كان هناك عراك يدور على الدوام، مثل عدوى مستمرة من درجة منخفضة». وكاد الزواج أن ينتهى 1969، ومع ذلك فقد استمر زواج بيتى وكارل وأنجبا ثلاثة أبناء فى تعاقب سريع نسبيًا.

وانتقلا إلى بيت فى ضواحى نيويورك، حيث استقرت فريدان، غير سعيدة على نحو ما، فى دور ربة المنزل وبمهارة ورعاية كبيرين، ربّت أطفالها وقامت بأعمال المنزل والطهى بدون قدر كبير من المساعدة. كما عملت صحفية، تكتب لمجلات نسائية شعبية، كطريقة لكسب مزيد من النقود واحتلال مكان لنفسها خارج المنزل. وفى منتصف الخمسينيات بدأت تفكر فى دور المرأة المتعلمة وما حدث لها بعد الحرب. وأدهشتها نتائج الاستبيان الذى وضعته، وحاولت عدة مرات جعل إحدى المجلات النسائية تنشرها. لكن رؤساء التحرير كانوا يتعامون عن الإحساس بالهيبة نحو النساء عندما كانت فريدان تصف رؤية ما

بعد الحرب للنساء كمدبرات منازل وأمهات وزوجات وربات منازل. إذ كانوا يعتقدون أن قراء مجلات مثل ردبوك، وليدزهوم جورنال لن يقبلوا أبدًا أفكارها الفوضوية.

وبالكاد، كانت بيتى فريدان هى أول شخص فيما بعد الحرب يفكر فى المرأة بطريقة جديدة إذ يمثل كتاب الجنس الثانى لسيمون دو بوفوار العمل التأسيسى للموجة الثانية من الحركة النسوية. (نشر بالفرنسية فى 1949 وبالإنجليزية فى 1953). وقد نظرت هذه الدراسة واسعة الأعطاف للمرأة بطريقة جذرية، ودرست كيف ظلت تعامل باعتبارها «الآخر» قرونًا طويلة، وميزت بين «الجنس» و «النوع» ووجهت كثيرًا من الأسئلة التى وجهتها فريدان. ومن ناحية أخرى، فإن كتاب الإحساس بالهيبة نحو المرأة، خاطب ربات البيوت من الطبقة الوسطى بطرق لابد وأنها كانت ستبدو بعيدة بالنسبة لسيمون دوبوفوار، التى عاشت مع جان بول سارتر وإن لم تتزوجه مطلقًا، وارتبطت بمثقفى باريس. كان بعض نقاد فريدان يودون لو أنها أشارت بصفة خاصة إلى كتاب الجنس الثانى كمصدر تأثير، لكنها لم تذكره إلا على نحو عابر. وبمعنى ما، فإن كتابها كان أكثر إثارة للجدل من الدراسة العلمية. فقد كان القصد منه هو تغيير عقول قرائها.

وعندما حصلت فى النهاية على عقد الكتاب من دار نورتون، مع مقدم متواضع قدره 3 آلاف دولار، كانت تبلغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا بالفعل، وأعطاها المحرر الذى كان سيعد كتابها للنشر عامًا للانتهاء من الكتاب. وكان هذا الجدول الزمنى الضيّق يعنى ضرورة التركيز على مشروعها بصورة كثيفة – ولم تكن تلك مهمة سهلة مع وجود أطفال لتربيتهم وزوج لرعايته. كانت تذهب للمدينة ثلاثة أو أربعة أيام أسبوعيًا، لتعمل فى مكتبة نيويورك العامة، وتظل عادة حتى وقت متأخر من الليل لكى تكتب عندما تصبح الدار هادئة تمامًا. وتشكل الكتاب ببطء، ومضت خمس سنوات قبل أن ينشر بالفعل. لكن الباقى تاريخ. وكان ينفد من على الأرفف سريعًا، حيث باع 300 ألف نسخة خلال السنة الأولى. وأعقب ذلك ترجمته إلى ثلاثة عشر لغة، وراج جيدًا فى الخارج أيضًا، مما جعل فريدان شخصية مشهورة على نطاق واسع بين دعاة الحركة النسوية. تقول ليزا فريدر يكسين «لقد أثرت فريدان فى

النساء كما لم يفعل أى مؤلف آخر من قبل». وبحلول 1966، كان الكتاب قد باع مايربو على 3 ملايين نسخة.

وإذ نشرت فريدان كتاب. الإحساس بالهيبة نحو المرأة، فقد تقدمت لتتولى دورًا قياديًا فى حركة المرأة، باعتبارها مؤسسة للمنظمة القومية للمرأة، التى نادت بوضع حد للتفرقة ضد المرأة فى أماكن العمل، وعدم وضع حد أقصى لعدد النساء اللاتى يمكن قبولهن فى الجامعات، وإنهاء الصورة المشوهة للمرأة فى وسائل الإعلام، وتوسيع فرص النساء فى كل المجالات. ولعبت فى عام 1969، وهو عام طلاقها من كارل، دورًا فى تأسيس الرابطة القومية لإلغاء قوانين الإجهاض وفى 1970، قادت مسيرة حظت بإعلام واسع فى الجادة الخامسة فى نيويورك، وهو عمل سمى إضراب النساء من أجل المساواة، رغم الخلافات على ذلك مع النشيطات الأصغر سنًا فى حركة المرأة (اللاتى عارضن أسلوبها الصدامى والمسيطر). وألقت خلف مكتبة نيويورك العامة، فى متنزه بريانت بارك، خطبة جياشة بالعاطفة، وانضمت لصفوف معبودات أخريات للحركة النسائية، منهم بيللا ايزوج، وجلوريا ستاينم، وكيت ميليت، مؤلفة السياسات الجنسية (1970) وهى دراسة حاسمة عن النظام الأبوى فى المجتمع والأدب الغربيين.

وجاءت الموجة الثانية من الحركة النسوية مدفوعة بقواها الذاتية فى السبعينيات، ووصلت إلى ذروتها الثقافية مع كتاب «عمن ولدت امرأة: الأمومة باعتبارها تجربة ومؤسسة» (1976) لأدريان ريتش. كان هذا عملًا رائدًا، لواحدة من أرقّ شعراء أمريكا، تقصى الفجوة الشاسعة بين تجربة ممارسة الأمومة الفعلية ونظريات وصفات الأمومة التى تفرضها الثقافة الأبوية. ومثلما تؤكد ريتش، فإن الرجال اغتنموا أسطورة مادونا (العذراء مريم) وحولوا هذه الطاقة إلى قوة دعمت سلطة الرجل، أى أنك إذا وصفت امرأة على نصب وأضفيت عليها طابعًا مثاليًا كأم أو كعروس عذراء، فإنها ستخرج عن نطاق النقد ولكنها ستخرج أيضًا عن نطاق المتناول وبالتأكيد لن تذهب للعمل، وتنضم للجيش، وتقع فى الحب، وتسب الأطفال، أو تتوقع الوصول لمجالس الإدارة، ناهيك عن الوصول للبيت الأبيض. ولاتزال هذه الأسطورة تحظى بقوة ماكرة. وحتى والمرأة تحاول كسر السقف الزجاجى فى

حجرات اجتماع مجالس الإدارة وفى دهاليز السلطة السياسية، لاتزال الشكوك قائمة (فى عقول البعض) بشأن المرأة التى تحتل موقع السلطة. إذ قالوا أنه ليس من السهل التوفيق بين (دور الأم ودور المديرة التنفيذية الكبيرة ودور الأم ودور عضوة مجلس الشيوخ. «لاتزال القوالب التى تفرق على أساس الجنس قائمة ويصعب التخلص منها. وتصارع الحركة النسائية أشكالًا شتى من النظام الأبوى، مثلما كتب أحد المؤرخين؛ وباستخدام استعارة جيولوجية، تقول أن الحركة النسوية نفسها» شكل سائل من السخط يضغط مرارًا وتكرارًا ... على النقاط الضعيفة فى الطبقات المترسبة من القشرة الأرضية الأبوية».

وفى الثمانينيات بدأ ما يسمى الموجة الثالثة من الحركة النسوية، بكاتبات ومفكرات مثل بيل هوكس، وجلوريا انزالدوا، وتشيلا ساندوفال، وماكسين هونج كنجتسون، ممن تقاسمن نهجًا معينًا لم يلق قبولًا، ينظر للقضية النسوية من وجهات نظر عرقية وجنسية شتى (وربما من وجهة نظر السحاقيات وثنائيات الجنس). وبدرجة ما فإن مادونا موسيقى البوب وسمت وصول هذه الموجة، بإصرارها على التركيز على الجنس والسلطة الثقافية على حد سواء. و هذه الموجة الثالثة معقدة، وتضم دوامة من الأفكار المتناقضة عادة التى تتحدى أفكار الموجة الثانية التى كانت تدعو للجوهريات والأساسات، والتى افترضت فيها كاتبات مثل فريدان، أنهن يدركن ما كانت عليه المرأة وما لم تكن عليه. والواقع أن الموجة الثالثة أعادت النظر فى الحركة النسوية من زاوية الطبقة والنوع الاجتماعى وكذلك من زاوية الهويات العرقية. وبالنسبة لهنّ، بدت بيتى فريدان ساذجة فى أفكارها عن النوع الاجتماعى، لأنها ركزت بشكل متسلط كالهاجس على الشريحة العليا من الطبقة الوسطى دون فهم كامل لتأثير الطبقة على مقولاتها. ومثلما طرحت هينسى الأمر: فإنه «إذا رأت بيتى أن هناك تماثلًا بين وضع المرأة فى المجتمع ووضع السحاقيات فى الحركة (ووضع اليهود فى بيوريا) فإنها لم تقدم دليلًا على ذلك. وظلت القضية تقلقها لسنوات، حتى المؤتمر الأمريكى الأول للنساء – فى هوستون فى 1977 – عندما عقدت صلحها المنفصل معهن. وسارت الموجة الثالثة بالحركة النسوية فى اتجاهات غير متوقعة. ووردت مختارات أدبية مهمة مبكرة من مقالات داعيات الحركة النسائية الأصغر سنًا فى كتاب «لكى تكون صادقًا: قل الحقيقة

والوجه المتغير للحركة النسائية»، الذى حررته ريبيكا ووكر، (ربما لم يكن من المصادفة أن تكون ابنة أليس ووكر التى كتبت «اللون الأرجوانى»). وكان هناك مؤلف آخر هو : البيان : المرأة الشابة، والحركة النسوية والمستقبل،الذى حررته جنيفر بومجاردنر وآمى ريتشاردز. وما تبينه هاتان المجموعتان من المقتطفات، وكثير مما يماثلهما، هو أن شواغل الحركة النسائية قد تطورت بطرق غير متوقعة لكنها مثيرة للاهتمام منذ وقت فريدان، التى لم تفهم مطلقًا ولم تقر، بما يسمى الثقافة البناتية، أو أفلام مثل بافى قاتلة مصاصى الدماء (1992) (استمر المسلسل التليفزيونى من 1977 إلى 2003). قد يكون حقيقيًا فى الواقع أن المنعطف «البناتى» مع استخدامه الساخر لأحمر الشفاة واستعادته لكلمات «مومس» و «عاهرة»، إشارة إلى تخندق غير عادى، باعتباره تبنيًا يتم كرهًا للإحساس بالهيبة نحو المرأة ومع ذلك ، فمثلما قالت جون هانام فى كتابها المعنون «الحركة النسوية» (2007) فإن «فروقا كثيرة بين النساء كفيلة بأن تؤدى إلى تشكيلة متنوعة من الحركات النسوية، لكن هذا لن يمنع النساء من العمل بصورة جماعية.

وقد ارتعدت فريدان ومجايلوها فى الموجة الثانية عندما رأين نساء محتبسات فى البيوت، يحضرن وحيدات فى المقابلات، أو يتجولن فى أجنحة السوبر ماركت أو المولات بنظرة مشدوهة على وجوههن. فقد شعرن بأن التعليم المكلف قد ضاع سدى، وكن يتطلعن لتمكين المرأة من أسباب القوة فى أماكن العمل، وتولى مسئوليات القيادة، والنشاط الخلاّق. وكانت داعيات الموجة الثالثة، هكذا كن يسمين، تأملن فى مواصلة القتال فى سبيل حقوق المرأة، لكنهن كن يرغبن فى أن يفعلن ذلك دون التخلى عن جوانب شئونهن الجنسية، بما فى ذلك وظيفة الإنجاب. كن يردن كل شىء، كما تعين عليهن: الأطفال، والجنس ، والبيت، والمستقبل الوظيفى والاحترام.

وفى أوائل القرن الحادى والعشرين لاتزال الحركة النسوية متقدة النشاط وفى حالة جيدة، تركب أى عدد من الموجات، ويرتبط هذا نوعًا ما برائدات مثل بيتى فريدان، التى كانت شخصية قوية فى أيامها ولايزال يتعين علينا الاستمرار فى تكريم تراثها ككاتبة وأن نواصل تحليله.

3

بدأت فريدان «بالمشكلة التى ليس لها اسم»، وهو ما يردد على نحو مدمر صدى اللورد الفريد دوجلاس فى حبه اللوطى لأوسكار وايلد. أن المشكلة التى فرزتها هى توق النساء إلى شىء ما أكثر من أن تكون ربة منزل وأن تبقى أما فى البيت. فنساء الطبقة الوسطى الضجرات «وهن يجهزن الفراش، ويتسوقن من محلات البقالة، ويعدلن أغطية الأرائك، ويأكلن ساندويتشات زبدة الفول السودانى مع أطفالهن، ويقدن السيارات إلى نوادي الكشافة ويقمن بالأعمال المنزلية، ويستلقين بجانب أزواجهن ليلًا، يتساءلن هل هذا هو كل شىء» (15).

كان متوسط سن الزواج قد انخفض إلى العشرين بحلول نهاية الخمسينيات، كما تقول فريدان التى تهدى المتخصصون إحصاء اتها التى أوردتها فى كتاب الإحساس بالهيبة نحو النساء، رغم أن وجهات نظرها بصفة عامة ثبت صدقها، حتى وإن لم تكن الأرقام مضبوطة. فقد أكدت أنه بعد الحرب العالمية الثانية «أصبح الإحساس بالهيبة نحو إنجاز المرأة هو الجوهر الأثير المستديم ذاتيًا للثقافة الأمريكية المعاصرة» (18). فقد كانت صورة الزوجة ربة المنزل الخيرّة التى تقبل زوجها لتوديعه فى الصباح وتراقب أطفالها عند ذهابهم للمدرسة قد أصبحت أيقونة فى وسائل الإعلام. ويمكن للمرء أن يستدعى للذهن بسهولة مشهد بيتى كروكر: الأم البيضاء من الطبقة الوسطى، فى البيت عند الفرن، ترتدى مئزرها وهى تبتسم.

لكن ربات البيوت كن قد فقدن ابتسامتهن. إذ قالت نساء كثيرات لفريدان «أشعر بالخواء». كن هؤلاء هن ربات البيوت اليائسات الحقيقيات، اللاتى تزايدت مشكلتهن إلى حد أنه بحلول 1960، بدأت المجلات النسائية نفسها تؤكد أن هناك شيئًا ما خاطئ. فقد كان يتم نقل الأطفال للمدارس عبر مسافات طويلة، مما يستهلك ساعات كثيرة من يوم الأم. وكان الرجال الذين يأتون لإصلاح الغسّالة أو مجفف الملابس أو محمصة الخبز أو التليفزيون غير كفؤين. وكانت اجتماعات مجالس الأباء تدوم طويلًا. وكان السخط معترفًا

به فى هذا الوقت وتسجله مقالات كبيرة فى الدوريات، بما فى ذلك مقالة جوهرية نشرت فى النيوزويك (7 مارس 1960) نظرت فى المشكلة بطريقة شاملة ومتعاطفة. فقد قال كاتب فى النيوزيويك «إن تعليمًا جيدًا قد أعطى لهذا الضرب من النساء فهمًا لقيمة كل شىء عدا جدارة المرأة هى نفسها».

وقد تأملت فريدان صورة «ربة البيت السعيدة»، المعروضة فى قائمة محتويات مجلة ماكول (يوليو 1960) وهى من أكثر المجلات النسائية شعبية. ويرتعد المرء من رؤية ما قدم باعتباره «حلاً» لتعاسة المرأة. فقد كانت هناك مثلًا، قصة عن امرأة شابة متعلمة ظفرت بشاب من مدرسة كلية، سرقته من فتاة فى مدرسة كلية. (وكانت الرسالة الكامنة وراء ذلك: لاتصدقن أن هذه الفتيات الهوائيات قد تفوقن عليكن!). وكانت هناك ست صفحات من الصور تبين نساء فى ملابس أمومة مثيرة جنسيًا. وكانت المقالة الأبرز عن كيفية تقليل الوزن. بل وكدليل على المعاصرة، كانت هناك مقالة عن كيفية العثور على زوج ثان. وكانت صورة ربة المنزل فى معظمها هى صورة المرأة اللعوب، التى تخلب لبها الثياب والأطفال، والمتلهفة على إسعاد زوجها فى السرير وكذلك فى المطبخ. تقول فريدان: «إن إنجاز المرأة كان له تعريف واحد بالنسبة للمرأة الأمريكية فى 1949، هو ربة البيت الأم» (44).

ومسحت فريدان الأدب القصصى فى هذه المجلات النسائية المصقولة - والقصص الرومانسية لكتاب نسيناهم حمدًا للسماء - ووجدت أن العمل كله مثير للسخرية بلاريب. وخلصت إلى : «أن الإيمان بالمساواة للمرأة قوى إلى حد أن النساء لم يعدن ينشأن على معرفة أن لديهن رغبات وقدرات يحظرها هذا الإيمان» (68). إذن ما الذى يعطى للإحساس بالهيبة قوته المدهشة على قمع الملايين؟ فى الفصل الثالث القوى، تبدأ فريدان بذكريات عن كيف تخلت عن منحة زمالة للدراسات العليا من أجل الحب، وعجزت عن النظر لما وراء حلم الرومانسية.

وإذ أدلت فريدان بهذا الاعتراف - وبذلك وضعت نفسها على قدم المساواة مع قرائها - مضت لمحاورة عدد من الطالبات كن يدرسن فى الكليات حينذاك. ووجدت أنهن يعانين متاعب بسبب وضعهن، وأنهن خائفات من أن ينظرن فى ظروفهن عن كثب. قالت

إحدى الطالبات، وهى فى الصف الأول فى المدرسة الكلية وجاءت من جنوب كاليفورنيا «إننى لا أريد أن أهتم بمستقبل مهنى سأتخلى عنه» (74). وتذكر فريدان أن جيلها هى من فتيات المدرسة الكلية كن يأملن فى مستقبل مهنى واعد، لأنهن كن يدركن أن أمهاتهن كن تعيسات خلال سنوات الكساد الكبير. ومع ذلك، فقد كن عاجزات عن استغلال المعارف التى حصلن عليها. لقد توافرت لأعداد من الشابات فرص أكبر كثيرًا من أى وقت مضى للحصول على التعليم العالى بحلول الخمسينيات، إذن لماذا لايؤدى هذا للإنجاز؟ كيف ضاقت الآفاق المتاحة لهؤلاء النساء لهذا الحد؟ لماذا لم يستطعن النظر إلى ما وراء عيد ميلادهن العشرين، مثلما تبينت أنهن لايستطعن ذلك؟ تلاحظ فريدان «أن البحث عن هوية لشاب لايستطيع العودة للدار مرة ثانية، كان موضوعًا دائمًا لدى الكتاب الأمريكيين» (78). لماذا، إذن لا ستطيع الشابة أن تعترف بأزمة هوية مماثلة.

وفى فصلها الرابع، تعود فريدان للداعيات إلى الحق فى الانتخاب، اللاتى استطعن (عقب مؤتمر سينكافولز) استجماع القوة والإرادة لإنجاز ما فعلنه. فبالنسبة لهن. كان حق الانتخاب يمثل هدفًا واضحًا. ومع ذلك، فماذا بقى بعد 1920؟ لقد نزعت الحركات إلى أن تلتحم حول أهداف محددة، وهذه غدت أكثر صعوبة لحد التجمد. واعتقد بعض النساء أن العمل قد أنجز بالفعل. وتسللن عائدات للبيت، بإهمال، وغبن عن المشهد. ولاغرو أن صورة الداعيات الأول لحق الانتخاب قد تهاوت، عندما أصبحت «هذه الداعيات الأموات للحركة النسوية» كاريكاتيرًا للمرأة «التى تأكل الرجل» وتهدد هوية الذكر.

وربما باستسهال، أشارت فريدان إلى سيجموند فرويد باعتباره واحدًا من خالقى مشكلة الإحساس بالهيبة نحو المرأة. وأكدت أن «الفكرة الفرويدية، التى تصلبت لتصبح حقيقة جلية، هى التى أوقعت فى الفخ مثل هذا العدد الكبير من النساء الأمريكيات حاليًا» (103). وهى تشير إلى فكرة «القضيب موضع الحسد»، وهو اتجاه لاحظه فرويد فى نساء فيينا فى أواخر القرن التاسع عشر. وأيًا كانت هشاشة هذه النظرية، فلا يمكن أن يكون هناك أى شك فى أن الرجال يخشون حسد النساء، ومن ثم يريدون الإبقاء عليهن خارج مكان العمل. ورغم أن فريدان درست علم النفس، فإنها تكتب دون تبصر خاص بفرويد ونظرياته، وتختزل كثيرًا

من أفكاره الأساسية إلى خصوصيات للسيرة الذاتية، مثلما حدث عند المقارنة التى قامت بها بينه وبين «العذراء العجوز المتزمته التى ترى الجنس فى كل مكان»، وتعتبره رجلًا أربكته «ثنائيته الجنسية العقلية» (111). ومما يذكر لها أنها نقلت مطولًا عن أرنست جونز، مترجم فرويد وكاتب سيرته، الذى صور فرويد عن حق باعتباره مخلوق عصره، المحبوس فى نظام أبوى. قال جونز: «هناك قليل من الشك فى أن فرويد قد وجد أن سيكولوجيا المرأة أكثر إبهامًا من سيكولوجيا الرجل».

ولاريب أن فرويد كتب أفكاره قبل حدوث التطورات الحديثة فى علم نفس الأنا والميادين المرتبطة به. فالجنس ليس سوى جانب واحد للحياة، والحاجة للنمو والتغير متعددة الأوجه وقوية - وهى يقينًا لا تتوقف مع نهاية فترة المراهقة. ومع ذلك، فقد تم تأليف كتاب فريدان فى وقت كان لايزال فيه لفرويد سيطرة ضخمة فى دوائر علم النفس، قبل أن تبدأ مدارس فكرية أخرى فى تنقيح نظرياته (بل ومعارضتها). (وعلماء النفس حاليًا يعتبرون فرويد شخصية أدبية أكثر منها شخصية علمية، رغم أن لأفكاره تأثير لايقاس فى هذا المجال. إنه لايزال محك اختبار له قيمة لاتضاهى).

ويشرق ذكاء فريدان طوال الفصل السادس، حيث تتأمل حقيقة أن العلوم الاجتماعية، التى يفترض أنها حررت المرأة من الأفكار والوظائف القديمة، قد عملت فعلًا على تجميد المرأة فى مكانها فى القرن التاسع عشر. واستهدفت على نحو جامد البدعة «الوظيفية» التى كانت قد اكتسحت العلوم الاجتماعية. وفحصت بصفة خاصة فكر مارجريت ميد، عالمة الأنثروبولوجيا التى درست المجتمعات البدائية فى كتاب «بلوغ سن الرشد فى ساموا» (1928) وكتب أخرى. وما وجدته فريدان فى ميد كان إحساسًا «بالتنوع لما لا نهاية له من الأنماط الجنسية واللدونة الضخمة فى الطبيعة الإنسانية» (136). ومع ذلك، فإن ما يستخلصه القراء وعلماء الاجتماع الآخرون من عمل ميد هو «تمجيد المرأة فى دورها الأنثوى - كما تحدده وظيفتها البيولوجية الجنسية» (137). ومرة أخرى يصبح التشريح قدرًا- ما الذى على وجه الدقة الذى أنزل المرأة إلى وضعها غير المريح فى المحل الأول. وتستنطق الفرويدية الاختزالية فى نهج ميد، ملاحظة أن ميد تربط القضيب بالجوانب التوكيدية والمبدعة

للحضارة حيث تربط الرحم بالأشكال السلبية من الإبداع (139). ففى المجتمعات البدائية التى درستها ميد، كانت النساء يحظين بالاحترام لمجرد قيامهن بدور الأم التى تنجب. وفى الولايات المتحدة، فى القرن العشرين، لم يرتبط تقدير كهذا بالنساء لمجرد قدرتهن على الإنجاب. إن المبرر البيولوجى لم يعد فى إمكانه الصمود، حيث أصبحت النساء متعلمات ويعشن فيما وراء لحظة أدوارهن الجنسية باعتبارهن حوامل بالأطفال وأمهات لهم. وتوضح فريدان أن ميد نفسها كانت تشعر بالقلق إزاء هذا، ومع ذلك فإن عملها دعم ضمنًا النهج الوظيفى.

وبعدئذ تتحول فريدان إلى نظام التعليم، الذى كان ذكوريًا على وجه قاطع فى عصر ما بعد الحرب. (غالبًا ما يحدق طلابى غير مصدقين عندما أخبرهم أنه فى الستينيات والسبعينيات، أمضيت تسع سنوات فى كلية دون أن ألتقى حتى بأستاذة أنثى واحدة). وتقول أن الباحثات الإناث اللاتى واصلن الدراسة فى الكليات وحصلن على درجات جامعية، كن موضع اشتباه عميق. إذا كان من المتوقع أن يحقق الأولاد «استقلا لا شخصيًا، لكن البنات لا» (165). فقد كان من المفترض أن تجد الفتاة لنفسها زوجًا بأسرع ما يمكن، والواقع أن التعليم نفسه كان يعتبر عادة عائقًا أمام الحصول على زوج. ولم تستطع فريدان سوى العثور على استثناءات قليلة من وضع الأمور المحزن هذا، حتى فى كليات النخبة النسائية.

كان الامتثال يسود فى كل مكان، كما تلاحظ فريدان بقرف. وهى تلوم مثلها مثل ثورو التقسيم بغرض التحكم والضبط، خاصة وهو يعمل بهذه الفظاظة ضد قضية المرأة، مقوضًا إحساسها بالقوة والوكالة. إنها لاتدين العلوم الاجتماعية باعتبارها السبب المباشر للامتثال والخضوع، لكنها تستهدف كما فعلت من قبل الوظيفية، التى حرفت كما ترى التفكير فى مجالات مثل علم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع. وبالطبع، لم تكن فريدان هى الوحيدة التى تسخر من الضغوط من أجل الامتثال فى النظام التعليمى الأمريكى. فكتاب بول جودمان المعنون«النمو عبثا» (1960) وهو كتاب عنيف ومجدد عن المشاكل اللصيقة بالمدارس الأمريكية، كشف للعيان بالفعل كثيرًا من القضايا التى ناقشتها فريدان. ومع ذلك، فإن فريدان تطرح الخيارات أمام الشابات بإحكام. إذ يتعين عليهن الاختيار بين التكيف،

الامتثال، وتفادى النزاع «من ناحية وبين الشخصية الفردية، والهوية الإنسانية، والتعليم بأصدق إحساس» من ناحية أخرى.

ما الذى سبب أزمة الهوية هذه بين النساء الأمريكيات؟ تتبنى فريدان منظورًا أوسع فى الفصل الثامن، مبرزة آثار الكساد، والحرب، وسقوط القنابل الذرية، والوحدة العميقة والانفصال الذى، سببته تلك الأحداث المفجعة. ففى مواجهة «الاتساع البارد» للتاريخ، سعى الرجال والنساء «للامتثال لواقع البيت والأطفال». وتتذكر وهو تدرج نفسها فى هذا بصورة حكيمة: «أننا جميعًا معرضون للمعاناة، يغلبنا الحنين للأسرة، وحيدون، مرتعبون» (182). وقد غلب على الرجال والنساء على حد سواء بعد الحرب، دافع لايهدأ للتوصل للاستقرار بأى وسيلة كانت. وكان جيل ازدهار عدد المواليد نفسه استجابة لهذه الأزمة، انفجار للغريزة غير الخاضعة للسيطرة للتداخل وإيجاد مأوى.

لكن مسح فريدان للثقافة يبدو عادة متعجلًا ومختزلًا. فهى تسدد قذائف من الاحتقار لشتى الفنون المعاصرة مثلًا، وترى التعبيرية التجريدية فى الرسم محاولة للالتفاف على المعنى نفسه. وتهاجم مسرح العبث لخلوه الواضح من المعنى، وتوجه ضربات عنيفة الى نورمان مايلر، والبيتلز، وتينيس ويليامز، وآخرين، مكتشفة فى عملهم تملصًا من سياسات الجنس. (وكتاب الإحساس بالهيبة نحو المرأة يتعلق أساسًا بسياسات الجنس). وتختتم هذه المرحلة من مقولتها بتأكيد: «أن المرأة الأمريكية قامت باختيار خاطئ. فقد عادت مسرعة إلى البيت مرة ثانية لتعيش بالجنس وحده، مبادلة شخصيتها الفردية مقابل الأمن (204). وتبعها زوجها إلى البيت، وأغلقا بابهما عليهما معًا دون العالم الخارجى، يعيشان فى أسطورة الإحساس بالهيبة نحو المرأة.

وفى كتاب «بيع الجنس» تكشف فريدان عن تحيز متصاعد، رغم أنها قد تكون محقة فى القول بأن قوى الصناعة قد تضمنت «لبيع» فكرة الإحساس بالهيبة نحو المرأة فإذا تحقق الإنجاز بالنسبة لامرأة ما داخل البيت، لابد أن تكون مكتسبات مادية قد ساعدت فى هذه العملية. فعلى سبيل المثال، أصبحت الفضة الاسترلينى، بندا موضع اشتهاء، مثلما حدث بالنسبة للخزف العظيم الأنيق وسلع الرفاهية الأخرى. وقطعت صناعة الفراء شوطًا طويلًا

لحد أنها أصبحت تقول لبائعيها أنه يتعين عليهم على نحو ما «أن يبدأ وا فى خلق إحساس بأن الفراء ضرورية» (222). وقد حاولت آدمن «أن تعيد الشهوة الجنسية إلى الإعلان» (227). وتخلص فريدان وهى مشمئزة إلى أن المجتمع المريض وحده هو الذى يمكنه أن يختزل البشر إلى «ربات بيوت» يعتبرن «البيت المكدس بالأشياء» غاية فى حد ذاتها (232). كان ذلك نوعًا من الإفلاس الروحى. (وعلى المرء أن يتذكر هنا أن زوج فريدان، كارل، كان يعمل حينذاك فى وكالة للإعلان، وربما يفسر هذا المشاعر السلبية التى نشطت هذا الجزء من الكتاب).

وفى الفصل العاشر اللاذع، تدرس فريدان العمل اليومى لربة المنزل، وتجد أن كثيرًا منه بلا معنى. وتلاحظ بحدة لاذعة أن ملايين النساء يمضين غالبية وقتهن كل يوم «فى عمل يمكن أن يقوم به من يبلغ الثامنة من العمر» (256). كان ذلك وضعًا للأمور يدعو للاكتئاب، رغم أنه فى وقتنا الحالى تنظر بعض النساء اللاتى يرهقن فى العمل ويستنزفن فيه للوراء بنوع من الحنين غير المستحق للعمل المنزلى من النوع الذى تصفه فريدان. وتقول أن كثيرين من الرجال أيضًا يجدون أنفسهم يقومون بعمل لايشبع احتياجاتهم العاطفية أو الروحية، و ذلك يجعلهم يشعرون «بالخواء» ويسعون بيأس إلى الهروب من خلال سبل مثل «التليفزيون، والمهدئات، والكحول، والجنس» (252). لقد أجرت فريدان حوارات مع نساء من الفئات العليا من الطبقة المتوسطة، مما شوه النتائج التى توصلت إليها. وتذكر بصورة بديهية. «أن قيامك بالعمل الذى تستطيعين القيام به علامة على النضج» (253). لكن لم يكن من السهل الوصول لوظائف تحقق الإنجاز أن لم تكن من طبقة معينة ومتعلما. كان هذا حقيقيًا فى أيام فريدان ولايزال كذلك.

وفى حديثها عن «الباحثين عن الجنس»، تؤكد فريدان «الجنس فى أمريكا التى يسودها الإحساس بالهيبة نحو النساء طفق يصبح قوة مكرهة كئيبة على نحو غريب على النطاق القومى، إن لم يكن زيفًا باعثًا على الازدراء» (261). إن ربات البيوت الضجرات لديها، يتطلعن حولهن بحثًا عن هزة الابتهاج الجنسية، ولا يجدن سوى القليل الذى يثيرهن. إذ كان أزواجهن خائبين فى الفراش، ومن ثم يبحثن عن عشاق فى أماكن أخرى، حتى وإن

لم يوفر هؤلاء العشاق غير المشروعين إشباعًا دائمًا. كتبت فريدان تقول: «من 1950 إلى 1960، شحب اهتمام الرجال بتفاصيل الجماع أمام شره النساء» (263). كيف استطاعت معرفة ذلك؟ ربما لم تلتق مطلقًا رجلاً مثل دين موريارتى فى كتاب على الطريق. وتسخر من تقريرى كينسى، الصادرين فى 1948 و 1953، اللذين اختزلا النشاط الجنسى إلى مستواه الأدنى، المستوى الفسيولوجى تقول : «أن ما أورده المحققون التابعون لكينسى والطريقة التى أوردوه بها، ليست سوى روايات ومجلات ومسرحيات متخمة بالجنس، وكانت كلها أعراضًا لتزايد إلغاء الشخصية وعدم النضج والكآبة وانعدام الحس الكاذب لاستغراقنا المفرط فى الجنس» (263). ويظهر خيط من التزمت خلال مثل هذه البيانات، لكن قدرًا كبيرًا من الحقيقة يكمن تحت هذا القول. فالجنس أكثر من مجرد علم السوائل المتحركة.

وتكشف فريدان عن معرفة قليلة باللوطيين الذكور، الذين تصفهم بأنهم «بيتربان، أشباه الأطفال الذين لايكبرون أبدًا، طفوليون، خائفون من تقدم السن، يتشبثون بالشباب فى بحثهم المستمر عن الطمأنينة فى بعض السحر الجنسى» (275). وسرعان ما تستعين بفرويد لتفسير السلوك اللوطى، ولايؤدى بها هذا لنتيجة. لقد كتب فرويد : «فى كل الحالات التى فحصناها، تحققنا من أن التحول المتأخر للوطيين يرجع إلى طفولتهم وهى مرحلة من التعلق المرضى الكثيف جدًا وإن كان قصير الأمد بالمرأة (عادة الأم)، وبعد تخطيها، يتوحدون مع المرأة ويعتبرون أنفسهم مفعولًا به جنسيًا، أى أنهم يستندون إلى أساس نرجسى، ويبحثون عن شبان يشبهونهم فى أشخاص يودون أن يحبوهم مثلما كانت تحبهم أمهاتهم.

وقدتم رفض مثل هذا التفكير باعتباره اختزاليًا منذ أمد بعيد. وإجمالًا، يبدو من الغريب أن فريدان تنتقد فرويد بقسوة عندما تدعم مقولتها، لكنها تستخدمه دون انتقاد له عندما يلائم ذلك احتياجاتها. وفى هذه الحالة، تشعر أنها قادرة على لوم اللواط استنادًا لحقيقة أن الأمهات، اللاتى يشعرن بالإحباط بشأن مسيرتهن المهنية، يلجأن للعيش بالنيابة من خلال أبنائهن.

وبعد ذلك، تتصدى فريدان «لتصاعد إلغاء الطابع الإنسانى للمرأة الذى ينجم عن اختزال دورها فى العالم. ذلك أنها تتخبط إن لم تتوافر لها القوة والسلطة، وتسير عبر الحياة

كما لو كانت فى حلم يقظة، تبحث عن الإثارة حيثما وأينما تستطيع. وتقيم علاقة «تكافل» مع أطفالها، وتعيش من خلالهم. ولا حاجة للقول بأن «الطفل يتم تدميره عمليًا خلال هذه العملية» (290). وبإهمال ربات بيوت الضواحى هؤلاء لتطورهن، يقعن فى فخ الهالة النسوية ويدفعن ثمنًا عاطفيًا باهظًا. فمنذ اللحظة التى يتولين فيما واجباتهن كربات بيوت، لايعدن يعشن «السحر، والاستمتاع، والإحساس بالهدف الذى يسم الصحة الإنسانية الحقيقية» (293). ويتعاقب أى عدد من الاعتلالات كالليل والنهار من جراء حالة القلق المتفاقم التى تنتابهن، بما فى ذلك الأزمات القلبية، والقرحة، والإرهاق.

لكن العلل ليست سوى جزء من هذا. إذ يصيب ربات البيوت المكتئبات إحساس بفقدان الشخصية. وفى أوائل الستينيات، تحدث علماء النفس على نحو متزايد عن النمو العاطفى أو الروحى باعتباره حاجة إنسانية يتعين إشباعها. وكتب إبراهام ما سلو، ورولو ماى، وآخرون عن الحاجة إلى تحقيق الذات. وكانت فريدان - التى درست علم النفس فى بيركلى - على وعى تام بهذا الفكر. فلسنوات طويلة، كان علماء النفس يعتقدون أن الأشخاص المتكيفين جيدًا يستطيعون أن ينسجموا جيدًا مع محيطهم. وحاليًا تبدو هذه الفكرة أقل اقتناعًا فإذا كان المحيط نفسه منحرفًا بطرق تؤخر التطور والإنجاز، فكيف يمكن للمرء أن يتوقع «علاجًا» بتكييف الأفراد لينسجموا مع محيطهم؟ لقد كان ذلك فى نهاية المطاف هو عصر القلق، كما وصفه دبليو ايه أودن فى مجلد من الشعر ظهر بعد الحرب بذلك العنوان. أن القلق مثلما أوضحت فريدان، يأتى من الفجوة بين التطلع والإنجاز.

وتتم قراءة الفصل الثالث عشر لفريدان مثل تمهيد لعلم النفس المعاصر، ويظل بمثابة تجميع مفيد. وقد حظى مارلو بصفة خاصة بقدر كبير من الاهتمام. فهو مفكر مجدد ومرهف، بدأ بدراسة شئون المرأة خلال الكساد، فدرس أحوال مجموعة من النساء فى العشرينيات من عمرهن المتعلمات تعليمًا جيدًا، كن معظمهن من البروتستانت، البيض، والمتزوجات. واكتشف أنه كلما زادت «سيطرة» المرأة، زاد إشباعها فى النشاط الجنسى. فنظرًا لكونها آمنة على نفسها، ويحقق عملها لها إنجازًا، فإنها تستطيع أن «تخضع» للفعل الجنسى بحرية أكبر. وقد صدم فريدان أن هذه الدراسة قد أجريت قبل بداية الإحساس بالهيبة نحو النساء،

كما تصفه. فبالنسبة لأولئك النساء القويات - المتعلمات، المتكيفات جيدًا - ليس هناك تضارب بين تحقيق الذات والحب. أن لديهن كل شيء، كما يقال. وتتساءل فريدان: «هل ستجد دراسة جديدة لكينسى أن الزوجات الشابات نتاج الإحساس بالهالة نحو النساء» يحظين بإنجاز جنسى أقل حتى من أسلافهن الأكثر تحررًا، والأكثر استقلالًا والأكثر تعليمًا، واللاتى كن أكثر رشدًا عندما تزوجن.

لقد وصف أريك أريكسون على نحو مشهود وجود «أزمة هوية» لدى الرجال، وأرجع هذه المشكلة إلى الافتقار للعمل الخلاق. ومثلما تقول فريدان، فإنه كان على الرجال فى معظم التاريخ الإنسانى، أن يعملوا على نحو منتظم كى يعيشوا، منتجين الطعام والمأوى لأنفسهم ولأسرهم. لكن الوضع أصبح أكثر تعقيدًا فى عصر الصناعة، مثلًا عندما تم اختزال الرجال إلى ماكينات، إذ أصبحوا لا يرون سوى جزء من العملية. حيث تتشكل المنتجات فى خط تجميع. لقد أصبحوا مجرد عدد فى معادلة أكبر للإنتاج. وفى عصر ما بعد الصناعة، أصحبت الصلة بين «العمل» و «المنتج» أقل قابلية للإحصاء، ومن ثم نشأ الاغتراب. وقد ألمّت فريدان بهذا الوضع حدسًا، ووصفت أوجه القلق التى تنجم عن العمل غير الباعث على الرضى. وقالت أن النساء اللاتى لايتوافر لهن مخرج خلاق لايمكن أبدًا أن يشعرن بالرضى عن حياتهن، أو بالإنجاز بمعنى أوسع.

وتشير فريدان إلى أوليف شراينر الكاتبة والناشطة الجنوب أفريقية، التى حذرت فى نهاية القرن العشرين من أن حياة المرأة ستتدهور مع تناقص نوعية عملها. فإن لم تحصل النساء على كامل نصيبهن من «العمل المشرف والمفيد»، ستصبحن طفيليات بل مثيرات للشفقة. وسيفقد أطفال هؤلاء النساء، ذكورًا و أناسًا، تأثيرهم على الواقع. وقد أدرك شراينر ودعاة الحركة النسوية الأول أن المرأة تحتاج إلى أن تشارك فى المجتمع بصورة كاملة، لكن فريدان تقول أن حفيداتهن اخترن تبديد تعليمهن وإهمال مسئوليا تهن الاجتماعية (335). وقد طرحت الأمر بصورة جافة: «لقد نجح الإحساس بالهيبة نحو النساء فى دفن ملايين من النساء الأمريكيات أحياءًا» (336). وقد أصبح كتابها حاليًا صيحة للاحتشاد، ودعوة للعمل.

وتعترف فى فصلها الأخير، بأن مجرد مواجهة مشكلة ما لا يحلها. فالخطوة الأولى هى عدم اعتبار العمل المنزلى مهنة لكن شيئًا يتعين القيام به، خارجاً عن المسيرة. والأمر التالى هو فهم الهالة الجنسية وفخ الزواج». إن فريدان تريد أن تحتل المرأة وضعًا «يتطلب المبادرة، والقيادة، والمسئولية» (347). وتشجب فكرة القيام بالعمل الخلاق فى البيت - الرسم، النحت، الكتابة، فهذا «أحد ضلالات الإحساس بالهيبة نحو النساء» (350). وفى رأى فريدان، فإن المرأة المتزوجة لا تستطيع أن تقوم بعمل خلاق حقيقى فى البيت، ملبية مطالب الأطفال ومؤدية للأعمال المنزلية. وتقول أنه من السهل على المرأة أن ترتب «من خمسة إلى تسعة أعمال تافهة». أما الوظيفة فتقيم حدًا صلبًا بين العمل والبيت. وتصر على أن «المرأة يجب أن تقول لا للإحساس بالهيبة نحو النساء بوضوح تام حقًا للحافظ على الانضباط والجهد الذى يتطلبه أى التزام مهنى» (351).

وكما يمكن توقعه، فإنه توجد عراقيل كثيرة أخرى على طريق التحرر. وتتأمل فريدان الصعوبات التى تنبع من التقاليد الدينية على سبيل المثال، وتذكر أفكارًا تحجرت لتصبح أحكامًا مسبقة. كما تبحث المقاومة التى يمثلها الأزواج عادة. فهم يريدون أحيانًا «أُمًا حاضرة دومًا» وأن تقوم زوجاتهن بهذا الدور. وهناك المشكلة المضافة التى تتمثل فى عداء ربات البيوت الأخريات فالمرأة التى تعيش بالنيابة من خلال زوجها وأطفالها قد تنقم من مشهد شخص له حياته الخاصة. وهذا العداء قد يخلق الحسد كما تقول فريدان ويبدو أنها تتحدث عن خبرة. ومع ذلك، فمثلما تقول فإن المرأة ليس لديها خيار، عليها أن تمضى قدمًا فى طريقها، منتزعة حريتها. ومع ذلك فإن المرأة «التى تمضى قدمًا» يجب أن تستعد «لإحساس بالخسارة» وأن تقبله (355). إن الروتين والعادات القديمين سيزولان. ولابد أن تقوم علاقة جديدة بينها وبين زوجها. قد يشعر الأطفال بالهجر. وفريدان جيدة تمامًا فى الطريقة التى تستدعى بها معظم الاعتراضات، وعراقيل الطريق، والمشاكل المحتملة التى تواجه المرأة التى تريد تغيير حياتها. وهذا هو فى نهاية المطاف، كتاب يهدف إلى جعل المرأة تُحدث التغيير، وأن تجعله يتم. وإذ تمضى فريدان لما وراء ذلك، فإنها تواجه المعلمين، وتحضهم على «إدراك أن المرأة تقوم بالتزام يستغرق العمر كله» إزاء بعض مجالات المعرفة، والعمل

الجاد الذى يؤثر على المجتمع بأسره، فيما وراء دائرة الأسرة. وتطلب منهم رفض الهالة النسوية وكل شيء يجبر الناس لوضع افتراضات عما ستفعله المرأة بعد الدراسة. واتساقًا مع ماضيها النضالي، تدعو حتى إلى وضع خطة قومية للمرأة وفق القانون الذى أدى إلى تعليم كثيرين من المحاربين القدماء العائدين بعد الحرب، وهذا القانون سيوجد من «أجل النساء اللاتى يردن على نحو جاد مواصلة تعليمهن أو استئنافه».

ونحو نهاية كتابها المحرّض، تتراجع فريدان للوراء، ملتقطة نفسًا عميقًا، وتقدم اجتهادًا موجزًا، جوهرة من الحكمة. فتقول : «فى ضوء معركة المرأة الطويلة من أجل التحرر، فإن الثورة الجنسية المضادة الأخيرة فى أمريكا، ربما كانت أزمة نهائية، فترة غريبة لحبس الأنفاس قبل انفجار الحمم خارجة من القوقعة وصولًا للنضج» (377). أى أن النساء كن قد وضعن أنفسهن بصورة فعالة على الجليد لعقد أو أكثر. وسرعان ما أدركن ذلك ويحطمن القيود ويخرجن إلى الحرية. وباسترجاع الماضى، تبد و الفكرة كالنبوءة، حيث إن التحرر الجنسى فى أواخر الستينيات قد أدى (بطرق متعرجة) إلى حركة تحرير المرأة، ثم إلى مواصلة الثورة النسوية. لقد أخلت الموجة الثانية الطريق أمام الموجة الثالثة، بجوانبها الكثيرة. بالطبع لم تكن فريدان تعرف الاتجاه الذى سيسير فيه التاريخ، لكنها حاجّت على نحو مقنع بأن «الوقت قد حان» لكى تدرك المرأة قوتها المتأصلة فيها، وإن تتطور لكامل قدراتها. كانت هذه كلمات منشطة باعثة على الحيوية، وتجاوب مستمعوها، بطرق صغيرة وكبيرة.

4

تحول مشهد السياسات الجنسية بطريقة مثيرة فى السنوات التى تلت ظهور الإحساس بالهيبة نحو النساء.بالطبع أن فريدان لم تخلق ثورة نسوية هى نفسها، مثلما يدعى بعض مشجعيها المتحمسين، لكن عملها عزز ثورة كانت ماضية فى طريقها بالفعل - حركة كانت فى مراحلها الأولى عندما ظهر كتابها. ويمكن للمرء أن يتوصل بسهولة إلى أن كثيرين من قرائها شعروا بامتنان صادق للطرق التى شكلت بها حيواتهم وأعربت بها عن مشاعرهم بالكلمات. كانت فكرة الإحساس بالهيبة نحو النساء جذابة، وأفادت جيدًا فى تفسير ما حدث فى عصر مابعد الحرب مباشرة، حيث وجدت النساء التى كن فى أماكن العمل أنفسهن وقد قيدّن إلى البيوت. والواقع أنه تم شن حملة إعلام أريبة لجعلهن يشعرن أن تقييدهن هذا أمر جيد. لكنهن لم يكن سعيدات أبدًا بحياتهن.

وكما يمكن توقعه، فقد كانت هناك مقاومة لأفكار فريدان، واتخذ هذا أشكالًا عدة. ففى بعض الأوساط الدينية، خاصة فى اليمين المسيحى، ثم رفضها فورًا. واتخذ هذا الرفض شكلًا موطدًا فى كتاب مارى كاسيان المسمى الغلطة النسوية: وهو نسخة منقحة من كتاب سابق لها كان قد ظهر فى 1992. وقد حاجت كاسيان على أسس توراتية لحد كبير بأن المسيحية والدعوة لإعطاء المرأة حقوقها لاتتفقان وأن المساواة بين الجنسين تتعارض مع مشيئة الرب. وصبت كاسيان جام غضبها على الدعوة لإعطاء المرأة حقوقها وتحديدًا ما أشارت إليه فريدان على نحو مشهور بأنه «المشكلة التى ليس لها اسم»، مؤكدة أنها مثلها مثل سيمون دوبوفوار حددتا النظام الأبوى على نحو زائف بأنه مصدر هذه المشكلة : «حسب رأى دعاة إعطاء المرأة حقوقها، كان النظام الأبوى هو قوة الرجال التى قمعت النساء وكان مسئولًا عن تعاستهن. ويخلص دعاة إعطاء المرأة حقوقها إلى أن إلغاء النظام الأبوى سيحقق للنساء الإنجاز ويسمح لهن بأن يصبحن وحدة كاملة». وحاجّت بأن «مشيئة الله بالنسبة للرجال والنساء» لايمكن تغييرها وقالت عن تاريخ الدعوة، لإعطاء المرأة حقوقها :

«إنه بالنظر للوراء عبر الخمسين عامًا الماضية كان ممارسة رزينة. فقد كانت الدعوة لإعطاء المرأة حقوقها حلم وعد المرأة بالسعادة والإنجاز لكننى أشك فى أنه يتعين علينا أن نطبق استبيان فريدان اليوم، لأننا سنجد أن النساء أكثر تعاسة وأقل إنجازًا من أى وقت مضى».

وكبرهان للبؤس الذى أوقعته الدعوة لحقوق المرأة بالنساء، أشارت إلى ارتفاع معدّل الطلاق، وحقيقة أن معدلات الزواج قد تناقصت، وأن النشاط الجنسى قد زاد «فيما قبل الزواج». وتدعى بإحساس من الرعب أن «79 فى المائة من النساء العزباوات اللاتى يتراوح عمرهن بين العشرين والرابعة والعشرين كن نشيطات جنسيًا». كما أقلقها أنه بحلول 1997 «كان 61.6 فى المائة من كل النساء المتزوجات ضمن قوة العمل». والمؤكد أن المجتمع قد تحرك فى اتجاهات رضيت عنها فريدان ووجدتها كاسيان بغيضة.

كان التغيير فى القيم الذى بشّرت به فريدان ووضعته موضع التطبيق على مدى نصف القرن الماضى قمينًا بأن يقلق كثيرين خاصة المشدودين بإحكام لمنظور أبوى. وقد ظهر كتاب غلطة الدعوة لحقوق النساء فى 2007، الذى كتبته ليزلى بينتس، وهى صحفية مشهورة، واتخذت فيه خطًا معارضًا لكاسيان. كتبت بينتس تقول «كنت فى الثالثة عشرة عندما نشر كتاب الإحساس بالهيبة نحو النساء، وقد ساعد فى توجيه آرائى واختياراتى منذئذ فصاعدًا». وهى تدين ما تراه ضغوطًا مستمرة على المرأة لكى تبقى فى المنزل وتربى الأطفال. وتؤكد أن «فكرة البقاء فى البيت تمارس حاليًا إغراء قويًا على نحو يجعل نساء كثيرات يتركن وظائفهن ليس لاعتبارات مالية». ويجعل نهجها إزاء الموضوع على غرار نموذج نهج فريدان، فإنها تخلط قصصًا لافتة للانتباه بإحصاءات وتقول أن النساء اللاتى يتخلين عن مسيرتهن المهنية يخاطرن. وتبرز أن البحوث السيكولوجية الحديثة تبين أن وجود حق الاختيار والقيام بالاختيار ضروريان للحصول على السعادة. ذلك أن إحساس المرء بمسئوليته عن حياته يعزز الحياة نفسها. وفيما يتعلق بما يحدث للأطفال عندما تعمل الأمهات وتقمن بتربيتهم أيضًا، تقتبس بينتسى عن طبيب أطفال يقول: «لقد رعيت آلافًا من الأطفال من كل أنواع الخلفيات، و كان الأمر الوحيد الثابت فى تربية أطفال متكيفين جيدًا هو الوالدين السعيدين باختياراتهما». وهى تصر على أن الناس الذى يقومون بكثير

من الأشياء داخل المنزل وخارجه هم عمليًا الأحسن حالًا. وهى تخاطب قارئها مواجهة وعينيها فى عينيه، متخذة نغمة تتردد طوال كتاب فريدان: «نعم يمكنك أن تعيش حياة عملية كاملة وحياة أسرية كاملة، أيضًا».

وحدث منعطف آخر مع صدور كتاب: بيتى فريدان وتأليف «الإحساس بالهيبة نحو النساء»: اليسار الأمريكى، والحرب الباردة والدعوة الحديثة لحقوق المرأة (1998) لدانيل هورو فيتز. وهورو فيتز هى إلى حد كبير مؤيدة لفريدان وسياساتها، لكنها ترفض تقديمها لنفسها كربة بيت من الضواحى لا تختلف عن قرائها المتخيلين. وإذ نقبّت فى تاريخها الشخصى، فإنها تذكر أنها كانت مناضلة عمالية فى الأربعينيات، وارتبطت بكثير من الفكرين الميّالين للاشتراكية والشيوعية الذين كانوا قد طوروا إطارًا نظريًا للنقد الاجتماعى. وكانت فريدان قادرة على أن تروج لهذه الرؤى الثاقبة وتبنى عليها، كما تحاجّ هورو فيتز. كما تؤكد أن العداء للسامية الذى عانت منه وهى طفلة فى الميدوست ربما أذكى تعلقها بالعدالة الاجتماعية. وكل هذا حقيقى بما يكفى. فالمؤكد أنها أبدت اهتمامًا بالتحليل الماركسى والاشتراكى، وبعلم النفس وهى فى كلية سميث، حيث تعلمت الكثير من مدرسيها عن نضالات العمال فى الكساد الكبير. ولاحاجة للقول، إنها وجدت نفسها فى بيركلى فى خضم المناضلين ذوى الميول الاشتراكية. ولايدعو للدهشة كما تقول هورو فيتز أن فريدان قد تطورت على النحو الذى تطورت به، لكنها تنتقد جهودها لمحو ماضيها، وعرض نفسها كزوجه عادية من الطبقة الوسطى والضواحى فى كتاب الإحساس بالهيبة نحو المرأة.

وبالنسبة لى، يبدو من الواضح على نحو كاف أن فريدان كانت تعرف بالضبط ما كانت تفعله فى خلق صوت السرد هذا لنفسها. ويشع كتابها خبرة فى فن البلاغة، وهو فى نهاية المطاف فن الإقناع. وباعتبارها صحفية جيدة وكاتبة حذرة، فقد أدركت أن نساء الطبقة اجتماعية تتباهى بمعاشرة نوع الناس الذى تستهدفه الوسطى اللاتى شكلن جمهورها سيستجبن بالكاد لمن تصف نفسها بأنها يسارية ومناضلة المكارثية. كانت تعرف جمهورها، وكانت حقًا قد أصبحت ربة بيت من الضواحى، مقيدة بأطفالها، يعولها أساسًا زوجها.

لم تقصد مطلقًا أن يكون كتابها شكلًا من السيرة الذاتية، فقد استهدف إحداث تغيير فى المجتمع، ونجح فى ذلك بما يتجاوز أحلام المؤلفة.

واغتنم نقاد كثيرون فرصة ظهور كتاب هورو فيتز، واستغلوا بعض النتائج التى توصل إليها للسخرية من بيتى فريدان. فقد كتب الناقد المحافظ ديفيد هورو فيتز (ليس له علاقة بالمؤلفة التى استعرض كتابها) مقالًا قاسيًا جدًا فى مجلة صالون (18 يناير 1999) «فضحها» فيه بسبب من كانت عليه حقًا فى رأيه: مثيرة للمتاعب اشتراكية وقد كتبت دانيل هورو فيتز بنغمة محايدة حقًا : «بكتاب الإحساس بالهيبة نحو المرأة»، بدأت فريدان تراثًا طويلًا بين دعاة حقوق المرأة الأمريكيين يتمثل فى إدراك الاستهجان القهرى باعتباره المحصلة الأساسية للمكارثية فى الخمسينيات». ويعلق ديفيد هوروفيتز على ذلك بقوله: «حسنًا، ربما ليست المشكلة داعيات حقوق المرأة الأمريكيات هن اللاتى باعت لهن فريدان هذه الصيغة الغريبة للحقيقة مثلما يقدم الشيوعيين الأمريكيين أنفسهم كدعاة لحقوق المرأة وبقدر ماهى فى الشيوعيين الأمريكيين الذين يصورون أنفسهم. (دعاة لحقوق المرأة وفى الشابات اللاتى لاتشتبهن فى الأمر ولا يدركن سوى ما تعلموه من أساتذتهم اليساريين». ولا حاجة للقول بأن هذا النوع من النقد كان تأثيرة جد ضئيل على سمعة فريدان. فقد كان كتابها هو الكتاب الصحيح فى الوقت الصحيح، واحتل مكانه فى تاريخ الدعوة لحقوق المرأة، ولا يمكن إبعاد كتاب الإحساس بالهيبة نحو المرأة من مكانة الشرف هذه.

والواقع أن النساء الأمريكيات وجدن أنفسهن فى ظروف تتسم بالتقييد بعد الحرب. كانت التعاسة متفشية، رغم أن درجة التعاسة التى أشارت إليها فريدان ربما جرت المبالغة فيها لأسباب بلاغية. وقد تشبثت بأى إحصاءات وقعت بين أيديها واستخدمتها لتدعم مقولاتها بأكثر الطرق الممكنة فاعلية. أن كتابها عمل من ثرات كتب الدعاية السياسية، قصد به فرض تغييرات فى الموقف والسلوك بين النساء الأمريكيات، وليس عملًا فى علم الاجتماع الأكاديمى. ولكن لايعنى هذا القول بأن الكتاب لايستحق بعض النقد عميق التفكير الذى تلقاه.

فعلى سبيل المثال، فإن بيل هوكس أبرزت فى دراسة مهمة حديثة أن كتاب الإحساس بالهيبة نحو المرأة لايزال «يشكل فحوى واتجاه» حركة الدعوة لحقوق المرأة. وتذكر جملة فريدان الشهيرة «المشكلة التى لا اسم لها» مشيرة إلى أنها «تشير حقًا إلى محنة مجموعة منتقاة من النساء البيض من خريجات الكليات، من الطبقة الوسطى والعليا، المتزوجات- ربات المنازل الضجرات من الراحة والفراغ، ومن البيت، ومن الأطفال. ومن شراء المنتجات، واللاتى يردن من الحياة ما هو أكثر». ومع ذلك تتساءل هوك عمن يمكن مطالبته بالاعتناء بالبيت والأطفال، عندما تذهب تلك النساء المحظوظات للعمل. وتقول أن فريدان «تجاهلت وجود النساء غير البيض والنساء البيض الفقيرات. ولم تقل للقراء ما إذا كان فى مقدور المرأة الخادمة، وجليسة أطفال، العاملة فى مصنع، أو الكاتبة، أو المومس، أن تكون أكثر إنجازًا من ربة المنزل من الطبقة المترفة». وحسب رأى هوكس، فإن فريدان خلقت محنتها الخاصة، محنة امرأة على شاكلتها، وجعلتها مرادفًا لوضع كل النساء فى أمريكا، وبذلك حرفت الانتباه عن «طبقيتها، وعنصريتها، ومواقفها للتمييز بين الجنسين تجاه حشود النساء الأمريكيات». وتعتقد هو كس أن كتاب الإحساس بالهيبة نحو المرأة «لايزال يمثل مناقشة مفيدة لتأثير التفرقة حسب الجنس على مجموعة منتقاة من النساء». لكنها تنتقد بقسوة جوانب كثيرة فى الكتاب، منها «نرجسيته، وبلادة حسه، وإفراطه فى العاطفية، وانغماسه فى ذاته».

وأيًا كانت الحقيقة فى هذه الانتقادات المتنوعة، فإنه يبد ومن المهم عدم تقديم ادعاءات عن ثورة الدعوة لحقوق النساء تتجاوز ما حدث فعلًا، وما يحدث حاليًا. لقد حضّت الموجة الثانية من حركة الدعوة لحقوق المرأة نساء الطبقة الوسطى لولوج أماكن العمل ورسخت فكرة أن النساء يحتجن لعمل يحقق الإنجاز فالجميع يفعلون ذلك. وقد تعرض تعليم المرأة لتحول فى السنوات التى مضت منذ ظهور كتاب الإيمان المطلق بالمساواه للمرأة، حيث يستطيع أى شخص أن يعرف من يمضى الوقت فى حرم الجامعات الأمريكية. والواقع أن كل الكليات حاليًا تزهو بعدد كبير من النساء بين صفوفها، رغم أن هذا يبدو أكثر صدقًا على مجال الإنسانيات منه على العلوم البحته. والمؤكد أن هيئة الطلاب فى معظم الكليات

مقسة بالتساوى بين الرجال والنساء (فيما عدا فى العدد المتناقص من الكليات التى تضم جنسًا واحدًا). والحقيقة هى أن الفتيات يتفوقن على الأولاد فى معظم المدارس الثانوية، مما يجعلهن جذابات فى مكاتب القبول بالكليات. لكن ما يحدث للنساء بعد التخرج لايزال مدعاة للقلق.

فلاتزال قاعات اجتماعات مجلس الإدارة فى الشركات الأمريكية، ودهاليز السلطة فى واشنطن، قلاعًا لامتيازات الذكور، حتى عندما تظهر استثناءات (مثل هيلارى كلينتون). كم امرأة سنجدها بين كبار المديرين التنفيذيين فى شركات مجلة فورتشن الخمسمائة الأكبر؟ إن الإجابة ليست مريحة. وعندما وازنت المحكمة العليا بالتساوى بين الرجال والنساء، ربما سيتحطم «الحد الأقصى الزجاجى»، وتستطيع النساء أن يفترضن أن استئناف التحرك صوب المساواة سينجح بالكامل. وأشك فى أن حل المشكلات التى أشارت إليها بيل هوكس سيظل صعبًا، حيث إن النساء الملونات والنساء البيض الفقيرات سيبقين على هامش المجتمع الأمريكى، فى غالبيتهن. (لاشك أن وجود امرأة أمريكية أفريقية كوزير للخارجية فى إدارة بوش الثانية كان بالتأكيد أمرًا طيبًا بالنسبة للجميع، لكن لايزال أمامنا طريق طويل قبل أن تكف هذه الأمثلة عن أن تكون استثناءات وشيئًا لافتًا للنظر بشدة).

لقد ساعد كتاب الإحساس بالهيبة نحو المرأة فى تغيير أمريكا بطرق مثيرة وأريبة، ولاتزال الثورة التى أثارها تحسن حيوات النساء على عدة مستويات مختلفة. وينبغى أيضًا ملاحظة أن مشروع الدعوة لحقوق النساء قد غيرّ بصورة مثيرة حياة الرجال أيضًا، حيث اكتسبوا تدريجيًا فرصًا أكثر (وأعمق) للتواصل مع أبنائهم، وتعلموا كيف يعيشون حياتهم فى توازن، ويستغلون بالكامل ذكاءهم العاطفى وكذلك مهاراتهم فى التحليل. ومع ذلك، فإن تعقيدات التحول الاجتماعى حقيقية، وتجعل الطريق صعبًا أحيانًا. أن التغيير يتطلب دومًا مهارة وكذلك جلَدا، بل وربا طة جأش - وهى كل السمات التى صاغت بها بيتى فريدان نموذجها بفاعلية كبيرة، عندما جرؤت على تخيل مجتمع افترضت فيه تحقق المساواة الكاملة بين الجنسين ببساطة.

خاتمة

دع العبد يطحن فى الطاحونة التى تدور فى الحقل،

دعه ينظر للسماء ويضحك فى الهواء الصحو،

دع الروح المقيدة، محبوسة فى الظلمة وفى التنهد

العبد الذى لم ير وجهه ابتسامة مطلقة فى سنواته الثلاثين المجهدة

دعه ينهض وينتبه، أن قيوده غير محكمة، وأبواب زنزانته مفتوحة .

ويليام بليك، أمريكا (1793)

تمثل الولايات المتحدة الأمريكية مغامرة فى الحكم الذاتى. وباعتبارها تجربة سياسية، كانت لها ميزة متفردة هى أنها نشأت فى العصر الحديث. فقد كان مؤسسوها فى معظمهم من رجال عصر التنوير، جوقة من الأشخاص المعقولين والمتعلمين جيدًا، قدرّوا الفكر الرشيد ووازانو بحرص بين العناصر التى تشكل أمة ناجحة. وأقصد بعبارة «أمة ناجحة» - وهى عبارة محفوفة بالمخاطر - أمة لاتنتهك حرية مواطنيها وتسمح باختلاف الآراء دون أن تسحق من يختلفون مع الأغلبية التى تتولى السلطة. بالطبع أن جانبًا من نجاحها، يرجع إلى الطريقة التى تم بها توزيع السلطات بين فروع الحكم الثلاثة، لفترة محدودة. إن الشعب هو الذى يُنصّب القادة ويتخلص منهم. ومن الناحية النظرية، فإن الوراثة لا تلعب دورًا فى الخلافة والتعاقب، على خلاف البلد القديم الذى تركه وراءه عدد لايحصى من المهاجرين.

إننا ننسى أحيانًا أن الفكرة الأمريكية كانت جديدة وغير عادية فى القرن الثامن عشر وأنها أذهلت العالم - مثلما ورد فى قصيدة بليك «أمريكا» التى تم الاستشهاد بها هنا. ذلك أن أمة استطاعت أن تشكل نفسها بهذه الطريقة المتشبثة برأيها، كانت أمة موحية ومرعبة فى

الوقت نفسه، وتم تسجيل النضال العنيف الخلاق للشعب الذى أنجز هذا العمل البارع فى كتب مدهشة بقى الكثير منها، بدءًا بالمستوطنين الأُول، الذين جاءوا لهذه الشواطئ لتشكيلة متنوعة من الأسباب - تجارية ودينية، وشخصية.

وفى كتاب أرض الميعاد، عرضت ثلاثة عشرة كتابًا غيرت أمريكا بطريقة ما يمكن تمييزها، عائدًا للوراء إلى أسطورة الأصول كما جسدها وليام برادفور فى مذكراته عن مستوطنة بلايموث، تلك المجموعات الضئيلة من المهاجرين الذين أقاموا علاقة يحسدون عليها مع سكان ماساشوستس الأصليين من أبناء البلد - وهو نموذج للتعاون وكذلك للمثابرة فى وجه صعوبات شديدة. وبعد ذلك تحركت خلال المراحل المختلفة لاختراع الذات الأمريكى، متوقفًا عند دستة أخرى من النصوص التى شدتنى لسبب أولآخر. وفى قيامى بهذا، حاولت أن أتقصى الأنواع الممثلة للفكر الأمريكى، أو جوانبه المميزة، متقصيًا طائفة من الأساطير الأمريكية. والأساطير باختصار، هى قصص نرويها لأنفسنا عن أنفسنا، وإن كانت «صادقة»! ولدهشتى الكبيرة، فإن كثيرًا من هذه الكتب تتناول بطريقة ما، الفكرة التوراتية عن أرض الميعاد، التى تبدو عادة كحلم للاستقلال : ليس كمكان مادى، ولكن «كفردوس بداخلك، أسعد كثيرًا»، كما كتب جون ميلتون فى الفردوس المفقود وهذه الأرض، بحكم طبيعتها نفسها، تكمن فيما وراء المتناول، وهى نغمة توق واشتياق يمكن سماعها المرة تلو الأخرى فى هذه الأعمال.

إن المرء يتعلم الكثير عن أمريكا بالنظر فى هذه الكتب عن كتب - والنصوص التى تُدوّم حولها. ومثلما قلت فى البداية، فإن كل كتاب من هذه الكتب يمثل مناخًا للرأى، يدعم التراث أو يبدأ منعطفًا جديدًا فى طريق طويل ومتمعج. كان يمكننى بسهولة اختيار ثلاثة عشرة كتابًا أخرى، بنتائج مماثلة تمامًا. ذلك أن قلة فقط من هذه الأعمال - الأوراق الفيدرالية، على سبيل المثال، السيرة الذاتية لبنيامين فرانكلين - تبدو محورية على نحو لا يمكن إنكاره بالنسبة للمشروع الأمريكى، فى حين أن كتبًا أخرى - أرض الميعاد و على الطريق - تمثل خطًا خاصًا من الفكر أو المشاعر. أى أن المرء كان يمكنه اختيار أعمال

أخرى من نفس الضرب: مذكرات مهاجر أخرى أو كتاب عن نشوء الثقافة المضادة بعد الحرب. إن موضوع التوسع غربًا مهم، ومع ذلك فقد كان فى استطاعتى التركيز على شىء أو آخر غير يوميات لويس وكلارك، رغم أن هذا لايزال يبدو كأفضل اختيار. ويمكن قول الشىء عينه على أرواح جماعة السود، والتى لا يمكن قراءتها إلا بالترادف مع الخروج من العبودية لبوكرتىْ واشنطن. ربما كنت قد فضلت حكاية حياة فريدريك دوجلاس، وهو كتاب له قيمة مساوية فى التاريخ المضطرب لعلاقات الأعراق فى الولايات المتحدة، أو أى عدد من الأعمال الأخرى للأمريكيين الأفارقة. لكن هذا العلم البتار كالفولاذ لدويوا قد ترك أثرًا عميقًا ونال اهتمامًا وثيقًا.

إن بضعة من اختياراتى هى أعمال أدبية كلاسيكية، مثل والدن و هاكلبرى فن، كانت تعنى الكثير بالنسبة لى (وللأمريكيين عمومًا) بحيث لم أستطع تجنبها، ولم أكن أرغب فى القيام بهذا. وهناك أعمال أخرى، مثل كوخ العم توم والإحساس بالهيبة نحو المرأة، غيرت الرأى العام بطرق حاسمة. وكان هذا سببًا كافيًا لإدراجها. وربما هناك بضع كتب فى قائمتى - كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر على الناس و كتاب الحصافة فى رعاية الرضيع والطفل - ستصدم قرائى باعتبارها خيارات غريبة. وأنا لا أنكر الغرابة هنا، لكننى أعتقد أن هذه الكتب كان لها تأثير حاسم على تكوين ذلك الشىء المجرد، الشخصية الأمريكية - إذا أمكن للمرء حقًا أن يستخدم هذا المصطلح السامى والمجرد.

لقد أشار جور فيدال ذات مرة لهذا البلد باعتباره الولايات المتحدة الأمنيزية (الفاقدة للذاكرة)، وكان على حق فى استرعاء الانتباه إلى جهلنا العام بتاريخنا الخاص بنا. أننا ننسى أحيانًا أننا أمة صنعت من كلمات، وأن هذه الكلمات شكلت إحساسنا بأنفسنا وحكمت تصرفاتنا. ويجدر القول بأن هذه كانت كلمات مرموقة جمّعت فى نصوص حددت (بل وخلقت) تفكيرنا. والمؤكد أن صورة ما تبزغ من مجموع هذه اللغة. وبمجرد أن انتهيت من الكتابة عن هذه الكتب، أعدت النظر فيها ورأيت أمة تواقة لقطع علاقاتها بالعالم القديم، تواقة لكى تشعر بقواها الخاصة فى خلق ذاتها. إن الجانب العملى لدينا لايزال حاضرًا على

نحو لا يمكن إنكاره، يجسده بنيامين فرانكلين، الشخص الأكثر مسئولية عن صورتنا الذاتية الخاصة بنا باعتبارنا قومًا مجدين فى العمل، عاديين، حكماء، مرتبكين عادة، نمضى إلى عملنا بمهارة وإبداع كبيرين. إن هذه الروح القادرة على الإنجاز والعملية تفعم بالحيوية اليوميات التى سجلها لويس وكلارك وهما يرتحلان فى المجهول. وكان لمارك توين أيضًا جانب عملى شاسع، فقد باع نفسه للعالم بأسره، ناشرًا كتابه الخاص. أنه ابن فرانكلين غير الشرعى، أو هو إعادة تجسيد له باعتباره شخصًا ظريفًا، مقامرًا، سوط الأمبراطورية وحتى ديل كارنيجى يبدو، بطريقة أقل منزلة، حفيدًا مطيعًا لفرانكلين، مقدمًا حكمة عائلية لقرائه، يحثنا فيها على أن نطلق العنان لأنفسنا، وألا نقيدّ اندفاعنا للمضى قدمًا إن اقتضى الأمر.

وبقراءة هذه الكتب، أدركت أيضًا ارتباطنا الشاسع بتراث التعلق بالقيم الروحية. لقد كان المتشددون ملتزمين حقًا بالمسيحية، رغم أنهم لم يذعنو لأى سلطة خارجية، مثل تلك القائمة فى كانتربرى أو روما. ولهذا الضرب من التعلق بالقيم الروحية جناحه الصوفى (وإن لم يكن كنسيا) هو أيضًا، ممثلًا فى كتابات إيمرسون وثورو، التى تحتل مكانة عالية بين أدلة الإرشاد غير التقليدية العالمية. إن روحها المستقلة، بل والمتمردة، تتردد موجاتها من خلال مثل هذا العدد الكبير من الكتاب اللاحقين، ومنهم دوبوا، ومارى آنتين، وبنيامين سبوك، وجاك كيرواك. ونسمع نغمتهم المتحدية أيضًا عند بيتى فريدان، التى حثت المرأة الأمريكية على المضى نحو ما كان يمثل عملًا متحديًا من أعمال العصيان المدنى - الإطاحة بالنظام الأبوى نفسه.

إن الشخصية الأمريكية، قائمة وإن كان قد أضفى عليها طابع مثالى، وهى معقدة، أو حتى متناقضة، وأحيانًا غير سائغة. إن لها فحواها وأوجه مرونتها الخاصة بها، ولها خصائصها المميزة المفعمة بالأمل، ولها غرابتها وتصنعها. ربما كان روائيونا هم خيرة كتاب السيرة لدينا، ويمثل مجمل عملهم شخصية تجمع بين جوانب من ناتى بومبو، واليزا هاريس، وكابتن آهاب، وجاى جاتسبى، وسولا وكثيرون آخرون. وتومض هذه الشخصية

المركبة فى أجواء مكتباتنا، تدعونا لنعود لأنفسنا، وتحيطنا علمًا (بالمعنى الحرفى تمامًا)، وتجعلنا كلًا واحدًا.

وكثيرًا ما يغيب عن بالنا ما أسماه إبراهام لنكولن «أفضل ملائكة طبيعتنا» كما قال. لقد سرنا وراء أحلام الأمبراطورية وتصرفنا بصورة سيئة فى العالم، وامتصصنا موارده، ناسين أنه يتعين علينا أن نشارك فى المجتمع الأكبر لبنى البشر. إن قائمة الغسيل القذر لأخطائنا طويلة، ومن السهل الوقوع فى براثن اليأس بشأن المشروع الأمريكى، وأن تغيب عنا مثله العليا، ناسين. أن مصيرنا هو فى الواقع مصير جماعى، شكله أسلافنا عن وعى ولازلنا نشكله كقراء ومواطنين.

بيد أننا قراء، أو يجب أن تكون كذلك، و يتعين إعادة قراءة النصوص التى تستند إليها جمهوريتنا، والتى حددت محيطها ونسيجها، بل وتتعين إعادة التفكير فيها على فترات منتظمة. إن دراسة الماضى مهمة لأنه مثلما أشار توماس جيفرسون ذات مرة، فإن هذا النشاط يعلم المواطنين «كيف يحكمون بأنفسهم على مايضمن حريتهم أو يعرضها للخطر». ولايمكن أن نفعل ذلك بدون هذه المعلومات.

مائة كتاب غيرت أمريكا

ستجد فيما يلى ما اخترته باعتباره مائة كتاب غيرت أمريكا بطريقة ما. وكان يمكننى تقديم مائة كتاب أخرى، دون عناء فى اختيارى لهذه الكتب، مثلما حدث فى الثلاثة عشرة كتابًا الواردة فى متن هذا الكتاب، ركزت على الأعمال التى غيرت شيئًا ما أو دعمت تغييرًا حادثًا بالفعل. وفى حالات قليلة جدًا فحسب أشرت إلى تحف من الأدب القصصى، مثل موبى ديك أو الصياد فى راى، كروايات نادرًا ما كان لها تأثير على الجمهور. (وبالطبع، فإن هذا منحدر زلق، وقد كبحت جماح نفسى لئلا أدرج كثيرًا من رواياتى المفضلة، مثل الخطاب القرمزى وجاتسبى العظيم، والتى عكس كل منها صورة عصر ما بدقة وقوة، مثلما فعل عدد لايحصى من الروايات الأخرى).

مرة أخرى: أن الكتب المائة التالية ليست «أعظم» الكتب فى التاريخ الأمريكى، على الرغم من أن البعض منها يندرج فى هذه الفئة. إنها أعمال إما أنها حددت فترة ما أو أحدثت تحولًا أو توسعًا مرموقًا فى الوعى. وقد ساعد البعض منها فى تغيير ميدان البحث والتقصى، مثل كتاب نعوم تشوسكى «البنى اللغوية» (1957) الذى أثر على طائفة عريضة من العلوم. وجاءت كتب أخرى لتكشف فحسب عن تطورات جديدة وتعلنها على الجمهور العريض، مثل اللولب المزدوج.

والواقع أننى لم آخذ فى الاعتبار أعمالًا قصيرة مؤثرة مثل عمل لنكولن المسمى «عنوان جيتسبرج» أو عمل مارتن لوثر كينج «خطاب من سجن برمنجهام»، وكلاهما وثيقتان لهما تأثيرهما الكبير. كما لم أتناول المسرحيات، حيث إنها ليست «كتبًا» حقًا. ربما كان يمكن للمرء أن يدرج حقًا مسرحية إسرائيل زانجويل بوتقة الانصهار، التى قدمت مجازًا مفيدًا عمن يفكرون فى الهجرة والعرقية منذ ظهورها لأول مرة على المسرح فى 1908. ونادرًا ماتوقف عرض مسرحية ثورنتون وايلد «بلدتنا» منذ أن ظهرت لأول مرة على مسرح ويلبور فى بوسطن فى شتاء 1938، وقد حددت للأبد نوعًا معينًا من عالم البلدات الأمريكية الذى

يعتقد المرء أنه عالم أمريكى بصفة خاصة. وقد ظهرت مسرحية موت بائع جوّال لآرثر ميللر فى1948، و حددت على وجه التأكيد مواقف بعينها إزاء الطبقة والتطلع فى أمريكا. لكن هذه ليست كتبًا فى حد ذاتها.

وبعض الكتب التى ترد فيما يلى هى «تقارير» للجان، وكتالوجات، ودراسات (مثل تقريرى كينسى). وقد حاولت أن أدرج البعض منها، حيث إن قلة منها كان له تأثير واسع النطاق. ولم أدرج عادة بعض من الكتب الأحسن مبيعًا الكبرى، مثل بيتون بليس (1956)، أساسًا لأنها دعمت أفكارًا (بل وأحكامًا مسبقة) قائمة بالفعل: وتلك هى وظيفة معظم الكتب الأكثر مبيعًا. وقد صدمتنى رواية ذهب مع الريح، لأسباب ثقافية مختلفة، باعتبارها استثناء من هذه القاعدة ومن ثم فإنها جديرة بأن تضاف إلى القائمة. وفى الغالب الأعم، تجنبت الشعر أيضًا، حتى على الرغم من أننى شخصيًا أعتبر الشعر أهم شكل فى الكتابة. وكانت الأبيات القليلة التى لم أستطع تفاديها فى هذا السياق لوالت هويتمان، وروبرت فروست، وسيلفيا بلاث. والمؤكد أن قائمة أكبر كانت ستضم أميلى ديكنسون، تى اس ايليوت، وولاس ستيفنز من بين آخرين.والقائمة مرتبة زمنيًا.

بارت لومى دى لاس كاس، علاقة قصيرة بتدمير الأنديز (1552)

Bartolomé de Las Casas, A Brief Relation of the Destruction of the Indies (1552)

ذلك تقرير لافح عن المذابح التى ارتكبنها الفاتحون الأصليون للأمريكتين، خاصة فى الكاريبى، كتبها قس كان موجودًا على المسرح بالمعنى الحرفى. وأثر بصورة عميقة على الطريقة التى يُنظر بها إلى غزو العالم الجديد على مرّ القرون. كتب لاس كاساس يقول: «إن ما ارتكبناه فى الأنذير يفوق أشد الآثام غير القابلة للغفران التى ارتكبت فى أى وقت بحق الرب والإنسانية». كما حرر يوميات كريستوفر كولومبس، وهو مصدر آخر للمعلومات عن ذلك العصر.

جون سميث، التاريخ العام لفيرجينيا (1624)

John Smith, the General History of Virginia (1624)

يتضمن هذا التقرير عن إنشاء فيرجينيا قصة بوكا هو نتاس ومساعدتها لسميث والمستوطنين الأُول. ويشيد سميث بموارد العالم الجديد ويغرى جيلًا جديدًا من المستوطنين، الذين وجدوا أن رؤيته جذابة بصورة شاسعة.

توماس مورتون، كنعان الإنجليزية الجديدة (1637)

Thomas Morton, New English Canaan (1637)

دفاع مفعم بالحيوية عن أنشطة مورتون فى ميرى ماونت، ويقدم هذا الكتاب وجهة نظر مؤثرة عن الحياة بين الأمريكيين الأصليين أولاد البلد وتقريرًا مفصلًا عن النباتات والحيوانات فى نيو إنجلند. وكان أيضًا مؤثرًا كعمل سباق فى الإثنوجرافيا.

روجر ويليامز، مفتاح إلى لغة أمريكا (1643)

Roger Williams, A key into the language of America (1643)

كتب هذا التقرير عن العلاقات بين المستوطنين الأول والأمريكيين الأصليين أبناء البلد، مؤسس رود أيلند، وهو عالم لاهوت دعم فكرة الانفصال بين الكنيسة والدولة وهى أيضًا أطروحة لغوية لها أهمية ضخمة.

كوتون ماذر، ماجناليا كريستى أمريكانا (1702)

Cotton Mather, MaGnalia Christi Americana (1702)

يتكون هذا النص الأساس من سبعة «كتب» «صغيرة» تقدم مادة مصدرية لاتقدر بثمن عن الحياة فى نيو إنجلند فى عصر الاستيطان. وقد استند إليه كتاب لاحقون، منهم هاوثورن وهارييت بيتشر ستو. وقد سعى ماذر لفهم مغامرة الاستيطان من زاوية الأفكار التوراتية واعترف بأهمية المكان نفسه فى تشكيل تطلعات البشر.

جوناثان إدواردز، أحاديث عن موضوعات مهمة شتى (1738)

Jonathan Edwards, Discourses on Various Important Subjects (1738)

تلفت هذه العظات الانتباه إلى المستوطنين الأمريكيين الأُول، وساهمت بصورة مثيرة فيما سمى اليقظة الكبرى، وهى حركة إحياء دينى رئيسية اكتسحت الولايات المتحدة وغيرت حيوات أعداد ضخمة من الأمريكيين الأُول.

توماس بين، الحصافة (1776)

Thomas Paine, Common Sense (1776)

كان هذا هو النص الأول الذى يتحدى صراحة الحكم البريطانى فى أمريكا الشمالية. وقد اجتذبت لغة المؤلف الواضحة أعدادًا كبيرة من المستوطنين وأذكت بقوة نيران التمرد.

جى هكتور سانت جون دى كريفكور، خطابًا من مزارع أمريكى (1782).

J. Hector St. John de Crèvecoeur, Letters from an American Farmer (1782).

يضع المؤلف الحلم الأمريكى أمام العالم الأوسع، مصورًا الولايات المتحدة باعتبارها أرض تحقيق الذات حيث يمكن العثور عل فرص متساوية، خاصة على الحدود.

توماس جيفرسون، مذكرات عن ولاية فيرجينيا (1784 - 1785)

Thomas Jefferson, Notes on the State of Virginia (1784 - 1785)

هذا هو كتاب جيفرسون الوحيد المنشور، ويحتوى هذا المجلد على كثير من أفكاره المهمة والمؤثرة عن الحكومة الجمهورية، والبيئة، والتعليم، والعلاقات العنصرية.

جوديث سارجنت موراى، عن المساواة بين الجنسين (1790)

Judith Sargent Murray, On the Equality of the Sexes (1790)

من أوائل النصوص النسوية التى كتبت فى الولايات المتحدة، وكان مثيرًا للجدل ومؤثرًا على حد سواء فى أيامه. وكان هذا العمل التأسيسى فى الفكر النسوى جريئًا وثوريًا.

ويليام بارترام، سفريات عبر شمال وجنوب كارولينا، جورجيا وشرق وغرب فلوريدا (1791)

William Bartram, Travels through North and South Carolina, Georgia, East and West Florida (1791)

ذلك تقرير مبكر عن جنوب شرق أمريكا كتبه عالم مشهور فى التاريخ الطبيعى وكاتب رحّالة. وحظى الكتاب بالشعبية فى كل أرجاء العالم الناطق بالإنجليزية وتحدث عن شعراء إنجليز مثل وردزورث وكوليردج. وشد اهتمام المنطقة وجذب المستوطنين أيضًا.

بارسون ماسون لوك ويمز، حياة واشنطن (1800)

Parson Mason Locke Weems, Life of Washington (1800)

شكلت هذه السيرة المبكرة لجورج واشنطن أسطورة الرجل وحظت بالشعبية طوال قرن. وقد قدمت قصة شجرة كرز، كان يفترض أن يقطعها أب بلادنا. فقال «لا أستطيع أن أقول أكذوبة». وهذه القصة مشكوك فى صحتها، ومع ذلك فلا تزال تشكل جزءًا من مجموعة الأساطير الأمريكية.

واشنطن ايرفنج مسودة كتاب جيوفرى كرايون (1820)
Washington Irving, The Sketch Book of Geoffrey Crayon (1820)

يحتوى هذا المجلد على كل من حكاية «ريب فان وينكل» «وأسطوره التجويف النائم» وقد شكلت هاتان الحكايتان جزءًا من مجموعة الأساطير الأمريكية الأولى. وكان ايرفنج من بين الأصوات الأمريكية الأولى التى تحظى بجمهور أوروبى.

جيمس فينموركوبر، حكايات الجوارب الجلد (1823 - 1841)
James Fenimore Cooper, Leatherstocking Tales (1823 - 1841)

تصور هذه السلسلة المكونة من خمس روايات ناثانيل «ناتى» بومبو، وهو رجل جسور يسكن على الحدود يرتحل غربًا فى كل من هذه المغامرات جيدة السرد. ويتنقل بومبوبين عالمين من المستوطنين الأوروبيين والقبائل الأمريكية من أبناء البلاد الأصليين. وقد شكلت هذه الروايات الشعبية فكرة أمريكا – عن الحياة على الحدود والثقافة الأمريكية الأصلية.

نواه وبستر، قاموس أمريكى للغة الإنجليزية (1828)
Noah Webster, An American Dictionary of the English Language (1828)

كان وبستر مؤلف معاجم رائد، ومصلحًا للهجاء، ومؤلفًا لكتب دراسية. واستغرق استكمال قاموسه المؤثر سبعة وعشرين عامًا. وقد علّمت كتبه فى التهجئة زرقاء الظهر خمسة أجيال من الأطفال الأمريكيين كيف يتهجأون الكلمات.

جوزيف سميث جوينور، كتاب المورمون (1830)
Joseph Smith Jr., the Book of Mormon (1830)

يعتقد المورمون أن هذا الكتاب المقدس عن الإسرائيليين الموسويين الذين ارتحلوا إلى العالم الجديد فى الأزمنة القديمة يمثل ترجمة للألواح الذهبية التى اكتشفها سميث مؤسس دينهم. وهو وثيقة مهمة عن التاريخ الدينى الأمريكى، لاتزال تشكل حياة ملايين المؤمنين.

ليديا ماريا تشايلد، ربة بيت أمريكية مقتصدة (1832)
Lydia Maria Child, The American Frugal Housewife (1832)

كتاب كان يتعين على كل عروس جديدة فى القرن التاسع عشر أن تقرأه، ويقدم هذا الكتاب المرشد أفكارًا مفيدة للطهى ونصائح عن تربية الأطفال ويتناول شواغل منزلية كثيرة. كانت تشايلد نفسها من دعاة إلغاء الرق ومدافعة عن حقوق المرأة، وناقدة للتوسع الأمريكى. وكتبت قصيدة «على النهر وعبر الغابات»

اليكسس دى توكفيل الديمقراطية فى أمريكا (1835 - 1840)
Alexis de Tocqueville, Democracy in America (1835 - 1840)

كتبت هذه الدراسة النيرة للفيلسوف السياسى الفرنسى وعالم الاجتماع الرائد بعد سفرياته المسهبة فى الولايات المتحدة. فقد درس آليات عمل الديمقراطية بحرص وحدد وجود توازن دقيق بين الحرية والمساواة. وقد قدم نقدًا للنزعة الفردية التى تعلى المصلحة الخاصة على كل شىء، وأكد أن توحد الناس من أجل تحقيق الخير المشترك والصالح العام سيوحد الأمة. بيد أن توكفيل شعر بالقلق من جراء صعود المادية فى البلد الوليد ولفت الانتباه للجوانب السلبية لرأسمالية السوق.

رالف والدو ايمرسون، الطبيعة (1836)
Ralph Waldo Emerson, Nature (1836)

لايزال هذا الكتاب من أكثر الأعمال تأثيرًا وقد كتبه فيلسوف أمريكى لاغنى عنه، وكذلك شاعر وكاتب مقالات. وقدم فيه رؤية متسامية للعالم الطبيعى، تكون فيه «الطبيعة هى رمز الروح». وقد اعتبرت أجيال من الشعراء والكتاب عن الطبيعة أن هذا المجلد مصدر رئيسى للإلهام والأفكار.

دبليو اتش ماكجوفى، كتاب القراءة المختار الأول للأطفال (1836)
W. H. McGuffey, The Eclectic First Reader for Young Children (1836)

كان هذا الكتاب الذى يدعى عاده كتاب ما كجوفى للقراءة، وهو مقتطفات أدبية مختارة للقراءة موجهة للمبتدئين، كتابًا دراسيًا معياريًا فى كل أنحاء البلاد خلال سنوات التوسع غربًا وكانت أى مدرسة ابتدائية مكونه حتى من فصل واحد تدرج هذا الكتاب فى صدارة مقررها الدراسى لنحو قرن».

كارولين كيركلاند، بيت جديد - من سيتبع ؟ (1839)
Caroline Kirkland, A New Home - Who'll Follow? (1839)

يقدم هذا التقرير الذى حظى بالشعبية عن إقامة بيت على الحدود فى ميتشجان، نظرة هجائية معتدلة للتوسع غربًا ومحاولات العيش على الحدود. وقد ألهم الوفا على أن يهبوا ويمضوا للغرب.

جون جيمس اودوبون، طيور أمريكا (1840)
John James Audubon, The Birds of America (1840)

كان هذا الكتاب المغلّم «أول طبعة بالحجم المسمى قطع الثمن» من مجلدات عالم التاريخ الطبيعى السبعة، التى تمثل أوصافه ورسوماته المهمة للطيور. ولم يكن لرسوماته الـ 435 بالحجم الطبيعى نظير فى أيامه. وقد عزز أودوبون الاحترام للحياة البرية الأمريكية، ونشط حركة الحفاظ عليها فى لحظة حاسمة مبكرة من تطورها.

جورج كاتلين، أخلاق وعادات و أحوال الهنود فى أمريكا الشمالية (1841)
George Catlin, The Manners, Customs, and Condition of the North American Indians (1841)

تضمنت هذه الدراسة المهمة المبكرة لقبائل سكان أمريكا الأصليين، ثلاثمائة من كليشيهات كاتلين. وفى وصفة «لبلد الجاموس» فى السهول العظمى، يعترف بأن هذه القطعان سيد مرها «التبديد المسرف» الذى يعزى لمجىء الرجل الأبيض.

فريدريك دوجلاس، حكاية حياة فريدريك دوجلاس (1845)
Frederick Douglass, Narrative of the Life of Frederick Douglass (1845)

عمل رنان على نحو حاشد لعبد سابق أصبح من قادة الدعوة لإ لغاء الرق، ومحرر صحف، وكاتب. وقد أعقبت هذه المذكرات سيرتان ذاتيتان أخريان. لقد شهد دوجلاس مؤتمر سينكافولز، حيث وحدت النساء والسود صفوفهما فى محاولة للحصول على حق الانتخاب فى 1848.

مارجريت فولر المرأة فى القرن التاسع عشر (1845)
Margaret Fuller, Woman in the Nineteenth Century (1845)

ساعد هذا العمل على توليد حركة حقوق المرأة، التى كانت بداياتها الرسمية فى المؤتمر السنوى فى سينيكا فولز. وكانت فولر مفكرة متعددة البراعات.

ادخار آلان بو حكايات (1845)
Edgar Allan Poe, Tales (1845)

رسخت هذه المختارات الأخيرة من قصص بو الأساسية مكانته ككاتب مجدد فى التراث القوطى. وقد استمر عمله يؤثر على الكتاب الأمريكيين من اتش بى لوفكرافت إلى جويس كارول اوتس وستيفن كينج. وقد جعلته رواياته البوليسية، «جريمة فى شارع مورج» الأب المؤسس لهذا الضرب نفسه.

فرانسيس باركمان، صور أدبية للمروج، والحياة فى جبال روكى (1847)
Francis Parkman, The Oregon Trail: Sketches of Prairie and Rocky - Mountain Life (1847)

أثر هذا المجلد الذى حظى بالشعبية على كتابة تاريخ السرد القصصى، ووسمت آراء باركمان عن العلاقات بين المستوطنين البيض والأمريكيين أبناء البلاد الأصليين عصرًا فى دراسات الغرب الأمريكى. كان باركمان يعتقد أن الرجل الأبيض كان يمثل مجئ الحضارة وتفوقها على الهمجية. وكانت رؤيته لابن البلد الأمريكى هى أنه «رجل، ذئب، شيطان، الكل فى واحد»، وقد تعرضت هذه الرؤية لنقاش واسع، رغم أنها كثيرًا ما انتقدت أيضًا.

هيرمان ملفيل، موبى ديك (1851)
Herman Melville, Moby Dick (1851)

بطرق كثيرة، فإن هذه أهم رواية أمريكية كتبت فى أى وقت، وهى قصة اشمائيل، البحار، وصيده الحيتان من على ظهر المركب بيكود مع الكابتن آهاب المجنون. وكان هذا هو آخر سرد التحقيق الأمريكى الذى أحدث تداعيات عالمية. ورغم عدم تمتعها بالشعبية فى أيامها. فقد وصلت فى نهاية المطاف إلى وضع العمل الكلاسيكى الأمريكى.

والت هويتمان أوراق العشب (1855)
Walt Whitman, Leaves of Grass (1855)

كانت هذه هى الطبعة الأولى من طبعات كثيرة من عمل الشاعر عميق التأثير، الذى ألهم أجيالًا من الشعراء والكتاب. كان هو الصوت الأصيل للشعر الأمريكى. وفى القرن العشرين استمد الإلهام من شعره، كتاب من ويليام كارلوس وعزرا باوند إلى ثيودور روهكى، آلان جنسبرج، وجاك درو.

هوراشيو، الجير ديك الأشعث، أو، حياة الشوارع فى نيويورك مع سود الفنادق (1868)
Horatio Alger Jr., Ragged Dick; or, Street Life in New York with the Bootblacks (1868)

كانت هذه أول سلسلة من روايات تحظى بشعبية شاسعة عن صعود شاب من الاسمال إلى الغنى من خلال العمل الشاق والمثابرة. وقد كتب الجير، مايربو على مائة رواية من هذا الضرب.

ماري بيكر ايدي العلم والصحة مع دليل إلى الكتب المقدسة (1875)

Mary Baker Eddy, Science and Health with Key to the Scriptures (1875)

كان هذا هو النص التأسيسى لطائفة دينية عرفت باسم العلم المسيحى. وهو يمثل مع كتاب المورمون بدعة من البدع الدينية الكثيرة للعالم الجديد. ويحتوى هذا العمل على وحى ايدى عن «قوانين الحياة والحقيقة والحب الالهية».

جويل تشاندلر هارس العم ريموس (1880)

Joel Chandler Harris, Uncle Remus (1880)

هذا هو الكتاب الأول من سبعة كتب تصور العم ريموس، وهو راو أسود لحكايات شعبية من تراث قصص المحتالين الأمريكيين الأفريقيين. والشخصية الأساسية هى برير رابت، وهو يفوق فى الذكاء من يعترضون طريقه. ورغم أن الكثيرين اعتبروا هذه القصص باعثة على الغثيان فى السنوات اللاحقة لتشجيعها المواقف المعادية للسود وقبول المؤلف للعبودية، فإنها كانت تقرأ على نطاق واسع فى أيامها وعكست نسخة من عامية السود فى الجنوب.

ويليام جيمس، مبادئ علم النفس (1890)

William James, The Principles of Psychology (1890)

أثرت هذه الدراسة التأسيسية على هذا المجال منذ أن ظهر مجلداها الضخمان لأول مرة. كان جيمس يعتقد أن الوعى يؤدى وظيفته بطريقة هادفة لتنظيم الأفكار، وبذلك فإن نهجه سمى بالوظيفية، على النقيض من الترابطية التقليدية التى كانت سائدة فى هذا الوقت. كذلك كان جيمس هو مؤسس مدرسة البراجماتية الأمريكية الفلسفية (كما ارتبط بجون ديوى، ومؤخرًا بريتشارد رورتى). وكانت آثار عمله ممتدة الأرجاء بحيث يمكن للمرء أن يضع العديد من كتبه فى هذه القائمة، بما فى ذلك، **تباينات التجربة الدينية** (1902)، وهو دراسة مولدة للأفكار عن المشاعر والخبرة الدينية.

الفريد ثاير ماهان تاثير قوة البحر على التاريخ (1890)
Alfred Thayer Mahan, the Influence of sea Power upon History (1890)

شكلت هذه الدراسة شديدة التدقيق تفكير تيودور روزفلت، الذى تبلورت أفكاره عن التوسع العالمى وهو يقرأ كتاب ماهان. وظلت عملًا أساسيًا فى التاريخ العسكرى الأمريكى. ويمكن إرجاع فكرة الامبراطورية الأمريكية جزئيًا، إلى هذا العمل المولد للأفكار.

بوكر تى واشنطن خروجًا من العبودية (1901)
Booker T. Washington, Up from Slavery (1901)

انتقد هذه السيرة الذاتية الملفتة للانتباه دبليو إى بى دوبوا فى أرواح جماعة السود، ومع ذلك تظل تقريرًا كلاسيكيًا عن صعود واشنطن المدهش من العبودية إلى تأسيسه معهد تاسكجى. كان واشنطن يؤيد فكرة أن على الأمريكيين الأمريكيين أن يشقوا طريقهم الخاص بأنفسهم، ولا يطلبون العون من المجتمع الأبيض.

السيرز، كتالوج سيرز، رويبوك (1902)
The Sears, Roebuck Catalog (1902)

كانت هذه هى الطبعة الأولى من هذا الكتالوج المهم، الذى زود الأمريكيين من نيويورك وبوسطن إلى الغرب البرى بحشد جم من السلع. وكان هذا الكتالوج سلفًا لطائفة من كتالوجات طلب السلع بالبريد التى تتخم صناديق البريد حاليًا، رغم أن البعض من هذه يتم إرسالها بالإنترنت. لكنها جميعها بدأت بكتالوج سيرز آند رويبوك، سحرة التسويق الأصليين.

اوتبون سنيكلر الأدغال (1906)
Upton Sinclair, The Jungle (1906)

هذه الرواية هى تحقيق يسعى لفضح فظائع أحوال الفقراء فى أمريكا ويصف بالتفصيل أهوال صناعة تعبئة اللحوم. وقد أدى إلى إصدار قانون الغذاء والدواء وكذلك قانون التفتيش على اللحوم فى (1906).

تشارلس الكسندر ايستمان أيام الهنود الخوالى (1907)

Charles Alexander Eastman, Old Indian Days (1907)

كتب ايستمان وهو من أبناء قبيلة السيوكس، وعالم فيزياء ومصلح، عدة كتب مؤثرة كشفت تفاصيل حياة أبناء البلاد الأمريكيين الأصليين لجمهور أمريكى واسع. وهذا كتاب للأساطير، وهو مهم كعمل فى علم الأثنوجرافيا، وكعمل صانع للأساطير.

جين آدمز عشرون عامًا فى هال - هاوس (1910)

Jane Addams, Twenty years at Hull - House (1910)

عمل كلاسيكى فى علم الاجتماع والتاريخ الثقافى الأمريكى، وهو تقرير سيرة ذاتية متحركة عن عمل آدمز فى هذا المجال، يقدم دليلًا للتطبيق العملى. وقد ساعد فى تشكيل فكرة العمل الاجتماعى كعلم وتطبيق.

جون موير، صيفى الأول فى سييرا (1911)

John Muir, My First Summer in the Sierra (1911)

أسر هذا الكتاب اهتمام الرئيس تيدى روز فلت لحد أنه ذهب للتخييم فى سييرا مع موير، وبدأ الحديث عن إنشاء إدارة المتنزهات القومية. وقد حرّك كتاب موير الجميل - وهو نص أول فى الكتابة الأمريكية عن الطبيعة - حركة الحفاظ على الطبيعة.

جيمس ويلدون جونسون، سيرة رجل ملون سابق (1912)

James Weldon Johnson, The Autobiography of an Ex-Colored Man (1912)

نشر جونسون، وهو شاعر رقيق، روايته هذا (فى شكل سيرة ذاتية) باسم مجهول فى وقت كان فيه وعى الأمريكيين الأفارقة قد بدأ فحسب فى التعامل مع تعقيدات القضية العنصرية بطرق معقدة. وأعيد نشره فى (1927)، باسم المؤلف، عندما بدأ كتاب نهضة هارلم تغيير مسار الأدب الأمريكي. وهو يقدم تأملًا ساخرًا فى الأحكام المسبقة فى الجنوب عقب حركة التعمير ويمثل إثارة مسبقة لمشكلة «اجتياز» «الامتحان» كأبيض.

تشارلس أ. بيرد، تفسير اقتصادى لدستور الولايات المتحدة (1913)

Charles A. Beard, An Economic Interpretation of the Constitution of the United States (1913)

تعرض هذه النظرة الراديكالية لدستور الولايات المتحدة الدوافع الاقتصادية لدى مؤسسيه الأصليين. ويميز بيرد وجود تضارب مصالح بين الطبقات المالكة للأرض والطبقات التجارية بين الآباء المؤسسين. كان قائدًا فى المدرسة التقدمية، التى ضمت مؤرخين لاحقين مثل سى فان وودوارد. كما كان كتاب بيرد المعنون صعود الحضارة الأمريكية (1927–1942) مؤثرًا أيضًا.

روبرت فروست، شمال بوسطن (1914)

Robert Frost, North of Boston (1914)

بين فروست أن الشعر يمكن العثور عليه، بوفرة فى الحديث اليومى للمزارعين غير المتعلمين من شمال نيو إنجلند. وهو يستدعى رؤية للطبيعة، وحياة المزارعين، أثرت بصورة دائمة على فهمنا لهذا الإقليم، ولفكرة «الإقليمية» نفسها.

جون ديوى، الديمقراطية والتعليم (1916)

John Dewey, Democracy and Education (1916)

كان ويليام جيمس وحده هو الأكثر تأثيرًا كفيلسوف أمريكى وقد غيرّ (ديوى الأفكار المتعلقة بالتعليم الأمريكى أيضًا، عندما أكد أن الطلاب يجب عدم تعليمهم «حقائق ميتة» بل المواد التى تشكل جزءًا من حياتهم. كان مفكرًا تقدميًا فى مجالات كثيرة، منها علم النفس والأنثروبولوجيا الاجتماعية. وكان دوره حاسمًا فى تطور البراجماتة الأمريكية.

اتش إل منكن اللغة الأمريكية (1919)

H. L. Mencken, The American Language (1919)

تلك دراسة رائدة سباقة لما أصبح اللغة الإنجليزية، فى أفواه المتحدثين الأمريكيين بها. ويؤكد منكن أن الأمريكيين غيروا اللغة، وأعطوها حياة جديدة. ودافع مثله مثل نواه وبستر عن «الأمريكانية» التى سخر منها النقاد الإنجليز عادة. وكان مارك توين من بين أبطاله.

فريدريك جاكسون تيرنز الحدود فى التاريخ الأمريكى (1920)
Frederick Jackson Turner, the Frontier in American History (1920)

يتضمن هذا المجلد المحورى فى التاريخ الأمريكى محاضرة تيرنز المشهورة عن «أهمية الحدود فى التاريخ الأمريكى» (1893)، التى قدمت «أطروحة عن الحدود» مشهورة تقول أن الحدود الأمريكية كانت مصدر كل الطاقة والابتكار. وكانت عواقب الوصول «لنهاية الحدود» مثيرة للقلق وحفزت بعض معجبى تيرز، مثل تيدى روزفلت للتفكير فى التوسع الإمبريالى كوسيلة للإبقاء على الحدود.

سنكلير لويس، بابيت (1922)
Sinclair Lewis, Babbitt (1922)

تقدم هذه المقطوعة الهجائية لمؤلف مين ستريت الذى كان يحظى بالشعبية، صورة مدمرة عن بائع عقارات أمريكى تكذب هالة نجاحه خواءه وحزنه الداخليين. ونادرًا ما كانت تطرح القيم التجارية وتحلل بحيوية أكبر منها فى هذا العمل. وكان لويس من أكبر مصورى الحياة الأمريكية تأثيرًا فى العقود الأولى من القرن العشرين.

ايملى بوست، الإتيكيت فى المجتمع والأعمال والسياسة والبيت (1922)
Emily Post, Etiquette in Society, in Business, in Politics, and at Home (1922)

ظل هذا الكتاب من أفضل الكتب مبيعًا عقود طويلة، يرشد ملايين الأمريكيين من الطبقات الوسطى الساعين للصعود لأعلى بتعليمهم كيف يتصرفون «بطريقة صحيحة». و يواصل معهد إيملى بروست تقديم النصيحة حول طريقة التصرف فى طائفة واسعة من الموضوعات.

بروس بارتون الرجل الذى لايعرفه أحد (1925)
Bruce Barton, The Man Nobody Knows (1925)

يصور بارتون وهو مؤسس وكالة كبرى للإعلان، فى هذا الكتاب الأفضل مبيعًا المسيح عيسى كالبائع الجوال الأخير، فى نموذج لدور رجل الأعمال الناجح. وهنا يكمن النص التأسيسي فى الدين الأمريكى لتحسين الذات وتحقيق التقدم المادى.

الين لوك، الزنجى الجديد (1925)

Alain Locke, The New Negro (1925)

تقدم هذه المقتطفات الأدبية الرائدة للقراء والكتاب، حركة النهضة فى هار لم، وهى حركة بين الكتاب الأمريكيين الأفارقة ضمت لانجستون هيوز، كونتى كولن، وكلود ما كاى. وقد كتب لوك فى مقاله التمهيدى يقول: «فى العقد الأخير، حدث شىء فى حياة الزنجى الأمريكي يخرج عن نطاق مشاهدة ومراقبة الإحصاءات».

إرنست هيمنجواى، الشمس تشرق أيضًا (1926)

Ernest Hemingway, The Sun Also Rises (1926)

أول (وربما) أعظم رواية لهيمنجواى، تصور مجموع مغتربة من الأمريكيين فى الخارج، أعضاء ماسمى الجيل الضائع. وقد أضفى هيمنجواى طابعًا ثوريًا على النثر الإنجليزى، نازلًا به إلى الأساسيات المحضة. وهى تحفة فنية حديثة لاتزال تؤثر على الكتاب، ومنهم رايموند كارفر وآن بيتى.

مارجريت سانجر السعادة فى الزواج (1926)

Margaret Sanger, Happiness in Marriage (1926)

كانت سانجر نصيرًا سباقًا لتعليم الجنس والحد من المواليد. وربما كان هذا أكثر كتبها شيوعًا. ولاتزال شخصية معبودة فى حركة حقوق الإنجاب، وقد أدت أفكارها مباشرة إلى رفع قضية روز ضد ويد (1973). وأدى عملها المبكر فى تنظيم الأسرة إلى إنشاء حركة الأبوة المنظمة.

تشارلس ايه لندبرج، «نحن» (1927)

Charles A. Lindbergh, "we" (1927)

هذه أشهر قصة خاصة لطيار، ألهمت أجيالًا من القراء، وكان لها عنوان فرعى هو قصة حياة مرموقة لطيار جرئ وتقريره عن الطيران عبر الأطلسى الذى هزّ العالم. هنا ويتنبأ لندبرج بمستقبل الطيران ويرسخ مكانته كنموذج لدور الأمريكيين الذين يستطيعون عمل أى شىء.

روبرت وهيلين ليند وسط المدينة (1929)

Robert and Helen Lynd, Middletown (1929)

وفّر هذا العمل المعْلَم فى علم الاجتماع الأمريكى رائدًا فى مجال استخدام المسوحات الاجتماعية نموذجًا للكتاب اللاحقين فى هذا المجال. لقد «اكتشف» آل لندن فضيحة الطبقة

فى الولايات المتحدة، مؤكدين أن طبقة رجال الأعمال تعمل بأفكار، وأن طبقة العمال تعمل بأشياء. ونظر هذا الكتاب للإنتاج الكبير بطرق لاتزال تؤثر على التفكير فى تشكيلة من العلوم الاجتماعية. وقد تبعه كتاب وسط المدينة فى مرحلة انتقال.

ايرما وماريسون رومباور، متعة الطبخ (1931)

Irma and Marison Rombauer, The Joy of Cooking (1931)

نشرت ايرما رومباور وهى أرملة فى سانت لويس هذا الكتاب بنفسها، مع رسومات لابنتها. وأعقب ذلك نشر ثمان طبعات كبرى، مما جعله من أنجح كتب الطبخ فى كل الأوقات. وقد تعلم عشرات الملايين من الأمريكيين كيفية الطهى من السيدة رومباور.

رينهولد ينبور رجل لديه أخلاق ومجتمع بلا أخلاق (1932)

Reinhold Niebuhr, Moral man and Immoral Society (1932)

أحدث نيبو وهو ناقد لاهوتى واجتماعى كبير تأثيرًا متميزًا على الهوية الأمريكية خلال الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات. وقد حدده مارش لوثر كينج باعتباره صاحب تأثير رئيسى. وأحدثت واقعيته السياسية صدى كبير حيث إنه اعتمد موقفًا معارضًا تجاه الفكر التقدمى، طالبًا من القراء أن يضعوا فى أذهانهم الصعوبات التى تجرها على البشرية نوازعها الطبيعية. وكان لنيبور تأثير كبير على المخططين الأمريكيين فى عصر ما بعد الحرب، واستمر عمله يثير اهتمام حشد واسع من الشخصيات، منها باراك أوباما، الذى ذكر نيبور كواحد من المفكرين المفضلين لديه.

مارجريت ميتشل ذهب مع الريح (1936)

Margaret Mitchell, Gone With the Wind (1936)

يدور هذا الكتاب وهو من أحسن الكتب الأمريكية مبيعًا فى كل الأوقات، حول الجنوب القديم والحرب الأهلية (وآثارها)، وكان له قوة الأسطورة فى تغيير القراء. فقد ألهمت سكارليت أوهارا جيلًا من النساء. ويعد الفيلم المأخوذ من الرواية (1939) من أكثر الأفلام حظوة بالمشاهدة والإعجاب فى تاريخ هوليود. وقد كانت نتائجه بلا نهاية، وتوجتها مؤخرًا رواية أشخاص رهيت باتلر لدونالد ماكيج (2007). فهل ستنتهى النتائج فى أى وقت.

زورا نيل هورستون أعينهم كانت تراقب الرب (1937)
Zora Neale Hurston, Their Eyes Were Watching God (1937)

كانت هورستون وهى شخصية قيادية ارتبطت بحركة نهضة هارلم، عالمة انثروبولوجيا اجتماعية وفولكلور حشدت كل مواهبها لتنتج هذه الرواية، التى أصبحت عملًا محوريًا فى الأدب الأمريكى الأفريقى. ولاتزال توجه الفكر بشأن الثقافة السوداء فى الولايات المتحدة، حيث حظت بالشعبية فى المدارس والجامعات عقودًا طويلة.

جون شتاينبك عنا قيد الغضب (1939)
John Steinbeck, The Grapes of Wrath (1939)

لاتزال رواية شتاينبك عن الطريق من بين الأعمال الرئيسية عن الكساد الكبير، وهى كتاب نبه الأمريكيين، جاذبًا اهتمامهم لمحنة مايسمى الأوكى - المهاجرين من أوكلاهوما الذين شقوا طريقهم عبر جبال روكى إلى كاليفورنيا. وأدت الرواية لصدور تشريع فى الكونجرس أفاد العمال المهاجرين.

جيمس آجى، دعونا الآن نشيد بالرجال المشهورين (1941)
James Agee, let Us Now Praise Famous Men (1941)

يحوى هذا الكتاب القوى عن مزارع بالمشاركة أبيض فى الجنوب خلال الكساد، صورًا فوتوغرافية مثيرة للإعجاب لووكر ايفانز ونصًا لآجى. لقد خرج آجى من حدود الصحافة، وكتب نثرًا محكم النسيج يخلط الاثنوجرافيا بالشعر. وهو يقدم نموذجًا أصليًا لما يسمى الصحفيين الجدد.

فريدريك فون هايك الطريق إلى الرق (1944)
Friedrich von Hayek, The Road to Serfdom (1944)

قام عالم الاقتصاد الاسترالى هذا بالتدريس سنوات كثيرة فى جامعة شيكاغو. وقد أحدث ثورة ألهمت عدة أجيال من المفكرين المحافظين والمؤيدين لحرية الإرادة، منهم ميلتون فريدمان ورونالد ريجان. وفكرته الأساسية هى أن الجماعية تؤدى حتمًا للطغيان، مثلما حدث فى الاتحاد السوفيتى وألمانيا النازية. وهو يعد مدافعًا متحمسًا عن اقتصادات السوق.

ريتشارد رايت الصبى الأسود (1945)

Richard Wright, Black Boy (1945)

تصف هذه المذكرات الأسرة عن الصبا والشباب تقدم المؤلف من البراءة إلى الخبرة فى الجنوب. وهو عمل كلاسيكى من أعمال السيرة الذاتية الأمريكية، وكذلك كتاب أوحى بالاحتجاج ولعب دورًا فى تغيير الجنوب، بما فى ذلك حركة حقوق الإنسان.

جون هيرسى، هيروشيما (1946)

John Hersey, Hiroshima (1946)

فى أغسطس 1946، كرست صحيفة النيو يوركر عددًا بكامله لتقرير هيرسى التفصيلى عن آثار إلقاء القنبلة الذرية على مدينة هيرو شيما فى اليابان. وسرعان، ما أصبح المقال كتابًا يفصّل حياة ستة أفراد تأثروا بالقنبلة. وصُدم الرأى العام بصورة عميقة، وبذرت بذور بداية حركة نزع السلاح النووى. ولايزال الكتاب يذكر عادة من قبل المناضلين المعادية للأسلحة النووية.

تقريرا كينسى (1948و 1953)

The Kinsey Reports (1948, 1953)

تقريران عن السلوك الجنسى للذكور والإناث كتبه الدكتور الفريد كينسى، واردل بوميروى، وآخرون. وقد صدم هذان التقريران الرأى العام، الذى لم ينظر أبدًا من قبل فى نوافذ غرف نوم الجيران عن كثب بهذا القدر. و يمثل هذان التقريران اللذان أثارا جدلًا حاميًا فى أيامهما، الومضة الأولى لما أصبح الثورة الجنسية.

توماس ميرتون جبل من سبعة طوابق (1948)

Thomas Merton, The Seven Storey Mountain (1948)

تتبع هذه السيرة الذاتية الشعرية بصورة عميقة تحول شاب إلى الكاثوليكية والتزامه بحياة الرهبنة. وهو كتاب مدهش من أحسن الكتب مبيعًا، ولايزال يؤثر على من يبحثون عن التوجيه الروحى.

جور فيدال المدينة والعمود (1948)
Gore vidal, The City and the Pillar (1948)

أثار هذا الكتاب الأفضل مبيعًا لفيدال الشاب فضيحة باعتباره رواية من أولى الروايات الكبيرة التى تتناول اللواط صراحة. ينبغى قراءتها بالترادف مع مقال فيدال عن موضوع اللواط «المثلث الوردى والنجم الأصفر». وقد ساعدت هذه الرواية فى طرح موضوع حياة الشواذ على جمهور أعرض.

نوربرت ونير السبرنا طيقا، أو السيطرة والاتصالات فى الحيوان والآلة (1948)
Norbert Wiener, Cybernetics; or, Control and Communication in the Animal and the Machine (1948)

أسس ونير وهو عالم فى الرياضيات، مجال السبرنا طيقا، الذى أضفى طابعًا نظاميًا على فكرة التغذية المرتدة. وكانت تداعيات هذا العمل عميقة فى عدد من المجالات، بما فى ذلك الهندسة، والسيطرة على النظم، وعلم الحاسب الآلى، والبيولوجيا.

جوزيف كامبل بطل بألف وجه (1949)
Joseph Campbell, The Hero with a Thousand Faces (1949)

قدم هذا العمل المولد للأفكار أنموذجًا للحبكات، من الأساطير وقصص البطولة القديمة إلى الرواية الحديثة، متتبعًا دورة رحلة البطولة وكان له تأثيره الكبير فى الدراسات الأدبية وفى الفنون، بما فى ذلك تأثيره على صناع أفلام مثل جورج لوكاس وسلسلة أفلام عن حرب النجوم.

جى دى سالينجر الصياد فى راى (1951)
J.D. Salinger, The Catcher in the Ray (1951)

يغرس هذا العمل المفضل على الدوام لدى القراء المراهقين نوعًا من مواقف التمرد الدائم فى النفسية الأمريكية. وقد رفض هولدن كولفيلد «زيف» حياة البالغين. وتوقعت الرواية مواقف تعهدها كتاب حركة النبضة ووجدت تعبيرها المتأخر لدى بوب ديلان وأبطال الثقافة المضادة.

رالف اليسون، الرجل الخفى (1952)
Ralph Ellison, Invisible Man (1952)

رواية مؤثرة لواحد من أرق الكتاب السود فى القرن العشرين، وهى تتناول مسائل هوية الأسود، وتحكى قصة رجل أسود «خفى» لكنه متعلم جيدًا عميق التفكير لأقصى حد ظل بلا اسم فى وجه العداء والتحامل. وأضافت الرواية قدرًا كبيرًا من الفروق الدقيقة للجدل المعقد الدائر حول هوية الأمريكى الأفريقى. ويؤكد اليسون أن التعليم لم يساعد بطله الخفى فى التغلب على التحامل، وقد ادعى لاحقًا أنه لم يكتب هذا الكتاب من أجل عرض رؤاه عن المشاكل لكنه كتبه ببساطة كعمل فنى.

نورمان فنسنت بيل قوة التفكير الإيجابى (1952)
Norman Vincent Peale, The Power of Positive Thinking (1952)

كان بيل راعيًا فى كنيسة كلية ماربل فى مانهاتن لما يربو على نصف قرن، وكتابه تقريبًا من فئة كتاب ديل كارنيجى كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر على الناس. وقد تصدر قائمة الكتب الأحسن مبيعًا سنوات كثيرة وألهم جيلًا من الأمريكيين لينظروا إلى الجانب المشرق.

بى اف سكينر العلم وسلوك الإنسان (1953)
B F. Skinner, Science and Human Behavior (1953)

أعاد سكينر وهو شخصية حاسمة فى علم النفس الحديث توجيه مجال علم النفس، خالقًا صندوق سكينر الشهير، حيث درس سلوك الحيوانات. وهو فى كتابه، ينظر فى المؤسسات الإنسانية، مثل الحكومة والدين باعتبارها وكالات «للسيطرة» وقد سعى بنهج سكينر لوضع علم النفس فى منزلة علمية وطيدة. ربما فشل فى ذلك، لكن كتابه لايزال واسع التأثير.

نعوم تشومسكى، البنى اللغوية (1957)
Noam Chomsky, Syntactic structures (1957)

غيرّ هذا الكتاب الفريد لوحده والذى وضعه أحد المفكرين الأمريكيين الكبار، علم اللغة للأبد، لكن تأثيره تجاوز كثيرًا المجال الأكاديمى الضيق. فقد استحدث تشومسكى نهجًا لدراسة اللغة نفسها وكيف يكتسب العقل البشرى المعرفة فعلًا. وكانت لعمله أثار

بعيدة المدى، امتدت للعلوم الاجتماعية أيضًا. كما كان لتشو مسكى تأثيره الواسع كناقد للسياسة الخارجية الأمريكية، بدءًا بكتابه قوة أمريكا. والأباطرة الجدد (1969)

آلان واتس طريقة الزن (1957)
Alan Watts, The Way Zen (1957)

رغم أن دى تى سوزوكى هو الذى جاء بتعاليم بوذية الزن إلى أمريكا، فقد كان واتس هو الذى جعل هذا التراث الروحى شعبيًا. وأثر كتابه الميسور هذا على جيل أو أكثر من ملتمسى الخلاص الروحى.

جون كينث جالبريث مجتمع الوفرة (1958)
John Kenneth Galbraith, The Affluent Society (1958)

جعل جالبريث أفكاره عن علم الاقتصاد فى متناول الجمهور العريض فى كتابه المؤثر هذا، الذى يقدم نقدًا للرأسمالية الحديثة، ملاحظًا كيف يخلق الإعلان بصورة مصطنعة جمهورًا للسلع والخدمات المنتجة على نطاق كبير. وقد بدأت عبارة «الحكمة العرفية» على يد جالبريث فى هذا الكتاب. ويتأمل المؤلف المشكلة الدائمة للثروة والفقر، ويطالب بحكومة تنفق على التعليم والرعاية الصحية.

ويليام سترونك جوينور، عناصر الأسلوب (1959)
William Strunk Jr. and E. B. White, The Elements of Style (1959)

قام سترونك الأستاذ بجامعة كورنيل بنشر هذا الكتاب الصغير بنفسه، فى 1918. وقد أحدث تأثيرًا قليلًا، ولكن عندما وافق هوايت على تنقيحه، فى آواخر الخمسينيات، أصبح الكتاب من أفضل الكتب مبيعًا. وبنهجه المتدرج نزولًا إزاء النحو والأسلوب، أثر هذا المجلد التمهيدى على أجيال من طلاب المدارس الثانوية والكليات وهم يحاولون التمكن من أساسيات الكتابة.

جوزيف هيلر ضع غير معقول (1961)
Joseph Heller, Catch-22 (1961)

تتبع هذه الرواية، التى تدور فى المراحل الأولى من الحرب العالمية الثانية، مسيرة قاذف قنابل سيىء الطالع وبطل زائف فى خضم هذه الرواية التى تأسر القارئ. ومثل رواية على الطريق. فإنها تغير المواقف، مبرزة عبث الحرب والمنظمات الكبيرة، وتهاجم النظام نفسه باعتباره عبثًا.

هيلين جيرلى براون، الجنس والفتاة العزباء (1962)

Helen Gurley Brown. Sex and the Singl Girl (1962)

مرحبًا بالثورة الجنسية. تؤكد براون أن «الحياة الغنية والمليئة للمواعدة الغرامية» لا تتطلب الثروة أو الجمال. وتنصح الشابات بأن يتصرفن بما لديهن ولا يستسلمن أبدًا. إن السعى للمتعة الجنسية، والنجاح والمرح الجيد لم يكن معبأ بهذه الدقة أبدًا من قبل. وقد استغرق الأمر عقدًا لكى يقدم كتاب متعة الجنس (1972) لأليكس كوفورث كل التفاصيل، فى حالة ما إذا كان لدى أى أحد شك فى كيف تتسق الأجزاء معًا.

راتشيل كارسون، الربيع الصامت (1962)

Rachel Carson, Silent Spring (1962)

استهل هذا الكتاب الحركة الحديثة للبيئة فى الولايات المتحدة. وأثار قلقًا وطنيًا بشأن استخدام مبيدات الآفات وعجل بصدور تشريع يسعى للحد من التلوث. وقد اتهم كارسون الصناعة الكيميائية بنشر الأكاذيب حول آثار مبيدات الآفات على البيئة.

ميلتون فريدمان الرأسمالية والحرية (1962)

Milton Friedman, Capitalism and Freedom (1962)

يعرض فريدمان الطرف المقابل للقطب الذى يمثله جالبريث، وفى هذا العمل المؤثر فى علم الاقتصاد، ينظر فريدمان (الحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد) فى عمليات الرأسمالية فى إطار مجتمع ديمقراطى. وفى رأيه أن السوق الحرة ضرورية لنجاح المجتمع. وقد ساعد الكتاب فى تشكيل الفكر المحافظ فى الولايات المتحدة وكان أساسًا لسياسة ريجان الاقتصادية وعواقبها.

مايكل هارينجتون الفقر فى الولايات المتحدة (1962)

Michael Harrington, The Other America: Poverty in the United States (1962)

دراسة محورية عن الفقر فى الولايات المتحدة، وقد قرأها لندون. بى جونسون وأسهمت فى وضعه لسياسة «الحرب على الفقر». وكان لهذا الكتاب تأثيره الواسع على الدوائر التقدمية عدة عقود. ويمكن إرجاع الرعاية الطبية، والمساعدة الطبية، وطوابع الطعام إلى دعوة هارينجتون للاستيقاظ.

توماس اس كون هيكل الثورات العلمية (1962)
Thomas S. Kuhn, The Structure of Scientific Revolutions (1962)

يطرح هذا التقرير عميق التفكير بصورة متقدة عن كيف يعمل العلم فعليًا،ويحاجّ بمايسميه المؤلف «تحولات النموذج»، أى أن التقدم العلمى لايسير فى خط مستقيم وعلى نحو متصلب. ويمكن قياس تأثير هذا الكتاب بالتحولات فى الأداء والأسلوب داخل المجتمع العلمى التى يمكن إرجاعها إليه. وعادة ما يشير الفلاسفة وعلماء الاجتماع إلى عمل كوهن.

سيلفيا بلاث، آرييل (1965)
Sylvia Plath, Ariel (1965)

صدمت الأصالة شديدة الوضوح لهذه القصائد، وفضحها للنفس عارية، والتقويم المغيظ لحياه على الحافة، جيلًا وحركة، ولاتزال بلاث تلهم القراء وترعبهم. وقد تمت محاكاة أسلوبها فى شعر الاعتراف على نطاق واسع.

جيمس دى واتسون اللولب المزدوج (1968)
James D. Watson, The Double helix (1968)

يفسر هذا الكتاب الذى ألفه عالم بيولوجيا جزيئية رائدًا ساعد فى اكتشاف هيكل الحمض النووى، للعالم، ما الذى كان على المحك وكيف تحقق هذا الاكتشاف. وبالكاد يمكن سبر أغوار تداعيات هذا الاكتشاف حيث بدأ الطب فى استخدام العلاج بالجينات.

كتالوج الأرض بأسرها (1968)
Whole Earth Catalog (1968)

نُشر هذا الكتالوج المسهب الذى حرره ستيوارت براند، من بين آخرين، مرتين سنويًا من 1968 إلى 1972، وينشر دوريًا بعد ذلك وهو يبلور حركة الثقافة المضادة فى الولايات المتحدة. مروجًا لصيغ أولى من أفكار العودة للأرض والدعوة البيئية. وكان القصد منه التعليم و «الحصول على أدوات» وقد وصف ستيف جوب مؤسس شركة آبل هذا لكتالوج بأنه كان البشير بمحرك البحث على الإنترنت.

أوراق البنتاجون (1971)
The Pentagon Papers (1971)

تكشف هذه الأوراق فائقة السرية التى سربها دانييل السبرح إلى النيويورك تايمز ونشرتها مطابع بيكون، والتى أعدتها وزارة الدفاع، قدرًا كبيرًا من التفاصيل عن الطريقة

التى تم بها خوض حرب فيتنام. فقد بينت مثلًا أنه فى حين كان الرئيس لندون بى جونسون يدعى أنه لايصعد الحرب، كان يوسع سرّ انطاق الضربات الجوية ضد لاوس ويقوم بغارات على ساحل شمال فيتنام. وقد أذكت هذه الأوراق الحركة المعادية للحرب خلال سنوات حكم نيكسون ووسعت على نحو دائم مايسمى بفجوة المصداقيه بين الحكومة والرأى العام الأمريكى.

روبرت سى اتكنز ثورة الدكتور اتكنز فى مجال الحمية (1972).
Robert C. Atkins, Dr. Atkins' Diet Revolution (1972).

هو واحد من عدة كتب رئيسية فى مجال الحمية التى غيرت عادات الأكل لدى الأمريكيين. وقد ركز اتكنز على نحو مشهور على الغذاء منخفض الهيدروكربونات، مما أثر على كتب الحمية اللاحقة، التى قدمت صيغًا من حميته. وقد اتخذ كتاب جين برودى للغذاء الجيد (1985) نهجًا مختلفًا مركزًا على الأغذية عالية الكربونات، عالية الألياف. وكلا الطريقتين تتعلقان بالسعرات.

أجسامنا، أنفسنا (1973)
Our Bodies, Ourselves (1973)

ألفت هذا الكتاب المتعلق بصحة المرأة والنشاط الجنسى جمعية بوسطن لكتب صحة المرأة وكان نهجه إزاء قضايا مثل الحد من المواليد والنوع الاجتماعى ثوريًا فى زمنه، ولايزال الكتاب يمثل دليلًا مرشدًا مفيدًا للمرأة. إنه من الكلاسيكيات النسوية.

كارل برنشتى وبوب وودوار، كل رجال الرئيس (1974)
Carl Bernstein and Bob Woodward, All the President's Men (1974)

كان هذا أن المراسلان الصحفيان المقاتلان من صحيفة الواشنطن بوست هما اللذان أطاحا بالرئيس نيكسون فى فضيحة ووترجيت. وقد ألهم تقريرهما عن كيف استطاعا القيام بذلك جيلًا من صحفي التحقيقات.

آنى ديلارد، مهاجر عند خليج تنكر الصغير (1974)

Annie Dillard, Pilgrim at Tinker Creek (1974)

يصف هذا الكتاب وهو من أحدث تراث الكتب المماثلة لكتاب ثورو المسمى والدن، رحلة مرموقة للعودة للأرض نفسها، بأبعاد روحية تتكشف مع اطراد السرد. وقد ساعد هذا

الكتاب فى إذكاء اهتمام جديد بما كان يسمى على نحو فضفاض الكتابة عن الطبيعة. وقد أصبح عن استحاق عملًا كلاسيكيًا معاصرًا.

اليكس هيلى، الجذور: ملحمة أسرة أمريكية (1976)
Alex Haley, Roots: The Saga of an American family (1976)

تتبع هيلى جذوره الأسرية عودة لقروى أفريقى عرف باسم كوكنتا كنتى، أسره تجار العبيد فى أواخر القرن الثامن عشر وحملوه للعالم الجديد. وقد أيقظت هذه الرواية المدهشة عن العبودية وتراثها الكثيرين وكشفت لهم تاريخها المؤلم ولكن النبيل أيضًا بطريقة لم يحققها أى عمل آخر. وقد عزز تأثير الكتاب، عرضه مسلسلًا فى التليفزيون. ولايمكن تقدير تأثيره الشامل على جيل من الأمريكيين الأفارقة.

ادريان ريتش عمّن ولدت امرأة: الأمومة كتجربة وكمؤسسة (1976)
Adrienne Rich, Of Woman Born: Motherhood as Experience and Institution (1976)

تنظر هذه الدراسة التى قامت بها شاعرة كبيرة عن الأمومة فى تجربتها الخاصة وفى مؤسسة الأمومة نفسها. وقد جعلت أبحاثها والطريقة التى استخدمت بها المواد التى توصلت إليها من هذه الدراسة المعلم، هذه الدراسة نصًا أساسيًا فى الحركة النسوية.

التدخين والصحة : تقرير الجراح العام (1979)
Smoking and Health: A Report of the Surgeon General (1979)

أدى هذا التقرير الصحى المهم جدًا الصادر من مكتب الجراح العام مباشرة إلى تقليل التدخين الأمر الذى كان له تأثير ضخم على الصحة فى الولايات المتحدة. وقد ربط التدخين بالسرطان، وأمراض القلب، وغير ذلك من المشاكل الصحية.

جين فوندا كتاب تمرينات جين فوندا (1981)
Jane Fonda, Jane Fonda's Workout Book (1981)

وجد الأمريكيون أنفسهم فجأة يؤدون التمرينات الرياضية بأعداد ضخمة، ويفقدون الوزن، ويكتسبون احترام النفس. وقد بدأ كتاب جين فوندا وأشرطة الفيديو التى تلته ثورة فى مجال ممارسة التمرينات استمرت على خطى جاك لا لان، المعلم الروحى للياقة البدنية، الذى جذبت عروضه التليفزيونية فى الخمسينيات والستينيات جمهورًا ضخمًا.

توماس جى بيترز وروبرت اتش ووترمان جونيور، فى البحث عن الامتياز : دروس من أحسن الشركات إدارة (1982)

Thomas J. Peters and Robert H. Waterman Jr., In Search of Excellence: Lessons from America's Best-Run Companies (1982)

يبحث هذا العمل الأحسن مبيعًا فن الإدارة، ناظرًا عن كثب فى ثلاثة وأربعين من الشركات الأمريكية القيادية، حقق كل منها سجلًا متفوقًا من الربحية فى الأجل الطويل. وقد كان للفكرة الأساسية فى هذه الدراسة تأثيرها الكبير داخل أوساط الشركات الكبرى لما يربو على عقدين.

ستيفن آر كوفاى 7 عادات للناس ذو الكفاءة العالية (1989)

Stephen R. Covay, The 7 Habits of Highly Effective People (1989)

لم يأسر كتاب مثل هذا منذ كتاب ديل كارنيجى الناس الذين يقرأون كتب الاعتماد على النفس. وتوفر سمات الشخصية العامة للسلوك الأخلاقى «بوصلة صادقة» من الخبرة بالنسبة لكوفاى وأتباعه. وقد تم بيع ما يزيد على خمسة عشرة مليون نسخة، وترجم الكتاب إلى ما يربو على ثمانية وثلاثين لغة.

بيل ماكبن، نهاية الطبيعة (1989)

Bill Mckibben, The End of Nature (1989)

كان هذا هو العمل الرئيسى الأول الذى كتب للجمهور العام عن موضوع تغير المناخ وما يعنيه. وقد حرك العمل الذى نشر مسلسلًا فى صحيفة النيو يوركر حركة اكتسبت زخمًا مع كل سنة تمر. ولايزال ماكبن صوتًا مهمًا فى حركة البيئة.

صمويل بى هانتجتون صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمى (1996)

Samuel P. Huntington, The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order (1996)

توسع هذا الكتاب الذى نبع من مقال نشر أصلًا فى مجلة شئون خارجية (1993) فى رؤى هانتجتون المتبصرة، فقد رأى خطوطًا فاصلة تتزايد بين الإسلام والمسيحية، وتبنأ بفترة من النزاع المحتدم. ورغم أنه كان يؤمن بأنه على الغرب أن يكون صداميًا أحيانًا، فقد دعا فى النهاية إلى التسامح والتعاون. وقد استلهم كثيرون من مخططى حرب العراق هذا العمل.

ريك وراين، الحياة التى يحركها غرض (2002)

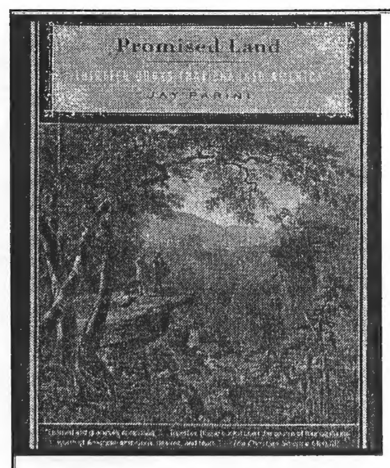
Rick Warren, The Purpose - Driven Life (2002)

أضاف كتاب التعبّد هذا الذى طبع منه ثلاثين مليون نسخة ولايزال يطبع، انعطافة جديدة للمسيحية الإنجيلية، مهاجمًا ما أسماه وارن «جبابرة جالوت العالميين» الخمسة الخواء الروحى، القادة المغرورين، الفقر، المرض، الأمية.

آل جور، حقيقة مزعجة (2006)

Al Gore: An Inconvenient Truth (2006)

جمع كتاب جور الأفضل مبيعًا (الذى أصبح فيلمًا وثائقيًا حظى بالشعبية) البحوث من علماء القمة، مع فيض من الأشكال البيانية والخرائط، لإيقاظ العالم على حقيقة الاحترار العالمى. إذ يعتبر جور الاحترار العالمى مشكلة أخلاقية مثلما هى مشكلة علمية وسياسية. وقد ركز كتابه وفيلمه اهتمام العالم على هذا الموضوع، مقدمًا دفعة أساسية لحملة إنقاذ كوكب الأرض. وقد حصل على جائزة نوبل على جهوده، وحصل أيضًا على جائزة أكاديمية.



CONTENTS